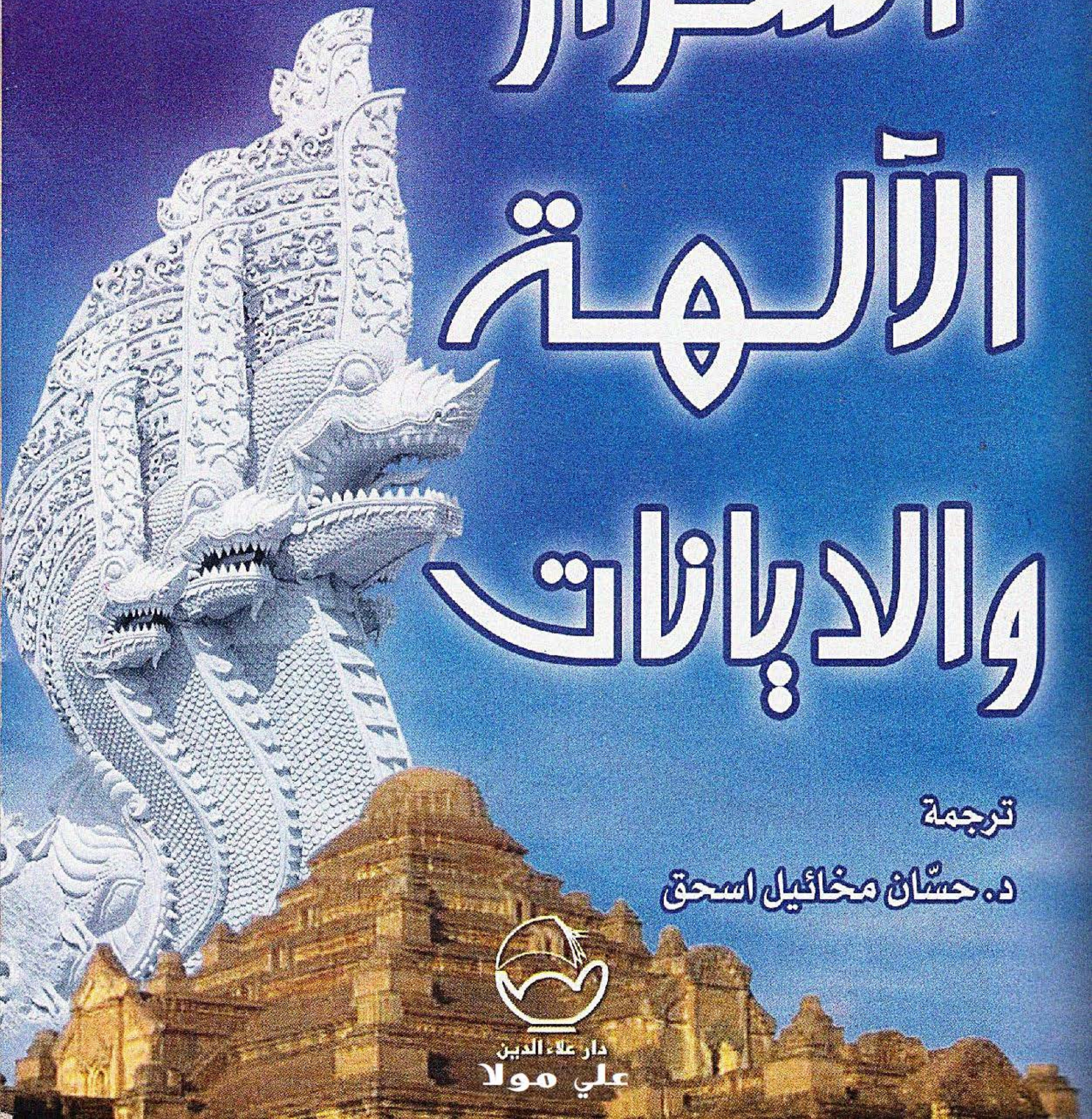
أ. س. ميغوليفسكي

أسرار الآلهة والديانات





ترجمة

د. حسّان مخائيل اسحق

دار علاء الدين

علي مولا

أسرار

الآلهة و الديانات

أ. س. ميغوليفسكي

أسرار الآلهة و الديانات

ترجمة
د. حسّان مخائيل اسحق

منشورات دار علاء الدين

- **أسرار الآلهة والديانات.**
- تأليف: **أ. س. ميغوليفسكي.**
- ترجمة: **د. حسّان مخائيل اسحق.**
- الطبعة الرابعة ٢٠٠٩.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**
  - الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيليلينكو.**
  - المتابعة الفنية والإخراج: **أُسامة راشد رحمـــة.**
  - التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
  - الغلاف: **م. محمد طه.**

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

لقد أراد النَّاس دوماً أنْ يعرفوا مَنْ صنع هذا العالم؟ مَن الذي يدير شؤونه؟ وبمَنْ يرتبط مصيره؟ لقد أحسَّ النَّاس دوماً بأنَّه ثمَّة كائن أعلى. وكانت التَّصوُّرات عن هذا الكائن تختلف بين شعب وآخر وقبيلة وأُخرى. كما أنَّها اختلفت من زمن لآخر. لقد خطا الإنسان بالتَّدرُّج خطوة خطوة على الطَّريق التي كانت تقرِّبه إلى الحقيقة، وتقوده إلى فهم بنية العالم الذي يعيش فيه فهماً صحيحاً، وإدراك حقيقة خالق هذا الكون والمكانة التي يشغلها فيه. ولكنَّ الإنسان لم يُعطَ إمكانية فهم كل شيء حتى النِّهاية. وليس الأمر المهمَّ في هذا عينه، بل في أيِّ طريق يسلك وإلى أين تقوده تلك الطَّريق. أَإلى عالم الخير وحبِّ القريب، والتَّعاون والتَّسامح؟

لقد سار الإنسان دوماً على هذه الطريق. ومن حيث الجوهر كانت مساعيه ومُثُله متشابهة جداً في مختلف العصور. فكان مُتعطِّشاً إلى العدالة ومؤمناً بأنَّ العالم قائم عليها وأنَّها لا بدَّ أنْ تسود في آخر المطاف. وإذا لم يحدث هذا في هذا العالم، في هذه الدُّنيا، فإنَّه لا بدَّ أنْ يحدث في الآخرة، في العالم الآخر. فالإيمان بالعدالة والسَّعي لتحقيقها أمران متأصِّلان في الإنسان، يعيشان فيه ويعيش فيهما.

وليس ثمَّة أي تباين جوهري بين مختلف الدِّيانات الحقَّة (إذا لم نأخذ بالشَّكليَّات التي غالباً ما يعطيها المؤمنون أهمِّيَّة بالغة). ولكي نتحقَّق من هذا ينبغي أنْ نغوص إلى أعماق جوهر الدِّيانات. وهذا ما سعينا إليه في هذا الكتاب. ومن يقرؤه يُدرك أنَّ طريقنا سواء كنا مسيحيِّين، أو مسلمين، أو بوذيِّين أو...، طريق واحدة، فكلنا يرغب في أنْ يعيش في عالم الخير والمحبَّة. وسوف ندرك أنَّ محبَّة الإله هي محبَّة القريب. «أحبب قريبك كما تحب نفسك».

الباب الأول

الديانات القديمة

مكنونات حكمة مصر

تُعدُّ الحضارة المصريَّة أقدم الحضارات المعروفة لنا (على ذمَّة المؤلِّفين.م.)، فمنذ الألف العاشر ق.م. في أقلِّ تقدير كانت هذه الحضارة قد قامت. وكان أفلاطون الذي عاش في القرنين ٥-٤ق.م. قد رأى أنَّ حكمة الكهنة المصريين تستمدُّ جذورها من ديانات أطلنطس. ونحن كنَّا قد درسنا المعطيات المتوفِّرة عن الكارثة الكونية التي أودت بحضارة أطلنطس العظيمة، في كتابنا الآخر الذي يحمل العنوان: «ثقوب الأوزون وهلاك البشريَّة؟» (دار فيتشي، ١٩٩٨م). كما تحدَّثت عن هذا أيضاً التَّعاليم الباطنيَّة التي عرفتها القرسطوية الأوروبيَّة. وقد دعي كهنة مصر في تلك التَّعاليم: خزنة حكمة الأطلنطيين. وفي القرن ٥ق.م. رأى هيرودوت أنَّ المصريين «كانوا أوَّل مَنْ بنى المذابح، والتَّماثيل والمعابد للآلهة».

لقد جاء المصريون إلى أرض وادي النِّيل الخصبة المعطاءة، من إقليم الصحراء، بعد أنْ تحوَّل مناخ هذا الأخير إلى مناخ جافٍّ قائظ والتهم التَّصحُّر غاباته ومراعيه ومروجه. وقبلئذٍ لم يكن وادي النِّيل أرضاً صالحة للعيش، فمستوى الرُّطوبة كان عالياً جداً هنا، وليس خافياً ما لهذا من تأثير مدمِّر على صحَّة الإنسان. وقد أطلق الباحثون على الشُّعُوب التي جاءت وادي النِّيل اسماً واحداً، هو الحاميُّون. وهو الاسم الجمعي الذي أُطلق على كل قبائل العرق الأبيض في شمال - شرقي أفريقيا، أي على السُّكَّان الأصليين لهذا الإقليم. وما عدا هؤلاء جاء إلى الإقليم أيضاً أسلاف السَّاميين. وقد تخالط العرقان وشكلا معاً عرقاً واحداً بات يتحدَّث لغة واحدة. وفي أقصى جنوبي مصر التقى الوافدون إلى هنا من إقليم الصَّحاري، قبائل الزُّنوج من سكَّان الإقليم الأصليين وتخالطوا معهم. ولكنَّ الوافدين حافظوا على لغتهم وشكلهم الخارجي.

لقد كان هؤلاء أُناساً ذوي بنية قويَّة، وبشرة سمراء، وشعر أسود مسترسل، وعيون لوزيَّة التكوين. ومهما كان الأمر، فهكذا وصفتهم لنا المصادر التي تنتمي إلى الألف ٦ق.م.. وتقع الصحراء إلى الغرب من مصر. وثمَّة إشارات تنوِّه إلى أنَّ أسلاف المصريين جاؤوا من هناك تحديداً. بيد أنَّ المصادر الأقدم تشير إلى أنَّ أسلاف المصريين جاؤوا من بلاد الهيبربوريين

الشَّمالية التي تقع في مملكة الجليد الأزليَّة والظَّلام الذي يدوم نصف العام. وما يثير الفضول أنَّ «أرض النَّعيم» هذه تُذكر بصفتها الوطن الأمُّ لكثير من الشعوب، بمن فيهم الآريين الذين استوطنوا الهند.

ونحن لا نعرف إلاَّ قليلاً جداً عن تاريخ مصر وديانتها الأقدمين. وما نعرفه لا يكفي لرسم لوحة متماثلة لحياة هذا الشَّعب القديم ومعتقداته الدِّينيَّة. ويحاول العُلماء وضع مثل هذه اللَّوحة ابتداء من النصف الأوَّل من الألف ٣ق.م. فعندئذٍ يبدأ وفق مصطلحاتهم عصر المملكة القديمة. ويبدو أنَّه لدينا عن ذلك الزَّمن ما يكفي من المعطيات لنرسم لأنفسنا تصوُّراً عن ديانة المصريين وآلهتهم. فقد تشكلت وقتئذٍ من كثرة الإمارات المصريَّة مملكتان قويَّتان، هما مملكة مصر العليا ومملكة مصر السفلى. وفي أوائل الألف ٣ق.م. تقريباً اتَّحدت المملكتان في مملكة مركزيَّة واحدة جبَّارة. وعليه يمكننا أن نتحدَّث ابتداء من ذلك الوقت عن ديانة مصريَّة موحَّدة واحدة. فقد عرفت المملكة القديمة عصر ازدهار تلاه طور انهيار. وأطلق الباحثون على طور الانهيار هذا (أواخر الألف ٣- أوائل الألف ٢ق.م.) اسم المملكة الوسطى. ثمَّ حلَّ بعد طور الانهيار طور ازدهار جديد. إنَّه عصر المملكة الحديثة الذي امتدَّ حتى أواسط الألف الأوَّل ق.م.

وعلى امتداد هذا التَّاريخ الطويل كله كانت مصر تقع بين وقت وآخر صريعة بين يديِّ أعدائها. ففي القرن ٤ق.م. باتت مصر جزءاً من إمبراطوريَّة الإسكندر المقدوني، ثمَّ احتلَّها الرُّومان في القرن الأوَّل ق.م. لكنَّ هذا كله لم يفضِ إلى حدوث تبدُّلات جوهريَّة في الديانة المصرية. ولم تتبدّل هذه الأخيرة، أو بمعنى أدق لم تندثر الدِّيانة المصريَّة إلاَّ مع انتشار المسيحيَّة في حوض البحر المتوسِّط كله، وإقليم الشَّرق الأدنى. فمنذ ذلك الوقت فقدت الدِّيانة المصريَّة ريادتها في حياة المجتمع المصري. بيد أنَّ هذا لا يعني أنَّها اندثرت دون أثر. فثمَّة تيَّارات صوفيَّة مختلفة في اليهوديَّة والمسيحيَّة جمّت كثيراً من الرُّموز والشَّخصيَّات المصريَّة. فالرَّمزيَّة المصريَّة تتبدَّى بوضوح في القبَّالية (= تعاليم صوفيَّة يهوديَّة)، والطُّقوس الماسونيَّة، وخرافات الأخويات الرُّوحيَّة الأوروبيَّة في القرون الوسطى.

وكما عند كثير من الشُّعوب كذلك عند المصريين، كانت الشَّمس هي الإله الأعلى. وقد سجدوا لها، للإله النَّاري رع في عصور الممالك المصريَّة الثَّلاث. لقد كان رع إلهاً مصريّاً مشتركاً. وكان هناك آلهة آخرون أيضاً، لكنَّهم كانوا خاضعين لسلطة رع، وكانت الأدوار التي أدُّوها أدواراً تابعة. وربَّما أمكننا القول إنَّهم كانوا مجرَّد تجليَّات متنوِّعة للإله الواحد رع. وبناء عليه سنَّ الفرعون أمينحوتيب الرَّابع في أواسط الألف ٢ق.م. شريعة عبادة الإله

الواحد. وبات هذا الإله الواحد يدعى آتون (= قرص الشَّمس). وتبعاً لهذا بدَّل الفرعون اسمه، فبات يدعى أخناتون (أي الذي يحبِّذه الإله). وقد وقع ذلك الحدث في حوالي الوقت الذي بدأ فيه أبرام (= إبراهيم) يدعو قومه لعبادة الإله الواحد.

لقد كانت مدينة هليوبوليس (= مدينة الشَّمس)، هي مدينة الإله رع. ومن الواضح أنَّ التَّسمية تسمية إغريقيَّة. أمَّا الاسم المصري لهذه المدينة فهو بعلبك. لقد بنوا للإله آتون عاصمة جديدة دعوها أخيتاتون (= أُفق آتون). ولكنْ كما يحصل في التَّاريخ دوماً، فبعد وفاة الفرعون المصلح عاد كل شيء إلى ما كان عليه: واصلت مصر عبادة آلهتها القدامى، إذ كان كلهم يجسِّد الشَّمس أيضاً.

وتعجُّ الدِّيانة المصرية بكثرة كثيرة من الآلهة، لكنَّ عددهم هنا لا يُقارب عدد آلهة الدِّيانة الهندوسيَّة. وثمَّة عدد من هؤلاء الآلهة يشبه الإنسان: الإله الخالق بتاح، والإله آمين، وزوجته موت وابنهما خونسو، وإيزيس وأوزيريس، والإلهة حاثور إلهة الحبِّ والمرح. وإلى جانب الآلهة الذين يشبهون البشر، لدى المصريين أيضاً عدد من الآلهة المختلطة. وقد رسموا هؤلاء بجسد بشري ورأس واحد من الحيوانات. ونحن نوَّهنا قبل قليل إلى الإله بتاح الذي منحوه مظهراً بشريَّاً. لكنَّ زوجته الإلهة المقاتلة سخميت كان لها رأس لبوة. كما كانت لإله الحكمة توت رأس الطَّير أبي منجل، ولإله النُّور حورس رأس صقر، ولإله الماء سيبيك رأس تمساح، ولإله الخصب خنوم رأس كبش. وكان الإله الأعلى رع قد تجسَّد بدوره عدَّة مرَّات: مرَّة في صورة الشَّيخ آتوم، ومرَّة في صورة مومياء، ومرَّة في صورة جُعل. ولكي يتغلَّب على الثُّعبان أبوب اتَّخذ رع أيضاً صورة هرٍّ رمادي.

لقد عبد المصريون شتَّى أنواع الحيوانات، ولم يتجلَّ هذا فقط في منحهم آلهتهم رؤوس حيوانات. لكنَّه تجلَّى أيضاً في أنَّه كان للآلهة أنفسهم حيواناتهم المقدَّسة. وقد أطلق الباحثون على مثل هذه الدِّيانة اسم زوو-لاتريا، أي «السُّجود للحيوانات». لقد كانت للبقرة، والهرِّ، والكبش، والثَّور، وأبي منجل، والقرد الرَّبَّاح، والثَّعابين، والأسماك، و...، مكانة مرموقة جداً عند المصريين؛ وتحوَّل بعض منها إلى رمز وطني. بل لقد حنَّطوا بعضها كما كانوا يحنِّطون الفراعنة. وإذا ما قتل أحدهم الهرَّة: حيوان الإلهة باست المقدَّس، فقد كان يمكن أنْ يُحكم عليه بالإعدام.

ويندغم الدِّين عند المصريين بتصوُّرهم عن بنية العالم المحيط. فكيف تخيَّل المصريون هذا العالم؟ لقد كان هناك عدد من مثل هذه التَّصوُّرات (= المدارس). فحسب تعاليم المدرسة التي كانت ترتبط بمدينة هليوبوليس، أنَّه في البدء لم يكن سوى خراب المحيط نون. ولكنَّه حمل في

ذاته إمكانيَّة ظهور كل ما ظهر في الكون بعد ذلك. وقد سارت عمليَّة الخلق عندهم وفق التَّرتيب التَّالي. في الأوَّل ظهرت من ذلك المحيط الخرب الهضبة البدئيَّة. وكانت تلك الهضبة أو الجبل «حجر بن - بن» المشعُّ. ثمَّ ظهرت البيضة الكونيَّة (كما في الحوليَّات الصِّينيَّة)، التي خرج منها العالم والطَّير الشَّمسي فينيكس. وقد أوَّلَ العلماء هذا الطَّير بصفته الطَّاقة الخلاَّقة لإله الشَّمس. ولكنَّ إله الشَّمس لا يتجلَّى في هذه الطَّاقة فقط. إنَّه يتجلَّى في شمس الصَّباح المشرقة التي تترمَّز في الجُعل. وهو نفسه يتجلَّى في صورة الشَّمس الغارية. إنَّه آتوم. ويُعدُّ الشَّيخ المرهق رمزاً لأقنوم إله الشَّمس هذا. ويؤوَّل آتوم على أنَّه كل شيء ولا شيء، إنَّه إله الأزل. وينبغي أنْ يُفهم الأمر على الوجه الآتي. لقد كان آتوم موجوداً منذ البدء، عندما لم يكن ثمَّة شيء سوى الخراب (= الكاوس). وهو عينه سيبقى في المحيط الخرب عينه بعد أنْ يندثر كل شيء ويصل العالم إلى نهاية طريقه. لكنَّ آتوم يحمل في ذاته كل ما هو موجود. وهو نفسه الأزل.

وحسب تعاليم هذه المدرسة أنَّ الإله آتوم، إله الأزل خرج من المحيط البدئي. وقد رسموه في هيئة ثعبان مجنَّح. وخلق آتوم الإله شو والإلهة تفنوت فأنجب هذان غب ونوت. ثمَّ رفع إله الهواء إلهة السَّماء نوت فوقه. وبذا يكون قد فصل السَّماء عن الأرض (غب = إله الأرض). وأنجب الزَّوجان غب ونوت جيلاً جديداً من الآلهة: أوزيريس وايزيس، ونفطيس وست. وهكذا ظهر آلهة الإينادا المصريَّة التِّسعة. وكان هؤلاء هم الآلهة الرَّئيسين الذين عبدهم المصريون في كل مكان. ولكنَّ الإله رع نجح فيما بعد في إزاحة الإله آتوم، وقاد الإينادا (= التَّاسوعة) بنفسه.

وحسب تعاليم مدرسة هيرموبوليس أنَّ ثمانية آلهة ظهروا مرَّة واحدة في المحيط البدئي. وقد شكلوا منذ ظهورهم ثنائيَّات زوجية (إله - إلهة). وهؤلاء الآلهة هم بالذات الذين عكسوا مختلف ماهيَّات المحيط البدئي: نو ونينيت = البيئة المائيَّة، و كوك و كوكيت = الديجور، وخوخ وخوخيت = اللانهاية في المكان، وآمون وآمونيت = المكنون.

كما عرفت ممفيس عاصمة مصر القديمة مدرستها التي كانت لها تصوُّراتها الكوسموغونيَّة الخاصَّة. ووفق تلك الرُّؤى كان الإله بتاح هو الإله الرَّئيس. فهو الذي خلق الآلهة كلهم، وخلق كل ما هو موجود في الكون الآن. وقد صنع بتاح مخلوقاته كلها بقوَّة الكلمة والإرادة الخلاَّقة. وكانت هذه الإرادة قد وُلدت في قلبه. ولم يكن الآلهة الذين خلقهم بتاح سوى صفاته، وماهيَّاته، وخاصيَّاته. فكلمته الخلاَّقة هي الإله سيا، والقوَّة السِّحريَّة للكلمة هي الإله خيكا، و.... ومن الملائم أنْ نتذكَّر هنا بادئة إنجيل يوحنا التي جاء فيها:

﴿فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكلمَةُ وَالْكلمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكلمَةُ اللَّهَ.﴾

(يوحنا ١ : ١)

لقد نسب فراعنة مصر أنفسهم إلى الآلهة أنفسهم. وكان تأليه الفراعنة قد بدأ لحظة تشكلت الدَّولة المركزيَّة في مصر.

ومن الوجهة العمليَّة كانت الدِّيانات كلها تقريباً، بما فيها الدِّيانة المسيحيَّة تنطوي على شقَّين: ظاهري وباطني. ولم تكن التَّعاليم الباطنيَّة تُنقل إلاَّ شفهيّاً، وللمختارين المكرَّسين فقط. وفي مصر أيضاً كرَّسوا المختارين في أسرار الدِّين. ولم يكن ممكناً بغير هذه الأسرار (= المعارف) بلوغ أعماق الأسرار الإلهيَّة. وكان التَّكريس يلتزم التزاماً صارماً بالطَّقس. وقد أطلق الإغريق على هذا الطَّقس اسم ميستيريا (من الكلمة الإغريقيَّة «ميستيريون» ومعناها: المكنون). وثمَّة اعتقاد سائد بأنَّ الميستيريات المصريَّة كانت أولى الميستيريات التي عرفها التَّاريخ. وفي اليونان نفسها نزلت هذه الميستيريات على أخرى قديمة جداً كانت قد ظهرت منذ آلاف السنين.

وفيما يخصُّ الطُّقوس المصريَّة هذه، فقد ارتبطت بالإلهين الزَّوجين أوزيريس وإيزيس. لقد كان طقس التَّكريس يقضي بأنْ يعبر المكرَّس معاناة الموت. وقد نجح الباحثون المعاصرون في الكشف عن مغزى هذا الطَّقس. فجوهر الأمر يتلخَّص حسب رأيهم في الآتي: يرتبط وعينا الحقيقي مع وعينا الباطني بقناة للمعلومات تغلقها سدادة. ولذلك لا يستطيع الميت العادي أنْ يمنح معلومات من الوعي الباطني، لأنَّ هذه السدادة محكمة الإغلاق لديه إحكاماً جيِّداً. ولدى كل إنسان في وعيه الباطني معلومات عن كل ما هو موجود في هذا العالم، عن كل ما كان، وما هو موجود وما سوف يكون. لكنَّ هذه المعلومات محجوبة عن الإنسان العادي، وموصد عليها «خلف سبعة أبواب». ولكنْ إذا ما عانى الفرد معاناة الموت، وأحسَّ بالرُّعب والخطر الدَّاهم الذي يتهدَّد حياته، فإنَّه خلافاً لنا كلنا يغدو بصيراً يرى ما لا نستطيع أنْ نراه ويدرك ما لا نستطيع إدراكه. ويمكن القول في هذا السِّياق إنَّ الفرد يلقي في أثناء التَّكريس نظرة عبر المرآة فينفذ إلى العالم الآخر العصي علينا نحن البشر العاديين. ونحن كنَّا قد درسنا هذه المسائل كلها دراسة وافية في كتابينا: «الإله، الروح، الخلود» (دار إيكيز، ١٩٩٢م.)، و«أسرار العقل الكوني والوحي» (فيتشي، ١٩٩٧م.). ويشارك الآلهة أنفسهم في إقامة طقس التَّكريس، إذ يعبر هؤلاء أنفسهم معاناة حالة الموت. ومن هؤلاء الآلهة: المصريان أوزيريس وإيزيس. فأوزيريس لم يعبر هذه الشِّدَّة وحسب، بل عبر الموت عينه. لقد قطِّع ست جسد أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة، ونثرها في أرجاء مصر كلها. لكنَّ إيزيس زوجة أوزيريس المخلصة استطاعت أنْ تعثر على أجزاء جسد زوجها كلها وتجمع بعضها إلى بعض، ثمَّ غسلتها بدموعها. وفي صورة حمامة النِّيل بكت إيزيس زوجها الميت. وفي حالة الموت

هـذه حقـق أوزيـس اتـصالاً زوجيـاً مـع إيـزيس، فأنجبـت هـذه ابنهمـا حـورس الـذي هـزم سـت. وهـكذا انتهى كل شيء على خير ما يرام واكتملت الدَّائرة: عبر الإله أوزيريس حلقات الموت كلها وعاد إلى الحياة. وقد كان على المكرَّس أن يعبر هذه الطَّريق (لو رمزيًّا). ونحن اقتبسنا ما وصفناه هنا عن كتاب المؤلِّف الإغريقي القديم بلوتارخ «عن إيزيس وأوزيريس» (القرنـان ١-٢م.). ولكنَّ بلوتارخ لم يتجاسر على وصف تفاصيل طقس التَّكريس كلها. فقد كانت تلك أسراراً باطنيَّة مقدَّسة، ولم يكن بمقدور بلوتارخ أنْ ينتهك حرمتها. كما وصف هيرودوت بدوره طقوس التَّكريس المصريَّة. لكنَّ وصفه جاء مقتضباً أيضاً، بل لم يورد الكاتب حتى اسم الإله الذي كان الطَّقس مكرَّساً له. وهكذا ضاع كثير من شعائر الطَّقس بغير أثر. ولم يبقَ من حيث الجوهر سوى قلَّة قليلة. فيعتقدون مثلاً أنَّ جزءاً مهمَّاً من شعائر طقس التَّكريس كان يؤدَّى في المعبد. وكان ينبغي أنْ يشارك الإله أوزيريس (يؤدِّي الدَّور الرَّئيس) نفسه في إقامة الطَّقس. وقد شكلوه من عجينة تربة خصبة قبل وقت من موعد إقامة الطَّقس. وكان الشَّكل يُروى بالماء، وفي وقت محدَّد ينبت منه نبات أخضر، الأمر الذي كان يرمز إلى انتصار الحياة على الموت (من جسد أوزيريس الميت انبثقت الحياة).

لقد كانت هذه المسرحيَّات الدينيَّة تستمرُّ أكثر من يوم. وكان «عوم أوزيريس» واحدا من مشاهد العرض. وكان هذا يجري في تشرين الأوَّل - تشرين الثَّاني، أي وقت فيضان النِّيل. ففي ليلة بعينها من طور ذروة الفيضان، كانوا يحملون مومياء أوزيريس في النَّعش. وكان يشارك في الموكب أربعة وثلاثون طوفاً. فيُبحر الموكب في البحيرة المقدَّسة مضاء بثلاث مائة وخمسة وستين مشعلاً (وهو عدد أيَّام السَّنة). وفي اليوم التَّالي تؤدَّى مشاهد ندب إيزيس وأُختها نفطيس ونواحهما على جثمان أوزيريس. وعند فجر اليوم التَّالي كان يبدأ ذلك القسم من العيد الذي يجب أنْ يشارك فيه إلى جانب المكرَّسين الجدد، المواطنون كلهم. فيحملون تمثال أوزيريس من المعبد على وقع إنشاد الأناشيد الدِّينيَّة، ويلفُّ الموكب دخان المباخر، بينما هذا يدور حول المعبد. بعدئذ يتوجَّه الموكب إلى ضريح أوزيريس. ثمَّ يعود المشاركون في الموكب وهم يهللون.

وكان الكاتب الرُّوماني أبوليوس قد وصف في القرن ٢م. هذه المواكب وصفاً دقيقاً في كتابه: «التَّحوُّلات». لقد ساق أبوليوس كثرة من شتَّى التَّفاصيل، لكنَّ السُّؤال الأهمُّ بالنِّسبة إلينا هو: ما المغزى العميق لتلك المواكب؟ فليس واضحاً لنا سوى أمر واحد: مَنْ كان يشارك في تلك المواكب ملتزماً قواعد المشاركة كلها، يمكنه أنْ يأمل بإقامة طيِّبة في العالم الآخر. يستطيع أنْ ينتظر قيامته من الأموات. ولكنَّ لوسيوس، بطل أبوليوس، لم

يتحدَّث عن هذا بوضوح كافٍ. فقد كتب أبوليوس يقول بلسان بطله هذا: «لقد بلغت تخوم الموت، وتجاوزت عتبة بروزربينا (= إلهة مملكة العالم الآخر عند الرومان)، ثمَّ عدتُ أدراجي مروراً بالبيئات كلها. وفي منتصف اللَّيل رأيت الشَّمس ساطعة، ومثلت في حضرة آلهة العالم السُّفلي وآلهة السَّماء، وسجدت لهم عن قرب». ويبدو أنَّ جوهر الأمر يتلخَّص هنا في بلوغ حالة خاصَّة من الوعي يغدو الإنسان فيها مؤهلاً لتلقي معلومات من الوعي الباطني، وقادراً على النفاذ ببصيرته إلى جوهر الأشياء. وهذا ما يمارسه الشامانات على وجه التَّحديد. فيدفع هؤلاء بأنفسهم إلى حالة خاصَّة من الوعي، ويجولون العالم الآخر ثمَّ يعودون أدراجهم. ومن الواضح أنَّه ليس الكل قادراً على فعل هذا. فإجراءات التَّكريس الشَّامانيَّة تأخذ بالحسبان تأدية حركات وأفعال تقود المرشَّح لدخول عالم الشَّامانات، إلى حالة النَّشوة الرُّوحيَّة. وتكون نتيجة ذلك أنَّ الشَّخص المعني يكتسب لدى بلوغه التُّخوم بين الحياة والموت صفات، ماهيَّات، وخاصيَّات جديدة. فيغدو مؤهَّلاً لرؤية المستقبل، والنَّفاذ ببصيرته إلى دائرة ما لا يُرى (كأنْ يرى الشَّمس ساطعة في منتصف اللَّيل مثلاً)، و....

لقد كانت الحكمة الواردة في «كتاب الموتى» المصري معدَّة للفراعنة فقط. ومن المعروف أنَّ هذا الكتاب ينتمي إلى زمن المملكة القديمة. ولكنَّ الأمر تغيَّر بعد مضيِّ ألف عام، إذ صارت الحكمة تدرَّس للكثيرين. فمن كان يمتلك تلك المعارف المكنونة كان له حظٌّ بأنْ يقوم من الأموات ويشغل مكانة مرموقة في العالم الآخر. وكانت خطَّة الطَّقس قد رُسمت جزئيَّاً. فالإله أوزيريس مات وبُعث. هذا ما ينبغي أنْ يفعله كل مشارك في الطَّقس. لقد كان يجب على الشَّخص المعني أنْ يسخِّر قوَّة إرادته ومخيِّلته لكي يحقِّق اندغامه بأوزيريس ويعبر معه فكريَّاً وشعوريَّاً كل تلك الدَّائرة: من الحياة إلى الموت، ثمَّ من الموت إلى الحياة من جديد. ولكنَّ الأمر لا يقتصر على هذا فقط. فلم يكن على المشارك في الطَّقس أنْ يدغم ذاته بأوزيريس الميت ثمَّ بأوزيريس القائم من الموت وحسب؛ وإنَّما كان يجب عليه أنْ يندغم أيضاً بإله الشَّمس رع - آتوم (أو بآمون - رع). لقد كان عليه أنْ يصعد معه إلى قاربه اللَّيلي ويغرق في مملكة الأموات حتى يبلغ الحضيض.

أمَّا فيما يتعلَّق بالعالم الآخر، فثمَّة وصف دقيق له في «كتاب الموتى» المصري. ومنطق الأشياء هنا هو التَّالي: عندما ينجح الإنسان الحيُّ في الوصول إلى عالم الأموات، فإنَّه يستوعب معايير السلوك هناك وأصوله، وهذا ما يجعله مؤهَّلاً بعد أنْ يموت فعلاً ويغدو في مملكة الأموات، لأنْ يُبعث من جديد فيه. فكل شيء في العالم الآخر له أهمِّيَّته الملحَّة بالنِّسبة إليه: إلى أين يجب أنْ يمضي، وكيف ينبغي عليه أنْ يجيب على الأسئلة التي تُطرح

عليه، وكيف يعزف عن الإغراءات والغواية، و.... وتجدر الإشارة في هذا السِّياق إلى أنّه لدى التيبتيين «كتاب الموتى» أيضاً، وأنَّ الحديث فيه يجري عن الأشياء عينها تقريباً.

يصف «كتاب الموتى» العالم الآخر والتَّجوُّل في أرجائه وصفاً دقيقاً. ففيه رسم للمراحل الاثنتي عشرة للطَّريق اللَّيليَّة التي يقطعها قارب إله الشَّمس اللَّيليّ. وهذه الطَّريق يعبرها أيضاً كل مَنْ يشارك في تأدية الطَّقس، لأنَّه يندغم بإله الشَّمس. وحسب الوصف أنَّ السَّاعات - المراحل الرَّمزيَّة الثَّلاث الأولى من الرحلة تمرُّ بسلام وبغير أيِّ مغامرات. فنهر العالم الآخر هادئ ساكن. وهو نهر النِّيل طبعاً. ولهذا النَّهر فرعان من المحيط البدئي الأزلي: فرع في السَّماء وآخر في العالم السُّفلي. وتستقبل أرواح الأموات قارب إله الشَّمس على ضفَّتي هذا النَّهر بفرح كبير. فإله الشَّمس هذا ينير دياجير مستقرِّ الأموات. ولكنَّ حالة النَّعيم هذه لا تطور كثيراً؛ لأنَّ حركة مياه النَّهر تندفع ومعها قارب إله الشَّمس، نحو المنعطف الحاد الذي يؤدِّي إلى أعماق الحضيض. ورويداً رويداً تنضب مياه النَّهر التي يستقرُّ فوقها قارب إله الشَّمس. ولكنَّ الإله هو الإله في آخر الأمر: بتأثير من مفاتنه السِّحريَّة يزحف القارب على الرَّمل، فيبلغ عمق الأعماق في السَّاعات (الرَّمزيَّة) المتبقية. وهناك في عمق الأعماق يقوم المعبد المكنون. وهذا الأخير عبارة عن مجال مقدَّس يرتبط «بالحجر بن بن»، أي «بالهضبة البدئيَّة». وهذه الهضبة هي الهضبة عينها التي وضعت بداية خلق العالم كله. وهنا في هذا المعبد المكنون عينه يجدِّد إله الشَّمس قدراته الخلاَّقة. وعند السَّاعة الرَّمزيَّة السَّادسة من رحلته اليوميَّة إلى العالم الآخر، يتَّحد إله الشَّمس رع - آتوم مع موميائه في «مرقد أوزيريس». وهنا بالضَّبط يتلقَّى المشارك في طقس التَّكريس الإمكانات التي تؤهلّه ليتغلَّب في المستقبل على خصوم الشَّمس كلهم، ويُعدُّ الثُّعبان آبوب واحداً من أعتى خصوم إله الشَّمس. إنَّه رمز الزَّمن. وفي آخر رحلته عبر العالم الآخر، يتلقَّى المكرَّس فرصته ليُبعث لحظة انبلاج الفجر في أقنوم خيبْري، أي الشَّمس المشرقة. وقد أشرنا سابقاً إلى أنَّ الجُعل كان عندهم رمز الشَّمس المشرقة خيبْري. إنَّه رمز البعث والتَّجدُّد. وكان الطَّير فينيكس هو الذي يمثِّل هذا الرَّمز عند الإغريق. ومن المعروف أنَّ فينيكس كان يحرق نفسه ثمَّ ينهض من الرَّماد.

ويصف الكتاب طريق المكرَّس التي يقطعها برفقة إله الشَّمس. ولكنَّ كل ميِّت يقطع الطريق عينها. وتبعاً لإعداده وسلوكه يتقرَّر ما إذا كان سيبعث أم لا من الأموات عند نهاية السَّاعة الثَّانية عشرة من رحلته عبر العالم الآخر. ونحن كنَّا قد تحدَّثنا عن رحلة مماثلة يقوم بها الشَّامان إلى العالم الآخر. وقد عرفت ديانات أخرى طقوس التَّكريس أيضاً. فعند الشُّعوب كلها تقريباً كان طقس التَّكريس يتألَّف من ثلاثة مستويات. لكنَّ طقس

التَّكريس كان يتألَّف في ثقافات إيران، ووادي الرَّافدين، وأمريكا من سبعة مستويات. وعرفت الأسرار الشَّامانيَّة في سيبيريا، وآسيا الوسطى، و«السيمياء الباطنيَّة» الدَّاوسيَّة في الصين تنويعة لطقس التَّكريس تتألَّف من تسعة مستويات. لكنَّ وصف تنويعة طقس التَّكريس المؤلَّف من اثني عشر مستوى، هي التَّنويعة الأكثر قدماً بين التَّنويعات كلها.

ولأنَّ الحديث يدور حول قيامة الإنسان من الأموات، فإنَّه من المهمِّ أنْ نبيِّن ما الذي يموت إذن وما الذي يُبعث. فقد اعتقد المصريون القدماء أنَّ الإنسان يتكوَّن من ستَّة أو حتى من عشرة أجسام (= أغلفة جسديَّة). وعندما يقع الموت العضوي ويموت الجسد الفيزيولوجي، تختلُّ وحدة عمل الأعضاء التي يتكوَّن منها الإنسان. ولكنَّ استعادة تلك الوحدة أمر ممكن. فهي تتحقَّق من جديد حينما يتَّحد إله الشَّمس مع مومياله. ويتكوَّن الإنسان حسب المصريين القدماء من الجسد الفيزيولوجي، والصُّنوِّ «كا»، والنَّفس «با»، والقلب (يُعدُّ الجُعل تعويذة القلب)، والظِّل، والإرادة، والاسم، والرُّوح المشرقة و.... وتكثر الإشارة عندهم إلى الصُّنوِّ والنَّفس. وصنوُّ الإنسان رفيق غير مرئي. فهو يولد مع الشَّخص ويبقى نقيَّاً طاهراً على امتداد حياة الشَّخص المعني كلها. إنَّه ملاكه الحارس. وعندما يموت الجسد الفيزيولوجي فإنَّه ينبغي تحنيطه. فللتحنيط أهمِّيَّة مبدئيَّة في هذا الميدان. ولضمان تأمين ضروريَّات عيش الصُّنوِّ فُرضت التَّقدُّمات من مأكولات ومشروبات. ويستطيع الصُّنوُّ أنْ يخرج من القبر بفضل النُّصوص السِّحريَّة التي تُنقش على جدرانه. ولكنْ كان يمكن تدوين مثل هذه النُّصوص على رقاق البردى أيضاً ووضعها في النَّاووس. وإذا ما تعرَّض القبر أو المومياء لأيِّ أذى فإنَّ ذلك يسبب آلاماً مضنية للصُّنوِّ. وينزل العقاب الإلهي صارماً بمن يؤذي قبر الميت أو مومياله. ولا يقتصر وجود الصُّنوِّ على البشر، بل للآلهة صنوُّها أيضاً. وثمَّة لبعض الآلهة أكثر من صنوٍّ. فللإله رع مثلاً أربعة عشر صنوَّاً. وللفرعون أيضاً أكثر من صنوٍّ واحد، فالفرعون إنسان وإله في الآن عينه.

لقد رسم المصريون النَّفس في صورة طير له رأس بشريَّة. ولا ترتبط النَّفس بالقبر ارتباطاً وثيقاً كارتباط الصُّنوِّ به. فهي تتركه وتمضي إلى حيث تشاء. وفي «محكمة أوزيريس الآخرويَّة» أنَّ النَّفس هي التي تقدِّم الحساب عن أعمال الإنسان طول حياته الزَّمنيَّة كلها. وكان «كتاب الموتى» قد ساق لنا وصفاً دقيقاً لمحكمة أوزيريس هذه. وتبدو إجراءات المحاكمة فيها على الصورة التَّالية: يوضع قلب الإنسان المتَّهم في إحدى كفَّتي الميزان الإلهي، ويوضع تمثال إلهة الحقيقة معات في الكفَّة الأخرى. وبذا يتحقَّق وزن النَّفس والكشف عن الآثمين. وثمَّة في قاعة المحكمة عينها وحش يفترس هؤلاء. إنَّه الموت النِّهائي. أمَّا الصالحون

فإنَّ مصيراً مغايراً ينتظرهم. فيمضي هؤلاء إلى حقول الغبطة، حقول إيالو. وهناك يستمتعون بروعة العمل الزِّراعي والعيش بسلام.

ومن المعروف أنَّ موقف المصريين من الموت اتَّسم بالسَّكينة والاطمئنان. أمَّا الهندوس فإنَّ ما يقلقهم دوماً هو التَّقمُّص في كائن رديء، ولذلك يبذلون كل جهد ممكن لقطع سلسلة التَّقمُّص المتواصلة. لقد وضع المصريون لأنفسهم هدفاً أكثر سموّاً، هدفاً لم يكن سامياً وحسب، بل كان هدفاً أعظم، هدفاً صوفيّاً. وقد تلخَّص في تحقيق الانتصار على سلطة الزَّمن وعبور الطَّريق رجوعاً من الشَّيخوخة إلى الطُّفولة، وبعث قوَّتهم الخلاَّقة تحت جناحي طائر الفينيكس. والخاتمة الأخيرة لهذا الهدف هي الانبعاث في الأزل على صفحة السَّماء المشرقة صباحاً! ولا وجود هنا لتلك القيود والآلام التي لا تنتهي والتي كبَّل الهندوس أنفسهم بها. فكل شيء هنا رائع ونبيل، وكل شيء هنا ملهم يظهر قوَّة الرُّوح ويضاعف شدَّة العزيمة وقوَّة الإرادة. لم يضن المصريون أنفسهم بأفكار تقول إنَّه ينبغي عليهم أنْ يتألَّموا مئات وآلاف الأجيال المقبلة. لقد أحبَّ هؤلاء الحياة حبّاً جمّاً واستخسروا هدرها عبثاً. ولكنَّهم أمضوا عشرات السِّنين فرحين بإعداد أنفسهم للإبحار الباطني في الأزل. فاجتيازهم طقس التَّكريس، وبناؤهم للأضرحة والمعابد - المدافن لم يمنعاهم من الاستمتاع بالحياة، لقد كان المصريون على قناعة راسخة بأنَّهم سوف يُبعثون ويعيشون إلى الأبد حياة يمارسون فيها العمل الزِّراعي النَّبيل. إنَّه لأمر رائع حقّاً! ففي الألف ٣ ق.م. كتب المصريُّ يقول: «إنَّ الموت بالنسبة إليَّ الآن كفَوْح الطِّيب، كرحلة تحت شراع عندما ريح مواتية. إنَّ الموت بالنِّسبة لي كعبير زهرة اللُّوتوس، كشاطئ بلاد الحبور».

لقد توافقت الخدمة الإلهيَّة توافقاً تامّاً في مصر مع الدَّورات الطبيعيَّة التي كانت حياة النَّاس تتعلَّق بها. وينسحب هذا أوَّل ما ينسحب على فيضان النِّيل. وكان الفكر الدِّيني لدى المصريين فكراً سامياً رفيعاً. فقد كان كهنتهم يقولون إنَّ الإلهة إيزيس التي تقيم في أعالي النِّيل، تتعاطف مع النَّاس الذين يضنيهم القيظ. ولذلك فهي تسكب دموعها المقدَّسة في النَّهر العظيم، فيفيض. وفي وقت الفيضان هذا يسطع نجم إيزيس في السَّماء عند الفجر: سوتيس (سيريوس). «تسطع سوتيس العظمى في السَّماء، فيخرج النِّيل من مجراه...». ونحن لا نقول جديداً إذا قلنا إنَّه ليس كلهم يدرك كم هو مهمٌّ في الحياة العمليَّة الحفاظ على الإيمان بالغاية الأسمى والعثور على مكان للشِّعر السامي.

لقد كانت صلوات المصريين مليئة بالشِّعر. وكانت الخدمة الإلهيَّة تقام كل يوم. وتبدو الصَّلاة الختامية للخدمة الإلهيَّة اليوميَّة، وفق ترجمة ك. بالمونت هكذا:

«ها هي الطَّهارة. تستبيح النَّهار المكنون، الذي صوَّرته الشَّمس، لربٍّ الكرنك، للشَّمسيِّ العظيم على عرشه. والفرعون هنا معك. إنَّه الحياة، والعافية، والقوَّة، والمتَّكأ، ملك الجنوب والشَّمال، الفرعون سيِّد كل حيٍّ في الزَّمان.

ها هي التَّقدمات معدَّة. خذها. إنَّها نقيَّة وحقَّة كلها. خذها أيُّها الإله الذي أحبَّ اللبان الفوَّاح».

لقد كانت هذه هي صلاة الفرعون التي كان يرفعها في معبد الكرنك إلى الإله آمون - رع في زمن المملكة الحديثة.

ولكنَّ أبوليوس أورد هذه الصَّلاة في كتابه «التَّحوُّلات» مرفوعة إلى الإلهة إيزيس.

«أيَّتها القدسية، منقذة الجنس البشري الأزليَّة، المدافعة دوماً عن البشر الفانين، أنت تعدِّين نفسك تاعسة وقت الرَّزايا أيَّتها الأمُّ الرَّؤوم! ليس ثمَّة نهار، ولا ليل، ولا حتى دقيقة قصيرة تمرُّ إلاَّ مكلوءة بعطاياك وأعمالك الطَّيِّبة: تجيرين النَّاس في البحر وعلى اليابسة، وفي زوابع الحياة تمدِّين بساط النَّجاة، وترمين شباك القدر الذي لا رادَّ له، وتهدِّئين حنق المصير، وتروِّضين شرَّ حركة الكواكب. يبجِّلك الآلهة العَلِيُّون، ويسجد لك آلهة الظِّلال السُّفليون؛ أنت تديرين حلقة العالم، وتشعلين الشَّمس، وتوجِّهين المعمورة، وتطئين تارتاروس.

تستجيب لندائك الكواكب، أنت ينبوع تعاقب الأزمنة، وفرح مَنْ يسكن السَّماء، وربَّة البيئات. بإيماءة منك تشتعل النِّيران، وتتكاثف الغيوم، وينبت الزَّرع، وتصعد الشُّروقات. قواك تخيف طيور السَّماء؛ والكواسر الشَّاردة في الجبال؛ والثَّعابين المختبئة تحت الأرض؛ والوحوش العائمة فوق الأمواج. ولكنَّني أمجِّدك طمعاً بالثَّواب، أنا فقير العقل...».

ونورد في ختام حديثنا هذا كلمة اعتذار وتبرير ساقها «كتاب الموتى» على لسان أحد الأموات:

لم أتسبَّب بأذى للبشر.
ولا بضرر للحيوانات.
لم أرتكب إثماً بدلاً من الحقيقة....
ولم آتِ بحماقة ....
لم أكفر....
ولم أرفع يديَّ على ضعيف....
ولم آتِ بسوء أمام الآلهة....
ولم أكن سبباً لعلَّة.
ولا سبباً للدموع.
لم أقتل.
ولم آمر بالقتل.
لم أتسبب لأحد بمعاناة.
ولم أنهب مخازن المعابد.
لم أُفسد خبز الآلهة.
ولم أستولِ على خبز الأموات.
أنا لم أنطق بالسُّوء يوماً....
وأنا لم أنتزع الحليب من أفواه الأطفال....
لم أصطد طير الآلهة.
ولا الأسماك من مصائدهم.
لم أوقف مسيل المياه في أوان مسيلها.
ولم أضع حاجزاً في طريق المياه الجارية.
لم أطفئ نار القربان ساعة تقديمه...
ولم أتسبَّب بعقبات للإله وقت ظهوره.
أنا نقيٌّ، أنا نقيٌّ، أنا نقيٌّ!

الفصل الثاني

سرّ آلهة وادي الرّافدين

تعدُّ حضارة وادي الرّافدين واحدة من أقدم الحضارات في التّاريخ. وقد قامت هذه الحضارة على الامتداد الجغرافي المتوضّع بين نهري دجلة والفرات. وفي أيّامنا هذه تقوم هناك دولة العراق. وأراضي وادي الرّافدين إقليم محصّن تحصيناً طبيعيّاً من جهاته الأربع. فمن الجنوب تحدُّها مياه الخليج العربي، ومن الشّرق جبال زاغروس، ومن الشّمال جبال أرمينيا، ومن الغرب البادية السوريّة. وقد توضّعت سومر في إقليم جنوبي وادي الرّافدين. وإلى الشّمال في الشّطر الأوسط من وادي الرّافدين قامت بلاد أكاد. وفي الألفين ٢-١ق.م. اتّحدت هذه مع سومر، وقامت مملكة بابل. وإلى الشّمال من بابل قامت آشور. ويرى بعضهم أنّ الجماعات البشريّة استوطنت إقليم وادي الرّافدين منذ أربعين ألف عام. ولكنّ الألف ١٠ق.م. عرف انفجاراً ديموغرافيّاً: لقد تضاعفت أعداد السُّكّان، وأخذ هؤلاء يتحوّلون إلى نمط العيش الحضري، فعملوا في الزّراعة وتربية الحيوانات.

ونحن لا نعرف إلاّ القليل عن تاريخ وادي الرّافدين قبل الألف ٤ق.م. فأوّل شبكة كبرى من قنوات الرّيّ التي جاءتنا أخبارها، بناها العُبيديون في النّصف الأوّل من الألف ٤ق.م. وفي الثُّلث الأخير من هذا الألف عينه، حلّت ثقافة أوروك محلّ ثقافة العُبيد. وكان السُّومريُّون هم بناة هذه الثّقافة. ولكنّنا لا نعرف عن هؤلاء إلاّ القليل أيضاً. فنحن لا نعرف من أين جاء هؤلاء إلى وادي الرّافدين، ولغتهم لا تشبه أيّ لغة من لغات الإقليم.

في أواسط الألف ٤ق.م. أخذت تظهر المدن في وادي الرّافدين. ولم يبنوا قبل هذا التّاريخ سوى القرى الصّغيرة وبعض المستوطنات. وحتى هذه كان بناؤها بدائيّاً جداً. فقد تألّفت مساكنهم من أخصاص مبنيّة من آجرٍ غير مشويٍّ، أي من طين مخلوط بالقشّ. ويرى الباحثون أنّ قرى الزرّاعين هذه ظهرت في وادي الرّافدين في حوالي الألف ٨-٧ق.م. وفجأة تغيّر كل شيء تغيُّراً جذريّاً وفي زمن قصيرة جداً. فنمت هناك مدن حقيقيّة تحيط بها أسوار جبّارة. وشيّدت فيها معابد رحبة ارتفعت على مدرّجات من الآجرّ، كما شيّدت فيها منشآت ضخمة أخرى. لكنّ العمل الزّراعي لم يخسر مكانته فيها. وبقي السُّكّان يزرعون الأراضي المحيطة

بمدنهم. لقد كان الفلاّحون يشكلون العدد الأكبر من سكّان مدن وادي الرّافدين. وكان لنظام الإدارة الذّاتيّة لتلك المدن فاعلية مهمّة في حياتها. فقد كان يقف على رأس تلك الإدارة الكاهن الأكبر لمعبد المدينة الرّئيس. وقد يشغل هذا المنصب أحياناً قائد القوّات الشّعبيّة. لقد كان يتبع المدينة إداريّاً، محيطها الزّراعي بقراه وسكّانه. وألّفت المدينة مع محيطها هذا دولة ذات استقلال تامٍّ. ولم يكن عدد المدن - الدُّول هذا قليلاً. ففي النّصف الأوّل من الألف ٣ق.م. بلغ عدد دول المدن في سومر نحو العشرين. وكانت علاقات بعضها مع بعض ذات طابع كلاسيكي: لقد كان العداء هو سيِّد الموقف في تلك العلاقات، فكل دولة مدينة كانت تسعى للاستيلاء على قطعة أرض أخرى، أو على قناة ريٍّ إضافيّة، أو لإظهار قوّتها وقدرتها على إغاظة جيرانها. والحقيقة أنَّ محاور الخلاف التّقليديّة المعروفة في تاريخ البشرية هي التي كانت تفعل فعلها هنا: الجشع، وحبُّ التّسلُّط، وقصر النّظر، والرّعونة. ولذلك كان كل شيء ينتهي إلى ما يمكن أنْ نتوقّعه: في أواخر القرن ٢٤ق.م. وقعت دول المدن تلك واحدة إثر الأخرى تحت سيطرة سرغون ملك أكاد. وقد امتدَّ حكم سرغون هذا من العام ٢٣٣٤ إلى العام ٢٢٧٩ق.م، وهكذا قامت دولة سومر وأكاد الموحَّدة. لكنَّها دالت ووقعت تحت سيطرة الخصوم في آخر الألف ٣ق.م. فقد هاجمها العيلاميون من الشّرق، والقبائل العمورية من الغرب عبر البادية السُّوريّة.

لقد استولى العمُّوريون على عدد من مدن السُّومريين، لكنَّهم سرعان ما ذابوا في السُّكّان المحلّيين وأخذوا عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم (اللُّغة الأكاديَّة). وكان حمورابي، وهو أشهر ملوك بابل وصاحب «قوانين حمورابي» الشّهيرة، كان من العمُّوريين. ويُعدُّ حمورابي الملك البابلي السّادس، وقد امتدَّ عهده بين العام ١٧٩٢ والعام ١٧٥٠ق.م. وكان هذا حاكماً فذّاً. فهو لم يكتفِ بوضع الأُسس القانونيَّة للدَّولة، بل أسَّس الدَّولة نفسها؛ ولم تقتصر حدود دولة حمورابي على مدينة بابل وضواحيها، وإنّما امتدَّت من شواطئ الخليج العربي حتى مدن مملكة ماري على الفرات، ونينوى على دجلة. لقد كانت مملكة حمورابي هي المملكة البابليَّة القديمة. لكنَّ هذه المملكة لم تستطع أنْ تحافظ على استقلالها طويلاً. ففي العام ١٥٩٥ق.م. وقعت بابل تحت سيطرة القبائل الكاشيَّة التي اجتاحت وادي الرّافدين آتية من جبال زاغروس. لقد حكم الكاشيُّون بابل حتى العام ١١٥٥ق.م. وانقسم وادي الرّافدين في ظلِّ حكم الملوك الكاشيين إلى شطرين: آشور (الشّطر الشّمالي)، وبابل (الشّطر الجنوبي). وقد استحكم العداء بينهما، وتواصلت الحروب بينهما طول ألف عام. وفي القرن ٨ق.م. نجحت آشور في نهاية المطاف في أنْ تُخضع بابل لسيطرتها. واستثمر الآشوريون انتصارهم ذاك

«بحكمة»: في العام ٦٨٩ق.م. سوّيت بابل بالأرض - تنفيذاً لأمر الملك الآشوري سنحريب. ولكنّ التّنبُّؤ بسير الأحداث التّاريخيَّة أمر صعب. فبابل نهضت من ركامها ثانية واستعادت استقلالها في العام ٦٢٦ق.م.؛ ثمّ سرعان ما نجحت في عقد تحالف مع الميديين مكّنها من إلحاق الهزيمة بالإمبراطوريّة الآشوريّة العظمى. وبعد سبعين عاماً سقطت المملكة البابليّة سقوطاً تاريخيّاً لم تقم لها بعده قائمة. فقد اجتاحتها جيوش الملك الفارسي قورش الثّاني. وفي العام ٣٣١ق.م. أطاح الإسكندر المقدوني بالإمبراطوريّة الفارسيَّة. ولم يمضِ أكثر من ثماني سنوات حتى توفّى الإسكندر في مدينة بابل إثر عودته من حملة الهند. وبعد وفاة الإسكندر مباشرة بدأ قادة قوّاته حروباً مديدة بينهم لانتزاع حقٍّ وراثة تركة القائد العظيم. وفي تلك الحروب آل حكم وادي الرّافدين إلى القائد المقدوني سلوقس. وامتدَّ حكم ورثته في دولة مدينة بابل مائتي عام. وفي العام ١٢٦ق.م. استولى البارثيون على بابل ومدن وادي الرّافدين الأخرى. وقد عاش وادي الرّافدين في عهدهم حقبة من الانهيار التّامّ شمل ميادين الحياة كلها. وفي القرن الميلادي الثّاني جعل الرُّومان من وادي الرّافدين مقاطعة تابعة لروما (لفترة وجيزة جداً: استولى عليه ترايان وانسحب منه خليفته هادريان. م.)

على امتداد آلاف السّنين عرف وادي الرّافدين شتّى ضروب المستعمرين الذين جاؤوا إلى هنا حاملين معهم معتقداتهم وآلهتهم، وباتوا سادة البلاد؛ ثمَّ دفعهم آخرون إلى الخلف وحلُّوا محلّهم دافعين بآلهتهم هم إلى الصّدارة. ولذلك فإنّه من غير الممكن عمليّاً رسم اللّوحة الدِّينيَّة في وادي الرّافدين وفق الفهم التّقليدي المعتاد. ومع ذلك فإنّنا سوف نحاول أنْ نُبرز هنا أهمَّ سمات الحالة الدِّينيَّة في بلاد ما بين النَّهرين.

إنَّ الدِّين الحقيقي هو الدِّين الملتصق دوماً بحياة الشّعب. وهذا ما تظهره بوضوح اللُّقى الآثاريَّة التي عُثر عليها في مواقع وادي الرّافدين. فمنذ أقدم العصور، عندما لم تكن المعابد الكبيرة قد شُيِّدت بعد، عرفت بلاد ما بين النَّهرين مخازن مقدَّسة كانت تخزن الحبوب فيها. لقد كانت المشاعة تخزن فائض محاصيلها هذا تحسُّباً للطّوارئ. وليس خافياً بالتّأكيد لماذا عُدَّت مثل تلك المخازن مقدَّسة، فالخبز هو الحياة. وقد سجدوا له. لقد كانوا يؤدُّون حول تلك المخازن طقوساً مهمَّة. وكانت هذه مرتبطة قبل أيِّ شيء آخر بالمحصول، بالأقماح، بموسم البذار وجمع المحصول، و.... لقد عوَّلوا على الآلهة لضمان محصول وفير. ولكنَّ الآلهة كانوا يطلبون تقدمات وصلوات.

ومن الواضح أنَّ لهذا كله منطقاً متيناً. فلم يكن المعبد وسيلة لجمع الأموال التي تنفق بعد ذلك على حاجات الإله، بل كان وجوده كوجود الخبز، لخدمة مصالح المشاعة. وكانت

المشاعة تدرك هذا تمام الإدراك. لكنَّ الأمر المهمَّ الذي تبتغي الإشارة إليه، هو أنَّه حتى بعد ظهور المدن الكبرى والمعابد العظيمة بقيت المبادئ الأولى نفسها لم تتغيَّر: لم يؤدِّ المعبد دوراً دينياً فقط، وإنَّما كان له أيضاً دور اقتصاديٌّ رائد على امتداد تاريخ حضارة وادي الرَّافدين كله.

لقد جرت العادة في بلاد ما بين النَّهرين أنْ تجاور كل معبد حظيرة للحيوانات. كما كانت تحدَّد هناك قطعة أرض يحيط بها سياج ترعى الحيوانات فيها. وكان ثمَّة كاهن يقيم في مثل هذه الحظيرة إذا كان المعبد مكرَّساً لإلهة، وكاهنة إذا كان المعبد مكرَّساً لإله. وكانوا يقيمون طقوس زواج الكاهن والإلهة أو الكاهنة والإله. لقد كان كل شيء مكلوء هنا بالعناية بالخصوبة التي كانت حياة النَّاس تتعلَّق بها. وكان هيرودوت قد ترك لنا الوصف التَّالي لمعبد الإله بل - مردوك في بابل: «في هذا المعبد سرير كبير مزيَّن زينة فخمة، وإلى جانبه مائدة ذهبيَّة. وليس ثمَّة صورة أو تمثال لأيِّ إله هنا. كما لا يبيت أيُّ إنسان ليلة هنا، ما عدا امرأة واحدة يقول الكلدانيون كهنة هذا الإله، إنَّ الإله يختارها لنفسه من بين النِّساء المحليَّات. ويؤكِّد هؤلاء الكهنة أنَّ الإله يأتي إلى المعبد أحياناً ويقضي ليلته على السَّرير».

لقد كان نشاط معابد المدن متنوِّعاً تنوُّعاً واسعاً. فهي كانت تملك مراعي رحبة، وقطعاناً كثيرة وحقولاً واسعة. وكانت تدير تجارة متنوِّعة مع البلدان المجاورة والبعيدة. كما كانت تحقِّق شتَّى العمليَّات النَّقديَّة. فتقدِّم قروضاً بفائدة (فضَّة أو حبوباً)، وتشتري أملاكاً منقولة ثمَّ تعيد بيعها من جديد، وترهن وتؤجِّر المنازل والبساتين. لكنَّ هذا ليس كل شيء. فقد كانت تتبع المعبد ورش حرفيَّة متنوِّعة. وكانت المعابد مراكز ثقافيَّة تعليميَّة. فهل يجب علينا بعد هذا كله أنْ نقول إنَّ حياة المجتمع كلها كانت تحت إشراف الكهنة الذين كان نفوذهم واسعاً وثرواتهم طائلة. ولم يتطاول الملوك يوماً على المعابد، لذلك حافظ التَّعاقب هنا على مجراه على الرُّغم من أنَّ سادة الشُّعوب كانوا يتغيَّرون. فقد كان الغزاة يطيحون بالسُّلالات الحاكمة، أمَّا المعابد فقد بقيت كقاعدة، بعيدة عن كل أذى.

ولكنْ مَنْ كان أُولئك الآلهة الذين عبدوهم في تلك المعابد؟ أوَّلاً، لقد كان عددهم كبيراً جداً. وهو ما يمكننا الحكم عليه قياساً على الواقعة التَّالية. في العام ١٩١٤م. أصدر دايميل في روما كتابه «المجمع البابلي»، وأورد فيه أسماء ٣٣٠٠ إله ومعبود في وادي الرَّافدين. ونحن لن نتحدَّث عن هؤلاء كلهم بالتَّأكيد، إنَّما سوف نكتفي بالحديث عن الرَّئيسين منهم.

لكنَّنا نشير بادئ ذي بدء إلى أنَّ الباحثين لا يعرفون شيئاً تقريباً عن معبودات سكَّان وادي الرَّافدين قبل الألف ٤ق.م. إلاَّ أنَّه من المعروف أنَّهم توسَّلوهم محصولاً وفيراً، وصحَّة جيِّدة، وسلاماً ورخاءً.

لقد كان لكل مكان (قرية، إقليم) آلهته الذين لا يعرفونهم إلاَّ هنا ولا يسجدون لهم إلاَّ هنا. كما كان ثمَّة آلهة أكثر شهرة، كالإلهة زابابا والإلهة شارا مثلاً، اللّتين كانتا شفيعتي مدينتي أومينا وكيش وحارستيهما. وقد عدَّت هاتان إلهتين عظيمتين هنا في هاتين المدينتين بالذَّات. وكان هناك آلهة انتشرت عبادتهم في مختلف مدن وادي الرَّافدين وقراه. ومن هؤلاء على سبيل المثال إله القمر نانا شفيع مدينة أور وحارسها. وكان إله الشَّمس أوتو ابناً لإله القمر. وكان هذا الشَّفيع الحارس لمدينتي سيبار و لارسا. وجسَّدت الإلهة إينانا الحبَّ الجسدي. كما كانت حاملة النَّصر في المعارك العسكريَّة، وارتبطت بكوكب الزهراء. وهي نفسها الإلهة عشتار عند الأكاديين. وقد كانت إلهة مدينة أوروك. وكان الإله نرجال شفيع مدينة قوطور وحارسها، وإله الأوبئة ومملكة الأموات في الآن عينه.

أمَّا أقدم الآلهة وأكثرهم جبروتاً فهم إله السَّماء آن (= آنو عند الأكاديين)، وإله الرِّيح والمكان الكوني من السَّماء حتَّى الأرض إينليل، وإله المحيط والمياه الجوفيَّة العذبة أنكي (= إيا عند الأكاديين). كما حظيت الإلهة - الأُمُّ نينخورساغ بقدر عظيم من التَّبجيل في سومر. ففي فجر تاريخ سومر كانت هذه الإلهة هي الإلهة الأكثر جبروتاً. وعند أواخر الألف ٤ وأوائل ٣ ق.م. صعد الإله دوموزي إلى الصُّفوف الأولى، وكان هذا زوج الإلهة إينانا (= عشتار). لقد حاول النَّاس دوماً أنْ يشكلوا آلهتهم على صورتهم ومثالهم. ولم يدركوا إلاَّ في زمن متأخِّر إنَّه لا يجوز رؤية الإله، وأنَّ هذا موجود في كل مكان وليس له شكل محدَّد. أمَّا سكَّان وادي الرَّافدين فلم يكتفوا زمنئذٍ بتزويج آلهتهم، بل انتقوا لهم أفضل بغي، وكان على هذه أنْ تستلقي اللَّيل كله وحيدة على السَّرير الذَّهبي بانتظار مجيء الإله إليها. لقد كان يحلو للنَّاس أنْ يروا أنفسهم في الآلهة، ويضيؤوا نمط عيشهم بأفعال الآلهة ونمط عيشهم. وعليه عند ما كان نمط حياتهم يتغيَّر كان يتغيّر تبعاً له نمط عيش آلهتهم أيضاً. ونشأ مع نشوء المدن الكبرى جهاز إداري شديد التَّعقيد. وسرعان ما شرع النَّاس ينظِّمون تبعاً لذلك نشاطات آلهتهم أيضاً. فأنشأوا لهم التَّراتبيَّة الوظيفيَّة عينها التي كانت سائدة عندهم. ولذلك ظهر لدى الآلهة ملكهم، ووزيره الأكبر. ثمَّ ظهر الكاتب السكرتير، وحامل العرش الذي كان عليه أنْ يحمل عرش ملك الآلهة. وتبعاً لإرادة النَّاس ظهرت لآلهة وادي الرَّافدين وظائف أخرى. فقد ظهر على سبيل المثال الآلهة - البوَّابون. وبات آلهة بيئات الطَّبيعة يعدُّون «قادة سماويين عظاماً». وكانوا قبلئذٍ واهبي نعم وخيرات.

وعلى الرغم من أنَّ الآلهة كانوا على الأرض، إلاَّ أنَّ صلتهم بالسَّماء بقيت قويَّة راسخة. فالإلهة عشتار مثلاً ارتبطت بكوكب الزهراء، وارتبط الإله مردوك بجوبيتر (= المشتري) ومجموعة برج الثَّور، وارتبط الإله نابو بمركوريوس (= عطارد). لقد كان لكل مدينة إلهها الشَّفيع - الحارس، وبما أنَّ هذا الأخير كان مرتبطاً بجرم سماويٍّ، فإنَّ المدينة المعنية ارتبطت بدورها بالسَّماء، بالجرم الكوني المعني. وهذا ما منح سكَّان المدينة قوَّة روحيَّة كبيرة. لقد كان هؤلاء على قناعة راسخة بأنَّ شفيعهم السَّماوي لن يتركهم وقت الشِّدَّة. وهذا ما جعل القوَّة الرُّوحيَّة للمدينة أقوى. لكنَّ صلة المدينة هذه وصلة حياة ساكنيها بالكوكب الكوني، لم تقتصر فقط على إدراك هؤلاء بأنَّ السَّماء تحميهم. لقد رصد سكَّان مدن وادي الرافدين حركة الكواكب وتبيَّنوا كل التَّبدُّلات التي تطرأ عليها، واستخلصوا من ذلك كله النتائج ذات الصِّلة. كما راقب هؤلاء أيضاً أطوار الخسوف والكسوف وسوى ذلك من الظَّاهرات التي كانت ترتبط بكوكبهم، وحاولوا أنْ يتبيَّنوا ما يمكن أنْ ينبئ به هذا كله. لقد كانوا يرغبون كثيراً بأنْ يروا في تلك العلامات إشارات إلى أنَّ المستقبل يحمل للمدينة بشرى بالرَّخاء والخيرات. بيد أنَّهم لم يكونوا محصَّنين ضدَّ أنْ تحمل لهم تلك الآيات إنذاراً بقرب تعرُّض مدينتهم لغزو الأعداء، أو لموجة جفاف، أو لمجاعة، أو لاجتياح وباء، وسوى ذلك من الرَّزايا. وليس عبثاً أن استعطف هؤلاء إله الأوبئة ورفعوا له الصَّلوات والتَّوسُّلات، وقدَّموا له القرابين.

إذن لقد كان لسكَّان وادي الرَّافدين كثرة كثيرة من الآلهة. ولذلك فإنَّنا عاجزون عن استعادة وظائفهم، وتحديد الأطوار التي بلغ نشاطهم فيها قمَّة حيويَّته وفاعليَّته. ومع ذلك فإنَّ معطيات النُّصوص التي حملتها لنا الألواح الطِّينيَّة التي اكتشفت هناك، تجيز لنا رسم تصوُّر عن أهمِّ أولئك الآلهة.

فالإله آنو مثلاً كان إله السُّلطة، أو بمعنى أدق جسَّد قوَّة السُّلطة. وجسَّد الإله إينليل القوَّة على وجه العموم. أمَّا الإله أنكي فقد كان هو «المكر» عينه، والمهارة. فقد أتقن الفنون كلها والمهن كلها إتقاناً تامَّاً، واحتضن الرِّقاة، وحاول أنْ يحمي البشر من دسائس الإلهين آن وإينليل. فقد كان هذان الإلهان لا يكترثان كثيراً لأمر الجنس البشري. وكان يمكن أنْ يصدر عنهما أيُّ فعل كان، بما في ذلك النَّزوات الشَّريرة والسُّلوك الأرعن. وكان للإله إينليل ابن - إله، هو الإله نينورتا الذي لم يكن له مدينة خاصَّة به. ولكنَّ نينورتا كان يجسِّد البسالة والإقدام. ولذلك بجلَّه ملوك آشور المقاتلون. أمَّا الإله الذي يرى كل شيء، أوتو إله الشَّمس، فقد كان القاضي الأكبر، وناصر المقهورين والضعفاء، واحتضن المتبِّئين. وتأقلم

مع الحالة الدِّينيَّة في بلاد ما بين النَّهرين أيضاً، الإله العموري إيشكور (= الأكادي أداد)، إله الرُّعود والعواصف.

وعرف وادي الرَّافدين إلى جانب الآلهة، إلهات أُمَّهات أيضاً. لكنَّ عددهنَّ لم يتجاوز الثَّلاث إلهات. وهنَّ: نينخورساغ، ومالي، وبابا. كما كان لكل إله زوجة. وكان ثمَّة إلهات ارتبطن بالعالم السُّفلي، عالم الأموات؛ ومنهنَّ مَن ارتبطت بالموت أيضاً. ونذكر في السِّياق أنَّ إلهة الموت غولا تحوَّلت مع الوقت إلى إلهة مداوية. وقد عُثر على صورها مع رفيقها الدَّائم: الكلب. وغدا رأس هذا الأخير رمزاً لها. وكان النَّجم هو رمز الإلهة عشتار، والهلال رمز الإلهة إينانا.

وتحتوي اللُقى والنُّصوص التي أسفرت عنها أعمال السَّبر الآثاري معطيات عن جماعة آلهة الأنوناكي العظام. كما تذكر النُّصوص جماعة إلهيَّة أخرى، هي جماعة آلهة الإيجيجي. وليس معروفاً لنا عن هؤلاء سوى أنَّ عددهم كان كبيراً. لقد كان الآلهة الإيجيجي يشاركون في الاجتماعات العامَّة، وعند اتِّخاذ القرارات المهمَّة كانوا يعبِّرون عن موافقتهم أو رفضهم بهمهمة ذات طابع مختلف. وكان أعضاء الاجتماع الآخرون قادرين على تأويل تلك الهمهمة بمعناها الصَّحيح. أمَّا الآلهة الأنوناكي فقد كانوا يشاركون في اجتماعات مجلس الآلهة ويتَّخذون القرارات المهمَّة. إذن لم يكن انشغال الآلهة بشؤون الحياة أقلَّ من انشغال البشر بها. وكانوا يعملون بعرق جبينهم قبل أنْ يظهر الجنس البشري إلى الوجود. وهذا ما تخبِّر به «ملحمة أتراحاسيس» البابليَّة القديمة. فقد جاء في هذه الملحمة:

عندما كان الآلهة يحملون الأعباء
كالبشر، يجرجرون السلال،
وكانت سلال الآلهة مهولة،
كان الشُّغل مضنياً، والمشقَّة عظيمة،
فألقى الآلهة السَّبعة الأنوناكي العظام
بأعباء العمل كلها على كاهل الإيجيجي...
وعلى امتداد ألفين وخمس مائة عام
عمل هؤلاء آناء اللَّيل والنَّهار.
فتعالى صراخهم، وامتلؤوا غيظاً،
وضجُّوا في الأرض وشاغبوا:

«نريد أنْ نرى الآمر!
فليرفع عن كواهلنا عبء هذا العمل الشّاقّ».
فأحرقوا أدواتهم،
ودمَّروا ألواحهم،
وأطعموا النّيران سلالهم،
وساروا كتفاً إلى كتف
صوب بوّابات إينليل المقاتل المقدّسة
فطوّقوا الحرس، وعندما انتصف اللّيل
بات المعبد تحت الحصار، لكنَّ الإله لم يظهر...
فسمع كالكال الصَّخب واضطرب
فتح المزلاج ونظر إلى الخارج.
وشقَّ الإله كالكال النوسكو.
فسمع صخب الإيجيجي.
ومضى النوسكو يوقظ السَّيِّد...

ثمَّ تطوَّرت الأحداث بعد ذلك على الوجه الآتي. لقد دعا الإله إينليل الأنوناكي إلى اجتماع المجلس، وكان هؤلاء قد أفرطوا في استغلال الإيجيجي واضطهادهم. ودارت المباحثات مع الإيجيجي الثّائرين. فأوحى الإله إيا بمخرج من الوضع الحرج، إذ اقترح أنْ يُخلق البشر وتلقى على عاتقهم «أعباء الآلهة». وهكذا كان. فقد مزج إيا طيناً بدماء واحد من الإيجيجي وخلق الإنسان الأوَّل بمساعدة «قابلة الآلهة، الحكيمة مامي». ومنذ ذلك الوقت والنَّاس يحملون السِّلال بدلاً عن الآلهة.

ونلفت الانتباه في هذا السِّياق إلى أنَّ الإنسان الأوَّل قد صُنع من طين ممزوج بدم أحد الآلهة، حتى لو لم يكن هذا الإله هو الإله الأعظم. فقد تشاور الإيجيجي كلهم وقرَّروا التَّضحية بواحد منهم لأجل إتمام ذلك العمل الجليل. فتقرَّر:

سوف يُجندل أحد الآلهة...
ومن جسده، وبدمائه.
فلنمزج قبضة طين!

وليتَّحد حقّاً الإلهي والبشري
ممزوجين في الطِّين!
فلنسمع أبداً طرقات القلب.
فليعش العقل في جسد الإله،
فليعرف الحيُّ آية حياته.
وليتذكَّر دوماً أنَّه يمتلك عقلاً.

ويبدو هذا النِّداء الأخير الموجَّه للإنسان ذا أهمِّيَّة فائقة لم تتراجع حتَّى يومنا هذا.

فعلى امتداد تاريخ البشريَّة كله كان «الدِّين الشَّخصي» يتألَّق أحياناً ويخبوا أحياناً أخرى. وفي الألف ٢ق.م. كان «دين الأنا الفرد» يعيش في وادي الرَّافدين طور ازدهاره. فقد كان الإله «الأنا الفرد» (إيلو)، هو الشخصية الرئيسة. إذ كان يباشر بنفسه الشُّؤون الشَّخصيَّة للإنسان، ويهتمُّ بنجاحاته الإبداعيَّة. ولكنَّ هذا الإله «الشَّخصي» لم يكن إلهاً فريداً. فالإله الفريد كان الإله الذي يهتمُّ بشؤون الفرد، الشَّخص، كلها دون استثناء. ولم يكن الإنسان في غضون ذلك عبداً لإلهه الشَّخصي، بل كان ابناً له. وقد عدُّوا الشَّخص المعني ابناً للإله بالمعنى الفيزيولوجي المباشر للكلمة. ولم يكن هذا الإله والإلهة والدين لابن واحد، وإنَّما للسُّلالة كلها، للعائلة كلها. فالإله الشَّخصي كان هو عينه للابن، والأب، والجدِّ، و.... وقد فهم المعاصرون هذا الأمر فهماً ماديّاً تماماً. فاعتقدوا أنَّ الإله يقيم في جسم الشَّخص إقامة فعليَّة. وافترضوا أنَّه كان حاضراً لحظة الحبل بالذُّرِّيَّة، وأنَّه ينتقل من جسد الأب إلى جسد الابن.

وقد استخلصوا من هذا نتائج بعيدة المدى. فبما أنَّ الابن تلقَّى إلهه الخاص عبر جسد والده الذي يقيم فيه إلهه الخاصُّ، لذلك ينبغي عليه أنْ يتعامل مع والده كما يتعامل مع إلهه الخاص. بمعنى آخر إنَّه كان يجب على الابن أنْ يخضع لسلطة والده خضوعاً مطلقاً. وفي غضون ذلك يمكن للابن أنْ ينتظر من والده الحبَّ، والاهتمام، والرِّفق: ففيه كان يقيم إلهه الشَّخصي. والحاصل إذن إنَّه ثمَّة صلة قرابة (عبر الأب) بين الابن وإلهه الشَّخصي. ولذلك يغدو دفاع الإله الشَّخصي عن تابعه أمراً بدهيّاً. فهو الوسيط في العلاقة مع إله أعلى، أكثر عظمة. وها نحن نورد مقطعاً من رسالة كتبها بائس إلى إلهه الشَّخصي (إيلو).

«أخبر إلهي، أبي! هكذا يقول أبيل - أداد، عبدك: لما صرفت وجهك عنِّي وأهملتني؟ مَنْ هو الآخر الذي يعطيك كما أُعطيك أنا؟ اكتب للإله مردوك الذي يحبُّك، وليغفر لي

آثامي. فأرى وجهك، وألثم قدميك. انظر بعين العطف إلى عائلتي، إلى الكبار من أفرادها والصِّغار. رأفة بهم ارحمني. وليصل إليَّ عونك». لا شك أنَّ الجملة الأولى تثير الحيرة، لكنَّ الأمر يجب ألاَّ يكون هكذا. فذلك هو التَّقليد الذي كان سائداً، وكل الرَّسائل البابليَّة والآشوريَّة تبدأ كما بدأت الرِّسالة التي سقنا نصَّها هنا.

لقد كان الإله مردوك هو إله مدينة بابل. وفي الألف ٢ق.م. كان هذا مجرَّد إله عادي، لكنَّه ما لبث أنْ صعد إلى الصُّفوف الأولى من حشد آلهة سومر وبابل. وبقدر ما كانت قوَّة بابل تزداد ونفوذها يمتدُّ، كان الإله مردوك يزداد قوَّة. وشيئاً فشيئاً بات في طليعة كبار الآلهة الذين كان لهم نفوذ وهيبة عظيمين: آن، وإينليل، وإيا. ففي كل مكان تقريباً باتوا يعدُّونه ملك الآلهة. ولكنْ كيف حدث وسمح الآلهة العظام المذكورين بذلك؟ لماذا تنازل هؤلاء عن سلطاتهم المطلقة، وتخلُّوا عن حبِّ الشَّعب واحترامه لهم؟ لقد تبيَّن أنَّ هؤلاء أقرُّوا بزعامة مردوك لأنَّه خلَّصهم من الكائن الوحشي الرَّهيب: الإلهة تيامات. فلم يجرؤ أيٌّ من الآلهة الآخرين على منازلتها. أمَّا مردوك فلم يتردَّد في فعل ذلك، وليس هذا وحسب، بل هزم الإلهة المتوحِّشة البغيضة التي كانوا يكرهونها. ولذلك كان بدهيَّاً أنْ يتزعَّم هو ولا أحد غيره مجْمع آلهة وادي الرَّافدين، ويغدو ملكاً على الآلهة. وقد وردت هذه القصَّة كلها في الملحمة الدِّينيَّة: «عندما في الأعالي»، التي أُنشئت في بابل، مدينة مردوك الأم، في القرنين ١٣-١٢ق.م.. وعليه فقد تضمَّنت الملحمة تعليلاً وافياً لزعامة مردوك ملك آلهة بلاد ما بين النَّهرين كلهم. ولكنَّ الحال لا يمكن أنْ تبقى على ما هي عليه. فعندما سقطت بابل اضطرَّ مردوك لأنْ يتنحَّى. وأخذ إله الغزاة، إله العاصمة الآشوريَّة القديمة آشور يطالب بالزَّعامة. وسرعان ما أُدخلت التَّعديلات الملائمة على ملحمة «عندما في الأعالي»، فحلَّ اسم آشور بدلاً من اسم مردوك في كل سطر من سطور الملحمة.

إنَّ الدِّين هو الذي يحدِّد الأخلاق. وشعب بغير دين، هو شعب بغير أخلاق. وفي وادي الرَّافدين قضى الدِّين بتحريم التجديف على الآلهة، والخروج على الدِّين، وإهانة الآلهة بأيِّ شكل كان، كما حرَّم الكذب، والخداع، والقتل، والزِّنى؛ وأوجب احترام الوالدين، وكبار السِّنِّ، والعطف على الضُّعفاء، والفقراء، والأرامل، واليتامى، ومدَّ يد العون للقريب، والاهتمام بشؤون القرية الأم؛ والابتعاد عن فعل الشَّرِّ وبثِّ الفرقة بين الأقارب. وغنيٌّ عن البيان أنَّ ما تقدَّم عرضه هنا لا يحتاج المزيد. إنَّها الوصايا العشر عينها التي ينبغي على العالم المسيحي أنْ يعيش وفقها. ولكنْ يجب ألاَّ نظنَّ أنَّ سكَّان بلاد الرَّافدين التزموا بهذه الوصايا الأخلاقيَّة كلها التزاماً صارماً في حياتهم. لقد كان النَّاس يقترفون الأخطاء، ويرتكبون

الآثام، فيندمون، ويرفعون الصَّلوات مستغفرين طالبين الصّفح، ثمَّ لا يلبثون أنْ يخطئوا من جديد. فالبشر هم البشر في كل زمان ومكان. يتطهَّرون بالصَّلوات، والتَّوبة، والنَّدم، والتَّعاويذ. فقد كتب الباحثون يقولون إنَّ صلوات سكَّان وادي الرَّافدين تدهش بعمق الشُّعور الدِّيني الذي تنطوي عليه. وهاكم واحدة منها:

لم أكن أعرف يا إلهي أنَّ عقابك صارم.
فأقسمت يميناً عظيماً دون أنْ يرفَّ لي جفن.
واحتقرت شرعتك، وأوغلت بعيداً،
لقد انتهكت طريقك وقت بليَّتي...
آثامي كثيرة، كيف اقترفتها، لا أعرف.
يا إلهي هبني السَّكينة، واصفح عنِّي،
وهدِّئ الشَّرَّ في قلبي.

لقد أدرك الإنسان أنَّه عبثاً يقترف الآثام على هذه الأرض، لأنَّ كل ما يحقِّقه بأعماله طارئ وإلى زوال. وليس من قبيل المصادفة أنْ ترد في ملحمة جلجامش أقوال انعكست في فلسفة سليمان:

ليس ثمَّة ما هو خالد سوى الآلهة والشَّمس،
أمَّا الإنسان فإن سنينه معدودة،
ومهما يكن ما يفعله، فإنَّه مجرَّد ريح.

يجب على كل إنسان يعيش في هذا العالم أنْ يكوِّن لنفسه تصوُّراً ما عن وجوده: من أين جاء، كيف ينبغي عليه أنْ يعيش، وإلى أين هو ماضٍ بعد أنْ يموت. ونحن درسنا هنا تصوُّرات سكَّان بلاد ما بين النَّهرين عن كيفيَّة خلق البشر والطريقة التي كان يجب عليهم أنْ يعيشوا وفقها. فلنلق الآن نظرة على الطُّريق التي كان على إنسان وادي الرَّافدين أنْ يسلكها بعد الموت، وكيف.

إنَّ حياة الفرد منَّا كلها تتعلَّق بتصوُّره عن الموت. فإذا ما ارتسمت أمام الإنسان آفاق محزنة بعد خروجه إلى العالم الآخر، فإنَّ هذا سوف يسمِّم حياته كلها، ويصبغها بصبغة الحداد. ومثالنا على هذا في الهندوسيَّة وكاستاتها (= طبقاتها الاجتماعيَّة). فالإنسان يعيش حياته كلها في الأغلال. وهو لا يعرف أنَّ الموت ينقذه منها. بل على الضِّدِّ من هذا تماماً إذ يمكن أنْ تغدو تلك الأغلال أكثر شدَّة في الحياة الأخرى. ولذلك لا يمكن للهندوسيِّ المعذَّب

أنْ يحلم إلاّ بشيء واحد: كيف يقطّع أغلال تلك المعاناة مرّة وإلى الأبد. فمعاناته وآلامه لا مسوغ لها، ولا تعليل لها، وهو لا يستحقّها. فهل يمكن لهذا الإنسان أنْ يكون سعيداً، ومتفائلاً، ومحبّاً للحياة في ظلّ سيطرة مثل هذه الرُّؤى، وهذه الأخلاقيّات، وهذا الدِّين على تفكيره؟ فدينه هذا يدفع به إلى الزّاوية، وليس له أمل بالخلاص لا في هذه الحياة، ولا في الحياة العاشرة، ولا في الحياة الألف. فلا يبقى له سوى أنْ يحلم بالنرفانا، والعدم. أمّا المصريون فقد كان لهم من الحياة موقف مغاير تماماً. لقد كان يمكن للمصريّ أنْ يقول: «إنّ الموت بالنِّسبة لي الآن كعطر فوّاح». لقد عاش المصريون سعداء، حياتهم مزدهرة، وكانوا ينتظرون حياة أكثر سعادة وازدهاراً وكمالاً بعد رحيلهم إلى العالم الآخر.

وما يؤسف له بالنِّسبة لسكّان وادي الرّافدين، هو أنّهم رأوا في العالم الآخر مكاناً كئيباً جداً. إنّها «بلاد اللا عودة»، هكذا وصفتها ملحمة جلجامش (في الألفين ٢-١ق.م.):

يقودون المتوفى إلى بيت الديجور،
إلى مسكن إيركالا،
إلى البيت الذي لا يخرج الدّاخل إليه منه،
إلى الطّريق التي لا عودة منها،
إلى البيت الذي لا يرى قاطنوه النُّور،
حيث قوتهم الرّماد وطعامهم الطّين،
وكسوتهم كالطّير، ملابس من ريش.
لا يرون النُّور، ويقيمون في ظلمة أبديّة،
نوافذهم وأبوابهم يغطّيها الغبار!

وقد جاء في ملحمة «نزول عشتار إلى الحضيض»، أنّ الوصول إلى «بلاد اللا عودة» دونه سبعة أبواب ينبغي اجتيازها. وأنّ «الوحشة تسود أمام الأبواب». وتفيد المصادر الأقدم عهداً بأنّ نهراً يقود إلى المملكة السُّفليّة. وعبر هذا النّهر يحمل النوتي الميت في قاربه. وشخصية النوتي هذه معروفة عند كثير من الشُّعوب. وقد قيل في وصف هذا المشهد:

لا تجري في نهر العالم السُّفلي مياه،
مياهه لا تروي ظمأ ظامئ.
ولا تنجب حقول العالم السُّفلي حبوباً،

ولا أحد يطحن منها دقيقاً.
ولا تعطي شياه العالم السُّفلي صوفاً،
ولا يخيط أحد منه ثياباً.

لقد تخيَّل سكَّان وادي الرَّافدين العالم السُّفلي مدينة تحيط بها سبعة أسوار حصينة. وثمَّة سبعة أبواب تقود بالتَّتابع إلى داخل المدينة. وكان الحارس نيدو يبقي الأبواب السَّبعة مغلقة بالمزلاج. ولذلك لم يكن بمقدور أيٍّ كان أنْ يخرج من العالم السُّفلي. وتصوَّر أهل وادي الرَّافدين حياة الأموات في المملكة السُّفليَّة هكذا: عندما يفد ميت جديد ينبغي عليه أنْ يقدِّم التَّقدمات والقرابين إلى آلهة العالم السُّفلي السبعة لكي يكسب ودَّهم ويضمن مساندتهم له. وقد بدا الأمر على الصُّورة التَّالية: عندما يعبر الميت الأبواب عليه أنْ ينزع عند كل باب حلية ما أو قطعة من ملابسه. وبعد أنْ يعبر الأبواب السَّبعة يمثل أمام أريشكيجال زوجة إله العالم السُّفلي نرجال.

ثمَّ يمثل الميت بعد ذلك أمام محكمة العالم السُّفلي. فتنظر في قضيَّته «هيئة قضائيَّة» مؤلَّفة من الآلهة الأنوناكي. ولكنَّ رئاسة هذه الهيئة تتألَّف من آلهة أعظم نفوذاً ينتمون إلى العالم العلوي. وقد يكون المتبئ هو إله الشَّمس (ليلاً)، أو إله القمر (وقت ظهور الهلال الجديد). لقد كانت الهيئة هي التي تقرِّر مصير المتَّهم. لكنَّ قرارها كان يرتبط بطريقة عيش المعني في الحياة الدُّنيا. وهناك كان المتَّهم يتلقَّى دروسه الأولى في شريعة المملكة السُّفلى ومعايير السُّلوك فيها. وبعد النُّطق بالحكم كان المتَّهم يقاد إلى أحد أرجاء المملكة السُّفليَّة. وعندما يصل إلى المكان المعني يستقبله السُّكَّان القدامى على الرَّحب والسِّعة، ويقدِّمون له كل عون ممكن.

وقد تلخَّصت معايير السلوك في العالم السفلي في الآتي: التزام الهدوء، وعدم الإتيان بما يلفت الانتباه بالملابس، أو الطُّيوب، والقدرة على كبت المشاعر. والحقيقة أنَّ الحياة كانت تتواصل ولكنْ بطريقة أخرى: يواصل الإنسان في المملكة السُّفليَّة الأعمال التي كان يمارسها في حياته الدُّنيويَّة عينها. وكانت تقام هناك أيضاً شتَّى الطُّقوس والمراسم. يقيمها الكهنة أنفسهم، كما في الحياة الدُّنيا.

ولا تمضي عدَّة أيَّام حتَّى يبدأ الوافد الجديد يتلمَّس «شكاوى سومر». وقد تضمَّنت هذه معلومات عن أنَّه لم يتسنَّ للمتوفَّى أنْ يبني بيتاً. وإذا ما تبيَّن أنَّ أمراً ما شديد الأهمِّيَّة لم ينجز حقّاً، فإنَّه يمكن لظلِّ الميت أنْ يصعد إلى الأرض لحين. لكنَّ هذا لا يحدث مع الموتى من الفئات الاجتماعية الدُّنيا إلاَّ قليلاً. وغالباً جداً ما استغلَّ الملوك هذا الامتياز. وما يثير الفضول أنَّ بعض الآلهة سُجن في غياهب المملكة السُّفليَّة. وهؤلاء مثلهم مثل الملوك يُسمح لهم بمغادرة معتقلهم لبعض الوقت في صورة ظلال. فقد صعد ظلُّ أنكيدو من المملكة السُّفليَّة

ليلاقي صديقه جلجامش ويتحدَّث إليه. كما كان الخروج من المملكة السُّفليَّة لبعض الوقت أمراً ممكناً إذا ترك المعني رهينة فيها تنوب عنه. وكانت الإلهة إينانا قد خرجت إلى العالم العلوي بهذه الطَّريقة عينها. فقد تركت زوجها دوموزي رهينة ينوب عنها هناك. ويتحدَّث كثير من مصادر وادي الرَّافدين عن أنَّ آلهة خالدين يقيمون في المملكة السُّفليَّة: ملحمة «خلق إله القمر» على سبيل المثال.

وحسب ديانة وادي الرَّافدين القديمة أنَّ الموت شرٌّ عظيم، لكنَّ وقوعه أمر حتميٌّ لا بدَّ منه. إنَّه «الظَّلام» الذي لا يمكن مواجهته. بيد أنَّ معتقدات متفائلة عن الخلود أخذت تسود رؤاهم الآخرويَّة فيما بعد. ولكنَّهم قصدوا بها الخلود الرُّوحي.

ولا بدَّ من أنْ نقول في خاتمة حديثنا هذا بعض الكلمات عن تصوُّر ديانة وادي الرَّافدين لعمليَّة خلق العالم والبشر. وقد جاء وصف تلك العمليَّة بأكمل صورة في الملحمة الدِّينية «عندما في الأعالي»، التي كُرِّست للإله البابلي مردوك. وجرى الأمر على النَّحو التَّالي:

عندما في الأعالي لم تكن السَّماء قد سُمِّيت بعد،
ولم يكن تحت لليابسة اسم.
كان أبسو البدئي الذي خلق كل شيء،
والأُمُّ تيامات التي ولدت كل شيء.
فمزجا مياههما في كل واحد...
وعندئذٍ تكوَّن في أحشائهما الآلهة...

لقد امتزج كاوس (= خراب، عدم. م.) المياه المالحة تيامات وكاوس المياه العذبة أبسو. هناك تكوَّن الآلهة. فظهر لخمو ولاخامو. ثمَّ تبع زوج الآلهة الأوَّل الزَّوج الثَّاني: أنشار (= الحلقة السَّماويَّة)، وكيشار (= الحلقة الأرضيَّة). بعد ذلك خلق أبسو الإله أنكي (= إيا). ثمَّ ظهر الآلهة الآخرون.

ويجتمع الآلهة – الأقارب حشداً،
يزعجون تيامات إذ يروحون ويجيؤون،
لقد زلزلوا جوف تيامات.
بغوغائهم الصَّاخبة في السَّكينة العلويَّة،
ولا يهدأ لغطهم في أبسو.

فأوحى المستشار ممُّو لأبسو الذي أيقظه الصَّخب، بفكرة إبادة الآلهة. ولكنَّ ذلك لم يحدث لأنَّ الإله إيا الذي يرى كل شيء وجد مخرجاً من الوضع الحرج.

بحكمته خلق تعويذة مقدَّسة

وأنشد ترتيلة أرسلها في المياه.

فانسكب النُّعاس، وجاء النَّوم.

لقد استغرق أبسو في نوم هانئ.

فأخذ الوجوم بالمستشار ممُّو.

بعد ذلك قتل الإله إيا أبسو. ثمَّ كبَّل ممُّو وخلق لنفسه سكينة دعاها «أبسو».

هناك مع دامكينا، مع زوجته استوى إيا بعظمة،

وفي سكينة المصائر والأقدار،

أنجب الإله حكيم الحكماء،

في أبسو وُلد مردوك...

قامته عظيمة، متفوّق بين جميعهم،

صورته كاملة كمالاً لا يخطر لخيال،

لا يدركه الفهم، ولا يحيط به خيال:

أربع عيونه، وأربع آذانه!

وعندما يفتح فمه تخرج النيران منه!

ثمَّ تطوَّرت الأحداث بعد ذلك على النَّحو التَّالي. لقد عزمت أرملة الإله المقتول أبسو على أنْ تنتقم من الآلهة الذين قتلوا زوجها. ولكي تحقّق انتقامها خلقت حشداً من الكائنات المتوحشة المخيفة. ووضعت الإله كينغو على رأس ذلك الحشد، وقلّدته «ألواح المصير». وقد كانت تلك الألواح تحدِّد حركة العالم وسير الأحداث الكونيَّة. فارتعدت فرائص الآلهة خوفاً من عدوانيَّة حشد الوحوش ذاك. ولكنَّ الإله الشَّاب مردوك هبَّ للقتال غير هيَّاب. وكان قبل ذلك قد وضع شروطه أمام الآلهة. وقد تلخَّصت في الآتي:

إذا ما انتقمت لكم كلكم،

وقهرت تيامات، وأنقذت حياتكم،

فلتجمعوا المجلس، ولتعلنوا إعلاء مصيري...

ولتقرِّر كلمتي المصائر، كما كلمتكم!

وليبقَ ما أخلقه أنا راسخاً لا يتغيَّر!

فوافق الآلهة على مطالب مردوك لأنَّه لم يكن أمامهم مخرج آخر. وقيل عن ذلك ما يلي:

قدَّموا له الصَّولجان، والعرش، وألبسوه ثوب الملك،

وقلَّدوه سلاح النَّصر الذي يجندل الأعداء...

فهاجم مردوك وتيامات أحدهما الآخر...

واشتبكا في قتال مرير، ومعركة فاصلة...

فتحت تيامات شدقها لكي تبتلعه،

فأدخل فيها الإعصار، وعجزت عن إطباق شفتيها...

وتقطَّعت أشلاء، وانفتح شدقها.

لقد أطلق سهامه وشقَّ بطنها،

ومزَّق أعماقها، وأخذ قلبها...

وبعد أنْ صُرعت تيامات وهلكت ولَّى حشد الكائنات المتوحِّشة الأدبار. لكنَّ مردوك المقدام لم يمهلها لتختبئ. فألقى عليها القبض وقيَّدها. وقتل قائدها كينغو وأخذ منه «ألواح المصير». ثمَّ رجع مردوك بعد ذلك إلى جثَّة تيامات:

فقطَّع أحشاءها بحنكة،

وشطرها نصفين، كأنَّها قوقعة،

ثمَّ أخذ نصفاً وغطَّى به السَّماء.

وجعل ترابيس، وأقام حرَّاساً

ليعملوا على ألاَّ تتسرَّب المياه.

وقاس الرَّبُّ أبعاد أبسو،

وخلق لذاته انعكاساً، خلق إينشارو،

فظلَّل إينشارو السماء.

وأقام مردوك استراحات في السَّماء للآلهة كلهم.

لقد أقام استراحات للآلهة العظام.
وصنع النُّجوم - الكواكب، على شبه الآلهة صنعها،
قسَّم السَّنة، رسم رسماً...
ووضع نجوماً للأشهر الاثني عشر،
وفتح بابين على جانبي السَّماء...
ومنح الهلال، حارس اللَّيل، ضياء!...
ثمَّ وضع رأس تيامات وأهال عليها جبلاً...
ثمَّ أطلق دجلة والفرات عبر عينيها،
هكذا خلق هو السَّماء والأرض...

وبعد ذلك عيَّن مردوك طقوسه، وفرض شعائره. وجاءت لحظة خلق الإنسان:

فلأجمع الدِّماء أنا، ولأُثبِّت العظام.
سأصنعنَّ كائناً، وسوف أدعوه إنساناً.
حقَّاً إنَّني سأخلق بشراً،
وليخدم هؤلاء الآلهة، لكي يستريح هؤلاء.

آلهة الإغريق القدماء

لقد كانت جزيرة كريت عماد الحياة الرُّوحيَّة والثَّقافيَّة، والدِّينيَّة لليونان القديمة. ومن المعروف أنَّ كريت هذه تقع في البحر المتوسِّط. وخلال الألفين ٣-٢ق.م. لم تكن الثَّقافة الإغريقيَّة منفصلة عن ثقافات الشَّرق الأخرى. ولكنَّ كريت عاشت في أواسط الألف ٢ق.م. طور انحطاط لا تزال أسبابه غامضة حتى الآن. وحسب بعضهم أنَّ الجزيرة تعرَّضت لكارثة ما. ولكنْ قد تكون هناك أسباب أخرى. بيد أنَّه في الأحوال كلها وجد سكَّان الجزيرة أنفسهم عاجزين عن التَّصدِّي للغزاة الذين جاؤوا بلادهم من شبه جزيرة البلقان. فحمل الآخيون ثقافتهم وديانتهم إلى كريت. ومع أنَّ التَّمازج حدث في ميادين شتَّى، إلاَّ أنَّ المؤرِّخين والشُّعراء بالغوا في تقويم دوره، فقد تجاهلوا واقع الاستيلاء نفسه ووصفوا تاريخ الثَّقافة اليونانيَّة بصفته عصراً واحداً ملك خلاله الملك الخرافي مينوس. فظهر هذا في تاريخ اليونان ملكاً إلهاً. وبنى دولة بحريَّة كبرى وبسط سلطانه على جزر وشبه جزر شرقي البحر المتوسِّط. بل يفترض بعضهم أنَّ نفوذه امتدَّ ليشمل صقليا أيضاً.

ونحن لا نتوفَّر على مصادر مكتوبة في تاريخ كريت إلاَّ من زمن الاحتلال الآخي وما بعد. فنظام الكتابة الكريتي قبل ذلك لا يزال لغزاً عصيَّاً على العلماء. لقد امتدَّ العصر الآخي في تاريخ اليونان من العام ١٥٠٠ حتى العام ١١٠٠ق.م. أمَّا ما قبل هذا التَّاريخ فهو زمن الملك مينوس. وعليه فقد كان لدى الإغريق دينان: الدِّين المينوسي، والدِّين الآخي.

ومثله مثل الأديان الأخرى في العالم القديم، كان الدِّين المينوسي ديناً بدائيَّاً. فالإله الرَّئيس هو الإله زيوس أب الملوك، وحاكم جزيرة كريت: هو والد الملك مينوس، والملك سربيدون، والملك رادامانثوس الذين أنجبتهم له الأميرة الكنعانيَّة أوروبا. وكان زيوس قد اتَّخذ صورة ثور ومضى خلف الأميرة إلى بلاد الكنعانيين خائضاً غمار مغامرة صعبة مع البحر الهائج. ولكنَّه نجح في آخر المطاف، فخطف الأميرة أوروبا وحملها إلى جزيرة كريت سليمة معافاة. وحسب الأساطير أنَّ السُّلطة الملكيَّة المقدَّسة والبنية الأولى للدَّولة خرجتا من اتِّحاد الإله - الثَّور والإلهة - البقرة. فقد ولد من ذاك الاتِّحاد ملك. وكانت سلطته مقدَّسة، لكن

لتسع سنوات فقط. أمَّا بعد ذلك فقد كان ينبغي ترسيخ صلاحيَّات الملك. ولم يكن بمقدور أحد أنْ يفعل ذلك سوى الإله. وقد استمرَّت الفترة الثَّانية من حكم الملك عشر سنوات.

والثَّور كما هو معروف رمز الخصوبة. والخصوبة هي مصدر الحياة بالمعنى الحرفي للكلمة. ولذلك كانت صور الثَّور مرسومة في كل مكان: على الجدران، والأختام، والأبواب، و.... وظهرت في تلك اللَّوحات مشاهد مصارعة الثِّيران. فيبدو المصارعون على ظهور الثِّيران وقرونها يؤدُّون مختلف ضروب الحركات البهلوانيَّة بينما تندفع الثِّيران مسعورة.

ولم تكن الثِّيران الحقيقيَّة هي التي تظهر في شعائر الزَّواج الطُّقوسي للإلهة - الأُمِّ، بل المصارعون. أمَّا دور الإلهة - الأُمُّ فقد كانت تؤدِّيه كاهنات آسرات الجمال. وقد ظهرت صورهنَّ على اللَّوحات الجداريَّة وهنَّ عاريات الصُّدور، لكنهنَّ يرتدين تنانير تغطِّي أقدامهنَّ، وهذا ما يجعل مبدأ أسطورة المينوتافروس مفهوماً. فقد كان هذا إنساناً - ثوراً عاش في اللابيرينتيوم (التيه) وفرض أنْ تقدَّم له ضحايا فتياناً وفتيات، كان يفترسهم. ولكنَّ الأمير الشَّاب ثيسيوس خلَّص أثينا من تلك الأتاوة المذلَّة، إذ قتل الوحش. لقد كانت الإلهة الأُمُّ هي الشَّخصيَّة الإلهيَّة الرَّئيسة في كريت الميتويَّة. إنَّها إلهة الخصب. ولم تكن هذه سيِّدة الطَّبيعة البرِّيَّة وحسب، بل وسيِّدة قاطني عالم البرِّيَّة كلهم. فرسموا صورتها فوق قمَّة جبل عادة، رامزين بذلك إلى سموّها فوق هذا العالم كله. أمّا الملك فهو على الرغم من منشئه الإلهي، إلاّ أنهم رسموا صورته عند سفح الجبل الذي تقيم الإلهة الأم فوق قمّته. عدّاك عن هذا أنهم رسموا صورة الملك منبطحاً على الأرض.

وبعد أن قهر الآخيون الهلينيين تعاملوا معهم بعقلانية تثير الإعجاب: لم يمسّوا ثقافتهم أو ديانتهم بأيّ أذى. بل اعتنق المستعمرون عملياً ديانة المستعمرين. بيد أن أشياء كثيرة أُعيد النظر فيها جذرياً مع أنه لم يطرأ عليها أي تبديل يذكر من حيث الشكل. وهذا أمر طبيعيّ، لأنه كان للآخين أيضاً آلهة، وكان العزوف عنهم أمراً فيه كثير من «نكران الجميل». زد على ذلك إن هؤلاء الآلهة لم يكونوا دائماً يشبهون آلهة الإغريق، أي لم يكن من السهل تبديل اسم الإله إلى اسم آخر (إغريقي) والإبقاء على وظائفه عينها. فالإله الآخي الأكبر ديفا لم يكن مماثلاً لزيوس. ولكنّه من حيث وظائفه كان يشبه كثيراً الإله - الثور، إله الديانة الكريتية القبل الآخية. وكانت إلهة الخصب ديفينيا هي زوجة هذا الأخير. وفيما بعد نُقلت هاتان الوظيفتان في اليونان إلى عدد من الإلهات. ففي كريت حملتهما الإلهة بريتومارتيس. ودعيت أيضاً باسم ديكتينا. وكان لهذين الزوجين الإلهيين الساميين ابن يدعى ديونيسيوس، إله الخصب وزراعة الكرمة. ولم يتحوّل الإله بوسيدون فوراً إلى إله البحار. فقد كان اسمه

قبل ذلك بوسيداو. كما كان ثمّة إلهة تدعى بوسيديو. وأخرى باسم إيمايا. وكانت هذه نظيرة الإله هرمس، إله التجارة. كما كان هناك إله الحرب أريس، الذي كان اسمه قبل ذلك إينيال. ولا شك في أن هذه التفاصيل غير مهمّة بالنسبة إلينا. فالواضح أمر واحد: مع اندغام الشعبين كان يندغم آلهتهما أيضاً، ويتحوّلون. ولكن التوافق التامّ في غضون ذلك بين هؤلاء الآلهة وأولئك، كان أمراً مستحيلاً. فالآخيون مثلاً لم يفارقوا بعض آلهتهم البلقانيين الذين لم يكن لدى الإغريق آلهة نظراء لهم. ومع ذلك تحوّل هؤلاء فيما بعد إلى آلهة عظام سكنوا الأوليمب. ومن الملائم أن ننوّه هنا إلى أن جبل إيدّا في كريت كان يدعى بجبل الأوليمب. وكان هذا هو الجبل الذي ولد عليه الإله الإغريقي زيوس وشبّ.

لقد أُقيمت المعابد على قمم الجبال، وأُحيطت بالأسوار. واتصلت مع السفوح بأرصفة.

وطالب الآلهة الكريتيون بذبائح، ولم تكن هذه من الحيوانات دائماً؛ وهو ما تؤكده أعمال السبر الآثاري. لقد كان هؤلاء يحتاجون حياة البشر ودماءهم، لا سيما الأطفال. ففي كنوسوس، عاصمة الملك مينوس عثر الآثاريون على قاعة مليئة بكثرة من الأواني الكبيرة. وعثروا في داخل هذه الأخيرة على أجزاء من هياكل عظمية لأطفال. وقد حمل بعض عظام الأطفال الضحايا آثاراً واضحة لعملية تقطيع أوصالهم. ويجيز لنا ذلك أن نقرر دون تردد أن عبادة زيوس الكريتي كانت مزدهرة في كريت. ومن المعروف أن هذه العبادة كانت تتسم باستغراق أتباعها في حالة الوجد والنشوة الروحية. وكان المقاتلون الفتيان هم الذين يؤدّون طقوس هذه العبادة، فيرتدون الدروع البرونزية، ويقدمون الأطفال قرابين لوثنهم. ولم تكن الإلهة - الأمّ (=إلهة الخصب)، إلهة تحبّ الدماء إلى هذه الدرجة. ولذلك لم تطالب بأن تقدّم لها ذبائح من الأطفال. فاكتفت بالثعابين، والحمام.

لقد اندغم الآخيون بالإغريق، وشنّوا إثر ذلك حملة توسعية كبرى. وباتوا يدعون أنفسهم هللينين. ثمّ دعاهم الإيتروسكيون وبعدهم الرومان: إغريقيين. وقد تشكلت الثقافة الهللينية تحت تأثير ثقافات الشعوب التي أخضعها الإغريق. وكان البيلاسغيون البلقانيون أحد تلك الشعوب. وقد كانت تصوّرات هؤلاء عن الآلهة أكثر تقدّماً ورقيّاً. كما كانوا قد عرفوا المعابد والكهنة المتبتّين.

وكان للكنعانيين (=الفينيقيين) بدورهم تأثير عظيم جداً على تشكيل الثقافة الهللينية. ففي أواخر الألف ٢ق.م كان هؤلاء قد شغلوا مساحات شاسعة جداً من الأراضي امتدت على سواحل البحر الأبيض المتوسّط الأفريقية والأسبانية، وجزر وشبه جزر كان يقطنها الإغريق. ومن المعروف أن الأبجدية الإغريقية ذات أصل كنعاني. كما كان للشعوب

والأقوام الأخرى التي تواصل الإغريق معها مادّياً أو روحياً، تأثير بيّن على ديانتهم وثقافتهم. ولكنّ دراسة هذا الموضوع من مختلف جوانبه ليست هدفنا الآن. ولذلك سوف نقصر اهتمامنا به هنا على إعطاء وصف مختصر جداً لآلهة الإغريق والوظائف التي أُنيطت بهم.

إذن كانت الإلهة الأمّ العظمى هي الرئيسة بين هؤلاء. ولكن أب الآلهة ما لبث أن شغل هذه المكانة. وفي بادئ الأمر كان هذا الأب هو الإله بوسيدون. ثمّ حلّ محلّه الإله زيوس. وقد حافظ بوسيدون على أُلوهيته، لكنّ أبرشيته اقتصرت على البحر. لقد كان زيوس يمتلك وحده من القوّة ما كان يفوق القوّة التي يمتلكها الآلهة الآخرون مجتمعين. وقد عبّر هوميروس عن ذلك في الصيغة الآتية: إذا ما أمسك الآلهة كلهم بالسلسلة الحديدية المقدّسة التي يرميها زيوس من السماء، فإنه لن يكون بمقدورهم شدّه إلى الأرض؛ ولكنّ زيوس يستطيع بدفعة واحدة أن يرفع الآلهة والأرض إلى السماء.

ديميترا، هي أُخت بوسيدون وزيوس. إنها الأُمّ - الأرض، ربّة الطبيعة التي ترى كل شيء. ابنتها برسيفوني، إلهة النبات التي تموت وتحيا كل سنة. وكانت **هيرا** زوجة زيوس حارسة طقوس الانتقال الصارمة، من سنّ الفتوّة إلى فئة الرجال البالغين. ومن المعروف أن شعوباً كثيرة كانت تعرف مثل هذه الطُّقوس. وقد انعكست التَّجارب المريرة التي كان ينبغي على الفتيان اجتيازها لكي يغدوا رجالاً بالغين، انعكست في مآثر هرقل الشّهيرة. ومعنى اسم هرقل نفسه، هو «الذي يمجّد هيرا». لقد كان هرقل ابناً لزيوس، لكنَّ والدته لم تكن هيرا زوجة زيوس، بل امرأة أنسيَّة. ولذلك كانت هيرا تلاحقه وتضطهده.

أرطميس: إلهة الموت. إنّها صيادة ومقاتلة صارمة. تردِّد شخصيَّتها أصداء شخصية ربَّة الحيوانات البرِّيَّة القديمة. عبدوها على الدَّانوب، وفي آسيا الصُّغرى، وسهوب يوراسيا. حيوانها المقدَّس هو الدّبَّة. وتواجه أرطميس بصفتها إلهة الموت، **أثينا** بصفتها الإلهة الحامية الحياة والعمل السِّلمي. لقد كانت أثينا غزَّالة. ووقفت عند بدايات ابتكار العمل الزِّراعي، وتدجين الحيوانات البرِّيَّة، ونشوء المهن، وإخضاع البحر. ولذلك ليس غريباً أنْ تكون هي الإلهة الشَّفيعة والحارسة لدولة - المدينة. فرسموها مع الرمح وعلى رأسها الخوذة الحربيَّة.

كما كان لإلهة الموت أرطميس أخ توأم: **أبوللون**. وقد كان هذا إلهاً صارماً جداً، وقاسياً لا يرحم. ظهرت صفتاه هاتان في كل خطوة كان يخطوها. وثمَّة شواهد على ذلك لا تُعدُّ ولا تحصى. فعلى سبيل المثال، سلخ أبوللون جلد منافسه في مباراة الموسيقى. ومن الجدير ذكره أنَّ هذا حدث بعد أنْ طرأت تحوُّلات مهمَّة على شخصيَّة هذا الإله. ففي بادئ الأمر كان أبوللون إلهاً متغطرساً يتقن استخدام القوس. فقد قهر التِّنِّين المتوحِّش. ولكنَّه غدا

فيما بعد حاضن الفنون. وبات بإمكاننا أنْ نقول إنّه استبدل بالقوس القيثارة. بيد أنَّ قساوته لم تترك المكان للرَّحمة والتَّعاطف.

وكان لأبوللون خصم نقيض، هو الإله **ديونيسيوس**. وكانت الإلهة هيرا الغيورة قد أماتت والدة ديونيسيوس. فألقى الإله المقبل نفسه غير مخدوج. ولكنَّ زيوس لم يهمل ابنه، بل اهتمَّ به، وحمل به هو نفسه ما تبقى من مدَّة الحمل الطَّبيعي ثمَّ عهد به بعد ذلك إلى الحوريَّات ليربينه. لقد تربَّى ديونيسيوس ونشأ في مكان ما في الشَّرق. ولمَّا شبَّ واشتدَّ عوده مضى يجوب العالم. فوصل حتَّى الهند. وكانت صناعة الخمر هي ميدانه الشَّرعي في الحياة الواقعيَّة. ويرمز ازدهار زراعة الكرمة وصناعة الخمور إلى عودته إلى الوطن.

أمَّا **هرمس** فهو رسول زيوس. وقد عبدوه بصفته إله التِّجارة. وما يثير الفضول أنَّهم عدُّوه شفيع اللُّصوص أيضاً. كما كانت له وظائف أخرى. فهو الذي يقود الأرواح إلى المملكة السُّفلى. وبدوره كان الإله **هيفيستوس** يرتبط في بادئ عهده بمملكة الأموات. ولكنَّه صار فيما بعد إلى الإله الحامي المهن. لقد كان هيفيستوس ابن زيوس وهيرا. ولد على الأوليمب. لكنَّ هذا الوليد كان يثير اشمئزاز هيرا (وُلد أعرج وقذراً)، فرمت به إلى البحر. فأنقذته حوريَّات البحر وربَّينه. ولمَّا بلغ سنَّ الرُّشد امتلك هيفيستوس أسرار مهنة الحدادة كلها، وعاد إلى الأوليمب. وقد كان الغرض من عودته خالياً من أيِّ عدوانيَّة: وضع نصب عينيه خدمة سكَّان الأوليمب، فالآلهة أيضاً كانوا يستخدمون السِّلاح الأبيض. لقد عانى هيفيستوس كثيراً قبل أنْ تستقرَّ حياته الإلهية. لكنه كوفئ مقابل ذلك بأجمل امرأة زوجة له. إنها الساحرة الآسرة حارسة الحبِّ الجسدي أفروديت. لقد خرج الآلهة كلهم من زيوس، ما عدا أفروديت. فهي ليست ابنة زيوس. بل ابنة إله السَّماء أورانوس: سقطت بذرة هذا الأخير في مياه البحر، فولدت منها أفروديت. وليس لدى العلماء شكٌّ في أنَّ أفروديت أكثر قدماً من آلهة الأوليمب الآخرين، وأنَّ موطنها الأصل في الشَّرق. وعاش على الأوليمب إله آخر أقلُّ شهرة من الآلهة الآخرين، إنَّه الإله **أريس**. وكان هذا تجسيداً للعنف العبثي الذي يناقض الموقف الإنساني. ونحن يمكننا ألاّ نشكَّ في أنَّ هذا الإله الأوليمبي كان فيما مضى إله الحرب الدَّموي.

أمَّا المملكة السُّفلى، عالم الأموات، فقد كانت تحت إدارة الإله **هاديس**. وفي بادئ الأمر كانت مجالات النُّفوذ كلها موزَّعة بين الآلهة على الوجه الآتي: زيوس ملك السَّماء، وبوسيدون ملك الأرض، وهاديس (= غير المرئي) ملك المملكة السُّفلى. لكنَّ زيوس هزم بوسيدون وطرده من الأرض، فاقتصر نفوذ هذا الأخير على المياه الواهبة الحياة. وبقي هاديس

محافظاً على مصالحه يحكم المملكة السُّفلى دون منازع. وتبدو هذه المملكة على الصُّورة الآتية. يحيط بها نهر ستيكس بتسع حلقات. ويلتقي هذا النَّهر مع نهر الأحزان كوتسيت. ويصب هذا الأخير في نهر ليتو (نهر النِّسيان). وكل مَنْ يمضي إلى العالم الآخر يعبر نهر ستيكس في قارب نوتيه هو هارون النُّوتي. وكان هارون هذا يتلقّى أجراً لقاء خدماته. ولذلك كانوا يضعون للميت قطعة نقود في فمه قبل أنْ يوارى الثُّرى. وكان منزل هاديس في المملكة السُّفلى محاطاً بأبواب حديدية تغلق برتاج مهول. ولذلك رسموا صورة هاديس وهو يحمل مفتاحاً كبيراً. لقد كان هاديس مسؤولاً عن حماية أرواح الأموات؛ فاقتنى لذلك كلباً حارساً له ثلاث رؤوس وتغطي الثَّعابين جسده. وكان هذا يدعى كيربيريوس. كما كانت لهاديس زوجة، هي برسيفوني ابنة ديميترا التي خطفها هاديس عنوة. ولمَّا كانت برسيفوني إلهة الحبوب فإنَّها لم تكن خالية من التزاماتها الأساسيَّة سوى ثلاثة أشهر في السَّنة: شتاء عندما يموت كل شيء.

ولكنَّ فريق آلهة الأوليمب لم يتشكل نهائيَّاً بكامل قوامه إلاَّ في القرنين ٦-٥ق.م.

لقد كانت تصوُّرات الإغريق عن الآلهة تصوُّرات بدائيَّة جداً، مع أنَّ ذلك الزَّمن (زمن بوذا، وزرادشت) كان قد عرف منظومات عميقة ومعقَّدة عن خلق العالم وإدارة شؤونه. وفيما يتَّصل بتصوُّرات الإغريق عن خلق الكون، فإنَّها تشكلت كلها تقريباً تحت تأثير تعاليم الشَّرق. فعُدَّ خلق الآلهة للعالم بمثابة تجاوز للكاوس والسكون. في البدء كان الكاوس (الخراب، الفوضى الكونيَّة). وبعدئذٍ ولدت الأرض (=جيا)، «الرَّحبة الصَّدر». ثمَّ ولدت أعماق أعماق الأرض (= تارتاروس). وظهرت بعد ذلك الشَّهوات والرَّغبات (= إيروس). وأنجب الإله إيروس اللَّيل(= نيكتوس) والديجور(= إيريبوس)، وخرج من الليل والديجور الأثير والنَّهار. وأنجبت الأرض (=جيا) السماء. وكان الشاعر الإغريقي القديم هسيود قد عرض هذه الكوسموغونيا في قصيدته الملحمية «ثيولوجيا». لقد عاش هسيود هذا وأبدع بعد مائة وخمسين عاماً من زمن هوميروس، وكان هذا الأخير قد وصف بدوره عملية خلق الكون. لكن منظومته أكثر بدائية. ولم يكن أيّ من هذين الشاعرين كاهناً متنبِّئاً؛ وإنّما اعتمد كل منهما على المصادر التي كانت متاحة له. وقد ارتبطت المصادر المعنية، بثقافات الشرق. فعلى مدى زمن طويل بقي الاعتقاد سائداً بأن الدّور الرئيس في تصوّرات الإغريق عن خلق الكون كان يعود إلى التصوّرات التي طوّرتها الحضارات المصرية، والآشورية - البابلية، والكنعانية. ولكن المعطيات الجديدة التي توفرت عن الميثولوجيا الحوريّة (آسيا الصغرى)، تؤكّد بدلالة واحدة أن كل شيء (أو تقريباً كل شيء) قد خرج من هنا. فمن الميثولوجيا

الحورية بالذات استمدّت تصوّرات الإغريق عن خلق العالم عناصرها الأولى. لقد ملأ هسيود النظام الكوسموغوني المعتاد بالنسبة للشرق، بأسماء آلهة هللينيين وهندواوروبيين. واعتمد هذا النظام عينه في الإينيادا عند الرومان. ولذلك بات يمكننا القول إن هذا النظام بات نظاماً كلاسيكياً؛ مع أنه كان ثمّة منظومات أخرى عن تشكيل العالم. وقد ساق إيبيمينيدس واحدة منها في العام ٥٠٠ق.م. وحسب هذه المنظومة أن الهواء والليل كانا بداية كل شيء. فمن زواجهما ولد تارتاروس وإلهان. وقد أنجب هذان بدورهما البيضة الكونية. وسوف يلاقي القارئ إشارة أخرى إلى البيضة الكونية في هذا الكتاب. فقد كانت هذه عند الهندو آريين أيضاً. ومن الملائم أن نشير هنا إلى أنه كان عند الهللينيين أسطورة عن ليدا. فقد جاءها زيوس في صورة ذكر البجع، ومن لقائهما وضعت ليدا بيضتين. ففقست من إحداهما الحسناء يلينا ملكة أسبرطة، وفقس من الأخرى التوأمان الديوسكوري.

وتثير حياة الكهنة في اليونان القديمة بعض الاهتمام. فلم يكن هناك من فئة كهنوتية مميّزة مغلقة، كما كانت عليه الحال في مصر على سبيل المثال. إذ اعتقد الإغريق بأن الآلهة يختارون بأنفسهم الناس الذين يلقون عندهم حظوة. ولذلك كان اختيار الناس للمناصب الكهنوتية يجري بالقرعة. وكانت نتيجة هذه الأخيرة تجلّياً لإرادة الآلهة. ولكن هذا الأمر لم يكن وحده الأمر الجديد. فما يثير الاهتمام أيضاً أن الكهنة الإغريق كانوا يعيلون أنفسهم بأنفسهم. لقد كانوا يعيشون على القرابين التي كان يقدّمها الأفراد. ضف إلى هذا أنه سمح لهم بأن يتلقّوا أجراً لقاء الحفاظ في منازلهم على مختلف كنوز الدولة والأفراد. كما كان من حقهم الاستفادة من لحوم ذبائح القرابين، وبيع جلودها، وقرونها، وأظلافها. قصارى القول، لم يكن الكهنة أناساً فقراء. أمّا كبار أغنيائهم فهم الكهنة الذين كانوا يخدمون في المعابد الهللينية المشتركة. فالدخل هناك كان أكبر.

ولم يكن ثمّة قواعد سلوك محدّدة تضبط السُّلوك الشَّخصي للكهنة. ففي بعض المعابد كان عليهم الالتزام بالعذريَّة، بينما فرض عليهم الزَّواج في معابد أخرى. فالمسألة هنا هي أنَّ الكهنة يشرفون على شؤون عبادة الآلهة والإلهات. وكان في كل معبد خادم أو أكثر لكل عبادة. ولذلك كانت المحرَّمات مختلفة. ففي معبد بوسيدون في ميغارا على سبيل المثال، حرَّم على الكهنة أنْ يتناولوا في طعامهم بعض أنواع السَّمك. بينما حرَّم على كهنة معبد أثينا المديني أنْ يأكلوا الجبن الطَّازج. ولكن هذا كله لم يربك كثيراً حياة الكهنة والكاهنات. فقد كان هؤلاء عادة أغنياء، ويحظون بالاحترام، وغالباً ما كوفئوا بالأكاليل الذَّهبيَّة وسوى ذلك من الهدايا.

لقد كانت معابد الهلينيين غنيَّة. وكانت تُخزن فيها كنوز كثيرة جداً. ولذلك كان يجب حمايتها من اللُّصوص المحليين، كما من الغزاة البرابرة. وللدِّفاع عن مقدَّساتهم وكنوزهم ألَّف الهلينيون اتِّحاد المدن الهلينيَّة المقدَّس، وقد ظهرت مثل هذه الاتحادات حول كل المعابد الهلينية الشَّهيرة.

ويجب أنْ نعترف للإغريق بحسِّهم الوطني العالي. فلم ينسَ هؤلاء شهداءهم الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن. فدعوهم أبطالاً. ولم يحظَ بهذا الشَّرف إلاَّ الذين قدَّموا حياتهم في سبيل مجد الوطن. وقد قدَّموا لهم قرابين على مقابرهم. ولم يقدِّم الإغريق آيات التبجيل لأبطالهم فقط، بل للغرباء الذين قدَّموا قدوة يمكن أنْ يقتدي المواطنون الإغريق بها. ومن هؤلاء على سبيل المثال، الغريب ثيسيوس الذي رفعه الإغريق إلى مرتبة أبطال الإغريق. ورأوا فيه مؤسس القوَّة البحريَّة الاثينيَّة. وبما أنَّهم كانوا يقدِّمون القرابين على مقابر الأبطال، فقد اكتسبت هذه الأخيرة أهميَّة خاصَّة بالنِّسبة لدول المدن. وأدَّى الأبطال دور حُماة المركز السُّكَّاني المعني: دولة المدينة. لقد كانوا يؤدُّون الصَّلوات في هذه الأماكن. ويقدِّمون لكل بطل قرباناً مما يحب. فقدَّموا لهرقل قرابين دمويَّة لأنَّه كان محارباً. أمَّا تلنتولوس الذي نشر العمل الزِّراعي فقدَّموا له قرابين من الخبز. وتبعاً لهذه القاعدة كان البطل السكيثي الغريب توكساريس يتلقَّى كل عام جواداً رائعاً ذبيحة. كما قدَّموا لبعض الأبطال ذبائح من الثِّيران، ولآخرين قرابين من الأكباش، و....

وفي كل عام كانوا يسيِّرون المواكب إلى الأماكن التي دارت فيها المعارك. وإلى مواقع المقابر الجماعيَّة لشهداء الدِّفاع عن الوطن. وكان يقود المسيرات العظمى أكبر شخصيَّات دولة المدينة. لقد كان المشهد مهيباً: ينطلق الموكب ليلاً على أضواء المشاعل، ويرتدي المشاركون فيه الأردية الأرجوانيَّة. فيدور السَّيل البشري حول مقابر شهداء حرِّيَّة الوطن. واعترافاً بالجميل لمن وهب دمه للوطن، وتعبيراً عن الشُّكر لهم، كانوا يغسلون شواهد قبورهم الحجريَّة، ويسكبون عليها الطُّيوب، وينثرون الطَّحين المقدَّس ويؤدُّون طقس سكب الخمرة. ثمَّ يدار على المشاركين في الموكب كلهم بكأس واحدة من النَّبيذ. وكان كل مَنْ يرشف رشفة منها يردِّد قائلاً: «إنِّي أشرب نخب من سقط دفاعاً عن هلاَّدا». وفي آخر المطاف يقدِّمون ذبائح من الثيران السَّوداء، ويرفعون الصَّلوات لزيوس، وهرمس السُّفلي.

وفي زمننا هذا لا يعزي أحد الألعاب الأوليمبيَّة المعاصرة إلى ميدان النَّشاطات الدِّينيَّة. ولكنَّها نشأت في اليونان القديمة بصفتها مظهراً من مظاهر خدمة الآلهة. ومن المعروف أنَّه كانت تقام في بلاد الإغريق قديماً مختلف الألعاب الشَّعبيَّة، الإقليميَّة والإغريقيَّة العامَّة.

وكانت هذه تنظّم مرّة كل أربع سنوات. ولكنّ أوّل دورة من دورات الألعاب الأوليمبيّة كانت جنائزيّة، إذ أُقيمت على شرف البطل بيلونوس. وكان قبر هذا البطل يقع عند ملتقى نهري ألثيه وكلاديه. كما أخذت شبه جزيرة البيلوبونيز اسمها من اسم البطل بيلونس. ويروى أنّ هرقل نفسه شارك في أولى الألعاب الأولمبيّة، وقد فاز بالمباريات الرّياضيّة كلها. ولكنّ تاريخ الألعاب الأوليمبيّة الأولى غير معروف حتّى الآن. بيد أنّه يتوفر لدى العلماء الآن معطيات عن الألعاب الأوليمبيّة التي أُقيمت في العام ٧٧٦ق.م. وابتداءً من ذلك العام بدأ الإغريق القدماء (الهللينيون) تأريخ أحداث حياتهم. ومن المعروف أنّ الحروب والصّدامات كلها كانت تتوقّف أثناء إقامة الألعاب الأوليمبيّة. وكان زيوس نفسه يحرس الدُّروب التي تقود إلى أوليمبيا.

لقد كانت الألعاب الأوليمبيّة فعلاً مقدّساً. وعُدّت المباريات الرياضيّة جزءاً لا يتجزّأ من المراسم المقدسّة. وقدّموا لزيوس وهيرا وسواهما من الآلهة والإلهات، القرابين اللائقة وكان الظّافر في الألعاب الأوليمبيّة يُعدُّ مميّزاً من قبل الإله. فيقلّد إكليلاً من الزيتونة المقدّسة التي تنمو في أرض المعبد. وفي بلاده كان البطل الأوليمبي يحظى بآيات المجد والتّكريم التي كانت للآلهة وحدهم. وعدا عن الألعاب الأوليمبيّة كانت تقام في بلاد الإغريق ألعاب هللينيّة أخرى. ومن أشهر هذه الأخيرة، الألعاب التي كانت تقام في دلفي على سفوح جبل بارناس. وكانت هذه مكرّسة للإله أبوللون. وبما أنّ أبوللون كان حارس مختلف الفنون، لذلك أُولي هذا الميدان اهتماماً كبيراً في المباريات. ولكنّ برنامج الألعاب كان من حيث أنواعها، هو نفسه برنامج الألعاب الأوليمبيّة. لقد اعتقدوا أنّ أبوللون نفسه أسّس ألعاب دلفي. لقد تبارى هنا الشُّعراء، والموسيقيون، والخطباء، والممثلون الإيمائيون و.... وكانت المباريات الرّياضيّة تترافق بالعزف الموسيقي. وثمّة على جدار أحد مباني دلفي نصٌّ مقطع موسيقي مدوّن بعلامات النُّوتة الموسيقيّة.

وعلى عنق كورنثوس (الاسم القديم لإيستم)، كانت تقام ألعاب على شرف الإله بوسيدون، فقد كان هذا الإله الرّئيس في تلك الأنحاء قبل أنْ يشغل زيوس هذه المكانة. وكان الفائزون فيها يقلّدون أكاليل من أغصان الصنوبر. وفي وادي نمسيس كُرِّست الألعاب لزيوس. وكان قد أسّسها الأبطال السّبعة الذين شاركوا في الحملة على طيبة.

أمّا المسرحيّات الدّينيّة فقد تحدّثنا عنها سابقاً. وكانت هذه تقام في اليونان القديمة. ولكنّها لم تكن أعياداً قوميّة. إنّها مشاهد تؤدّى للمختارين، للمكرّسين. وكان الغرض منها إطلاع دائرة محددة من الأشخاص على معارف سرّيّة مكنونة. لقد كانت تقام في مثل هذه الاحتفالات طقوس لم يكن الاطلاع عليها متاحاً إلاّ للمكرّسين. وكانت المسرحيّات

الدِّينيَّة تعرض في شتَّى مدن اليونان، لكنَّ أشهرها كانت تلك التي كانت تُعرض في أثينا، وفي جزيرة ساموتراقيا.

لقد كانت المسرحيَّات الدِّينيَّة التي تقام في إيلفسين في ضواحي أثينا مرَّة كل عام، مكرَّسة لأسرار العالم الآخر. وكان ذلك إعداداً للذين يشاركون فيها للانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر. ولم يكن اختيار مدينة إيلفسين لإقامة المسرحيَّات فيها من قبيل المصادفة. ففي زمن ما كانت ابنة ديميترا الإلهة كورا تجمع الزُّهور في هذا المكان مع أثينا وأرطميس. وإذ قطفت كورا زهرة زعفران انشقَّت الأرض أمامها. وعبر ذلك الشُّقِّ حمل هاديس إله المملكة السُّفليَّة كورا ومضى بها إلى هناك. فتزوَّجها. وقد بحثت ديميترا طويلاً عن ابنتها. وعانت الطَّبيعة كلها جرَّاء فقدان كورا: جفَّت الأنهار، وأقحلت الحقول. فأحدق خطر الموت جوعاً بالنَّاس. ولكنَّ ديميترا عرفت أخيراً مكان ابنتها. وطالبت بأنْ يعيدها هاديس إليها دون إبطاء. بيد أنَّ ذلك كان مستحيلاً؛ فكورا كانت قد فقدت الخلود لأنَّها أكلت من ثمار بستان العالم السُّفلي (من شجرة الرُّمَّان). عندئذ التأم مجلس الآلهة وحسم الأمر كما يلي: بعد أنْ باتت كورا زوجة هاديس، صار لزاماً عليها أنْ تقضي ثلث العام مع زوجها في المملكة السُّفليَّة. أمَّا باقي أيَّام السَّنة فتقضيها فوق سطح الأرض. وإذ تكون كورا على سطح الأرض، فإنَّ هذه تزدهر وتعطي ثمراً. ومع رحيلها إلى العالم السُّفلي تغرق الأرض في سبات الشتاء العميق.

وعلى محور الازدهار والسُّبات، الحياة والموت هذا، بنيت المسرحيَّات الدِّينيَّة الإيلفسينيَّة. وقد بقيت تعرض وفق السِّيناريو عينه على امتداد آلاف السِّنين. فمنذ القرن ١٧ق.م. بدأ عرض تلك المسرحيَّات. وبعد ألف عام أخذ الأثينيون يقودونها. وعلى وجه العموم لم يشارك في المسرحيات سوى مدينتين: أثينا التي كانت تمثِّل الحياة، وإيلفسين التي كانت تمثِّل الموت.

وكان كل شيء يبدأ هكذا: يجتمع في مدينة الحياة أثينا كل المزمعين المشاركة في المسرحيَّات لأوَّل مرَّة (= النيوفيتيون). ولكنْ مَنْ كان يستطيع الالتحاق بعداد هؤلاء؟ فقط العارفون باللُّغة الإغريقيَّة ممَنْ لم تتلوَّث سمعتهم بارتكاب أيِّ إثم. ضف إلى هذا إنَّه كان ينبغي على الشَّخص المرشَّح للمشاركة أنْ يجتاز بنجاح طقوس التَّكريس الصُّغرى التي كانت تقام قبل عام من بدء طقوس التَّكريس العظمى. وبعد أنْ يكتمل تشكيل الفريق المشارك، كان الكهنة ينقلون تمثال ديونيسيوس من إيلفسين إلى أثينا. فالتِّمثال هو قدس المسرحيَّات الرَّئيس. لقد كانت إقامة الطُّقوس تبدأ من تاليرون، وهي إحدى ضواحي أثينا، حيث كان يؤدَّى هنا الطَّقس الأوَّل من طقوس التَّكريس. وقد دعي هذا: «إلى البحر أيها

المشاركون». وتلخَّص هذا الطَّقس في أنَّ كل مشارك (= ميست) كان يقود فرخ خنزير ويعوم معه في مياه البحر. وبعد ذلك كان الميست يقدِّم حيوانه ذبيحة في أثينا. فبهذا الدَّم كان النيوفيت يغسل آثامه غسلاً رمزياً.

بعد الانتهاء من الطَّقس الأوَّل يتابع الموكب مسيره بقيادة ديونيسيوس (= تمثاله طبعاً) والكاهنين الأكبرين. لقد كانت طريق الموكب تمتدُّ في إيلفسين. فيسير المشاركون على «الطَّريق المقدَّسة» من مدينة الحياة أثينا، إلى مدينة الموت إيلفسين. وعلى الحدود بين المدينتين كان المشاركون يؤدُّون شعائر خاصَّة ترمز إلى عبور الحدود الفاصلة بين الحياة والموت. وكان يقوم على الحدود هنا جسر عبر نهر كيفيس. ومع عبور المشاركين الذين كانوا يرتدون ملابس سوداء، كانت تنزل اللَّعنات الطُّقوسيَّة على رؤوسهم؛ وكانت هذه ترمز إلى إماتتهم شعيريَّاً. ثمَّ يصل المشاركون بعد ذلك إلى مملكة الزَّعفران. ولم يكن الزَّعفران هذا سوى إله - زهرة أسطوري. إنَّه هو عينه الذي فقدت الإلهة كورا حياتها بسببه. وهنا كانوا يقيِّدون المشاركين بقيود رمزيَّة («يقتلونهم»). فيربطون لهم على اليد اليمنى والسَّاق اليسرى شريطة بلون الزَّعفران. ثمَّ كان ينبغي بعد ذلك اجتياز حدٍّ آخر. إنَّه المستنقعات. فقد عدُّوا هذه الأخيرة بيئة الخلق الأوَّل. وكان المشاركون يدخلونها بصفتها عتبة العالم الآخر. وبهذا يكون الموكب قد بلغ هدفه الأخير: إيلفسين، «الميتة» طقسيَّاً وأسطوريَّاً. ولكنَّ ذلك كله لا يعني أنَّ محنة النيوفيتيين قد انتهت عند هذا الحدِّ. فالمرحلة الأصعب والأكثر رعباً ما زالت تنتظر. وقد تلخَّصت الفكرة في أنَّه كان ينبغي على كل منهم أنْ يعاني حالة الرُّعب من الحيوانات معاناة حقيقية وليست طقسيَّة هذه المرَّة. لقد كان عليه أنْ يعاني شدَّة نفسيَّة قويَّة. لأنَّه بذلك فقط يستطيع أنْ يلقي نظرة على لجَّة العالم الآخر. وكانت أفعال المعاناة هذه تجري في مدينة تيليستريون. ثمَّ بعد أنْ يجرِّب المشاركون حالة الخوف من الحيوانات في مكان مظلم ظلاماً دامساً تتردَّد في أرجائه صرخات وحشيَّة، يظهر أمامهم على حين غرَّة نور ساطع يريح النَّفس، وتتهادى إلى أسماعهم أنغام موسيقى. فلحالة التَّضادِّ في مثل هذه الأجواء أهمِّيَّة بالغة، إذ ترمز بذاتها إلى انتقال المشاركين في الطَّقس من الموت إلى الحياة. فيرتدي المنبعثون حللاً بيضاً. وبينما هم يعيشون حالة الانفعال النفسي تلك يظهر أمامهم الرَّمز الإلهي.

لقد كان يمكن لطقس التَّكريس الأعظم الذي يلي طقس التَّكريس الأصغر، أنْ يتواصل بعد عام. فبعد أنْ يعيشوا حالات جديدة من الشِّدَّة النَّفسيَّة، يغدو المشاركون الذين يرغبون في الالتحاق بالدَّرجة التَّكريسيَّة الأعلى، «مدركين لما لا يدرك»: يتجلَّى أمامهم المغزى الإلهي، الزَّهرة التي قطفتها الإلهة كورا.

وكانت إجراءات التّكريس الأعظم التي وصفناها هنا تستمرُّ سبعة أيّام. يعود بعدها «المنبعثون» إلى مدينة الحياة أثينا. ولدى عبورهم جسر نهر كيفيس كان هؤلاء يتعرّضون لازدراء طقسي. وكان يجب أنْ يفهم ذلك على أنّه عودة إلى حياة جديدة.

وفي مسرحيّات ديونيسيوس الأكثر قدماً، التي كانت تقام في دلفي، كانت تشارك الكاهنات - المجنونات (= الميناديس). وقد عهد لهنّ بالدّور الرّئيس فيها. وكانت هؤلاء تدفعن بأنفسهنّ حتى حالة الجنون ثمّ يقدّمن الحيوان الإلهي ذبيحة، ويلتهمن جسده ودمه. وكان ذلك يعني انبعاث الإله، وتحقيق فعل «الزّواج المقدّس». كما كانت الحيّة رمز انتصار الحياة. ولذلك كانت الكاهنات تحملن ثعابين حيّة تحت ثيابهنّ. وربّما لهذا السّبب وصفن بالجنون.

ولكنّ سيناريو تلك المسرحيّات تغيّر مع مرور الزّمن. فكفّ المشاركون عن شرب دماء حيوان الذّبيحة. بيد أنّ جوهر المسرحيّات بقي هو عينه ولم يتغيّر: إلقاء نظرة على العالم الآخر عبر بلوغ حالة الشّدّة النّفسيّة. ولم يتوقّف عرضها حتى العالم ٣٩٦م.، عندما دمّر الويستغوط معبد ايليفسين ونهبوه.

الفصل الرابع

مجْمع آلهة الرُّومان

لم يكن لدى الرُّومان القدماء أنفسهم مجْمع آلهة خاصٌ بهم، لأنَّه لم يكن لهؤلاء آلهتهم الخاصَّة، وبقدر ما تفكِّر أكثر في جوهر المجتمع الرُّوماني القديم، بقدر ما تكتشف من العناصر المشتركة بينه وبين المجتمع الأمريكي المعاصر بنفعيَّته، وتدنِّي مستوى ثقافته الشَّعبيَّة، وفقره الروحي، وغياب الخيال فيه، وهجرة الإيمان الحقيقي منه. والحديث لا يجري هنا عن الإيمان الصادر عن العقل، بل عن الإيمان النَّابع من القلب، أي ذلك الإيمان الذي لا يسألون عمَّا يعطيه، أو عن حاجة المجتمع له. فالرُّوح والإيمان هما أُسُّ الحياة، والملاط الذي يضمن رسوخ البناء الاجتماعي. وعند الرُّومان القدماء استبدل بهذا الملاط الإسمنتي رمل النَّفعيَّة وتحقيق المكسب (الفردي أو الاجتماعي: لا فرق). ولذلك انهارت التَّراتبيَّة الاجتماعيَّة الرُّومانيَّة، على الرغم من أنَّ طول بقائها يثير انطباعات كثيرة. أمَّا النِّظام التَّراتبي الأمريكي العالمي الجلف الفظُّ، فإنَّه سوف ينهار أسرع كثيراً، لأنَّ البناء كله مبنيٌّ بغير هذا الملاط الإسمنتي المتين، وبغير هذا الإيمان الصَّادق النَّقي بالقوى العليا، بالمغزى الأسمى للحياة. فالأرصدة المصرفيَّة لا يمكنها أنْ تحلَّ محلَّ هذا المغزى، ولذلك فإنَّ النِّهاية المأساويَّة لهذه الحضارة التي قيَّدت العالمَ كله تقريباً، من قرونه، وأحرقت فيه كل ما هو حيّ صادق، ودمَّرت كل ما هو سام ونبيل، نهايتها هذه باتت قريبة. فلم يكن لدى الأمريكيين، ولا يمكن أنْ يكون لديهم دستويفسكي، وتولستوي، وتشيخوف، وتشيجيفسكي. فنظامهم ليس مبرمجاً لإنجاب مثل هؤلاء.

ولم يكن ذلك مبرمجاً لدى الرُّومان أيضاً. فروحهم لم تتصل يوماً بالآلهة، بل كانوا ينتقون هؤلاء حسب الحاجة، عند الضَّرورة. وقد رأوا أنَّه ما دامت القوَّة موجودة، فلا حاجة للرُّوح. وعندما كانوا يقهرون الشُّعوب الأخرى كانوا يذلُّون آلهتها أيضاً. فبنوا لهم المعابد، لكنْ ليس إيماناً بهم، بل طمعاً في تحقيق المنافع من هؤلاء الآلهة المستعبدين. وبرَّأوا أنفسهم بتعطُّشهم لتحصيل المنافع الاجتماعيَّة من الآلهة، وكان يجب أنْ يسوغ هذا لهم كل شيء. إنَّ

التَّاريخ لم يعرف شعباً على الإطلاق كان فقيراً كالرُّومان إلى العنصر الرَّئيس: الرُّوح والإيمان.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ مثل هذه الحال لم تكن أزليَّة، وإنَّما تشكلت مع ترسيخ أركان الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، وقبل ذلك كان سكَّان إيطاليا يؤمنون بالآلهة والمعبودات، مثلهم في هذا مثل الشُّعوب الأخرى كلها. لقد كانت لهؤلاء تصوُّراتهم عن آلهة السَّماء، التي ورثوها عن معتقدات الماضي الهندوأوروبي البعيد. ولم يكن هؤلاء الآلهة قد نُظِّموا بعد. فلم يكن لهم مقر واحد ثابت. بل كانوا يقيمون في مختلف الأدغال. وكان سكَّان إيطاليا يخاطبون آلهتهم هكذا تقريباً: «أعينونا أيها اللاري، لا تسمح يا مارس بنزول الأمراض والخراب على الكثيرين. اشبع يا مارس القاسي. اقفز على العتبة، وابقَ هناك. سوف ندعوكم بالتَّناوب يا سيموني». واللاري والسيموني أرواح، تحرس الأولى النَّاس، وتحرس الثَّانية المزروعات. كما كانت هناك أرواح للمياه، والأنهار. وقد تخيَّلوها في صورة ثيران رهيبة جامحة، أو فتيات آسرات رخيمات الصَّوت. ودعوها بالكارمينات. وتعني كلمة «كارمين» بالإغريقيَّة «أغنية». وكانت هناك أرواح للعناصر، والأشياء، والموادِّ الأخرى. لقد كان كل شيء مكلوءاً بالأرواح. وكنَّا قلنا إنَّ حقلاً واحداً من المعلومات كان يمتدُّ عبر كل شيء. ولذلك لم يكن ثمَّة مغزى في أنْ تعطى الأرواح والمعبودات أسماء أو علامات مميَّزة. كما لم تكن هناك حاجة لرسم صور لهؤلاء، ومنحهم صورة إنسان، أو حيوان، أو هيئة تجمع بين الشَّكلين. لقد ظهر الإيمان في صورته النَّقيَّة البدئيَّة، بغير تقسيم الآلهة وتوزيع ميادين النُّفوذ عليهم. فلم يقاتل الآلهة بعضهم بعضاً، ولم يتزاوجوا، ولم يلاحق واحدهم الآخر، بمعنى آخر، إنَّ هؤلاء لم يسلكوا سلوك البشر. وبقوا آلهة، وبمعنى أدق كانوا تجليَّاً لإله واحد أحد. وبقدر ما يكون الإنسان أقرب إلى الطَّبيعة، بقدر ما يكون تصوُّره عن العالم المحيط أكثر دقَّة وقرباً من الواقع. وما له دلالته أنَّ بعض الأرواح لم يكن ينتمي إلى أيٍّ من الجنسين، وهو أمر طبيعي. لقد كان المحيط مليئاً بالأرواح. فلكل تلٍّ من تلال روما السَّبعة روحه الخاص: إلهه. وكانوا يقدِّمون القرابين لكلهم، مرَّة واحدة يوم العيد المشترك الذي كان يدعى: التِّلال السَّبعة. وكان الرُّومان، والسَّابين قد استوطنوا تلك الأماكن؛ وكان لكل منهم لغة مختلفة. وقدَّم الرُّومان - الإيطاليون القرابين لأشجار البلُّوط والتِّين وما شابه. وعندما كانوا يقسمون اليمين كانوا يشهدون على ذلك الآلهة والأشجار. وفي روما نفسها كانوا يبجِّلون شجرة التِّين أسمى تبجيل. لقد

كانت تلك هي شجرة التِّين عينها التي أرضعت الذّئبة تحت ظلّها مؤسِّسي روما: ريموس ورومولوس.

وقبل أنْ تظهر الدَّولة كانت عبادة الآلهة قويَّة جداً في كل عائلة (= عشيرة) رومانيَّة. وكان ربُّ العائلة هو الذي يقيم طقوس عبادتها. ولم يكن يسمح للغرباء بحضورها، لأنَّ ذلك عُدَّ كفراً. وإضافة إلى العائلة (العشيرة)، كانت هناك الطّوائف الرِّجاليَّة. وكان يقيم شعائر طقس الذّبيحة هنا، الشّخص الذي تختاره الطّائفة. وكان من الضَّروري أنْ يتَّصف هذا بالصِّفات التَّالية: أنْ يكون تجاوز الخمسين من عمره، ألاَّ يكون فيه أيُّ عيب جسدي، وأنْ يكون سلوكه نموذجاً يحتذى به. أمَّا الشّيء الأهمُّ بالنِّسبة للحياة، فهو المحصول الجيِّد. ولذلك كانت الطّوائف (الكوريات) الرِّجاليَّة تقدِّم قرابين لإلهات الخصب. وقد كنَّ كثر.

لقد كان المجتمع الرُّوماني يتألّف من عشائر وكوريات. ولكنْ رويداً رويداً أخذ يتوافد إلى المكان مستوطنون جدد. ولم تكن أعداد هؤلاء قليلة. وقد حمل هؤلاء اسم: بليبس، بينما حمل أولئك الذين كانوا ينتمون إلى عشيرة من العشائر أو كوريا من الكوريات اسم: باتريسي. وكان بدهيّاً أنْ يُعدَّ الباتريسي أنفسهم سادة المجتمع الرُّوماني. ولم يُسمح للبليبس الوافدين بحضور احتفالات السُّكّان الأصليين (= الباتريسي)، كالاحتفال بأعياد أقدم آلهة الرُّومان، وإقامة الطُّقوس المرتبطة بتأسيس روما. وما يثير الفضول أنَّ الباتريسي عبدوا آلهة مغرقة في التجريد مثل: الشَّرف، والأمانة، والنَّصر، والوفاق.

ومن الوجهة النَّظريَّة كان ذلك صحيحاً تماماً، ولكنَّه كان خالياً من أيِّ روح. أمَّا البليبس فقد كانوا أُناساً يتميَّزون بالحيوية في أحاسيسهم، ومعتقداتهم، وإدراكهم للأشياء، ولكنَّ قدرهم هو الذي ساقهم إلى روما من مختلف الأنحاء: من أراضي أريسيا، وتوسكول، وأناغنيا، وتيبورسا. وقد حمل هؤلاء معهم إلى روما أرواحهم وآلهتهم الحيَّة. ومن هؤلاء الآلهة، الإلهة فورتونا التي تأقلمت مع روما. ويبدو أنَّ الملك الرُّوماني السَّادس سيرفيوس توليوس كان نصير البليبس. فقد أسَّس معبداً لفورتونا، ووضع فيه تمثالاً خشبيّاً للإلهة، وهو الأمر الذي كان غريباً عن معتقدات الباتريسي، وعلى امتداد الطور المديد من تاريخ العلاقات بين الباتريسي والبليبس، كانت طقوس خدمة الآلهة تقام على حدة، ولم يُسمح بأيِّ تداخل كان. وقد انسحب هذا التَّحريم الصَّارم حتى على المسائل ذات الطَّابع الاجتماعي. فالتَّنجيم على سبيل المثال، كان شائعاً شيوعاً واسعاً عند الرُّومان. ويبدو أنَّ

موقفهم منه اتَّسم بكثير من الجدِّيَّة. فبغير رأي المنجِّمين لم يكن ممكناً تحديد أيِّ عمل له أهمِّيَّة اجتماعيَّة تذكر. ولكنْ لم يُسمح للبليبس بحضور مثل هذه الطُّقُوس. ومعنى هذا أنَّهم أخرجوا خارج الحياة الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة للمجتمع الرُّوماني. وغنيٌّ عن البيان أنَّ ذلك أعاق تطوير بناء الدَّولة.

ولم تظهر الدَّولة الرُّومانيَّة وتترسَّخ أركانها إلاَّ بعد أنْ تمَّ تجاوز التباين بين حقوق الباتريسي والبليبس. فقد كان البليبس وآلهتهم الشَّريان الحيوي الذي غذَّى بنية دولة روما. ومع ذلك كانت قيادة الدَّولة والمجتمع بيد الباتريسي. فقد كان هؤلاء رمزاً للفاتحين الأوائل، وحاولوا إخضاع كل شيء لنفوذ هذه الفكرة. بيد أنَّ هذا كان موقفاً براغماتيَّاً صرفاً. وبمرارة ظاهرة نوَّه الشَّاعر الرُّوماني فرجيليوس إلى أنَّ التُّربة الرُّومانيَّة لم «تحرث بمحراث الإيمان، ولم تبذر ببذار الخيال الدِّيني». فلم يكن موجوداً هنا أيُّ شيء مما يشبه الزرادشتيَّة، أو البوذيَّة، أو حتَّى الهندوسيَّة. لقد فهم الباتريسي الدِّين نظاماً من المعايير معدَّاً إعداداً دقيقاً. وقد وظِّفت تلك المعايير كلها لخدمة غرض واحد: بلوغ الهدف المحدد (بغير خسائر زائدة). أمَّا المعايير فقد كانت تحدد بدقَّة، إلى أيِّ إله ينبغي التَّوجُّه، وفي أيِّ صيغة، وأي عهد يجب أنْ يقطع أمامه. إذن يتلخَّص فهم الرُّومان للدِّين في بلوغ الهدف المحدَّد مسبقاً بأقلِّ الخسائر المادِّيَّة والمعنويَّة. ومن الواضح أنَّ هذا النِّظام الاجتماعي الدِّيني الذي بناه الرُّومان، شكل لدى المواطنين مزاجاً ذا طابع خاصٍّ. فقد كان ذلك النِّظام موجَّهاً لتطوير حسِّ اليقظة، وحسن التدبير، والدِّقَّة، وقوَّة الشَّكيمة. وقد نمت عندهم في غضون ذلك روح الشَّكليَّة، وكان طبيعيَّاً أنْ تغيب روح الخيال. ومن البدهي أنَّه بغير الخيال لا يمكن أنْ تكون هناك فلسفة، أو شعر، أو دين حقيقي، أو فنّ. وقد رأى الرُّومان في هذا كله أشياء زائدة لا لزوم لها. واتَّخذوا من الشُّعوب التي كان لها مثل هذه الإبداعات: الإغريق، والمصريين، والسوريين، والأرمن، موقفاً مليئاً بالغطرسة والكراهية. ويذكِّرنا هذا الموقف بالمتغطرسين الأمريكيين المعاصرين الذين يعتقدون أنَّ بإمكانهم تقرير مصائر النَّاس والبلدان في كل بقعة من بقاع الأرض، لكنَّهم في الوقت عينه عاجزون عن رؤية عجزهم ومحدوديَّتهم. ولا يعيق هذا الأمريكيين عن سلب البلدان الأخرى كل ما يرونه ضروريَّاً لهم. وكذلك كان يفعل الرُّومان أيضاً، إذ نقلوا آلهة الشُّعوب التي قهروها عنوة إلى بلادهم، آملين أنْ يؤدِّي هؤلاء لهم الخدمات المرجوَّة. وكان أوفيديوس قد وصف هذا المشهد في قصيدته الملحميَّة: «فاستا».

صمت الكاهن إذ استعرض الأفعال القدريَّة في الأغاني الإيبيَّة:

«ينبغي على الرُّوماني أنْ يجد لنفسه أُمًّا»

مَنْ هي هذه الأُمُّ وأين تقيم؟

الآباء – أعضاء سينات روما في حيرة.

«لا بدَّ من أنْ يُسأل أبوللون».

وقد أجاب هذا على السُّؤال:

«ابحثوا عن الأُمِّ في الآلهة الخالدين على جبل إيدًا الفريجي».

وكان الملك أتَّال قد امتلك فريجيا عندئذٍ بالصَّولجان.

فلم يمنح موافقته للسَّفارة التي وصلت من روما.

وحدثت المعجزة. لقد ارتجَّت الأرض حتى أعماقها.

وانفجر صوت الإلهة المختبئة في الجبال:

«أُريد أنا أنْ أكون في روما. خذوني دون تأخير.

سوف تغدو روما بعد الآن مسكن الآلهة الخالدين».

إذن لم يكتفِ الغزاة بما كانوا ينهبون، بل أرغموا الآلهة أنفسهم على تبرير نهبهم وتمجيده. فالإلهة طلبت بنفسها كما رأينا، أنْ تنتقل إلى روما. ولم ينتزعها أحد من أحضان الشَّعب الذي أنجبها وعلَّق عليها آمال المستقبل. وظهر الأمر كأنَّ الرُّومان قوم نبلاء. إنَّهم لا يفعلون إلاَّ ما يحقِّق مصالحهم. وهكذا يفعلون اليوم غير آبهين بالآخرين.

وكان أوغسطين الطوباوي (٣٥٤-٤٣٠م.) محقّاً عندما لاحظ أنَّ الرُّومان جعلوا من آلهة الآخرين بحارة عندهم. فقد نقلت القوَّات الرُّومانيَّة تمثال الإلهة أوني من المدينة الأيتيروسكيَّة العظمى أو المحتلَّة فيي وجاءت به إلى روما. وكان الجنود قد تسلَّلوا إلى المعبد عبر ممرٍّ أرضي وسرقوا تمثال الإلهة. ولم تكن هذه هي المرَّة الوحيدة التي سرق الرُّومان فيها الآلهة. ففي العام ٣٦٤ق.م. مثلاً، نقل الرُّومان إلى روما تمثال الإلهة نورتيا الذي كان يقوم في معبد مدينة فولسيني الإيتروسكيَّة. وقد فعلوا ذلك لكي تصنع الإلهة للرُّومان الخير. وفي موطن الإلهة كانوا يدقون كل عام مسماراً ذهبيّاً في جدار معبدها. ولكي تبقى الإلهة على نشاطها المعتاد، أقام لها الرُّومان النِّظام الذي اعتادت عليه عينه. فحملوا معهم

المسامير الذَّهبيَّة من هناك وصاروا يدقُّون واحداً منها كل عام في جدار معبد جوبيتر الكابيتولي.

من آسيا الصُّغرى حمل الرُّومان إلى روما أُمَّ الآلهة، الإلهة كيبيلا. وقبل ذلك بقليل كان قد سقط قرب مركز عبادة كيبيلاً حجر نيزكي أسود اللَّون. وقد عُدَّ هذا الحجر بمثابة الصُّورة السَّماويَّة لأُمِّ الآلهة. فأقيم الحجر في معبد مدينة بيرغاموس. وأراد الرُّومان امتلاك تلك المادَّة المقدَّسة أيضاً. فانتزعوه من السُّكَّان الأصليين وشحنوه بحراً إلى روما. ثمَّ شاعت إثر ذلك حكاية خرافيَّة وضعت الرُّومان موضع الإكبار والتمجيد. فزعموا أنَّ الأمر كان على الوجه الآتي: في الطَّريق جنحت السَّفينة التي تحمل الحجر السماوي واستقرت في مكان مياهه ضحلة. لكن عذراء فستالكا أنقذت الوضع. وكانت هذه كاهنة الإلهة فستا. لقد عجز الفريق كله عن زحزحة السَّفينة من مكانها. ولكنَّ الإلهة فستا باركت انتقال الإلهة الغريبة إلى روما (المسوِّغ الأخلاقي). ومرَّة أخرى يظهر الرُّومان في أعلى قمَّة السُّلَّم الأخلاقي، في السُّموِّ الإلهي (من وجهة نظرهم). وفي روما وضعوا النَّيزك المقدَّس في معبد فيكتوريا. ولم يكن هذا من قبيل المصادفة، ففي تلك الأثناء كانت تدور رحى الحرب البونيَّة الثَّانية (= الحرب ضدَّ هانيبعل)، كان كلهم يفكِّر بالنَّصر (فيكتوريا).

وحملوا مع كيبيلا إلى روما معشوقها، الإله أتِّيس. وكان هذا الإله إله النَّباتات، ولذلك كان يموت ويحيا دوريًّاً كالزُّهور. ونذكر في السِّياق أنَّ الزُّهور وكذلك الأشجار نبتت من دماء أتِّيس. وقبل رحيلها إلى روما كانت الإلهة كيبيلا شديدة الغيرة على حبيبها أتِّيس. ولذلك خصى الرَّجل نفسه في واحدة من نوبات جنونه. وقد وقع الحدث تحت شجرة صنوبر. ثمَّ تحوَّل بعد ذلك إلى طقس مريع. وتلخَّص في إقدام الكهنة - الغال على فعل ما فعله أتِّيس في حينه: إخصاء أنفسهم. لقد عمل الرُّومان على إرضاء كيبيلاً، لأنَّهم خشيوا إنْ لم يفعلوا أنْ تعزف الإلهة عن مساعدتهم. ولإقامة طقس الإخصاء هذا استقدم الرُّومان كهنة غاليين إلى روما. ولم يردعهم عن ذلك كون القرابين الدمويَّة تخالف الدِّين الرُّوماني، والمعايير الأخلاقيَّة الرُّومانيَّة الرَّسميَّة. فأقاموا ذلك الطَّقس الشَّرقي الدَّموي على مقربة من معبد الإلهة فستا التي كانت رمز العفَّة.

وهكذا مع مرور الزّمن كان قوام الآلهة الرُّومانيَّة (المسجَّلين في روما) يتغيَّر تغيُّراً جوهرياً. فقد كان هؤلاء جماعة شديدة التَّنوُّع. وكانت أخلاق بعضهم وطقوسهم تناقض أخلاق بعضهم الآخر وطقوسهم. ولكنَّ هذا لم يزعج الرُّومان أبداً. فالأمر الأهمُّ بالنِّسبة إليهم كان يتلخَّص في استغلال الآلهة كلهم. وبما أنَّه لم يكن لديهم آلهتهم، لذلك استخدموا الغرباء. فقد كتب فرجيليوس يقول:

لم تعبر الثِّيران أرضنا،

نافثة النَّار من خياشيمها،

ولم تدخل أخاديدها

نيوب الهيدرا الوحشيَّة،

ولم ترتفع رماح الرِّجال

المستعدِّين لخوض المعركة في سبيلها.

وفي عهد تيطوس تاتيوس جرى نقل بعض آلهة السَّابين إلى روما. ولمَّا اعتلى عرش روما الملك السَّابيني نوما بومبيليوس، ضاعف عدد آلهة السَّابين في روما. وكان هذا قد أنجز تشكيل الدِّيانة الرومانيَّة، وأنشأ التَّقويم الرُّوماني. وعندما ملك في روما الملوك الإيتروسكيون من آل تركويني، ظهر على الكابيتول الآلهة الإيتروسكيون أيضاً. ولم يبقَ من آلهة الرُّومان الأقحاح هنا سوى ثلاثة: مارس، وجوفينس، وثيرمين. وبعد أن استولى الرُّومان على المدن الإغريقيَّة في جنوبي إيطاليا، أقيمت في روما عبادة أبوللون. وكان لا يزال يدعى وقتئذٍ باسم ميديكوس. فالمسألة الطِّبِّيَّة كانت عندئذٍ مسألة ملحَّة جداً، لأنَّ الرُّومان كانوا في أوَّل عهدهم بالأوبئة. أمَّا قبل ذلك فلم تكن معاناتهم إلاَّ مع الحمَّى، وقد حاولوا إتقاء شرِّها بتقديم القرابين للإلهة التي حملت الاسم عينه: حمَّى. وخلافاً للإيتروسكيين، لم يدرك الرُّومان ضرورة إبعاد مصدر الحمَّى: المستنقعات. فجعلوا أبوللون ضدَّ الوباء، ثمَّ ابنه اسكليبوس الذين كان إله المداواة. وأطلقوا عليه اسم إيسكولاب. وخصَّصوا له أرضاً على جزيرة صغيرة مقابل سوق الثِّيران. وصاروا ينقلون العبيد المصابين إلى هناك، حيث يجب أنْ يعتني بهم الإله إيسكولاب. ويبدو هذا السُّلوك سلوكاً عمليَّاً جداً للوهلة الأولى، بل سلوكاً يرضي الآلهة. فلم يرم الرُّومان المرضى ليلاقوا مصيرهم، وإنَّما وضعوهم تحت عناية الإله. وقد كانت هذه الأخلاق الازدواجيَّة تسم بطابعها ميادين نشاط الرُّومان كلها.

وليس أدلُّ من كلمات أوغسطين الطوباوي في كتابه «مدينة الإله»، على المدى الذي بلغه الرُّومان في استخدام الآلهة.

«... هل يمكننا أنْ نستذكر كل أسماء الآلهة أو الإلهات الذين بالكاد استطاع الرُّومان أنفسهم أنْ يحشروها في مجلدات كاملة... فحتى حراسة القرى لم يأتمن الرُّومان عليها إلهاً لوحده، ولكنَّهم وضعوا على القرى الإلهة روزينا، وعلى قمم الجبال الإله جوغامين، وعلى التلال الإلهة كولاّتينا، وعلى الوديان الإلهة واللّونيا. ولم يكن بمقدورهم حتى أنْ يتخيّلوا سيغيتيا يمكنهم أنْ يأتمنوها وحدها على موسم جني المحاصيل: حسب رأيهم أنَّ البذور المزروعة تبقى في عهدة الإلهة سيين طالما هي في قلب الأرض، لكنَّها بعد أنْ تنبت وتخرج إلى سطح الأرض تغدو في عهدة الإلهة سيغيتيا. وعندما يحصد الزَّرع أخيراً ويجمع، تنتقل مهمَّة الحفاظ عليه وحمايته إلى الإلهة توتيلينا. فمنْ يستطيع إذن أنْ يتصوَّر أنَّ الإلهة سيغيتينا عاجزة بمفردها عن حماية البذور التي تحوَّلت إلى نباتات ثمَّ إلى سنابل. كما أشرك الرُّومان الإلهة بروزربينا في شؤون زروع الأرض؛ واستدعوا الإله نودوت للاهتمام بكعوب السَّنابل ورزمها؛ والإلهة فاليوتينا لحراسة أكمام السَّنابل، كانوا يعهدون بها إلى الإلهة باتليانا وعندما كانت السَّنابل الجديدة تغطّي الحقول، كانوا يعهدون بالحفاظ عليها للإلهة هو ستيلينا، لأنَّ السَّنابل الجديدة تعوِّض القديمة إذا صحَّ القول. أمَّا الزُّروع المزهرة فقد وضعوها في عهدة الإلهة فلورا، والممتلئة في عهدة الإله لياكتورنوس، والناضجة في عهدة الإلهة ماتورا، والمجنيَّة في عهدة الإلهة رونسينا... إنَّ القليل الذي قلته هنا، لم أقله إلاَّ لكي أبيِّن أنَّه لا يمكن للرُّومان أنْ يقولوا بأيِّ حال من الأحوال، إنَّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة قد تأسَّست على أيدي الآلهة الذين عهد لكل منهم بوظيفة واحدة، وان أيّاً منهم لم يعهد إليه بالأمر المشترك. وفي واقع الحال، كيف كان يمكن للإلهة سيغيتيا أنْ تفكّر في شؤون الدَّولة إذا كان لم يسمح لها بأنْ تعتني بالشَّجر إلى جانب اعتنائها بجني المحاصيل؟ وكيف لكونينا أنْ تهتمَّ بالمعارك إذا كان محرَّماً عليها أنْ تبتعد عن مهود المواليد؟ لقد كان كل يضع أمام منزله حارساً واحداً فقط، وبما أنَّه إنسان، إذن هذا كافٍ تماماً. ولكنَّهم لم يكتفوا بحارس واحد، بل وضعوا ثلاثة آلهة حرّاساً: فوركول للأبواب، وكارديا للحلقات، وليمينتين للعتبة...».

لقد أظهر الرُّومان عمليّاً كل تلك الماهيات التي يعجز النَّاس بسببها عن العيش حياة طبيعيَّة. فقد أبدوا تذللاً وخنوعاً لا مثيل لهما أمام مواطنهم الذي كان والحق يقال إمبراطوراً. والحديث يجري هنا عن الإمبراطور أوكتافيان الذي اعترف الرُّومان به إلهاً. وكأنَّه كان لمثل ذلك التَّأليه أُسسه، فقد أعلن أوكتافيان رسميّاً انتهاء الحرب الأهليَّة، وتجديد الجمهوريَّة. فمُنح لقب أغسطس (= المُعظَّم). ولم يحظَ بمثل هكذا تعظيم من قبل سوى الإله جوبيتر. ثمَّ تدحرج كل شيء بعد ذلك ككرة الثَّلج. والواقع أنَّ حالة من الجنون قد سيطرت على الرُّومان بعد ذلك. فأخذوا يتسابقون لإظهار مزيد من التَّذلُّل أمام شخص سفك دماء كثيرة. لقد مجَّد المواطنون كلهم الإمبراطور - الإله، ورأوا فيه وحده المنقذ. ومن حيث المنشأ كان أوكتافيان ابن مراب. ولكنَّ المنافقين الذين لم يكن لنفاقهم حدود (خاصَّة الشُّعراء)، أدرجوا شخصيَّته الإلهيَّة في اللَّوحة الميثولوجيَّة لنشوء روما. فأعلنوه إينياس الثَّاني تارة، وروموليوس الثَّالث تارة أخرى. لقد صارت عبادة هذا المعبود الجديد في كل بيت. ورأوا فيه حارس موقد المنزل، وأب الوطن. وبما أنَّ إلهاً جديداً قد صُنع، إذن لا بدَّ من تأسيس جماعة كهنوتيَّة جديدة تقوم على خدمة هذا الإله. وقد حمل هؤلاء اسم الأوغسطاليين. وكان تقديم القرابين للإله الجديد من أهمِّ وظائفهم. ولم تقتصر العبادة على الإله أغسطس وحده، بل امتدت لتشمل أفراد العائلة الإلهيَّة كلهم. ولكنَّ زوجة أغسطس كانت واحدة من أكثر نساء التاريخ الرُّوماني شروراً. ومع ذلك منحت اللَّقب الإلهي. ويجب ألاَّ نظنَّ أنَّ هذا كان أمراً شكليّاً، أو مفروضاً بالقوَّة، أو أنَّ النَّاس التزموا به خوفاً على حياتهم، لقد فعل الرُّومان ذلك بملء إرادتهم. فسجدوا أمام الشَّخصيَّات الإلهيَّة. إنَّه الجنون بعينه. لم يرغم أحد الشَّعب على ذلك، ولم يكن خطر معسكرات الاعتقال ماثلاً. بل كان الأمر على الضِّدِّ من ذلك، إذ اتَّخذ الإمبراطور إجراءات للحدِّ من المبالغة في إظهار آيات الولاء له. ولكنَّ محاولاته باءت بالفشل. فشوارع روما كلها وجاداتها كانت مزدانة بتماثيل فضِّيَّة للإمبراطور، وشُيِّد في كل قرية معبد واحد كحدٍّ أدنى، للإله الجديد.

السُّلطة السِّرِّيَّة للدرويديين

لقد كانت سلطة الدرويديين على النَّاس عظيمة إلى درجة أنَّ الملوك أنفسهم لم يجرؤوا على معارضتهم. فعلى ماذا استندت تلك السُّلطة؟ لقد استندت على المعارف المكتومة عن الآخرين. فالدرويديون كانوا «مكرَّسين»، وتوفروا على معارف فريدة لا نستطيع حيالها سوى أنْ نخمِّن وحسب، لأنَّ ما بين يدينا عنها لا يتعدَّى المقاطع والنّتف المبعثرة، ونحن لا نعرف إلاَّ النَّذر اليسير عن الدرويديين، لأنَّهم أنفسهم لم يدوِّنوا أيَّ شيء لا في عمليَّة تعليم تعاليمهم، ولا في نشاطهم العملي. ولذلك حملوا معارفهم كلها تقريباً معهم إلى القبر.

ومعنى كلمة «درويد» عينها، هو «إنسان شجر البلوط». وكان هؤلاء في واقع الحال كهنة، ولكنْ بالمعنى الشَّامل للكلمة. فلم يكن الدرويديون مجرَّد كهنة عاديين يقومون على خدمة الدِّين، بل كانوا أيضاً أطبَّاء، وقضاة، ومؤرِّخين، ومعماريين، وفلكيين، وشعراء، وعلماء. قصارى القول، إنَّ الدرويديين نهضوا بكل الوظائف التي يعجز المجتمع عن العيش بغيرها. ولذلك كان الالتزام صارماً بمبدأ ألاَّ يقول الملك شيئاً مهمَّاً إلاَّ بعد أن يسمع درويده.

لقد كان الدرويديون أكثر السَّحرة مهارة، ولم تكن سلطتهم على النَّاس سلطة وهميَّة. وكانت الكلمات التي ينطقون بها تفعل فعل الخير أو فعل الشَّرِّ. ولم يكن هؤلاء يتنبَّؤون بوقوع الأحداث فقط، بل كانوا يستنزلون اللَّعنات على النَّاس كذلك. فالإمبراطور الرُّوماني، الإسكندر سيفروس (القرن ٣م.)، استحقَّ لعنة الدرويديين، فتحقَّقت اللَّعنة. فقد روى لنا المؤرِّخ الرُّوماني لامبريديوس أنَّ متنبِّئة غاليَّة صاحت في وجه سيفروس إذ قابلته قائلة: «امضِ! امضِ! فلن ترى النَّصر بعد اليوم، ولا تنتظر الإخلاص من جندك». وسرعان ما قتل الجنود الرُّومان إمبراطورهم بعد ذلك اللِّقاء.

فلم يكن لدى أحدهم ريب في أنَّ للدرويديين صلة بالآلهة. والحقيقة أنَّ الدرويديين كانوا سادة الكلمة كما لم يَسُدْ عليها أحد، كما كانت لهم قدرة مدهشة على استقاء المعلومات من حقل المعلومات الكوني، وتلقيها من العقل الكوني عينه. لقد كان للدرويديين

حقّ تسمية النّاس. وقد منحوا المدن والأماكن أسماءها أيضاً. لقد عقدوا المحاكم القضائيَّة، ولم يخطئوا في استقراء نتائج المعارك، و.... وثمَّة مشهد له دلالته في هذا السِّياق. فقد أخبر الدرويديون يوماً إحدى القبائل الغاليَّة بأنَّها سوف تمنى بهزيمة ماحقة في المعركة المزمعة، فعمد هؤلاء قبل المعركة إلى قتل أطفالهم ونسائهم لكي يجنِّبوهم إذلال الأعداء لهم، وتحويلهم إلى عبيد. ولم يكن هذا مشهداً فريداً، فأخبار مثل هذه الأحداث تتكرَّر كثيراً في مؤلَّفات المؤلِّفين الرُّومان. والواقع أنَّ شهادات المصادر الرُّومانيَّة لا يركن إليها دوماً. لأنَّ الرُّومان الذين استولوا على أراضي الدرويديين، غالباً ما جانبوا الموضوعية في أحكامهم. وعملوا دائماً على التَّشهير بهذا الشَّعب. لقد كان هذا شعباً فريداً بكونه لم يعرف نظام الدَّولة المعروف، على الرَّغم من أنَّه كان يشغل أراضي أوروبا المعاصرة كلها؛ فلم يبنِ الدرويديون الحصون ولا القلاع. وفي القرن ٥ق.م. استوطنت القبائل السَّلتيَّة وسط أوروبا وشرقيها؛ ثمَّ انتشرت بعد ذلك في اسبانيا، وشمالي إيطاليا، وشمال شبه جزيرة البلقان، واستقرَّت في الجزر البريطانيَّة، وفي العام ٣٩٠ق.م. استولت قبائل السَّلت على روما. وفي العام ٢٨٩ق.م. دمّر السَّلتيون مدينة دلفي اليونانيَّة. واندفعوا إلى أعماق إقليم غربي آسيا. ولكنَّهم لم يعملوا على ترسيخ فتوحاتهم بتأسيس دولة عسكريَّة قويَّة. بل لم يؤسِّس السَّلتيون مستعمرات على الأراضي التي استولوا عليها. ولذلك فإنَّه يصعب أنْ نَصِفَهم بالمحتلِّين، لأنَّهم لم يسعوا إلى إخضاع السُّكَّان المحلِّيِّين لسلطتهم، وإنَّما اندغموا بالشعوب التي هزموها.

ولكنْ كيف نجح ذلك المعشر الذي لم تكن لديه أجهزة إدارة مركزيَّة، أنْ يعيش مثل هذا الزَّمن المديد كله؟ وعلى ماذا استندت تلك البنية الاجتماعيَّة، تلك الحضارة؟ إنَّها المعارف وحسب. وهو حدث فريد في تاريخ البشريَّة.

فالوقائع تشهد بأنَّ القبائل السَّلتيَّة المبعثرة كانت تمثِّل بنية حضاريَّة واحدة. ففي مختلف أرجاء أوروبا (في أراضي فرنسا، والدَّانمرك، وايرلندا، وشبه جزيرة إيبيريا، والبلقان)، عثر الآثاريون على صور آلهة السَّلت القدماء، ورموز عبادتهم. كما عثر أيضاً على أجزاء نمطيَّة من أسلحتهم، وأشكال حيواناتهم، وأشياء أخرى كثيرة. وكانت أشياء حليِّهم بدورها من النَّمط التَّقليدي المعروف عينه («المجدولة»). إنَّ مثل هذه اللُّقى الآثارية كثير جداً. ضف إلى هذا إنَّه كانت لهم عبادة مشتركة قامت على نظام ميثولوجي واحد، والإيمان بالآلهة عينهم.

وما يؤسف له أنَّنا لا نعرف إلاَّ القليل عن هؤلاء الآلهة وأشياء أخرى كثيرة في حياة السَّلتيين. ومع أنَّ شهادات الرُّومان ليست موضوعيَّة، إلاَّ أنَّنا مع ذلك سوف نسوق شهادة

يوليوس قيصر. ففي كتابه السَّادس من «مذكَّرات حول الحرب الغاليَّة» ساق قيصر الوصف التَّالي للدرويديين: «يشارك الدرويديون مشاركة نشطة في تأدية طقوس العبادة، ويتابعون دقَّة الالتزام بتقديم القرابين الاجتماعيَّة، ويشرحون كل المسائل ذات الصِّلة بالدِّين، ويتوافد عليهم كثير من الشَّباب لتلقِّي العلوم، وهم على وجه العموم يحظون لدى الغاليين (أي لدى السِّلت) باحترام عظيم. فهم الذين يفصلون في المسائل الخلافيَّة كلها تقريباً، سواء كانت اجتماعيَّة أو خاصَّة...، وإذا ما تمرَّد على قرارهم فرد أو شعب، فإنَّهم يبعدونه عن المشاركة في تقديم الذَّبيحة. وكان هذا أشدَّ العقوبات مرارة. فمن يبعد بمثل هذه الطَّريقة يُعدُّ كافراً بالآلهة، ومجرماً يبتعد عنه جميعهم ويتفادون لقاءه أو الحديث معه كأنَّه يحمل وباءً معدياً. ومهما قدَّم من شكاوى فإنَّ أحداً لن يعقد محكمة من أجله، ويفقد حقَّه في شغل أيِّ وظيفة كانت. ويتزعَّم الدرويديين كلهم زعيم واحد يحظى عندهم بتقدير عظيم. ويخلفه بعد موته الشَّخص الأكثر جدارة، وإذا كان هؤلاء عدَّة، يلجأ الدرويديون للتَّصويت، ولكنَّ النِّزاع حول المسألة كان يحسم بقوَّة السِّلاح في بعض الأحيان. وفي وقت محدد من السَّنة كان الدرويديون يجتمعون في مكان مكرَّس يقع في بلاد الكارنوتيين (بريتانيا)، التي كانت تُعدُّ مركز غاليا كلها. فيتوافد إلى هناك كل المدَّعين من كل حدب وصوب ويلتزمون بالإرادات والأحكام الصَّادرة عنهم. لقد كان الاعتقاد السَّائد، هو أنَّ علم الدرويديين ظهر في بريتانيا وانتقل منها إلى غاليا، وحتَّى الآن يمضي الذين يرغبون في التَّعرُّف على هذا العلم بشكل كامل، إلى هناك لدراسته.

ولا يشارك الدرويديون عادة في الحروب ولا يؤدُّون الأتاوات. وينتمي كثيرون إلى مدرستهم إمَّا برغبة منهم، أو نزولاً عند إرادة الأصدقاء والأقارب. ويروى أنَّه يعلِّمون غيباً كمَّاً من الأشعار يقضي بعضهم عشرين عاماً في مدرستهم ليحفظه. وهم يرون إثماً كبيراً في كتابة أيِّ شيء مما يُلقى هنا... وتنصبُّ محاولات الدرويديين أكثر ما تنصبُّ على ترسيخ القناعة بخلود الرُّوح: حسب تعاليمهم أنَّ الرُّوح تنتقل مع موت جسد ما إلى جسد آخر، وهم يعتقدون أنَّ هذا الإيمان يزيح عبء الخوف من الموت، الأمر الذي يحفِّز روح الشَّجاعة والإقدام. وعلاوة على ذلك ينقل الدرويديون إلى تلاميذهم الشُّبَّان معلومات عن الكواكب وحركتها، وامتداد المعمورة والأرض التي نعيش عليها، وقوَّة الآلهة الخالدين وعظمتهم».

وبصرف النَّظر عن حديثنا السَّابق عن لا موضوعيَّة المصادر الرُّومانيَّة تجاه أعدائهم الدرويديين، إلاَّ أنَّ ما أوردناه هنا يوافق واقع الأشياء. وفي الأحوال كلها فإنَّ مصادر أخرى تسوِّق المعلومات عينها، ومن هذه على وجه الخصوص، السَّاغات الإيرلنديَّة. فالملحمة البطوليَّة

الإيرلنديَّة تبرز على سبيل المثال الحكيم الدرويدي كاتباد، الذي كانت له سمعة لا تضاهى. وكان قادراً على أنْ يؤثِّر على نتيجة المعركة على الرَّغم من أنَّه لم يكن يشارك فيها بصفته مقاتلاً. لقد كان يؤثِّر برقاه وتعاويذه التي كانت تسلب العدوَّ قواه. وكان مسموحاً له أنْ يستنزل اللَّعنات على الملك نفسه. ولكنَّ هذا لم يكن يحدث إلاَّ إذا رفض الملك طلباً ما للكاهن. وحسب الملحمة أنَّ الحكيم الدرويدي كان يقرأ المستقبل؛ ويختار الاسم للبطل، ويحدِّد يوم بدء العمليات القتاليَّة، أو أيَّ نشاط آخر له أهمِّيَّة. وكان فتيان العائلات الأرستقراطيَّة يتلقَّون تعليمهم على يديِّ الحكيم الدرويدي، الكاهن الأكبر.

وعن السُّمعة المميَّزة التي كانت للدرويديين في المجتمع الغالي، يخبِّرنا نص السَّاغا الإيرلنديَّة: «سرقة ثور كوالينغ». فقد ورد هناك: «يحرِّم على الملك أنْ يتحدَّث قبل درويده».

ويمكننا أنْ نؤكِّد بدون أيِّ مبالغة، أنَّ الدرويديَّة تأسَّست وعاشت على الطقس. وكانت نظاماً تراتبيَّاً معقَّداً ومبتكراً بدقة. وكانت الغاية الأساس التي سعى هذا النِّظام لبلوغها، هي «ضمان استمرار حركة العالم». وما يثير الفضول، أنَّ الدرويديين رأوا في المكان والزَّمان ماهية واحدة. وحسب الفيزياء الكلاسيكيَّة أنَّه يمكن دراسة المكان منفصلاً عن الزَّمان. بيد أنَّ الحديث يدور في النَّظرية النِّسبيَّة عن المكان الرُّباعي الأبعاد. فالإحداثيَّات الثَّلاث الأولى، هي المكان المعتاد، والإحداثيَّة الرابعة، هي الزَّمن المتغيِّر. وحسب أينشتين أنَّ المكان والزَّمان غير منفصل أحدهما عن الآخر. وكان هذا العالم قد حلَّ هذه المعضلة مستعيناً بالمعادلات والصِّيَغ. لكنَّ الدرويديين ساروا في طريق أخرى. فقد حلُّوا المعضلة عينها باستقاء المعلومات من حقلها الكوني مباشرة. وكان الطَّقس هو مفتاح تواصلهم مع الحقل المذكور. فالتَّعاليم الدرويديَّة قضت بأنَّ تلاقي، تطابق أهمِّ نقاط الزَّمان والمكان، هو الضَّمان لتواصل حركة العالم. وقضي بضرورة إبراز هذا التَّطابق بطريقة خاصة. ولتحقيق ذلك كانت تنظَّم في المعابد لقاءات شعبيَّة احتفاليَّة تقام في أيَّام محدَّدة تحديداً دقيقاً صارماً. وكان تقديم الذَّبائح للآلهة من أهمِّ نشاطات مثل تلك اللِّقاءات. ومثلهم مثل الشُّعُوب الأخرى، كان الدرويديون يقدِّمون القرابين في شتَّى المناسبات: لدى بناء معبد، ومع بدء موسم جَنْي المحاصيل، وقبيل الخروج في حملة عسكريَّة، و.... وكانت القرابين تقدَّم من قبل المؤسسات الاجتماعيَّة، كما من قبل أفراد. ويميل المتخصِّصون إلى الاعتقاد بأنَّ الدرويديين لم يقدِّموا ذبائح بشريَّة. ويفترضون في غضون ذلك أنَّ المؤرِّخين الرُّومان حرَّفوا الواقع عن سابق قصد واتَّهموا الدرويديين بتقديم ذبائح بشريَّة لآلهتهم. ولكنْ قد يُنسب هذا الاتِّهام جزئيَّاً إلى جهل الرومان بالتعاليم الدوريدية. والمشهد التَّالي يمكن أنْ يكون مثالنا على هذا الجهل. فقد

كان الدرويديون يستخدمون مراجل طقسيَّة لتقديم الذَّبائح لآلهتهم. واكتشف الآثاريون على واحد منها رسماً لشكل عملاق يُنزل إنساناً صغيراً في المرجل. وكان من أبسط الأمور أنْ نتوقَّع أن ذلك الإنسان الصَّغير يُقدِّم قرباناً. ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ المشهد المعني كان يمثِّل عمليَّة بعث المقاتلين الذين سقطوا في ساحات المعارك. فعندما كانوا ينزلون مقاتليهم القتلى في مرجل الحياة العجيب، كان هؤلاء يعودون إلى الحياة ليواصلوا القتال ضدَّ الأعداء من جديد. وهكذا يتَّضح أنَّ اللُّقية الآثاريَّة عينها يمكن أنْ تؤوَّل تأويلاً متبايناً. وقد عمل مؤلِّفو العصر الإغريقي - الرُّوماني جاهدين على إثبات أنَّ السَّلتيين (الغاليين) كانوا يقدِّمون لآلهتهم ذبائح بشريَّة. فديودوروس الصقلِّي كتب عن هذا في «تاريخه» يقول: «وفي هذا تظهر وحشية طبيعتهم: يسلكون سلوك الكفرة المتزمِّتين في ميدان تقديم القرابين. فعادتهم أنْ يحتجزوا المجرمين كلهم حتَّى الخمس سنوات، ثمَّ تمجيداً لآلهتهم يضعونهم على الخوازيق ويقدِّمونهم ذبائح، مضيفين إلى هذا كثرة من التَّقدمات، وأخيراً يحرقون هذا كله في محرقات كبيرة أُعدَّت للغرض. كما يجعلون من أسرى الحروب أيضاً معذَّبين بؤساء يقدِّمونهم أضاحي لآلهتهم. وغالباً ما يستخدمون للغرض عينه الحيوانات التي يستولون عليها في غزواتهم. فيقتلونها مع الأسرى، أو يحرقونها حيَّة، أو يعرِّضونها لضروب أخرى من الألم الممض». ويروح مشابهة كتب كثير من المؤلِّفين القدامى الآخرين. فقد وصف سترابون في «الجغرافيا» عادة تقطيع الذَّبيحة إلى أشلاء وتعليقها على أشجار مقدَّسة، أو على جدران المعابد. وفي القرن الميلادي الأوَّل زعم الشَّاعر الرُّوماني لوكانوس أنَّ الغاليين يعلِّقون ذبيحة الإله إيدوس على شجرة، وكان هذا الإله عينه مرتبطاً بعبادة الأشجار. أمَّا ذبيحة الإله تارانيس فقد كانوا يحرقونها حيَّة. وكانت ذبيحة إله قبيلة تاوتاتيس تغرق في مرجل كبير مخصَّص للغرض. ولكنَّ الباحثين يرتابون في موضوعيَّة المعلومات التي ساقتها نصوص مؤلِّفي العصر الإغريقي - الروماني، لأنَّ هؤلاء الأخيرين كانوا طرفاً مستفيداً: لقد كان يجب تسويغ احتلال القبائل الغاليَّة واستعبادها، والزَّعم بأنَّهم إنَّما يفعلون ذلك لتحقيق غايات عليا.

لقد جرى الحديث سابقاً أنَّ تقديم الذبيحة كان يحقِّق استمرار الزَّمن، والحفاظ على سيره الطَّبيعي. وتستنتج من هذا خلاصات بعيدة المدى. فإذا ما ارتكب أحدهم إثماً وعاقبه الدرويديون بإبعاده عن طقس تقديم الذَّبيحة، فإنَّه يخرج بذلك خارج دائرة الزَّمن. و«ينقطع تواصل الزَّمن» بالنِّسبة إليه. وفي الواقع العملي يكون هذا الشَّخص قد بات مبعداً عن المجتمع، لأنَّه فقد إمكانيَّة التَّواصل المنتظم مع الجوهر الإلهي.

ومن القرن ١٢م. جاءنا وصف لهذا الطّقس يعطينا بعض التّصوُّر عن تقديم الذّبائح. ففي كتابه «طبغرافيا إيرلندا» وصف لنا المؤرِّخ واللاهوتي الإنكليزي هيرالد كامبريسكي طقس تنصيب الملوك الإيرلنديين على العرش. لقد كان هذا الطّقس يقام على مرج مقدّس بحضور سيول من أبناء الشّعب، إنّه طقس زواج الملك المقبل بالمهرة البيضاء. وقد بدا المشهد هكذا. تقام في بادئ الأمر مراسم زفاف رمزيّة صرف. ثمّ يقطع الملك بيديه حنجرة المهرة. ويطهى لحمها في مرجل كبير. ويستحمُّ الملك المقبل بمرق لحم المهرة. وبعد الاستحمام يرئس الملك وليمة احتفاليّة كبيرة يكون لحم المهرة المطهو وجبتها الأساس. والمهرة في هذا الطّقس هي الإلهة. فالأمر هكذا كان عند السّلت القدماء. وفي غاليا القاريّة كانت الفرس البيضاء هي الإلهة - الأمُّ. وكانت تدعى إيبونا. وقد رسموا صورة الإلهة - الأمُّ فرساً معها مهر صغير. والحقيقة أنَّ أعمال السّبر الآثاري كشفت عن رسمها في صورة فارسة. وهكذا كان طقس تنصيب الملك على العرش يعني زواجه بالبلاد، بمواطنيها. أمّا نحر الفرس وأكل لحمها فقد كان يرمز إلى التّواصل مع جسد الإلهة. وكان ذلك ضمانة لاستمرار رخاء المواطنين وازدهار الملك.

ويشغل التّنجيم مكانة مميّزة عند الدرويديين. وهاكم ما كتبه المؤرِّخ الروماني سترابون في الكتاب الرّابع من مؤلّفه «الجغرافيا» عن القرابين البشريّة عند السّلت: «لقد وضع الرُّومان نهاية للطقوس السّلتيّة المرعبة. فحاربوا تقديم الذّبائح واستقراء الغيب، اللذين لا يشبهان طقسينا إلاّ قليلاً. فالشّخص المعدُّ تقدمة للإله يتلقّى طعنة خنجر في ظهره، ثمَّ يتنبّؤون له بالمستقبل الذي ينتظره، حسب طابع التّشنُّجات التي تظهر عليه.... ويجري هذا كله دوماً بحضور درويديهم ومشاركتهم وموافقتهم».

ولكنَّ الباحثين المنصفين يرون أنَّ الرُّومان يبالغون كثيراً في هذا، ويعملون على إظهار خصومهم في أبشع صورة. فالحقيقة هي أنَّ المتنبّئين السّلت والدرويديين كانوا يتنبّؤون مستخدمين الحيوانات لا البشر. مثلاً، قبيل المعركة التي كانت تنتظر قوّاتها مع الرُّومان، توجّهت الملكة الغاليّة بوديكا إلى المنجّمين. فرمى هؤلاء أرنباً أمام القوات السّلتية. وحسب طابع قفزات الأرنب استخلص هؤلاء رأيهم في نتيجة المعركة، التي كانت لصالح الغال. ولذلك لم يضيِّع الجند لحظة واحدة، وهاجموا عدوّهم.

ولكي يكون التّنبُّؤ ناجحاً كان يمكن أنْ يُنحر الحيوان. وغالباً فعلوا هذا مع الخنزير. وقد وصفت لنا النُّصوص القرسطوية الإيرلنديّة المشهد على النّحو الآتي: «يمضغ الفيليد قطعة من لحم الخنزير، أو الكلب، أو الهرِّ نيّئة، ثمَّ يأخذها من فمه ويضعها على حجر مستو قرب الباب. إنّه يقدّمها قرباناً للإله الذي يخدم. ويبدأ بعد ذلك يناديه. ومن ثمَّ

يمضي ليعود في اليوم التَّالي. فإذا ما اختفت قطعة اللَّحم، يستلقي في مكانه ويضغط وجهه بين كفَّيه. وهكذا يغفو، ولكنْ من الضروري جداً ألاّ يقلق نومه أيُّ شيء، لأنَّ المستقبل يفتح له أبوابه أثناء ذلك النَّوم». لقد ورد هذا الوصف في مجموعة تأويلات «معجم كورماك» (القرن ١٠م). وليس الفيليديون الذين يتحدَّث النَّصُّ عنهم سوى ورثة الدرويديين الإيرلنديين. ولكن عندما وضع المعجم المذكور، كانت المسيحيَّة قد انتشرت. ولذلك ورد بعد ذلك أنَّ «القدِّيس باتريك حرّم تلك العادة وقال، إنَّ مَنْ يلتزم بها يفقد السَّماء والأرض، لأنَّه يرتد بذلك عن سرِّ المعموديَّة المقدَّس».

بأيِّ الآلهة آمن الدرويديون والسَّلت على وجه العموم؟ هاكم ما كتبه قيصر عن هذا: «يجلُّ الدرويديون أكثر ما يجلُّون من الآلهة، الإله مركوريوس. له من الصُّور أكثر مما لأيِّ إله آخر؛ ويعدُّونه مبتكر الفنون كلها؛ ومرشد الدُّروب؛ ويعتقدون أيضاً بأنَّه يحرِّض كثيراً على جني المال، والدَّفع بالأعمال التِّجاريَّة. بعده مباشرة يجلُّون الإله أبوللون، ثم الإله مارس، فالإله جوبيتر، والإلهة مينيرفا. وعندهم عن هؤلاء الآلهة التَّصوُّرات عينها تقريباً التي عند الشُّعُوب الأخرى. فأبوللون يطرد الأمراض، وتعلِّم منيرفا مبادئ المهن والفنون، ويملك جوبيتر السُّلطة العليا على سكان السَّماء، ويقود مارس الحرب». والسُّؤال الذي يطرح نفسه مباشرة، هو لماذا عبد السَّلت (الغاليون) الآلهة الرُّومان، والواقع أنَّهم عبدوا آلهتهم هم وليس آلهة الرُّومان. وكل ما في الأمر، هو أنَّه كان هناك تشابه بينهم. فالإله السَّلتي لوغ يشبه مركوريوس بكونه يمتلك ناصية المهن كلها والفنون كلها. وهو نصير فنِّ الحرب. ويدلُّ على هذا أنَّ اسم الإله لوغ يشكل جزءاً مكوِّناً لأسماء كثير من الحصون، حتَّى مدينة ليون المعاصرة كانت تدعى فيما مضى لوغدونوم، ومعناه: «حصن لوغ». واندغم الإله لوغ بالدِّفء ونور الشَّمس (تماماً كالإله الرُّوماني مركوريوس). ولذلك يأتي عيد الإله لوغ (= لوغنازاد) في اليوم الأوَّل من شهر آب، وقد دعي الشَّهر كله باسم لوغنازاد، ولا يضير أنْ نتذكَّر في هذا السِّياق، أنَّ الإمبراطور الرُّوماني اغسطس قد دعا هذا الشَّهر باسمه: أغسطس. وهذا مفهوم تماماً، لأنَّ الرَّجل كان شديد الرَّغبة لأنْ يرى في نفسه الإله مركوريوس.

وننوِّه في السِّياق إلى أنَّ قبيلة دانو عبدت الإله لوغ في إيرلندا.

أمَّا الإله جوبيتر فقد كان للسَّلت إلههم الذي نهض بوظائف مشابهة. إنَّه الإله تارانيس (اسم مشتقٌّ من الكلمة الغالية tarran التي تعني «الرَّعد»). رسموا صورته مع المطرقة وبيده عجلة. ومن الواضح أنَّ عند السكندينافيين الإله عينه. ويدعى عندهم تور: إله السَّماء، والعاصفة، والزَّوابع.

كما عبد السلتيون الإله تيفتاتيس الذي كان يدافع عن القبيلة ويحميها من الأعداء؛ والإله أغميوس، إله الحرب، لكنَّه تميَّز في الوقت عينه بالعلم والفصاحة. ومن الواضح أنَّ هذين الإلهين يشبهان الإله مارس، إله الحرب عند الرُّومان.

ويقارنون بين أبوللون والإله السلتي مابونوس. ويرون أنَّ الإلهة بريتا تشبه من حيث وظائفها الإلهة الرومانيَّة مينيرفا. لكنَّ الإلهتين لا تتطابقان. ولماذا ينبغي أصلاً أنْ تتطابقا؟

وبما أنَّ المصادر المكتوبة عن آلهة السلت نادرة، فإنَّه يتأتَّى لنا أنْ نستخدم المعلومات التي ساقها عنهم يوليوس قيصر في «مذكَّراته» الشَّهيرة. فثمَّة في هذه الأخيرة ذكر لإله يثير الحيرة، إنَّه الإله دييه (ديت) باتر، أي الأب. وقد كان هذا في واقع الأمر أب الآلهة. وكتب عنه قيصر ما يلي: «يؤكِّد الغاليون (السلت) كلهم على أنَّهم أحفاد الأب ديت، ويقولون، إنَّ هذه هي تعاليم الدرويديين. ولهذا السَّبب لا يحسبون الوقت ولا يحدِّدونه حسب النهارات، بل حسب اللَّيالي: يحسبون يوم الميلاد، وبداية الشَّهر والسَّنة بطريقة يبدأ الحساب فيها من اللَّيل ثمَّ يليه النَّهار». فاللَّيل يدغم عندهم بالعالم الآخر. ولذلك يجوز لنا أنْ نفترض أنَّ الحديث يجري عن إله العالم الآخر، عالم الأموات. وقد أناط الرُّومان هذه المهمَّة بالإله بلوتون. واندغم إله الأموات بالظَّلام، واللَّيل، والصَّقيع، والديجور. ولا يزال اسم هذا الإله السلتي غير معروف لنا حتى الآن. لكنّ كثيراً من آلهة السلت أضحوا آلهة إيرلنديين من أصل سلتي. وعند هؤلاء يدعى هذا الإله باسم: القاتم (دونّ).

لكنَّ قيصر لم يورد سوى أسماء آلهة الغال (السلت) الرَّئيسة. وفي واقع الأمر أنَّ عددهم كان أكبر بكثير. وتفيدنا المصادر الأخرى في الحكم على بعض منهم، ومنها على وجه الخصوص معطيات أعمال السَّبر الآثاري. فقد أُميط اللِّثام مثلاً عن الإله إيزوس، والإلهة إيبونا، والإله كيرنونوس وكثير من الآلهة الآخرين. وعثر على صور آلهة لم يفلح الباحثون في معرفة أسمائهم، مثل صورة الإله الجالس في وضعيَّة البوذا. إنَّه «الإله ذو الوجوه الثَّلاثة».

لقد توصَّل المتخصِّصون في تاريخ الأديان إلى استنتاج أكيد مؤدَّاه أنَّ الآلهة الغال (السلت) يرتبطون بأواصر القرابة مع آلهة الشُّعُوب الهندوأوروبيَّة الأخرى. ولكنَّ هذا لا يعني بحال من الأحوال أنَّ معارف الدرويديين المكنونة لها المصدر عينه. ولا يزال هذا المصدر لغزاً يعجز المتخصِّصون عن حلِّه. ولكنْ من الواضح أنَّ الدرويديين كانوا قد امتلكوا هذه المعارف الباطنيَّة قبل زمن طويل من استيطان السلت أوروبا. ثمَّ بعد ذلك اتَّحدت معارف الدرويديين بطريقة ما مع آلهة هندوأوروبيَّة الأصل. ونحن لا نعرف كيف حصل هذا. ولكن ثمَّة فرضيَّتان: إمَّا أنْ يكون السلت قد جمَّعوا معارف الدرويديين القديمة ووضعوها في خدمة

آلهتهم، وإمَّا أنْ يكون الآلهة الهندوأوروبيون قد خضعوا هم أنفسهم للدرويديين، لمعارفهم المكنونة. وقد تكون هذه الفرضيَّة الثَّانية هي الأقرب إلى الصَّواب.

ولم يسجد الدرويديون للآلهة المجرَّدة فقط، بل عبدوا أيضاً موجودات العالم المحيط: الأشجار، والحجارة، والصخور، و.... ويجب أنْ نلاحظ في غضون هذا أنَّ معتقدات السَّلت والدرويديين لم تتطابق دوماً. فلم يعبدوا شجرة البلوط فقط، بل عبدوا أيضاً السدر الجبلي، وشجرة البتولا، والغبيراء، وشجرة التُّفاح، و.... ولم يعرفوا أشجاراً مقدَّسة فقط، بل قدَّسوا أدغالاً كاملة. وهذا ما تشهد عليه على سبيل المثال أسماء المراكز السُّكَّانيَّة في فرنسا وأسبانيا. ففي الزَّمن القديم كانت تقوم هناك معابد أو أدغال مقدَّسة. وبالنِّسبة للدرويديين فإنَّ شجرة البلوط هي الشجرة الأكثر قداسة. وقد عرفوا شعيرة قطع نبات الدبق الذي ينمو على شجرة البلوط. ووصف لنا المؤرِّخ الروماني بليني الأكبر هذه الشَّعيرة فقال: «لا يعرف الدرويديون شيئاً أكثر قداسة من الدبق المقدَّس وتلك الشجرة التي ينمو عليها نبات الدبق هذا أي شجرة البلوط. وبلغ من تقديسهم لهذه الشجرة أنَّهم لا يبنون معابدهم إلاَّ في أدغال البلوط، وعندما يؤدُّون شعائر السِّحر يمسكون بغصن من شجرة البلوط. ويهيِّأ لنا أنَّهم يؤلِّفون أسماء كهنتهم من اسم شجرة البلوط. إنَّهم يعتقدون أنَّ كل ما ينمو على هذه الشَّجرة مرسل من السَّماء، وأنَّ هذا بحدٍّ ذاته علامة تدلُّ على أنَّ الإله الأعلى يبارك هذه الشَّجرة. ومع أنَّ مثل هذه اللُّقى نادر، إلاَّ أنَّه عندما يحدث ويلاحظون شيئاً مشابهاً، فإنَّهم يضعون علامة على النَّبات ثم يقطفونه في جوٍّ احتفاليٍّ. وعادة ما يقع هذا في اليوم السَّادس من القمر، ولذلك فإنَّهم يعتقدون أنَّ القمر بالذَّات هو الذي يوجِّه الأشهر، وحركة الزَّمن على وجه العموم، وأنَّه يتوفَّر هو نفسه على دورة خاصة به تطول ثلاثين يوماً. وهم يرون في اليوم السَّادس أكثر الأيَّام ملاءمة لإقامة المراسم الدِّينيَّة، لأنَّ القمر يكون قد جمع في هذا اليوم ما يكفي من قوَّته، ولكنَّه لم يبلغ بعد منتصف طريقه. وأطلقوا على نبات الدبق اسماً تعني ترجمته: ذلك الذي يبرئ من كل شيء.

وبعد أنْ تُقدَّم الذَّبيحة، وتترك عند كعب الشَّجرة ضيافة وفيرة للآلهة، يقودون ثورين أبيضين لم تربط قرونهما إلاَّ في ذلك اليوم. ثمَّ يتقدَّم من الشَّجرة كاهن يرتدي حلَّة بيضاء فيقطع نبات الدبق بمنجل ذهبي، ويخبِّئه في غطاء خاصٍّ من تيلة خام غير ملوَّنة، ثمَّ تُقدَّم الذَّبائح مرَّة أخرى، وترفع الصَّلوات والتَّوسُّلات إلى الإله لكي يكون رؤوفاً بالذين يقدِّمون له هذه التَّقدمات. لقد اعتقدوا أنَّه إذا ما أُعدَّ شراب من نبات الدبق، فإنَّ فيه قوَّة تحمل الخصب للحيوانات العقيمة فتنجب، وإنَّ فيه دواء ضدَّ أنواع السُّموم كلها».

والشَّواهد كثيرة أيضاً على أنَّ الدرويديين سجدوا للحجارة. ولا تزال أوروبا تحتفظ حتى اليوم بمنشآت دينية قديمة. وقد بنيت هذه في أماكن مقدَّسة. وهي منشآت شديدة التَّنوُّع. فمنها أكوام الحجارة، ومنها أحياناً جلاميد فرديَّة أو زوجيَّة. وغالباً ما نقف على منشآت جنائزيَّة حجرية قديمة. وهذه عبارة عن أحواض حجريَّة مغطَّاة بصفائح حجريَّة. وتسمَّى زالمينات. كما نصادف أيضاً حجارة طويلة مزروعة في الأرض عموديَّاً. وهي تدعى مانجيري. وتدعى المنشآت الدِّينيَّة التي على شكل سياج مستدير مبني من حجارة ضخمة، تدعى كرومليهي.

لقد وقع الدرويديون تحت ضغوط متواصلة من جانب المبشرين المسيحيين. ولكنَّ هؤلاء لم يستخدموا تكتيك السَّيف والنَّار. بل على الضِّدِّ من هذا، إذ غالباً ما شيَّدوا مساكنهم - صوامعهم على مقربة مباشرة من المنشآت الدرويديَّة الحجرية المقدَّسة. وهكذا كان كل شيء يتداخل بعضه مع بعض رويداً رويداً، إلى درجة أنَّ منشآت الدرويديين الحجريَّة باتت تزدان بالصُّلبان المسيحيَّة وصارت تبنى غالباً داخل معابد المسيحيين.

ولا يزال تعليل هذه المنشآت الحجريَّة غائباً. فبعضها له صلة واضحة بعلم الفلك، إذ بني مهتدياً بالشَّمس وسواها من الأجرام السَّماويَّة الأخرى.

وتشهد أعمال السَّبر الآثاري على أنَّ هذه المنشآت الحجرية المهولة كانت قد شيِّدت قبل أنْ يستوطن السَّلت غاليا. ولكن مَنْ بناها ولايِّ غرض؟ بل ليس واضحاً كيف أمكن التَّغلُّب على تلك المهمَّة البالغة التَّعقيد مع وجود تقنيَّات ذلك الزَّمن. والحقيقة أنَّنا لا نستطيع أنْ نجزم بأنَّ مستوى تقنيَّة ذلك العصر (ألف سنة خلت) كان شديد التَّدنِّي. وسوف نسوق في كتابنا «ثقوب الأوزون واستمرار البشريَّة» (فيتشي، ١٩٩٨م)، قرائن توحي بأنَّ كارثة كونيَّة قد وقعت وأهلكت حضارة كانت تملك مستوى رفيعاً من التَّقدُّم التِّقني.

وتقول القرائن التي وصلت إلينا عن بناة المنشآت الحجريَّة المهولة، إنَّ لغة هؤلاء كانت تختلف من حيث بنيتها عن اللُّغات الهندوأوروبية القديمة. وقد اختلفت في الأصل الثَّقافة الرُّوحيَّة لأولئك الذين بنوا هذه المنشآت في كل من إنكلترا وايرلندا. ويبلغ عمر هذه المنشآت بضعة آلاف من السِّنين، ولا يزال الغرض الذي من أجله شيِّدت غير واضح وضوحاً تامَّاً. فهي قد تكون معابد، وقد تكون مراصد فلكيَّة. لكنَّ هذه الفرضيَّة الثَّانية مقنعة جداً. وحسب الفرضيَّة الأولى أنَّ هذه كانت معابد الشَّمس والقمر. وإذا كان الأمر كذلك فإنَّه بمقدورنا أنْ نفترض، أنَّ الدرويديين قد أخذوا عبادة الأجرام السَّماويَّة من هنا بالذَّات، من ثقافة بناة المنشآت الحجريَّة المهولة. وعلاوة على هذا سوف

يكـون مـن المنطقـي أنْ نـرى منبـع الدرويديَّـة مـن هـذه الحـضارة، ومـن هـذه المعتقـدات. فالدرويـديون يتفرَّعـون مـن المجـرى المشترك لمعتقـدات الـشُّعُوب الهنديَّـة القديمـة وثقافاتهـا. ويبـدو علـى أغلـب الظَّـنِّ أنَّ مركـز نـشوء الدرويديَّـة يقـع في بريطانيـا. وهـذا مـا افترضـه قيصر. وتؤكِّد عليه نصوص الساغات الإيرلنديَّة. فتتوِّه هذه تكراراً إلى مدارس المعارف السِّرِّيَّة التي تتوزَّع على أراضي سكوتلندا المعاصرة (في ألبان). لقد شاع عند الدرويديين تبجيل قوى الطَّبيعة والأجرام السَّماويَّة. وترافق ذلك التَّبجيل بنظام كهنوتي تراتبي صارم. وهـذا مـا وفَّـر لمجمـل النِّظـام الاجتمـاعي مـستوى ممتـازاً مـن الاسـتقرار. وعنـدما اسـتوطن السَّلت غاليا أخذوا هذا النِّظام.

وتُعدُّ مسألة إيمان الدرويديين بانتقال الأرواح، أي بالخلود، مسألة مبدئيَّة. والحقيقة أنَّ التَّثويعة الدرويديَّة هذه كانت تختلف مبدئيَّاً عن التَّنويعة الهنديَّة. ففي المعتقدات الهنديَّة أنَّ فكـرة انتقـال الأرواح تحمـي نظـام الكاسـتات (= الطَّوائـف الاجتماعيَّـة المغلقـة. م)، وتـبرر وجودها. فلا وجود للهندوسيَّة بغير الكاستات، ولا وجود لهذه الأخيرة بغير انتقال الأرواح. ومن الواضح أنَّ الدرويديين لم يستغلوا فكرة انتقال الأرواح بهذه الطَّريقة. لقد أراد الدرويديون أنْ يعيشوا وحسب، فآمنوا بالخلود. الإنسان رغب دوماً في أنْ يؤمن بالخلود. وقد كان تفكير الدرويـديين في هـذا الميـدان أكثـر واقعيَّـة، وأكثـر التـصاقاً بالـشؤون الأرضـية: لم يتخيَّـل الدرويديون الخلود رجعات كثيرة إلى الأرض. وجاء وصف هذا الحب الجسدي للحياة، وكره مغادرة هذا العالم نهائيَّاً إلى العالم الآخر، في ملحمة «كات غو ديو» للشَّاعر - المغنِّي تاليسين (القرن ٦م.). ومعنى عنوان الملحمة، هو «معركة الشَّجر». وقد جاء فيها عن تكرار الولادات ما يلي:

وتحوَّلت من جديد،
فكنت سلموناً أزرق،
وكنت كلباً، ووعلاً،
وأيِّلاً على المنحدرات الجبليَّة؛
وكنت قرمة شجرة ومجرفة،
ومثقباً في ورشة يغطِّيها السخَّام،
وأقمت عاماً ونصف العام
ديكاً أرقط أطأ الدَّجاجات متى أشاء.

ولا تندرج لهجة هذا المقطع الذي يتحدَّث عن انتقال الرُّوح من جسم لآخر، في دائرة الآلام اللانهائيَّة التي جاءت بها البوذيَّة، ومحاولات التَّخلُّص منها. وكانت فكرة انتقال الروح وفق هذه التَّنويعة المتفائلة شائعة شيوعاً واسعاً عند شعوب أفريقيا، وأستراليا، ومن المعروف أنَّها لم تخفَ على فلاسفة الإغريق القدماء. والحقيقة إنَّه لا يمكن الموافقة على الرَّأي الذي يقطع بأنَّ الدرويديين أخذوا فكرة انتقال الرُّوح عن فيثاغورس، وهو ما عمل ديودوروس الصقلِّي على إثباته. فكتب يقول: «لقد شاع عندهم رأي فيثاغورس القائل، إنَّ روح الإنسان خالدة، وهي تعيش من جديد في خلال عدد معلوم من السِّنين متغلغلة في أجساد أخرى». وقد أُعجب كثير من المؤلِّفين القدامى بفكرة اقتباس الدرويديين لتصوُّراتهم عن انتقال الرُّوح عن فيثاغورس. فقد راقت لهم الفكرة. وصاغوا سيناريو ذلك الاقتباس، فزعموا أنَّ زامولكسيس عبد فيثاغورس التَّراقي، عاد بعد موت سيِّده إلى وطنه تراقيا، ونشر فيها التَّعاليم التي تتحدَّث عن انتقال الرُّوح. لكنَّ هذا الرَّأي ليس رأياً جدِّيَّاً.

الفصل السادس

هكذا تكلم زرادشت

لقد عاش زراتوشترا مؤسِّس الدِّيانة الجديدة، في الرُّبع الأخير من الألف ٢ق.م. وقد سادت ديانته الجديدة في الإمبراطوريَّات الفارسيَّة حوالي الألف والخمس مائة عام (من القرن ٦ق.م. حتى القرن ٧م.). وقد عرفت هذه الدِّيانة بالدِّيانة الزرادشتيَّة. وكان الإغريق القدماء قد حوَّلوا اسم مؤسِّس هذه الدِّيانة من زراتوشترا إلى زرواَسترا. وعدُّوه حكيماً منجِّماً (فالجذر «آسترا» مأخو من كلمة آسترون = نجمة). ثمَّ أخذ الآخرون عن الإغريق هذا التَّجديد. والحقيقة أنَّ بعض المؤلِّفين المعاصرين يحاولون العودة إلى استخدام الاسم الأصلي لزرادشت بهدف إظهار تميُّزهم وحسب؛ ولكنَّ ذلك لا يفضي في واقع الأمر إلاَّ إلى تشويش المسألة.

جغرافيَّاً ظهرت الزرادشتيَّة في سهوب روسيا الجنوبيَّة إلى الشَّرق من الفولغا. ففي الألف ٣ق.م. عاش هنا أسلاف الهندو إيرانيين. وكان هؤلاء مربِّي حيوانات عاشوا شبه متنقلين. وكان رعاتهم هم جنودهم أيضاً. كما كان لهم دينهم الخاصُّ بهم، وثقافتهم المتميِّزة، وخدم ديانتهم، أي كهنتهم. وفي الزمن المذكور انقسم أسلاف الهندوإيرانيين إلى شعبين لكل منهما لغته الخاصَّة به. وقد كان هؤلاء هم الهندوآريين والإيرانيين. وما عدا تربية الحيوانات عمل الشَّعبان بالتِّجارة مع جيرانهم الجنوبيين الذين كانوا يعيشون حياة حضريَّة.

وعند منتصف الألف ٢ق.م. باتت حياة هذين الشَّعبين مضطربة. فلكي يذودوا عن حقِّهم في الحياة كان عليهم أنْ يصنعوا كميَّات كبيرة من الأسلحة والمركبات القتاليَّة. لقد كان ذلك هو زمن صيرورة روح الشَّعب، وإدراكه لرسالته في هذا العالم، الأمر الذي تجلَّى في ولادة دين جديد. ولم يكن ذلك الدِّين منشأً إنشاءً. ولم يُبتكر ثمَّ يتلاءم مع شروط حياة الشَّعب. بل تمَّ تلقِّيه من فوق في الوحي الذي نزل على النَّبي زرادشت. وقد وقع الحدث بين العامين ١٥٠٠ و١٢٠٠ق.م.

لقد بدأ النَّبي زرادشت يبشِّر بجوهر ما يوحى إليه. وقد تلخَّص ذلك الجوهر في أنَّ ما يجب أنْ يدير شؤون المجتمع ليس القوَّة، وإنَّما القانون، قانون واحد للمعمورة كلها، قانون إلهي. وعندما بدأ زرادشت دعوته كان كما يسوع المسيح، في الثَّلاثين من عمره. وقد دعاه خاطر الخير لتأدية الرِّسالة. ففي الصَّباح، عند بزوغ الفجر مضى زرادشت إلى النَّهر ليأتي بالماء من أجل إعداد الشراب المقدَّس. وبينما هو في طريق العودة ظهر أمامه خاطر الخير في ضياء مبهر. وقاده إلى حضرة الإله. وفي ضياء الإله عجز زرادشت عن «رؤية ظلِّه». ومنذ تلك اللَّحظة بات مدعوَّاً للتَّبشير بحكمة الإله (ربِّ الحكمة، الرَّبِّ الحكيم). وكان الرَّبُّ الذي دعا زرادشت رسولاً له، إلهاً متعالياً عارفاً بكل شيء، وخالقاً الوجود كله. لقد كان هذا إله السَّماء والأرض. وضامناً لتحقيق العدالة الإلهيَّة وإقامة النِّظام. وقد أعلن الرَّبُّ العادل عن ذاته في أعمال الخير والكلمة الطَّيِّبة. وفيما بعد أطلقوا على الدِّيانة الزرادشتيَّة اسماً آخر، هو الدِّيانة المازديَّة (نسبة إلى أهورامازدا؛ أي الرَّبُّ الحكيم). فكلمة «أهورا» تعني الرَّبَّ. كما كان من الأرباب أيضاً: ميترا، وفارونا، وآخرون.

إنَّ تعاليم زرادشت قائمة على الديالكتيك الحي المزدهر. فهي ترى أنَّ العالم يتألَّف من المتناقضات، من الإيجابي والسَّلبي، والخير والشَّرِّ، والنور والظَّلام. وجوهر العمليَّات الجارية في العالم، هو ارتقاء يتلخَص في صراع هذين المبدأين (ووحدتهما). وفي الشَّخصيَّات تظهر المعادلة على النَّحو التَّالي: يرتبط الخير بالرَّبِّ الحكيم (أهورا مازدا). ويتجسَّد الشَّرُّ في أنغرامانيو (الرُّوح الشرِّير). ويدور بين الاثنين صراع متواصل لا يتوقَّف. فقد صنع الرَّبُّ الحكيم الحياة، والدِّفء، والنُّور، وكل ما هو إيجابي في هذا العالم. لكنَّ الرُّوح الشرِّير صنع الموت، والشِّتاء، والبرد، والقيظ، والحيوانات الضَّارية، والحشرات المؤذية. وقد قسَّم الإنسان العالم دوماً إلى خير وشرٍّ، ولكنْ وفق ما تقضي به مصالحه الذَّاتيَّة. ولذلك نُسبت الحيوانات الضَّارية والحشرات المؤذية إلى عالم روح الشَّرِّ، بيد أنَّ تعاليم زرادشت تتَّسم بالتَّفاؤل. وفي نهاية المطاف ينتصر الخير على الشَّرِّ انتصاراً نهائيَّاً ناجزاً. ولا يعمل الرَّبُّ الحكيم وخصمه الرُّوح الشرِّير بمفردهما. فقد خلق الرَّبُّ الحكيم بمساعدة الرُّوح القدس ستَّة قدِّيسين خالدين. وهم: حامي القطعان، وفكرة الخير (بهامان)، وناظر النَّار وحاضن البرِّ (أورديبيخيشت)، وحارس المعدن والسلطة المختارة (شهريوار)، وحامي الأرض والعفَّة (سبينتا أرمانتي)، وأمين المياه والكمال (هوردار)، وحارس النَّباتات و«الخلود» (مورداد). كما صنع الرَّبُّ الحكيم إضافة إلى

هؤلاء آلهة تابعين له: ميترا، وفارونا (حفيد المياه)، وشراوشي (= الطّاعة، والاهتمام، والنّظام)، وآشي (إلهة المصير)، ويخوض هؤلاء كلهم مع الرّبّ الحكيم حرباً ضارية ضدّ الرُّوح الشرّير.

وبدوره فإنّ الرُّوح الشرّير ليس وحيداً. مساعدوه هم الأرواح الشرّيرة (الديفاس)، والسَّحرة، وسلاطين الشّرّ الذين يتسبّبون بالأذى لعناصر الطّبيعة الأربعة: النّار، والتُّراب، والماء، والسَّماء. وتتركّز في سلاطين الشّرّ الصّفات البشريّة الأكثر سوءاً: الحسد، والتّقاعس، والكذب، و....

لقد استمرّت الزرادشتيّة على قيد الحياة آلاف السّنين لأنّها أعطت الكمال الرُّوحي أهمّيّة كبيرة. فافترض أتباع هذه التّعاليم أنّ نشاط الإنسان يجب أنْ يستند على الفكرة الخيّرة، والكلمة الطّيّبة والعمل الصّالح. كما دعوا إلى الالتزام بالنّظافة والنّظام. ودعت الزرادشتيّة إلى التّعاطف مع النّاس، وحفظ الجميل للوالدين، والعائلة، وأبناء الجلدة. وقضت تعاليمها بالالتزام بالواجبات المقدَّسة تجاه الأطفال. وفرضت مساعدة أبناء الملّة، والعناية بالأرض والمراعي. إنّ هذه هي وصايا الزرادشتيّة الأساسيّة. ولذلك ليس غريباً أنْ خلق الزرادشتيون لدى أبناء وطنهم عزيمة تثير العجب، من خلال تحقيقهم هذه الأخلاق المستقيمة العادلة في حياتهم اليوميّة. لقد كان تحقيق هذه المبادئ الأخلاقيّة السّامية في الحياة، هو المعين الأكبر الذي مكّن الزرادشتيين من تجاوز المحن الثّقيلة التي تعرّضوا لها. أمّا فيما يتعلّق بأتباع الدّيانات الأخرى فليس في تعاليم زرادشت ما يدعو إلى ملاحقتهم واضطهادهم. وحسب الزرادشتيّة أنّ للإنسان حرّيّة الاختيار. وهو المسؤول عن فعل الخير أو فعل الشّرّ. لكنّ الزرادشتيّة رأت مع ذلك أنّ قدر الإنسان محدَّد منذ الأزل.

وتخيَّل الزرادشتيون بناء الكون على النّحو التّالي. يمتدّ تاريخ وجود العالم اثني عشر ألف عام. وينقسم إلى أربعة عصور طول كل منها ثلاثة آلاف عام. ولم يكن في العصر الأوّل لا أفكار ولا أشياء. ولكنّ هذا العصر عرف الصُّور الأولى لكل ما خلق على وجه الأرض بعدئذٍ. لقد كان هذا العصر عصر العالم «الرُّوحي»، «المكنون». وفي العصر الثّاني خُلق العالم الواقعي. ففيه خلق الرّبّ الحكيم السَّماء، والنُّجوم، والقمر، والشّمس، والإنسان الأوّل، والثّور الأوّل. وكان مسكن الرّبّ يقوم وراء مجال الشّمس. وخلق فيه الرُّوح الشرّير الكواكب والمذنّبات. فهذه لا تخضع لقوانين توازن حركة المجالات الكونيّة، ولذلك فإنّها يمكن أنْ تكون سبباً في وقوع كوارث كونيّة. لقد

جرثم الرُّوح الشرِّير الماء وأرسل الموت على الإنسان الأوَّل والثَّور الأوَّل. وقبل هذا كان الإنسان الأوَّل قد أنجب رجلاً وامرأة خرج منهما الجنس البشري كله. وخرجت من الثَّور الأول الحيوانات كلها. وبسبب الصِّدام الذي وقع بين المبدأين النقيضين (الإيجابي والسَّلبي)، دخل العالم كله الآن في حركة. فجرت المياه، وظهرت الجبال، وتحرَّكت الأجرام السَّماويَّة. وبما أنَّ قوى الشرِّ هي التي صنعت الكواكب، لذلك أقام الرَّبُّ الحكيم أرواحه على كل منها.

وبعد العصر الثَّاني بدأ العصر الثَّالث. وقد استمرَّ هذا حتَّى ميلاد زرادشت. ووقعت فيه كثرة من الأحداث المهمَّة، ومنها على وجه الخصوص، الطُّوفان. وكان الفعل في هذا العصر بين أيدي أبطال الأفيستا الميثولوجيين. ومنهم إيما ذو الضِّياء. وليس في مملكة هذا حرٌّ، أو برد، أو شيخوخة، أو حسد. وعندما وقع الطُّوفان أنقذ إيما البشر والحيوانات. كما عمل في الوقت نفسه أيضاً، الحاكم فيشتاسبا الذي منح زرادشت الملجأ واعتنق تعاليمه. وبدأ بعد زرادشت العصر الرَّابع من ارتقاء عالمنا. وكان يجب أنْ يظهر في كل ألف من هذا العصر ثلاثة مخلصين ينقذون الجنس البشري. إنَّهم أبناء زرادشت. والأخير منهم (ساوشيانت)، هو الذي سيقرِّر مصير الجنس البشري والعالم كله. وفي عهده يحلُّ زمن الرُّؤيا. فيهزم الرُّوح الشرِّير، أي ينتصر الخير على الشرّ. وتحلُّ نهاية الكون، ويتطهَّر العالم «بسيل من المعدن المصهور». وبعد أنْ يهلك العالم القديم بالنار، تبعث الكائنات التي كانت تعيش فيه إلى الحياة من جديد. يبعث كلهم: الأخيار والأشرار. وسوف يندم هؤلاء الأخيرون على ما ارتكبوه من شرور، ويعلنون توبتهم. لكنَّ مصدر الشَّرِّ في العالم سيدمَّر مرَّة وإلى الأبد. سيتغيَّر العالم. وتتحوَّل الأرض والبشر. وتدخل الحياة على الأرض طوراً جديداً. إنَّها لحظة انتصار الفرح، ونهاية الشَّرِّ والموت. ولذلك ينبغي انتظار لحظة الرُّؤيا دون خوف، ولكنْ بأمل وإيمان بعالم جديد عادل يعيش فيه البشر سعداء لا يعرفون الضَّغينة، أو الحسد، أو الغضب، أو الخسَّة، أو الخيانة، أو ما شابه. هذا هو المستقبل البديع الذي رآه أتباع تعاليم زرادشت للبشريَّة. وهذا ما ساعدهم على تجاوز صعوبات الحياة اليوميَّة المليئة بالتَّعاسة، والظُّلم، والعنف، والخداع. لقد مكَّن هذا الإيمان الزرادشتيين على أنْ يتمتعوا دوماً بروح معنويَّة عالية، ويحملوا للنَّاس النُّور والإيمان في حتميَّة انتصار الخير على الشَّرِّ.

إنَّ ما أوردنا هنا ليس سوى رسم تخطيطي لتعاليم زرادشت. أما جوهر هذه التَّعاليم فقد عُرض بالتَّفصيل في رؤيا زرادشت التي دوِّنت في كتابه المقدَّس (الأفيستا). إنَّه إنجيل

زرادشت أو قرآنه، والأفيستا لا تحتوي فقط على مجموعة النُّصوص المقدَّسة لتعاليم زرادشت، بل فيها كذلك معلومات عن سيرة حياة مؤسِّس هذه التَّعاليم. ونحن نعرف اليوم ثلاثة من كتب الأفيستا: الياسنا، والياشتا، والفيديفداتا. كما استخدمت استخداماً واسعاً مجموعة الصَّلوات اليوميَّة: الأفيستا الصُّغرى. ويتألَّف كتاب الأفيستا الأوَّل (الياسنا) من اثنين وسبعين فصلاً، تؤلِّف الأناشيد سبعة عشر فصلاً منها، وهي أناشيد ألَّفها زرادشت نفسه. ويقنع تحليل الأناشيد المتخصِّصين بأنَّ زرادشت لم يكن ابن عائلة ثريَّة. فاسمه نفسه يعني: «ذلك الذي يقود الجمل». ولم يفهم أبناء وطنه تعاليمه. وهذا ما حصل لتعاليم المسيح (لم يقبلها اليهود)، ولتعاليم محمَّد في بادئ الأمر (فمكَّة لم تعترف بها)، ولتعاليم بوذا (لا تزال الهند تعتنق الدِّيانة الهندوسيَّة السَّابقة على البوذيَّة). لقد لاحقوا زرادشت في وطنه واضطهدوه. بيد أنَّه لم يصعد الجلجثة، بل اختبأ عند الحاكم فيشتاسبا الذي اعتنق الزرادشتيَّة.

لقد كان أتباع تعاليم زرادشت يسجدون للنَّار. وكانت هذه رمز الرَّبِّ الحكيم (آهورا مازدا). وقد تجلَّت النَّار المقدَّسة (أتار) في مظاهر مختلفة: النَّار السَّماويَّة، نار الصَّواعق، والنَّار التي تمنح الجسد البشري الحياة والدِّفء، والنَّار التي كانوا يشعلونها في المعابد الزرادشتيَّة. وكانت هذه معابد خاصَّة: أبراج. وكان كل معبد منها يحتوي على محراب بأربع درجات ارتفاعه متران. وكانت النَّار المقدَّسة توضع في كأس نحاسيَّة عظيمة قائمة على المحراب المبنيِّ من الحجارة. وحجبت قاعة النَّار هذه عن قاعات المعبد الأخرى بحيث لا يمكن للمصلِّين في المعبد أنْ يروا النَّار مباشرة. لقد كان يمكنهم أنْ يروا انعكاسها فقط.

وعبر السُّلَّم كانوا يحملون النَّار إلى سطح المعبد لكي ترى من بعيد. ومن النَّار المشتعلة أبداً في معبد النَّار، كانوا يشعلون نيران معابد المدن. ومن نيران معابد المدن كانوا يشعلون نيران محاريب القرى، ومن هذه الأخيرة إلى محاريب المنازل. ولم تكن للنيران المقدَّسة كلها الأهمِّيَّة عينها. فقد كان لكل وليٍّ صنعه الرَّبُّ الحكيم ناره الخاصَّة به، وكان وليُّ البرِّ والتَّقوى (بهرام)، هو الوليُّ الأهمُّ بينهم. فناره كانت الجذوة الأساس التي أُخذت منها النيران المقدسَّة لأكبر مدن إيران والمقاطعات الأساسيَّة. فهذه النَّار الأكثر عظمة واحتراماً، هي التي كانت تمنح النَّاس القوَّة في صراعهم ضدَّ الشَّرِّ. ولكنَّ نار بهرام لم تكن مجرَّد نار عاديَّة. فقد كانت تتألَّف من ستة عشر نوعاً من أنواع النَّار، أُخذت من المواقد المنزليَّة لممثِّلي فئات المجتمع كلها: خدم العبادة (الكهنة)، والجنود، والكتبة،

والتُّجّار، والصُّنّاع، والزُّرّاع، والرُّعاة و... وكانت النّار التي تُقدح من ضربة الصّاعقة الشّجرة، هي النّار الأساس بين النّيران الأخرى كلها. ولذلك كانوا ينتظرونها طويلاً ويحافظون عليها بحرص شديد.

ولم يتوقّف الأمر عند حدود خدمتهم للنّار، بل اعتنوا بها وجدّدوها. فكانوا ينظّفونها من الشوائب والرّواسب، ويضرمون في المحراب بين وقت وآخر ناراً جديدة. لقد كانت نار المحراب ناراً مقدّسة. ولم يكن مسموحاً إلاّ للكاهن بالتّعامل معها. ولفعل ذلك كان ينبغي على هذا الأخير أنْ يكون مرتدياً زيّاً خاصّاً كزيِّ الجرّاح في أيّامنا هذه: رداء أبيض، وقبّعة بيضاء معها قناع أبيض على وجهه. وكان الغرض من القناع حماية النّار المقدّسة من دنس تنفُّس الكاهن. وكان من مهمات كاهن الخدمة الحفاظ على النّار مشتعلة في المصباح. فاستخدم لهذا الغرض ملقطاً خاصّاً وعمل على أنْ تكون الشُّعلة فيه مستوية. أمّا مصدر النّار فهو خشب أثمن أنواع الشجر وأشدها صلابة (بما فيه شجر الصندل). ولم تكن النّار تبعث النُّور والدِّفء فقط، بل كانت تنبعث من الخشب المحترق روائح عطريّة طيبة. وكانوا يجمعون الرّماد ثمَّ يدفنونه عميقاً في الأرض.

لقد كان الأساس الأخلاقي لهذه الدِّيانة التي كانت ديانة رسميّة للدّولة طول ثلاثة عشر قرناً، أساساً راسخاً وفّر الإمكانيّة الضّروريّة لبناء مجتمع قويٍّ معافى. فكانت حياة الفرد فيه منظّمة بدقّة. ولكنَّ ذلك التّنظيم كان أقرب إلى ما كان يجري في الطّبيعة. كانت الطُّقوس والشّعائر الأهمُّ مرتبطة بالاحتفال بحلول العام الجديد، وعبادة الأسلاف، وتكريم المشروب المقدّس، وإشراك الأحداث في شؤون الإيمان، وعقد القران، وولادة مولود، ودفن ميت، وما إلى ذلك. وكان الكهنة هم حتماً مخرجو مثل هذه الطُّقوس.

وللصلاة مكانة مهمّة في الزرادشتيّة. وكانت فروض تأدية الصّلاة للرَّبِّ الحكيم خمسة فروض كل يوم، ليس أقلّ. وكان من الواجب أنْ تؤدّى الصّلاة ليلاً أيضاً. لقد كان الزرادشتيون يذكرون الرَّبَّ صباحاً، وقبيل النّوم، ولدى خروجهم من المنزل ودخولهم إليه، وعند التّطهُّر، وإجراء المراسم الشّعيريّة الأخرى. ولم تكن الصّلاة تؤدّى في المعبد فقط، بل في أيِّ مكان متاح. وكان ينبغي على المصلّي أنْ يُيمّم وجهه نحو الجنوب بالضّرورة. وقد وصف الكاتب الإيراني صادق هداية تأدية الصّلاة في المعبد الزرادشتي على النّحو التّالي: «أذكر جيّداً عندما كنت مساء أقيس أبعاد هذا المعبد. كان الطّقس حارّاً، وكنت منهمكاً تماماً. وفجأة رأيت رجلين يتّجهان نحوي في ملابس

لا يرتديها الكهنة الآن. ولمّا اقتربا رأيت نفسي أمام شيخين طويلي القامة قويَّي البنية، أعينهما تبرق بلمعان غريب، وملامح وجهيهما غير عادية، كما بدت لي.... لقد كان هذان رجلين زرادشتيين يعبدان النار، كأسلافهما الملوك القدماء المدفونين في هذه المقابر. فجمعا الحطب بسرعة ووضعا كومة، ثمَّ أضرما النَّار فيه وشرعا يقرآن صلاة بطريقة خاصَّة تشبه الهمس.... فظننت اللُّغة كانت لغة الأفيستا عينها. وبينما أنا أرقب قراءتهما الصَّلاة، رفعت رأسي مصادفة وحطَّ عليَّ الذُّهول. فأمامي مباشرة، على حجارة النَّواويس انحفر المشهد عينه الذي يمكنني أنا الآن بعد ألف سنة أن أراه بعينيَّ، لقد خيِّل لي أنَّ الحجارة عاشت، وأنَّ النَّاس المحفورين على الصَّخرة قد نزلوا لكي يسجدوا لتجسيد إلههم».

والحقيقة أنَّ الحجارة حافظت على الكثير، فبقيت محفورة فيها صور داريوس الأوَّل والملوك الأخمينيين الآخرين أمام محراب النَّار على قبور ناكشي - روستام.

ولطقوس التَّطهُّر أهمِّيَّة خاصَّة في الزرادشتيَّة. ومن الأشياء غير النَّظيفة بعض أنواع النَّباتات، والحيوانات، والثَّعابين، والحشرات (كالنَّمل وما شابه). وعُدَّ لمس ما هو غير نظيف إثماً. ومن الكائنات النَّظيفة: الإنسان، والكلب، والبقر، والشِّياه، والقنفذ، والشجر، والنَّباتات والثِّمار التي تنمو في البساتين. وقد قصد الزرادشتيون بالنَّظافة نظافة الجسد ونظافة الروح. ويبذل الزرادشتيون جهدهم كله في سبيل ألاَّ يدنِّس مصدر الحياة. فمن الضَّروري غسل اليدين جيِّداً قبل سكب الماء. ويحرَّم الخروج من المنزل وقت هطول المطر كي لا يتلطَّخ الماء والأرض. وقبل استخدام اللَّحم في الطَّعام كانوا يخرجون الدَّم منه. ومنعوا إقامة الولائم والاستحمام بحضور أتباع ديانات أخرى. كما كان ينبغي أنْ تكون نار الموقد المنزلي نظيفة: خشبها نظيف وجاف. وفي أثناء طهي الطَّعام على النَّار كان يجب الحرص الشَّديد على ألاَّ تسقط أي قطرة منه فيها. لقد كان كل شيء مُعدَّاً وفق تقنيَّة جيِّدة: كانت القاذورات تبعد إلى خارج المنزل عبر آليات مخصَّصة للغرض. وكانوا يخلطونها قبل ذلك بخليط خاصٍّ يخزَّن في مخزن خاصٍّ.

لقد كانت المرأة عند الزرادشتيين عضواً كامل الحقوق في العائلة والمشاعة. وكان كلهم يحسب لرأيها حساباً. وبعد الوضع كان طقس التَّطهُّر لزاماً على الأمَّهات. ولم يعفَ حتى الكهنة من تأدية طقس التَّطهُّر. بل كان الكاهن المقبل يخضع لعدد من مراحل التَّطهُّر، لأنَّ الطقس كان يستمرُّ أسبوعين. وفي كل يوم كان المرشَّح للكهنوت

يغتسل ستَّ مرَّات بالماء، والرَّمل، ومركَّب خاصٌ يدخل البول في بنيته. وكان المرشَّح يردِّد في غضون ذلك صلوات خاصَّة. وكان اللَّقب الكهنوتي ينتقل بالوراثة، ولكنْ إضافة إلى تأديته طقس التَّطهُّر كان المرشَّح للكهنوت يدرس تخصُّصه دراسة دقيقة شاملة.

أمَّا الأطفال فقد كان المنجِّمون يكشفون عن مستقبلهم فور ولادتهم. وفي طور البلوغ كانوا يؤدُّون طقس التَّكريس: بين سنِّ السَّابعة والخامسة عشرة. فيوضع على وسط الفتى أو الفتاة حزام محوك من الخيوط لا يفارقه أو يفارقها طول الحياة. وكان يجب أنْ يقام الطَّقس في المنزل على ضوء المصباح. وكانت تُقرأ في أثناء ذلك صلوات من الأفيستا.

إنَّ للزرادشتيَّة تاريخاً مجيداً وطويلاً. فقد ولدت، وازدهرت ثمَّ أزاحها الدِّين الجديد: الإسلام. ولم يبنِ الزارادشتيون الأوائل معابد، كما لم يرسموا أيَّ صور للرَّبِّ الحكيم وأوليائه. ولكنْ عندما صارت الزرادشتيَّة في القرن ٦ق.م. الدِّين الرسمي لفارس، أخذوا يرسمون صورة الرَّبِّ الحكيم شبيهاً بالإله الآشوري. ونزولاً عند أمر الملك داريوس الأوَّل حفروا رسم الرَّبِّ الحكيم على حجر أقاموه في عاصمة فارس. وكان الرَّسم عبارة عن صورة لملك له جناحان مبسوطان. وكان الملك يضع التَّاج على رأسه الذي تحيط به هالة من النُّور على شكل قرص الشَّمس. وينتهي التَّاج الذي على رأس الملك بكرة عليها نجمة. ويحمل الملك (الإله) بيده رمز السُّلطة.

وفي القرن ٨ ق.م. شيِّدت معابد النَّار. ورسموا صور الرَّبِّ الحكيم وأوليائه وآلهته التَّابعين الذين صنعهم. فقد أمر الملك أرتاكسيراكس الثَّاني (٤٠٤-٣٥٩ق.م.)، بإقامة تماثيل لإلهة الماء والخصب أناهيتا في عدد من مدن فارس. كما عمل ملوك إيران الساسانيون على تعظيم الزرادشتيَّة دوماً. فبني في زمنهم عدد كثير من معابد النَّار في مختلف أرجاء البلاد. وكانت هذه السُّلالة قد بلغت طور ازدهارها في القرن ٣م.. لقد بنيت معابد النَّار من الحجارة أو الطِّين غير المشوي، وفق مخطَّط نمطيٍّ واحد، وكانت موجوداتها متواضعة، وجدرانها مجصَّصة من الدَّاخل. وكان في كل معبد محراب فيه نار مقدَّسة.

وبعد أربع مائة عام، عند أواسط القرن ٧م. استولى المسلمون على فارس وضمُّوها إلى دولة الخلافة العربيَّة. وعلى امتداد حوالي المائتي عام لم يضطهد المسلمون أتباع الزرادشتيَّة. ولكنْ بعد أنْ وحَّد هؤلاء أكثر شعوب آسيا الدُّنيا تحت سلطتهم (في القرن ١١م.)، أمر خلفاء بني العبَّاس بتدمير معابد النَّار الزرادشتيَّة كلها تدميراً تامَّاً. ودعوا

الزرادشتيين «كُفّاراً»، وحرموهم من حقوقهم المدنية الأخرى. وفرضوا عليهم تأدية الجزية. ومن كان منهم يعاند، كان يُضطهد دون رحمة. فهجر كثير من الزرادشتيين وطنه الذي بات تحت سيادة الأغراب المسلمين. وجاءت عدَّة آلاف منهم إلى الهند. وباتوا يدعون فيها فرساً. والحقيقة أنَّ طريق الزرادشتيين إلى الهند كانت طويلة. ففي بادئ الأمر خرج هؤلاء إلى الخليج العربي، ومنه أبحروا إلى جزيرة ديف التي أقاموا فيها تسعة عشر عاماً. فقد أذن لهم الرَّاجا المحلِّي أنْ يقيموا هنا في مكان دعوه هم: سانجان. وبنوا فيه معبد النَّار أتيش بهرام. وبقي هذا معبد النَّار الوحيد في ولاية غوجارات الهنديَّة على مدى ثمانية قرون. ومع مرور الزَّمن اندغم هؤلاء الفرس بالسُّكَّان المحلِّيِّين. ونسي أحفادهم وأحفاد أحفادهم لغتهم الأُمُّ وباتوا يتحدَّثون اللَّهجة المحلِّيَّة. ولم يبقَ على إخلاصه للتعالم الزرادشتيَّة سوى الكهنة. فحافظوا على زيِّهم القديم عينه؛ وتمسَّك الفرس كلهم بمشاعتهم بقوَّة. لقد كان في الهند خمسة مراكز رئيسة لاستيطان هؤلاء الفرس: فانكوتير، وفارناف، وأنكيسار، وبراتش، ونافيساري. وفي القرنين ١٦-١٧م. ظهرت للفرس مراكز في بومبي وسورات.

ولكنَّ الأمر لم يكن سهلاً على المهاجرين الفرس. بيد أنَّ أحوال الزرادشتيين الذين بقوا في فارس كانت أكثر صعوبة. فقد هدم المسلمون معابدهم، ودمَّروا كتبهم المقدَّسة، بما فيها كتاب الأفيستا. ولم يتمكّن من النَّجاة سوى مجموعة صغيرة من المؤمنين (لبعض الوقت فقط). فقد ابتعد هؤلاء عن الأماكن المزدحمة بالسُّكَّان، وحاولوا أنْ يختبؤوا وراء الجبال والصَّحارى. في ١١-١٢م.، كانت الزرادشتية تعيش حالة شبه سرِّيَّة. لقد خلت معابدها من المؤمنين، لكنَّ النِّيران المقدَّسة بقيت متَّقدة في أماكنها المعتادة. ولكنْ في القرن ١٧م. أدرك المسلمون الزرادشتيين في ملاجئهم النَّائية تلك. وقد قاد ملاحقتهم الآن شاهات السُّلالة الصفويَّة. فأمر هؤلاء بإخراج الزرادشتيين من المدن وإرغامهم على اعتناق الإسلام، أو مواجهة عقوبة الموت قتلاً. ومع ذلك بقي الزرادشتيون الأكثر صلابة قائمين على خدمة الرَّبِّ الحكيم. فبنوا منشآت بغير نوافذ حلَّت محل معابد النَّار. ولم يكن يدخل إلى تلك الأماكن إلاَّ الكهنة؛ بينما كان باقي المؤمنين يمكثون في الشَّطر الآخر من المنشأة.

وعانى الزرادشتيون الاضطهاد في إيران حتى في العصر الحديث. فقد سيطر المسلمون على مجمل مناحي حياتهم كلها. وبات عليهم أنْ يحصلوا منهم على إذن حتى لبناء مسكن. ومنعوا من العمل في كثير من المهن، وحرِّمت عليهم التِّجارة في اللُّحوم، والعمل في مهنة

النسيج، و.... كما فرضوا عليهم ارتداء ثياب صفراء اللَّون أو قاتمة اللَّون. لقد جاب الزرادشيتون الآفاق، وانتقلوا من مكان لآخر هرباً من الاضطهاد وتفادياً للاندثار. ولذلك كان لا بدَّ من أنْ يترك هذا كله أثراً على مظهرهم الخارجي وطابعهم النَّفسي. لقد كان عليهم أنْ يفكِّروا دوماً بالنَّجاة، بإنقاذ طائفتهم والعمل على استمرارها على قيد الحياة لأكثر من جيل آخر.

لم تتطوَّر الأحداث لمصلحة الزرادشتيَّة. ففي العام ١٢٠٦م. قامت في دلهي سلطة إسلاميَّة. واستولى المنغول على فارس. وفي العام ١٢٩٧م. استولى المسلمون على غوجارات. فانقطعت الصِّلة بين زرادشتيي الهند وفارس.

لقد كان من السُّهولة بمكان تمييز الزرادشتيين الفرس بمظهرهم الخارجي عن المسلمين الفرس. فقد كانوا يرتدون قميصاً قطنيَّاً واسعاً على سروال. ويتحزَّمون بحزام عريض أبيض. ويعتمرون قلنسوة من اللِّبَّاد، أو عمامة. وعلى وجه العموم كان هؤلاء شعباً جميلاً. رجالهم أقوياء البنية، طوال القامة، عريضو المناكب، أُنوفهم كأنف الصَّقر، شعرهم أسود طويل مسترسل، لحاهم كثيفة، وعيونهم رماديَّة واسعة. ولمَّا كانت نساؤهم فاتنات الحسن، فقد كان الفرس المسلمون يخطفوهنَّ عنوة ويتزوجوهنَّ.

أمَّا فرس الهند فقد كان اضطهادهم أخفُّ وطأة. وكان هؤلاء مربِّي حيوانات وفلاحين ممتازين. كما نجحوا في صناعة الخمور، وزرعوا التِّبغ، وعملوا في التِّجارة: كانوا يزوِّدون البحَّارة بالماء والخشب. وفيما بعد تحوَّل هؤلاء إلى وسطاء تجاريين مع الأوروبيين.

إنَّنا كي نحدِّد مكانة الإنسان في هذا العالم، علينا أنْ نمتلك قبل هذا تصوُّراً معيَّناً عن هذا الأخير، عن مبادئ بنائه، عن قوانينه التي يعش ويتطوَّر وفقها. واستناداً على مثل هذا التَّصوُّر تتشكل قواعد سلوك الإنسان في الحياة، أخلاقيَّاته. وتُعدُّ مسألة الحياة والموت واحداً من وجوه هذه المعضلة. إذا كان موت الجسد الفيزيولوجي يعني نهاية كل شيء بالنِّسبة للإنسان، فإنَّ هذا ليس سوى سيناريو واحد، تنتج عنه معاييره السُّلوكيَّة الخاصَّة. وإذا كانت الحياة تتواصل بعد موت الجسد الفيزيولوجي، لكنَّها تتَّخذ أشكالاً أخرى، فإنَّه يترتب على هذا قواعد سلوكيَّة أخرى، قيم أخرى. ولذلك فإنَّ الموقف من الحياة والموت يتَّسم بقدر كبير من المبدئيَّة. ونحن ندرس هذه المسألة بالتَّفصيل في كتابينا: «الإله، الروح، الخلود» (دار إيكيز، ١٩٩٢م.)، و«أسرار العقل الكوني والوحي» (فيتشي، ١٩٩٧م.).

لقد حسم معتنقو التَّعاليم الزرادشتيَّة مسألة الحياة والموت على النَّحو التَّالي: لا يلحق الموت إلاَّ بالجسد الفيزيولوجي للإنسان. فتنتقل روحه إلى العالم الآخر. وهناك تمضي في بادئ الأمر إلى قمَّة جبل العدالة. وينبغي عليها أنْ تجتاز جسر تشينفات. ولكنَّ الصعوبة تكمن هنا في أنَّ أرواح الأبرار وحدها التي تنجح في اجتيازه. فعندما تبدأ روح البار بالعبور، ينفتح الجسر حتى يغدو آمناً سهلاً. ولكنْ إذا ما كانت الروح العابرة لآثم فإنَّ الجسر يضيق حتى يغدو كالخيط، فتسقط روح الآثم في اللُّجَّة. ولا تهتمُّ الزرادشتيَّة بعد ذلك بمصيرها. فجهنَّم التي نعرف عنها، لا وجود لها في الزرادشتيَّة. أمَّا الجنَّة فهي موجودة. وتقيم فيها أرواح الأبرار. وفيها يقوم العرش الذهبي للإله.

ولأرواح الأسلاف، والأبطال، ومعلِّمي الزرادشتيَّة مكانة خاصَّة في العالم الآخر. وينسحب هذا على الأرواح الحارسة. وقد أطلقت الزرادشتيَّة على هذه الأرواح كلها اسماً واحداً: فرافاشي. فالفرافاشي تعتني بالنَّاس الذين يعيشون على الأرض. وتساعدهم على تحصيل القوت، والماء، وتحسين خصوبة الأرض، وجمع محصول وفير. كما تساعد الفرافاشي على استمرار العشيرة ورخاء العائلة. وتعبد الفرافاشي مثلها مثل الآلهة. ويخصِّصون لها في الأعياد تقدمات من المأكولات والملابس.

وحسب تعاليم زرادشت أنَّ الإنسان يتألَّف من طبيعة مادِّيَّة، وأخرى نفسيَّة، وثالثة روحيَّة. فمن هم الفرافاشي إذن؟ إنَّهم صورة الإله وشبيهه، عنصر أبديٌّ خالد. ويُعدُّ الإنسان نفسه من حيث جوهره عنصراً خالداً مشرقاً لا يتلف. ولا يقيِّد هذا العنصر الجسد والروح بأيِّ قيد. ويرتبط عنصر الإنسان مع الإله ارتباطاً لا تنفصم عراه، إنَّه جزء من الإله. وفي طور معيَّن عاش الفرافاشي (الإنسان السَّماوي) حياة كونيَّة. وخلافاً للحياة الأرضيَّة كانت هذه الحياة حياة رحبة، حرَّة، ومكتملة. ولكنْ في لحظة ما سقط الإنسان السَّماويُّ. لماذا؟ هل وقع السقوط بسبب عمل الروح الشرِّير؟ لقد جاءت إجابة الزرادشتيين على هذا السؤال إجابة حكيمة. فما هو الشَّرُّ من حيث جوهر الأمر؟ إنَّ ما هو شرٌّ بالنِّسبة لبعضهم، قد يكون خيِّراً لبعضهم الآخر، بل وأكثر من هذا فالأمر عينه قد يكون خيراً بالنِّسبة لأحدهم في وقت ما، وقد ينقلب بالنِّسبة للشَّخص عينه إلى شرٍّ في وقت آخر. إذن كيف نستدلُّ على الشَّرِّ وأين يقع مصدره؟ وكيف لنا أنْ نجفِّف هذا المصدر؟ إنَّنا نعثر على إجابة لهذا السؤال في المثال التَّالي. تقول الحكاية: كان يعيش في الأزمنة الغابرة رجل طيِّب. وقد حدث به الرَّغبة يوماً لأنْ يرى الشَّرَّ بأُمِّ عينه، أي أنَّه أراد أنْ يرى عنصر التَّدمير عينه، روح الشَّرِّ. فجاب العالم كله وركَّز انتباهه فقط على الشَّرِّ الذي يأتيه النَّاس على الأرض. لكنَّه عندما حلَّل الأمر ليعرف لماذا

يصنع النّاس الشّرّ، توصّل إلى نتيجة مفادها، إنّ النّاس يعملون الشّرّ إمّا بسبب تربيتهم الفاسدة، أو بسبب فقرهم، أو لأنّ اليأس والوحدة أو الجنون يسيطران عليهم. كما يرتكب النّاس الشّرور أيضاً بسبب حركة قوانين الطّبيعة التي لا تلائم الإنسان. وهكذا عجز الباحث عن الروح الشرّير عن العثور عليه. فجاءه هذا في الحلم وقال له: «أنت تبحث عنّي في كل مكان، لكنّك لا تبحث في المكان الصّح. فأنا أقيم في عينيك، وفي قلبك، فكّر في هذا!».

إذن من أين جاء الشّرّ؟ لقد ظهر الشّرّ في العالم عندما وُجد القلب الذي أذن بانطلاق شعور شرّير تجاه ما لم يكن يمثّل بذاته شرّاً. ولماذا يتصارع في الإنسان عنصران؟ إنّ مثل هذا الصراع يبدأ في اللّحظة عينها التي يجيز فيها القلب ما هو شرّ. إنّها هي عينها اللّحظة التي يولد الشّرّ فيها في هذا القلب؛ وفيها يبدأ صراع العنصرين.

إذن أين الروح الشرّير؟ إنّه غير موجود، وهو لم يغوِ الإنسان. إنّه الشّبح الموجود في القلب. وهو لا يخرج منه إلى السطح إلاّ عندما ينفجر العنصر الشرّير في داخل الإنسان نفسه. ولكنْ متى ولد الشّرّ في الإنسان السّماوي لأوّل مرّة؟ ألم يكن له ما للإله نفسه؟ ولكنّه إضافة إلى ذلك كان يملك إمكانيّة أنْ يضع نفسه نقيضاً للكل الكامل. فأراد يوماً أنْ يضع نفسه في المركز. فانتصرت الغواية على الإنسان السّماوي. لقد رغب في أنْ يبرز «أناه»، ويضع ذاته في مواجهة باقي العالم كله. لقد خرج الإنسان من العالم المحيط به، وقطع الخيط الذي كان يربطه به. فتجزّأ وعيه وتحوّل إلى شظايا الكل المدمّر. وبات الإنسان المتميّز إنساناً عاديّاً. وقد صيغت هذه الحالة الجديدة هكذا: «كما أنّ الموسيقى التي تُعزف لحناً كاملاً تامّاً يمكن أنْ تسقط إذا ما انشغل العازفون في أثناء تأدية اللحن، بالتّفكير بكل نغمة على حدة؛ كذلك الإحساس الكلي بالحياة في الإله، انقسم كالعقد المقطوع إلى شطرين مكوّنين». هكذا سقط الإنسان السّماوي، لقد مزّقته قوّة النّبذ الأنويّة.

كما أنتجت تصوّرات الزرادشتيين عن الحياة والموت طقس وداع الميت إلى العالم الآخر. إنّه طقس غير عادي أبداً. فقد حرّموا دفن الميت في الأرض أو حرقه، بل تركوا جثمانه للضّواري والجوارح تمزّقه. وإذا ما توفى الشّخص شتاء يحفظون جسده إلى أنْ «تظهر الطّير في السّماء وتزهر النّباتات، وتخرج المياه المختبئة في جوف الأرض، وتجفّف الرّيح الأرض». عندئذٍ فقط يسجّون جسد المتوفّى تحت عين الشّمس لكي تتمكن الجوارح والكواسر من تمزيقه. ومنذ وفاته حتى اليوم المعني (يوم دفنه)، يبقى جثمان الميت محفوظاً

في مكان مخصَّص يفصله عن مكان سكن الأحياء حاجز. وعلى امتداد كل ذلك الوقت حتى يوم الدَّفن يجب أنْ تبقى النَّار متَّقدة في حجرة المتوفَّى، إنَّها رمز الإله الحكيم. لقد كانت النَّار تُحجب عن المتوفَّى بعريشة عنب. وكانت هذه تستر النَّار المقدَّسة عن أعين العفاريت. وما ينبغي أنْ يقال هو إنَّه حسب تعاليم الزرادشتيَّة يمثل المتوفى تعبيراً عن عنصر الشَّرِّ، لأنَّ الموت نفسه شرٌّ. ولذلك كان لمس الميت محرَّماً تحريماً صارماً، إلاَّ لمن يغسلون الجثامين. فقد كان هؤلاء يغسلون جسد المتوفَّى ثمَّ يكفِّنونه، ويضعون الحزام المقدَّس على صدره ويديه فوقه. وفي الفصول الأخرى (ما عدا فصل الشِّتاء)، كانت تقام مراسم الدَّفن في اليوم الرَّابع بعد الوفاة. لقد اعتقدوا أنَّ روح المتوفَّى تنتقل إلى العالم الآخر في هذا الوقت بالضَّبط.

كانت مراسم الدَّفن هذه تؤدَّى وقت الشُّروق. فيسجَّى الجثمان على لوح خشبيٍّ، ثمَّ يوضع هذا على حمَّالة حديديَّة يحملها الغسَّالون إلى المقبرة. وكان الموكب الجنائزيُّ يتألَّف من أقارب المتوفَّى. وفي المقدِّمة يسير الكهنة. أمَّا المقبرة فقد كانت مصمَّمة وفق مخطط خاصٍّ. إنَّها منشأة ارتفاعها ٤,٥م.، يذكِّرنا شكلها بالبرج المستدير. وكانت أرض البرج هي المقبرة، فقسِّمت إلى ثلاثة مجالات مستديرة متداخل بعضها مع بعض: لجثامين الأطفال، وجثامين النِّساء، وجثامين الرِّجال. وكان كل جثمان يثبَّت في منطقته، وهنا كانت الجوارح والكواسر تمزِّقه، ثمَّ تجفِّف الشَّمس عظامه. وحينما تجفُّ هذه تماماً يجمعونها ويرمون بها في بئر عميقة تقوم في وسط البرج تماماً. وكانت البئر مكيَّسة بالحجارة. وقد دعيت هذه المقابر أبراج الصَّمت.

وفي العقود الأخيرة من القرن الميلادي العشرين طمر العراقيون آخر أبراج الصَّمت هذه. ويدفن زرادشتيو إيران موتاهم الآن في الأرض، لكنَّهم يملؤون القبر بالإسمنت حتى آخر مساحة كي لا تدنَّس الأرض. ولا يزال فرس الهند حتى يومنا هذا يدفنون موتاهم في أبراج الصَّمت.

ولم يكن طقس الدَّفن وحده الذي نظِّم عند الزرادشتيين بدقَّة، فبالدِّقَّة عينها نُظِّم أيضاً طقس الاحتضار وطقس صلاة الغائب. فقد كان ينبغي أنْ يلازم سرير المحتضر دون أيِّ إنقطاع، اثنان من الكهنة. أحدهم يقرأ الصَّلوات دون توقُّف ووجهه صوب الشَّمس؛ بينما الآخر يُعدُّ للمحتضر المشروب المقدَّس أو عصير الرُّمَّان. لقد كان الكلب حيواناً مقدَّساً عند الزرادشتيين، فهو يقضي على النَّجاسة. ولذلك كان يجب أنْ يكون الكلب حاضراً عند فراش المحتضر. وليس عبثاً أن اعتقدوا أنَّ الكلب يحسُّ آخر نفس وآخر دقَّات قلب الإنسان.

لقد كانوا يفعلون الآتي: يضعون قطعة خبز على صدر المحتضر. وعندما يأكلها الكلب، عندئذ يمكن الجزم بأنَّ المحتضر قد مات.

وكانت إقامة مراسم صلاة الغائب إلزاميَّة، لأنَّه ينبغي على الذين على قيد الحياة أنْ يبجِّلوا أسلافهمَ الرَّاحلين الذين سوف يتصلون بهم من جديد بعد الموت. وقبيل بدء صلاة الغائب كان الأقارب يؤدُّون طقس الاغتسال (غسل اليدين، والوجه، والعنق). ويجب بالضَّرورة ارتداء ملابس نظيفة قبل ذلك. وغسل أرض المنزل بعناية. كما يجب إدخال النَّار المقدَّسة إلى البيت. وفي الشِّتاء لم تكن شعيرة إدخال النَّار تؤدَّى إلاَّ في اليوم العاشر بعد وفاة الميت. أمَّا في الصيف فلا يحملون النَّار إلى المنزل إلاَّ بعد شهر من الوفاة. ثمَّ يقيمون طقس تقديم القربان، فيرمون في النَّار بعض قطرات الزَّيت. كما تقام صلاة الغائب في اليوم العاشر وفي اليوم الثالث عشر. ومن ثمَّ بعد مرور سنة وما بعد. وفي أثناء إقامة صلاة الغائب يعدُّ الكهنة الشَّراب المقدَّس ويقرؤون الصَّلوات. وأثناء الصَّلاة يحمل الكاهن بيده غصن صفصاف أو أثل. ثمَّ يتناول المشاركون في الطَّقس طعاماً خاصَّاً. ويجلس المصلُّون إمَّا على الأرض مباشرة أو يجلسون القرفصاء. ويرفعون أثناء الصَّلاة أيديهم؛ لكنَّهم خلافاً للمسلمين لا يلمسون الأرض قط.

الفصل السابع

سرُّ الإله ميترا

لقد شكلت تعاليم زرادشت مصدراً لديانة أخرى حظيت في حينها بانتشار واسع جداً. فكان ثمَّة في دائرة الرَّبِّ الحكيم آلهة مختلفة. ومنهم الإله ميترا. وكلمة «ميترا» تعني «الوفاق»، «الاتفاق». وفي أوائل التاريخ الميلادي كان الإله ميترا واحداً من أكثر الآلهة تبجيلاً في آسيا الوسطى وشمالي الهند زمن الدَّولة الكوشانيَّة الجبَّارة. لقد عبده الملوك الأخمينيُّون، والملكان العظيمان قورش الأصغر وداريوس الأوَّل. فبالنِّسبة لهؤلاء كان ميترا إله الشَّمس والنَّار الأبديَّة. لقد عظَّمت الزرادشتيَّة الإله ميترا تعظيماً كبيراً.

وفي العالم الهلنستي، كما في زمن الإمبراطوريَّة الرومانيَّة شاعت الميتريَّة شيوعاً واسعاً. لقد كان ميترا يهب النَّصر، لذلك حظي بإجلال عظيم عند المقاتلين الرومان.

لقد ظهرت عبادة الإله ميترا منذ القدم (في الألف ٤ق.م.). فهو حاضر في الفيدات والأفيستا. مهمَّته هي ضمان سير حياة المجتمع سيراً طبيعيَّاً. وهو الذي يقيم الوفاق بين النَّاس، ويحمي البلاد من النِّزاعات والحرب، وينزل العقاب بالأعداء. ويهتمُّ بكل ما خلق الرَّبُّ الحكيم. وميترا هو إله الشَّمس: كانوا يحتفلون بعيد ميلاده يوم الانقلاب الشَّتوي، أي في ٢٥ كانون الأوَّل. ومن الواضح أنَّ هذا التَّاريخ قد انتقل إلى المسيحيَّة، إنَّه يوم ميلاد يسوع المسيح.

ويُعدُّ ميترا ابن الرَّبِّ الحكيم من زوجته أرمايتي، إلهة الأرض.

وفي طريقها إلى العالم الآخر كان يجب على أرواح الموتى أنْ تعبر جسر تشينفاد. وكان يقف على ذلك الجسر الإله ميترا وشقيقاه، ويعقدون المحكمة التي كانت تقرِّر مَنْ سيعبر، ومَنْ يرمى في الهوَّة. ولم يكن ميترا يزن في ميزان العدل كل أعمال الشَّخص فقط، بل نواياه أيضاً. لقد رأى المؤمنون في ميترا وسيطاً بين الرَّبِّ الحكيم والروح الشرِّير. فميترا الشَّاب أبداً يدرأ الشَّرَّ عن البشر، ويبذل كل جهده في سبيل أنْ ينتصر الخير. لقد كان يمتلك فكرة الخير، وكلمة الخير، وفعل الخير.

لقد حافظ ميترا على النِّظام العام والأخلاق، وكان المساعد الرَّئيس للإله الحكيم. ولذلك فإنَّ الأخلاق في الميتريَّة هي عينها التي في الزرادشتيَّة. والواقع أنَّ الأخلاق واحدة في

الدِّيانات الحقيقيَّة كلها. ولا يمكن للأخلاق أنْ تكون مختلفة: إمَّا أنَّها موجودة أو غير موجودة. وتتميَّز الدِّيانات الحقيقيَّة في أنَّ الأخلاق فيها موجودة. وينبغي على الإنسان نفسه أنْ يختار بين الخير والشَّرِّ. وعليه أنْ يحارب الشَّرَّ، وألاَّ يولِّده. وعليه أيضاً أنْ يكون شريفاً، وصادقاً، وسمحاً، وحكيماً.

فقد أنشأت الميتريَّة نموذجاً متدرِّجاً من الكمال الأخلاقي. وأولى درجاته هم الجنود. إذ يدخل هؤلاء في قتال مرير ضدَّ المبدأ الشرِّير. يليهم على درجات السُّلَّم الضِّباع والأُسُود. فهؤلاء يشنُّون حرباً ضدَّ روح البغض الغدَّار. وتقف الغربان على الدَّرجة الثَّالثة من السُّلَّم. إنَّها تحسُّ نهاية عنصر الشَّرِّ، موته. ويقف الذَّهبيون والحديديون على الدرجة الرَّابعة من سلَّم الكمال الأخلاقي هذا، فهم يحملون في نفوسهم أملاً راسخاً بالحرِّيَّة، لأنَّهم تمرَّسوا في الصِّراع ضدَّ الشَّرِّ. يليهم على أعلى درجات الكمال الأخلاقي ميترا الظَّافر. لقد هزم ميترا الشَّرَّ.

لقد كانت تستمرُّ الصَّلاة للإله ميترا من لحظة بزوغ الفجر حتى ينتصف النَّهار. وكرَّسوا له اليوم السَّادس عشر من كل شهر، ففي هذا اليوم كانوا ينشدون الأناشيد على شرفه وشرف الشَّمس. وكان يجب على الملك أنْ يؤدِّي بنفسه الرَّقصة المقدَّسة أمام الشَّعب في أعياد ميترا. فبتلك الرَّقصة كانت تبدأ احتفالات الشَّعب بالعيد. وكانت الحركات المقدَّسة تؤدَّى على شرف ميترا في الكهوف والسَّراديب غالباً. كما استقرَّت محاريبه في الصُّخُور. وقد دعوها: «الميتريات الصَّخريَّة». وكان ثمَّة سلَّم مؤلَّف من سبع درجات يقود إلى كل منها. ومن المعروف أنَّ العدد سبعة كان عدداً سحريَّاً في ديانات الشَّرق القديم كلها. واقتبست الميتريَّة كثيرا عن الزرادشتيَّة. ورمَّز موت الطَّبيعة وانبعاثها كما يلي: في وقت الاعتدال الرَّبيعي يكون ميترا بصفته ميتاً؛ فيضعون تمثاله ليلاً في نعش حجريٍّ، ثمَّ يأخذونه منه في الصَّباح ويبدؤون إنشاد الأناشيد التي تمجِّده.

وما يثير الاهتمام خاصَّة أنَّ المؤمنين كانوا يأكلون على شرف ميترا خبزاً، ويحتسون خمراً، ويشربون شراباً محلَّى. وفي المسيحيَّة كذلك يرتبط سرُّ المناولة بالخبز والنَّبيذ (= جسد المسيح ودمه). ضف إلى هذا أنَّ المعموديَّة أيضاً كانت طقساً من طقوس الميتريَّة. وفيه كانوا يحرِّرون الشَّخص من آثامه. وكان الفرد المعنيُّ يتَّصل في غضون ذلك مع الإله ميترا. وأثناء إقامة تلك المراسم كانوا يقدِّمون الخبز قرباناً لميترا. ويمسحون يدي المعمَّد ولسانه بالعسل كي لا تدخل الآثام وعيه وجسده.

لقد كان على المؤمنين كلهم أنْ يتلقَّوا سرَّ المعموديَّة. أمَّا مَنْ أراد (أو كان يجب عليه) أنْ يصبح كاهناً، فقد كانت طقوس تكريسه ومراسمه أكثر تعقيداً. ففي الأوَّل كان على

المرشَّح للكهنوت أنْ يجتاز حوالي الثَّمانين تجربة وامتحاناً. بعضها كان على الشَّكل التَّالي: عبور نهر جليديٍّ عميق سباحة، والمرور عبر النَّار، وتسلُّق صخرة عموديَّة تماماً، وقضاء وقت طويل وحيداً، والامتناع عن ارتداء ملابس دافئة واحتذاء حذاء مهما كانت حال الطَّقس الجوِّي، وضرورة الاقتيات بالثِّمار النَّيِّئة فقط، و...

وتعدُّ الإيديولوجيا الميتريَّة إيديولوجيا متفائلة، نورانيَّة. ففي طقوس الميتريَّة ومسرحيَّاتها كلها يجري الحديث عن الانتقال من الدِّيجور إلى النُّور، والتَّخلُّص من الشَّرِّ والرَّزايا. وثمَّة في الميتريَّة كثير من الأفكار والطُّقُوس المتشابهة. وكان المعلِّم المسيحي ترتوليانوس محقَّاً تماماً عندما رأى في طقوس الميتريَّة ما يشبه الأسرار المسيحيَّة. وحتى أفكار الميتريَّة نفسها كانت شبيهة جداً بأفكار المسيح. ويجب على المسيحي الحقيقي أنْ يفرح لهذا؛ عليه أنْ يفرح لأنَّ الآخرين يشنُّون حرباً على الشَّرِّ، ويطمحون لبناء مجتمع ذي مستوى أخلاقي سام. ولكنْ بعد أنْ نال قساوسة المسيحيَّة ليس السُّلطة الرُّوحيَّة فقط، بل السُّلطة الزَّمنيَّة أيضاً، بات الأهمُّ بالنِّسبة إليهم شيئاً آخر: البحث عن سبيل للحفاظ على تلك السُّلطة وترسيخ أركانها. لقد رأوا في كل الرُّعاة الروحيين الآخرين منافسين خطرين لهم، تهديداً لسلطتهم، ولذلك شنُّوا حرباً ضارية على ممثِّلي الميتريَّة. والحقيقة أنَّ الميتريَّة كانت تشبه من حيث الصِّيغة والجوهر، الدِّيانة المسيحيَّة شبهاً كبيراً. فميترا مثلاً كان مثله مثل المسيح يُعدُّ وسيطاً بين الإله والنَّاس. ميترا هو ابن الإله الأعلى، الرَّبُّ الحكيم؛ وهو يحقِّق إرادة والده. والرِّسالة عينها كان يؤدِّيها المسيح. كما كان كل منهما يحارب الشَّرَّ، ويعادي كل شكل من أشكال الظلم. وبعد المآثر التي حقَّقها ميترا على الأرض، أُصعد إلى أبيه في السَّماء. وكذلك المسيح بعد أنْ أدَّى رسالته وحقَّق إرادة الأعلى، أُصعد إلى السَّماء إلى الإله - الأب. وفي الميتريَّة كان على المكرَّس الجديد أنْ يؤدِّي طقس الاغتسال، لأنَّه السَّبيل إلى التَّخلُّص من الآثام. وهذا الطَّقس هو طقس المعموديَّة المسيحي عينه، الذي يطهِّر من الآثام. حتى العشاء السرِّي له في الميتريَّة ما يماثله: الوليمة السِّرِّيَّة، وليمة ميترا ومعاونيه.

لقد كان رجال الدِّين المسيحيون الأوائل يساعدون النَّاس في كل شيء (كما كان يفعل المسيح). لقد كانوا خزنة الحكمة، وتعلَّموا الطِّبَّ وداووا المرضى، وكانوا على دراية بالتَّنجيم، وعرفوا التَّاريخ، وأبرؤوا الأرواح. وبشَّروا وحلُّوا الآثام. وهذا ما فعله كهنة الميتريَّة عمليَّاً. وكما الميتريون كذلك المسيحيون عدُّوا أنفسهم أخوة. فكان كل منهم ينادي الآخر: «أخي الحبيب». وهكذا فعل «الأخوة في المسيح». وكما احتفل الميتريون بيوم الأحد، كذلك فعل المسيحيون. ويحتفل الطَّرفان بيوم ميلاد ميترا والمسيح في يوم واحد: ٢٥ كانون الأوَّل.

ولا يبقى لنا بعد هذا كله سوى أنْ نأسف للصِّراع المرير الذي دار بين المسيحيَّة والميتريَّة. فتعاليمهما شقيقتان - توأمان. وإذا كانت غاية كل منهما واحدة: تحقيق الرَّخاء لأتباعهما والنَّقاء الأخلاقي في المجتمع، فما الذي يمكن أنْ يسوغ تلك الحرب الشَّعواء التي دارت بينهما؟ لا شيء بالتَّأكيد، لم يكن ثمَّة مسوغ. لقد حرصت العلية المسيحيَّة على زيادة مواردها، وكان ذلك يرتبط بزيادة أعداد المؤمنين. ولذلك عمل هؤلاء على ملاحقة الميتريين واضطهادهم. وبفضل تحوُّل المسيحيَّة إلى ديانة رسميَّة للدَّولة، باتت هذه تملك إمكانات حقيقيَّة لاضطهاد منافسيها. وقد ارتدت تلك الملاحقات طابعاً لا أخلاقيَّاً تماماً، عدَّاك عن وحشيَّتها. فلكي يخرج المسيحيون معبد ميترا من المعركة، أوعزوا إلى موظَّفيهم بتدنيسه. وقتلوا كاهن ميترا ودفنوه في أرض المعبد نفسه. وبعد ذلك بات المعبد عاجزاً من حيث المبدأ عن تأدية وظائفه. هكذا كان أولئك الذين دعوا أنفسهم أتباع المسيح، يؤدُّون عملهم!.

الفصل الثامن

انتصار مملكة النُّور

ومن دُعاة النُّور في الشَّرق القديم، المعلِّم العظيم مانو. وُلد مانو في القرن الميلادي الثَّالث لعائلة أرستقراطيَّة. فقد كانت والدته تنتمي إلى السُّلالة البارثيَّة التي كانت تحكم وقتئذٍ في بابل. مدينته الأُمُّ كتيسيفون كانت بالنِّسبة إليه كالجليل بالنِّسبة للمسيح. لكنَّ الأمر الأهمَّ، هو أنَّ المدينة كانت ذات طابع أُممي. فكنت تسمع فيها لغات الشَّرق كلها، وتقابل أناساً ينتمون إلى شتَّى الدِّيانات والتَّقاليد الثَّقافيَّة. وقد تعايش جميعهم بسلام، وأثَّر واحدهم في الآخر دينيَّاً، وثقافيَّاً، وفي ميدان العلاقات الاجتماعيَّة. ومن الواضح أنَّ ذاك التَّعايش لم يكن البيئة المثاليَّة لنمو القوميَّة التي تمزِّق عالم اليوم. فبصرف النَّظر عن أنَّ الزرادشتيَّة كانت هي الدِّين الرسمي للدَّولة البارثيَّة في بابل إبان القرن الميلادي الثَّالث، إلاَّ أنَّ السُّلطات البارثيَّة والمواطنين البارثيين نظروا إلى أتباع الدِّيانات الأخرى نظرة ودٍّ وتسامح. لقد تواصل النَّبي المقبل مانو مع اليهود، والمسيحيين. وعرف التوراة معرفة جيِّدة. كما كانت لوالده باتيتسي صلات مماثلة مع اليهود والمسيحيين. وقد انضمَّ إلى واحدة من الطَّوائف اليهوديَّة - المسيحيَّة، مع أنَّه كان قبلئذٍ من عابدي أحد الآلهة المحلِّيين. وكانت الطَّائفة المعنيَّة تدعى: «الذين يعمِّدون أنفسهم بأنفسهم». ويروى عن انتماء والد النَّبي إلى هذه الطَّائفة ما يلي: «جاء باتيتسي المعبد مرَّة كالمعتاد، ليسجد للآلهة المحلِّيين. فسمع هنا صوتاً يدعوه للامتناع عن تناول اللُّحوم، واحتساء الخمرة، ومعاشرة النِّساء. لكنَّ الرَّجل حاول أنْ يطرد الرُّؤيا، بل هرب من المعبد. وفي اليوم التَّالي تكرَّرت الدَّعوة عينها. وهكذا استمرَّت الحال عينها أيَّاماً، وبات النِّداء أكثر إلحاحاً وأكثر تغلغلاً في الروح. وأخيراً لم يبقَ لباتيتسي إلاَّ أنْ يلبِّي الدعوة ويقبل الوصايا التي لقَّنه إيَّاها الصَّوت الغريب». إذن لقد كانت هذه الطَّائفة طائفة تختلف عن اليهوديَّة كما تختلف عن المسيحيَّة. فلم يحرِّم أيٌّ من هاتين الدِّيانتين الزَّواج، فطائفة باتيتسي كانت إذن تنويعة من تنويعات التَّقشُّف والتَّنسُّك التي كانت شائعة في الهند شيوعاً واسعاً.

لقد قبل باتيتسي شروط الصَّوت وهجر الحياة العائليَّة، غير عابئ بكون زوجته وقتئذٍ حاملاً. فعاش في الطَّائفة، ولم يكن يغشى بيته إلاَّ نادراً. وهكذا ولد الدَّاعية المقبل مانو. وإذ

بلغ الرَّابعة من عمره أخذه والده ليعيش معه في الطَّائفة. وبدأ منذئذٍ إعداد مانو دينيّاً. ولكنَّ مانو كانت لديه رسالته الخاصَّة. ومنذ أنْ كان في الثَّانية عشرة من عمره أخذت تغشاه رؤى خاصَّة يتحدث خلالها مع مبعوث إلهي. وقد دعا الفتى ذلك المبعوث «توأمه»، أو «صنوه». ومرَّة أعلن المبعوث للفتى أنَّه ينبغي عليه أنْ يترك الطَّائفة لأنَّ رسالة خاصَّة بانتظاره: عليه أنْ ينقل للنَّاس بشرى التَّحرُّر. لكنَّه لم يقيّض لمانو أنْ يخرج من الطَّائفة إلاَّ فيما بعد، أمَّا الآن فقد كان عليه البقاء فيها لينهل المزيد من المعارف ويراكم المزيد من التَّجربة. ومرَّت اثنتا عشرة سنة أخرى. وفي يوم ميلاده الرَّابع والعشرين جاء المبعوث الإلهي معلناً أنَّه آن الأوان لكي يبدأ مانو دعوته المستقلَّة إلى الحقيقة.

لقد بدأ مانو حياته التَّبشيريَّة في مرحلة مأساويَّة بالنِّسبة لشعبه (مثله في هذا مثل بوذا). فالأعداء دمَّروا المملكة البارثيَّة ونهبوها. وأحرق المحتلُّون الرومان كتيسيفون مدينة مانو الأم. وفاقم القادة العسكريون المحليون الحالة بتنظيمهم سلسلة من الانتفاضات المتتالية. لقد كان كلهم يطالب بالاستقلال فتبعثرت الدولة وتمزَّقت أشلاء. وفي الأثناء نجحت السلالة الساسانية في الاستيلاء على السُّلطة. والحقيقة أنَّ هؤلاء نجحوا في صدِّ الهجوم الروماني لبعض الوقت. وفي لحظة الأمل، أمل تحقيق النَّصر على الأعداء وبناء حياة جديدة هانئة يسودها العدل، بعث مانو نبيّاً للشَّعب البارثي. لقد حاول مانو أنْ يدرك هذه الحياة بالظلم الذي فيها، بآلامها، وعنفها، وجرائم القتل المنتشرة فيها، منطلقاً في ذلك من منطلق كوني إلهي. فلم يرَ مانو في الانتصار على العدوِّ (الرومان) مجرَّد حالة من التَّفوُّق في الاستراتيجيا العسكريَّة، أو في إقدام الجنود وشجاعتهم، بل تجسيداً للمواجهة الكونيَّة بين مملكة النُّور ومملكة الديجور تتحقَّق على هذه الأرض الآثمة.

لقد كان الحكماء يعرفون أنَّ الكون منسوج من النُّور والظَّلام، من الخير والشَّرِّ. وأنَّ سبب شقاء الجنس البشري، هو وجود مملكة الديجور المخيفة المتوحِّشة. وسبب آثام النَّاس، هو الطَّمع، والحسد، والكره، والقساوة، والعدوانيَّة، و... إنَّ الصِّراع بين النُّور والديجور متواصل لا يتوقَّف. ولكنَّ توازن القوى بينهما غالباً ما يختلُّ. بيد أنَّ أيّاً من الطَّرفين عاجز عن تحقيق نصر تامٍّ ناجز على الآخر، في زمننا هذا. ولكنَّ الزَّمن الآتي بعد زمننا سوف يشهد هزيمة الظلام أمام النُّور. ومن المعروف أنَّ المعتقدات والأديان كلها تقرُّ مثل هذه الخاتمة لصراع الخير والشَّرِّ.

إنَّ الإله الأعلى في تعاليم مانو، هو أب النُّور أو أب العظمة. وهو حاكم مملكة النُّور. ويجسِّد هذا في ذاته الخير والإحسان، ويظهر في صيغ إلهيَّة أربع. فهو إله، ونور، وقوَّة

(جبروت)، وحكمة. وقد مُنح أب النُّور عقلاً، ومعرفة، وبصيرة، وفكراً، وحصافة، ولذلك نجح في إدارة العالم بحكمة. وتتحدَّد سماته الإلهيَّة في اثنتي عشرة ماهية مباركة أو فاضلة. وهذه هي: السُّلطة العليا، والحكمة، والنَّصر، والمسالمة، والنَّقاء، والحقيقة، والإيمان، وطول الأناة، والاستقامة، والإحسان، والعدل، والنُّور. من الواضح إذن أنَّ العدد اثنا عشر عدد مقدَّس.

أمَّا النَّقيض، أي مملكة الديجور، فإنَّ الحاكم فيها هو ملك الظلام الخبيث الغادر الشرِّير. وثمَّة في حاشيته حشد كبير من العفاريت والأرواح الشرِّيرة. وهذه تسحر، وتخدع، وتوقع في شباكها مزيداً من الأتباع كل يوم.

ويمتلك أب النُّور خمسة عناصر، خمسة عوالم، هي النُّور، والريح، والنَّار، والماء، والأثير. وخمستها عناصر مشرقة. ويملك ملك الديجور بدوره على خمسة عناصر فيزيائيَّة، ثقيلة، تندفع نحو الأسفل. وهي النار، والدُّخان، والريح، والماء، والظَّلام. وهكذا تظهر النَّار، والماء، والريح في أقانيم مختلفة: روحيَّة، وفيزيائيَّة، خفيفة وثقيلة.

وكان قد شارك في الصِّراع ضدَّ الظَّلام قبل مانو، يسوع المسيح. ثمَّ واصل مانو تلك الحرب. فالإنسان بحاجة إلى الخلاص لأنَّ روحه سجينة أغلال الجسد. وإذا ما اعتنق الإنسان تعاليم مانو، فإنَّه يغدو ابناً للإله - الأب ووريثاً مباشراً له. لقد نسي الإنسان أنَّ منشأه إلهي، وأنَّ مهمَّته إنقاذ العالم من الظلام. لكنَّ الإنسان قادر على إدراك سقوطه والعودة إلى مملكة النُّور.

لقد أدرك مانو أنَّه المخلِّص التَّالي بعد المسيح، وكان يبشِّر برسالته كل يوم دون كلل. فجاب الأرجاء وقضى حياته كلها متنقلاً. وأرسل لتلاميذه كثرة من الرَّسائل ألِّفت أعظم مقدَّسات المانوية. ولم يشتهر مانو في بارثيا، وسوغديانا فقط، بل في الهند والصِّين أيضاً. وبعد أنْ جاب في الأرض طويلاً عاد مانو ليموت (ليقتل) في وطنه. ومع أنَّه كان من أعظم معلِّمي الروح، إلا أنَّ وطنه استقبله بصفته هرطيقاً مشعوذاً. فسرت إشاعات تقول، إنَّ مانو وأتباعه قادرون على فعل كل شيء: التَّسلُّل عبر النَّوافذ، وشرب الرَّصاص المصهور، والتحليق فوق الأرض، والاختفاء عن النَّظر في غمضة عين. فأمر الملك مانو بأنْ يظهر هذا كله. لكنَّ النَّبي أحسَّ بأنَّه أهين ورفض أنْ يصنع أيَّ معجزة كانت. عندئذٍ أمر الملك بإعدام مانو. وبالطَّريقة عينها انطفأت كثرة من مشاعل البشريَّة الذين لم يكن هدفهم سوى خيرها. ويرى أتباع مانو أنَّه كان آخر مخلِّص للجنس البشري. وهم ينظرون بكثير من الغيرة إلى المخلِّص الآخر يسوع المسيح، ويعدُّون مانو المخلِّص الحقيقي.

لقد كان أتباع تعاليم مانو ينتمون إلى مشارب شتَّى. ومع مرور الزَّمن انقسم هؤلاء انقساماً طبيعيَّاً إلى مجموعتين: مجموعة المختارين، وهم أولئك الذين التزموا التزاماً صارماً بقواعد العيش المشترك: الكهنة بشكل رئيس. ومجموعة ثانية أكثر عدداً، هم المستمعون أتباع المختارين. وقد أحاط المستمعون بالمختارين، فأعدُّوا لهم طعامهم، واعتنوا بشؤونهم. وكان المختارون بدورهم يطلعون مستمعيهم على الحقائق المكنونة في التَّعاليم، وبركاتها، ويزرعون فيهم الأمل بالخلاص. لقد اعتقد المانويون بانتقال الروح. وافترضوا أنَّ روح المستمع المهتمِّ يمكن أنْ تحيا في الحياة الأُخرى في جسد مختار. وهذا ما كان يمنح المستمع الأمل. وألقيت على كاهل المختارين مهمَّة مزدوجة: الصَّلاة من أجل أنفسهم، والصَّلاة من أجل المستمعين.

ومن أهمِّ ما تميَّزت به تعاليم المانويَّة، هو أنَّها اعترفت بأنَّ كل نبيٌّ (بصرف النَّظر عن معتقده) يحمل إلى النَّاس حقيقة. ومن هؤلاء، المسيح، وبوذا، ولاو-تسي، و... وكان مانو قد رأى أنَّه ينبغي أنْ يكون للبشريَّة دين واحد. ولذلك وجَّه النَّبي تعاليمه إلى النَّاس كلهم بصرف النَّظر عن الانتماء القومي. فقال: «إنَّ مَنْ له معبد في الغرب، لن يبلغ الشَّرق يوماً لا هو ولا رعيته. ومَن اختار رعيته في الشَّرق لن يبلغ الغرب أبداً. ولكنَّ أملي معقود على أنَّ تعاليمي سوف تصل إلى الغرب والشَّرق. وسوف يسمع جميعهم صوت دعاتها يبشِّرون باللُّغات كلها، وفي المدن كلها. إنَّ كنيستي ستتفوَّق على الكنائس الأخرى كلها، لأنَّ هذه الأخيرة اختارت لنفسها بلداناً بعينها، ومدناً بعينها. أمَّا كنيستي فإنَّها ستنتشر في المدن كلها، وسوف تؤثِّر بشارتي في البلدان كلها».

لقد ساعد الموقع الجغرافي نفسه فكرة مانو. ففارس واقعة بين روما والصِّين. وكانت الفئة الحاكمة في فارس تبشِّر دائماً بفكرة رسالة فارس «الوسيطة». ومن وجهة نظر إيديولوجيا الدَّولة، عُدَّت فارس مركز الثَّقافة العالميَّة. وتفيد الرواية التَّاريخيَّة، أنَّهم وضعوا إلى جانب عرش الملك كسرى الأوَّل آنوشروان ثلاثة عروش أخرى أُعدَّت لحكَّام الصِّين، وروما، والكاغانات الخزري. بيد أنَّ العروش الثَّلاثة بقيت خالية. وليس هذا غريباً، لأنَّه لم يكن للمساواة مكان تقيم فيه. فالملك الفارسي كان يجب أنْ يبقى ملك الملوك، والثَّلاثة الآخرون تابعين له.

وتحيِّرنا المفارقة التَّالية لدى دراستنا لتعاليم مانو. فهي من جهة تعاليم أُعدَّت لجميعهم، وجميعهم بالنِّسبة إليها سواسية. ومن جهة أخرى كان موقف السُّلطة منها معادياً في البلدان كلها. فقد رأوا فيها تعاليم مؤذية، هرطقة. ولذلك لوحقت المانويَّة في كل مكان: في الصِّين،

وروما، وحتى في بلادها نفسها. ولكنَّ التَّعاليم لم تستسلم على الرَّغم من الملاحقات كلها. وكان مصدر قوتها كامناً في القوة المذهلة لشخصية مانو وقدرته المعجزة على الصُّمود والثَّبات. فقد كان هذا النَّبي خطيباً لامعاً ونفسانيَّاً دقيقاً حاذقاً. وملك طاقة خيِّرة جبَّارة. فقد أكَّدوا أنَّ من كان يقف إلى جانب مانو ساعة أو ساعتين، كان يبقى طوال أشهر يحسُّ بفيض من القوى، والسَّعادة، والسَّكينة. ولذلك لم يكن غريباً أنْ يغدو مانو في حياته واحداً من أكثر الشَّخصيَّات شهرة في كثير من البلدان. فأنشأوا حوله خرافات. وانتشرت تعاليمه في السُّهوب الجافَّة كانتشار ضوء المشعل. فاستولى خلال بعض الوقت على أمداء شاسعة من الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. كما كان كثير من الشَّخصيَّات الرومانيَّة البارزة من أتباع مانو. ومنهم على سبيل المثال أفريلوس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م.)، الذي اعتنق المسيحيَّة فيما بعد. ولكنَّه كان قد بقي ردحاً طويلاً من حياته نصيراً لتعاليم مانو. فقضى تسع سنوات قرب أحد المختارين، وعرف المانويَّة من الدَّاخل. ولكنَّ الإنسان يبقى إنساناً. فالمختارون لم يسلكوا في روما السلوك الذي فرضته تعاليم المانويَّة. وكان أوغسطين الذي انتقل إلى المسيحيَّة محقَّاً تماماً في انتقاداته للمانويين الرومان الذين كانوا يعيشون حياة ترف وبذخ. بيد أنَّ ما ينبغي قوله، هو أنَّ أكثر دعاة المانويَّة كانوا ذوي سلوك لائق.

آلهة السلاف قبل المسيحيَّة

تدعى معتقدات السلاف قبل اعتناقهم المسيحيَّة بالمعتقدات «الوثنيَّة»، أي المعتقدات الشَّعبيَّة.

لقد كان للسلاف مجمع آلهتهم الخاص بهم. فكتبت الحوليات تقول: «بدأ الأمير فلاديمير في كييف وحده منفرداً. وأقام الأوثان فوق التَّلِّ خارج الفناء: بيرون الخشبي ورأسه من فضَّة، وفمه من ذهب؛ وخورس، وداجبوغ، وستريبوغ، وسيمارغل، وموكوش. وشرعوا يقدِّمون لهم القرابين، وينادونهم آلهة، واصطحبوا أبناءهم وبناتهم». فكيف كان هؤلاء الآلهة؟

كان الإله بيرون هو رأس المجمع كله. وهو إله حامية كييف الروسيَّة. وبعد اعتناق المسيحيَّة حلَّ النَّبي إيليا محلَّه. وليس غريباً أنْ يتوافق يوم عيد بيرون مع يوم تبجيل إيليا النَّبي في شهر تمُّوز.

وكان إله الرَّعد شخصيَّة معروفة لدى الشُّعُوب الهندوأوروبيَّة الأخرى. فهو عند الجرمان تور (= دونار)، وعند اللاتفيين، والليتوانيين والبروس، هو الإله الأعلى بيركونس.

وبيرون السلافي، هو مقاتل أشيب له شنب ذهبي، يجوب السَّماء في مركبة أو على صهوة حصان مطلقاً سهامه - الصَّواعق. والرَّعد صوت عَدْوِ مركبته. وقد يصيب سهمه الإنسان. واعتقدوا أنَّ ذلك لا يقع إلاَّ إذا كان إله الرَّعد يريد أنْ يجندل روحاً نجساً سكن جسد الشَّخص المعني. ولذلك حرَّموا بكاء من تقتلهم صواعق بيرون، لأنَّهم إنَّما تحرَّروا من الدَّنس. ويبيت إله الرَّعد في جذع الشَّجرة المقدَّسة.

ولم يكن الإله بيرون الإله الرَّئيس بين آلهة السَّماء فقط، بل كان السَّلف الأوَّل الذي خرج منه السلاف، وهو شفيع الأمراء وحامية البلاد. وكان قد شاع منذئذٍ عرف حرَّم النطق باسم الإله علانية. ولذلك أطلقوا على بيرون أسماء مختلفة. فشاع كثيراً اسم دوندول (دودول، دونير).

لقد قدَّموا للإله بيرون ذبائح حيوانات مقدَّسة (الحصان، الثَّور، العنز)، ونباتات: شجرة البلوط والتُّفَّاح البرِّي. وأقاموا الصَّلوات له في أدغال شجر البلوط أو تحت شجرات بعينها. أمَّا معابده فقد شيَّدوها فوق الهضاب والمرتفعات. وكانوا يشعلون هناك نيراناً. فالنَّار عدَّت طعنة إله الرَّعد.

وعُدَّ كل يوم خميس مكرَّساً لبيرون. حتى أنَّهم دعوه أحياناً باسم خميس.

كما كان لبيرون أسماء أخرى. فقد دعوه برافي (= الحق)، لأنَّه كان تجسيداً للعدالة العليا. وثمَّة في الخرافات والحكايات الخرافيَّة الروسيَّة اسم برافدا (= الحقيقة). ودعي إله الرَّعد عند السلاف الغربيين بروفي.

لقد كانت أوثان الآلهة عند السلاف من خشب، ولذلك فهي لم تبقَ. ولكنْ في العام ١٨٤٨م. عثر على وثن سلافي من حجر. وكان هذا ينتمي إلى القرن ٩م.، ولا يزال الوثن محفوظاً حتى الآن في متحف كراكوف. ويمثِّل هذا الصَّنم مجمعاً كاملاً من الآلهة. ويعطي تصوُّراً عن تصوُّر السلاف القدماء لبنية العالم. فإلى جانب بيرون احتوى الصَّنم الرُّباعي الأبعاد على ثلاثة آلهة آخرين. ويمثِّل هؤلاء كلهم عائلة إلهيَّة واحدة، معشراً واحداً. فالآلهة كلهم يشاركون في معركة الإله الأكبر بيرون ضدَّ الثُّعبان. ويخوض بيرون صراعاً إمَّا ضدَّ الثُّعبان، أو ضد الملك الثعباني. أو حتى ضدَّ فيليس. وقد وصفت الأساطير مختلف تقلُّبات هذا الصِّراع. يخطف الثُّعبان قطيع إله الرَّعد، أو زوجته، أو أبناء الشَّمس. فينازل بيرون الثُّعبان مطلقاً سهامه - صواعقه عليه. لكنَّ هذا يحاول أنْ يتخفَّى في الأشجار، وخلف الصُّخُور، أو حتى في أجساد البشر والحيوانات. بيد أنَّ صواعق بيرون تدركه وتجندله. فيهطل المطر على الأرض مدراراً. ولكنَّ الصِّراع لا ينتهي. ومن الرَّبيع حتَّى الخريف يطارد بيرون أعداءه ويصرعهم. ونحن نرصد أسطورة صراع بيرون ضدَّ الثُّعبان في مآثر الأبطال من البشر أيضاً. فدوبرينيا نيكيتيتش مثلاً، يهزم الثُّعبان غورينيتش، وأليوشا بوبوفيتش يهزم توغارين ثعبانوفيتش. أمَّا إيليا موروميتس فإنَّه يهزم البلبل - قاطع الطَّريق، أو الثُّعبان الصَّقر ذا القرنين الذي يحطُّ على شجرة البلوط في الغابة الكثيفة.

لقد تميَّز السلاف القدماء بمثل هذه البنية المقلوبة للعالم. وهذا ما تشهد به الرسومات المرسومة على الوثن الحجري. فثمَّة على الأبعاد الأربعة للعمود الحجري صور لآلهة مختلفة رسمت وفق نظام محدَّد، وفق تراتبيَّة من الأعلى إلى الأدنى. وفي الجزء الأعلى من الحدِّ رُسمت إلهات بقرن وخاتم في اليد. كما رسم هنا أيضاً آلهة مع سيف وحصان ورمز الشَّمس. أمَّا الطَّبقة الأعلى من الصَّنم الحجري، فهي أكبر الآلهة، هي السَّماء. وثمَّة على الطَّبقة الوسطى

من الصنّم الحجري صور لرجال ونساء يمسك بعضهم بيد بعض. ورسمت في أدنى طبقات الصنّم صورة إله عجوز ساجد على ركبتيه. وهو يظهر من الأمام، ومن الجانب.

وهكذا يحمل الصنّم الحجري معطيات لا عن الآلهة والسلّم التراتبي فقط، بل عن بناء العالم المحيط أيضاً. أمّا الآلهة، فإنّ تلك التي تحمل القرن، رمز الوفرة، هي الإلهة ليوكوت إلهة المحصول. والأخرى التي تحمل الخاتم رمز الزّواج، هي الإلهة لادا، إلهة الأعراس. ورسمت في المكان عينه صورة بيرون برمح على جواده. أمّا الإله الذي تحمل ملابسه رسم رمز الشّمس، فهو الإله داجبوغ ربُّ نور الشّمس. وهؤلاء كلهم آلهة النّسق الأعلى، آلهة السّماء. ولكنْ ثمّة إله رسمت صورته في أسفل طبقات الصنّم راكعاً على ركبتيه. إنّه الإله فيليس إله الأرض والعالم السُّفلي. وحسب المعطيات المتوفّرة يبدو أنّ السلاف القدماء تصوّروا العالم المحيط بهم مؤلّفاً من ثلاثة مستويات: في الأعلى، أي في السّماء يقيم الآلهة الأعظم. وفي الوسط يتوضّع عالم البشر. وفي الأسفل يقع الحضيض.

ولم يكن الإله فيليس وحده يملك في العالم السُّفلي. بل كان هناك غير قليل من آلهة الطّبقة الأولى. ومن آلهة الظّلام أولئك الآلهة تدعى ياغا، أي «الكابوس». وقد تجسّد كثير من سماتها في الشّخصيّة الخرافية، ياغا السّاحرة. لقد كانت ياغا ربّة الطّبيعة البرّيّة. ونصيرة السّاحرات وحاميتهنّ. ولا تقيم ياغا في العالم السُّفلي فقط حيث تمدُّ يد العون لقوى الشّرّ والظلام. ولها ابنة تدعى ياغيشنا تختبئ دوماً في غياهب الغابات. وتبدو ياغا شنيعة الصُّورة: بساق واحدة وعين واحدة. وما عدا ياغا كان هناك آلهة آخرون في المملكة السُّفلى. ومنهم كاشيه الخالد، وعائلة الغورينتشيين التي تتألّف من الثُّعبان غورينتش نفسه، والفارس غويرنيا حامل قوّة الشّرّ العضليّة، والسّاحرة غورينيكا، و...

ولكنّ الإله الرّئيس في العالم السُّفلي، هو الإله فيليس (فولوس). بيد أنّنا لا نستطيع أنْ نقول إنّه كان إله قوى الشّرّ الظلاميّة. فوظائفه متنوعة جداً. ولم يكن ربُّ عالم الأموات فقط. كان يملك قوّة سحريّة، أي الجبروت والسلطة. وصلة النّسب بادية بين فيليس، وفلاست (= السُّلطة)، وفيليت (يأمر)، وفلاديت (يملك)، وفيليكي (عظيم).

لقد كان فيليس شفيع الحكماء والشعراء. كما عدّ في الأوّل حامي عالم الحيوان، ولذلك تخيلوه في صورة وحش أوبر بالتّأكيد. وليس عبثاً أنْ كان الكهنة الوثنيون يرتدون جلود الحيوانات وفراؤها إلى الخارج.

لقد كان الآلهة يتغيّرون عند الشُّعُوب كلها مع تغيُّر نمط حياتها. فعندما تقدّمت تربيّة الحيوانات عند السلاف، صار فيليس إلى حارس للحيوانات المنزليّة. ومع تقدُّم الزراعة بات إله

العمل الزراعي والمحصول. وعرف السلاف تقليداً يتركون بموجبه جزءاً من الحدّ لا يحصدون سنابله: «لحية للإله فيليس». (ننوِّه إلى أنَّ شريعة موسى قضت بعدم جمع المحصول كله من الحقل، وترك ما يمكن تركه للطُيور، والوحوش، والفقراء). لقد شاعت عبادة فيليس عند السلاف شيوعاً واسعاً، وهو ما انعكس في تسميات قراهم (فيليسوفو، فولوسوفو، فولوتوفو، و...).

وكانت تمكث في عالم الأموات بين وقت وآخر، الإلهة مورينا، أو مارينا (اسمها مأخوذ من كلمة «مور» = «موت»). ولكنَّها كانت إلهة الخصب في الآن عينه.

أمَّا آلهة السَّماء فإنَّنا نعرف عنهم الآتي. في طور تحوُّلهم إلى ممارسة العمل الزراعي، اقتبس السلاف آلهة السكيث (الفرس). وكان الإله الرئيس بين هؤلاء الآلهة، هو إله حرارة الشَّمس، إله الضَّوء ونضج المحصول داجبوغ (داجدبوغ). ومعنى اسمه: «إله الحرّ». ودعوه أيضاً: «الملك الشَّمس»، أو «ابن سفاروغ». وكان رمز هذا الإله هو الذهب والفضَّة. وقد تعايش آلهة الوثنيَّة هؤلاء زمناً طويلاً مع المسيح. وكان ذلك الزَّمن زمن الازدواجيَّة الدينيَّة، الذي توافق مع عصر التَّبعثر السِّياسي في بلاد الرُّوس (القرنان ١١-١٢م.). ولكنَّ الديانتين لم تصارع إحداهما الأخرى، بل يصحُّ القول إنَّهما كمَّلت إحداهما الأخرى. فالأميرات في روسيا القديمة كنَّ يحملن على سبيل المثال تيجاناً طقوسيَّة في وسطها إمَّا صورة يسوع المسيح أو صورة داجبوغ. ومع الوقت تحوَّل داجبوغ إلى دايبوغ (= فليعطنا الإله. م.)، وهو ما لا يخالف المسيحيَّة. ورأوا في الملك - الشَّمس الحاكم الأوَّل، والمشرِّع الأوَّل الذي يرتبط به التَّقويم السنوي وما في حكمه. ورسموا الملك - الشَّمس (داجبوغ) رامحاً في مركبة ذهبيَّة تجرُّها بدل الخيل كلاب لها أجنحة طيور. وقد عدَّت هذه تابعة آلهة الخصب. وكان داجبوغ يقف في المركبة حاملاً بيديه صولجانين شعيريين رسمت عليهما أوراق السَّرخس.

وكان عند السلاف إله شمسيٌّ آخر، هو الإله خورس. وإذا كان داجبوغ قد رمز إلى دفء الشَّمس وضوئها، فإنَّ خورس كان إله الشَّمس مباشرة. لقد رأى القدماء (وليس السلاف وحدهم) إنَّ النور كان أوَّلاً، والشَّمس نفسها ثانياً. وقالوا: «ليست الشَّمس سوى تجسيد للنُّور». ولم يكن لخورس (معناه الحرفي: الشَّمس) وجه بشري. فهو كقرص الشَّمس الذي يتحرَّك في السَّماء. وقد صدرت الحركة الدائرية عن خوروس (الدائرة) مباشرة. وكانت الزلابيات الذهبيَّة المستديرة الشَّكل التي يحملونها في الصَّوم الكبير ترمز إلى شموس صغيرة. كما شاعت عادة دحرجة عجلات (شموس) ملتهبة.

وكان الكلب المجنَّح سيمارغا تابعاً لآلهة الشَّمس وداجبوغ. وقد عُدَّ إله الجذور، والبذور، وحارس البذار والزروع. لكنَّ هذا الإله تحوَّل مع مرور الزَّمن تحوُّلاً كبيراً. فقد كان في الأوَّل إله النَّار. وتخيَّلوه في صورة إنسان كما في صورة صقر. ولم يكتسب سمات الكلب المجنَّح إلاَّ في زمن متقدِّم. وكما قلنا سابقاً، إنَّ آلهة الشَّمس جاءت السلاف من السكيث. ولذلك شاعت عبادتهم أساساً في جنوبي بلاد الروس. وورد ذكر داجدبوغ، وخورس، وستريبوغ في «كلمة فوج إيغور» (القرن ١٢م.).

وينتمي الإله ستريبوغ إلى الإله السلافي الأعظم القديم: رود. ويفترضون أنَّ جميعهم كان يسجد لهذا الأخير في الزَّمن القديم. وقد قالت المواعظ المسيحيَّة عن هذا: «أخذ الهيللينيون يقميون ولائم لرود والروجانات، وكذلك فعل المصريون، والرومان. وقد وصل هذا إلى السلاف، فأخذ هؤلاء يقيمون الولائم لرود والروجانات قبل بيرون إلههم». ولكنَّ التوجيهات المسيحيَّة تلحُّ على طريق الحقِّ: «للكل خالق واحد، وهو ليس رود».

لقد كان رود إلهاً خالقاً. ولد منه كل شيء. وكان سيِّد الأرض وكل ما هو حيٌّ. ومعنى اسم رود باللغة الفارسيَّة: إله، ونور. وكان هذا عند الفرس أمراً واحداً. أمَّا عند السلاف فقد اكتسب اسم رود معنى آخر يتوافق مع المعنى المعاصر لهذه الكلمة. وهو القرابة والميلاد، والينبوع والمحصول. إنَّه معنى الشَّعب والوطن أيضاً. من الواضح إذن أنَّ الإله رود حاز كل شيء. ولكنَّ رسالة ستريبوغ كانت محدودة أكثر. فهو الإله الأب. الرياح أحفاده. وعلَّم سفابوغ («السماوي») البشر تصنيع الحديد، وأرسل لهم «الملقط». ومن الواضح أنَّ سفابوغ كان مرتبطاً بالنَّار. وقد دعا السلاف النَّار نفسها باسم: «سفاروجيتش».

واهتمَّ أساساً بالخصوبة. ولكنَّ الروجانات هنَّ مَنْ كان يمنح الخصب. وهنَّ خازنات الحياة. والحياة هي الماء قبل كل شيء. ولذلك تخيَّلوا الروجانات في صورة إلهات سماويات يمنحن المطر. ومن البدهي أنهنَّ كنَّ نصيرات الأمَّهات الفتيات والأطفال الصِّغار. وبعد أنْ اعتنق السلاف المسيحيَّة تحوَّلت الروجانات شيئاً فشيئاً إلى والدة الإله. لقد كانوا يحتفلون بعيد رود والروجانات بإقامة الولائم الشَّعيريَّة في يوم الاعتدال الشَّتوي، وفي موسم جني المحصول الخريفي. فيقدِّمون للإله والإلهات الخبز، والعسل، واللَّبن المصفَّى، والفطائر.

ولم يكن للروجانات أسماء. وقد عبد السلاف إضافة إليهنَّ، إلهتين أخريين (أُمَّاً وابنتها) للخصب، والرَّخاء، وازدهار الحياة في الرَّبيع. وهما الإلهتان لادا وليليا. لقد كانت وظائف هاتين شتَّى. فلادا إلهة الزَّواج، ووقت نضج المحصول، والوفرة. وكانت ذبيحتها ديكاً. وتظهر صورة الإلهة لادا في اللعبة الشَّعبيَّة: «ونحن بذرنا الدُّخن». وهذه اللعبة عبارة عن صلاة

من أجل المحصول، والزواج تردد فيها لازمة: «أوي، ديد: لادو!». أمَّا ليليا ابنة لادا فقد كانت حارسة الفتيات العزباوات. وكانت إلهة الخضار الأوَّل والرَّبيع.

وعبد السلاف الأمُّ العظمى موكوش، والدة كل حيٍّ. وكانت هذه إلهة الخصب، ولذلك ارتبطت بالماء. وسجدوا لها عند الينابيع. وكانوا يرمون إليها في هذه الأخيرة غزولاً. وعدَّت موكوش حارسة الأعمال النِّسويَّة.

أيمكن لنا بعد هذا كله أنْ نُشكِّك في أنَّ الشُّعُوب القديمة التي لم تفقد صلتها مع الطَّبيعة، والعالم الخارجي المحيط بها، قد رأت أنَّ في كل شيء حياة، وعقلاً، ومبدأً إلهيَّاً؟ وينسحب هذا على السلاف أيضاً. ونحن نعثر على هذا كله حاضراً في المصادر الثَّقافيَّة كلها: في الحكايات السِّحريَّة، والخرافات، والحوليَّات. فأبطال «كلمة عن فوج إيغور» يخاطبون الرِّيح، والشَّمس، ونهر الدنيبر، والدُّونس مخاطبتهم لكائنات حيَّة. ولكنْ لمَّا «عَقِلَ» الإنسان كفَّ عن ذلك وبات يرى في هذا كله مجرَّد رعونة، ونتيجة للحماقة، وعلامة على التَّخلُّف. ولكنَّه أخذ يدرك الآن، والحمد لله، أنَّ القدماء كانوا على حقٍّ: العقل الكوني موجود في كل شيء، سواء كان هذا الشَّيء حيَّاً أو غير حي. إنَّه ماهيَّة واحدة تخترق الكون كله، وتلد كل شيء في هذا العالم وتوجهه. لقد مرَّت آلاف السِّنين قبل أنْ ندرك نحن أنَّ القدماء لم يكونوا على ضلال، بل نحن الذين أعمى الغرور بصيرتنا وبتنا نطالب بالعرش الإلهي («الإله - الإنسان»).

الفصل العاشر

أسرار آلهة الهندوسيَّة

لقد قطعت الشُّعُوب كلها طريقاً طويلة جداً حاملة معها دياناتها وتصوُّراتها عن وجود كثرة من الآلهة، إلى أنْ أدركت أنَّ الإله يمكن أنْ يكون واحداً أحداً وحسب؛ وإلاَّ فإنَّه ليس إلهاً. ونحن إذا أدركنا أنَّ الإله كما هو في واقع الأمر، أي على وجه التَّحديد؛ علَّة كل شيء، والمشرِّع لكل ما هو موجود في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فإنَّنا ندرك عندئذ أنَّه لا يمكن أنْ يكون إلاَّ واحداً. فوجود علل أولى متعدِّدة، أمر مستحيل. وكان النَّبي محمَّد قد قال: لو كان ثمَّة عدد من الآلهة لانهار الكون. ولا شكَّ في أنَّ الإنسان المتنوِّر في أيَّامنا هذه يدرك هذا الأمر جيِّداً. فالفيزيائيون يستطيعون دراسة خصائص الكواكب النترونيَّة (لا وجود لمثل هذه المادَّة على الأرض، وصناعتها في المخابر غير ممكنة)، لأنَّ قوانين سلوك الجزيئات الأولى هي نفسها الموجودة على الأرض. وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا ينسحب على القوانين كلها على وجه العموم. فهي لا يمكن أنْ تكون على الأرض مختلفة عنها على القمر أو على المشتري. ومن البدهي أنَّ الشروط هناك مختلفة، ولذلك فإنَّ التَّجلِّي الظَّاهري لفاعليَّة هذه القوانين هي عينها.

لم يفكِّر الإنسان في مراحل ارتقائه الأولى بالكون كله بل فكَّر أوَّل ما فكَّر بخبزه اليومي، بمكان دافئ يرتاح فيه بأمان. كما فكَّر بالإله أيضاً. وثمَّة اتفاق اليوم بين علماء مختلف المدارس في مختلف البلدان، على أنَّ تاريخ البشريَّة لم يعرف زمناً لم يفكِّر الإنسان فيه بالإله. لقد كان الإنسان يحسُّ دوماً بوجود إله، لأنَّه كان على تواصل دائم مع العالم المحيط، أي مع ما خلقه الإله. وأدرك الإنسان دوماً أنَّ أحداً ما خلقه. ولم يكن بإمكان أحد أنْ يفعل ذلك سوى إله. وفي المراحل الأولى من حركة ارتقاء الإنسان لم تكن الغطرسة قد استحوذت عليه بعد، لأنَّه لم يكن قد ميَّز نفسه عن باقي عالم الحيوانات، لم يزعم بعد أنَّه إله - إنسان. وهذا ما مكَّنه من العيش مع الطَّبيعة في توافق يفتقر إليه الآن.

لقد أحسَّ الإنسان في حياته اليوميَّة أنَّ نعمة الإله تهبط عليه عبر دفء الشَّمس (لذلك سجد للشَّمس)، عبر الحيوانات (لذلك عبد الحيوانات)، عبر المطر، والرِّيح، والسُّحُب و... لقد

سجد الإنسان متعبِّداً كل ما ارتبطت حياته به، ويفضله يستمرُّ عيشه. ونحن يجب ألا نلومه لأنَّه لم يسجد للإله الواحد الأحد العلَّة الأولى لكل ما هو موجود. فضلال الإنسان لم يكن على درجة كبيرة من العمق، كما قد يبدو للوهلة الأولى: لقد عبد الإنسان الخلق الإلهي، وفي مخلوقات الإله كلها موجود هو نفسه أيضاً. أمَّا اللَّوم الأكبر فيستحقُّه الإنسان المعاصر الذي لا يعبد الإله الواحد إلاَّ شكليّاً، أمَّا في واقع الحال فإنَّه في حياته اليوميَّة، وأفعاله يعيق الطَّبيعة والنَّاس الآخرين عن العيش.

يعتنق أكثر سكَّان الهند الآن الدِّيانة الهندوسيَّة، ويؤمنون بوجود كثرة من الآلهة، والمعبودات، والحيوانات المقدَّسة. ولكنَّ الطَّوائف (الكاستات) التي تمثِّل حواجز تفصل بين البشر، تشهد على انتهاك القانون الإلهي، قانون محبَّة القريب. لكنَّ هذا لا يعني أبداً أنَّ الهندوسيَّة بقيت هذا الزَّمن المديد كله لم تتغيَّر. بيد أنَّها في واقع الحال بقيت دوماً معتقد الطَّور الأوَّل من مسيرة ارتقاء الإنسان.

وتكمن جذور الهندوسيَّة في الحضارة السَّلف للحضارة الهنديَّة، وفي الحضارة الهنديَّة أو حضارة خارابا التي أدهش مستوى تقدُّمها التِّقني العلماء، فقد كانت هذه الأخيرة ترقى إلى خمسة آلاف عام خلت. وتؤكِّد أعمال السَّبر الآثاري أنَّ أسلاف الهندوس كانوا منذ ذلك الزَّمن يسجدون للإله الذي يجلس على العرش في وضعيَّة اليوغا محاطاً بالحيوانات من كل صوب. لكنَّ هذا الإله هو نفسه الإله شيفا الذي ما انفكُّوا يسجدون له حتى بعد ذلك بآلاف السِّنين، ومنذئذٍ وهم يجلُّون الحيوانات المنزليَّة والبرِّيَّة. فعبدوا العنز الجبليَّ، والجاموس، والثَّور، وحمار الوحش، والنِّمر، والفيل، ووحيد القرن. ويعبدون في الهند الآن البقر، والثَّعابين، والقردة.

وعبدوا في زمن حضارة خارابا الشَّجر، والنَّباتات. فعدَّت الشجرة أشفاتها شجرة مقدَّسة، وما زالوا يعدُّونها كذلك حتى يومنا هذا. ولا تزال ثمَّة أنهار مقدَّسة حتَّى يومنا هذا. ويؤدَّى فيها الآن الاغتسال الطَّقسي كما كان يؤدَّى منذ خمسة آلاف عام، قبل مجيء الآريين إلى الهند.

فعند أواسط الألف ٢ق.م. أخذت القبائل البدويَّة الآريَّة تتسرَّب إلى شمال غربي هندوستان. وحمل هؤلاء معهم إلى الهند ديانتهم وقوانينهم. وألِّفت أناشيدهم، وصلواتهم، وخرافاتهم، و«معارفهم المقدَّسة» على وجه العموم مجموعات كبيرة الحجم، تدعى الفيدات، وهي كتب مقدَّسة. وقد دوِّنت الفيدات على امتداد زمني لا يقلُّ عن الألف عام، مثلها في هذا مثل التوراة. ويمكننا أنْ نعتقد أنَّ تلك العمليَّة قد اكتملت في زمن بوذا، في القرنين ٦-٥ق.م.

ونتيجة لاندغام الآريين مع السُكَّان المحليين، واندغام ثقافتيهما، وديانتيهما، وآلهتهما وطقوسهما نشأ معطى ما جديد: طغى على السَّطح حشد متنوِّع من الآلهة، والمعبودات، والأرواح وأنصاف الآلهة، الطيِّبين والشرِّيرين، والرحيمين والقساة الصَّارمين. وفي ذلك الوقت ظهرت الكاستات (= طوائف اجتماعيَّة دينيَّة مغلقة.م.). وقد شكل الكهنة البراهمن الذين كانوا يقودون المجتمع، الكاستا الأعلى. وتحوَّلت ديانة الفيدات عمليّاً إلى الديانة البراهمنيَّة. لكنَّ ريحاً جديدة هبَّت في القرن ٥ق.م. وقد حملتها تعاليم بوذا والجاينيين الذين رفضوا التَّقسيم الكاستي. بيد أنَّه على الرغم من النفوذ العظيم الذي كان يحظى به بوذا، إلاَّ أنَّ الكاستات حافظت على وجودها في الهند حتى يومنا هذا، وخرجت البوذيَّة إلى خارج حدود الهند. وأخذت البراهمنيَّة تتحوَّل رويداً رويداً إلى الهندوسيَّة التي تمثِّل جملة من التَّيَّارات، والمدارس، والمجموعات، والطُّقوس والآلهة.

وفي أوائل العصر الحديث كانت تلك العمليَّة قد اكتملت، وبعد خمس مائة عام صارت الهندوسيَّة إلى دين رسمي للدَّولة. ولكنْ بعد خمس مائة عام أخرى تفوَّقت الهندوسيَّة في البلاد، ورحلت البوذيَّة عنها. غير أنَّ معايشة البوذيَّة لأكثر من ألف عام، جعلت الهندوسيَّة ديانة أكثر إنسانيَّة، فتناقصت أعداد القرابين الدَّمويَّة فيها، وظهر مزيد من المنطق في فلسفتها.

وللهندوسيَّة ثلاثة آلهة رئيسين: فيشنو، وشيفا، وبراهما. وقد سار هؤلاء طريقاً معقَّدة على امتداد آلاف السِّنين، طرأت عليهم خلالها تبدُّلات جوهريَّة. وإذا كان براهما هو الإله الرئيس عند نقطة الانطلاق، فإنَّه تحوَّل عند نهاية الطَّريق إلى النسق الثاني. وكان براهما قد تراجع إلى النسق المذكور منذ زمن بوذا (٥٠٠ق.م.)، مع أنَّه كان يؤلِّف قبل ذلك الطَّرف الثالث في ثالوث براهما - فيشنو - شيفا. لقد كان هؤلاء الثلاثة يكمِّل واحدهم الآخر، فكل منهم كان مسؤولاً عن جانب من جوانب حياة الكون. فبراهما خالق العالم، وفيشنو الحافظ له، وشيفا مدمِّره. والحقيقة أنَّ شيفا لم يدمِّر العالم فقط، لكنَّه أعاد بناءه أيضاً. وعلى وجه العموم ينبغي النَّظر إلى ثالوث آلهة الهندوس هذا على أنَّه من حيث الجوهر إله واحد. ولذلك رسموا الثالوث عادة كلاً واحداً: يقف الآلهة الثلاثة كل إلى جانب الآخر، أو تظهر أجسادهم كأنَّ واحدها يخرج من الآخر.

ولا يزال هذا الثَّالوث قائماً حتى يومنا هذا. لكنَّ فيشنو وشيفا هما الإلهان الأكثر تبجيلاً الآن. فالمعابد كلها مكرَّسة لهما. ولم يبقَ في الهند الآن سوى معبد واحد مكرَّس لبراهما ويقع هذا المعبد في بوشكار من ولاية راجاستان. ولا وجود في الهند الآن لعبادة مستقلَّة خاصَّة بالإله براهما.

فلنتتبَّع الآن باختصار الطَّريق التي قطعها آلهة الهندوسيَّة. وقد قلنا سابقاً، إنَّ أعمال السَّبر الآثاري التي جرت في مواقع حضارة خارابا السَّابقة على الزَّمن الآري، أظهرت أنَّ المؤمنين كانوا يسجدون لإله يشبه الإله شيفا. وكان سلف شيفا هذا يجلس على العرش في وضعيَّة اليوغا. وتحيط الوحوش به. وليس هذا مجرَّد مصادفة. فالإله شيفا: باشوباتي، كان نصير القطعان. وكان شيفا نفسه ربُّ اليوغيين والنسَّاك. إذن لقد بقي الآلهة الذين كانوا يسجدون لهم قبل مجيء الآريين يحافظون على وجودهم، لكنَّهم تغيَّروا كثيراً.

لقد جاء الآريون إلى الهند قبل بوذا بنحو الألف عام، وعلى امتداد ألف عام تألَّفت فيداتهم (معارفهم). ولكنَّ آلهة الآريين تغيروا كثيراً أثناء تواصلهم مع آلهة السُّكَّان المحليين، واكتسبوا كثيراً من سمات هؤلاء الآلهة. ولذلك فإنَّه يمكننا أنْ نقول، إنَّ آلهة الهندوس الرئيسين قد خرجوا من الملحمة والفيدات.

والآلهة الفيديون كثر: مئات، بل آلاف، وهم يستوطنون مختلف المجالات: على الأرض مباشرة، وفي المحيط الجوِّي، وفي الفضاء الخارجي. ويعد الإله إيندرا الإله الرئيس بين آلهة المحيط الجوي الفيديين. إنَّه إله الرعد، إله العاصفة والمطر. وهو إله مقاتل جبار عملاق. فلكي يروي ظمأه، يشرب بحيرة كاملة من المشروب المقدَّس (السوما)، ولكي يشبع جوعه يلتهم ثلاث مائة ثور. ومن البدهي أنَّ إيندرا كبير جداً، ولذلك فصل السَّماء عن الأرض فصلاً نهائياً دائماً. وبات هو ربُّ المكان الفاصل بينهما: المحيط الجوي. يرافقه دائماً آلهة آخرون من المحيط الجوي: الماروت، والفاغو، ورودرا.

ويعمل في الفضاء الخارجي (في السماء) آلهة آخرون. وهؤلاء آلهة بديعون، مشرقون ومتعاطفون مع الناس. ويرتبط هؤلاء بالشمس والنجوم، وكواكب السماء. ومن بين آلهة السماء هؤلاء، إله الشمس سوريا، وإلهة الفجر أوشاس، وإلهة عتمة الليل راتي، والتوأمان أشفيني (ولدا الإله القديم دياوس). ويؤدِّي الإلهان التوأمان وظيفة المنقذين الكونيين. فيجوبان السماء في مركبة ويمدَّان يد العون لكل إنسان يقع في حالة صعبة. كما يؤدِّيان أيضاً مهمة المداويين الإلهيين اللذين يساعدان المرضى، والمشوَّهين، والعاجزين. فيعيدان البصر لمن فقده، بل إن لهما القدرة حتى على درئ الموت عن الناس. وثمَّة إله شمسي آخر، هو الإله سافيتور (الموقظ، المحيي). ويمثِّل هذا الشمس غير المرئية، الشمس المتخفية، شمس الليل. وهناك أيضاً إله شمسي آخر، هو الإله بوتان الذي يحمي القطيع، ويحافظ عليه: يدرأ عنه الذئاب، ويعثر على الحيوانات الضالَّة عنه. ويهتمُّ هذا الإله بالبشر أيضاً. ويعمل في العصر عينه الإله فيشنو، الذي أخذ دوره يتعاظم.

ومن أهمِّ آلهة الأرض، إله النَّار: أغني. فقد كرَّست له الريغفيدا مائتي نشيد. ولم يتجاوزه في هذا سوى الإله إيندرا الذي كرَّست الريغفيدا له مائتين وخمسين نشيداً. ويمتلك الإله أغني ماهيات النار كلها. ويرمح في مركبة ذهبيَّة، شعره نار، ولحيته حمراء، وأسنانه من حديد يلتهم بها الغابات. عيونه الكثيرة التي يرى بها مختلف الاتجاهات تلمع كالشُّعلة، وتجرُّ مركبته الذهبية جياد - أعاصير. وهي تترك آثاراً سوداء. وهناك أوصاف أخرى للإله أغني.

ويحمل الإله أغني إلى الآلهة القرابين التي يحرقها الناس أثناء إقامة الطُّقُوس. ولذلك فهو يقع دائماً في قلب الطقس. وما عدا الإله أغني هناك إله أرضي آخر، هو الإله سوما الذي يجعل الآلهة خالدين. ولتحقيق الخلود يحتسي هؤلاء شراب السوما. ويخلِّص السوما البشر من الأمراض. وغالباً ما يدغم الإله سوما بالقمر.

ويشغل الإله فارونا مكانة خاصَّة بين الآلهة. فقوانينه لا تسري على البشر وحدهم، بل على الآلهة كذلك. ويقيم هذا في قصر قائم في قاع المحيط. ويحيط به هناك آلاف العبيد. ويخزن فارونا عنده القانون الكوني الذي تخضع له الطبيعة ويخضع له البشر. كما تخضع الحياة نفسها له، فوفق هذا القانون تتعاقب فصول السنة، ويزهر الشجر، وتتحرَّك الشمس، والقمر، والأجرام السماوية الأخرى. ويخضع لتأثيره طيران الطيور، ومسيل الأنهار. وفارونا ليس القانون فقط، بل هو القاضي، وهو الذي ينزل العقاب.

وهكذا تخيَّل الآريون بناء العالم المحيط بهم، فقد قسموه إلى المجالات الثلاثة المومأ إليها، ومنحوا كل مجال آلهته السائدة فيه. لكن الآلهة الفيديين أخذوا يخلون المكان شيئاً فشيئاً لآلهة آخرين، ولكن الفلسفة عينها، كما المبادئ الكونية، تشغل مكانة هامَّة في الهندوسيَّة.

بعد العصر الفيدي، وفي زمن البراهمن بات براجاباتي هو الإله الرئيس. ومعنى اسم براجاباتي، هو ربُّ الولادات، أو ربُّ الكائنات. لقد صار هذا الإله أباً، وأساساً بدئيَّاً لكل شيء وللآلهة كلهم. فهو الذي ولد كل ما هو موجود بجهده الروحي. ويرون في الإله الأكبر براجاباتي أحياناً، الذبيحة، القربان الذي خُلق العالم منه.

وتنتشر الآن انتشاراً واسعاً الدراسات التي تعرض البهاغافاتية. وكانت هذه قد ظهرت منذ زمن قديم، في زمن بوذا. ولم تعترف البوذية والجاينية بالفيدات كتاباً مقدَّساً. وبدَّلت البراهمنيَّة صيغتها ومبادئها. فاندغمت بالمعتقدات والتَّصوُّرات التقليدية للسكان المحليين. ولم يبلغ الإله براجاباتي الشأو الذي بلغه إلا لأنَّه اندغم بالإله المحلِّي نارايانا. وتكوَّن نتيجة لذلك

الإلهة بهاغافات، ومعنى اسمه: مقسّم الأنصبة، السَّمح، الرحيم. ثمَّ بدَّلوا اسمه مع الزَّمن إلى: واهب الخيرات، الرَّبُّ، السَّيِّد. ولكنَّ هذه كلها كانت تختصر باسم بهاغافات.

أمَّا الإله الآخر الذي لا ينتمي إلى أصل آري، فهو الإله سانكارشانا. إنَّه ملك الثعابين، وتجسيد الثُّعبان الكوني شيشا الذي يسند اليابسة. ويرتبط بهذا الإله آلهة آخرون: الأخوان بالارامي وفاسوديفا. وفيما بعد اندغم الإله المحلِّي كريشنا بالإله فاسوديفا.

وقد وحَّدت البراهمنية هؤلاء الآلهة كلهم. وافترضوا أنَّه كان لنارايانا أربعة أشكال موجودة في الآن عينه وفي موازاته. وهؤلاء الآلهة الأشكال هم: فاسوديفا= كريشنا، وسانكارشانا = بالاراما، وبراديومنا، وأنيرودها. وهكذا ذاب هؤلاء الآلهة كلهم في شخصيَّة الإله الأكبر بهاغافات = نارايانا.

لقد ظهرت الهندوسيَّة نتيجة لاندغام البراهمنيَّة مع الديانات المحلِّيَّة. وفي غضون ذلك غدا الإيمان بالإله بهاغافات هو الغالب في تيار البهاغافاتية. لقد كان المؤمنون يكنُّون لهذا الإله حبَّاً ذاتيَّاً عميقاً. وعبَّرت عن ذلك الشُّعور كلمة «بهاكتي»: نصير الإله بهاغافات الذي يملؤه الحبُّ الخالص تجاهه.

وفي حوالي زمن بوذا صارت البهاغافاتية إلى الفيشنوية. وكلمة فيشنو معناها: الذي يتَّسع لكل شيء، الذي يتغلغل في كل شيء. وهو مبدأ العالم ومنتهاه، والذي يقيم في قلوب الناس، وليس لتجليَّات الإله فيشنو نهاية، ونحن كنَّا قد رأينا أنَّ فيشنو الهندوسي خرج من فيشنو الفيدي. ولكنَّ الفيدات لم تكرِّس له سوى متسع صغير. فيظهر فيها إلهاً محلِّيَّاً قبل آري. وعندما كان إيندرا يقاتل العفريت، مدَّ له فيشنو يد العون. وعلاوة على هذا صارت رأس فيشنو شمساً. وأخيرا بات الكائن الأسمى. لقد جمَّ فيشنو الكون كله في ذاته. وهو يحفظ العالم كله في ذاته إبان المرحلة الممتدَّة بين هلاك عالم وولادة آخر. ويحدث خلق العالم الجديد هكذا: عندما يستقيظ فيشنو تنبت من سرَّته زهرة لوتوس؛ ثمَّ يولد في الزهرة الإله الخالق براهما، فيصنع هذا العالم الجديد.

وبعد أنْ يُخلق العالم، يدير شؤونه فيشنو. فيستوي هذا على عرش له شكل زهرة اللوتوس، يبرق بلمعان يبهر العين كالشَّمس. ويقوم العرش في قصر ذهبي تحيط به وديان خمس بحيرات. وتلمع في أرجاء المكان كله، ألوان اللوتوس الزرقاء، والبيضاء، والحمراء. فتذكِّرنا بحجارة الزُّمرُّد. ويتوضَّع هذا كله في أعلى عوالم الجنَّات السَّماويَّة: فياكونتها. من هناك يرقب فيشنو كل ما يجري على الأرض، بما في ذلك سلوك الناس. ثمَّ يجري الزَّمن ويتضاعف حجم الشَّرِّ على الأرض. ويدير نشاطه فيها متخذاً صورة إنسان، بطل، أو إله.

ويدعى كل نزول من نزولات فيشنو هذه إلى الأرض، أفاتارا. ويعتقدون أنَّ عدد مثل هذه الأفاتارات كثير، ولكنَّ الكتب المقدَّسة لا تسوق سوى ١٠-٢٢أو ٢٤ أفاتارا.

ويسجد للإله فيشنو نحو نصف المؤمنين في الهند الآن. بيد أنَّه يجب علينا أنْ نتذكَّر أنَّ هذا الإله يظهر بأسماء شتَّى. عددها كبير. وليس عبثاً أن احتوت «المهابهاراتا» على «نشيد أسماء فيشنو الألف».

ولم يقتصر وصف الطوفان الكوني على التوراة وحدها، إذ وصفته الكتب المقدَّسة الهندوسيَّة أيضاً. فلكي يمدُّ يد العون للنَّاس في تلك اللحظة الحرجة، نزل الإله فيشنو إلى الأرض في صورة سمكة فأنقذ مانو من الهلاك، ثمَّ خرج الجنس البشري كله من مانو.

ويجلُّون فيشنو إجلالاً خاصَّاً في صورة راما. فقد وصفت أعماله في الملحمة المقدَّسة «رامايانا». لكنَّ الإجلال الأعظم الذي يتلقَّاه فيشنو يتلقَّاه في صورة كريشنا. ويُعدُّ كريشنا هذا مؤلِّف «بهاغافاتيجتا» التي تُعدُّ جزءاً من «المهابهاراتا». وقد نجح فيشنو في أنْ يُلحق الهزيمة بالشَّرِّ أكثر من مرَّة على الأرض متَّخذاً صورة كريشنا. وشنَّ حرباً ظافرة ضدَّ العفاريت وملوك الهند الأشرار. وننوِّه في سياق حديثنا إلى أنَّ كلمة كريشنا معناها: الأسود. ولم يرسموا أيَّ صورة لكريشنا إلا ولون بشرته قاتم. وهو عادة يعزف على المزمار وتحيط به راعيات آسرات الجمال تربطه بهنَّ علاقات غراميَّة. ولكنَّ كريشنا ليس راعياً (عاشقاً) فقط، بل قد يكون إلهاً - وليداً أيضاً. وغنيٌّ عن البيان أنَّه يظهر في صورة بطل كذلك. ولذلك يراه المؤمنون قريباً إلى روحهم.

لقد صفَّت الهندوسيَّة حسابها مع البوذية بذكاء ملفت: لقد أدخلتها في نسيج تعاليمها. ويعتقدون أنَّ بوذا هو فيشنو في نزوله التَّاسع إلى الأرض. والحقيقة أنَّ الهندوسيَّة قد تجاهلت في غضون ذلك أهم ما في البوذية: عدم إقرارها بالكاستات، وبقيت على تقسيمها المعروف للمجتمع إلى كاستات.

ويتنبَّؤون بنزول فيشنو العاشر إلى الأرض مستقبلاً. وهو سوف يأتي في هذه المرَّة في صورة فارس على صهوة حصان أبيض (كالكي). ولكنَّ نزول فيشنو هذا لن يحصل إلاَّ في نهاية عصرنا القاتم هذا، حيث يسود اللِّئام السَّفلة، ويختفي الخير والإيمان بالإله من قلوب البشر. وعندما يصل فيشنو، فإنَّه يصلح الحال، ويبدأ العصر الذَّهبي وينتظر أتباع فيشنو حلول تلك اللَّحظة بفارغ الصَّبر، لأنَّ علامات نهاية عصرنا الفاسد بادية للعيان كلها.

أمَّا إله الهندوسيَّة الثَّاني شيفا، فهو بدوره يستمدُّ أصوله الأولى من حضارة الهند القبل الآريَّة. فقد عثر على صور سلفه المباشر أثناء سير أعمال السَّبر الأثاري في مواقع حضارة

خارابا. وسلف شيفا في العصر الفيدي هو الإله رودرا (الثائر، الهائج)، إله الجوائح الأكثر شراً. ويتّسم هذا بالازدواجيّة، تماماً كما هي حال كل ما في الطّبيعة. فهو يرسل الأمراض، وهو مَنْ يشفي منها. وهو حارس القطعان، وهو في الوقت عينه، مَنْ يرميها بالأوبئة. إنّه إله غضوب تصل نوبات غضبه حدَّ احتدام الغيظ. ولكنّه في الوقت نفسه إله عطوف، متسامح ومعطاء. ويرى بعضهم أنَّ هذا الإله لم يكن إلهاً فيدياً. وعلى أيِّ حال فإنّه اندغم في آخر الأمر اندغاماً تامّاً بالإله شيفا.

وقد برز هذا التّناقض، وهذه الازدواجيّة في صور شيفا. فهو يوغي متأمل يجلس على جلد نمر فوق قمّة جبل كايلاس في الهيملايا. وهو مستغرق في تركيز شديد، لأنَّ قوّة الفكر هي التي تدعم وجود الكون كله. وعادة ما يرسمون في وسط جبين شيفا عيناً ثالثة. فهذه العين تمكّنه من أنْ يرى ما لا يراه النّاس العاديون. وشيفا إله حكيم وذو فراسة.

يظهر الإله شيفا في كل مكان: في ساحات القتال ومحارق الجثث، وعلى مفارق الدروب، وفي الأماكن السيّئة كلها. ويحمل الإله شيفا على عنقه عقداً من الجماجم، وفي شعره هلالاً. وبيديه الحربة الثّلاثيّة. ومهما بدا الأمر غريباً، إلاَّ أنَّ حشداً من الأرواح والعفاريت الشرّيرة يُرافق الإله شيفا. وتلتفُّ الثّعابين حلقات على يديه وعنقه. فهو نصيرها. ومن صفاته: ذو الحنجرة الزرقاء. وحسب اعتقادهم أنَّ حنجرته ازرقت بسبب السُّمِّ الذي شربه. فقد صعد السُّمُّ من أعماق المحيط وهدَّد الحياة كلها. لكنَّ شيفا ابتلعه وأنقذ العالم من الهلاك.

وقد يتحوَّل شيفا من التأمُّل إلى الرَّقص الجنوني. ولذلك فإنَّ أحد أسمائه الكثيرة: ناتاراج، أي ربُّ الرَّقص. وليس الرَّقص بالنسبة إلى شيفا مجرَّد لهو وتسلية. فبالرَّقص يوقظ شيفا العوالم إلى الحياة في بداية كل عصر كوني. وبالرَّقص يحدِّد شيفا إيقاع حركة الكون. وفي نهاية العصر الكوني تدمَّر العوالم برقص شيفا أيضاً. إنّها رقصة الموت، رقصة الدَّمار. فتمثال شيفا الرَّاقص يمثل قيمة جماليّة ساحرة. والرَّقص بحدِّ ذاته، هو صلاة شيفا، شكل من أشكال الخدمة الإلهيّة التي يؤدِّيها شيفا. وشيفا لا يرقص وحسب، إنّه يبتكر الرَّقصات. ويعتقدون أنّه ابتكر ١٠٨ من مختلف ضروب الرَّقص: رقصات هادئة، ورقصات بطيئة، ورقصات إنسجاميّة، ورقصات جامحة، اندفاعيّة مخيفة. ولكنَّ أشهر رقصات شيفا، رقصة تاندافا. فكل شيء يخرج من الرَّقص، وكل شيء يدمَّر بالرَّقص. وفي الإيقاع المحتدم لرقصه يصنع شيفا بقوّته السّحريّة مظهر الأشياء كلها في العالم. وفي آخر الدّورة الكونيّة يدمِّر شيفا العالم الظّاهري برقصه. وما يمكن أنْ نقوله الآن، هو أنَّ شيفا يعدُّ إله الموت وإله الزّمن الذي يدمِّر كل شيء. ويعدُّ الهلاك، والموت والدَّمار كل بحدِّ

ذاته شكلاً مهمّاً من أشكال الوجود، لأنّ الهلاك يتقدّم الوجود دوماً. فالجديد لا يولد إلاّ بعد أنْ يموت القديم. إنّ شيفا إله مقاتل. وهو يحقّق النّصر دائماً في صراعه ضدّ فيشنو وبراهما. ففي معركته ضدّ براهما مثلاً، تمكّن شيفا أنْ يقطع الرّأس الخامسة لهذا الأخير. فعوقب على فعلته: تحوّل إلى كائن شنيع (بهايرافا) شعره أحمر مشعث وأنيابه طويلة ناتئة. مدينته هي مدينة بناريس (فاراناسي حاليّاً). وهنا في هذه المدينة تحرّر شيفا من عقابه الذي ناله جزاء بتره رأس براهما.

وثمّة حكايات جميلة عن صديقة شيفا، فهي تهلك أحياناً وتولد من جديد أحياناً أخرى. وقد دعيت في واحدة من تلك الولادات باسم: بارفاتي. لقد أنجبت بارفاتي من شيفا ولدين. وغالباً ما يرسمون صورة شيفا محاطاً بعائلته السّعيدة. وأدار شيفا مع زوجته أحاديث كثيرة تناولا فيها قوانين هذا العالم. فسألت بارفاتي شيفا يوماً: «أين يكمن جوهرك الحقيقي؟ وما هذا الكون المليء بالعجائب؟ وما الذي يشكل بداية كل شيء؟ وما هو مركز عجلة الكون؟ وما هي تلك الحياة الهلاميّة التي تخترق الأشكال كلها؟ وكيف نستطيع نحن أنْ ندخل إليها بالكامل، خارج المكان والزّمان، وخارج الأسماء والأوصاف؟ خلّصني من شكوكي هذه!».

فأجاب شيفا على هذه الأسئلة كلها. وقد سيقت إجاباته في التانترات، حيث السؤال الرّئيس، هو كيف يمكن بلوغ الحقيقة؟

وكلمة «تانترا» عينها مركّبة من كلمتين: «تانوتي» (ينشر، يوسّع)، و«ترایاتي» (يحرّر، يطلق). والحديث يجري عن نظام «تحرير المعارف عبر نشرها». ويحدّدون معناها على الوجه الآتي أيضاً: «هي طاقة تظهر في الوعي خلال اللّحظات الفاصلة بين ظهور السؤال والعثور على إجابة له». إنّ التانترا الهندوسيّة، هي تصوّرات دينيّة فلسفيّة معقّدة عن العالم والإنسان. وهي تضمُّ أيضاً جمعاً من مختلف الشّعائر الدّينيّة؛ إضافة إلى طرائق تخرج خارج أُطر الطُّقوس الدينية. وهذه عبارة عن تمارين معقّدة يمكن بمساعدتها تغيير الإنسان تغييراً تامّاً، ولا يقتصر هذا التغيير على جسده وحسب، بل يطال وعيه أيضاً. ومن هنا يأتي الحديث عن اليوغا التانتريّة. والواقع أنّ اليوغا الهندوسيّة كلها ليست سوى أداء للتانترا. وتكمن خصوصيّة الممارسات التانتريّة في كونها تعلّم استخدام الطّاقة الجنسيّة وتحويلها إلى طاقة روحيّة. ولتحقيق التّقدُّم الرُّوحي لدى الإنسان يتمُّ هنا استخدام الوسائل والماهيّات المتاحة كلها. ويستفاد في غضون ذلك حتّى من العيوب والنواقص بصفتها وسيلة جبّارة للتّحرُّر من قيود السانسارا، وتتحوّل في أثناء ذلك جوانب الحياة كلها إلى ممارسة روحيّة.

وتتجدَّد التانترا بصورة متواصلة، وتحسِّن طرائقها دائماً. وكان شيفا يقف عند منابع تشكيل هذا النِّظام. ويعتقدون أنَّ شيفا عاش منذ ٥-٧آلاف عام خلت. وكان قد استخدم هذا النِّظام عمليَّاً وبدَّل عبره جسده الفيزيائي إلى نور ذهبي خالد. وتدعى الحالة نفسها في البوذيَّة التيبتيَّة بالجسد القزحي (المتلوِّن بألوان قوس قزح. م.)، وفي الداوسيَّة بالجسد الألماسي. ويستطيع شيفا أنْ يظهر بجسده الخالد أمام أبرز سادة اليوغا والتانترا ويعلِّمهم.

ولا تحتوي التانترا على تمارين الكمال الرُّوحي فقط. ففيها وصف لبناء الكون. ويتألَّف هذا الأخير حسب التانترا من قسمين: ظاهري ومكنون. وجزء الكون المكنون، هو محيط الوعي الإلهي الأسمى الأزلي الذي يدعى شيفا. والطَّاقة (القوَّة) الإلهيَّة الأزليَّة اللا متناهية تصنع الجزء الظَّاهر من الكون وتدعمه. وتدعى هذه القوَّة باسم شاكتي. وليس شيفا سوى الوجه السَّاكن للإله. إنَّه صُنْع الإله. وفي الآن عينه فإنَّ شاكتي هي القوَّة التَّنفيذيَّة للإله. إنَّها الوجه الدينامي الحيوي للإله. ودورها دور حاسم مقرِّر. «ليس لشيفا قوَّة الإنشاء إلاَّ بالاتِّحاد مع شاكتي». «إنَّ شيفا من غير شاكتي هو مجرَّد جثَّة هامدة». وإذا استخدمنا المصطلحات المعاصرة فإنَّ شيفا هو النِّيَّة، وشاكتي هي التَّحقيق. إنَّ الصِّيغة الإلهيَّة في كل مكان، وشيفا - شاكتي في كل مكان.

وتعلِّم التانترا أنَّ الطبيعة التي خُلقت بقوَّة شاكتي تمتلك ثلاث خاصيَّات أساسيَّة، هي النور، والانسجام، والتوازن؛ والحيوية، والحركة، والقلق؛ والخمول، والقتامة، والمقاومة. ووعي الإنسان بدوره يمتلك هذه الخاصيَّات، الصِّفات الثَّلاث. وإذا ما كانت الغلبة للخاصيَّة الأولى، فإنَّ الإنسان يثمِّن الحقيقة، ويمتلك ذخيرة إبداعيَّة عالية وقدرات ذهنيَّة مرموقة. ويعيش متوازناً منسجماً مع ذاته، مع الآخرين، ومع الطَّبيعة. أمَّا إذا كانت الغلبة في وعي الإنسان للخاصيَّة الثانية، فإنَّه يبدي خمولاً، ويعيش حالة خوف، وجهل، وخنوع، وتغلب قوى التَّدمير على سلوكه. وإذا كانت الغلبة للخاصيَّة الثالثة، فإنَّ الإنسان يُعدُّ شغوفاً، هوائيَّاً، ومجازفاً. فيسعى بحيويَّة وجدٍّ لامتلاك القوَّة والسلطة. ويهوى القيادة، ويصون السُّمعة والنفوذ والهيبة. بيد أنَّ التانترا لا تتوقف عند حدّ تحليل هذه الخاصيَّات. إنَّها تقود إلى الإلهي الذي يقع على الجانب الآخر لهذه الخاصيَّات الثَّلاث.

وتضع الخاصيَّات الثَّلاث الموصوفة أعلاه، بداية لولادة العناصر الخمسة العظمى. فيظهر الأثير (المكان) من الصَّفاء. وتظهر النَّار من النشاط، والأرض من الخمول. ويتشكل بين الصَّفاء والنَّشاط عنصر دقيق دائم الحركة، هو الهواء. ويتشكل بين النشاط والتأثير الذاتي، عنصر الماء الذي يحتوي في ذاته على الحركة والخمول. وترمز هذه العناصر الخمسة

إلى المستويات الخمسة لكثافة أيّ ماهية من ماهيات الكون: المادَّة، والطّاقة، والوعي. وهذه الكثافة هي بالنِّسبة للمادَّة: الصَّلابة، والسيولة، والغاز، والأشعَّة، والأثير. ويضيف الفيزيائي إلى هذا حالة أخرى، هي حالة البلازما (الحالة الرَّابعة للمادَّة). والمقصود هنا بحالة الأثير، هو عنصر المكان. أمَّا المقصود بحالة الأشعَّة، فهو النَّار، مع أنَّ الأصحّ هو أنْ تدرج في هذا مصادر الإشعاع كلها. ومستويات الكثافة الخمسة هذه حاضرة في الطّاقة أيضاً، وفي الوعي، وفي انفعالات الإنسان وفي جسده. إنَّ كل ما في هذا العالم هو من صنع طاقة شاكتي الإلهيَّة الخلاَّقة. وكل شيء على الإطلاق هو مجرَّد أشكال مختلفة لتجلّي شاكتي. أمَّا العناصر الخمسة، فهي عبارة عن تجليَّات شاكتي البحتة.

يبهت الأوروبيون الذين يطَّلعون على الدِّيانات الهنديَّة ومعابدها وكتبها المقدَّسة، للمكانة المهمَّة التي تعطى فيها للجنس. ففي الهند نحو الثَّلاثين مليون تمثال للعضو الذكري: لينغام. وثمَّة في محاريب المعابد مئات اللينغام. ومن الواضح أنَّ هذا يتناقض مع ما يعلِّمنا إياه آباء الكنيسة المسيحيَّة، الكاثوليكيَّة والأرثوذكسيَّة. فحسب رأيهم أنَّ الإنسان يولد في الخطيئة، ويخرج إلى العالم الإلهي من القذارة. والحقيقة أنَّه لم يكن لدى يسوع المسيح مثل هذا التصوُّر. فقد رأى هذا، أنَّ كل ما هو طبيعي، كل ما هو من الأب، فهو جميل وبديع. وهذا المبدأ عينه يسود في الديانات الهنديَّة. ولكنْ ما يؤسف له أنَّه لا يسود هنا إلاَّ في هذا الميدان. أمَّا بالمعنى الواسع، أي بمعنى أنَّ الناس كلهم سواء، فإنَّ هذا المبدأ «لا يعمل».

فالهندوسيَّة تقوم على الكاستات ويرتبط وجودها بها. وهذه الكاستات تكلس عمليَّاً المجتمع الهندي المعاصر وتبقيه عند حالته البدئيَّة الأولى، وتمنعه من أنْ يتطوَّر كجسم واحد.

ويقسِّم نظام الكاستات هذا سكان الهند إلى حوالي الثَّلاثة آلاف مجموعة معزول بعضها عن الآخر عزلة صارمة، وتطوِّق حياتها كثرة من شتَّى المعايير ومختلف ضروب المحرَّمات، وتحمل هذه طابعاً فلسفيَّاً، كما تحمل أيضاً طابعاً معيشياً صرفاً. وتتذكَّر هذه المحرَّمات من حيث تفاهتها بالمحرَّمات التلموديَّة.

وتقوم المهمَّة الأسمى والرَّئيسة للهندوسيَّة في منع أيّ تواصل بين الكاستات العليا النَّقية المقدَّسة والكاستات الدنيا الدَّنسة. أمَّا يسوع المسيح الذي عدَّ نفسه ابن الإله الآب (وعلَّمنا أن نخاطب الإله بصفته أباً، معطياً لنا صلاته «أبانا الذي...»)، فلم يأنف من التواصل مع أدنى الساقطين الواقعين في قاع المجتمع. ولكنَّ آلهة الهندوسيَّة قذفت بالإنسان إلى جهنم هنا على الأرض منذ اللحظة التي يرى فيها النور. فكيف استطاعوا أنْ يعلِّلوا هذا الظلم؟ ومن الذي رموا عليه بمسؤوليَّة هذا الذنب؟ لقد ألقوا بالذَّنب على الوليد نفسه. فالآلهة قالوا للإنسان

الذي ولد لتوّه، إنّه استحقّ أنْ يولد في كاستا وضيعة، ويعاني طوال حياته. ولكنْ متى ارتكب هذا آثامه؟ فجاءت إجابة الآلهة حاذقة: في الحيوات السابقة. كل شيء بسيط واضح. فكل ما أنشأه الإقطاع الديني تقع مسؤوليّته على عاتق القنّ المستعبد. إذ ظهر أنّ هذا المشاكس اقترف آثاماً في حيواته السابقات، مع أنّه لا يذكر شيئاً من هذا قطّ. فهو لا يعرف أيَّ شيء عن آثامه المزعومة، بل لا يذكر أنّه عاش أيَّ حياة أخرى. إذن كيف يستطيع الإنسان أنْ يندم على إثم إذا كان لا يعرف عنه شيئاً؟ لا يجيب آلهة الهندوسيَّة على هذا السؤال.

ولا يقع خارج الكاستات سوى النُسّاك. وينبغي على كل إنسان أنْ يقضي الرُبع الأخير من حياته ناسكاً. ويكرِّس الرُبع الأوَّل منها للدِّراسة والتَّعلُّم. وينتهي هذا الرُبع في سنّ السَّادسة عشرة. أمَّا الرُبع الثَّاني فيجب أن يقضيه ربُّ منزل: الزواج وإنجاب الذُرّيَّة، وإعالة العائلة، وتربية الأطفال. ويبدأ الرُبع الثَّالث من الحياة عندما يؤدِّي الفرد واجبه كمواطن، ويكبر أبناؤه وينجبون. وعندما يحقِّق الفرد هذا يمكنه عندئذ أنْ يهجر الحياة الدُّنيا. فينعزل في الغابة ويعيش فيها ناسكاً زاهداً يتطهَّر من كل دنس وإثم. ويجب عليه لكي يحقِّق ذلك أنْ يستغرق في تأمُّلات مباركة، ويؤدِّي الفرائض الدينية، ويروِّض الجسد الفاني. ويستطيع الإنسان أنْ يعيش هذا الطَّور من حياته على القوت الذي يجود به سكّان القرى المجاورة. أمَّا هو نفسه فإنَّه ينتقي لنفسه كوخاً في الغابة ويقيم فيه. هكذا قضي على الإنسان أنْ يصرف الرُبع الثَّالث من حياته. وفي الطَّور الأخير من حياته. ينبغي على الإنسان أنْ يترك الكوخ، ويحمل عصاة ويجوب الآفاق متحرِّراً من الحاجات كلها ما عدا عصاته وثوبه الخلق، وماعوناً للصدقات.

لقد كرَّست الهندوسيَّة نظام العيش هذا بقوانين الكارما، وناموس الواجب الأخلاقي (الدهارما). ففي طور التَّعلُّم والدراسة كانت تأدية الواجب الأخلاقي هي غاية الحياة. وفي طور الحياة العائليَّة الناضجة كان ربُّ المنزل يسعى لتحقيق الرَّخاء المادِّي، وبناء السُّلطة، والاستمتاع بالحبِّ الحسِّي، ومعرفة اللذَّة. وفي آخر مراحل حياته يغدو هدف الإنسان هو التَّحرُّر من الواقع.

كتاب
الهندوسيَّة المقدَّس وخلق العالم

يرى الهندوس أنَّ كل مؤلف يكتب باللُّغة السنسكريتيَّة أو بأيٍّ من اللُّغات الهنديَّة الحديثة المرتبطة بالدِّين والإيمان، هو كتاب مقدَّس. وتقارن النُّصوص المقدَّسة عندهم بالآلهة من حيث قداستها. وهذه في المنازل تعدُّ آلهة منزليَّة. فيقدِّمون لها الزُّهور، ويسجدون لها. بل يرفعون لها الصَّلوات. وتعدُّ الفيدات أقدم النُّصُوص المكتوبة؛ ثمَّ تليها البراهمنات، فالأوبانيشادات. ولتأويل الفيدات وشرحها، وضعوا مؤلَّفات مساعدة دعوها فيدانغا، أي «أجزاء، أعضاء من الفيدات». وقد تضمّنت هذه معلومات في قواعد اللُّغة، وإقامة الطُّقُوس، والاشتقاق، والأوزان الشِّعريَّة، وعلم الفلك. ثمَّ وُضعت فيما بعد نصوص موجزة في عدد من العلوم الأخرى. وقد دعيت هذه الأخيرة سوترات. وكانت السوترات معدَّة لنقل التَّقليد الشَّفهي. فقد حفظوها غيباً عن ظهر قلب. ولكنَّ السوترات نفسها كانت تحتاج شروحاً وتعليقات من قبل المعلِّم (الغورو). ويكرِّس الجزء الأعظم من السوترات للشَّعائر والطُّقُوس. وثمَّة سوترات تصف القوانين الأساسيَّة للحياة، والواجبات الدينية اليوميَّة الملقاة على عاتق أعضاء الكاستات العليا. وتدعى هذه في معجم الكلمات الهندوسيَّة: دهارما - سوترا. ويجب على كل هندوسيٍّ أنْ يلتزم بدهارماه: ويؤدِّي واجبه الذي تفرضه عليه قوانين التَّقسيمات الكاستية.

أمَّا نصوص الشاسترا التَّعليميَّة، فقد وضعت بعد السوترات بزمن طويل. وتحتوي هذه على معارف في شتَّى الميادين. وهي معاصرة ليسوع المسيح زمنيَّاً. لقد كتبت هذه النُّصُوص في صيغة شعريَّة فقط، وكان الغرض من ذلك، هو تسهيل عمليَّة حفظها غيباً. وحتى الدِّراسات العلميَّة في الهند كانت لها صيغتها الشِّعريَّة؛ وبعد حقبة القرون الوسطى كانت الشاسترات لا تزال تعرض الوصايا الرَّئيسة للهندوسيَّة، وقواعد السلوك الأخلاقي. إنَّها الدهارما - شاسترا. وكانت شاسترا «شرائع مانو» (مانو- دهارما- شاسترا)، هي الأشهر

على امتداد قرون كثيرة. وكانت هذه القوانين قد تضمَّنت فرائض على الكاستات، والمشاعات، والأفراد. ولا تزال الهندوسيَّة حتى يومنا هذا تلجأ إلى قوانين مانو بصفتها شرائع ذات هيبة لا تُطال.

وتندرج في الكتاب الهندوسي المقدَّس، كتب قصيدة «المهابهاراتا» الملحمية الثمانية عشرة، وملحمة «الرامايانا»، إضافة إلى البورانات، وكثرة كثيرة من الأناشيد والأشعار الدينية، والأبحاث التي تعالج مختلف قضايا الدِّيانة الهندوسيَّة وفلسفتها. وعلى وجه العموم لم تكن «المهابهاراتا» متَّصلة بالهندوسيَّة أصلاً. فقد أنشئت هذه الملحمة على امتداد ألف وخمس مائة عام. ويعتقدون أنَّ بداية إنشائها كانت في الألف ١ق.م.. وتدخل هذه القصيدة الملحمية كتاب الهندوسيَّة المقدَّس لأنَّ البراهمان أدرجوا فيها كمَّاً كبيراً من شتَّى المشاهد ذات الطَّابع الديني. وكانت هذه خرافات وأساطير، ونصوصاً هندوسيَّة عن فيشنو وشيفا، وسكاندا، وكالي، ودورغا، وسواهم من الآلهة. كما أدخلوا إليها أيضاً تعاليم الدهارما وبعض المؤلَّفات الفلسفيَّة الأخرى. وهكذا حوَّلوا الملحمة إلى بحث تشريعي تعليمي، إلى دهارما - شاسترا.

وثمَّة كتاب يؤلِّف جزءاً مكوَّناً من «المهابهاراتا» يسمَّى «أغنية الرَّبِّ» («بهاغافادجيتا»). وقد عدُّوا هذا الكتاب الأساس الفلسفي للهندوسيَّة. و«بهاغافادجيتا»، أو «جيتا»، هي أغنيَّة للرَّبِّ الإله الذي يعدُّ المبدأ الأسمى للكون. وقد يكون هذا إلهاً حيَّاً ومحبَّاً. ولكنَّه في الوقت عينه إله مطلق. لقد خلق الإله العالم كله من ذاته. وهو إله متعاطف رؤوم؛ يظهر أبداً ويشارك النَّاس حياتهم. ويُعدُّ العالم المرئي نفسه ثمرة لهوه الإلهي. وروح كل إنسان جزيئة من هذا الإله، انعكاس لمكرمته السامية. ولذلك فإنَّ أرواح البشر أزليَّة، لا نهائيَّة ومكلوءة بالفهم والإدراك. أمَّا الميلاد والموت فليسا سوى دورين مختلفين من أدوار وجود الروح. والهدف الأسمى للروح، هو التَّحرُّر من الآلام (من السنسارا). فالمجتمع الهندي القائم على نظام الكاستات المخالف لقوانين الطَّبيعة، يتألَّف من كثرة كثيرة من الأفراد المعذَّبين. وتبدأ آلام الفرد في الهند لحظة مولده وتستمر حتى آخر لحظات حياته. ولذلك فإنَّ فلسفات الهند ودياناتها كلها مشغولة بمسألة واحدة: كيف السَّبيل إلى الخلاص من تلك المعاناة. فبدلاً من أنْ يعيش الإنسان وفق قوانين الطَّبيعة، وفق قوانين الإله، ابتكر لنفسه قوانين أخرى وأكَّد على أنَّها هي القوانين الإلهيَّة، إنَّ الإنسان يشوِّه حياته بتلك القوانين - المحرَّمات، ولا يحلم إلاَّ بالخلاص من معاناته. والأمر أكثر من صعب، لأنَّه حتى لو تخلَّص من الحياة، فإنَّ

الإنسان لا يتخلَّص من آلامه، لأنَّها سوف تلاحقه في حيواته الآتية. لقد نصب الإنسان لنفسه شركاً.

وترشد «الجيتا» إلى طريق الخلاص من الآلام. إنَّها في التركيز، والتَّأمُّل وفعل الخير بنكران ذات، وخدمة النَّاس. ولكنَّ العنصر الأهمَّ يتمثَّل في حبِّ الإله حبّاً شديداً خالصاً من أيِّ غرض. فهذا الحبُّ هو وحده القادر أكثر من أيِّ شيء آخر على تنقية القلب وتوجيه فكر الإنسان إلى المعرفة الأسمى. وتحتوي «المهابهاراتا» على مجلَّد تاسع عشر إضافي. وهو مكرَّس لكريشنا وحياته وأعماله. ونذكِّر في السياق أنَّ كريشنا هو تجسيد فيشنو.

كما تندرج في كتاب الهندوسيَّة المقدَّس قصيدة ملحميَّة أخرى، هي «الرامايانا». وكانت هذه قد أُنشئت شفهيّاً منذ أزمنة الفيديَّة، وفي القرنين ٥-٤ق.م.، جمعت «المهابهاراتا» في الشَّطر الشَّمالي من وادي نهر الغانج، و«الرامايانا» في شطره الجنوبي، ويعدُّ راما بدوره واحداً من تجسيدات فيشنو.

وتعدُّ البورانات أيضاً، نصّاً من النُّصُوص المقدَّسة. وهي روايات قديمة: مجموعات من الأساطير، والخرافات، والإرشادات الدينية. وتحتوي البورانات على كل شيء، بدءاً من الحكايات السحرية حتى الأبحاث العلميَّة المتخصِّصة، ومن الإرشادات الطُّقُوسيَّة حتى وصف دروب الحجاج. ويحتوي بعض البورانات (ستهالا-بورانات) التَّاريخ الأسطوري للمعابد وسواها من الأماكن المقدَّسة الأخرى. وأنشئت في القرون الوسطى كثرة كثيرة من الأشعار الدينية. وقد اشتهر منها ١٢ مجموعة من الأناشيد المقدَّسة التي ألَّفها ٦٣ شاعراً من شعراء جنوبي الهند في ذلك الزَّمن، وليس في النُّصُوص المقدَّسة وصف متماثل لبناء العالم، وخلقه، وفنائه. وأكثر التَّصوُّرات شيوعاً، هو التَّصوُّر الآتي: لم يكن في البدء سوى الكاوس (= الخراب الكوني. م.) يعمه في ظلام دامس. ثمَّ ظهرت المياه من الكاوس. وأنجبت هذه بدورها النَّار. ثمَّ خلقت طاقة الدفء الجبَّارة بيضة ذهبيَّة. بيد أنَّ الزَّمن لم يكن قد ظهر بعد. وعامت البيضة في مياه المحيط الذي لم يكن له شاطئ ولا قاع. وبعد عام ظهر الوالد الأوَّل براهما من البيضة. لقد كسر براهما البيضة الذهبيَّة، فانشطرت هذه إلى قسمين: تشكلت السَّماء من القسم الأعلى، والأرض من القسم السُّفلي. ووضع براهما المكان الجوِّي بينهما. وبدأ حساب الزَّمن منذ تلك اللحظة. ويدعى براهما بالموجود بذاته، لأنَّه كان موجوداً منذ الأزل ولم يخلقه آخر.

وصنع براهما بعد ذلك روحاً حيًّاً. وخلق إضافة إلى ذلك الفكر والعناصر الخمسة العظمى: الهواء، والنَّار، والماء، والأرض، والأثير. وبعد هذا كله خلق براهما الآلهة، والذَّبيحة الأزليَّة، والفيدات الثَّلاث، والكواكب، والأنهار، والبحار، والجبال، والبشر. كما خلق الكلام، والفرح، والشَّغف، والغضب. وشيئاً فشيئاً أخذت تظهر بعدئذٍ الوحوش، والطيور، والحشرات، والعفاريت، والنَّباتات، وما شابه، أي كل ما هو موجود على الأرض الآن. أمَّا فيما يتعلَّق بالكون كله، فإنَّه لا متناهٍ ويتألَّف من كثرة من العوالم. ولكل عالم منها بدايته، ووجوده، ونهايته. وحياة الكون شبيهة بسلسلة متَّصلة من العوالم التي تظهر وتسود. ولا يشكل عالمنا سوى جزيئة هزيلة من الكون.

وتتعاقب في الكون عصور سكون وعصور نشاط. ويساوي عصر النَّشاط يوماً واحداً من أيَّام براهما. وهو يدعى أيضاً «كالبا». وفي بداية كل كالبا يستيقظ براهما ويخلق العوالم الثَّلاثة: السَّماوي، البشري، والعفريتي. وفي آخر عصر النَّشاط يغفو براهما، وتتحوَّل العوالم التي خلقها إلى خراب. أمَّا الكائنات الحيَّة التي لم تتخلَّص من آلامها حتى نهاية عصر النشاط، فإنَّ براهما يبتلعها.

وتتألَّف كل كالبا من ألف من القرون العظمى (ماهايوغا). وتتألَّف كل ماهايوغا من أربعة عصور: كريتا، وتريتا، ودفابارا، وكالي. وكل عصر من هذه العصور أقصر من الذي سبقه. وتتوافق أطوالها والنِّسبة ٤ : ٣ : ٢ : ١. فيمتد العصر الأوَّل كريتا يوغا «العصر الذهبي» ١٧٢٨٠٠٠ سنة أرضيَّة. إنَّه حقاً عصر ذهبيٌّ. فالإنسان يعيش فيه طوال ٤٠٠٠عام. وعلى امتداد هذا العصر الطَّويل تسود قوانين العدل والواجب. ويقوم في أساس التعامل بين الناس الصدق، والاحترام، والتعاطف، والترحاب. ويعيش الناس فيه أصحاء، منعمين، مكتفين من كل شيء. ثمَّ يليه العصر الثاني، عصر التريتا يوغا، الذي يطول ١٢٩٦٠٠٠ سنة أرضيَّة. في هذا العصر يتوارى الصدق شيئاً فشيئاً. وعلى الرغم من أنَّ النَّاس على وجه العموم يلتزمون بالواجب، إلاَّ أنَّ النَّوازع الذاتيَّة أخذت تظهر في سلوكهم. وهذا ما أفضى إلى ظهور النِّزاعات والخلافات. بيد أنَّ عدد الخطاة في هذا الوقت أقلُّ بكثير من عدد الصَّالحين. أمَّا في العصر الثَّالث عصر الدفابارايوغا، فإنَّ الفضيلة في النَّاس أقلُّ بمقدار الضعف. ولا يطول هذا العصر سوى ٨٦٤٠٠٠ سنة أرضيَّة، تكون السيادة إبانها للخداع، والنِّزاع، والغدر. بيد أنَّ فريقاً من النَّاس يحافظ على نقاء سريرته. ويطول العصر الرَّابع، عصر الكاليوغا ٤٣٢٠٠٠ سنة أرضيَّة. إنَّه العصر الأخير، عصر

الانهيار العام، عصر الإثم، الذي لا يبقى في العالم خلاله سوى ربع الفضيلة التي كانت تسم العصر الأوَّل بطابعها. فتغلب الكاستات الدُّنيا بين النَّاس: الإيغودري والخدم. وهؤلاء كما هو معروف عن مثل هذه الكاستات، منافقون، دجَّالون، فقدوا كرامتهم وغرقوا في النِّزاعات والخصومة. وهم لا شك تاعسون. يعيشون في مدن مليئة باللُّصوص، والمحتالين، والنصابين، والقتلة. نساؤهم شبقات قذرات. يتسلَّطن على الرِّجال وينجبن كثيراً من الأطفال. في هذا العصر يضطهد الحكَّام المواطنين. وتغيِّر الطَّبيعة طباعها: تتوالى الكوارث الطَّبيعيَّة واحدة إثر الأخرى. وتقع حروب مدمرة تعقبها مواسم جفاف. فيعاني النَّاس معاناة شديدة ولا أمل لهم بالخلاص. وبانتظارهم نهاية مريرة، نهاية العصر الأخير، التي سوف تتقدَّمها علامات مريرة: مائة عام من الجفاف تظهر بعدها في السَّماء ثماني شموس تمتصُّ رطوبة الأرض كلها في لحظات. وتبدأ النَّار تلتهم كل شيء على الأرض، إذ تحملها الرياح من مكان لآخر. ولن تكتفي النَّار بحرق هذا العالم، بل سوف تلتهم العالم السُّفلي أيضاً. فتتجمَّع بعد ذلك غيوم سوداء كثيفة، تذكِّر أشكالها بأشكال الفيلة، لكنَّ خراطيمها صواعق. وسوف تتفجر هذه الأخيرة في لحظة واحدة، فتطلق الشَّآبيب التي سيتواصل انهمارها على العالم طول اثني عشر عاماً. فيغطِّي الماء تحته كل شيء. ثمَّ ينهي براهما المسألة كلها، إذ يظهر عائماً فوق سطح الماء، في زهرة لوتوس، فيبتلع الرياح والغيوم. ويبتلع كل ما كان قد خلقه يوماً، بما في ذلك الآلهة والبشر. ثمَّ يستغرق في نوم عميق لكي يرتاح، ولن يستيقظ قبل لحظة الخلق الثَّالي الجديد.

ووفق الحسابات الهندوسيَّة إنَّنا نعيش الآن في النصف الأوَّل من الكاليوغا. فقد مضت من هذا العصر ستَّة آلاف عام، لأنَّ الكاليوغا بدأت في منتصف ليلة ١٧ إلى ١٨ شباط من العام ٣١٠٢ق.م.، حسب التَّقويم الأوروبي.

ولكنَّ لوحة العالم الموصوفة هنا: خلقه، وتدميره ليست اللَّوحة الوحيدة، فيروى في واحدة من الأساطير الفيديَّة مثلاً، أنَّ إله الكون قد ظهر من البيضة الكونيَّة الذهبية التي تعدُّ رمزاً للنَّار، واتَّخذ شكل الإنسان الأوَّل بوروشا. وكلمة «بوروشا» نفسها تعني: إنسان، وسرعان ما شطر بوروشا نفسه إلى قسمين: أُنثى وذكر. ثمَّ ظهر لهما أبناء من إناث وذكور، وظهرت البشريَّة. وبعد ذلك صنع بوروشا وزوجته فيراج، الحيوانات والمخلوقات الحيَّة الأخرى كلها.

وتقول الأساطير الأحدث عهداً، إنَّ براهما خلق العالم. وأنشأ نظام الكاستات بنفسه. ولذلك عدُّوا هذا النِّظام أبدياً ومقدَّراً للأزمنة كلها.

وفي أساطير هندوسيَّة أخرى يُنسب خلق العالم إلى مانو. ومانو هذا مثله نوح التوراتي، عاش الطوفان الكوني ونجا منه. فقد صنع فلكاً وضع فيه الصدِّيقين السَّبعة العظام، وبذور النَّباتات كلها. أمَّا الحيوانات فقد خلقها مانو بعد الطوفان.

ومن المفيد أنْ نقول بعض الكلمات الأخرى عن فلسفة الهندوسيَّة. فقد تطوَّرت هذه تطوُّراً مغايراً تماماً لتطوُّر الفلسفة الأوروبية، أي عبر نفي وجهات النَّظر الفلسفيَّة السَّابقة. لقد كان الذي جرى في الهند يشبه ما جرى في أوروبا إبان العصور الوسطى، عندما لم يسمح المفكِّرون لأنفسهم بأكثر من تعليل مؤلَّفات القدماء: أفلاطون، وأرسطو، وهيراقليط والتعليق عليها؛ فقد عدُّوها صحيحة بالمطلق ولا عيب فيها. ولم تعبر الهند زمن القرسطويَّة بعد. وليس هذا سوى نتيجة للتقسيم الكاستي للمجتمع لأنَّ الشريان الرَّئيس الذي يغذِّي عقل الأمَّة مغلق بإحكام ولزمن طويل.

فليس في الهند الآن مدرسة فلسفيَّة واحدة تعارض الهندوسيَّة، بل يسعى كل منها جهده ليعلِّل صحَّة موضوعاتها الأساسيَّة. لقد بدأت الفلسفة عندما فكَّر الإنسان لأوَّل مرَّة ببناء العالم المحيط به، والمكانة التي يشغلها هو نفسه في هذا البناء. ولذلك فإنَّ الفلسفة كانت حاضرة في أناشيد الريغفيدا المتأخِّرة، والأوبانيشادات، والكتب المقدَّسة الأخرى التي ظهرت بعد ذلك. ولكنَّ هذه الفلسفة لم تتضمَّن أيَّ نقد للرُّؤى الموجودة تجاه العالم المحيط. وإنَّما تضمَّنت تعليلاً لها. لقد كان الفلاسفة الجدد يرغبون في ترسيخ الرُّؤى التي طوَّرها أسلافهم وحسب. ومع الالتزام بمثل هذه المبادئ يصعب كثيراً التَّعويل على التَّطوُّر التَّقدُّمي للمجتمع.

وتعدُّ السوترات مصدر النُّظم الفلسفيَّة الهنديَّة كلها. وقد رأى الفلاسفة مهمتهم الأساسيَّة في التَّعليق على نصوص السوترات. وغالباً ما صيغت تلك التَّعليقات في مجادلات، وحوارات. وكانت تلك المجادلات في حينها واقعاً. إذ كانوا يعدُّون لها إعداداً مسبقاً، وغالباً ما كانت تدور بحضور الملك وحاشيته. بيد أنَّه كان محرَّماً أنْ يُنطق في تلك المجادلات بأيِّ كلمة ثوريَّة. وكان كل شيء يفضي إلى تأكيد ما هو معروف منذ زمن. ولذلك ليس غريباً أنْ ظهرت المدارس الفلسفيَّة كلها في وقت واحد. وكانت تتطوَّر في تفاعل وثيق مع بعضها بعضاً. لقد كان فلاسفة المدارس كلها يحلِّلون الحقائق، والموضوعات التي كانوا يتلقَّونها أثناء رؤيا، نتيجة لبلوغ الحقيقة ببصيرة داخليَّة. وكانوا

يؤكِّدون على أنَّ البصيرة الروحيَّة الدَّاخليَّة كالشُّعاع الذي يضيء المكان الدَّاخلي فيجعله مرئيّاً وواضحاً. والهدف الرَّئيس في الفلسفة كما في الدِّين، هو التَّحرُّر من الآلام، وتحديد الطَّريق التي تقود إلى ذلك التَّحرُّر.

ومع بداية التَّاريخ الميلادي تقريباً، كانت قد تشكلت ست مدارس فلسفيَّة رئيسة في الهند. لكنَّ جذورها كلها تغوص عميقاً في التَّاريخ القديم، في فلسفة الفيدات ولوحة العالم البراهمنيَّة. ولم تكن تلك المدارس الفلسفيَّة يعارض بعضها الآخر من حيث الاستنتاجات والخلاصات. وكل ما في الأمر أنَّ كلاً منها كان يعالج مسائله ومعضلاته الخاصَّة. كما كان لكل مدرسة ونظام فلسفي حقل نشاطه الخاص به، يزرعه بمعارفه. وما يثير الفضول أنَّ النُّظم الفلسفيَّة السِّتَّة توزَّعت على ثلاثة أزواج يدرسونها هكذا، أزواجاً: سانكهيا - يوغا، ونيايا - فايشيشيكا، وفيدانتا - ميمانسا.

لقد تأسَّست مدرسة سانكهيا الفلسفيَّة على نظام فلسفي أكثر تعقيداً وعمقاً. وكلمة «سانكهيا» معناها «تبصُّر»، «تقدير». وقد استخدم بوذا الموضوعة الأساس لهذا النِّظام الفلسفي. أمَّا مؤسِّس هذه المدرسة فهو كابيلا الذي عاش في القرن ٧ق.م. وحسب تعاليمه أنَّ كل شيء قائم على مبدأين مستقلَّين. المبدأ الأوَّل، هو الطَّبيعة المتغيِّرة أبداً، الواحدة أبداً؛ والمبدأ الثَّاني، هو كثرة من الأرواح الفرديَّة. وتقع الطَّبيعة في حالة وضوح كما في حالة غموض. وفي حالة الغموض تعيش الطَّبيعة حالة توازن القوى الثَّلاث التي تتألَّف منها. فتقيم القوَّة الأولى التَّوازن، والسُّكون، والانسجام. وتحدث الثَّانية الانفعال، والولع، والحيوية. وتبعث الثَّالثة الخمول، والبلادة، واللامبالاة. وهذه القوى الثَّلاث متحايثة أبداً. فهي تتركَّب من بنى مختلفة وتنتج التَّنوُّع اللانهائي للعالم المرئي. وعندما يبدأ عصر كوني جديد، يختلُّ توازن هذه القوى الثلاث ويظهر من الطَّبيعة خمسة وعشرون عنصراً (نوعاً)، هي عناصر الوجود، بدءاً من الإدراك والإحساس بالذَّات، وانتهاء بالعناصر الفيزيائيَّة: الهواء، والنَّار، والماء، والأرض، والأثير.

إنَّ ما يثير الفضول في هذا النِّظام الفلسفي، هو إدخال ومشاهد للعمليَّات كلها لا عمل له. وحسب فيزياء الجزيئات المعاصرة، وميكانيكا الكمِّ، إنَّ كل عمليَّة رصد للعمليَّات تفضي إلى تغيير النِّظام. ولكنَّ المراقب المستدعى لا عمل له. إنَّه مبدأ خالد ملهم. يتميَّز عن الجسم، والفكر، وعن أجهزتنا الحسيَّة ومشاعرنا. ولكنْ هل من ضرورة لوجود هذا المراقب؟ نعم، فهو ليس عاطلاً عن العمل في كل حياة بعينها. بل ينخرط في دورة السنسورا (سلسلة الولادات المتكرِّرة). فيحدث نتيجة لذلك تداخل الإدراك مع النَّفس. لقد وضعت هذه

المدرسة الفلسفيَّة لنفسها مهمات كان حلُّها أمراً حيويَّاً بالنِّسبة لعصور البشريَّة كلها: تحرير الإنسان من الجهل، وترويض الأهواء، وتطهير الجسد، وتنقيَّة الفكر. وكان يجب أنْ يساعد هذا كله في نهاية المطاف على بلوغ الحقيقة.

تقوم مدرسة اليوغا الفلسفيَّة على نصٍّ «اليوغا-سوترا» وكثرة من التَّعليقات على هذا النَّصِّ. وتدلي هذه المدرسة الفلسفيَّة بدلوها سويَّة مع مدرسة سانكهيا التي تحدَّثنا عنها قبل قليل. وهذا يعني في الواقع العملي أنَّ الأساس النَّظري لليوغا يتكوَّن من نظام ساكهيا الفلسفي. وحسب نظام اليوغا إنَّه لا يمكن فهم العالم إلاَّ بمساعدة تمارين نفسيَّة فزيويولجيَّة معيَّنة. فطريقة بلوغ الكمال هذه، هي التي تسمح بإعادة تحويل العمليَّات النفسية (الأفكار، الانفعالات، الأحاسيس) وتجاوز كل ما هو طارئ. ولتحقيق ذلك تقترح المدرسة طريقاً تتألف من ثماني مراحل، هي: الامتناع عن العنف، والكذب، والتَّسبُّب للغير بالأذى، وترك العداوة والكره، والابتعاد عن التَّطاول على ما للغير، والامتناع عن السَّرقة، وعدم إقامة علاقة معيبة مع الفاسدين الذين فقدوا كرامتهم. هذا كله يشكل المرحلة الأولى من الطَّريق. وتتدرج في المرحلة الثَّانية تأدية فروض تطهير الجسد، والانفعالات، والأفكار. وهي تفترض قراءة الكتب المقدَّسة، والتفكُّر المتواصل بما هو إلهي. وتقضي المرحلة الثَّالثة بتنظيم شؤون الجسد، وإتقان اتِّخاذ الوضعيَّات الصَّحيحة للاستغراق في حالة التَّركيز. وتقضي المرحلة الرَّابعة بالتَّحكُّم بالتَّنفُّس وطاقة الجسم. وتفرض المرحلة الخامسة تجريد أجهزة الشُّعور عن موضوعاتها. أمَّا المرحلة السَّادسة، فهي صرف الانتباه عن كل شيء وتركيز الوعي. والمرحلة السَّابعة، هي الاستغراق، أمَّا المرحلة الثَّامنة فهي إدخال الوعي في حالة خاصَّة. وهذه الحالة الأخيرة، هي الحالة التي تتوقَّف فيها العمليَّات النَّفسيَّة كلها ويدخل الفرد فيها حالة الغبطة، الطوبى. إنَّ امتلاك مراحل إدراك الحقيقة الثَّماني هذه، يسمح بفصل الروح عن المادَّة وامتلاك القدرة على التَّسلُّل الوجداني إلى عمق الحقيقة.

وترى مدرسة نيابا الفلسفيَّة، كما المدارس الأخرى، أنَّ غاية الحياة الإنسانيَّة هي الانعتاق. وتتميَّز هذه المدرسة عن المدارس الأخرى بأنَّ أتباعها يبرزون بصورة خاصَّة أهمِّيَّة حالة التَّأمُّل بالنِّسبة لوعي الواقع الحقيقي. وتعطى الأهمِّيَّة الأولى في هذا السِّياق للمنطق وقوانينه. ووفق هذه الفلسفة أنَّ للمعرفة أربعة أنواع من المصادر البسيطة المستقلَّة. وهذه المصادر هي الانطباع، والاستدلال المستند على الإظهار؛ والتشبيه، أو بمعنى آخر تحديد صلة الكلمة بالموضوع (الشَّيء) المشاهَد لأوَّل مرَّة؛ ثمَّ القرينة اللفظيَّة. لقد تطوَّرت هذه المدرسة الفلسفيَّة

وتحوَّلت في آخر المطاف إلى منطق عندما ظهر في القرن ١٣م. بحث غانغيشا: «تاتفاتشينتاماني».

وتطوَّرت داخل أُطر مدرسة فايشيشيكا، التَّعاليم المكرَّسة للوجود. وأبرزوا وفق هذه التَّعاليم ستَّة أنواع للوجود وجوهره، هي: الماهيات، وكيفيَّاتها، وحركتها، والعام، والخاص، والجوهر الدَّاخلي. وتعدُّ هذه المدرسة الفلسفيَّة قريبة جداً من مدرسة نيايا. فلا يجمعهما فقط التوجُّه الفلسفي المشترك، بل والاتفاق في المنطق وفي نظريَّة المعرفة. ولذلك كان طبيعيَّاً أنْ تندغم المدرستان في آخر المطاف وتشكلان مدرسة واحدة. ففي القرون ٥-٧م.، وحَّدت المدرستان جهودهما في الصِّراع ضدَّ البوذيَّة.

أمَّا مدرسة فيدانتا (= «نهاية الفيدات»)، الفلسفيَّة، فهي تستند إلى نصوص الأوبانيشادات: «بهاغافادجيتا»، و«بهاغافاتا - بورانا»، و«براهما - بوترا». وقد تواءمت تحت تسمية فيدانتا نفسها، مدارس فلسفيَّة متباينة تماماً، خاضت فيما بينها مساجلات طويلة. ولم يكن يجمع بينها سوى الأساس الديني الذي استندت إليه كل منها، والعمل على حلِّ المسألة الفلسفيَّة عينها: كيف يتوافق الإنسان مع المطلق، وما الذي يمثله المبدأ المطلق والعالم المحيط بالإنسان، وكيف يمكن التَّخلُّص من العودة ثانية إلى هذا العالم. وكانت أشهر مدارس الفيدانتا قد رسمت اللَّوحة التَّالية للعالم: مبدأ كل شيء هو الإله الواحد (براهمن). فهو إله قريب، وربٌّ (إيسفارا) وما عدا الإله الواحد ليس ثمَّة شيء. ثمَّة فقط العالم المرئي الذي صنعه الإله بقوَّته السِّحريَّة (مايبي)، التي تنبعث منه. وليس العالم الذي يدركه الإنسان سوى عالم وهميٍّ. أمَّا العالم الحقيقي، العالم الواقعي، فهو البراهمن، الذي لا يدركه سوى الفلاسفة والحكماء. ولكنَّ إدراكهم له ليس ذهنياً، لأنَّه لا يتحدَّد بالكلمات. فروح الإنسان في العالم المعتاد (الوهمي)، تنسى جوهرها الحقيقي، الإلهي. ولا يعيد روح الإنسان إلى الاتِّحاد مع الإله الكلي القدرة، الكلي المعرفة براهمن، سوى انعتاقها الحقيقي.

وعالجت مدرسة ميمانسا الفلسفيَّة الدَّور المميَّز الذي يؤدِّيه الطَّقس. فقد افترض مفكِّرو هذه المدرسة أنَّ الطَّقس أكثر أهمِّيَّة بالنِّسبة لوعي الحقيقة من التَّفكير المنطقي. وتستند المدرسة إلى الاعتراف بالوقار المطلق للفيدات. وما يثير الفضول أنَّ هؤلاء الفلاسفة رأوا أنَّ الفيدات لم تصدر عن إله أو عن إنسان، بل عن مصدر ما لا شخصيَّة له. ولذلك فهي عصيَّة على أيّ خطأ ممكن. ولكنْ ما هو هذا المصدر إذا لم يكن بشريَّاً ولا إلهيَّاً؟ إنَّ طقس الذَّبيحة هو الطقس الأساس في الهندوسيَّة. فالذَّبيحة هي بالذَّات التي تخلق الكون،

وهي التي تعيد خلقه مرَّة بعد مرَّة، وتملؤه كما تُملأ السَّاعة، وتزوِّده بالطَّاقة الكامنة. وبالنِّسبة للفرد العادي فإنَّ الذَّبيحة هي التي تمنح حياته البائسة مغزى سامياً. ولكنْ يجب أنْ تلتزم شعائر الطقس التزاماً صارماً بفرائض التَّقليد المقدَّس. وكما سبق ونوَّهنا أنَّ هذه المدرسة الفلسفيَّة، أو بمعنى أدقّ، المدرسة الدينيَّة - الفلسفيَّة قد استغنت عن الإله استغناءً تامَّاً. ولا يعيقها هذا عن الانخراط في الهندوسيَّة التي تجيز كل شيء: الإيمان بإله واحد، والإيمان بكثرة من الآلهة، أو عدم الإيمان بأيِّ إله كان. مع أنَّ هذه الحالة الأخيرة يستبدل فيها بالإلهة مبدأ توأم ما. ولكنْ لماذا لا يدعى هذا المبدأ التَّوأم إلهاً، لا سيما أنَّ المعارف كلها على الإطلاق صدرت عنه. على أيِّ حال إنَّ طرح الأسئلة المنطقية في الهندوسيَّة أمر لا طائل منه. والآن، بما أنَّه ليس ثمَّة إله، فقد فرض على الإنسان أنْ يسجد للذَّبيحة. وفي هذا يتلخَّص واجب الإنسان: تأدية فرائض التَّقليد المقدَّس للطقس دون نقصان أو زوغان. وتثير هذه المدرسة اهتمامنا أيضاً لأنها لم تعترف بانتقال الروح. فقد عدّت أن الهدف الأساس للحياة، هو تحقيق النَّجاحات في هذا العالم، والولادة من جديد في السَّماء. وبصرف النَّظر عن أنَّ ميمانسا لم تعترف بتكرار مرَّات العيش على الأرض، إلاَّ أنَّها نجحت في أنْ تنخرط في الهندوسيَّة.

أمَّا المدرسة الدينيَّة - الفلسفيَّة تشارفاكي فهي لم تتوقَّف عند حدود عدم الاعتراف بوجود إيِّ إله وحسب، بل رأت أيضاً أنَّه ليس ثمَّة أي ضرورة على الإطلاق لإقامة أيِّ طقوس كانت. كما رفضت هذه المدرسة الفلسفيَّة الكتب المقدَّسة كلها. ومع ذلك كله أدرجوها في الهندوسيَّة.

الفصل الثاني عشر

الجنَّة وجهنَّم في الهندوسيَّة

يرتبط حرق جثث الموتى في الهند بعبادة إله النَّار أغني. فأغني وحده الذي يمتلك «طريق الآباء»، طريق الأموات. وهو الذي يحدِّد البرَّ والإثم والشَّرَّ في كل متوفَّى. ويجري التقسيم وفق مبدأ في غاية البساطة: يتحوَّل الجسد إلى رماد، وينتقل إلى هذا الأخير كل ما هو آثم وناقص، بينما تحمل النَّار الروح إلى العالم الآخر. فتتطهَّر الروح بالنَّار وتعود لتَّتحد مع إهابها السَّابق في العالم الآخر. وهناك يستقبل الأسلاف الروح بفرح وحبور. وفي ذلك العالم تتحقَّق الأمنيات كلها. وتسير الحياة عبر تحقيق مباهج جديدة.

ولكنَّ تعاليم الهندوسيَّة تقول، إنَّه إلى جانب هذه الجنَّة التي يعيش كلهم فيها دون استثناء سعيد مغبوط (لأنَّ الآثام كلها بقيت على الأرض)، ثمَّة جنَّة أخرى، وبكلمة أدق، جنَّة إله آخر، جنَّة الإله إيندرا. أمَّا الجنَّة التي وصفناها هنا فهي جنَّة الإله ياما. كما تتحدَّث الكتب المقدَّسة عن تنويعات أخرى للجنَّة. ولكنَّها كلها في آخر الأمر مستقرَّات للأموات. ولم يكن الوصول إلى هناك بالأمر الصَّعب، لأنَّهم لم يروا في الجنَّة مكافأة على البرِّ والتَّقوى في الحياة الدُّنيا. لقد تصوَّروا الجنَّة زاوية النَّعيم التي يمضي إليها كل ميت، لأنَّ النَّار (أغني) تطهِّره من الآثام والدَّنس.

ولكنْ مع سير الزَّمن تبدَّلت تصوُّراتهم عن العالم الآخر والحياة الأخرى. فلم يعد الإنسان ليرضى بأنْ يجد نفسه بعد الموت في المكان عينه مع أقرانه الآخرين، مع أنَّ وجوده ذاك كان في الجنَّة. لقد أخذ الإنسان يسترق النَّظر بحسد واضح إلى الأماكن التي يقيم فيها الآلهة. وعليه فقد ظهرت تصوُّرات جديدة عن «عالم الأسلاف». فلم يعد هذا «مملكة الأسلاف» بحياة النَّعيم التي يعيشونها، بل تحوَّل إلى النَّقيض تماماً: إلى جهنَّم. ويمكننا ألاَّ نحار لهذا التَّغيير الجذري في تصوُّراتهم عن أماكن حياة النَّاس بعد الموت. ولكنْ مع هذه التَّباينات كلها، فإنه ثمَّة منطق معيَّن هنا. فمن المعروف أنَّ النَّاس قادرون على أنْ يجعلوا من

أيِّ مكان يقيمون فيه جهنّماً. وهكذا ظهر مفهوم جهنَّم في تصوُّرات الهندوس القدماء بكل أهواله، وآلامه، وإهاناته، وانتهاكاته، وأشباحه. بيد أنَّه من البدهي أنْ يكون التَّصوُّر الأوَّل عن وجود الجنَّة وغياب جهنَّم، هو التَّصوُّر الأصحُّ (بل قد يكون الأصحُّ على الإطلاق) من تصوُّرهم الرَّهيب عن جهنَّم. وحسب بعض التَّصوُّرات أنَّ جهنَّم موجودة لكي يتسنَّى للأموات أنْ يتطهَّروا من آثامهم. فيخضعون فيها لمختلف ضروب الآلام: يضعون الظُّلاَّم والمتعسِّفين في مراجل يغلي الزَّيت فيها، أمَّا مَنْ كان يتعامل مع الحيوانات بوحشيَّة فيرمى لوحوش مخيفة لتمزِّقه إرباً (والحقيقة أنَّهم يتابعون العيش بعد ذلك). وكما أنَّ الجنَّات كثيرة كذلك الجهنَّمات كثيرة أيضاً ومختلفة. وفي كل منها تقنيَّته الخاصَّة للتَّعذيب. فلمن يقتل براهمن مثلاً، ثمة جهنم خاصة معدة بأقصى مستويات الرعب، قاعدتها، أي أرضها نار متوهِّجة، وسقفها مرجل محمَّى. وهناك نماذج جهنَّميَّة أخرى. فمن يقتل الحشرات على سبيل المثال، يقع في جهنَّم يضنيه خدمها بالحرمان من النَّوم. ومَنْ يتزوَّج فتاة من خارج كاستته، فإن عقاباً رهيباً ينتظره: عليه أنْ يعانق في جهنَّمه أشكالاً من الحديد المحمَّى حتى الاحمرار. وثمَّة جهنَّم خاصَّة للقادة الذين ينتمون إلى المراتب العليا. فمن تسبَّب منهم في نشوب حرب أو نزاع، أو صدام على خلفيَّة دينيَّة، فسوف يرمى به في نهر مليء بالقاذورات التي تقزِّز النَّفس.

ومن الوجهة المنطقيَّة، أُعدَّت جهنَّم لكي ينال كل جزاء ما فعل، أي لكي تتحقَّق العدالة. ومن الواضح أنَّ العالم عاجز عن الاستمرار بغير عدالة. ومن المهمِّ جداً الكيفيَّة التي يتحقَّق بها قانون العدالة. إنَّ حياتنا اليوميَّة تُظهر أنَّ قانون العدالة «يتوقَّف عن العمل» في فترات معيَّنة من الزَّمن. ولذلك يقولون، وفي قولهم كثير من الحقيقة، إنَّه لا وجود للعدالة، لا وجود للحقيقة. ولدحض هذا يزيدون من اتِّساع الفاصل الزَّمني. فالمسيحيون والمسلمون يجعلون هذا الفاصل (زمن الإجمال، والتَّكامل) بطول الحياة نفسها. ما يحصل في غضون ذلك، هو أنَّ الإنسان يأثم حياته كلها، لكنَّه لم ينل أيَّ عقاب جزاء آثامه. ولا يعني هذا أي شيء، لأنَّه سوف يلقى عقابه بعد موته.

أمَّا المعتقدات الدِّينيَّة الهنديَّة فإنَّها لا تجمع محصلة زمن حياة واحدة، بل أزمنة حيوات كثيرة تعيشها الروح عينها على الأرض، إلى أنْ يتخلَّص الفرد في نهاية المطاف من دوَّامة تعاقب الحيوات الزَّمنيَّة، ويتحرَّر نهائيَّاً من السنسارا (= توالد الرُّوح). وحسب هذا النِّظام لا يتلقَّى الإنسان عقابه على آثامه في جهنَّم، بل في الحياة الزَّمنيَّة الدَّوريَّة. ففي نظام

نزوح الرُّوح تقع جهنَّم هنا على الأرض، ولا يعاقب الآثم في جهنَّم الأسطوريَّة، وإنَّما في الحياة الواقعيَّة. إنَّ كون جهنَّم تقع على الأرض لهو أمر يشبه الحقيقة. ولكنْ يبقى من غير المفهوم لماذا إذن تبقيها التَّعاليم في السَّماء، في العالم الآخر، في الحياة الأخرى. إنَّه لأمر يناقض نفسه؛ لأنَّه إذا كان الإنسان قد نال عقابه على آثامه الأرضيَّة في جهنَّم، فلماذا يرسل ثانية إلى جهنَّم الأرضيَّة، لماذا يولد من جديد ليكرِّر حياته الزَّمنيَّة. يبدو واضحاً أنَّ هذه التَّصوُّرات عن جهنَّم العالم الآخر، قد تشكلت قبل أنْ يبتكر البراهمن تقسيمهم الحاذق للمجتمع إلى كثرة من الكاستات. وكان ذلك ضروريَّاً بالنِّسبة إليهم لكي يتمكَّنوا من إدارة المجتمع. وقد أكَّد تاريخ الهند على امتداد ألف عام بأنَّهم نجحوا في هذا، مع أنَّ الشَّعب يدفع ثمن ذلك بحراً من الآلام والذُّهول الروحي والنَّفسي. وهكذا يتعارض وجود جهنَّم في الهندوسيَّة تعارضاً مبدئيَّاً مع نظرية انتقال (= نزوح. م.) الروح، أي مع قانون الكارما، بالتَّالي مع الحيتان الكبرى التي تستند عليها الهندوسيَّة (والدِّيانات الهنديَّة الأخرى).

ولكنْ ثمَّة تناقض آخر يرتبط بنظريَّة نزوح الأرواح. فهي تعارض عبادة الأسلاف التي لها قوَّة خاصَّة في الهند. فإذا كان الإنسان لا يتأخَّر طويلاً في العالم الآخر، بل سرعان ما يعود إلى الأرض ليعيش حياته الدَّوريَّة التَّالية، فكيف نحدِّد إذن مَنْ سلف مَنْ. وتنطلق فرائض تبجيل الأسلاف كلها من أنَّ السَّلف لا يعود إلى الأرض في صورة إنسان بعد الموت مباشرة ولا بعد مرور زمن ما. فهو مقيم أبداً في العالم الآخر. فيتَّخذ في الأوَّل حالة روح بلا جسد، ثمَّ بعد أنْ يكتسب جسداً «دقيقاً» يتَّخذ لنفسه مكاناً في جنَّة ذلك العالم. ويقابل هناك أقاربه الذين سبقوه إلى ذلك العالم. والحقيقة أنَّه ليس هو مَنْ يُنبت لنفسه الجسد «الدَّقيق»، وإنَّما يحدث ذلك بفضل التزام ذرِّيَّته التي بقيت على الأرض بتأدية طقوس معيَّنة في الوقت المناسب وبالشَّكل التَّامِّ. أمَّا إذا لم تؤدَّ تلك الطُّقُوس فإنَّ الميت يبقى من غير جسد، روحاً لا مستقرَّ لها. وقد يعود عندئذٍ إلى الأرض في صورة روح ويتحوَّل إلى عدوٍّ للنَّاس، إلى روح شرِّير أفعاله على الأرض شرِّيرة. ولذلك فإنَّ لتأدية الطَّقس (إيكوديشتا) في وقته المحدَّد أهميَّة مبدئيَّة.

لقد كانت عبادة الأجداد في الهند ولا تزال، ذات أهمِّيَّة كبيرة لا من الوجهة الدِّينيَّة والأخلاقيَّة وحسب، بل من الوجهة الأهليَّة والتَّشريعيَّة كذلك. فإذا ما تقاعس الابن عن تأدية طقوس تكريم الأسلاف، يفقد حقَّه في تركة أسلافه. وليس ثمَّة من خيار هنا. فعبادة

الأسلاف هذه تجمع الأحياء والأموات في كل واحد. ولكنْ ليس لهذا كله أي مغزى إلاّ إذا بقي الأسلاف الموتى هناك في العالم الآخر بقاء أبديّاً ولم يرجعوا إلى الأرض من جديد ليكفّروا عن آثامهم التي ارتكبوها في حيواتهم الأرضيَّة السَّابقة. ووفق عبادة الأسلاف، أنَّ الأموات من هؤلاء يتساوون مع الآلهة. ولذلك فإنهم يتوفَّرون على إمكانات حقيقيَّة لحماية أحفادهم الذين على الأرض، وصون عائلاتهم ومواطنهم.

وتضمُّ الهندوسية بين جنباتها تعاليم التشارفاكيين الإلحاديَّة التي ترفض رفضاً مطلقاً وجود الآلهة، ولا تقر أيَّ طقوس أو كتب مقدَّسة.

الفصل الثالث عشر

ديانة السِّيخ

يتلخَّص جوهر الدِّيانة السِّيخيَّة في الكلمات الآتية: «الإله واحد وأزلي. موجود في كل شيء، وفي الوقت نفسه خالق كل ما هو موجود. لا يعرف الخوف ولا العداء. وهو موجود خارج الزَّمن. وخارج الميلاد والموت. ويدرك برحمة غورو».

لقد أسَّس هذه الدِّيانة الجديدة الغورو ناناك. وقد ولد هذا في العام ١٤٦٩م. في قرية صغيرة تقع في غربي البنجاب، تدعى راي بهوي دي تالواندي. ومنذ صغره كان ناناك غلاماً معجزة. تعلَّم اللُّغة البنجابيَّة ثمَّ التحق بمدرسة إسلاميَّة تعلَّم فيها اللُّغة الفارسيَّة التي كانت وقتئذٍ اللُّغة الرَّسميَّة للدَّولة في الهند. وما كان يتعلَّمه التَّلاميذ الآخرون في سنوات، استوعبه ناناك في أسابيع معدودة. ولمَّا بلغ العاشرة من عمره كان ناناك قد صاغ تعاليمه، وأعلنها. وقد حدث هذا في الوقت الذي كان يجب أنْ يؤدِّي الفتى فيه الطَّقس الهندوسي الذي يمنحه حقَّ حمل الشَّريط المقدَّس الذي كان ميِّزة الكاستات العليا في الهندوسيَّة. وكانت تلك المراسم دوماً مراسم احتفاليَّة. لكنَّ الفتى رفض الشَّريط وأعلن أنَّ الولاء للإله يكمن في الإيمان الدَّاخلي العميق. أمَّا الطُّقُوس، بما فيها طقس تقليد الشَّريط فليس لها أيُّ صلة بالإيمان بالإله. لقد نجح مؤسِّس الدِّين الجديد وهو في العاشرة من عمره أنْ يحدِّد جوهر العلاقة مع الإله تحديداً صحيحاً. فالإيمان بالإله وحبُّ الإله هما بالنِّسبة إليه حبُّ النَّاس، كل النَّاس بصرف النَّظر عن الانتماء الكاستي والانتماء الدِّيني. لقد أدرك ناناك أنَّ النَّاس كلهم سواسية أمام الإله: الأغنياء، والفقراء، والهندوس، والمسلمون. وترسَّخت قناعته بموقفه هذا خلال مناقشاته وأحاديثه مع الهندوس ومع المسلمين.

ولكنَّ أيَّ تعاليم وأيَّ دين لا يظهران من الفراغ، وعليه لم يكن ظهور التَّعاليم السِّيخيَّة في البنجاب مجرَّد مصادفة، فهناك بالذَّات ساعدت الشروط الجغرافيَّة على انتشار أفكار نظريَّة جديدة، لأنَّ تيارات دينيَّة متنوِّعة جرت وتخالطت في ذلك الإقليم. وعبر بوَّابة البنجاب تسلَّل الغزاة إلى الهند، وتسرَّبت الأفكار الجديدة.

يقع إقليم البنجاب (ومعنى التَّسمية باللُّغة الفارسيَّة «الأنهار الخمسة»، أي روافد نهر الهندوس الخمسة)، عند ملتقى جنوبي آسيا مع الشَّرق الأوسط. ويحتمي من جهة شمال - شرقي الهند بجبال الهيملايا، ومن الجنوب بالمحيط، ومن الشَّرق بمرتفعات جبليَّة وعرة، ومن الغرب بصحراء تار. وقد تسلَّل الغرباء إلى الهند عبر البنجاب بالذَّات. ولذلك لم يكن سكان الإقليم الأصليون يفارقون أسلحتهم لحظة واحدة.

ففي أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول ق.م. دخل الآريُّون إلى الهند عبر البنجاب، ثمَّ تبعهم الساكيون، فالكوشات وسواهم من شعوب بلدان الشَّرقين الأدنى والأوسط. وفيما بعد عبر المكان الهون البيض. ومنذ القرن ٧م. أخذ الإسلام بتنويعاته كلها يتغلغل إلى إقليم جنوبي آسيا عبر البنجاب. وبات يمكن القول، إنَّ البنجاب وجد نفسه نقطة التقاء ديانتين: الهندوسيَّة والإسلام. ولذلك كان من الطَّبيعي أنْ تنشأ هنا تعاليم متكاملة متوافقة لم تضع أيّاً من الديانتين في مواجهة مع الديانة الأخرى.

لقد ظهرت الديانة السِّيخيَّة في زمن كانت الهند تعيش فيه طوراً عصيباً من تاريخها. ففي القرن ١٥م. كانت تحكم سلطنة دلهي، وهي من أكبر دول آسيا في حقبة العصور الوسطى، كثرة من السُّلالات التي كانت تزيح واحدتها الأخرى. وكان الإسلام هو الدِّين الرَّسمي للدَّولة. بيد أنَّ أكثر سكَّان الهند كانوا من معتنقي الديانة الهندوسيَّة. وكان كل من الديانتين يفرِّخ هرطقات، فالهندوسيَّة ابتلعت حركة بهاكتي الدِّينيَّة - الإصلاحيَّة. وقد قام في صلب هذه التَّعاليم موضوع عن حبٍّ للإله يصل حدَّ الوجد. ولم تكن هناك حاجة لوسطاء: براهمن، لبلوغ ذلك الحب. فالتَّواصل مع الإله، هو شأن خاصٌّ بالمؤمن عينه، ولتحقيق مثل هذا التَّواصل لم تكن ثمَّة ضرورة لإقامة أيِّ شعائر أو مراسم. أمَّا الإسلام فقد أنجب الصُّوفيَّة. ولكنَّ الصُّوفيين طردوا من الهند والبلدان الإسلاميَّة الأخرى، فجاؤوا واستقرُّوا في شمال غربي هندوستان. ونجحوا في تأسيس دولتهم هناك. ولكنَّهم بلغوا دلهي في نهاية المطاف، على الرَّغم من المقاومة التي واجههم السَّلاطين بها.

ويكمن جوهر التَّعاليم الصُّوفيَّة في أنَّه ينبغي بالضَّرورة أنْ تكون الغاية الأسمى للإنسان، هي التَّواصل مع الإله والاتِّحاد به. ولبلوغ ذلك يجب العزوف عن العالم والعيش حياة زهد وتقشُّف. وهذا ما يجب أنْ يمهِّد السَّبيل له الاستغراق في التَّفكير بالإله، وإنشاد الابتهالات، وترديد اسم الإله ويجب أنْ يقود الشُّيوخ أنفسهم عمليَّة نكران الذَّات هذه. ومن الواضح أنَّ هذه الفلسفة أعلنت الفقر أحد طرق الحقِّ.

والحقيقة أنَّ الصُّوفيين دعوا من حيث الجوهر، إلى ما دعا إليه البهاكتي: تعميم الحب والأخوَّة بين البشر على اختلاف انتماءاتهم وإمكاناتهم. وغنيٌّ عن البيان أنَّ مثل هذه الدَّعوة لم يكن لها إلاَّ أنْ تثير لغطاً كبيراً في مجتمع يقوم على مبدأ الانقسام إلى كاستات.

لقد كان النَّبي ناناك شخصيَّة يملؤها الحماس. وكان يصاب في كثير من الأحيان بنوبات ذهول، فينشد الأناشيد ويصدح بالأغاني التي كان يرتجلها في اللحظة عينها. وكان في أغانيه وأناشيده يمجِّد الإله، ويعبِّر عن وجده له. وخدم ناناك لعدَّة سنوات موظَّفاً في عاصمة البنجاب. وفي أحد الأيَّام ولد الرَّجل من جديد. فبعد استحمامه المعتاد في النَّهر، غاص ناناك في الماء ولم يخرج. فظنَّ جميعهم أنَّه غرق. ولكنَّه ظهر في المدينة بعد ثلاثة أيَّام. بيد أنَّه لم يكن يشبه ناناك السَّابق: كانت عيناه تشعَّان ببريق غريب، وحول رأسه تتأرجح هالة من ضياء. لقد كان ينبعث من جسده بهاء إلهي. وبقي ناناك صامتاً عدَّة أيَّام لم ينطق خلالها بكلمة واحدة. ثمَّ نطق بالكلمات الأولى الآتية: «لا للهندوس ولا للمسلمين. ينبغي على الإنسان أنْ يعمل ويتقاسم ثمار عمله مع الآخرين». وهكذا سرعان ما صار ناناك نبيَّاً فترك العمل في القصر وأخذ يجوب الأماكن المقدَّسة الهندوسيَّة والإسلاميَّة على السواء. فزار الأماكن التي دارت فيها أحداث «المهابهاراتا» و«الرامايانا». ولا تزال تتجمَّع في هذه الأماكن حتى في أيَّامنا هذه عشرات ومئات ألوف الحجاج. كما زار ناناك المكان الذي حدثت فيه صحوة بوذا في التيبت. وحجَّ إلى الأماكن الإسلاميَّة المقدَّسة، فزار مكَّة، والمدينة. وعاد عبر بغداد، وكابول، وبيشاور، ومولتان، وسعيد بور.

لقد ارتحل ناناك حوالي الثَّلاثين عاماً. وبات معلِّماً معروفاً (غورو) توافد إليه التَّلاميذ من شتَّى البلدان. وننوِّه في السِّياق أنَّ كلمة «سيخا» تعني «تعاليم». وأخيراً استقرَّ ناناك على الضِّفَّة اليمنى لنهر رافي، وهو أحد روافد نهر الهندوس. وأسَّس هنا مدينة - حصن الأعلى (كورتاربور). وكان النَّبي يرتدي ثياب فلاح، ويحرث الأرض مع زوجته وأولاده. كما كان تلاميذه يفعلون الشَّيء نفسه. وهكذا تأسَّست الطَّائفة السِّيخيَّة الأولى. وقد كان أفرادها كلهم يتقاسمون ثمار عملهم فيما بينهم. وكان يدعى إلى «مائدة الغورو» أي ضيف كان بصرف النَّظر عن انتمائه الكاستي ووضعه الاجتماعي. ولم يكن مثل هذا الأمر مألوفاً عند الهندوس. فقد عدَّ هؤلاء أنَّ مجرَّد سقوط ظلِّ شخص ينتمي إلى كاستا دنيا على طعام شخص ينتمي إلى كاستا عليا إثماً رهيباً لا كفَّارة له!

ولكنَّ السِّيخ حافظوا على تقليدهم هذا طوال خمس مائة عام: لدى كل طائفة، وعند كل مكان من الأماكن السِّيخيَّة المقدَّسة الكبرى، ثمَّة موائد يقدِّمون الطَّعام عليها لكل وافد سواء كان من أهل الدِّيار، أو غريباً عابر سبيل، سيخيَّاً أو من أتباع ديانة أخرى.

ومثله مثل يسوع المسيح، رأى ناناك أنَّ الأهمَّ في مسألة الإيمان موجود في روح الإنسان. لقد قال المسيح. مملكة الله موجودة في داخلكم. وقال ناناك لا يتحدَّد الدَّنس باختلاف مستوى الكاستا، ولا حتَّى باختلاف الانتماء الدِّيني. إنَّه يتحدَّد بحالة الإنسان الروحيَّة. ولم يوافق ناناك يوماً على أنَّ تحقيق النَّقاء ممكن بتأدية طقس الاغتسال في مياه النَّهر المقدَّس. ومن المعروف أنَّ نظام الكاستات الهندوسي يقوم على مفاهيم التَّطهُّر. وعلى وجه العموم كان النَّبي ناناك ضدَّ كل المراسم الدِّينيَّة، ورأى أنَّه ينبغي على الإنسان أنْ يتواصل مع الإله وجهاً لوجه دون وسطاء. وهذا ما رآه المسيح أيضاً.

ولم يعرف السِّيخ خلال تاريخهم كله سوى عشرة غورو. وقد بشَّر هؤلاء بالتَّعاليم وكل منهم يسلِّم الرَّاية لخليفته. وفي القرن ١٧م. أدخل الغورو الأخير (هافيند سينغ) إصلاحات على التَّعاليم وأجرى تغيرات على تنظيم الطائفة. فقبل ذلك كانت السُّلطة في الطائفة بيد الغورو. ولكنْ ابتداء من العام ١٦٩٩م.، انتقلت السُّلطة فيها من الغورو إلى «أخوية الأنقياء» (هالسيه). وكان ينتمي إلى «أخوية الأنقياء» أكثر الأعضاء غيرة على الدِّين، المستعدون لأنْ يضحُّوا بحياتهم في سبيل الطائفة. وكان هؤلاء يُنتخبون انتخاباً. ولذلك لم يُعيِّن الغورو العاشر خليفة له، فانقطعت سلسلة الغورو والأحياء. لقد نقل هافيند سينغ السُّلطة إلى «أخوية الأنقياء»، الهالسيه ودخل هو نفسه قوامها.

في عهد الغورو الخامس تمَّ عرض تعاليم السِّيخ كلها في كتابهم المقدَّس «أدي هرانته» (= الكتاب البدئي). ثمَّ تكامل الكتاب في عهود الغورو الآخرين. فأدخلوا إليه الأناشيد المقدَّسة التي أنشأها الغورو كلهم. ودخلته أيضاً أناشيد كثير من البهاكتي والصوفيين. وقد دوِّن الكتاب بلغة البنجاب. إلاَّ أنَّه يتضمَّن إضافات بلغات شعوب الهند الأخرى.

وبعد أن انتقلت السُّلطة من الغورو إلى «أخوية الأنقياء»، اكتسبت قراراتهم قوَّة القانون إذا ما اتُّخذت بوجود الكتاب المقدَّس «أدي هرانته». فقد كان مثل تلك القرارات مقدَّساً. وكانت الطَّائفة كلها تنتخب الأكثر غيرة، وإيماناً، ونقاءً من أعضائها لعضوية «أخوية الأنقياء». ومع أنَّ قرارات هؤلاء كانت ملزمة لجميعهم، إلاَّ أنَّ

القرارات التي كان يتَّخذها اجتماع الأعضاء كلهم، كانت هي القرارات الأكثر أهمِّيَّة. لقد كان الاجتماع العام لأعضاء الطائفة يُعيِّن أعضاء لجنة الخمسة، وكان من حقِّه عزله. وما يذكر في هذا السياق أنَّ العدد /٥/ عند السِّيخ عدد مقدَّس. لقد كانت حياة الطائفة منظمة وفق قواعد ومعايير مدروسة. وكان طقس التَّكريس في عضويَّة الطائفة، يشبه إلى حدٍّ ما طقس المعموديَّة عند المسيحيين. فعندما كان ينضم أحدهم إلى الطَّائفة، كان يضاف إلى اسمه لقب السِّيخ العسكري (أسد)، ويضاف إلى اسم الأنثى لقب لبوة («كاور»). لقد كان على أعضاء الطائفة أنْ يلتزموا بمجموعة قواعد سلوك خاصَّة حملت اسم «الكا - K الخمسة»: كان على كل عضو من أعضاء الهالسيه أنْ يحمل معه خنجراً (كيربان). هذه هي «K» الأولى. وسواراً حديدياً (كارا). وهذه هي «K» الثَّانية. وشروالاً جلديَّاً قصيراً (كاتشخا). وهذه هي «K» الثَّالثة. وكان عليهم أنْ يحلقوا شعر رؤوسهم ولحاهم (كيش). وهي «K» الرَّابعة. تثبيت الشَّعر تحت العمامة بمشط (كانغها). وهي «K» الخامسة. ولا يزال السِّيخ يلتزمون بهذه القواعد حتى يومنا هذا. والحقيقة أنَّ فريقاً من السِّيخ لا يحلق اليوم شعر رأسه، بينما الفريق الآخر يحلقه. وقد دعا الأوائل أنفسهم: كيشدهاري، أي «حاملي الشَّعر»؛ بينما يدعى الآخرون ساهاد جدكاري. وحرَّم على أعضاء طائفة السِّيخ شرب الخمرة، والتدخين، وتعاطي المخدرات. والانتماء إلى الطائفة طوعي وعن سابق وعي.

وترفض الدِّيانة السِّيخيَّة تعدد الآلهة التي تتَّصف به الهندوسيَّة. فالإله عند السِّيخ واحد أحد. مع أنَّ له أسماء كثيرة: الله، وشيفا، وفيشنو، وبراهما. فليس للإله اسم خاص به وحده. وحسب تصوُّرات السِّيخ أنَّ الإله يقع في حالتين: ظاهريَّة وباطنيَّة. ويتحوَّل الإله إلى الحالة الظاهريَّة كي يتسنَّى للإنسان أن يدركه. ولكنَّ الإله نفسه باطنيٌّ دوماً. ولا يظهر إلاَّ عبر أعماله. والإله الباطني إله كلي القدرة، وأزلي، مع أنَّ العالم الذي خلقه متغيِّر وإلى زوال. إنَّه موجود في الحاضر وموجود في الماضي، وسوف يكون موجوداً في المستقبل. وهو موجود من غير بداية، خارج الزَّمن، خالد ولم يلده أحد. ويحيِّي السِّيخ أحدهم الآخر بالكلمات التَّالية: «حقَّاً خالد». وخلافاً لآلهة الهندوس، فإنَّ إله السِّيخ لا يتَّخذ وجهاً ظاهراً قط. ولذلك يرفض السِّيخ رفضاً قاطعاً تصوير الإله في صورة إنسان.

وتقرُّ تعاليم السِّيخ كما تعاليم البوذيَّة والهندوسيَّة، أنَّ الإنسان يمرُّ عبر سلسلة لا متناهية من الولادات. وتتعلَّق هذه السلسلة بأفضال الفرد المعني وأعماله التي أتى بها في

حياته الدُّنيا. لكنَّ هذه السلسلة عند السِّيخ أقصر منها عند البوذيين والهندوس. فالسِّيخ يعتقدون بأنَّ كل سيخيٍّ مؤمن يستطيع أنْ يقطع هذه السلسلة وينال انعتاقه الروحي والمادي الكامل. بمعنى آخر، يمكنه أنْ يقترب من الإله إلى الحدِّ الأقصى. وكل سيخيٍّ مؤمن يرى أنَّ أسمى أهداف حياته، هو إدراك الإله. ولا يمكن أنْ يدرك الإله إدراكاً تامَّاً إلاَّ عبر الاستغراق المطلق فيه، إلاَّ عبر التَّلاشي فيه. وإذا ما حصل هذا فإنَّ سلسلة الولادات تتوقَّف. وكان ناناك قد صاغ الموضوع الأساس لإيمان السِّيخ بالإله هكذا: «يجب أنْ تكون الآلهة في قلب الإنسان، وهذا هو الأمر الرَّئيس». وهذا ما قال به المسيح مراراً وتكراراً.

ولكنْ كيف السَّبيل إلى إدراك الإله؟ إنَّه الاستغراق. وإذا ما نجح المؤمن في تحقيقه، فإنَّه يستطيع عندئذ أنْ يسمع الإله كموسيقى ساحرة «صامتة». وهذا الارتجاج هو الوحي بعينه. ويساعد على إدراك الإله تكرار ذكر اسمه مرَّات كثيرة. وللإله أسماء كثيرة، مع أنَّه واحد. بيد أنَّ الأسماء الأساس منها مرتبطة بكلمة «حقيقة». ويساعد السِّيخي المتقدِّم على إدراك الإله، مرشده الإلهي: الغورو. فهو حامل الحقيقة الأسمى، والمعلومة التي تصل إليه من لدن الإله. وليس من قبيل المصادفة أنْ يدغم بعض النُّصُوص المقدَّسة الغورو بالإله نفسه. ولكنَّ صوت الإله يؤدِّي دور الغورو في غالب الأحيان. إلاَّ أنَّ الغورو هو حسب الفهم المعتاد له، مرشد روحي. ويؤمن السِّيخ بوجود الكارما، قانون الأسباب والنتائج. فمصير الإنسان يتحدَّد بما يأتيه من أفعال الآن، وبما أتاه منها في تجسُّداته الماضية. ويجب على كل إنسان أنْ يؤدِّي واجبه (دهارماه). وواجب كل إنسان، هو أنْ يحيا حياة مليئة بالحيوية والنشاط والعمل المثمر. عليه أنْ يؤدِّي واجبه كربٍّ منزل. ومن المفيد أنْ نذكر في هذا الشَّأن، أنَّ رؤية السِّيخ هذه تعطي ثمارها في الحياة الواقعيَّة: مع أنَّ عددهم قليل نسبيَّاً، إلاَّ أنَّهم يشغلون مكانة مرموقة في البلاد.

ولكي يتمكَّن الإنسان من إدراك الإله والاتحاد به، عليه أنْ يسير في طريق حبِّ الإله، والإيمان به، والإخلاص له. إنَّ عليه أنْ يمعن التفكير في أعمال الإله. وغنيٌّ عن البيان أنَّه ينبغي على الإنسان أنْ يبلغ هذا كله لكي يتخلَّص من عيوبه. والعيوب الأساسيَّة الأثقل وطأة خمسة. وهي: الغضب، والغطرسة، والطَّمع، والولع، والتَّمسُّك بمغانم الدُّنيا.

ولكنَّ التَّعاليم السِّيخيَّة لا ترى في ترك الحياة الدُّنيا خدمة للإله. فالزُّهد والتَّنسُّك ليسا ضروريين، وليس هذا وحسب، وإنَّما يخالفان قوانين الطَّبيعة، قوانين الإله. ولا يحتاج

الإنسان إلى وسطاء، كهنة لكي يتواصل مع الإله. فالتَّواصل ينطلق من القلب إلى الإله مباشرة.

وعلى ضوء ما تقدَّم، تبدو أهمِّيَّة رفض نظام الكاستات بالنِّسبة لديانة السِّيخ واضحة جداً. وكيف يمكن تبرير وجود الكاستات إذا كنت تؤمن بإله واحد عادل. فالكل أمام الإله سواسية وفق المنظور السِّيخي. ولذلك فهم لا يقرُّون نظام التَّقسيم الكاستي للمجتمع. أمَّا فيما يتعلَّق بإقامة الخدمة الإلهيَّة، فقد كان الغورو الأوَّل ناناك قد كرَّس مبدأ حضور السِّيخ كلهم مواعظ الغورو والمشاركة في إنشاد الأناشيد الإلهيَّة. وكرَّس الغورو الثَّالث أمارداسي تقليد إقامة الولائم الجماعيَّة. وكان أعضاء الطَّائفة يجلسون صفّاً واحداً ويتناقلون من يد إلى يد كأساً مليئة ماء.

كما انعكس رفض السِّيخ للكاستات في شكل بناء معابدهم: لكل معبد أربعة مداخل، وهو عدد الفئات. ويرمز هذا إلى انفتاح الدِّيانة السِّيخيَّة على أعضاء الكاستات كلهم.

ويؤدِّي كتاب «أدي هرانته» الدَّور الرئيس في معابد السِّيخ. ففي كل صباح على مرِّ الزَّمن يضعون هذا الكتاب على مقعد خاصٍّ، حيث يبقى هناك حتى المساء. وفي المساء يطبقون الكتاب ويحملونه بالوقار عينه إلى المكان الذي يبيت فيه. ويقرأ هذا الكتاب دوماً، ولكنْ في المعابد فقط. ومثلها مثل الديانات والمعتقدات الدينية الأخرى كلها، تتوزَّع ديانة السيخ على كثرة من الحركات والمجموعات. لكنَّنا لن نتوقف إلاَّ عند جماعة النيهانغي. وتتألَّف هذه من أعضاء أخوية خاصَّة. يرتدون ملابس زاهية زرقاء - صفراء اللَّون. ولا يخافون الموت، ولذلك فهم مقاتلون شرسون غير هيَّابين. مدجَّجون بالسِّلاح دوماً ولا يخافون أنْ يقتلوا. يحظون بالاحترام، والنَّاس تخافهم. فإذا ما بدرت عنك أي إشارة تعبِّر عن الاستهانة بهم، فإنَّك قد تخسر حياتك بسبب ذلك. ويضع هؤلاء على عماماتهم العالية حلقات معدنية حوافُها حادَّة كالشَّفرة. ويلفُّون هذه الحلقة عند الضَّرورة على إصبعين ويقذفونها بطريقة تجعلها قادرة على اختراق الرَّأس. ويعيش هؤلاء السيخ حياة تشرُّد. ليس لهم عائلة أو عمل. يعيشون على الصدقات التي يتلقُّونها ليس بدافع الإحسان فقط، بل بدافع الخوف منهم أيضاً.

من المعروف أنَّ كل تعاليم دينية تتراجع مع تقدُّم الزَّمن عن مصادرها البدئيَّة. وينسحب هذا على معتقدات السيخ أيضاً. وفي طور معين يظهر المصلحون الذين يحاولون إعادة التَّعاليم إلى صورتها البدئيَّة الأولى، وتنقيتها من الزيادات والتغيُّرات التي أدخلت عليها. وفي أوائل القرن ١٩م. ظهر مثل هؤلاء عند السيخ، وتسمَّى تلك الحركة حركة المذهب الصَّارم، وبمعنى أدق

حركة «حاملي اسم الإله»، وإذا توخَّينا الدِّقَّة أكثر: حركة «الوحيدين الذين يحملون اسم الإله بحق». ويحاول هؤلاء إعادة سيخ اليوم إلى البساطة التي دعا إليها يوماً ناناك مؤسس الديانة السيخية. ولذلك لا يرتدي هؤلاء سوى الثياب البيضاء، وعمامة ذات زاوية حادَّة غير منمَّقة. وهؤلاء مسالمون، يرفضون العنف، ولا يحبُّون الصَّخب الزائد، وليسوا سريعي الغضب. ضف إلى هذا أنَّهم نباتيون ولا يشربون الخمرة قط. ولهؤلاء السيخ سلالتهم الخاصَّة من الغورو الأحياء، وهم لا يعتقدون بأنَّ سلسلة الغورو الأحياء قد انقطعت عند موت الغورو العاشر، بل هي متواصلة، وينقل غوروهم رسالته إلى خليفته بالوراثة. ولا يعقد سيخ هذه الحركة قرانهم إلاَّ على أرض السيخ المقدَّسة: البنجاب، وليس في أيِّ مكان آخر.

ويبلغ عدد أفراد طائفة السيخ في الهند اليوم نحو ١٧ مليون نسمة. ويشغلون المرتبة الرَّابعة في البلاد من حيث عدد السكان، بعد الهندوس، والمسلمين، والمسيحيين.

الباب الثاني

البوذيَّة

الهند قبل بوذا

يبرز العلماء سبعة عصور تاريخيَّة في تاريخ الهند. يمتدُّ الأوَّل منها على مسافة زمنية تقدَّر بأربعين ألف عام. وينتهي هذا العصر بحضارة خارابا. وهي عصر الثقافة البرونزية. وهو العصر القريب من ثقافة وادي الرافدين (الثقافة السومرية)؛ وقد انتهى هذا العصر في أواسط الألف ٢ق.م. ويدعى بالعصر القبل الفيدي، لأنَّ العصر الفيدي يلي بعده مباشرة.

وبيَّنت أعمال السَّبر الآثاري التي جرت في عشرينيات القرن العشرين في شمالي الهند في وادي نهر الغانج، أنَّ حضارة خارابا كانت على درجة عالية من التقدُّم والرقي.

فقد كشفت الحفريات الآثارية التي جرت في تل موهنجو-دارو (=«تل الأموات»)، عن أطلال واحدة من أقدم المدن على وجه الأرض. منازلها مؤلَّفة من طابقين، مبنيَّة من الآجرِّ، شوارعها ضيِّقة متقابلة في زوايا قائمة. وبنيت زوايا المنازل مستديرة لتسهيل حركة النقل والسير. ومدَّت تحت الأرض على امتداد الشَّوارع أنابيب من الفخار تألَّف منها نظام الأقنية. واحتوت المنازل على حجر خاصة بالاستحمام. كما بنيت في المدينة حمامات عامَّة مزوَّدة بأنظمة لتسخين الهواء. وأسفرت الحفريات أيضاً عن العثور على كثرة من المصنوعات البرونزيَّة، والحلي، والأواني الطِّينيَّة التي صنعت على دولاب الفخار. وكانت هذه غنية بالزخرفات ومشوية في أفران خاصَّة، وعثر كذلك على دمى آليَّة للأطفال.

واكتشفت عند نهر الإيند (السند) مدن أخرى مماثلة، وقد دعيت الحضارة التي كانت تنتمي إليها هذه المدن بحضارة الإيند. وعثر هنا على آثار مكتوبة إلاَّ أنَّ قراءتها لا تزال عصية حتى الآن. وهذه الآثار عبارة عن نصوص مكتوبة على أختام ترافقها صور حيوانات. لقد سبقت هذه الحضارة الحضارة المصريَّة والسومريَّة مباشرة.

لقد هلكت الحضارة الإينديَّة هذه في وحدتها. ويبدو أنَّ كارثة طبيعيَّة أودت بها. ويعتقد المتخصصون أنَّ المكان كان في أوائل الألف ٢ق.م. مركزاً لهزَّة أرضيَّة جبَّارة لم

تكن قادرة على أنْ تهدِّم مدن ضفّتي الإيند وحسب، بل كانت قادرة على أنْ تغيِّر مجرى النَّهر ونظام فيضانه.

في أواسط الألف ٢ق.م. اجتاحت الهند من الشَّمال قبائل الآريين. ويعدُّ إقليم الأنهار السبعة هو الموطن الأصل لهذه القبائل. فمن هناك انتشروا إلى الهند، وفارس، وسهول روسيا. ويعدُّ السَّلاف أحفاداً مباشرين للآريين، وهو ما تؤكِّده الوحدة اللغوية. وقد دفع الآريون بالسكان المحليين إلى جنوب هندوستان وجزيرة سيلان. وأطلق الغزاة على أنفسهم اسم النبلاء (= الآريين)، ليميِّزوا أنفسهم عن السكان المحليين ذوي البشرة السوداء. وكتب الآريون وتحدَّثوا بالسنسكريتيَّة، وهي لغة قريبة من اللغة الأوروبية.

كان الآريون قوماً رعاة، وحافظوا طويلاً على الطُّقُوس الرعوية البدوية. فقد كانوا يحافظون على النار مشتعلة دوماً في الخيمة، ويؤدُّون الشعائر ذات الصلة باستخدام الحليب في الطعام، ويقدِّمون الجياد قرابين، و... أمَّا الزِّراعة فقد تعلَّموها على أيدي السُّكَّان المحلِّيِّين.

لقد حمل الآريُّون معهم إلى الهند كتابهم المقدَّس: الفيدات (= المعارف). ولا يرى المتخصِّصون أيَّ صلة مباشرة بين كلمة «فيدات» وبين الكلمة الروسيَّة «فيدات» (= «عرف، علم». م.)، وينسحب هذا على الكلمات الأخرى أيضاً. فكلمة «إله» مثلاً تكتب بالسنسكريتيَّة «بهاغا»، بينما تكتب باللغة الرونية القديمة القريبة من السنسكريتيَّة «باغا». ولفظ اسم إله النار أغني شبيه بلفظ كلمة «أوغون» (= نار. م.)، كذلك لفظ اسم إله الرِّيح فيغو يشبه لفظ كلمة «فيبات» (= يهبُّ. م.)، ويشبه لفظ اسم إله العاصفة براجانيا، لفظ اسم الإله بيرون، و... ولم يكن السلاف وحدهم الذين عاشوا العصر الفيدي في تاريخهم، بل ثمَّة شعوب أخرى كثيرة عرفت هذا العصر. ففي ميثولوجيَّات كثير من شعوب أوروبا وآسيا (الإغريق، والفرس و...)، شخصيات تشبه الشَّخصيَّات الفيدية.

والفيدات الأساسيَّة أربع فيدات: أوتغفيدا (= كتاب الأناشيد)، وساماقيدا (مجموعة الشَّعائر والأغنيات)، وياجورفيدا (صيغ صلوات تؤدَّى أثناء تقديم الذَّبائح)، وأتارفافيدا (مجموعة الأغاني والتَّعاويذ؛ وتعدُّ أحدث عهداً من شقيقاتها الثَّلاث السابقات). وتسمَّى الأغاني والصَّلوات التي ترفع للآلهة: مانترات.

ولا تُنقل المعارف الفيدية عبر الفيدات فقط، وإنَّما عبر البراهمنات أيضاً. والبراهمنات هي مجموعات من المعلومات عن الشَّعائر والقواعد والطُّقوس، دوِّنت وأُلحقت بالفيدات. وهناك أيضاً الإرشادات (الأوبانيشادات) التي تضمَّنت أقدم الرؤى الفلسفيَّة الهندوسيَّة. وهذه بالذات هي الأساس الذي قام عليه كل التَّطوُّر الروحي الذي عرفته الهند بعد ذلك. واتَّحدت البراهمنات والأوبانيشادات في الأرانياكي. وهذه الأخيرة هي الحلقة الأخيرة التي تجمع الجانب الشَّعيري للدين الذي عرضته البراهمنات، مع الفلسفة التي عرضتها الأوبانيشادات. أمَّا المانترات فقد كتبها شعراء، وكتب البراهمنات كهنة. وصنَّف الأوبانيشادات فلاسفة، ونحن يمكننا أنْ نرى في هذه ثلاث ديانات مختلفة جُمعت في دين واحد: دين الطَّبيعة (في المانترات)، ودين القانون (في البراهمنا)، ودين الروح (في الأوبانيشادات).

إنَّ الفيدات، والبراهمنات، والأرانياكي، و الأوبانيشادات، هي كتب أُعطيت للنَّاس عبر الوحي الإلهي. وتدعى هذه كلها: شروتي أي تلك التي سُمعت. وهناك أيضاً السوترات. وقد وضعت هذه في صيغة موجزة ومبسَّطة لتساعد على تعليم الدِّين. وينتمي أكثر السوترات إلى أدب مجموعة سميرتي، ومعناها: الذي يمكن تذكُّره. وتنسب السميرتي إلى معلمي الدِّيانة المعترف بفضلهم ووقارهم.

لقد كانت معرفة الفيدات في الهند القديمة إلزاميَّة، كإطعام الحيوانات، والطيور، واستقبال الضيوف، وتقديم شربة ماء لعطشان، وتقديم الذبائح للآلهة. فالعوالم كلها مجتمعة في الفيدات وقائمة عليها: هكذا اعتقد الهندوس في تلك الأزمنة. وهذا بالضَّبط ما يراه الكريشنيون في أيَّامنا هذه. إنَّهم يردِّدون مع القدماء، أنَّ الفيدات مصدر الأشياء والصِّفات كلها. كما يعترف البوذيون بدورهم بوقار الفيدات. وحسب اعتقادهم أنَّ ثلاث فيدات متضمَّنة في ثلاثة حروف الكلمة السِّحْريَّة آوم.

يبلغ عدد الآلهة الرئيسة في الميثولوجيا الفيديَّة ٣٣ إلهاً. وهم يتوزَّعون على آلهة أرضيين، وجوِّيين (= الذين يقيمون بين السَّماء والأرض)، وسماويين، لكنَّ الكتب القديمة تذكر عدداً أكبر من الآلهة: ٣٣٣، بل و٣٣٣٩ إلهاً.

ويعدُّ إيندرا الإله الأقدم والأشهر بين آلهة الفيدات. وتمجِّده هذه في مائتين وخمسين نشيداً. واسم إيندرا نفسه معناه القوَّة، والخصب، والمبدأ الذكوري. لقد كان إيندرا إله الآريين القبلي. إنَّه إله المقاتلين الأصهب الذي ينازل أعداءه الكثر، ويرمح في المركبة أو يجلس على متن فيل. وإيندرا هو الذي خلق الشَّمس، والسَّماء، والفجر. وهو

ودود تجاه قبيلته، قبيلة الآريين، يلهم شعراءها ومغنّيها. ولإيندرا قدرة على التَّحوُّل إلى أيِّ كائن أو شيء. وقد وصفوا كيفية تحوُّله إلى نملة، بل إلى شعرة في جسد حصان. ويظهر إيندرا في الفيدات إلهاً للرَّعد. وعلى وجه العموم فإنَّ الآلهة في الفيدات متعدِّدو الوظائف، ومسؤولون عن شؤون عدد من البيئات. ويقول العلماء، إنَّ للآلهة الفيديين طابعاً تركيبيّاً.

ولكنَّ زعامة الآلهة عند الهندوس فريدة من نوعها، فالإله الأكبر هو الإله الذي يوجِّهون الخطاب إليه في اللَّحظة المعنيَّة. ومع ذلك ثمَّة إله أكبر ثابت دوماً، هو الإله فارونا (وكلمة «فار» معناها يحيط، يغطّي). ويُعدُّ هذا قاضياً وحارساً للقوانين، وهو مَنْ أقام النِّظام الكوني. لقد فصل فارونا بين السَّماء والأرض، و«يرقب العالم بألف عين». ويحاكم البشر وينزل العقاب بهم جزاء ما اقترفوا من آثام. أمَّا الإله الرَّئيس الآخر فهو الإله ميترا، ومعنى اسمه: صديق، اتِّفاق، وفاق. ويظهر هذا مع فارونا مؤلِّفين ثنائيّاً إلهيّاً، إلاَّ أنَّ ميترا يجسِّد الشَّمس والنهار، بينما فارونا إله ليلي في غالب الأحيان. ويدعى إله السَّماء دياوس عند الهندوس أباً. وتجسِّد إلهة الأرض أديتي الأزل واللانهاية. وأبناء هذه الأخيرة هم إيندرا، وميترا، وفارونا إضافة إلى أربعة آلهة آخرين، وثمَّة إلهة أخرى عاطفية جداً، هي إلهة الفجر، الفتاة الورديَّة أوماس (أوراس). ففي كل صباح تخفُّ هذه إلى موعدها لكي تعرض جمال عريها. وهذه عند الإغريق إلهة الصُّبح أفرورا (ومعنى كلمة «أوش» أو «أور» هو «يتَّقد»، «يتحرَّق»). وننوِّه في السِّياق إلى أنَّ الإله الإغريقي زيوس هو مثيل إله السَّماء دياوس. ولا يقتصر التَّطابق هنا على وظائف الإلهين، وإنما على لفظ اسميهما كذلك. وقد سرق أحد الكهنة إله النَّار أغني من السَّماء؛ وبذلك يكون الإنسان قد حصل على النَّار. ومن المعروف أنَّ بروميثيوس هو الذي حمل النَّار إلى الإغريق. ولكنَّ الإله سوما هو الذي يعكس غرابة الآلهة القدماء. فهو المطر والمشروب الإلهي في الآن عينه: يعدُّونه من سيقان النَّباتات. وإذا ما مزج هذا المشروب مع الحليب، فإنَّه يثير ويُسكر. ومعنى كلمة سوما بالسنسكريتيَّة، هو «القمر». أمَّا لإله فيشنو الذي عُدَّ فيما بعد واحداً من أكثر الآلهة جبروتاً، فلم تذكره الفيدات إلاَّ كإله عادي أمثاله كثر جداً.

ولم يعرف الزَّمن الفيدي بناء المعابد، ولذلك كانت الطُّقوس الدينيَّة تقام تحت السَّماء المفتوحة مباشرة. وكانت الأضحية تحمي الإنسان طول حياته. وأقام الآريون لآلهتهم ولائم بهيجة. لقد كان الآلهة أكبر الضيوف عند الآريين، فاستقبلوهم على الرَّحب والسَّعة، وقدَّموا لهم الطَّيِّبات بكثرة، وعملوا على كفايتهم من كل شيء. وأدُّوا على

شرفهم أناشيد الخبز ورقصاته. وطيَّبوهم بالعطور، وهو ما تتميَّز به العبادات الهنديَّة كلها.

لقد كانت العبادات الدينيَّة في العصر الفيدي شبيهة بالسحر والشعوذة. فكان البراهمن (= الكهنة) يتنبَّؤون. كما مارسوا فنون المداواة، واستخدموا الأعشاب، والتَّعاويذ، والحجارة استخداماً واسعاً في هذا الميدان. ولا نزال حتى يومنا هذا نصادف كهنة - أطباء العصر الفيدي في كل مكان من العالم.

ولم يقدِّم الآريون لآلهتهم سوى الأطعمة النباتية إلاَّ في مناسبات خاصة، إذ كانوا عندئذ ينحرون لهم من حيواناتهم. وكان طعام الآلهة في غالب الأحيان يشبه أرغفة اليوم، أو الفطائر التي تصنع من دقيق القمح أو الرزّ. وسقوهم حليباً أو شراب السوما الذي يعتقد المتخصِّصون أنَّه كانت له خصائص مخدِّرة.

والتزم الآريون التزاماً صارماً بشعائر تقديم القرابين. فكانوا يقدحون النَّار بطريقة الحكّ، ثمَّ يضرمون ثلاث نيران. وكانت الأدوار موزَّعة توزيعاً صارماً مرَّة وإلى الأبد: يقرأ أحد الكهنة الصلوات، والثَّاني يغنِّي، بينما الثالث منهمك بإعداد طعام القربان. زد إلى هذا أنَّه كان يجب على كل ربِّ عائلة أنْ يقدِّم القربان ثلاث مرَّات يومياً في منزله. ولكنَّ مراسم تقديم القربان المنزلي كانت ميسَّرة جداً.

لقد كانوا يحتفون بقدوم كل فصل من فصول السنة بتقديم القرابين. وكان العنز هو الذبيحة الأساسيَّة في مثل تلك الاحتفالات. فيقدِّمون من لحمه للآلهة ويوزِّعون الباقي على الناس. وعندما كانوا يصنعون مشروب السوما، كانوا ينحرون أحد عشر عنزاً دفعة واحدة.

وفي بعض الأحيان كان الشعب كله يشارك في تقديم الذبيحة. وكانت مثل هذه المناسبات تقام بأمر خاص صادر عن الملك. كما كان يُعدُّ لها إعداداً يستمرُّ طول العام. وكان يقدِّم حصان ذبيحة فيها. ودعيت مثل هذه الذبائح: أسمافيدا. لقد كان الجواد الذي وقع الخيار عليه ذبيحة يجوب البلاد كلها برفقة أربع مائة شاب. وفي الطَّريق من مكان لآخر كانوا يغسلون الحصان طقوسياً. وفي اليوم المحدَّد كان الحصان يعود من جولته الشعيرية. فينحر في قصر الملك. وكان ينبغي على الملكة أنْ تستلقي إلى جانب الحصان المحتضر وتحضنه. لقد كانت ذبيحة الحصان احتفالاً شعبيَّاً كبيراً ترافقه الموسيقى والرَّقص وشتَّى ضروب المباريات. ومن المعروف أنَّ القدماء كلهم ألَّهوا الشَّمس. ويفترضون أنَّ الحصان في الذَّبيحة الموصوفة هنا كان يجسِّد الشَّمس. ومن الجدير

ذكره أنَّ الطُّقُوس التي لها صلة با لحصان كانت شائعة عند الشُّعُوب الهندوأوروبيَّة الأخرى.

لقد تحوَّل الآريون إلى نمط العيش الحضري شيئاً فشيئاً. وأسَّسوا إمارات دارت بينها صراعات. لكنَّ المجتمع كلسه الدين الذي بقي فيديَّاً. وتزايدت في غضون ذلك قوَّة الدور الذي كان يؤدِّيه الكهنة- البراهمن. وعند أوائل الألف ١ق.م. كان قد تشكل نهائيَّاً النظام الاجتماعي- الديني الكاستي. ومع أنَّ سمات الديانة الفيدية وإرشاداتها كانت قد اتَّحدت وقتئذٍ، إلاَّ أنَّ المتخصصين ميَّزوا هذا العصر بمصطلح البراهمنية. وعلى وجه العموم لم تتعاقب الأنظمة الدينية في الهند بعضها مع بعض تعاقباً حادًّا. بل كانت التعاليم الجديدة تنشأ من قلب القديمة، ولم تكن تنفصل عنها انفصالاً تامَّاً في بعض الأحيان. ويمكن القول إنَّها كانت تتراكم فوق التَّعاليم القديمة. ومعنى هذا أنَّ الدِّراسات الفيدية كانت تتطوّر جامَّة في ذاتها مزيداً من التَّعاليم الدينيَّة الفلسفيَّة.

إنَّ عصر البراهمنية هو قبل كل شيء العصر الذي انقسم فيه المجتمع نهائيَّاً إلى كاستات، وقد انتهت عمليَّة الانقسام تلك في القرن ٥ق.م.، ورسختها «قوانين مانو». ومانو هذا هو حاكم الهند القديمة الشبه الخرافي. وإنَّه لكان من الأصح الحديث عن الفارنات لا عن الكاستات. فالانتماء الفئوي، والتراتبيَّة أو الفرقة عبروا عنها كلها بمصطلح «جاتي»، أمَّا مصطلح «فارنا» فإنَّه يستخدم للدَّلالة على الفئات الأربع الرئيسة التي تشكلت في أثناء عمليَّة التَّطوُّر الاجتماعي. وكانت قد تشكلت في أوَّل الأمر ثلاث فارنات: البراهمن (الكهنة)، والكشاتري (القادة العسكريُّون)، والفايتي (الحرفيون، والتُّجَّار، والعاملون الأحرار، والفلاَّحون). ثمَّ ظهرت بعد ذلك أدنى الفئات، وهي فئة السودرا. وانتمى إليها أسرى الحروب، والعبيد، ومجموعات القبائل الدرافيديَّة، أي سكان البلاد الأصليُّون الذين لم يندغموا مع الآريين.

ولم يقتصر ظهور الكاستات على الهند وحدها. فقد كانت هذه معروفة في كثير من الثقافات والحضارات القديمة: في مصر، وبابل، وروما، واليابان. وفي العصر الإقطاعي المبكِّر ظهرت الكاستات في إنكلترا، وأسبانيا، وفرنسا. لكنَّ الكاستات في الهند لم تندثر مع الوقت. وننوِّه في سياق الحديث إلى أنَّ البرتغاليين هم مَنْ أدخل مصطلح «كاستا» ميدان التَّداول العلمي. وقد عنى هؤلاء بهذه الكلمة التباينات العشيريَّة والنوعية في المجتمع الهندي.

ووردت خرافة في «الريغفيدا» تقول، إنَّ الكاستات الأربع خرجت من الإنسان الأوَّل بوروشا. ويقول النَّشيد الريغفيدي «بوروشاسوكتا»، إنَّ البراهمن خرجوا من فم بوروشا، والكشاتري من يديه، والفايتي من وركيه، والسودرا من قدميه. وفيما بعد ردَّ البراهمن منشأهم إلى خالق الكون براهما، وهو الإله الأعظم عند الهنود القدماء.

ويعدُّ أفراد الكاستات الثَّلاث العليا مولودين مرَّتين، فعندما يبلغ ذكورهم طور البلوغ، يقيمون لهم طقس التكريس في الولادة الثانية. ويمنح المكرَّس شارة المولود مرَّتين، وهي عبارة عن شريط من ثلاثة خيوط. وقد كان ذلك يمنحه حق الزواج وتأسيس عائلة خاصَّة به. أمَّا أفراد السودرا فلم يكن لهم سوى ولادة واحدة. وحرِّم عليهم إقامة علاقات وثيقة مع «المولودين مرَّتين». فقد كان أفراد كاستة السودرا خدماً، وعمَّال نظافة، وزبَّالين، وغسَّالين، وأشباه عبيد (عبيد المديونيَّة). كما كان ثمَّة كاستا تسمَّى كاستا الباريي، أي المحرَّمين، وقد عاش هؤلاء منفيِّيْن، معزولين في محميَّات محرَّمة أو خارج حدود المدى. كما حرِّم عليهم تحريماً صارماً دخول معابد الهندوس، والبوذيين، والجاينيين.

ويظهر في الطور البراهمي إله جديد، خالق الكون، هو الإله براهما. وليس لمثل هذا لإله وجود في الفيدات. ففي هذه الأخيرة براهمان، شيء من مبدأ كل شيء، العلَّة الأولى. ولكنَّ هذا في الفيدات هو على الأغلب مصطلح فلسفي أكثر منه اسم إله. وفي الطور البراهمني صار هذا إلى إله رئيس. وقد حمل مفهوم براهمان في الفيدات مبدأ لا شخصيَّة له. وفي الطور البراهمي ظهر مفهوم المبدأ المشخَّص: أتمان، ومعناه «أنا».

وليس في الفيدات لوحة متناسقة لخلق العالم، مع أنَّ تصوُّرات محدَّدة عن ذلك كانت قد ظهرت من قبل. فقد وُصف فيها أكثر من تنويعة من تنويعات خلق العالم: من عدم مبهم عبر تكثيفه، أو من جسد الإنسان الأوَّل بوروشا ذي الألف عين، أو الألف يد، أو الألف رأس. لقد جزَّأ الآلهة جسد بوروشا، فخرجت منه الفارنات. ويتوضَّع العالم السُّفلي تحت الأرض. ويمضي كل ميت إلى هناك قاطعاً نهراً واسعاً على ظهر بقرة. ويحكم هناك في العالم السُّفلي إله الأموات ياما. ويحصل الإنسان في ذلك العالم على جسد جديد عصيٍّ على الأمراض، والعاهات والآلام الفيزيائيَّة. ومع ذلك يوجد في العالم الآخر كثير من البقر، والحليب، والسَّمن، والعسل. وفي العصر الفيدي كان موقف

الآريين من الموت سلبيًّا. فهم لا يعملون على قطع سلسلة الآلام اللا متناهية، وإنَّما يكثرون من الصلوات لإبعاد الموت عن منازلهم. وحسب الفيدات أنَّه ليس في العالم الآخر أي جهنَّم، مع أنَّه قيل فيها إنَّ سيلاً من الدماء بانتظار مَنْ لا يحترم الكهنة - البراهمان. وأنت لن تعثر في الفيدات على تعاليم عن الروح التي تعيش منفصلة عن الجسد. ولم تظهر مثل هذه التعاليم إلاَّ في عصر البراهمنيَّة. وتحتوي التَّعاليم الدينية- الفلسفية الهندية كلها تقريباً، فكرة انتقال الروح، فكرة تكرار الولادات. ومعنى كلمة سانسارا (الولادة ثانية): ضلال، عبور، تعاقب. ويقوم جوهر نظرية تكرار الولادات، جوهر السانسارا، في الآتي: مع موت الإنسان لا تموت روحه، وإنَّما تنتقل، تنزح لتسكن في كائن آخر، أو في جسم ماديٍّ ما. وقد يكون الكائن إنساناً، أو حيواناً. وقد يكون الجسم الماديُّ أيَّ موضوع كان. لكنَّ نزوح الروح لا يحدث وفق رغبتها، بل وفق قوانين صارمة. أهمُّها هو قانون الكارما. ومعنى كلمة كارما: عمل، سلوك، فعل. ويمكننا مع شيء من التَّصرُّف أنْ نقول، إنَّ الكارما هي مصير الإنسان. فهي مقرَّرة مسبقاً لكل إنسان، «معطاة من فوق»، ولكنْ بما أنَّ الإنسان يمتلك إرادة حرَّة، فإنَّه قادر على أنْ يجعل كارماه أفضل أو أسوأ، «يعسِّرها»، أو «ييسِّرها». ويستطيع الإنسان أنْ يحقِّق ذلك بأعماله، بسلوكه. قيل في الفيدات: «إذا كان الإنسان سكيراً فسوف يتجسَّد في عثة؛ وإذا كان قاتلاً ففي كلب؛ وإذا كان لصَّاً ففي جرذ». أمَّا إذا كان الإنسان قد عاش بضمير، وسعى لبلوغ الكمال الأخلاقي، فإنَّه قد يولد في واحدة من ولاداته براهماناً. وفي الردح الفاصل بين حياتين تعيش الروح حالة خاصَّة تسمِّيها التَّعاليم البراهمنية قمراً.

لقد أضافت التَّعاليم الدينية - الفلسفيَّة التي عرفها العصر البراهمني، إضافات جوهريَّة إلى الدراسات الفيديَّة. وقد جمعت هذه على امتداد مئات السنين في مجموعات، أوبانيشادات. وتبرز بينها ست نظم - مدارس دينية - فلسفية كلاسيكيَّة، أي ست أوبانيشادات. وهي:

١- تعاليم عن وحدة اللا مشخَّص (براهمان) والمشخَّص (أتمان): فيدانتا، ومعناها الحرفي، هو ختام الفيدات.

٢- التَّعاليم الداعية إلى الالتزام الصَّارم بالشَّعائر - الميمامانسا. وقد ظهرت هذه للفيدانتا.

٣- تعاليم عن مبدأي العالم: المبدأ الماديّ والمبدأ الروحي. لقد رأوا أنَّ المادَّة تتجب الروح، الروح الكوني الذي يتألَّف من أرواح البشر. وحسب هذه التَّعاليم أنَّ للعالم الماديّ

أجزاء ثلاثة مكوّنة (غونات)، هي: الجوهر، والشّغف، والظلام. وقام الموضوع الأساس لهذه التّعاليم في أنّ الحياة، هي معاناة. وعلّة هذه الأخيرة أنّ روح الإنسان أسيرة الأهواء والنّوازع (من العالم المادّي). وهذا يعني أنّ التّخلّص من المعاناة مشروط بالانعتاق من أغلال العالم المادي. وتدعى هذه التّعاليم: سانكهيا (التّحويلات). وقد قامت هذه في صلب تعاليم بوذا.

٤- تعاليم اليوغا (الاتحاد) التي تحدّد مهمّتها في بلوغ الكمال واتحاد الروح مع الإله. ويمكن أنْ يتحقّق هذا نفسه حسب هذه التّعاليم باعتزال العالم. ومن المعروف الآن أنّ نظام اليوغا بات شائعاً جداً في عالمنا المعاصر، لكنّ هذا لا ينسحب على التّعاليم الفلسفيّة - الدينية نفسها. فنظام اليوغا يتألّف من طرائق خاصّة تقود إلى تحقيق التّركيز الذهني والخروج خارج العالم المحيط. إنّها إيحاء ذاتي، وسكون تام في وضعيات بعينها، وحبس التّنفّس، ودوام الحفاظ في الذّهن على صيغ مجرّدة («آوم» على سبيل المثال).

٥- تعاليم شبيهة بتعاليم الفلسفة المادّيّة؛ وتدعى فايشيشيكا. وتحتوي هذه التعاليم على نظرية بناء الوجود كله من الذّرّات: جزيئات متناهية في الصّغر وغير قابلة للانقسام.

٦- تعاليم نيايا الشّبيهة بالفايشيشيكا. لقد قامت هذه التّعاليم التي تتعايش بسلام في الأوبانيشادات، في أساس بناء نظم دينيّة - فلسفيّة جديدة. ونحن نوّهنا سابقاً إلى أنّ البوذيّة نبتت في تربة تعاليم السانكهيا، بينما خرجت الجاينية من تعاليم اليوغا.

من المعروف أنّ المسيحيّة عملت جاهدة على اضطهاد الهراطقة، وسعت سعياً حثيثاً متواصلاً لكي تبقى على قيد الحياة، صامدة، ومحافظة على سلطتها. ولكنّ الأمور في الهند سارت في طريق مغايرة. فالدّيانة الفيدية البراهمنيّة لم تضطهد التّيّارات الجديدة في أيّ يوم من الأيّام، مع أنّ هذه الأخيرة كانت تنبت كالفطور. لقد كان كل معلّم ينشئ تعاليمه، وطائفته، ويحدّد الآلهة الذين يجب تبجيلهم أوّلاً. ولم يخطر لأحد أنْ يحرقه حيّاً بسبب ذلك. وقد أظهر أكثر من ألف عام من تاريخ الهند، أنّ طريق الحرية الدينية هذه، هي الطريق الأصحّ. فالبراهمنية لم تمت بعد أنْ جمّت في ذاتها كثرة من التّعاليم، والعبادات، والطّقوس. بل إنّها لم تسعَ يوماً إلى العالمية. ولم تأخذ البراهمنيّة إليها التّعاليم الفيدية فقط، بل أخذت أيضاً تلك التي لا تنتمي إلى

التربة الآريَّة. وقد تجمَّع هذا كله بطريقة طبيعيَّة وبات يدعى هندوسيَّة. ولذلك يمكننا أنْ نقول، إنَّ الهندوسيَّة هي اتحاد كثرة من الديانات والعبادات التي يجمعها الاعتراف بالفيدات، وتعاليم الكارما، وتعدُّد الولادات (السانسارا، نزوح الأرواح)، والفارنات.

ينابيع البوذيّة

تعدُّ البوذيَّة أول الديانات العالمية. فقد ظهرت قبل المسيح بستة قرون، وبعد ستة قرون من المسيح ظهر الإسلام. كما تعدُّ البوذية الديانة الأولى من حيث أعداد أتباعها. إذ يبلغ عدد هؤلاء اليوم نحو الأربع مائة مليون مؤمن، ولا يزال هذا العدد في تزايد متسارع.

ولكنْ على الرَّغم من أنَّ البوذية ديانة عالمية، إلاَّ أنَّ فهم جوهرها يشترط الانطلاق من الخصوصية القومية للهند زمنئذٍ، وسمات تطوُّرها. فالآريون استولوا على الهند في الأزمنة القديمة. ودعوا أنفسهم هندوساً (= «أسمر»، «أزرق»). أمَّا السُّكَّان المحليون السود فقد استعبدوا من قبل الآريين (النبلاء) الذين تبيَّن أنَّهم حاذقون جداً في إخضاع السُّكَّان المحلِّيِّين (الأوبوريجين) لسلطتهم، والمحافظة على نقاء دمهم.

والمعروف في التاريخ كقاعدة، أنَّ الغزاة يذوبون رويداً رويداً في الشَّعب الذي يقهرونه، ثمَّ يقتبسون في آخر المطاف ثقافته، ولغته، وديانته، و... أمَّا الآريون فقد أقاموا بينهم وبين أوبوريجين الهند جداراً عازلاً، وحرَّم على هؤلاء الأخيرين حتى مجرَّد ملامسة سادتهم. ودعي المهزومون حثالة. وحرموا من حقِّ ملكية أيِّ شيء، أي عمليَّاً كانوا عبيداً وحسب.

ولكنَّ عملية الانقسام هذه لم تأخذ صيغتها النهائية مباشرة. فبعد بعض الوقت تبلورت بوضوح أربع كاستات في المجتمع الهندوسي. وكان العبيد: مليتشا (= الحثالة)، هم الكاستا الأكثر عدداً والأدنى مرتبة. إنَّها كاستا السودرا. وقد انحصرت رسالتها في الحياة في خدمة الكاستات العليا دون أيِّ تذمُّر أو تردُّد. وكان الالتزام بهذا المبدأ يتحقَّق عبر أساليب عقاب منتظمة. وكانت كتب الهندوس المقدَّسة قد مجَّدت العقاب: «إنَّ العقاب سلطان جبَّار، وحاكم ماهر، ومستخدم حكيم للقوانين: فيه الضمانة الأفضل لكي تؤدِّي الكاستات الأربع واجباتها. فالعقاب هو الذي يحكم الجنس البشري ويحميه، إنَّه يصحو عندما ينام جميعهم، إنَّ العقاب هو العدل عينه». «يُنزل بتروٍّ؛ وهو للمناسبة يحمل السَّعادة للنَّاس، لكنَّه إذا أُنزل دون تروٍّ، فإنَّه يُفسد كل شيء». «لو لم يؤدِّ العقاب غرضه لحلَّت البلبلة بالعالم،

وتهاوت الحواجز كلها (بين الكاستات)». لقد كانت العقوبات في المجتمع الهندوسي فعالة جداً: الإعدام، أو بتر عضو ما من أعضاء الجسد، أو الطرد أو مصادرة الأملاك، وما إلى ذلك. وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا الضَّرب الأخير من ضروب العقاب لم يطبَّق بحق السودرا، لأنَّه لم يكن لهؤلاء أيُّ ملكية كانت. ولكنَّه استخدم ضد كاسة الفايتي: ضدَّ الحرفيين، والتُّجَّار، والفلاحين. وكان هؤلاء على درجة واحدة أعلى من السودرا. وقد حرموا بدورهم الحقوق كلها. فكان عليهم حراثة الأرض، والاهتمام بالقطعان أو تحصيل رزقهم كل حسب طريقته، وخلافاً للسودرا فرض على هؤلاء تقديم القرابين، وإظهار الإحسان، وقراءة الكتب المقدَّسة.

وعلى درجة واحدة أعلى تقف كاستة الكشاتري (الجنود). وقد كان على هؤلاء حماية المجتمع. وحسب قانون مانو أنَّ السمات الأخلاقية التي يولد هؤلاء بها، هي المجد، والإقدام، وسعة الصدر، والخلق النبيل. وكانت تقف فوق كاستة المقاتلين، كاستة البراهمان - الكهنة أو الأتقياء. وكانت هذه الكاستا هي الكاستا الأعلى. ومن مهماتها نشر التَّعاليم المقدَّسة. وحسب قانون مانو أنَّ السمات الأخلاقية المولودة مع هؤلاء، هي الاعتدال، والعصمة، والصبر، والحكمة. وكان التزاوج بين الكاستات محرَّماً تحريماً صارماً. وإذا ما حدث إنجاب أطفال من زيجات مختلفة، فإنَّ هؤلاء يعدُّون أدنى مستوى من الحيوانات. وقد دعي مثل هؤلاء تشاندالي.

لقد كانت سيادة البراهمان على المجتمع تامَّة، مع أنَّ السُّلطة رسمياً كانت بيد الملك. وقد اعتقدوا بأنَّ هذا الأخير خلق على يد كائن أعلى صنعه من أجزاء الآلهة: إيندرا، وأنيلا، وسوريا، وياما، وأغني وغيرهم. ولهذا كان الحديث عن الملك باستهتار محرَّماً. ومع هذا كله نجح البراهمان في وضع الملك داخل أطر ضيِّقة. فعلى الرغم من منشئه الإلهي، إلاَّ أنَّه ينبغي على الملك أنْ يجلَّ البرهمان ويطلعهم على أعماله أولاً بأول. كما كان عليه أنْ يؤمِّن لهم القوت، ويعطيهم جزءاً من العطاءات كلها. وإذا ما حصل وحاز الملك كنزاً ما، فقد كان عليه أنْ يمنح نصفه للبراهمان. أمَّا إذا ما حاز البراهمان مثل هذا الكنز فلم يكونوا ملزمين بتقاسمه مع الملك. لقد حرص البراهمان على أملاكهم حرصاً شديداً. وكانت التركات تبقى دوماً داخل كاستتهم. ضف إلى هذا أنَّه في حال عدم وجود ورثة في الكاستات الأخرى، فإنَّ تركة المتوفَّى المعني تؤول إلى البراهمان. ومهما كانت الضرورة ملحَّة فإنَّه لم يكن من حقِّ الملك فرض أيِّ ضرائب على البراهمان، قصارى القول، إنَّ سلطة الملك انسحبت على الكاستات الدنيا فقط، وكان يجب أنْ تستخدم تلك السُّلطة لإرغام الكاستات المعنية على

تأدية التزاماتها. ويؤكِّد المؤرِّخون على أنَّ «اللا مساواة لم تأخذ مثل ذلك الطابع الحاد الصارم المنظَّم في أيِّ مكان آخر كما كانت عليه الحال عند الهندوس».

أمَّا قانون مانو فهو شيء ما يشبه شريعة موسى عند اليهود. فقد وصفت المصادر القديمة: «الفيدات»، و«قانون مانو»، عصر غزوات الآريين لطبيعة الهند البكر، وسكانها الأصليين، وصفاً جيداً. وهذه المصادر مثلها مثل أسفار التوراة صنِّفت على مدى قرون وأيدي أجيال كثيرة. فوصفت «الفيدات» الطور المبكِّر من حياة الآريين على ضفَّة نهر الإيند (= السند)، قبل أنْ ينتشروا جنوباً وشرقاً. ولم تكن الكاستات والفئات الاجتماعيَّة قد ظهرت وقتئذٍ. لقد تميَّز نمط عيش الآريين في هذا الطَّور ببساطة أخلاقيات المجتمع الأبوي. ثمَّ تلا هذا العصر (عصر الفيدات)، عصر مديد آخر، هو عصر انتشار الآريين في شتَّى أرجاء الهند، وانقسام مجتمعهم إلى كاستات، وتنظيم حياة الهندوس الدينية، والسياسيَّة والاجتماعية تنظيماً صارماً. وقد تضمَّنت «قوانين مانو» هذه الفروض كلها. ومثلها مثل التلمود، ضبطت هذه القوانين كل جوانب حياة الهندوس الرُّوحيَّة والفيزيائيَّة. فأخذت بالحسبان المأكل، والملبس وحتى الفراش (بما في ذلك طريقة تحضير الفراش). ولكنَّ الفروض اختلفت بين كاستا وأخرى. وكان محرَّماً أيُّ انتهاك لتلك الوصايا. فما عدا العقاب الزمني كان ينتظر المنتهك عقاب «غير زمني». فقد تكون ولادته التالية في كاستا أدنى مرتبة، أو قد يولد حيواناً، أو نباتاً أو... وعلى وجه العموم كانت فكرة نزوح الروح معروفة لدى الشُّعُوب كلها في الطور المبكر من تطورها. أمَّا في الهند فإنَّ هذه الفكرة لم تستحوذ على الناس وحسب، وإنما كبَّلتهم بخوف مريع من إمكانية استمرار مرارة العيش في الويلات المقبلة. وباتت غاية أفراد المجتمع كلهم، هي العمل على مغادرة هذا العالم وعدم الرجوع إليه أبداً.

في العصر الفيدي آمن الهندوس بكثرة من الآلهة. لكنَّ الكهنة - البراهمان صاغوا بعد ذلك رؤية أكثر عمقاً. فقد تمثَّلوا الإله كالكون، مبدؤه الروحي: جوهر مشترك لظاهرات الطبيعة. وتوصَّلوا إلى فكرة لا نهائية الإله - الكون. وتصوَّروا الإله نفسه في صورة روح كوني (= ما ندعوه نحن الآن بالعقل الكوني، أو حقل الإعلام الكوني). فالروح الكوني هو بالذات مصدر كل ما هو موجود في الكون. فعنه يصدر كل شيء، وإليه يرجع كل شيء. وحسب وجهة نظرهم إنَّ روح الإنسان جزء من الروح الكوني. لقد بحث الكهنة عن طرائق لقطع سلسلة البعث وجعل الإنسان سعيداً، وتوحيد روحه مع الروح الكوني. واعتقدوا أنَّه يمكن أنْ يُدرَك هذا إمَّا بقتل الجسد بمختلف ضروب التعذيب الفيزيائي، أو بالتَّأمُّل.

لقد شغلت هذه المسألة جزءاً مهمَّاً من المجتمع (بمن في ذلك الكاستات الدنيا). وهكذا جاء إلى المجتمع الهندي القديم إله واحد ليحلَّ بدلاً من كثرة من الآلهة. ولم يكن للإله الجديد اسم خاصٌّ به، وشيئاً فشيئاً أخذ يتحرَّر من الإهاب الشخصي. فالريغفيدا مثلاً تمجِّد إلهاً واحداً يدعى «ربُّ المخلوقات» أو«خالق كل شيء». ثمَّ دعي فيما بعد بكلمة «بذاتي»، «أنا» أو بكلمة براهمن. وقبلئذٍ كانت كلمة براهمن تعويذة شديدة الفعاليَّة اعتقدوا أنَّها قادرة على أنْ تخضع الآلهة لسلطانها. لكنهم استخدموها بعدئذٍ لتسمية الماهية التي تمكث في السكون الأزلي. وهذا عمليَّاً، هو حقل المعطيات الكوني. وهذه الماهية (الحقل) موجودة في كل مكان (الإله التوراتي الكلي الوجود)، يصدر كل شيء عنها، ويرجع كل شيء إليها. وتعدُّ هذه الماهية - الحقل العلَّة الأولى لكل ما هو موجود. وهي التي تضمن التَّحوُّلات الجارية كلها. ومن البدهي أنْ تكون هي مصدر الحياة أيضاً، بما فيها الحياة العاقلة. لقد قالت الكتب القديمة، إنَّ العالم الواقعي لا يمثل سوى تحوُّل الماهية العليا. وهو متعلِّق بها كليَّاً وليس له وجود مستقلٌّ عنها. وينبغي على الإنسان الذي أدرك هذا واعترف به، أنْ يتحرَّر من خوفه أمام البعث - الألم اللا متناهي، لأنَّه يعي أنَّه جزيئة من هذا الخالق الكلي ولا يمكن أنْ يبقى متروكاً لآلام أبديَّة. وقد سعى كثيرون لتحقيق هذه الأفكار وصاروا إلى نُسَّاك، وفي عصر بوذا تطوَّرت حركة التَّنسُّك في الهند تطوُّراً كبيراً. ووقف المجتمع كله متعاطفاً مع النُّسَّاك، فقدم لهم القوت والملابس البسيطة. وكان يمكن أنْ يدعى النُّسَّاك لتناول «وجبة غذاء» إلى مائدة شخصية نبيلة، أو حتى إلى مائدة الملك. وعلاوة إلى هذا كان الملوك أنفسهم يتنسَّكون عندما يبلغون سنَّ الشيخوخة: يتركون ملكهم ويمارسون التَّأمُّل في الطَّبيعة. وقد ترك الأمير ولي العهد بوذا القصر وصار ناسكاً. إنَّها حالة نادرة، لكنَّها كانت حالة طبيعية بالنسبة لهند تلك الأزمنة.

لقد كانت صورة الحياة التي يعيشها الناسك ترتبط بالإيديولوجيا التي يعتنقها. فبعضهم رأى أنَّ الأمر الأساس، هو قهر الذَّات وقتل الجسد. وكان هؤلاء يلجؤون إلى طرق مثل، الجلوس رافعي الأيدي بين أربع نيران متوهِّجة. كما كانوا يجلسون أيَّاماً تحت أشعَّة الشَّمس الاستوائيَّة الحارقة، وتحت وابل الأمطار، وفي اللَّيالي القارسة. وكانوا ينامون على ألواح خشبيَّة دقَّت فيها مسامير، أو على الرَّماد الحارِّ. وغنيٌّ عن البيان أنَّهم كانوا يصومون طويلاً، كما كان كثير منهم يقتات بالجذور، والماء، وأوراق النَّباتات و... وسمِّي مثل هؤلاء النُّسَّاك بالكادحين. وثمَّة من الناسكين مَنْ مارس التَّأمُّل. وبحث هؤلاء عن السكون في بطالة الروح والجسد. وفضَّل بعض النُّسَّاك القهر الفيزيائي والتَّأمُّل. كما كان هناك نساك

من الأصحِّ أنْ ندعوهم بالجوَّابين؛ لأنَّهم كانوا يجوبون القرى ويتلقَّون القوت من ممارسة مختلف ضروب الألعاب البهلوانية والتنجيم.

وعلى وجه العموم بما أنَّ الموقف العام من النُّسَّاك كان طيِّباً، فإنَّ هؤلاء لم يواجهوا أيَّ صعوبات في الحصول على القوت. فقد كانوا يتجمَّعون في مجموعات كبيرة (أكثر من ٥٠٠ شخص)، وينزلون في ضواحي المدن، فيحمل السُّكَّان القوت لهم.

ومن الجدير ذكره أنَّه كان بين النُّسَّاك أحياناً مفكِّرون حقيقيون (قلَّة نادرة). وكان يتجمَّع حول هؤلاء مريدوهم: تلاميذهم. وكان مثل هذه المدارس كثيراً: ليس عشرات، بل مئات. وقد دارت بين هذه المدارس مساجلات، كانت تتطوَّر أحياناً إلى عراك وأعمال شغب. ونحن سوف نبرز بين تلك المدارس، الرَّئيسة منها فقط، تلك التي ترتبط بالبوذيَّة.

لقد رفضت التَّعاليم التي طوَّرها كابيلا وباتانجالي الشَّعائر الظاهريَّة التي كان البراهمن مغرمين بها، كما رفضت أيضاً تقديم الذَّبائح والقرابين. وإنَّنا نكاد نقول، إنَّ هذين فتحا عهداً جديداً حلَّ بدلاً من شريعة مانو، ووجَّه كابيلا وباتانجالي تعاليمهما إلى الكل بصرف النَّظر عن الانتماء الكاستي. وفي تلك الظروف كان ثمَّة كثير من الثوريَّة في طرح فكرة أنَّ كل إنسان، بصرف النَّظر عن انتمائه الكاستي، يستطيع أنْ يحرِّر روحه من كثرة النزوح إلى كيانات أخرى. فحسب تعاليمهما أنَّ روح الإنسان أداة بيد الكائن الأعلى. وهي كانت موجودة بذاتها. وإذا ما وعى الإنسان (روحه) هذا، فإنَّ روحه تستطيع أنْ تقف لا مبالية تجاه ظاهرات الحياة. وبعد موت الجسد تنعتق الروح من كل الروابط الماديَّة، وتنتقل إلى الحالة البدئيَّة للروح النقية، إنَّها ترجع إلى الروح الكوني. ويستنتج ممَّا تقدَّم عرضه، أنَّ روح الإنسان قادرة على أنْ تحقِّق انعتاقها عن طريق التَّأمُّل الذَّاتي. ومعنى هذا، أنَّه ليس هناك ضرورة لقتل الجسد. أمَّا فيما يتعلَّق بالتَّأمُّل الذاتي فإن الحديث يدور عن حالة الوعي المتبدلة عندما تتحد جزئيَّاً مع الوعي الباطني، مع حقل المعلومات الكوني.

كانت الهند تتوزع في زمن بوذا على عدد من الدول البارزة. فكانت تقوم في شمال - شرقي الهند، موطن بوذا، أربع ممالك، وعدد من الجمهوريات الأرستقراطيَّة. كما كان هناك كثير من الإمارات الصغيرة التي كانت ممالك. وبمثل هذه الممالك وحكَّامها ارتبطت إلى درجة كبيرة حياة بوذا ونشاطه. وفي تلك الأثناء كان في الهند كثير من المدن الكبيرة، وكانت الحياة التِّجاريَّة والحرفيَّة مزدهرة فيها. ووصف المؤرِّخون المدن والحياة المدينيَّة في الهند زمن بوذا على الوجه التَّالي: «ثلاثة شوارع عريضة ونظيفة دوماً، مستقيمة على الخيط وممتدَّة حتى النهاية. والمنازل مبنيَّة واحدها إلى جانب الآخر ومحاطة بأفنية مضيئة، وأنساق

من الأعمدة الطويلة والأرصفة البديعة. وتعلو على منازل المواطنين قبب القصور كأنّها قمم جبليّة. وتتوزّع الساحات، والحدائق، والبساتين في مختلف أرجاء المدينة. وتحيط بهذه الأخيرة سواتر عالية وخنادق عميقة من الجهات كلها. وبنيت في أسوارها المرصوفة بحجارة ملوّنة كرقعة الشطرنج، بوّابات جبّارة لها أرتجة قويّة. ويقف على الأسوار سهّامون حرّاس يحمل سلاحهم الموت الزّؤام. لقد كانت شوارع المدينة تضجُّ بالحركة: يغدو ويروح فيها كثير من الوافدين الأجانب، وسفراء الدُّول الأجنبيّة والتُّجّار مع فيلتهم، وخيلهم وأحمالهم. وكانت تتهادى من المنازل أصوات الطمبورات، والقيثارات والغناء الجميل، لقد كان الجوُّ مليئاً بالرّوائح العطريّة، وعبير الزهور وتقدمات القرابين. وفي المساءات تعجُّ الحدائق والمتنزّهات بحشود المتنزّهين، ويتجمّع الفتيان والفتيات في الأروقة يرقصون ويمرحون».

الفصل الثالث

حياة بوذا

ولد بوذا في العام ٦٢٣ق.م. في عائلة ملكيَّة. وكانت عائلة الساكيين الأرستقراطيَّة قد هاجرت في الأزمنة القديمة إلى سفوح الهملايا النيباليَّة آتية من وادي نهر الإيند. وقد دعيت المملكة بمملكة كابيلافاستو. وكان المكان الذي قامت فيه مكاناً ساحراً وغنيّاً. فقد كانت تروي السَّهل الخصيب كثرة لا عدَّ لها من الجداول والينابيع التي كانت تنحدر من أعالي الهيملايا. وبفضل ازدهار زراعة الرز أوَّلاً وقبل أيّ شيء آخر، ازدهرت المملكة. لقد رقشت حقول الرز الصفراء المكان كله منتشرة بين غابات البلسم. وما ساعد على ازدهار المملكة أيضاً، أنَّها كانت نقطة عبور القوافل التجارية.

وتميَّز الملوك الذين كانوا يحكمون تلك المملكة الصغيرة بالحكمة والعدل. وكانت سلالة هؤلاء الملوك تنتمي إلى ابن مانو المشرِّع الشَّهير الذي وضع «قوانين مانو» المعروفة. ولم يكن لمثل هذا النَّسب ألاّ ينعكس على الوعي الذاتي للسلالة: لقد أبرز المؤرِّخون كبرياءهم واعتدادهم بأنفسهم. وثمَّة من المؤرِّخين من عدَّهم ملوكاً متغطرسين، وهذا ما دفعوا ثمنه باهظاً جداً.

لقد جرى نشاط بوذا في حدود عدد من الممالك الكبيرة أو الصغيرة. وارتبطت حياته ومصير تعاليمه إلى حدٍّ كبير بملوك تلك الممالك. فمن أنصار تعاليم بوذا الغيورين نذكر على وجه الخصوص الملك بيمبيسارا ملك ماغادها. وإلى شمال - غربي ماغادها كانت تقع مملكة كوشالا. وكانت مدينة شرافاستي هي المدينة الرئيسة في هذه المملكة. وفي تلك الأزمنة كان الملك برسيناجيتا هو الذي يحكم المملكة، وكان هذا من أتباع بوذا المخلصين. ومن جهة الجنوب كانت تحاذي مملكة كوشالا مملكة أخرى، هي مملكة فاتسا وعاصمتها كاوشامبي. وإلى الجنوب من هذه كانت تقع مملكة أفانتي بعاصمتها أوجايني. وهنا في هذه المدينة ولد الشَّاعر العظيم كاليداسي وعلاوة على الممالك كان ثمَّة عدد من الجمهوريات. وقد اجتمعت ثمان منها في كونفدراليَّة فريجي. وبجوار هذه الكونفدرالية كانت تقوم سلالة ساكي التابعة شكلياً لملك كوشالا، لكنها كانت

عملياً كياناً مستقلاً تماماً. وفخرت سلالة الساكيين أيضاً بأنَّ واحداً من أسلافها كان القديس الحكيم الذي دعوه باسم هاوتاما. ولذلك كان اللقب العائلي للسلالة، هو هاوتاما، ومعناه: الذي ينتمي إلى هاوتاما. وعليه فقد دعي بوذا في حياته باسم هاوتاما. وبعد وفاته فقط باتوا يدعونه باسم ساكي، الحكيم الذي من سلالة ساكي. أمَّا كلمة بوذا نفسها فإنَّ معناها، هو «المتنوِّر».

وفي اليوم السابع بعد ولادة بوذا توفيت والدته مايا (= «طيف»، «خيال»). وقد أبرزت الحوليات الجمال الخارق الذي كانت تتمتع به مايا، والعقل الطبيعي والمزايا الأخلاقية التي كانت تملكها. أمَّا والد بوذا، الملك سودهودان، فإنَّ الحوليات تصفه بأنه كان «ملك القانون، حكم المملكة وفق القانون. ولم يكن في بلاد الساكيين ملك واحد أكثر وقاراً واحتراماً بين طبقات المجتمع منه».

ومثله مثل المسيح ومحمد فقد تنبَّؤوا لبوذا بمستقبل عظيم. وكان أسيتا الناسك قد أقام نبوءته تلك على أساس اثنتين وثلاثين علامة رئيسة، وثمانين علامة ثانوية رآها على جسد المولود. فقد كانت تلك العلامات مؤشراً على أنَّ الشخص المعني مختار من قبل الإله. ودعي الطفل المولود باسم سيرفاتاسيدارتها، أو باختصار: سيدارتها، ومعناه «الكامل في الأشياء كلها». وتقول الحوليات، إنَّ الولد ورث عن أمِّه جمالها الخارق، ونشأ طيِّباً، وديعاً وحاضر البديهة. ربته خالته شقيقة والدته مهابراجاباتي، التي غدت بعد ذلك زوجة والده، ووالدة أخيه وأخته غير الشقيقين. لقد نشأ وليُّ العهد كأيِّ ولي عهد آخر، مترفاً راضياً. ولمَّا بلغ السادسة عشرة من عمره زوَّجوه. وأنجب ابنه راهولا. وسارت حياته هكذا حتى بلغ التاسعة والعشرين.

في التاسعة والعشرين دعي بوذا لتأدية رسالته، وكذا دعي المسيح في الثَّلاثين، ومحمَّد في الثانية والأربعين، ومثلهم دعي موسى وإبراهيم. ولا يزال المؤرِّخون والفلاسفة يحلِّلون الأسباب التي دفعت بوذا لتفضيل حياة التنسُّك والزهد على حياة الملوك بجواريها، وراقصاتها، ومغنياتها و... وهم يتحدَّثون في غضون ذلك عن الاكتفاء وما شابه. ولكنْ في واقع الحال، إنَّ هذه النقاشات كلها لا طائل منها.

فقد كان بوذا باسيونار (= روحاني)، مختاراً مع الرسالة الملقاة على كاهله. وقد بدأ يؤدِّيها لأنَّه لم يكن بوسعه ألاَّ يفعل ذلك. فلم يكن أمامه خيار: يؤدِّي أم لا يؤدِّي. لقد ولد لكي يؤدِّي رسالته.

ليلاً ترك بوذا القصر، ومعه خادمه تشانا، وجواده. ولمّا بلغ نهر آنوما في بلاد المالاي عند مدينة كومنيغارا، ردَّ خادمه ومعه الجواد والأموال إلى والده، وبقي وحيداً. ثمَّ بادل فقيراً عابراً سبيل ثيابه بثيابه الملكية، وقصَّ شعره الطويل. ولم يبقِ لنفسه سوى معطفه الأصفر. وهكذا تحوَّل بوذا إلى زاهد.

ووصفت النُّصُوص القديمة هجرة بوذا للقصر الملكي كما يلي:

«لقد صار الزاهد هاوتاما راهباً، وترك نسباً سامياً.
صار الزاهد هاوتاما راهباً وترك كثيراً من الذهب نقوداً وسبائك
مخزونة في السراديب والمخادع. ولا يزال الزاهد هاوتاما
شاباً فتياً أسود الشعر، ففي شبابه
السعيد، وسنّة المبكرة هجر وطنه إلى اللا وطن.
وعلى الضدِّ من إرادة أهله، وعلى الرغم من
الدموع التي ذرفوها، إلاَّ أنَّ الزاهد هاوتاما
قصَّ شعر رأسه، وحلق لحيته، وارتدى
الملابس الصفراء، ومضى من وطنه إلى اللا وطن».

وهناك نصٌّ آخر يصف لنا كيف يشرح بوذا بنفسه للرهبان ما حصل. فهو يقول لهم:

«وجاءتني أيها الرهبان، أنا الذي كنت أعيش حياة منعمة، الفكرة التالية: إنسان عادي غير عارف، خاضع لتقدُّم السنِّ، عندما يرى بأمِّ عينه هو الذي لا يزال بعيداً عن سنِّ الشيخوخة، شيخاً هرماً، فإنَّ ذلك يجعله يحسُّ بالقلق والحيرة، ويختلط عليه الأمر، وينفر من فكرة تطبيق ما يراه على نفسه، فأنا بدوري خاضع لسلطة السنِّ، لكنِّي لست شيخاً بعد، فهل لي أنا الخاضع لسلطة السِّنِّ والذي لم يشخ بعد، إذا رأى شيخاً هرماً ألاَّ يشعر بعدم الانسجام مع نفسه، وألاَّ يحسَّ بالحيرة والسأم والنفور؟ لقد كان الأمر محزناً بالنسبة لي. ولكني ها أنذا أيها الرهبان، عندما وازنت الأمر اندثر فيَّ الإحساس بسعادة الشباب».

لقد مكث بوذا عند مدينة كوسيناغارا سبعة أيام، توجَّه بعدها إلى مدينة راجاغريها لكي يتعلَّم الحكمة لدى النُّسَّاك المقيمين غير بعيد عنها. وهناك بدأ بوذا طريق النُّسَّاك

الكادحين من أدنى مستوياته. وباتوا يدعونه هنا بالزاهد هاوتاما. وأخذ مثله مثل جميعهم هناك يخضع جسده لآلام ممضَّة لكي يقتله. ولكنَّه أدرك مع الوقت أن ذلك لن يقرِّبه إلى الحقيقة. عندئذٍ انتقل إلى نسَّاك آخرين: إلى المتأمِّلين، وتعرَّف عندهم إلى فلسفة سامهيا. وكان أهم فيلسوفين في طائفة النُّسَّاك هذه، هما البراهمنان آلارا، وأودَّاها. وقد رأى هذان مهمَّتهما الرئيسة في تحقيق السيطرة على الانفعالات، وبلوغ حالة السكون الراسخ، واجتاز هاوتاما هنا فصلاً تعليمياً كاملاً. وهكذا روَّض روحه رويداً رويداً، وحررها من القلق والأفكار. لقد تعلَّم أن يحقق السكون الروحي الرصين، فاقترحوا عليه أن يرئس المدرسة، لكنه رفض وغادر المكان. وكان معلِّمو بوذا ذوي هيبة ووقار وسمعة طيِّبة. كما كانوا من أتباع اليوغا. وهذه فلسفة دعا باتانجالي بها. واليوغا هي عبارة عن صيغة مؤلَّهة تطوَّرت من فلسفة سامكهيا الإلحادية التي أسسها كابيلا. وسوف يأخذ بوذا كثيراً من تعاليم هاتين الفلسفتين فيما بعد. ويقوم الفرق بين الفلسفتين في الآتي: أعطت اليوغا الأولية لتقنيَّة التَّأمُّل. فالوسائل الخارجية المساعدة (التنسك الصَّارم، و...) كانت في المقام الأوَّل من الأهمِّيَّة بالنسبة إليها. أمَّا تعاليم سامكهيا فقد كانت تعاليم نظرية أساساً. وقد صاغت نظرية تجريدية عن المعرفة الصحيحة.

لقد بلغ هاوتاما محلَّة أورفيلا الواقعة إلى الجنوب من باتنا. وهنا في الغابات الطرفيَّة عرَّض هاوتاما نفسه لتعذيب ذاتي ممضّ على أمل أن يبلغ صحوة العقل. إلاَّ أنَّ محاولته لم تعط ثمارها. فتابع طريقه. لقد جرَّب هاوتاما كل وسائل تحقيق الصَّحوة، وتجاوز لحظة «الصَّمت» بين الوعي والوعي الباطني: جاع، وحبس تنفُّسه، وركَّز تفكيره في نقطة واحدة، ولكن عبثاً كان يحاول. ومرَّة أوصل نفسه إلى حالة ظنَّ معها تلاميذه الخمسة الذين كانوا يراقبونه عن بعد، أنَّه مات. ولمَّا لم يحقق النتيجة المرجوَّة، عزف هاوتاما عن هذه الوسائل وخلص إلى نتيجة مؤدَّاها أنَّ تعذيب النَّفس والتوبة لا يفضيان إلى الحقيقة. وانصرمت سبع سنوات أخرى بحثاً عن الطريق الصحيحة. وأخيراً جاءته الصحوة المنتظرة ليلاً على حين غرَّة بينما كان جالساً تحت شجرة تين. ففي تلك الليلة تحوَّل الأمير سيدهارتها إلى «يقظ»، «متنوِّر»، إلى بوذا. ومنذ تلك الليلة يبدأ تاريخ البوذيَّة.

لقد ساق لنا أحد أقدم الآثار البوذية: الدهامَّابادا، كلمات بوذا الآتية، التي قالها حينما حقَّق الصَّحوة: «لقد أكملت دورة الولادات الكثيرة دون أنْ أتوقف لحظة واحدة، وكنت في أثناء ذلك أبحث عن باني البيت (يقصد بهذا علَّة تكرار الولادات). بئس المعاودة الأبدية للولادات. يا باني البيت أنت الآن مكشوف، ولن تبني بيوتاً بعد اليوم. عتباتك

تكسَّرت، وسقف بيتك وقع. إنَّ قلبي الذي بقي حرّاً أطفأ الرَّغبات كلها». ويظهر مما قيل أين يرى بوذا النَّجاح الأهمَّ: في التَّحرُّر من الرَّغبات، ومعنى هذا، التحرر من تكرار الولادات أيضاً. أمَّا شجرة التين تلك فقد باتت ذات شهرة واسعة، وصارت إلى شجرة الصحوة. وكان ثمَّة شجرة تين فعلاً إلى جانب بوذا غاي، وقد بقيت قائمة حتى حطَّمتها العاصفة في العام ١٨٧٦م. وغنيٌّ عن البيان طبعاً أن شجرة كانت تحلُّ محلَّ الأخرى على مدى آلاف السنين. وقد زعموا أنَّهم حملوا فرعاً منها في أواسط القرن ٣ق.م. إلى جزيرة سيلان وزرعوه بالقرب من أنورادهابورا. ويؤكِّدون على أنَّ الشجرة التي نمت هناك لا تزال قائمة حتى اليوم.

وثمَّة سرد مفصَّل لسيرة حياة بوذا بعد الصحوة جاء في أحد مؤلَّفات فينايابيتاكا، وهو مؤلَّفه: ماهاواجي. وحسب هذا النص أنَّ بوذا أمضى بعد أنْ جاءته الصحوة سبعة أيام تحت التينة جالساً وساقاه تحته، «يستمتع بغبطة الخلاص». وبعد أن انتهت الأيام السبعة استعاد بينه وبين نفسه مرَّة أخرى، كل ما وضعه عن العلاقات بين الأسباب والنتائج ذات الصلة بالمعاناة في هذا العالم. وانتقل بعد ذلك إلى ظلِّ شجرة أخرى، هي «شجرة راعي الماعز». فأمضى تحتها سبعة أيام أخرى متفكراً. ومثلما جرَّب الشيطان المسيح جرَّب بوذا أيضاً. وقد رفض هذا عروض الشيطان مؤكِّداً على أنَّ هذا الأخير يهاجم الإنسان بتسعة «جحافل»، هي: الشهوانية، والسخط، والجوع، والعطش، والطمع، والكسل والتبطل، والجبن، والشك، والرياء والغباء، والبحث عن المجد والغطرسة. وقال بوذا للشيطان: «إنَّ جحافلك التي لا يستطيع أنْ ينتصر عليها البشر والآلهة، سوف أبددها بقوة العقل، كما تتحطَّم الأواني الفخارية. سألجم فكري، وأُرسِّخ قوَّة روحي وأمضي من مملكة إلى مملكة لأكوِّن تلاميذ». فردَّ الشيطان على ذلك قائلاً لبوذا: «لقد تعقَّبت المتسامي سبع سنوات، خطوة خطوة، ولم أجد عيباً واحداً لدى اليقظ المتنوِّر. وكما الغراب الذي يدور عبثاً حول الصخرة، نترك نحن هاوتاما». وهكذا ترك الشيطان بوذا وشأنه.

ثمَّ بدأ بوذا يبشرهم بتعاليمه، فتوجَّه إلى ضواحي مدينة بيناريس، حيث كان النُّسَّاك يقميون في المتنزَّه. وهناك التقى النُّسَّاك الخمسة الذين تبعوه، وكان هؤلاء ينتظرون صحوته لكي يكونوا تلاميذه. وهنا في متنزَّه رشيباتان استمعوا إلى بوذا دون رغبة في بادئ الأمر، لكنهم ما لبثوا أن أخذوا يدركون أهمِّيَّة ما كان يقوله. وكانت عظة بوذا الأولى، العظة البيناريَّة، ذات أهمِّيَّة فائقة بالنسبة للبوذية كلها. فبتلك الموعظة «دفع بوذا عجلة تعاليمه إلى الحركة لأوَّل مرَّة ولتلك الموعظة قيمة عالية عند البوذيين. وهاكم ترجمتها:

«هناك شططان أيها الرهبان، لا ينبغي أن يأتيهما ذلك الذي اعتزل الحياة الدنيا. فماهما هذان الشططان؟ الأوّل، هو أن تترك نفسك للأهواء، إنها وضيعة مبتذلة، دنيئة، وعديمة الجدوى. والثاني، هو أن تعذّب ذاتك، إنّه ممضّ، وضيع، وعبثي. فلا تقعوا في هذين الشططين أيها الرهبان، فالكامل وجد طريقاً وسطاً، يفتح العينين، ويفتح العقل، ويقود إلى السكينة، والمعرفة، والصحوة، ويؤدّي إلى النرفانا. ولكنْ ما هو هذا الطريق الوسط الذي اكتشفه الكامل أيها الرهبان، الطريق الذي يفتح العينين، وينير العقل، ويفضي إلى السكينة، والمعرفة، والصحوة، والنرفانا؟ إنّه طريق نبيل ذو ثمانية أطراف، هي الإيمان الحقّ، والعزيمة الصّادقة، والكلمة الصّادقة، والعمل الصّالح، والحياة الصّالحة، والسّعي الذاتي الصادق، والفكر الصادق، والاستغراق الذاتي القويم. ذلكم هو الطريق الوسط الذي وجده الكامل أيها الرهبان، الطريق الذي يفتح العينين، والعقل، ويقود إلى السكينة، والمعرفة، والصحوة، والنرفانا. هذه هي أيها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن الآلام: فالميلاد آلام، والشيخوخة معاناة، والمرض معاناة، والموت معاناة، واللقاء مع مَنْ لا تحب معاناة، ومفارقة مَنْ تحب معاناة، وعدم بلوغ المأرب معاناة؛ قصارى القول، إنَّ العناصر الخمسة التي تثير التّمسُّك بالوجود، هي جوهر المعاناة. تلكم أيها الرهبان، هي الحقيقة النبيلة عن نشوء المعاناة؛ إنّها ذلك التعطُّش (للحياة) الذي يقود إلى البعث، ويترافق بالفرح والتوق، ويعثر على السعادة هنا وهناك، كتوق الشهوة، وتوق الحياة، وتوق الموت. وهاكم أيها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن سحق المعاناة: إنها التحرر التام من هذا التوق، وسحقه، ونبذه، وتركه، وطرده. وهاكم أيها الرهبان، الحقيقة النبيلة عن الطريق الذي يقود إلى قطع دابر المعاناة: إنّه الطريق النبيل ذو الأطراف الثمانية: الإيمان الحق، والعزيمة الصادقة، والكلمة الصادقة، والعمل الصالح، والحياة الصالحة، والسعي الذاتي الصادق، والفكر الصادق، والاستغراق الذاتي القويم. هذه هي الحقيقة النبيلة عن المعاناة، هكذا أيها

الرهبان، انفتحت عيني على هذه المفاهيم، التي لم يرها أحد من قبل، هكـذا انفتح عقلي، وفهمي، ومعرفتي، وأُفقي. إنَّ هذه الحقيقة النبيلة عـن المعانـة يجب أن تُفهم هكذا أيها الرهبان. لقد فهمت أنا هذه الحقيقة النبيلـة عـن المعاناة هكذا أيها الرهبان. وقبل أنْ أتبيَّن بجلاء المعرفة الحقة الثلاثية الأبعاد وذات الأحد عشر طرفـاً، وأفهـم هـذه الحقـائق النبيلـة الأربـع، لم أعِ أيهـا الرهبان، أنَّني بلغت أسمى درجات كمال المعرفة في عالم الإلهين مارا وبراهما، خلافاً لكل الكائنات الأخرى، بمن في ذلـك النُسَّاك والـبراهمن، والآلهـة، والبشر. ومنذ أن أوضحت لنفسي بجلاء تام المعرفة الكاملة والفهـم التـام لهذه الحقائق الأربع النبيلة، منذئذٍ وأنا أعرف أيها الرهبان، أنَّني بلغت أسمى كمال المعرفة: في عالم الإلهين مارا وبراهما، بين الكائنات كلها، بمن في ذلك النُسَّاك والبراهمن، والآلهة، والبـشر. وانكـشفت لـي المعرفـة والفهـم. إنَّ خلاص قلبي راسخ لا يتزحزح، إنه ميلادي الأخير، ولـيس ثمَّـة بعـث آخـر (لي)».

لم يكتـب بـوذا موعظتـه هـذه، ولم يكتبهـا تلاميـذه أيـضاً. فهـل يمكننـا أن نثـق بأصـالتها؟ يؤكِّـد المتخصـصون أنَّ ذلـك ممكـن. فالعـارفون بتـاريخ الثقافـة الهنديـة القديمـة يؤكِّدون، أنَّ طريقة العرض (كثـرة التكـرار...) والحفـظ كانـت تـسمح بحفـظ كـل كلمـة وتذكُّرها على مدى قرون. وفي مدارس الهند بالذات، كانوا يعلِّمون أمراً واحداً أساسيَّاً، هـو إتقان الحفظ غيباً. ولو كان الأفذاذ في فنِّ الحفظ من معاصرينا هناك، لكانوا من الراسبين دوماً دون شك. ولكنَّهم، علـى أيِّ حـال دوَّنـوا عظـة بـوذا هـذه فيمـا بعـد، ونشروها باتجـاهين: شمالي وجنوبي. وليس ثمَّة تباين بـين الـروايتين الـشمالية والجنوبيـة. والأمـر غير المعتـاد بالنـسبة إلينـا، هـو حـساب الـصفات والحسنات بالعدد. فقـد اقتـبس بـوذا هـذه «الطـرق ذات الأطـراف الثمانية»، و«العناصر الخمسة»، و«المعرفة الثلاثيـة الأبعـاد، وذات الأحـد عـشر طرفـاً»، وسـوى ذلك من الأرقام الحسابية، عن المعلِّمين الذين أخذ عنهم فلسفة سامكهيا. وكلمة سـامكهيا هذه نفسها معناها «عدد». وتعدُّ هذه الفلسفة عينها فلسفة «إحصائيَّة». ونحن كنَّا قد قلنا، إنَّ الـبراهمن أقـرُّوا بوجـود الـروح الكـوني وسـعي روح كـل إنسـان للرجـوع إلى الـروح الكـوني والاندغام به. لكنَّ بـوذا أنكـر وجـود الـروح الكـوني، ومركـز الوجـود هـذا إنكـاراً قاطعـاً.

وعدَّ الأمر كله مجرَّد تصوُّر تجريدي فارغ. واعتقد بأنَّه ليس ثمَّة وجود حقيقي إلا للظاهرات الحسنة، لكنَّ هذه غير ثابتة، متغيِّرة أبداً بسبب افتقارها إلى مخرج مشترك واحد. وقد دعا بوذا هذا التقلُّب «النار التي تلتهم العالم كله». ولكنَّه بإزاحته محور الارتكاز الرئيس الذي تستند إليه لوحة العالم الواحدة: الروح الكوني، بقي بوذا وحيداً في مواجهة خطر انهيار الوجود كله. وقال: «إنَّ المركب سوف ينهار عاجلاً أم آجلاً، مثلما يجب على المولود أن يموت. فالظاهرات تختفي واحدة إثر الأخرى، ويتحطَّم الماضي، والحاضر، والمستقبل، وكل شيء طارئ وعابر، لأنَّ قانون التقويض فوق الكل. فالنهر يجري متسارعاً ولا يرجع، والشَّمس تقطع طريقها دون أنْ تتوقَّف، وينتقل الإنسان من الحياة السابقة إلى الحياة الحاضرة، وليس ثمَّة قوَّة يمكنها أنْ تعيده إلى الحياة التي انصرمت. في الصباح نرى مادَّة ما، وإذ يحلُّ المساء لا نعثر لها على أثر. فما الفائدة من الجري خلف سعادة وهميَّة؟ يسعى الآخر جاهداً لكي يحققها في هذه الحياة، بيد أنَّ جهوده تذهب أدراج الرياح، إنَّه يطرق الماء بالعصا، معتقداً أنَّها عندما تنشقُّ تبقى هكذا دوماً. فالموت يمتلك العالم بقبضة شديدة، ولا شيء قط، لا الهواء، ولا البحار، ولا الكهوف، ولا مكان في الكون كله يحجبنا عنه، ولا الثروة، ولا المجد يحميانا منه؛ إنَّ كل ما هو زمني سوف يخبو ويندثر. وكلنا أمام الموت سواسية: الثري والفقير، والنبيل والوضيع، ويموت الكهول كما يموت الشباب أيضاً، ويموت من بلغ أواسط العمر كما يموت الوليد وحتى الجنين في رحم أمِّه؛ جميعهم يموت بصرف النظر عن السن ودون أي خيار. إنَّنا نسير نحو الموت مباشرة، والطريق سوف تقودنا إليه دون ريب. إنَّ جسد الإنسان، هو نتاج عناصر الطبيعة الأربعة، وهو وعاء هشٌّ يتناثر أشلاء عند أوَّل صدمة قوية. ويشكل على طول الحياة كلها مصدراً للأهوال والقلق، والآلام. وتحلُّ الشيخوخة حاملة معها الأمراض: يتقلَّب العجوز في تشنُّجات الاحتضار كالسمكة على رماد حار إلى أن يأتي الموت أخيراً ويخلِّصه من آلامه. والحياة بدورها كالثمرة الناضجة التي تسقط مع أوَّل عصفة ريح؛ لذلك ينبغي علينا أن نحذر انقطاع تيارها في كل غمضة عين، تماماً مثلما تصمت أنغام القيثار عندما تنقطع أوتاره تحت يد العازف». وليس ثمَّة ملجأ أو حمى سوى النرفانا. «فالنرفانا هي ماء الحياة الذي يروي عطش الأماني، إنَّها المداوية التي تبرئ من الآلام كلها».

«بعد دورة متواصلة من أشكال الوجود التي لا عدَّ لها، وبعد تبديل أحوال لا حصر لها، بعد الجهود كلها، والتوتُّرات، والقلق، والآلام الملازمة لنزوح الروح، نرمي أخيراً عن كاهلنا عبء أغلال الخوف، ونتحرر من كل

شكل من أشكال الوجود، والزمان والمكان ونستغرق في السكينة، في مأمن عن الأحزان كلها، والآلام كلها، ونغرق في نعيم لا ينتهكه أيُّ شيء: نغرق في النرفانا».

إذن بما أنَّ كل وجود معاناة، فإنَّ الخلاص من هذه الأخيرة يقضي بتدمير الوجود نفسه، «بإطفائه في النرفانا». ولهذا فإنَّ المسألة الرئيسة تتلخَّص في الإجابة على السؤال التالي: كيف نفعل ذلك بالضَّبط؟ لقد ألقى بوذا موعظته الأولى على خمسة رهبان، ويصفهم البوذيون الجنوبيون «بمجموعة الخمسة»، بينما يصفهم الشماليون بالذين «يؤلِّفون المجموعة الرائعة». ثمَّ التفت إلى تعاليم بوذا إضافة إلى الرهبان الخمسة، ابن أحد الحرفيين الأثرياء، وحذا حذوه والده، وزوجته وأصدقاؤه الكثر. وبذا بات عدد طائفة بوذا حوالي الستين نفراً. وكان بوذا يولي اهتماماً كبيراً لنشر تعاليمه. فأخذ يرسل تلاميذه إلى مختلف الأرجاء مزوِّداً إياهم بالكلمات التالية: «امضوا، اذهبوا إلى كل مكان لتحملوا الخلاص إلى أناس كثيرين، من الآلام إلى السلام، إلى الخير، خلاص وغبطة الآلهة والبشر». وأشار عليهم بألاَّ يذهبوا في الطريق عينها اثنين معاً، بل واحداً واحداً لكي تنتشر التَّعاليم أسرع فأسرع. وهذا ما حصل فعلاً، إذ شاعت تعاليم بوذا شيوعاً واسعاً بزمن قياسي. فقد كانت تلك تعاليم مفتوحة للجميع، ولم يشكل الانقسام الكاستي عائقاً في طريقها. وكان بوذا نفسه يعظ دون توقُّف. فذهب إلى أورفيلا، حيث انضمَّ إلى طائفته ألف براهمن، وكان على رأسهم ثلاثة أخوة من سلالة كاشيانا. وأمام الأتباع الجدد ألقى بوذا عظة جديدة عرض فيها لبَّ تعاليمه، ويحلو للمتخصصين أنْ يعقدوا مقارنة بين عظة بوذا هذه وعظة المسيح على الجبل. ففيها لخَّص بوذا، كما فعل المسيح في عظة الجبل، الموضوعات المنهجيَّة لتعاليمه، ولذلك تدعى تلك الموعظة «عظة الجبل البوذيَّة». لقد قال بوذا في تلك الموعظة:

«اللَّهيب يلفُّ كل شيء أيُّها الرُّهبان، فما هو هذا الكل شيء أيُّها الرُّهبان، ما الذي يلفُّه اللَّهيب؟ العين أيُّها الرُّهبان يلفُّها اللَّهيب؛ والأشياء المدركة يلفُّها اللَّهيب؛ والانطباعات الرُّوحيَّة التي يثيرها البصر، يلفُّها اللَّهيب؛ والانطباع الناشئ عن ذلك يلفُّه اللَّهيب، ولكنْ هل هو محبَّب أم مؤلم، أم هو غير محبَّب وغير مؤلم؟ فأيُّ نار ألهبت كل شيء؟ الحق أقول لكم إنَّها نار الشَّهوة، نار البغض، نار العمه؛ يشعلها الميلاد، والشيخوخة، والموت، والرزيَّة، والحزن، والمرض، والكرب، واليأس! والأذن والأصوات

يلفُّهما اللَّهيب أيُها الرُّهبان، والأنف والروائح، واللسان والطعم، والجسد والملامسات، والنَّفس والانطباع يلفُّها اللَّهيب (يلي ذلك الحديث نفسه عن باقي أقسام الجسد والروح). وإذا ما وازن المستمع الضَّليع في الكتب والمواكب للطَّريق النَّبيلة، هذا كله فإنَّ عينه سوف تُسئمه، وستبعث الأشياء المرئيَّة السأم في نفسه أيضاً، وسوف تسئمه كذلك الأحاسيس التي تنشأ عن ذلك، محبَّبة أم ممضَّة، غير محبَّبة أم غير ممضَّة (يتكرَّر بعد ذلك النصُّ عينه بصدد الأذن، والأنف، واللِّسان، والجسد، والرُّوح). وحين يسئمه هذا كله لأنَّه يتحرَّر من الخوف، وعبر تحرُّره من الخوف يحقِّق الخلاص. وحين يحقِّق الخلاص يعي أنَّه أُنقذ، فيتَّضح له أنَّ البعث قد انتهى، والقدسيَّة تحقَّقت، وأنَّه أدَّى واجبه، ولا عودة له إلى هذا العالم بعد».

وكان بوذا قد زار من قبل مدينة راجا غريها، قبل أنْ يبلغ الصَّحوة. وقد استقبله ملكها المحلِّي بيمبيسارا على الرَّحب والسَّعة، بل حسب الروايات أنَّه عرض عليه نصف مملكته، ومن الواضح طبعاً أنَّ بوذا رفض عرض الملك. لكنَّه وعد بزيارة المملكة مرَّة أخرى. وها قد آن أوان الزيارة. فبعد أورفيلا زار بوذا بيمبيسارا، فاعتنق الملك وعدد كبير من مواطنيه تعاليم بوذا. وبقي الملك طوال حياته حامياً لبوذا.

لقد أهدى الملك بيمبيسارا بوذا متنزَّهاً كبيراً: دغلاً من القصب، وقد ارتبط بذلك الدَّغل كثير من أحداث حياة بوذا.

وفي راجا غريها قابل بوذا تلميذين جديدين، هما شاريبوترا، وماودغالياتشنا. وعندما قابل هذان تلميذ بوذا أخذا يستوضحان منه جوهر التَّعاليم. فأجابهما هذا قائلاً: «إنَّ أشكال الوجود لها علَّة، وقد أعلن الكامل هذه العلَّة، وفيها نفسها هلاكها. هكذا علَّم النَّاسك العظيم». وشرح شاريبوترا هذه الصِّيغة المبتسرة للتعاليم على الوجه الآتي: «كل ما هو خاضع للنشوء، خاضع للزوال». فقال شاريبوترا لأشفاجيت: «إذا كانت التعاليم لا تتضمَّن شيئاً آخر غير هذا، فأنت عثرت على الملجأ الذي لا معاناة فيه، والذي بقي آلافاً مؤلَّفة من القرون الكونية متخفياً غير مرئي!». وهكذا أدرك بوذا أين تكمن علَّة أشكال الوجود، أي سلسلة الولادات كلها، وكيف يمكن سحقها.

كانت تعاليم بوذا شائعة جداً، وانضمَّ إلى طائفته كثير من شباب الطبقات النبيلة الذين كانوا يشغلون مكانة اجتماعيَّة مرموقة. فأثار ذلك سخطاً كبيراً، لأنَّ الفتيات

الثريات لم يعدن يجدن مَنْ يتزوَّجهن، وبقيت السلالات الأرستقراطية من غير ورثة. فصاح الشَّعب مردداً وراء رهبان بوذا: «لقد جاء الناسك العظيم إلى هيريفراجا، مدينة المهادهيين؛ وحوَّل تلاميذ سامجاي كلهم، فمن الذي يفكِّر أنْ يحوِّله اليوم؟».

وتلبية لرغبة والده زار بوذا منزله في مدينة كابيلا فاستو. ومع أنَّ كثيراً من الملوك كان يشرِّفه وقتذاك أنْ يستقبل بوذا في قصره، إلاَّ أنَّ والديه لم يكونا راضيين عن حاله. ولم يكن سبب ذلك كبرياؤهما الملكية فقط، بل تردِّي حالة مملكتهما إلى درجة مزرية. فقد كانت تلك الممالك الصغيرة في الهند الوسطى، بقايا اتحاد دول ومدن سبق وجودها. وكانت تنمو وتقوى إلى جانبها دولتا كوسالا وماهادها. وقد سعت هاتان إلى إقامة مملكة واحدة مشتركة. وكان حكَّام الدُّول والممالك الصغيرة يدركون جيِّداً أنَّ نهاية استقلالهم آتية لا محالة. ولذلك كان والد بوذا شديد القلق بسبب هجرة ولده لشؤون الحياة الدُّنيا. ففي ذلك الوقت عينه كان حكَّام كوسالا يصيدون على أراضي الساكيين دون إذن، عادِّين إيَّاها من أملاكهم. كما تطاول أحدهم وأخذ فتاة ساكية زوجة له بالقوَّة. وكان ذلك أمراً مهيناً بالنسبة للساكيين لأنَّ حكَّام كوسالا كانوا ينتمون إلى كاستة وضيعة. وقد تطوَّرت الأحداث في هذا الاتجاه متسارعة، ففي حياة بوذا نجحت دولة كوسالا في ابتلاع وطنه.

لقد ترتَّبت عن زيارة بوذا لمنزله ومدينته الأُمّ النتائج الآتية: انضمَّ راهولا ابن بوذا إلى الطائفة. وقبل أخوه غير الشَّقيق ناندا، الذي كان يجب عليه أنْ يتزوَّج. كما قبل في الطائفة ولدا عمِّ بوذا: أناندا ودافاداتا. وكان مقدَّراً أنْ يغدو الأوَّل منهما تلميذ بوذا الحبيب (كما كان يوحنا لدى المسيح)، والثاني خائناً: يهوذا الأسخريوطي. لقد صار أناندا رسميَّاً، راهباً بعد عشرين عاماً من التلمذة على يد بوذا. لكنَّه رافق بوذا كظله، وحفظ عنه أكثر مما حفظ جميعهم عنه. ومات بوذا على يدي أناندا، تلميذه الحبيب. وقال أناندا عن نفسه: «لقد خدمت السيِّد ٢٥ عاماً، بالحب، والقلب، واللسان، واليدين ولم افترق عنه كما لم يفترق عنه ظلُّه».

أما دافاداتي فقد بقي أعواماً طويلة يحسد بوذا. ولكنَّ خيانته لم تظهر علناً إلاَّ فيما بعد، حينما بلغ بوذا السبعين من عمره، عندئذ طلب دافاداتي من بوذا أنْ يعلنه قائد الطائفة، أي أن يجعله عمليَّاً وريثه. لكنَّ بوذا رفض طلبه. فأحدث دافاداتي انقساماً في الطائفة. إذ طالب بمزيد من الصرامة في ظروف عيش الرُّهبان. فطالب بألاَّ تكون إقامة الرُّهبان في القرى، بل في الغابة، وألاَّ يعيشوا إلاَّ على الصدقات (رافضين أيَّ دعوات إلى الموائد)، وألاَّ يرتدوا سوى الأسمال، وألاَّ يقتاتوا إلاَّ بورق الشجر، وألاَّ يستهلكوا اللحوم في طعامهم أو

الأسماك، وألاّ يفيدوا من السقوف. وقد ضمَّن دافاداتي هذا كله الميثاق الذي أعدَّه للطائفة. لكنَّ بوذا رفض هذه المطالب كلها، لأنَّه على وجه العموم كان يرفض كل تطرُّف في التَّقشُّف. بيد أنَّ فريقاً كبيراً من الرُّهبان أقرَّ ميثاق دافاداتي، وانفصل عن الطَّائفة خمس مائة راهب. وثمَّة رواية تقول، إنَّهم أعلنوا ندمهم وتوبتهم بعد وقت وعادوا إلى الطائفة. لكنَّ رواية أخرى تفيد بأنَّ دافاداتي نفسه عاد وقد أضناه عذاب الضَّمير. ويبدو أنَّ الرواية الأولى هي الأصحُّ، لأنَّ أنصار دافاداتي كانوا لا يزالون موجودين في الهند حتى القرن ٧م.

وعلى أيِّ حال، كان يمكن لدافاداتي أنْ يتصرَّف في الحال المعنية وفق قناعاته. لكنَّ موقفه مع الملك بيمبيسارا كان بالتَّأكيد موقفاً خسيساً. فمن المعروف نَّ بيمبيسارا اتَّخذ من بوذا موقفاً أبويَّاً، الأمر الذي لم يعجب دافاداتي. فحرَّض أجاتاشاترا ابن الملك على قتل والده والاستيلاء على العرش. بيد أنَّ الابن اعترف لوالده بكل شيء في لحظة ندم. فقال الأبُ الملكُ لابنه، إنَّ العرش لا يساوي كره الابن لأبيه، وتنازل له عن المُلك. ومع ذلك لم يتراجع دافاداتي عن خسَّته ونجح في التحريض على إيصال الملك الذي تنازل عن العرش إلى درجة الموت جوعاً. وفي آخر المطاف ندم الابن وجاء إلى بوذا طالباً الصُّفح. فصفح عنه، وقُبل في الطائفة.

لقد وصفت المصادر القديمة الطَّور الأوَّل والطَّور الأخير من تنسّك بوذا وصفاً أكثر كمالاً. أمَّا الطَّور المديد الذي يتوضَّع بينهما فلم يبقَ لنا عنه سوى معلومات قليلة. ويميل العلماء إلى القول، إنَّ تلك السَّنوات سارت على وتيرة واحدة: جاب بوذا البلاد مبشِّراً بتعاليمه، مجنِّداً أنصاراً جدداً. ولكنَّنا معفيون من الشَّكِّ في كون كل شيء قد حصل: الصعوبات، والخداع، والغدر، والخيانة، والفشل. وفي هذا تكمن الحياة نفسها. ففي فصل الأمطار «٤ أشهر» كانت الحركة تتوقَّف (بما في ذلك التِّجارة). فيلجأ الرُّهبان إلى أكواخهم أو سقائفهم المغلقة ويديرون حواراتهم. وقد أقام هؤلاء في الأدغال التي أهديت تقدمات للطائفة. وكان بوذا نفسه يقضي فصول الأمطار في ضواحي المدن الكبرى مثل مدينة فيلوفان، وراجاغريها، وشرافاستي. وكان يقع هنا على مقربة من شرافاستي «دغل جيتا» الذي أهداه لبوذا التاجر الثري أناتهابيندينا الذي كان من أتباع تعاليمه الغيورين. لقد كان المكان هو المكان المحبَّب إلى قلب بوذا؛ وكان سكان المدن يتوافدون عليه وعلى رهبانه ليستمعوا إلى المواعظ عن التعاليم الجديدة.

لقد كان نظام عيش الرُّهبان على الوتيرة التالية: الفترة الصباحية للتمارين الرُّوحيَّة؛ ثم بعد ذلك يحملون مواعينهم ويتوزَّعون لجمع الصَّدقات؛ يلي ذلك قيلولة الظهر؛ وفي المساء يأتي

المؤمنون إلى الرُّهبان. كما كان الرُّهبان وبوذا يتلقُّون دعوات إلى مائدة الغداء. وكانت تلك الدعوات تأتي من الأغنياء كما من الفقراء. وكان بوذا يقبلها بالدَّرجة عينها من الشُّكر والامتنان. وعندما لم يكن ثمَّة ما يؤكل كان بوذا يحمل ماعونه كأيٍّ راهب آخر ويجول يجمع الحسنات.

وما يجب التَّنويه إليه في هذا السِّياق، هو أنَّ جمع الحسنات كان محكوماً بقواعد صارمة. فالرَّاهب لا يدخل بيتاً بطلب الصَّدقة، إلاّ مغطّى بردائه العلوي ونظره إلى الأرض. ولم يكن مسموحاً له أنْ يبقى في البيت وقتاً طويلاً. وكان عليه أنْ ينتظر الصَّدقة صامتاً إلى أنْ يملؤوا له الماعون. وفي أثناء ذلك كان عليه ألاّ ينظر إلى وجه مَنْ يتصدَّق عليه. بعد ذلك كان على الراهب أن يغطِّي الماعون المليء بردائه وينسحب بهدوء وصمت. وفيما يتعلَّق بالنِّساء، حذَّروا الرُّهبان التحذير التالي: «أيُّها الرُّهبان، إيَّاكم أن تنظروا إلى النساء! فإذا قابلتكم امرأة، لا تنظروا إليها، واحذروا أنْ تكلموها. ولكن إذا تحدَّثتم إليها فضعوا في أذهانكم: أنا راهب، ويجب أنْ أعيش في هذا العالم الآثم كزهرة اللوتوس التي لا يلوِّثها الطِّين. أمَّا العجائز منهنَّ فيجب أنْ تنظروا إليهنَّ كما تنظرون إلى أمهاتكم، وإلى الأكبر منكم قليلاً كما إلى أخواتكم الكبريات، وإلى الأصغر كما إلى أخواتكم الصغيرات». وهناك نصوص تتضمَّن تحذير الرُّهبان من النساء. ومنها على سبيل المثال النَّصُّ التَّالي: «إذا ما توفَّرت فرصة مناسبة، أو مكان مستور، أو غاو مناسب، فإنَّ كل امرأة مستعدَّة لارتكاب الإثم حتى مع مشوَّه، إذا لم يكن هناك آخر». أو كما في نصٍّ آخر: «الأنهار كلها تجري متعرِّجة، والغابات كلها تتألَّف من شجر، والنِّساء كلهنَّ قادرات على ارتكاب الإثم، إذا ما رأين أنهنَّ يستطعن ذلك دون عقاب».

وفي غالب الأحيان كان الرُّهبان يتعرَّضون للغواية. والدَّليل على هذا، هو الحادثة التالية: «دخل دار تاجر يوماً راهب فتيٌّ ساحر الحسن، فرأته زوجة التَّاجر الشَّابَّة، وأغرمت بجمال عينيه في اللَّحظة. فقالت له: لماذا أخذت على عاتقك هذا النذر اللَّعين؟ ما أسعد المرأة التي تنظر إليها هاتان العينان. عندئذ اقتلع الراهب إحدى عينيه ووضعها على كفِّه وقال لها: انظري يا أُمِّي، هذه هي قطعة اللحم العفنة هذه؛ فخذيها إذا كانت تعجبك. والعين الثانية مثلها أيضاً. قولي لي: أي شيء جميل فيها؟».

لقد كان الرُّهبان يتقبَّلون بهدوء رفض إعطائهم الحسنات. وما كانوا يجمعونه منها كان يوزَّع على الوجه الآتي: حصَّة للفقراء، وحصَّة للكواسر والجوارح، والباقي لغداء المشاركين.

أمّا القاعدة الأخلاقيّة، المسوغ الأخلاقي لتلقّي الرُّهبان الحسنات، فإنّنا نجده في النّصّ التّالي المأخوذ من سوتّانيياتي:

> «هذا ما سمعته أنا. جاء السّيِّد (أي بوذا) يوماً إلى ماهادها في ديكشيناجيري، إلى قرية البراهمن: الإيكانالي. وكان الوقت وقت زراعة المزروعات، وللبراهمان كريشيبهارادفاراجي ٥٠٠ محراث مقرون. وفي الصباح ارتدى السّيِّد رداءه، وحمل ماعونه ومضى إلى المكان الذي كانت تجري فيه أعمال البراهمان كريشيبهارادفاراجي. وحين آن وقت توزيع الطّعام، ذهب السّيِّد إلى هناك ووقف بعيداً. وإذا رآه البراهمان ينتظر حسنة قال له: أنا ناسك أحرث وأزرع، ولا آكل إلاّ مما أحرث وأزرع. وأنت أيضاً ناسك، وعليك أنْ تحرث وتزرع، ويجب ألاّ تأكل إلاّ مما تحرث وتزرع. وأنا كذلك براهمان، أحرث وأزرع وآكل بعد أنْ أحرث وأزرع. ولكننا لا نرى عندك يا هاوتاما نيراً، ولا محراثاً، ولا سكّة محراث، ولا ثوراً، ولا بغالاً. عندئذٍ قال السّيِّد: الإيمان بذاري (الذي أزرع)، وترويض النّفس هو المطر (الذي يخصب بذاري)، والمعرفة نيري ومحراثي، والتواضع مقبض محراثي، والعقل مركبتي، والتّفكير سكّة محراثي وثوري. وأنا نقيُّ الروح نظيف الجسد، معتدل في طعامي؛ أنا أقول الحقيقة لكي أستأصل النّفاق (الكذب)؛ والرحمة هي مقروني، والجهد حيوان عملي الذي يحملني إلى النرفانا؛ إنّه يمضي بي ولا يلتفت إلى المكان الذي ليس للآلام فيه مكان. تلك هي حراثتي، وثمرتي هي الخلود؛ ومن يحرث هكذا، يتحرر من الآلام كلها. عندئذ سكب البراهمان الرز المطهوّ بالحليب في ماعون ذهبي وقدّمه إلى السّيِّد قائلاً: كل يا هاتاوما، نعم أنت الفلاح، لأنّك تحرث حرثاً ثمرته الخلود».

وعرفت طائفة بوذا قواعد سلوك وعيش مشترك محددة ضبطت سلوك الرُّهبان، فقد دعي أعضاء الطائفة بالفقراء (بيكشو)، لأنَّ واحدهم كان ملزماً عند الانضمام إلى الطائفة ألاّ يملك شيئاً أكثر مما هو ضروري للعيش. والتزم عضو الطائفة بأن يحيا حياة صارمة: أن يكون صادقاً، نقيَّ الروح، هادئاً، لطيفاً، ذي هوى، ووقوراً. كما كان عليه أنْ يرتدي رداء مخيطاً من مزق قديمة مرميّة. وفرض عليه أنْ يلتزم باللون الأصفر (لأنَّ بوذا هرب من حياته

الدنيا برداء أصفر). لقد كان على أعضاء الطائفة أن يحلقوا شعر رؤوسهم ولحاهم. وكان من حقِّ كل منهم أن يكون له ثلاثة أردية (بعدد الفصول)، وبساط، وماعون لجمع الحسنات، ومأبرة وكبَّة خيوط، وزوج من الجرابات، ومداسان، وحرِّم عليهم مجرَّد ملامسة الأشياء الثمينة.

وكان كلهم يقبل في الطائفة على حدٍّ سواء، بصرف النَّظر عن الانتماء الكاستي وامتلاك الثَّروة. فالمقياس الأهمُّ واحد: اعتناق تعاليم بوذا وعقد النِّيَّة على تحقيق الخلاص. لكنَّ مَن انتسب للطائفة منذ زمن، كان يحظى بسمعة أكبر. فالبراهمان على سبيل المثال قد يُفسح للسودرا إذا كان هذا الأخير قد انضمَّ إلى الطائفة قبله. وغنيٌّ عن البيان أنَّهم لم يقبلوا في عضوية الطائفة المرضى بأمراض معدية، أو بأمراض مستعصية، ولم يقبلوا العبيد (قبل أنْ ينالوا حرِّيَّتهم)، ولا الموظَّفين، أو الجنود الذين في الخدمة. أمَّا صغار السن فقد كان قبولهم مشروطاً بموافقة والديهم. وفي حال قبولهم في الطائفة يوضعون تحت إشراف مرشد إلى أن يبلغوا سنَّ الرُّشد. وكان ثمَّة فترة اختبار مدَّتها أربعة أشهر يخضع لها حتى الراشدون الذي ينضمُّون إلى الطائفة. وكان على كل من هؤلاء أنْ يختار لنفسه مرشداً.

كما كان ثمَّة طوائف للنِّساء أيضاً. وهاكم قصَّة تأسيسها. بعد أنْ توفِّي والد بوذا لم تستطع زوجته (خالة بوذا) أن تتعزَّى، فجاءت ومعها خمس مائة امرأة من سلالة بوذا وطلبت منه قبولهنَّ في الطائفة. وكانت النسوة قد قصصن شعر رؤوسهنَّ وجئن إلى بوذا سيراً على الأقدام. وهنا في مقرِّ الطائفة في مدينة فايشالي، توسَّلت مهابراجاباتي بوذا وقَدَماها متورِّمتان ووجهها أضناه الحزن، أنْ يقبلها ومَنْ معها من النسوة في الطائفة. ولكنَّ ذلك لم يكن أمراً معتاداً في ذلك الزَّمن، ولذلك عارض بوذا مسألة القبول طويلاً. بيد أنَّه في آخر المطاف وافق على قبول النساء في طائفة مستقلة شريطة تأديَّتهنَّ ثمانية شروط: «القواعد الثماني العظمى»:

١- على الراهبة أن تنحني للراهب حتى لو كانت مكرَّسة قبله بمائة عام، فتقوم له من مجلسها وتستقبله بالاحترام الواجب له؛

٢- لا تستطيع الراهبة أنْ تقضي الوقت الماطر في مكان ليس فيه راهب؛

٣- عليها أنْ تطلب من طائفة الرُّهبان مرَّتين كل شهر تحديد يوم أوبافاساتها وتتوجَّه إليه طالبة الإرشاد؛

٤- عليها حين ينتهي الوقت الماطر أنْ تطرح على اجتماع الرُّهبان والراهبات ثلاثة أسئلة: هل رأى أحد ما شيئاً ما سيِّئاً بدر عنها، أو هل سمع، أو هل يظنُّ شيئاً؛

٥- وإذا ما خالفت أيّاً من القواعد العظمى الثماني، فيجب أنْ تعاقب في اجتماع الرُّهبان والراهبات مدَّة أسبوعين ندماً وتوبة وتكفيراً؛

٦- من حقِّها أنْ تطلب من طائفة الرُّهبان والراهبات أن تنعما عليها بالاوپاسامپادا، لكنْ فقط بعد أنْ تتعلَّم خلال سنتين ستة واجبات؛

٧- لن تجرؤ يوماً وفي أيِّ ظرف أن تشتم الرُّهبان أو تعيِّرهم؛

٨- يمكن للرَّاهبة أنْ تطلب النَّصيحة من الراهب، وليس الراهب من الراهبة.

علاوة على الأشياء التي سمح للراهب اقتناءها، كان يمكن للراهبة أن تقتني سترة وبدلة حمَّام. أمَّا التَّبرُّج فقد حرِّم عليهنَّ تحريماً قاطعاً. ولم يسمح للراهبات بالعيش في الغابة، بل فرض عليهنَّ أنْ يقمن في المدن أو القرى، وليس بمفردهنَّ.

لقد كان بوذا يعاني مشكلات خطيرة في طائفته، فتنظيمها كان تنظيماً فريداً من نوعه. أولاً، لم يكن في الطائفة أيُّ تراتبية، الأمر الذي أعاق إدارة شؤون الطائفة. ومع أنَّ كبار الرُّهبان عدُّوا الأهمَّ والأكثر تأثيراً، بيد أنَّه لم يكن لذلك أيُّ نتائج عمليَّة. وما زاد الأمر سوءاً أنَّ الانضمام إلى الطائفة كان مفتوحاً لِمَنْ يشاء. إذن كان يمكن أن يجد لنفسه ملجأ هنا كل فارٍّ من تأدية الخدمة العسكريَّة، أو تسديد دين أو كل مَنْ ارتكب جريمة، و... كما كان الانسحاب من الطائفة حرّاً بدوره. وهكذا كان كادر الطائفة متبدِّلاً غير ثابت. ضف إلى هذا أنَّ بوذا كان يرسل رهبانه ليبشِّروا بتعاليمه في شتَّى أرجاء البلاد. وعندما كان هؤلاء يعودون كانوا يتحدَّثون في أوساط الطائفة عن تعاليم، ورؤى، وأنظمة أخرى اطلعوا عليها في أثناء رحلاتهم. وكان من شأن ذلك كله أن يثير الطائفة، ويدفعها إلى التَّململ، وأحياناً إلى العصيان.

فالدهامابادا مثلاً تصف لنا نزاعاً خطيراً نشب في الطائفة في العام التاسع من نشاط بوذا التبشيري. وكان النزاع قد بدأ عندما انتهك أحد الرُّهبان ميثاق الطائفة أثناء غياب المعلم. فحسب الميثاق كان الراهب ملزماً أنْ يقرَّ بذنبه علناً ويعلن ندمه وتوبته. لكنَّ الراهب المعني رفض أنْ ينفِّذ المطلوب، فأقرَّت الطائفة طرده. ولكنْ سرعان ما انتشر الصدام، لأنَّ الراهب

المذنب كان له أنصار كثر. ووصل الأمر حدَّ العراك بين المتخاصمين على مرأى من المؤمنين. ووجَّه الرُّهبان انتقادات حادَّة إلى بوذا نفسه:

«ارحل أيُّها السَّيِّد والمعلِّم السَّامي، تنعَّم براحة البال، هب اهتمامك كله وتفكيرك كله لتعاليمك، فنحن بتنا قادرين على حلِّ نزاعاتنا، وخلافاتنا من غيرك».

ولم يجب بوذا على هذا، بل قام ومضى. وفي اليوم التالي جمع الرُّهبان ووقف في وسطهم وأنشد الأبيات الآتية:

«عالٍ هو الصَّخب الذي أثاره ناس عاديون. لا أحد يرى نفسه غبياً،
عندما ينشأ النزاع في الطائفة، ولا أحد يرى الآخر أعلى منه».

ثمَّ تابع قائلاً:

«إذا لم تجد صديقاً ذكيَّاً، رفيقاً مستقيماً، ثابتاً، فعليك أنْ تجوب وحيداً
كالملك الذي ترك مملكته التي أضاعها، كالفيل في غابة الفيلة. من الأفضل
أنْ تجوب وحيداً، لأنَّه لا شراكة مع أحمق. وإذ تجوب وحيداً لا تقترف إثماً
وتبقى بلا همٍّ، كالفيل في غابة الفيلة».

وترك بوذا أنصاره بعد ذلك ومضى إلى تلاميذه الذين كان يحبهم. وقد وجد معهم سكينة روحه، ولكنَّه سرعان ما تركهم إلى باريليانا. وأقام هناك في مغارة معزولة يتمتَّع بوحدته وسكونها. هكذا قضى بوذا فصل الأمطار العاشر. وتوجَّه بعد ذلك إلى جيتافانا.

أمَّا الرُّهبان المتمرِّدون فقد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم، أو بمعنى أدقّ، عاقبهم المؤمنون. إذ هدَّؤوا غضبهم وامتنعوا عن منحهم الحسنات. ولم يعد الحديث ممكناً عن أيِّ إجلال أو احترام. فصارت ظروف العيش مستحيلة، عندئذٍ جاء الرُّهبان إلى بوذا يطلبون الصفح. فعاقب المذنبين بالصَّوم والصَّلاة، وصفح عن الباقي.

وقد وصفت لنا المصادر القديمة كثرة من مثل هذه النِّزاعات في طائفة بوذا. فبعد موت هذا الأخير مثلاً، قال راهب يدعى سوبهاردا لأعضاء الطائفة: «كفُّوا أيُّها الأخوة عن الشَّكوى والشَّجن! إنَّه لحسن حظِّنا أنَّ تخلَّصنا من الناسك العظيم. لقد أضنانا بقوله: هذا يليق بكم وذلك لا يليق بكم. إنَّنا نستطيع أنْ نفعل الآن ما يطيب لنا. إذن بعد وفاة بوذا سرعان ما تبعثرت طائفته.

لقد كان مقدَّراً لبوذا أنْ يشهد سقوط مملكة سلالته الساكية قبل وفاته بزمن طويل. والسَّبب الموضوعي لذلك السقوط واضح: مملكة صغيرة، ضعيفة عجزت عن الصمود

أمام ضغط دولة جبّارة. ولكنَّ المؤرّخين يبحثون في تلك المأساة عن دوافع شخصية، وهو ما نرى أنّه يحرِّف الجوهر الحقيقي لما حدث. فالعداء بين مملكة كابيلافاستو وملك كوسالا الجبّار بدأ حينما انتزع هذا الأخير فتاة من السلالة الساكية زوجة له بالقوّة. فقد رأى الساكيون في ذلك إهانة كبرى لهم، وأشاعوا أنَّ الفتاة لم تكن تنتمي يوماً إلى السلالة الساكية، وإنّما هي مجرَّد أمة بسيطة تجمع الزهور. زد على هذا أنَّ الساكيين حاولوا مراراً قتل ولي عهد كوسالا فيروتشجاكي. وما أن استوى هذا على العرش حتى أخذ يستعد للحرب ضدَّ الساكيين. وقد أدرك الساكيون حقيقة الخطر الذي يتهدَّدهم، فطلبوا من بوذا أن يسوِّي المسألة سلميَّاً. لكنَّ مساعي بوذا باءت بالفشل. فلم تكن الكبرياء الجريحة وحدها التي تحرِّك ملك كوسالا، وإنما الضرورة الاقتصادية الملحة المتمثِّلة في ضمِّ أراضي الساكيين الخصيبة الغنية. لقد دمَّرت كابيلا فاستو عاصمة الساكيين، وأُبيد أكثر من مائة ألف من سكانها. ومن نجا من الساكيين فرَّ إلى نيبال والدول المجاورة الأخرى. وعندما كانت المأساة دائرة حاول بوذا أنْ يوقف الغزاة بالمباحثات السلميَّة، بيد أنّه شهد بعدئذ وقوعها. لقد كان وقتئذٍ في أحد أدغال ضواحي العاصمة مع تلميذه المفضَّل. فسمع صخب المعركة، وصليل السيوف، وصراخ المجندلين وأنّاتهم. لقد عجز بوذا عن درئ ما وقع. فقال: «إنّه قدرهم».

أمَّا آخر شهور حياة بوذا، فقد وصفت بالتَّفصيل في مهابارينيباناسوتا. لقد قضى آخر فصل أمطار في قرية بيلوفا الواقعة على مقربة من فايشالي. فقد مرض هنا مرضاً شديداً. وما أن تعافى حتى قام وذهب إلى كوشيناغارو، إلى عاصمة المالأسيين. وتوقف في طريقه إلى هناك في قرية بافو، حيث لسوء حظّه تناول وجبة غداء من لحم الخنزير الغني بالدهن. فأضرَّ ذلك كثيراً بصحَّته، ولمَّا بلغ ضواحي كوسيناغارا كانت حالته الصِّحيَّة قد ساءت كثيراً. ولم يعد يقوى على المضيِّ قدماً. لقد أضناه العطش. فجاء تلميذه المحبَّب بالماء ليروي ظمأه القاتل. ثمَّ أعدَّ له مضجعاً من بساط تحت الشجرة سالا، فاستلقى عليه بوذا ورأسه نحو الشمال. فأخذ التلميذ أناندا يبكي. وأخذ بوذا يهدِّئ من روعه: «كفى يا أناندا، لا تبتئس ولا تشكو. ألم أقل لك إنَّه ينبغي أنْ نفارق مَنْ نحب ومَنْ تطيب لنا صحبتهم؛ يجب أنْ نفقدهم يوماً، لا بدَّ من ذلك. فكيف يمكن يا أناندا لمن ولد، وتشكل، وانبنى، ألاَّ يفنى، ألاَّ يتهدَّم؟ إنَّ هذا لا يمكن أنْ يكون. أنت يا أناندا خدمت الكامل طويلاً بكل الحبِّ والمجاهدة، لكي تفعل خيراً، دون رياء ودون كلل، خدمت بقلبك، ولسانك، ويديك. لقد صنعت الخير يا أناندا؛ فحاول أنْ تتحرَّر من الإثم في أسرع وقت». وبعد ذلك أرسل بوذا أناندا إلى كوسيناغارا ليعلن أنَّ بوذا يحتضر. وفي تلك الأثناء كان سكان المدينة يناقشون شؤونهم

في مبنى المجلس، فقاموا من توِّهم، مع زوجاتهم وأولادهم ومضوا إلى بوذا نائحين باكين. فسجدوا للمعلّم العظيم وتوسّلوا الآلهة أنْ يبقوا على حياته. وكان الراهب سوبهادرا آخر مَنْ خاطبه: «آخر تلاميذ السيِّد». وبعدئذ خاطب بوذا أناندا بالكلمات الآتية: «قد تخطر لكم يا أناندا فكرة، أنَّ التعاليم فقدت معلّمها، وليس من معلّم بعد. ولكن ينبغي ألاَّ تنظروا إلى الأشياء هكذا يا أناندا. فالقانون والانضباط اللذين أعطيتهما لكم، سوف يكونان المعلّمين بعد موتي». ثمَّ سأل بوذا الرُّهبان ما إذا كان عندهم شك ما في تعاليمه. فصمت جميعهم، وأدركوا أنها النهاية. عندئذٍ نطق بوذا بكلماته الأخيرة: «أيُّها الأبناء هذا ما أقوله لكم: فانٍ كل ما ينشأ، كونوا غيورين جداً على خلاصكم!». بعد هذه الكلمات فقد بوذا وعيه ومات.

ألقى أنورودها خطبة في الرُّهبان دعاهم فيها إلى التماسك. ومضى أناندا ثانية إلى سكان المدينة وأعلن في هذه المرَّة موت المعلّم. فحزن هؤلاء حزناً عظيماً، وكرَّموا المعلّم الميت سبعة أيَّام متواصلة بالرَّقص، والغناء، والموسيقى، وأكاليل الزهر، وحرق البخور. وفي اليوم السابع أُحرق جثمان بوذا في مكان مقدَّس يقع قرب كوساناغارا. وقد حمل الجثمان إلى مكان الحرق ثمانية من أشهر شخصيات المدينة. وجرت مراسم الحرق بالاحترام اللائق بالمعلّم سيِّد العالم. ووزِّع رماد الجثمان على مختلف الأمراء والنُّبلاء. وبعد أنْ مات بوذا رغب كل من مبجليه المشاهير اقتناء شيء ما من أشيائه التي تركها. ولمّا كان بوذا قد مات عند المالاّسيين، فقد رأى هؤلاء أنهم أحقُّ بامتلاك ذخائره، وعدُّوا أنفسهم ورثته الشرعيين. ولكن الملوك والسلالات النبيلة ألحّوا على مطالبهم، فتوصلوا أخيراً إلى مساومة: وزَّعوا الأشياء التي تركها بوذا على ثمانية أجزاء، أخذ كل من الذين طالبوا جزءاً، ويقول المؤرِّخون، إنَّ دورنا حصل على الكأس التي كان بوذا يشرب فيها عندما كان على قيد الحياة. وبعد أنْ وزِّعت الأشياء، وصل سفير ماورياسام بيبهاليفانا. فأعطوه ما تبقى من الفحم الذي أُحرق عليه جثمان بوذا. وقد حاول كل مَنْ حصل على شيء من أشياء بوذا، أنْ يخلّده. فبنوا لتلك الأشياء أجراناً من حجر وتراب. أما الأجران فهي لم تبنَ بالضرورة على الذخائر التي لا تقدَّر بثمن. فتخليداً لذكرى شخصيَّة مشهورة أو حدث مشهود كانوا يبنون مرتفعاً ما. وقد لا يكون هناك أيُّ شيء داخل المرتفع المعني. وإذا ما كان هناك ذخائر، فإنَّ المكان الذي توضع فيه يسمَّى دهاتوغاربها: مخزن الذخائر. وهكذا تكوَّنت في السينغالية كلمة «داغابا»، التي ينطقها الأوروبيون داغوبي. وقد أقام ساكيو كابيلا فاستو بدورهم جرناً على وعاء رماد بوذا. وقد اكتشف هذا البناء - الهضبة في العام ١٨٩٨م.، على يدي عالم الآثار بيبي، على مقربة

من بيرافا في تارسي. ففتح الباحث الجرن. وكان هناك أجران أخرى. ولكنَّ جرن بوذا كان يتميَّز عنها بمقاييسه وشكله. فعلى عمق ١٨ قدماً (٥٩٤سم. م.) عثر على صندوق تحت صفيحة حجريَّة كبيرة، وكان هذا عبارة عن حجر رملي ذي نوعيَّة عالية شديدة الصَّلابة محفور على شكل صندوق. ويبدو أنَّه جيء به من مكان بعيد. وقد عثر في داخل الصندوق على وعاء للزيت عليه النَّصُّ التَّالي: «هذه محفظة رفات السامي بوذا من سلالة ساكي، بناء طاهر تقدمة من أخوته، وأخواته، وأبنائهم وزوجاتهم». وعثر على إناء من الكريستال قرب الوعاء مليء بحبيبات من الذَّهب على شكل نجوم. وكان الإناء مغطًّى بغطاء على شكل سمكة. كما كان في المكان أُصص مزخرفة مطعَّمة بالحجارة الكريمة. وما يثير الفضول أنَّ الجرن لم يمس خلال ألفين وخمس مائة عام. وليس لدى العلماء ريب في أنَّ ما عثر عليه هنا هو رفات بوذا.

لقد توفَّى بوذا في الثمانين من عمره، فالعام المفترض لوفاته، هو العام ٤٧٧ق.م.

تعاليم بوذا

مع تزايد معرفة الإنسان بالعالم المحيط، كان يتبدَّل تصوُّره عن العلَّة الأولى لهذا العالم، عن بنائه، وعن أغراضه وغاياته. ففي الأوَّل لم يدرك الإنسان سوى مقاطع من العالم المحيط به، وقد رأى في كل منها إلهه. ولكنْ مع تزايد عمق دراسته للعالم، أخذ الإنسان يعي أنَّ العلَّة الأولى للوجود كله لا يمكن أنْ تكون إلاَّ ماهيَّة واحدة، جوهراً واحداً. وقد كان ينبغي أنْ تشمل تلك الماهية العالم كله، الكون كله، وإلاَّ فإنَّ العالم لن يكون نظاماً واحداً ثابتاً. وبذا يكون الإنسان قد توصَّل إلى مفهوم الإله الواحد الوحيد الأوحد للكون كله. وبهذا تكون قد ظهرت فكرة التوحيد. ونحن كنَّا قد نوَّهنا في كتابنا: «الإله، الروح، الخلود»، إلى أنَّ التَّوحيد يتوافق مع التَّصوُّر المعاصر عن بناء الكون. فوفق التَّصوُّرات العلميَّة المعاصرة أنَّ الحقل الإعلامي البيولوجي الكوني الواحد هو بالذات الذي يضمن أنْ تتطوَّر فيه الحياة العاقلة، ووجود الكون كنظام واحد ثابت. وكانت التوراة قد عرضت فكرة التوحيد، فكرة الإله الواحد بدقَّة ووضوح. أمَّا القرآن فقد جاء فيه:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . .﴾

(الأنبياء: ٢٣)

ولا شك أنَّ كل باحث ذي تفكير سليم سوف يؤيِّد هذه الكلمات، بصرف النَّظر عن ميدان أبحاثه: في نظرية النُّشوء، أم في الفيزياء الكونيَّة، أم في الحضارات الموجودة خارج الكرة الأرضية، أم في ميدان الإيكولوجيا. وهكذا يعدُّ التَّحوُّل من الاعتقاد بوجود كثير من الآلهة، إلى الاعتقاد بإله واحد خطوة جوهريَّة جعلت الإنسان أقرب إلى الحقيقة، وإلى فهم العالم الذي يعيش فيه فهماً صحيحاً. ولذلك فإنَّ أوَّل ما ينبغي فعله عند دراسة هذه أو تلك من الديانات، ومقارنتها مع التَّصوُّرات العلميَّة المعاصرة، هو تحديد مكانة الإله في الديانة المعنية. ويعطي هذا في الآن عينه إجابة على سؤال مهمٍّ آخر: ما هو مكان الإنسان في هذا العالم. فإذا كان الإله واحداً، أوحد صانع كل شيء، العلَّة الأولى لكل شيء، فإنَّ كل ما صنعه له

غاية محدَّدة، وله الحق نفسه في العيش، في الوجود. وكان التوحيد قد تعايش زمناً طويلاً مع العبودية والاستعباد. فقد كان هذا في شريعة موسى كما في شريعة مانو. لقد ارتكب الإنسان إثماً ضدَّ الحقيقة، عندما عدَّ جزءاً من البشر مخلوقات لم يخلقها الإله. وفي واقع الحال إنَّ فكرة التوحيد الحقَّة تنفي العبودية، واللا مساواة، وتعترف للآخر بالحقِّ في العيش كالحقِّ الذي للإنسان نفسه.

لقد بشَّرت شريعة موسى بالتوحيد بصورة واضحة محدَّدة. وفي أزمنة بوذا دعوا إلى التوحيد في الهند نفسها. ففي ذلك الوقت كان قد اكتمل الانتقال من تعدد الآلهة (بانتييزم)، الذي عرفه عصر الفيدات، إلى التوحيد (مونوتييزم). فقد صار الإله بعدئذ إلى ماهية كليَّة الوجود دعوها «ذاتي»، «أنا»، أو براهمان. والبراهمان، ماهية مقيمة في سكون أزلي، وهي مصدر كل شيء، وموجودة في كل شيء، وإليها يرجع كل شيء. لقد اقترب كهنة تلك الأزمنة كثيراً من التَّصوُّر المعاصر عن الإله الواحد. ودعوه بالروح الكوني، بينما يدعوه العلماء المعاصرون بالعقل الكوني، أو حقل الإعلام الكوني. كما كان ثمَّة تصوُّر شبيه جداً بالتصور المعاصر عن كون روح كل إنسان جزءاً من الروح الكوني، وأنَّ روح الإنسان تعود بعد موته الفيزيائي إلى الروح الكوني. وهذا ما يقول به علماء اليوم، ولكن بمصطلحات أخرى، وتحديداً: إنَّ الصيغة الكلية للإنسان تعود بعد موت جسده إلى حقل الإعلام الكوني. عداك عن هذا أنَّ العلماء اليوم يؤكِّدون على أنَّ الصيغة الكلية (الروح) المتبقية عن أيِّ إنسان عاش على سطح الأرض في أيِّ زمن كان، يمكن أنْ تكون مادَّة لإعادة صنع هذا الإنسان عينه، ولكنْ ليس على قاعدة المادَّة الآحية. فالقالب الأُمُّ يبقى، ولذلك لا يتبقى سوى أنْ تنسخ منه نسخة.

ولكنَّ بوذا رفض أنْ يقرَّ بوجود الروح الكوني، البراهمان، الواحد، عامل استقرار البدء كله. وهو عندما أزال العامل الأساس، فإنَّه لم يبقَ له إلاَّ الواقع المترنِّح، المتبدِّل حتماً، المتداعي بذاته، الذي يدمِّر ذاته. ولو بقيت في تعاليم بوذا نقطة الارتكاز الأساسيَّة: الروح الكوني، لكان رأى أنَّ الميلاد ليس معاناة، وإنَّما حلقة من حلقات النِّظام الواحد المتناسق للأشياء في الكون، وأنَّ الموت أيضاً ليس معاناة، لأنَّه وفق ذلك النظام عينه يعني ولادة جديدة، سعادة جديدة. بيد أنَّ بوذا رمى بالروح الكوني كأيِّ شيء لا لزوم له. فتحوَّل كل شيء عنده إلى مصدر للمعاناة والآلام. وجنَّد قواه كلها ليعثر على وصفات للخلاص من الآلام الكلية التي تلاحق الإنسان كل حياته. وبرميه الروح الكوني يكون بوذا قد رمى في الآن ذاته بالإله الواحد خارج العالم الذي تصوَّره. ومثله مثل لابلاس لم يرَ أنَّ تعاليمه تحتاج إلى فرضية وجود الإله الواحد. ولذلك لم يظلموا البوذيَّة إذ يدعونها دين الإلحاد، الدين الذي لا إله له.

والواقع أنَّ كثيراً من أشهر المؤرِّخين للدّين يرون أنَّ الأمر لم يكن هكذا، فبوذا أقرَّ بوجود الآلهة، الآلهة الشعبيين، نعم لقد أقرَّ بوذا بوجود الآلهة، لكنَّه تعامل معهم تعامله مع تلامذة كسالى، فعاملهم وفق مقاييسه، وأفرد لهم مكاناً بعيداً عن أنْ يكون لائقاً. وعلى أيٍّ حال فإنَّ العودة من الاعتقاد بوجود إله واحد، بروح كوني واحد، إلى الاعتقاد بوجود كثرة من الآلهة الآثمين (الشعبيين)، تعدُّ بحدٍّ ذاتها نكوصاً كبيراً. ثانياً، إنَّ التَّصوُّرات التي استخرجها بوذا عن الآلهة قلَّما تتوافق مع كلمة «إله»، أو «آلهة». فمرَّة سأل الملك براسيناجيتا بوذا عمَّا إذا كان الآلهة يعودون إلى هذا العالم أم لا. إذ كانوا يعتقدون أنَّ قانون نزوح الأرواح ينسحب عليهم كذلك. فأجابه بوذا قائلاً: «يعود من الآلهة إلى العالم أولئك الذين ثمَّة أسس لعودتهم، أي أولئك الذين ارتكبوا إثماً ما». فقد نُقل هذا المعيار من الإنسان إلى الآلهة: إذا ما أثم الإنسان في هذه الحياة فإنَّه سيُبعث بالتَّأكيد إلى حياة جديدة وسوف يتكرَّر بعثه هذا إلى أنْ يحقق الكمال ويرقى إلى المستوى الأعلى وتتوقَّف سلسلة نزوح الروح. إذن لقد وقع الآلهة أيضاً داخل تأثير فعل قانون نزوح الروح الذي كان يضني الناس. ومعنى هذا أنَّه إذا لم يكن هؤلاء كليِّي القدرة، فإنَّهم ليسوا بآلهة! وهذا هو الواقع حسب بوذا. فالإنسان الذي يحقِّق الكمال في هذه الحياة، أعلى درجات الكمال، يمكن أنْ يبعث في الحياة التالية إلهاً. وهذا أمر رائع دون ريب، لكنَّ المقصود بالإله هنا معنى مغاير، فالإله هو قانون ثابت لا يتغيَّر، ملزم للجميع، بفضله يعمل الكون كله منسجماً متوافقاً كآليَّة ساعة ممتازة الصنع. وليس الإله مكانة أو منصباً يمنح مكافأة على سلوك حسن.

من الواضح إذن أنَّ بوذا يقف من الآلهة موقفاً غير لائق بهم. ورأى أنَّ الإنسان الذي يحقِّق الخلاص بفضل تعاليمه، يعلو فوق الآلهة. ضف إلى هذا أنَّ البوذي لا يرى في التَّحوُّل إلى إله رغبة سامية. وهذا أمر مفهوم، لأنَّ بوذا يرى أنَّ الآلهة خاضعون للإثم مثلهم في هذا مثل البشر. وقد وضع هو نفسه الآلهة والبشر في صفٍّ واحد معاً. وهذا مفهوم أيضاً لأنَّه رأى أنَّ البشر يمكن أنْ يتحوَّلوا إلى آلهة. ورأى بوذا كذلك أنَّ إيندرا نفسه لم يبلغ عظمته المعروفة إلاَّ لأنَّه كان قد صنع الخير من قبل. ومرَّة زار بوذا إيندرا بنفسه وشرح له لماذا يُعدُّ الرَّاهب أفضل من الآلهة والبشر. ولذلك فإنَّ كثرة الآلهة الذين يعترف بوذا بوجودهم ليسوا سوى أدوات. وهو نفسه أعلى منهم على كل حال. وهذا بدهي بالنِّسبة للمعلِّم، الكامل خاصَّة إذا كان هذا ينسحب (حسب بوذا) على كل راهب يعتنق تعاليم بوذا. ولذلك أجاز بوذا وجود كثرة من الآلهة، وأذن لهم بمرافقته خلال رحلاته التبشيريَّة.

وهؤلاء الآلهة هم: براجاباتي، وآلهة الملوك الأربعة العظام، وآلهة الموت، وآلهة السَّماء (توشيتا)، وآلهة السعادة اللا متناهية، والآلهة المتألِّقون، والعطرون، والشمسيون، والعظماء، والمضيؤون، والهلاميون وكثرة كثيرة أخرى منهم. ويمكن أنْ نزيد عليهم آلهة الأرض، والغابات، والخشب. فتتجمَّع لدينا في نهاية المطاف مئات آلاف الآلهة، في زمن باتت فكرة التوحيد، الإيمان بإله واحد أوحد هي السائدة فيه. ويبدو فعلاً أنَّ بوذا لم يقف موقفاً جدِّيّاً من هذه المسألة، كما لم يكن له موقف جدِّيٌّ كذلك تجاه المسائل الأساسيَّة الأخرى في بناء الكون: هل الكون أزلي أم لا، وهل هو متناه أم لا، هل الروح والجسد مندغمان أم متباينان، هل سوف يعيش الكامل نفسه (بوذا) بعد الموت أم لا. فعندما طرحوا هذه الأسئلة عليه ردَّ قائلاً: إنَّ معرفة مثل هذه الأشياء لا تمهِّد سبيل الخلاص.

ويرى الباحثون في البوذيَّة أنَّ بوذا لم يضع أيَّ تعليل فلسفي لتعاليمه. وكما رأينا فقد رفض المسائل النظريَّة البحتة رفضاً قاطعاً. فغايته كانت واحدة: إنقاذ الجنس البشري من الآلام، ولم يرَ أيَّ أهمِّيَّة لأيِّ شيء لا يحقِّق هذه الغاية عمليّاً. وقد أصاب أحد المؤلِّفات حين قال: إنَّ بوذا يعلِّم في العالم الدَّاخلي الذي لا يمكن إدراكه بأيِّ نظام فلسفي أو أي معارف. فبالنِّسبة لبوذا كان المحتوى، الجوهر هو الأهمُّ، وليس الشَّكل. وكان الباحث المعروف في البوذيَّة والازير قد توصَّل إلى الاستنتاج الآتي: «يتميَّز بوذا تحديداً بإقصاء أيِّ مسائل ميتافيزيقيَّة من حيث المبدأ، وأنَّ النظري يتراجع في البوذيَّة أمام العملي إلى حدٍّ يجعل أبرز سمات البوذيَّة الحقيقيَّة، هي اللامبالاة المطلقة تجاه كل ما هو نظري». إنَّ الأهمَّ في تعاليم بوذا، هي الأخلاق العمليَّة. فقد أعطى هذا المعلِّم الأهمِّيَّة الأكبر للحياة الأخلاقيَّة الصَّارمة. فلندرس إذن بالتَّفصيل، جوهر تعاليم بوذا. وكان هو نفسه قد أفصح عنه بقوله: «الانصراف عن الآثام كلها، وعمل الخير، أيِّ خير، وتنقية القلب: ذلكم هو قانون بوذا» (دهامابادا). وكأنِّي به يعترف في هذه المقولة اعترافاً غير مباشر، ليس بوجود الآلهة الذين يمكن أنْ يرتكبوا المعاصي كالإنسان، وإنَّما بوجود الإله الواحد المعصوم، بداية البدايات كلها، ومصدر القانون الأوحد للكون. وإلاَّ كيف يمكننا أنْ نحدِّد بطريقة أخرى ما هو الإثم. فالإثم هو انتهاك القانون، القانون الأوحد، قانون السَّامي الذي نحسُّ به، وندركه بوجداننا. ولا يمكن أنْ تكون الآثام مختلفة حسب اختلاف البشر، والمجموعات، أو الطبقات الاجتماعيَّة. فالقانون واحد لجميعهم، ولذا فإنَّ الابتعاد عنه أو انتهاكه واحد بالنِّسبة لكلهم. فإذا كان القانون يفرض حبَّ القريب، فإنَّه لا يجيز لمختلف النَّاس تبعاً

لمآثرهم الدُّنيويَّة، أو لمكانتهم الاجتماعية، أنْ يحبُّوا أكثر أو أقل. فالقانون هو القانون بالنِّسبة للكل. وهو نفسه الإله، ومطالبه واحدة من الجميع. وعلى هذا الغرار، فإنَّ بوذا عندما يدعو الكل دون استثناء لترك الآثام كلها وصنع الخير، أي خير، فإنَّه بهذا لا يقرُّ بوجود إله واحد أوحد وحسب، وإنَّما يضع أيضاً الجميع في تبعيَّته، في تبعيَّة قانونه، بما في ذلك خلاص الإنسان.

وتدور تعاليم بوذا كما أسلفنا، حول مسألتين اثنتين: الآلام والخلاص. وإذا كان بوذا يرى الخلاص في عدم ارتكاب أيِّ إثم، فإنَّ هذا يعني أنَّ الخلاص يتحقَّق عندما لا ينتهك الإنسان قوانين الإله، قوانين بناء الطبيعة، بل يعيش وفقها ومنسجماً معها. وفي هذا يكمن خلاص الإنسان والجنس البشري كله. وبما أنَّ الأمر هكذا فإنَّه يغدو من الواضح لماذا غدت البوذيَّة على الرَّغم من خصوصيَّتها القوميَّة البارزة، ديانة عالميَّة، وانتشرت في الشَّرق كله، ثمَّ أخذت تستولي على الغرب أيضاً. لقد تراجع ما هو قومي فيها (نزوح الروح) إلى النسق الثاني. وبقي جوهر التعاليم في المُقدِّمة: لا تنتهك قوانين الطبيعة، إنَّها القوانين التي بفضلها يعيش الكون، إنَّها قوانين الإله، وافعل الخير. إنَّ هذه الصِّيغة تلائم الكل بصرف النظر عن الانتماء القومي ولون البشرة، طالما أنَّ الإله عينه خلق البشر كلهم. لقد قال بوذا: «كما أنَّ البحر العالمي العظيم (المحيط) له طعم واحد أيُّها الرُّهبان، هو طعم الملح، كذلك لهذه التعاليم طعم واحد فقط، هو طعم الخلاص».

لقد صارت البوذية إلى دين عبر أخلاقها العمليَّة، وكان الحبُّ هو محور الارتكاز الأساس فيها. والإله محبَّة. فعند انضمامه إلى كنيسة البوذيَّة كان المؤمن يتعهَّد بأن يلتزم بالوصايا الخمس الآتية:

١- عليك ألاَّ تقتل؛

٢- عليك ألاَّ تسرق؛

٣- عليك ألاَّ تعيش غير عفيف؛

٤- يجب عليك ألاَّ تكذب؛

٥- عليك ألاَّ تشرب المشروبات المسكرة.

وكان يجب ألاَّ يكون فهم هذه الوصايا شكليّاً، بل فهماً عميقاً جداً. ولا يمكن للإنسان أنْ يتقيَّد بتنفيذ هذه الوصايا إلاَّ إذا قمع أهواءه. وبهذا ينقذ قلبه. وقد يتحقَّق

الخلاص بالحبِّ. «الحبُّ هو خلاص القلب». وقد قيل عنه: «كل الوسائل في هذه الحياة لاكتساب الفضل الدِّيني لا قيمة لها أيُّها الرُّهبان، فخلاص القلب بالحصَّة السَّادسة عشرة من الحب. فالحبُّ هو خلاص القلوب، يدخلها في ذاته ويشتعل، ويتألَّق، ويفيض نوراً. وكما أنَّ ضوء النجوم كله لا يساوي الجزء السادس عشر من ضياء القمر أيُّها الرُّهبان، إلاَّ أنَّ ضياء القمر يجمُّ ضوء النجوم في ذاته وينير، ويسطع، ويفيض نوراً، كذلك أيُّها الرُّهبان فإنَّ وسائل هذه الحياة كلها لا قيمة لها لاكتساب الفضل الديني ولا تساوي الجزء السادس عشر من نصيب الحبِّ في خلاص القلوب. إنَّ الحبَّ، خلاص القلوب، يضمُّها إليه، ويضيء، ويتألَّق، ويفيض ضياء. وكما تصعد الشمس في الخريف في آخر شهر فصل الأمطار، إلى صفحة السماء الصافية، وتطرد الديجور من الفضاء، وتضيء، وتتألَّق، وتفيض ضياء، وكما تضيء نجمة الصبح عتمة الليل في الصَّباح الباكر وتتألَّق، كذلك أيُّها الرُّهبان، كل وسائل اكتساب الفضل الديني في هذه الحياة لا تساوي الجزء السادس عشر من الحب، خلاص القلوب. الحبُّ خلاص القلوب، يضمُّها إليه ويضيء، ويتألَّق، ويفيض نوراً». ويقول عن الحبِّ في مكان آخر: «إنَّ مَنْ يضحِّي أيُّها الرُّهبان صباحاً، وظهراً، ومساءً بمائة قدر من الطعام، ومَنْ يبعث صباحاً، وظهراً، ومساء لو لمعة حب في القلب، فلهذا الأخير نفع أعظم، وبذلك يجب عليكم أنْ تعلَّموا هكذا: الحبَّ خلاص القلوب، وسوف نبعثه، ونقوِّيه، ونمهِّد له السبيل، ونستوعبه، ونمنحه، ونحققه، ونبذله بالشكل الصحيح».

إنَّ لمن يحب المزايا التالية: ينام جيِّداً، ويصحوا جيِّداً؛ لا يرى أحلاماً سيِّئة؛ يتعامل الناس معه تعاملاً حسناً؛ تقف الكائنات الأخرى كلها موقفاً جيِّداً منه؛ يحرسه الآلهة؛ لا تؤذيه النار، ولا يؤذيه السُّمُّ، والسَّيف؛ وإذا لم يكتسب بعد ذلك شيئاً لنفسه، فإنَّه يمضي إلى عالم بوذا (السَّماء الأعلى). وكان بوذا نفسه قد جنَّد أنصاراً له «بإشباعهم بروح الحب». وقد قال بوذا عن الذين كانوا يستمعون إلى موعظته: «في أثناء هذا العرض تحرَّرت قلوب الرُّهبان من الأهواء». وجاء في تعاليم بوذا أنَّ قوَّة الحبِّ تروِّض حتى الحيوانات المتوحِّشة. وليس هذا مجرَّد تعبير مجازي. فقد استطاع بوذا أنْ يؤثِّر على الحيوانات فعلاً «بروح الحبِّ». فتوقف الفيل رافعاً خرطومه، وصار منذئذٍ أليفاً. وهكذا شاع بيت الشِّعر الذي يقول: «كثر هم الذين يروِّضون بالعصا، والخطَّاف، والسَّوط؛ أمَّا القديس العظيم فقد روَّض الفيل بغير عصا، بغير سلاح». وتتلخَّص صيغة الرقى ضدَّ الحيوانات المتوحشة (خاصَّة الثعابين السامة)، في

أنَّ الرَّاقي يؤكِّد على أنَّه يحبُّ الكائنات كلها: الزاحفة، وذات الطَّرفين، والأربعة أطراف، وكثيرات الأرجل.

وبما أنَّ الحبَّ هو قاعدة التعاليم، أساس الخلاص، إذن ينبغي بالضرورة الاهتمام بروح الحبِّ. وجاء عن هذا في الميتاسوتا سوتَّانيباتا ما يلي: «كما تحفظ الأمُّ لابنها، ابنها الوحيد حياته، كذلك يجب إبداء حبٍّ لا حدود له للكائنات كلها. ينبغي إظهار حبٍّ لا متناه للعالم كله، للسامي، وللوضيع، لِمَنْ يتساوى معنا، حبٌّ بلا حدود، بلا عداوة، بلا منافسة. ويجب على الإنسان أنْ يظهر مثل هذا الميل واقفاً، سائراً، جالساً، مستلقياً أو في أيِّ وضع كان. فهذه هي التي تدعى الحياة في الإله!». وتتشكل الحياة في الإله من «أربعة لا تقاس»: الحب، والرَّحمة، والمشاركة الودِّيَّة، والسكينة. لكنَّ الحبَّ هو مصدر هذه الثلاث الأخيرة. ومعنى هذا أنَّ حبَّ القريب أسمى من كل أعمال البرِّ الأخرى. فلا يمكن أنْ تحلَّ محلَّه أيُّ قرابين، أو صلوات، أو شعائر وشكليَّات. إنَّ حبَّ القريب في البوذية يعني الكثير الكثير. إنَّه يعني أنْ تذوب في حبِّك له، كما قال الراهب أنورودها الذي كان يعيش مع راهبين آخرين، إذ سأله بوذا كيف يعيشون معاً: «إنَّنا نعيش يا سيِّدي معاً، بوفاق، بغير نزاع، بسلام وينظر واحدنا إلى الآخر بودٍّ. وأنا أرى يا سيِّدي أنَّني رابح وسعيد بعيشي مع هذين الكاهنين، لقد ظهر في داخلي يا سيِّدي حبٌّ فعَّال (1) نحو هذين الجليلين، حبٌّ ملء يدي، ولساني، وقلبي، حبٌّ علنيٌّ ومكنون. وأحياناً ما تراودني الفكرة التالية يا سيِّدي: ألا يمكنني أنْ أقمع إرادتي وأسلك بإرادتَيْ هذين الجليلين، وقد سحقت إرادتي يا سيِّدي وأعيش بإرادتهما. لأنَّه إذا كانت أجسادنا مختلفة يا سيِّدي، فإنَّ لنا كما أرى قلباً واحداً». وذلكم هو جوهر الحبِّ الفعَّال: قلبك وقلب مَنْ تحب واحد. وتلقَّى بوذا الإجابة عينها على السؤال عينه من الراهبين الآخرين. وتلك هي قاعدة الدِّيانة البوذيَّة، القاعدة التي تُعدُّ الأساس الرَّئيس وتفوق من حيث الأهمِّيَّة القرابين، والطُّقُوس، والصلوات، وأعمال البرِّ الأخرى. وإذا ما أدركت لبَّ هذا فإنَّه يمكنك عندئذ أنْ تعي أنَّ البوذيَّة لا تهتمُّ بالأخلاق البسيطة، وقواعد السلوك والعيش المشترك، بل بهذا الحبِّ الذي كلأ كل شيء. فقد جاء في الجامابادا: «نحن نريد أنْ نعيش سعداء، بغير كره بين المتعادين؛ نحن نريد أنْ نعيش بغير كره بين الذين يكرهوننا». «اقهر الغضب بالرِّضى؛ واقهر الشَّرَّ بالخير؛ والبخيل بالعطاء، والكذَّاب بالصدق». «والعداء لا يهدِّئه العداء في هذا العالم؛ ليس بالعداوة تقهر العداء؛ ذلك هو القانون الأزلي». إذن تعلِّم البوذيَّة أنْ نصنع الخير لمن يكرهنا. ولذلك غدت ديانة عالميَّة إلى جانب الدِّيانة المسيحيَّة («أحبُّوا أعداءكم»).

وغنيٌّ عن البيان، إنَّه ثمة تشابه بين وصايا المؤمنين الذين يعتنقون البوذيَّة، ووصايا المسيحيين، ولكنْ بدلاً عن الصيغة المسيحيَّة المختصرة: «لا تقتل»، تقول الجاميكاسوتا سوتانيباتا: «يجب ألاَّ تقتل، ولا ترغم أحداً على قتل أيِّ كائن حي، وألاَّ تحبِّذ عندما يقتل الآخرون؛ وإنَّما عليك أنْ تحذر من أنْ تسبِّب أيَّ أذى للكائنات، سواء كانت قوية أو تلك التي ترتجف فرقاً». إذن حسب تعاليم بوذا لا يأثم الذي يقتل فقط، بل من يأمر بالقتل يأثم كذلك. ويشارك في الإثم أولئك الذين يشهدون القتل، أو يحرِّضون عليه لو بشكل غير مباشر. ويجري الحديث في غضون ذلك عن قتل أيِّ كائن حي، وليس عن قتل الإنسان فقط. ويدهي تبعاً لهذا موقف البوذيين من الحرب، والصيد، والذبائح الحيوانية. فالإله هو الذي منح الحياة، وله وحده حق التصرُّف بها. وعندما يأخذ الإنسان هذا الحقَّ لنفسه فإنَّه يرتكب بذلك إثماً فاحشاً، فهو يأثم ضدَّ الإله، وضدَّ القوانين التي تدير شؤون الطبيعة. ولم تقف البوذية من هذا الفهم لوصيّه «لا تقتل» موقفاً إعلانيَّاً فقط، وإنَّما كرَّسته في الحياة فعلاً. فأوَّل إرادة ملكيَّة أصدرها الملك أشوكي بريادارشين أعلنت: «هنا (في مملكتي) يحرَّم القتل وتقديم أيِّ حيوان ذبيحة، ولا تقام أيُّ ولائم. لأنَّ الملك بريادارشين حبيب الآلهة يرى في الولائم ضرراً كبيراً. ولكنْ هناك كثير من الأعياد التي يحبِّذها حبيب الآلهة الملك بريادارشين. لقد كانوا من قبل ينحرون آلاف الحيوانات لإعداد الطعام إلى مائدة حبيب الآلهة الملك بريادارشين. أمَّا الآن، بعد صدور هذه الإرادة الملكية، فلن ينحروا سوى ثلاثة حيوانات: طاووسين وغزالاً، وحتى الغزال ليس دائماً. وسوف نتوقَّف مستقبلاً حتى عن قتل هذه الحيوانات الثَّلاثة». وفي مرسومه الملكي الثالث عشر أعلن الملك أسفه العميق للفظائع التي ارتكبت في مملكته من قبل.

وتدعو الوصية البوذية الأولى إلى الرَّأفة بالكائنات الحية. فقد أعلن المرسوم الثاني الذي أصدره الملك اتوكي: «في كله مكان من دولة حبيب الآلهة الملك بريادارشين، وعند جيرانه... أمر حبيب الآلهة الملك بريادارشين بأنْ يقام في كل مكان نوعان من المراكز العلاجيَّة: مركز لعلاج الناس، وآخر لعلاج الحيوانات. وحيث لا توجد أعشاب تنفع الناس والحيوانات، أمر بالحصول عليها وزراعتها. وكذلك الأمر إذا لم يكن ثمة جذور وثمار، أمر بإيجادها وزراعتها. كما أمر بأنْ تزرع الأشجار وتحفر الآبار على طول الطرقات ليفيد منها البشر والحيوانات».

ومن حيث المبدأ كان حبُّ القريب في البوذيَّة، يجب أنْ ينسحب على الحيوانات أيضاً. فالإنسان والحيوان حلقتان في سلسلة الكون الواحدة متماثلتان في الحقوق. وليس في هذه

السلسلة أي حلقة لا لزوم لها أو أقلّ أهمِّيَّة من الأخرى. ويجب ألاّ يستغلّ الإنسان بعض المزايا التي يمتلكها لكي يتعامل مع الحيوانات على هواه. فالحيوانات لم تمنح للإنسان ليستخدمها دون رقيب، بل إنّ الإله صنع الإنسان كما صنع الحيوان على حدٍّ سواء. وللفريقين الأهمِّيَّة عينها بالنِّسبة لعمل الآلية الكونية ككل.

إنّ هذا التّأويل العريض العميق لحبِّ القريب يجعل البوذيين ينظرون نظرة خاصَّة إلى الآخر، إلى أتباع الديانات الأخرى. فالبوذيَّة لا تدعو كما يدعو الإسلام مثلاً إلى ردِّ الطعنة بالطعنة. فمحمَّد بارك القتال دفاعاً عن النفس، أي الحرب. وغالباً ما استغلّ المسلمون هذه المباركة لنشر الإسلام بالحديد والنّار. أمّا البوذيَّة فلا تقرُّ حقّ استعمال القوَّة في أيِّ حال من الأحوال. ويرى كثير من المؤرِّخين أنّ هذا بالذات كان السَّبب الكامن وراء نجاح الإسلام في إبعاد البوذيَّة. ومع ذلك فإنّنا لا نملك سوى أنْ ننحني أمام وصيَّة البوذيَّة هذه. فمجتمعنا رأى أنّ الحبّ يجب أنْ يكون بالكلمات. بيد أنّ هذا ليس حبّاً. لقد كان صراعاً فقط، صراعاً مقدَّساً وخفياً، صراعاً ضدّ القريب وضد البعيد. وإلى ماذا انتهى؟ إلى مجتمع بغير أساس، ومثله مثل البيت الذي لا أساس له فإنّ ذلك المجتمع كان عاجزاً عن الوقوف طويلاً. وقد انهار. فالصِّراع الفكري في مجتمعنا كان مليئاً بما يناقض التسامح، الذي بشّروا به وحقّقوه في المجتمع البوذي. فقد أعلن المرسوم الثاني عشر الصادر عن اتوكي: «إنّ حبيب الآلهة الملك بريادارشين يحترم المعاشر الدينية كلها، الجوَّالة منها والمستقرَّة، ويوزِّع عليها العطاءات ويعبِّر عن احترام متماثل لجميعها. ولكنّ حبيب الآلهة لا يعطي أهمِّيَّة للعطاءات وإبداء الاحترام، بقدر ما يهتمُّ لازدهار خصوصيَّة كل معشر. فازدهار خصوصيَّات المعاشر الدينية كلها متنوِّع، ولكنّ الأساس يجب أنْ يقوم في الحذر عند التحدُّث، في ألاّ تبالغ في مديح خصوصية معشرك الديني، ألاّ تحطّ من قدر خصوصيات المعاشر الأخرى دون أسس ثابتة، ويجب في كل ظرف مناسب أن تظهر الاحترام للديانات الأخرى. ومن يسلك عكس ذلك فإنّه يضرُّ بدينه، ويفعل شرّاً للديانات الأخرى. لأنّ مَنْ يمدح دينه دوماً ويذمّ الدِّيانات الأخرى ظنّاً منه أنّه يرفع بذلك من شأن دينه، إنّما هو يحمل له في واقع الأمر أذى كبيراً. فالاتحاد في فعل راحد، حيث يجمُّ كل تعاليم الآخر عن طيب خاطر».

وتقول الوصية البوذية الثانية: «يجب عليك ألاّ تسرق». وقد جاء في كتاب جاميكاسوتا عن هذا ما يلي: «يجب على تلميذ بوذا العاقل ألاّ يأخذ أيّ شيء من أيِّ مكان، إذا لم يُعطَ له؛ وعليه ألاّ يطلب من أحد أنْ يحمل أيّ شيء، وألاّ يوافق أنْ يحمل

أحد ما شيئاً ما ليس معطى له. عليه ألاّ يأخذ أيَّ شيء غير معطى له». ولكنَّ لهذه الوصية وجه آخر كتب عليه: «أنت يجب أنْ تعطي!» فالكرم عند البوذيين كالحبِّ، يقف على رأس أعمال البرِّ كلها، والحقيقة أنَّ الكهنة الهنود كانوا قد وعظوا بالكرم قبل بوذا، منذ زمن الريغفيدا. فقد ورد في الجامابادا ما يلي: «لا يدخل البخلاء عالم الآلهة؛ والحمقى وحدهم لا يمجِّدون الكرم. أمَّا الحكيم فإنَّه يتلذَّذ بالكرم، وبذا يغدو سعيداً في هذا العالم». ومن المهمِّ جداً أنْ يكون العطاء عن طيب خاطر وبرحابة صدر. والمسيحية تقول أيضاً: إنَّ الرَّبَّ يحبُّ السَّخاة الذين يعطون. وقالت البوذية إنَّ مَنْ يعطي بغير فرح، وبغير طيب خاطر، لا يلقى سوى الأذى.

ولا تطلب البوذية من الإنسان أن يحب قريبه ويتقاسم معه رزقه وحسب، وإنَّما ألاَّ يتردد في بذل حياته فداء للقريب إذا كان ذلك ضرورياً. وجاء في الحوليات أنَّ الملك يجب أن يحظى بأربع خصال: الكرم، والودّ، والمجاهدة في شؤون الدولة، والإنصاف دون محاباة، لكنَّ الكرم في المقام الأوَّل. ومن المعروف أنَّ الحكام البوذيين أظهروا كرماً كبيراً دائماً. ففي مرسومي الأتوك بريادارشين الثالث والحادي عشر مديح للصفات الآتية: طاعة الوالدين، والكرم مع الأصدقاء، والأقارب، والبراهمن، والنساك، وعدم قتل الكائنات الحية، والإحجام عن ذمِّ أتباع الديانات الأخرى. وقال الملك في المرسوم الثامن، إنَّه يستقبل في جولاته النُّسَّاك، والبراهمن، والشيوخ، فيكرمهم ويوزِّع الذهب عليهم. وحسب المصادر أنَّ كرم الملكين أناتهابينياديكا وفيشيكها كان كرماً أسطوريّاً، لا تزال ذكراه حيَّة حتى يومنا هذا.

وتقول الوصية البوذية الثالثة: «عليك ألاَّ تعيش غير عفيف». وتوضِّح الدهاميكاسوتا مغزى هذه الوصية على الوجه الآتي: «العاقل هو من يتفادى العيش غير العفيف، كما يتفادى كومة جمر تتوهَّج، وإذا كان عاجزاً عن أنْ يسلك سلوكاً عفيفاً، فعليه ألاَّ يتطاول على زوجة غيره». فعقاب انتهاك قدسيَّة الزواج ثقيل، وهو واقع حتماً حتى بعد ولادات كثيرة. وقالت الدهامابادا عن هذا: «رويداً رويداً وفي الأحوال كلها فليتخلَّص العقل من الصَّدأ، كما يفعل الحداد مع الفضَّة. فالصَّدأ عندما يظهر على الحديد فإنَّه يلتهمه شيئاً فشيئاً؛ وكذلك الأرعن تقوده أفعاله إلى جهنَّم. وصدأ المرأة، هو سلوكها الفاسد، هو لبُّ النِّزاعات الآثمة في هذا العالم والعالم الآخر». «لا يحقِّق الأرعن الذي يتآلف مع زوجة الآخر سوى أربعة أشياء: الإثم، والمضاجعة بغير لذَّة، والعقاب في هذه الحياة، وجهنَّم. إنَّه يقترف إثماً، ولا يحقِّق معها إلاَّ متعة بائسة، لأنَّهما مليئان معاً

بالخوف، وينزل الملك به عقاباً قاسياً. ولذلك يجب على الإنسان ألاّ يتآلف مع زوجة الآخر». وجاء في مصدر آخر: سوتانيباتا ما يلي: «مَنْ يتآلف مع زوجات أقاربه أو أصدقائه، عنوة أو عن رضا، فهو ملعون».

وتعلن الوصية البوذية الرابعة: «يجب عليك ألاّ تكذب». وعن هذا تقول دهاميكاسوتا: «يجب ألاّ يفتري أحد على الآخر، لا في المحكمة ولا في الاجتماع. وينبغي ألاّ يلجأ أيٌّ كان إلى الكذب، وألاّ يقره عندما يكذب أحدهم، وإنّما ينبغي تفادي أيَّ ضرب من ضروب الكذب». وجاء في الكوكالياسوتا: «عندما يولد الإنسان تولد له في فمه فأس يصيب بها الأحمق نفسه إذ يدير حديثاً رديئاً. ومن يمدح الذي يستحقُّ الذَّمَّ، أو يذمَّ مَنْ يستحق المديح، فإنَّه يقذف بلسانه كذباً بائساً، ولا يحقِّق لنفسه بهذا سعادة. وليس للكذب البائس الذي يحقِّقون به أرباحاً نقدية في لعبة النَّرد، أهمِّيَّة؛ فالأهمُّ بكثير هو ذاك الكذب البائس الذي يرتكبون الإثم به ضدَّ الآخر الصَّالح. إنَّ من لا يقول الصدق، ومن ينفي أنْ يقرَّ بما يكون قد فعله، يمضي كلاهما إلى جهنَّم؛ وسوف يكون الموقف من هذين الوضعين بعد الموت في العالم الآخر واحد. فعندما ينعت أحدهم إنساناً نقيّاً بريئاً واصفاً إيَّاه بالسوء، فإنَّ الإثم يعود القهقرى ويقع على الأحمق كالغبار المرمي في وجه الريح». وثمَّة في هذه الوصية كلمات مثل: «إنَّك ملزم ألاّ تقول عن قريبك إلاّ كلاماً طيِّباً». وهاكم ما قاله بوذا نفسه في هذا الشَّأن بصدد أحد الرُّهبان: «إنَّه تارك الافتراء، كاره النَّميمة. ما يسمعه هنا، لا يقوله هناك كي لا يفرِّق بين هؤلاء؛ وما يسمعه هناك، لا يقول هنا كي لا يفرِّق بين أولئك. فهو يسوِّي بين المتخاصمين، ويرسِّخ بين المتَّحدين. الوفاق غبطته، والوفاق فرحه، والوفاق متعته؛ وإنَّه يقول الكلمات التي تصنع الوفاق. ويحجم عن قول الكلام الفظِّ، يترك الكلمات الفظَّة، فهو لا يقول إلاّ كلاماً عفيفاً تطرب الأُذن لسماعه، كلاماً محبَّباً يمضي إلى القلب، كلاماً مهذَّباً ودِّيّاً ينشرح له صدر النَّاس». ومن الواضح أنَّ بوذا ينصح البشر كل البشر، وليس الرُّهبان وحدهم بمثل هذا السلوك.

وتنصُّ الوصيَّة البوذيَّة الخامسة على الآتي: «عليك ألاّ تشرب المشروبات المسكرة». وتقول الدهاميكاسوتا في هذا الصَّدد: «على مَنْ يلتزم بهذا القانون (أي بتعاليم بوذا)، ألاّ يشرب مشروبات مسكرة وألاّ يدعو الآخرين لشربها، وألاّ يوافق على شربها عندما يشربها الآخرون، لأنَّه يعرف أنَّ نهاية السُّكر الجنون. فالحمقى يأثمون وهم سكارى، ويجعلون من

الآخرين سكارى. يجب درء هذا الإثم الذي يثير الجنون، ويقود إلى الرعونة، والغبيُّ وحده يرى الأمر حسناً».

هذه هي الوصايا الخمس التي يجب على البوذي أنْ يلتزم بها. ومَنْ لا يفعل فإنَّه حسب الدهامابادا، يقتلع جذوره بيديه.

وتضيف البوذيَّة خمس وصايا أخرى للرُّهبان فقط: لا تأكل في غير الوقت المحدَّد؛ لا تشارك في الرَّقص، والغناء، والموسيقى، والعروض، ولا تستعمل الأكاليل، والعطور، والحليّ؛ ولا تنم على سرير عالٍ واسع؛ ولا تقبل الذَّهب والفضَّة. وينصح المؤمن بالالتزام بالوصايا الثلاث الأولى، إذا لم يكن التزاماً كاملاً، ففي أيَّام معيَّنة في أقلِّ تقدير. وهذه الأيَّام هي في المقام الأوَّل أيَّام الأوبافاستها التي توافق أيَّام الآحاد عندنا. كما ينصح المؤمنون بالتَّقيُّد بهذه الوصايا الثَّلاث في أيَّام انتصاف القمر، وظهور الهلال، وكذلك في كل ثامن يوم بعد انتصاف القمر، وظهور الهلال. فالأيَّام المذكورة ليست ملائمة حسب الشروط الكونيَّة، لصحَّة الإنسان (تظهر في الأيَّام المعنيَّة شواذات حركة الجاذبيَّة). ولذلك ينصح النَّاس بعدم الإثقال على الجسم في الأيَّام المعنيَّة، وعلى وجه العموم فإنَّه من المفضَّل أنْ يستريح الجسم من أعبائه يوماً واحداً كل أسبوع. وتدعى هذه الأيَّام «بأيَّام الصوم». وقبل البوذيَّة كان يوم الصَّوم يسبق مباشرة يوم قربان السوما الكبير. فألغت البوذيَّة الذَّبائح، وزامنت أيَّام الصَّوم بذكاء واضح مع الشروط غير الملائمة المرتبطة بوجود شواذات حركة الجاذبيَّة.

في هذه الأيَّام المتميِّزة، أيَّام أوبافاساتها التي تدعى في البوذيَّة أيَّام التَّوبة، يرتدي المؤمنون ملابس احتفالية، ويمتنعون عن تأدية أيِّ أعمال، وعن المباهج الدُّنيويَّة. فيمضون إلى الكاهن ويعلنون له أنَّهم سوف يلتزمون اليوم بالوصايا الثماني كاملة.

لقد حذَّر المسيح يوماً من أنَّ مَنْ يخطئ بفكره، فهو خاطئ في الواقع الفعلي. فالإنسان الطَّاهر هو مَنْ لا يأثم لا بفكره ولا بقوله، ولا بفعله. وقد قسمت البوذيَّة آثام الإنسان بوضوح وفق هذه العلامة. فآثام الفكر، هي الأثرة، والحقد، والميل نحو الشَّكِّ. وآثام القول، هي الكذب، والنَّميمة، واللَّعن، والثَّرثرة التي لا طائل منها. وآثام الفعل، هي القتل، والسَّرقة، والعلاقات الجنسيَّة المحرَّمة. وآثام هذه الفئات الثَّلاث، وهي عشرة آثام بالتمام.

ولكنَّ الدستور الأخلاقي البوذي ليس شيئاً ما متحجِّراً لا يصلح إلاَّ لمقطع زمني بعينه. فحسب رأي المتخصِّصين أنَّه «مكلوء بالحماس البشري». وكان هذا الدستور قد

عـرض كـاملاً في سيغالوفاداسـوتا ديغهانيكـاي. ويـضبط الدسـتور العلاقـة بـين الوالـدين والأبناء، وبين المعلّم والتّلاميذ، وبين الزوج والزّوجة، وبين السّيّد والخادم، وبين الأصدقاء، وبـين المؤمنين والرهبـان. وقـد حـدَّد الدستور بدقّة ووضـوح كـل هـذه العلاقـات وسـواها مـن العلاقـات الأخـرى. وهـا نحـن نـسوق هنـا بعـض نـصوص هـذا الدسـتور. فعـن العلاقـات بـين الوالدين والأبناء، يقول النَّصُّ «يجب على الابن أنْ يظهر احترامه لوالديه في خمسة ميادين. عليـه أنْ يقـول: سـوف أُطعمهمـا كمـا أطعمـاني؛ سوف أعمـل مـن أجلـهما؛ سـوف أواصـل سلالتي؛ سأشارك في ملكية إرثي؛ سوف أُقيم على واجبهما عندما يموتان». وعلى الوالـدين أنْ يظهـرا بـدورهما حبَّهمـا لابنهمـا في ميـادين خمـسة: «أنْ يمنعـاه عـن اقـتراف الإثـم، وأنْ يرشداه إلى العمل الصَّالح؛ أنْ يعلّماه شيئاً ما ينتفع منه في حياته؛ أنْ يجدا له زوجة مناسبة؛ أنْ يتركا له تركة». وعن العلاقـات بـين السَّادة والعبيد نـصَّ الدُّستور علـى مـا يلـي: «يجب على السَّيِّد أنْ يبـدي اهتمامـه بخدمـه في خمسة ميادين: أنْ يكلفهم بأعمـالهم كـل حسب قدرته؛ أنْ يطعمهم ويكافئهم؛ أنْ يعتني بالمرضـى منهم؛ أنْ يمنحهم الرَّاحة وقت الضَّرورة. وعلى الخدم بدورهم أنْ يظهروا حبهم لسيِّدهم في خمسة ميادين: أنْ ينهضوا صباحاً قبـل أنْ ينهض؛ أنْ يخلدوا للنَّوم بعده؛ أنْ يرضـوا بمـا يقدِّمـه لهم؛ أنْ يؤدُّوا أعمـالهم جيِّداً؛ أنْ يقولـوا فيه قولاً حسناً». وتقول الخاتمة: «إنَّ الكـرم، والكـلام اللَّطيف، والمخاطبة الوديَّة، وإنكـار الذَّات في الموقف تجاه الكائنات كلها في كل مكان يتطلَّب الأمـر فيـه مثل هـذا الموقـف، هي صفات بالنِّسبة للعالم كالصرَّة بالنِّسبة للدولاب. ولـو لم تكـن هـذه الـصِّفات موجـودة، لما حظـي الأب أو الأُمُّ بـاحترام أبنائهمـا. ولـذلك تـرى الأذكيـاء يبـدون الاهتمـام كلـه بهـذه الصِّفات، يباركونها ويمجِّدونها».

لقد بدأنا عرض تعاليم بوذا كما يذكر القارئ الكريم، من اللَّحظة الرَّئيسة فيها، والتي تتمثَّل في عدم اعتراف بوذا بوجود إله واحد، ومهادنته لفكرة وجـود كثرة مـن الآلهة الذين أدنى مقاماً منـه نفسه. ومـع أنَّ هـذه النُّزَّهـة تـسقط تلقائيّاً لحظـة يعترف بـوذا بوجـود الخطيئة (ليس بمقدور أحد أنْ يحدِّد ما هـي الخطيئة، الإثـم، سـوى الإلـه الواحـد الأوحـد)، إلاَّ أنَّه ترك أتباعه بغير صلاة؛ لأنَّه ليس هناك من ترفع الصلوات إليه، فثمَّة كثرة من الآلهة الذين لا يستحقون ذلك، ولا يوجد حسب بوذا إلـه واحـد؛ أمَّا الصلاة لبوذا عينه فهي وفق تعاليمه أمر لا جدوى منه: لقد انتقل إلى النرفانا، ولم يعد موجوداً. ونحن لا يتبقَّى لنـا سـوى أنْ نبدي أسفنا لأنَّه ليس لدى البوذيين من يصلُّوا لـه. ونأسـف لأنَّ بـوذا عـدَّ نفسـه أسمـى مـن الآلهة، وسلب المؤمنين مثل هذه الوسيلة للإصلاح، والتوبة، وإبداء الحبِّ اللا متنـاهي الـذي

يتمثّل في الصلاة الصادقة المرفوعة إلى خالق الكون الكلي القدرة، إلى خالق كل منّا، إلى أبينا. كيف يمكن أنْ يعيش المرء دون أنْ يقرأ كل يوم بكل الحبِّ والامتنان: «أبانا الذي!». لم يوصِ بوذا بأنْ يُصلّى له، لكنَّه لم يبخل على نفسه بالصِّفات. وهاكم بعضاً منها، تلك التي اندرجت في عهد الطالب الجديد لطريق القداسة. فينبغي على هذا أنْ يقول عن بوذا: «إنَّه هو السَّامي، المقدَّس، الكامل الصَّحوة، مالك المعرفة والسلوك الأخلاقي في الحياة، الكامل، المتنبِّئ، الأعظم، مروِّض الثيران البشريَّة، معلِّم الآلهة والبشر، بوذا الرَّبُّ. فليتبارك قانون الرَّبِّ (أي قانون بوذا)...». والكلمات الأكثر تواضعاً من كل ما قيل هنا هي «معلِّم الآلهة والبشر». وقد قيل عن بوذا في النُّصُوص القديمة: «ليس له مثيل بين الزواحف، وذوات الساقين، والأربع، ولا في عالم الأشكال، ولا في عالم الهلاميات، ولا بين الآلهة، ولا بين البراهمن. ولا يمكن أنْ تقارن مليارات البراتيكا بوذا مجرَّد مقارنة ببوذا الكامل. ولا يمكن لأيٍّ كان أنْ يقيس عظمته ومجده. وإذا ما كان لأحد ألف رأس، وفي كل رأس مائة فم، وفي كل فم مائة لسان، فإنَّ قرناً كونياً كاملاً لا يكفيه ليعدَّ صفات بوذا وحده...». لم يبقَ لنا أيُّ شيء نقوله. فالشَّرق هو الشَّرق. لقد ظهر بوذا ولم يبقَ ثمَّة مكان للإله الواحد.

الفصل الخامس

بوذا والأخلاق

فلندرس الآن بالتفصيل موضوعات بوذا الأخلاقية ووصاياه.

الوصايا الخمس الأساسيّة

١- تبنَّ وصيَّة الإحجام عن القتل.

٢- تبنَّ وصيَّة الإحجام عن السَّرقة.

٣- تبنَّ وصية الإحجام عن الزِّنى.

٤- تبنَّ وصيَّة الإحجام عن الكذب.

٥- تبنَّ وصيَّة الإحجام عن المشروبات المسكرة.

وصايا بوذا

١- لا تقتل.

٢- لا تسرق.

٣- لا تزنِ.

٤- لا تكذب.

٥- لا تشي.

٦- لا تتحدَّث بجلافة.

٧- لا تشتم.

٨- لا تتطاول على ملكية الغير.

٩- لا تكره.

١٠- فكِّر بتقى.

الأعمال الفاضلة

١- اصنع الإحسان مع مَنْ يستحقّ.

٢- راع وصيَّة السلوك الأخلاقي.

٣- ازرع النَّوايا الطَّيِّبة ونمِّها.

٤- اصنع المعروف مع الآخرين، واهتمَّ بهم.

٥- احترم والديك وكبار السِّنِّ، واعتنِ بهم.

٦- قاسم الآخرين مناقبك.

٧- اقبل المناقب التي يعطيها الآخرون لك.

٨- بشِّر بالتَّعاليم الصَّالحة.

احذر ثلاثاً

١- هل يُعقل أنَّك لم تفكر يوماً بأنَّك خاضع لفعل الشيخوخة، وأنَّك عاجز عن تفاديها؟

٢- هل من المعقول أنَّك لم تفكِّر يوماً بأنَّك معرَّض للمرض كغيرك، وأنَّك لا تستطيع أنْ تتفادى ذلك؟

٣- أيعقل أنَّك لم تفكِّر يوماً بأنَّك سوف تموت، وأنَّك عاجز عن الخلاص من الموت؟

لقد صاغ بوذا في موعظته الأولى المبادئ الأساسيَّة لتعاليمه (دينه).

لا يبحث بوذا عن الخلاص في التَّنسُّك، ولكن لا ينبغي لهذا السَّبب أنْ تظنُّوا أنَّه يستغرق في الملذَّات، ويعيش عيشة باذخة. لقد عثر بوذا على «الطَّريق الوسط».

فلا الامتناع عن أكل الأسماك واللحوم، ولا التَّجوُّل عاريًا، ولا قصُّ شعر الرأس، ولا إطلاق الشَّعر منفوشاً، ولا ارتداء الثياب الخشنة، ولا التَّلوُّث بالأوساخ، ولا تقديم القرابين لأغني يطهِّر الإنسان الذي ليس متحرِّراً من قيود الضَّلال.

إنَّ قراءة الفيدات، وتقديم التقدمات للكهنة، والذَّبائح للآلهة، وترويض الجسد بالحرِّ أو البرد، وكثرة الزُّهد، هذه التي تؤدّي كلها في سبيل بلوغ الخلود، لا تطهِّر الإنسان إذا لم يكن متحرِّراً من الضَّلال.

ليست الوجبة اللحمية هي التي تصنع الدَّنس، بل الغضب، والسُّكر، والتعنُّت، والتعصُّب، والكذب، ومديح الذات، واحتقار الآخر، والغطرسة، والنَّوايا الشّريرة هي التي تدنِّس الإنسان.

اسمحوا لي أنْ أعلِّمكم الطريق الوسط، التي تمرُّ متجاوزة الشَّططين معاً. فعن طريق الآلام يخلق المؤمن المنهك الفوضى في عقله، فينتج أفكاراً مختلَّة. ولا يفضي قمع الذَّات حتى إلى المعرفة الدُّنيويَّة؛ وهي أقل بكثير جداً من الضروري لتحقيق النَّصر على الأحاسيس!.

إنَّ مَنْ يملأ قنديله بالماء، لن يستطيع أنْ يبدد الظلام، ومن يحاول أنْ يشعل قنديل النَّار بحطب عفن، سيمنى بالفشل.

فقهر الجسد لا فائدة منه، إنَّه بطلان وضنى. وكيف يمكن لأيٍّ كان أنْ يتحرَّر من أنانيَّته بوساطة حياة بائسة إذا لم يكن قد نجح في إطفاء نار الرغبات؟

إنَّ كل ترويض باطل مادامت الأنانية الذاتية باقية، وتواصل اختبارات الجذب إلى المتع الدُّنيويَّة والمتع السماوية. ولكنَّ مَنْ خبتْ فيه الأنانية الذاتية، حرٌّ من الرغبات، ولن يتمنَّى لا رغبات دنيوية، ولا متع سماوية، ولن يدنِّسه إشباع ضروريَّاته الطَّبيعيَّة، فليأكل ويشرب حسب ما يتطلَّبه جسمه.

فالماء يحيط بزهرة اللوتوس، لكنَّه لا يبلل أوراقها. ومن جهة أخرى، إنَّ حساسيَّة الأنواع كلها تسلب القوى. والإنسان الحسَّاس عبد أهوائه، أمَّا الباحث عن المتع فهو سافل وفظٌّ. ولكنَّ إشباع الضرورات الطَّبيعيَّة للحياة لا يعدُّ شرَّاً. فالحفاظ على الجسد سليماً معافى، واجب مفروض، وإلاَّ سوف نكون عاجزين عن تنظيم شؤون قنديل الحكمة، ولن نستطيع أنْ نحافظ على عقلنا قويَّاً وجليَّاً.

أمَّا قواعد دوران دولاب القانون الأعظم التي وضعها بوذا فهي (يقال إنَّه هو مَنْ عيَّن الدوران):

إنَّ إبر الدولاب هي مبادئ السلوك النقي؛ والعدالة هي تماثل أطوالها؛ والحكمة إطارها؛ والتواضع والتفكير العميق هما الإبرة التي يثبَّت فيها محور الحقيقة.

إنَّ من يعي وجود المعاناة، وأسبابها، ووسائل معالجتها ووضع حدٍّ لها، يعي في الآن عينه الحقائق النَّبيلة الأربع، وهو يسير على الطَّريق الصحيحة. وسوف تكون الرؤى السديدة مشاعل تنير طريقه. والنوايا الطَّيِّبة مرشدته، والكلمات الصادقة منازل في طريقه. وسوف تكون مشيته مستقيمة، لأنَّ ذلك هو السلوك القويم. وسوف تجدِّد قواه الوسيلة الصحيحة لكسب موارد عيشه. وستكون الجهود النَّبيلة خطواته؛ والأفكار القويمة تنفُّسه؛ وتتعقَّب السَّكينة آثار خطاه.

إنَّ كل ما أُحدث سوف ينهار ثانية. ولذلك فإنَّ كل قلقك على نفسك ضرب من العبث: إنَّه كالسراب، وكل الرزايا التي تنتمي إليه عابرة، فهي سوف تختفي كما يختفي الكابوس عندما يصحو النَّائم.

إنَّ كل صاح متحرر من الخوف فهو يعرف بطلان مساعيه الأنانية كلها، وكذلك آلامه.

مغبوط من تجاوز أنانيَّته كلها؛ مغبوط من حقق السلام؛ مغبوط من وجد الحقيقة.

فالحقيقة عظيمة وحلوة الطَّعم؛ إنَّها قادرة على أنْ تحررك من الشَّرِّ. وليس في الكون خلاص آخر سوى الحقيقة.

كن مؤمناً بالحقيقة حتى لو قد تكون عاجزاً عن إدراكها؛ حتى لو أحسست حلاوتها مرارةً؛ حتى لو أردت تفاديها في بادئ الأمر، آمن بالحقيقة.

إنَّ الحقيقة تكون أعظم ما تكون عندما تكون هي نفسها. وليس بمقدور أحد أنْ يغيِّرها؛ أو يحسِّنها. كن مؤمناً بالحقيقة وعشها.

إنَّ الأخطاء تزيحك عن الطَّريق، والأوهام تلد المعاناة. إنَّها تسكر كالكحول؛ لكنَّ تأثيرها سرعان ما يزول، وتتركك وأنت تحسُّ بالألم والاشمئزاز.

والأنا وباء؛ حلم عابر؛ أما الحقيقة فهي مثمرة، وعظيمة. الحقيقة أزليَّة. فليس الخلود موجوداً في أيِّ مكان، إلاَّ في الحقيقة، لأنَّ الحقيقة ستبقى دوماً.

إذا قرَّر الفرد وحيداً أنْ يخضع للحقيقة، فقد يضعف؛ وقد يعود القهقرى إلى طريقه القديمة، ولذلك كونوا معاً، وليساعد واحدكم الآخر، ويثبِّت قواه.

كونوا كالأخوة: موحدين في الحب، موحدين في القداسة، موحدين في سعيكم إلى الحقيقة.

انشروا الحقيقة، وعظوا بالتعاليم في أرجاء الكون كلها، لكي تغدو المخلوقات الحية كلها في آخر المطاف، مواطني مملكة العدالة.

عيشوا حياة مقدَّسة من أجل أنْ يُقطع دابر المعاناة.

وقال بوذا عن المعاناة:

أنا لا أنتظر ثواباً، ولا حتى ولادة أخرى في السموات، ولكنِّي أسعى لخير البشر، أريد أنْ أعود القهقرى بأولئك الذين يعمهون في ليل الضلال، وأطرد الألم والمعاناة كلها من العالم.

ولكنِّي من أجل هنائي أُلاطف الكل وأودُّهم، فأنا أحبُّ الودَّ والملاطفة، لأنَّني أرغب أنْ أُمَهِّد سبيل السعادة للكائنات الحيَّة كلها.

لا تسبِّب للآخر ما يكمن أنْ يكون سبباً لمعاناتك.

التزم طريق الواجب: أظهر الطِّيبة لأخوتك واعتقهم من الآلام.

فليكن منبوذاً من جميعهم كل مَنْ يسبب الألم والأذى للمخلوقات الحية، وكل مَنْ لا رحمة في قلبه تجاهها.

إنَّ حبَّ الخير للكائنات كلها، هو الدين الحقيقي؛ املؤوا قلوبكم بحبٍّ لا متناهٍ لخير الوجود كله.

لا تدع نفسك تقلق، ولا تدع كلمة الشرِّ تخرج من بين شفتيك، ابق محبّاً للخير، ودوداً، مليئاً حبّاً، ولا تضمر الحقد؛ بل أحط مَنْ لا يحب الخير بالنوايا الطَّيِّبة وسعة الصدر النقيَّة من غضب وكره.

إنَّ السمات التي تميِّز الدين الحقيقي، هي حبُّ الخير، والحبُّ، والصلاح، والطهارة، والنبل، والرحمة.

الكائنات كلها تسعى إلى السعادة؛ ولذلك كونوا رؤوفين مع جميعهم.

فالكره لن يقطع دابر الكره يوماً في هذا العالم. والحبُّ وحده القادر على وضع حدٍّ له. إنَّه قانون قديم.

إنَّ التسامح وقبول الآخر هما التَّنسُّك الأعظم.

فالرَّاغب في تحقيق سعادته الذاتية ويتسبَّب بالألم للآخر، لن يتحرَّر من الكره، وسوف يتخبَّط أكثر في شباك الكره.

فليزرع حبَّ الخير للعالم كله، وودَّ العقل اللا متناهٍ من فوق ومن تحت وفي الاتِّجاهات كلها، المتحرر من الكره والبغضاء.

وكما تخاطر الأمُّ بحياتها لكي تحمي ابنها الوحيد، كذلك فليفعل من أدرك الحقيقة وينمِّي حبَّ الخير اللا متناهي نحو الكائنات كلها.

ودون أنْ يعطي أيَّ أفضليَّة، فليزرع حبَّ الخير تجاه العالم كله، بدون معيار، وبغير شائبة، وبغير أنْ يخالطه أيُّ شعور آخر يصنع تمييزاً.

الإنسان الرحيم القلب محبوب من جميعهم، وصداقته تقدَّر تقديراً عالياً جداً؛ قلبه لحظات الموت ساكن مليء سعادة وفرحاً، لأنَّ النَّدم لا يعذِّبه؛ إنَّه يتلقَّى زهرة ثوابه التي تفتَّحت الآن، والثمرة التي طرحتها تلك الزهرة.

لا يمكن أنْ يتحقق الخلود إلاَّ بأعمال الخير المتواصلة؛ ولا يتحقَّق الكمال إلاَّ بالرحمة والرأفة. فالقلب المحبُّ هو الضرورة الأكثر إلحاحاً.

وعبَّر بوذا عن موقفه من العقل على الوجه الآتي:

العقل هو بشير كل عمل؛ والعقل هو الطَّاقة الأعظم بين طاقات الأحاسيس الأخرى كلها. فكل التَّصوُّرات النِّسبيَّة تستمدُّ مبدأها من العقل.

والعقل هو السَّلف المباشر لكل إدارك؛ وهو العنصر الأكثر دقَّة بين عناصر الطبيعة الفذَّة. إنَّ كل وعي بالأشياء يتلقَّى مبدأه من العقل. والسَّعادة هي الرَّفيق التَّابع لكل مَنْ يتحدَّث ويعمل بعقل نقيٍّ.

«إنَّهم يكرهونني، إنَّهم لا يفهمونني، إنَّهم يخدعونني»: إنَّ مَنْ يحمل مثل هذه الأفكار في عقله، لن يستطيع يوماً أنْ يتحرَّر من الأسباب التي تسبِّب الدمار الذَّاتي.

إنَّ مَنْ حقَّق السيطرة على ذاته، لهو بحق فائز أعظم ممَّن هزم ألفاً من الأعداء؛ إنَّه أقوى ألف مرَّة من ذاك الذي لا يزال عبد أحاسيسه الطَّبيعيَّة.

فالذي يطوف عقله بحثاً عن المفاتن والعظمة الظاهريَّة، ويعجز عن السيطرة سيطرة تامَّة على أحاسيسه، ويأكل طعاماً قذراً، ويتقاعس، وينقصه الخلق القويم، والشجاعة، فسوف تسقطه الجلافة والبلية كما تنسف العاصفة الشجرة اليابسة.

وكما تنفذ قطرات المطر إلى البيت الذي لا يغطِّيه سقف جيِّد، كذلك ينفذ التعنُّت، والكره، والوهم إلى العقل الذي لا يميل نحو التَّأمُّل.

إنَّ من لم ترطِّب الشهوات عقله، ولم يقهره الكره، ومن يرفض الخير والشَّرَّ معاً، إنَّ هذا الإنسان اليقظ لا يعرف الخوف.

إنَّ القلب العامه في الضَّلال يتسبَّب للإنسان بأذى أعظم بكثير من الأذى الذي يسبِّبه له ألدُّ أعدائه.

ويصعب كثيراً حماية العقل القلق الذي لا يستقرُّ على حال، من الصعب أن يظل تحت السيطرة؛ لكنَّ الإنسان الحكيم يخضعه للنظام كما يسوِّي الحرفي الماهر السَّهم.

فالسيطرة على العقل أمر صعب وشاق، لأنَّ العقل ماكر، متحرِّك، زلق، يحلِّق في كل مكان، حيث يرغب؛ ولكنَّ الإمساك به وقيادته عمل صالح؛ لأنَّ العقل الخاضع للسيطرة، مرشد نحو السَّعادة.

ومن عقله غير ثابت، ولا يعرف التعاليم النَّبيلة، وإيمانه متأرجح، فإنَّه لن يعرف الحكمة الكاملة يوماً.

فالمنعزل بعيداً، والمتجوِّل وحيداً، بغير جسد، والمضجع في كهف (موقع المعرفة)، هو العقل.

إنَّ ما لا يستطيع أنْ يفعله الأب، ولا الأُمُّ، ولا أيُّ شخص آخر من الأقارب، يفعله العقل بالطريقة المثلى؛ فيتفوَّق بهذا على الإنسان.

ومهما كان الأذى الذي يوجِّهه أحدهم للآخر، فإنَّ العقل الموجَّه توجيهاً أحمق يمكن أنْ يتسبَّب بأذى أعظم.

إنَّ ما لا يطبَّق في الواقع العملي، هو فساد التَّأمُّل؛ وما ليس أنيقاً، قذارة الجسم، والكسل فساد الأحاسيس؛ وعدم الاستقرار فساد العقل.

فالإنسان اليقظ لا يعرف الخوف، لأنَّ عقله خالٍ من الرغبات الشهوانية.

إنَّ الإحجام عن فعل كل شر، والإقدام على فعل كل خير، وتنقية العقل، تلكم هي تعاليم بوذا.

عظِّم العقل، وابحث عن الإيمان الصَّادق بعزيمة صلبة، ولا تنتهك قواعد السلوك القويم، ولا تسمح أنْ ترتبط سعادتك بالأشياء الخارجيَّة، بل بعقلك أنت.

ما هي «الأنا»؟ يقول بوذا عنها ما يلي:

إنَّ مَنْ يعرف طبيعة ذاته، ويفهم كيف تتحرَّك أحاسيسه، لا يعثر على مكان «للأنا»، وهو بهذا يحقِّق السَّكينة المطلقة. إنَّ للعالم فكرة عن «الأنا»، ولكنَّ ذلك يخلق تصوُّراً كاذباً.

ويرى بعضهم أنَّ «الأنا» تبقى بعد الموت، ويقول بعضهم الآخر إنَّها تهلك. ولكنَّ هؤلاء وأولئك على خطأ، ويستحقُّ خطؤهم هذا عظيم الأسى.

لأنَّه إذا قال النَّاس إنَّ «الأنا» فانية، فمعنى هذا أنَّ ثمارها التي يعملون على جنيها فانية أيضاً، ويوماً ما لن يكون لها وجود. وليس ثَمَّة مأثرة في مثل هذا الخلاص من الذات الآثمة.

ومن جهة أخرى إذا قالوا إنَّ «الأنا» لا تفنى، فإنَّه ليس بين الحياة والموت سوى شخصيَّة واحدة، ليست مولودة ولا تموت. وإذا كانت «أنا» هؤلاء هكذا، فإنَّها لا يمكن أنْ تصير كاملة بوساطة التَّصرُّفات. «فالأنا» الثابتة التي لا تتغيَّر لا يمكنها أنْ تتبدَّل يوماً؛ لأنَّ الشَّخصيَّة سوف تكون عندئذ سيِّدة سائدة، ولن يكون ثمَّة مغزى في تحسين الكامل؛ ولا ضرورة في المطامح الأخلاقيَّة والسَّعي إلى الخلاص.

لكنَّنا نرى الآن علامات الفرح والحزن. فأين الثبات؟ إذا لم يكن الذي يؤدِّي تصرُّفاتنا هو «الأنا»، فإنَّ هذه «الأنا» لا وجود لها إذن؛ والأفعال ليس وراءها فاعل، والمعرفة ليس لها عارف، والحياة ليس لها سيِّد.

والآن انتبهوا واسمعوا. تتلاقى الأحاسيس وموضوعاتها، فيولد من اتِّصالها الشُّعور. ويفضي هذا إلى التَّذكُّر. وكما تشعل أشعَّة الشَّمس النَّار بوساطة المرآة المقعَّرة، كذلك يولد من المعرفة الصَّادرة عن الإحساس والموضوع ذلك السَّيِّد الذي تدعونه أنتم: الذَّات. فالنبتة تخرج من البذرة؛ ولكنَّ البذرة ليس نبتة؛ وليس كلاهما واحداً، ومع هذا فإنَّهما ليسا متغايرين. وهكذا هي ولادة الحياة!.

إنَّ مَن اكتشف أنَّ «الأنا» غير موجودة، سمح في الوقت عينه بغياب كل رغبة، وكل النَّوازع الأنانيَّة.

فالبقاء على الإخلاص للأشياء، والجشع، والشهوانيَّة، الموروثة كلها عن الوجودات الماضية، هو سبب الآلام وبطلان هذا العالم.

اعزف عن ميل الروح إلى الطمع الذي يرتبط بأنانيَّتك، وسوف تبلغ عندئذ حالة الصَّفاء العقلي التي تحمل إلى الكاملين السَّلام، والبرَّ، والحكمة.

وإذا كان الإنسان يعرف أنَّ ذاته عزيزة عليه، فإنَّه ينبغي عليه أنْ يحمي نفسه جيِّداً. والإنسان العاقل هو الذي يحافظ على يقظته في أثناء أيٍّ من الخفارات الثلاث.

الذَّات هي ملجأ الذَّاتيَّة. وأيُّ شيء آخر يمكن أنْ يكـون ملجـأً لهـا؟ إنَّ مَنْ يسيطر على ذاته سيطرة تامَّة، يحظى بملجأ آمن.

لا يُصنع الشَّرُّ إلاَّ بك أنت؛ فهو يولد في الذَّات، وفيها علَّته. الشَّرُّ يجلخ المعمورة كما يجلخ الحجر الصَّلب الألماس.

فالشَّرُّ لا يقترف إلاَّ بسبب الذَّاتيَّة. والذَّاتيَّة هي التي تـدنِّس الإنـسان. ولكنَّ الشَّرَّ لا يقطع دابره سوى الذَّات. لأنَّ الإنسان لا يتطهَّـر إلاَّ بذاتـه. فالنَّقاء والدَّنس مرتبطان بذات الإنسان. ولا يمكن لأحد أنْ يطهِّر الآخر.

وقال بوذا عن الخير والشَّرِّ:

لقد قال بوذا: يا أصدقائي، ما هو الشَّرُّ؟

القتل أيُّها الأصدقاء شرٌّ؛ والسَّرقة شرٌّ؛ والـشَّغف شـرٌّ؛ والثَّرثـرة شـرٌّ، واعتناق التَّعاليم الباطلة شرٌّ؛ إنَّ هذا كله يعدُّ شرّاً يا أصدقائي.

وما هو جذر الشَّرِّ يا أصدقائي؟ جذر الشَّرِّ هو الرَّغبـة أيُّهـا الأصـدقاء، والكره جذر الشَّرِّ أيضاً.

ومن الأفضل أنْ يبقى فعل الشَّرِّ غير مفعول. لأنَّ عمـل الـشَّرِّ يعـذِّب الإنسان بعد إتيانه. ولكنْ من الأفـضل أنْ يـؤتى فعـل الخـير، لأنَّ تحقيقـه لا يفضي إلى النَّدم.

لا تفكِّر بالشَّرِّ بلا مبالاة وتقول: «إنَّه لا يقترب منِّي». فقطرة الماء المتـساقطة سوف تملأ الدَّورق بالتَّأكيد. بالطريقة عينها يملأ الأحمق نفسه بالشَّرِّ.

فكما يتفادى التَّاجر الطَّريق الخطرة إذا كان حرسه ضعيفاً وماله كثير، أو كما يتفادى السُّمَّ مَنْ يحبُّ الحياة، كذلك ينبغي على الإنسان أنْ يحذر الشَّرَّ.

وليس ثمَّة مكان في السَّماء، أو في وسط المحيط، أو في كهف جبليٍّ يمكن أنْ يقي الإنسان من نتائج أفعال الشَّرِّ.

إنَّ أفعال المخلوقات الحيَّة كلها تغدو فاسدة بسبب عشرة عيوب؛ وإذا ما نجحت في أنْ تتجاوز هذه العيوب العشرة، فسوف تغدو أعمالـك صـالحة. فثمَّة ثلاثة عيوب للجسد، وأربعة عيوب للحياة، وثلاثة عيوب للعقل.

وعيوب الجسد هي القتل، والسرقة، والزِّنى؛ وعيوب اللِّسان الكذب، والنَّميمة، وإهانة الغير، والثَّرثرة الفارغة؛ وعيوب العقل هي البخل، والكره، والضَّلال.

وأنا أعلِّمكم أنْ تتفادوا العيوب العشرة:

١- لا تقتلوا، ولا توقِّروا الحياة.

٢- لا تسرقوا ولا تسلبوا الآخر؛ بل ساعدوا كل إنسان كي يكون سيِّد ثمار عمله.

٣- ابتعدوا عن القاذورات، وعيشوا حياة عفيفة.

٤- لا تكذبوا، بل كونوا صادقين. قولوا الحقيقة بعقلانيَّة، وشجاعة، وقلب محبٍّ.

٥- لا تختلقوا إشاعات كاذبة ولا تردِّدوها. ولا تنتقدوا، بل الفتوا النَّظر إلى الجوانب الإيجابيَّة في القريب، لكي يكون بمقدوركم حمايته من الأعداء.

٦- لا تشتموا، بل تحدَّثوا بتواضع ووقار.

٧- لا تهدروا الوقت بالهذر؛ فإمَّا أنْ تتحدَّثوا ضمن الموضوع أو اصمتوا.

٨- لا تتطاولوا على الغريب ولا تحسدوه، بل افرحوا لنجاحات الآخرين.

٩- نقُّوا قلوبكم من الحقد والكره حتى نحو أعدائكم؛ وتعاملوا بطيب مع الكائنات الحيَّة كلها.

١٠- حرِّروا عقولكم من العمه وجاهدوا لتعرفوا الحقيقة، خاصَّة عمَّا تكون معرفته ضروريَّة، لكي لا تصبحوا ضحيَّة الشَّكِّ والتَّضليل.

إذا ما اقترف الإنسان إثماً فليمتنع عن اقترافه مرَّة أخرى؛ وليبتعد عن الاستمتاع به؛ فنتيجة الشَّرِّ هي المعاناة.

فلينتصر الإنسان على الغضب بالحبِّ، فليهزم الشَّرَّ بالخير، والشُّحَّ بالكرم، والكذب بالصِّدق.

إذا ما تحدَّث الإنسان أو عمل بنوايا شرِّيرة، فإنَّ المعاناة سوف تلاحقه، كما يلاحق الوشم الثَّور الذي يجرُّ العربة.

تعالوا لنتحقق من نوايانا، ألا نفعل الشَّرَّ؟ إنَّنا لن نجني إلاَّ ما زرعناه.

إنَّ الآثم يظنُّ أنَّ الإثم حلو الطَّعم كالعسل. فالأحمق الذي يدرك حماقته، هو حكيم، في هذا في أقلِّ تقدير. ولكنَّ الأحمق الذي يعدُّ نفسه حكيماً، هو أحمق حقيقيٌّ.

وقال بوذا عن الرُّهبان:

إنَّ مَنْ عزف عن المآثر، ومَنْ تجاوز العيوب، وكان برَّاً، وعاش في هذا العالم بعقل، إنَّ هذا يدعى راهباً بحقٍّ.

فالكذَّاب لا يغدو ناسكاً إذا ما قصَّ شعر رأسه. إذ كيف يمكن أنْ يكون راهباً مَنْ تملؤه الرَّغبات والجشع؟

إنَّ مَنْ هزم الشَّرَّ، الصَّغير منه والكبير، هزيمة تامَّة، يدعى راهباً، لأنَّه تجاوز الشَّرَّ.

إنَّ الصَّمت لا يجعل الوضيع الجاهل حكيماً. ولكنَّ المتعقِّل الذي يزن الأمور في الميزان، فيقبل الجيِّد منها ويتفادى السَّيِّئ، لهو حكيم بحقٍّ.

ولذلك فإنَّ الرَّاهب ليس مَنْ يطلب الحسنات من الآخرين فقط، لأنَّ مَنْ يتبع الشَّكليَّات وحدها لا يصير راهباً.

فلا تكن أيُّها الرَّاهب واثقاً من نفسك قبل أنْ تتأكَّد من أنَّك أطفأت في نفسك الرَّغبات الشَّهوانيَّة. فالدِّين الأعظم، هو إطفاء الرَّغبة الآثمة.

وليكن سلوكك بطريقة تجعل نورك ينير إلى الأمام، لكي تستطيع أنت الذي أضأت العالم وكرَّست حياتك للدِّين والانضباط الدِّيني، أنْ تلتزم بقواعد الوقار، وتكون مبجَّلاً، ومحبَّاً ورحباً تجاه معلمِّيك والأكبر منك.

إنَّ الرَّاهب الذي ينظر إلى المرأة ويلامسها بصفتها امرأة، ينتهك اليمين الذي أقسمه ولا يعود مشايعاً.

وإذا ما تأتّى لك أنْ تتحدَّث إلى امرأة، فليكن، ولكن بقلب نقيٍّ، وقل بينك وبين نفسك: «أنا راهب، وسوف أعيش في هذا العالم الآثم نقيّاً كزهرة اللوتوس التي لا يلوِّثها الطِّين الذي تنمو فيه».

إذا كانت المرأة كبيرة في السِّنِّ فعاملها كما لو كانت والدتك، وإذا كانت شابَّة عاملها كما لو كانت أختك، وإذا كانت فتيَّة انظر إليها كما لو كانت ابنتك.

إنَّ قوَّة الرغبة عند الناس عظيمة، وينبغي الحذر منها؛ ولذلك عاهد نفسك على أن تكون صلباً غيوراً واستخدم سهام الحكمة الحادَّة.

أيُّها الرَّاهب حصِّن رأسك بخوذة الفكر الصَّالح وبعزيمة لا تفلُّ احم نفسك من رغبات خمس.

فالرَّغبة تلبِّد قلب الرَّجل، عندما يفتنه جمال امرأة، وعقله يُظلم.

إنَّه من الأفضل لك بكثير أنْ تسمل عينيك بحديد مُحمًّى حتى الاحمرار، من أنْ تحمل في نفسك نوايا شهوانيَّة دنيئة أو أنْ تنظر إلى جسد امرأة برغبة شهوانيَّة.

إنَّ الصَّلاح هو لجم الجسد؛ والصَّلاح هو الإحجام في الكلام؛ والصَّلاح هو ردع العقل؛ والصَّلاح هو الإحجام في كل شيء. إنَّ الرَّاهب المقسط في كل شيء متحرِّر من الأحزان كلها.

إنَّ مَنْ ليس له «أنا، وهذا لي» في كل ما يخصُّ العقل والجسد، ومن لا يأسف على ما لا يملكه، لهو يدعى راهباً بحق.

إنَّ الرَّاهب الذي اعتزل في مقرٍّ منفرد، وهدَّأ عقله، ووعى التَّعاليم بوضوح، يعيش سعادة تفوق سعادة البشر.

فليكن مؤمناً بطريقه وكاملاً في سلوكه؛ مليئاً سعادة، وبذا يضع حدّاً للأحزان.

وكما يطرح الياسمين زهره الذَّابل، كذلك يجب عليكم أنْ ترموا الرَّغبات والبغض.

إنَّ الرَّاهب الذي يتحوَّل إلى تعاليم بوذا شاباً، ينير هذا العالم كما ينير القمر ليلة ظلماء.

وكما يجرح المنجل اليد التي لا تمسك به بإتقان، كذلك حياة الزُّهد التي لا تمارس ممارسة صحيحة تقود الإنسان إلى جهنَّم.

كيف يجب أنْ يكون الواعظ؟ عن هذا يقول بوذا:

عندما أرحل ولا يعود بإمكاني أنْ أرشدكم بالأحاديث الدِّينيَّة، اختاروا من عدادكم أفراداً من عائلات صالحة، متنوِّرين جيِّداً، لكي يعظوا بالحقيقة بدلاً عنِّي.

وليرتدِ هؤلاء زيَّ بوذا، وليخطبوا في مثوى بوذا، وليشغلوا المنبر الذي كان بوذا يعظ من فوقه.

فثياب بوذا هي أعلى درجات رباطة الجأش، والتَّسامح. ومثواه، الرحمة وحبُّ الكائنات كلها. والمنبر الذي كان يعظ من فوقه، هو فهم القانون الصَّالح في تجليَّاته المعطاة.

ينبغي على الواعظ أنْ يتحدَّث عن الحقيقة بعقل ثابت لا يكل. عليه أنْ يمتلك قوَّة الإقناع المتجذِّرة في العفَّة، ويكون مخلصاً لعهوده غيوراً عليها.

يجب على الواعظ أنْ يلتزم بالحلقة الملائمة، عليه أنْ يكون صلباً في مواقفه. وأنْ يبتعد عن الغرور، ويبحث عن صحبة العظماء. ويبتعد عن الأرعن الخفيف اللا أخلاقي. وإذا ما جاءه الإغراء، فإنَّ عليه أنْ يفكِّر ببوذا، وسوف يخرج عندئذٍ منتصراً.

ومن واجبات الواعظ أنْ يستقبل على الرَّحب والسَّعة كل مَنْ يأتي إليه ليستمع إلى التَّعاليم، ويجب ألاَّ يثير وعظه الإحساس بالحيف لدى أحد.

ويجب على الواعظ ألاَّ يميل إلى تسقُّط عيوب الآخرين أو يشتم سواه من الدعاة الآخرين، فليس من اللائق به أنْ يغلظ في الكلام، أو يستعمل الصِّيغ الحادَّة. ويجب عليه ألاَّ يذكر أسماء التَّلاميذ الآخرين بهدف تقريعهم أو ذمِّ تصرُّفاتهم.

فمن المهمّ أنْ يكون الواعظ مليئاً بالحيوية والأمل المشرق؛ وألاَّ يتزعزع إيمانه وثقته في حتمية النَّجاح.

ويجب ألاَّ تسعده النِّزاعات العدائيَّة، وألاَّ يدخل جدالاً لكي يظهر تفوُّق إمكاناته، وإنَّما ينبغي عليه أنْ يكون هادئاً وراضيًّا.

يجب ألاَّ يكن في قلبه أحاسيس عدائيَّة، وألاَّ تخلو نفسه من الرَّحمة بالكائنات كلها.

وإلى أنْ يصغي النَّاس لصوت الحقيقة، يجب على الواعظ أنْ يتغلغل عميقاً إلى قلوبهم، وعندما يأخذون بالإصغاء بانتباه وجدِّيَّة إلى ما يقوله، عليه أنْ يدرك أنَّهم على مشارف الصَّحوة.

اعتنقوا قانون الحقيقة الصَّادق، حافظوا عليه، اقرؤوه وأعيدوا قراءته، افهموه، وانشروا فهمه، عظوا به للكائنات كلها في شتَّى أرجاء الكون.

ليس بوذا شحيحاً، ولا تقيِّده الآراء الباطلة، إنَّه يعمل على أنْ ينقل معارف بوذا الكاملة إلى كل مَنْ لديه الاستعداد والرَّغبة لقبوله. فاقتدوا به، وكونوا مثله. قلِّدوه واحذوا حذوه في كرمه بمنح الحقيقة.

اجمعوا حولكم مَنْ يجب أنْ يجمَّ كلمات القانون الصَّالحة التي تبعث السَّكينة في النَّفس؛ حرِّضوا قليلي الإيمان على أنْ يقبلوا الحقيقة، املؤوا قلوبهم فرحاً ومتعة. شجِّعوهم، وجِّهوهم واصعدوا بهم أعلى فأعلى إلى أنْ يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة، ويروا روعتها وعظمتها ومجدها اللا متناهي.

لو استمع الإنسان إلى قول واحد بعث السَّكينة في قلبه، لكان أفضل له بكثير من ألف كلمة لا نفع منها.

كثرة من «البوذا»

لقد حاول بوذا أنْ يبعد الإله الواحد من هذا العالم، لكنَّه عجز عن معرفة مكانته فيه. فتعاليمه لم تسمح له بذلك. وحسب تعاليم بوذا أنَّ المتنوِّر، الكامل يجب أنْ يبلغ النرفانا في آخر حياته؛ ويجب أنْ ينتهي وجوده عند هذا الحدِّ، بهذا الشَّكل أو ذاك. ولذلك يجب أنْ يوجِّه الجميع بعد موت بوذا، القانون الذي رآه، أدركه لحظة الصَّحوة. وفي آخر حياته قال بوذا عن هذا القانون:

«أنا الآن يا أناندا شيخ عجوز، كهل أكربتني السنون، لي ٨٠ عاماً...
عيشوا يا أناندا بطريقة يكون واحدكم فيها قنديل نفسه، ملجأ نفسه،
لا تقتنوا قناديل أخرى سوى قناديل القانون، لا تتخذوا ملجأ آخر سوى
ملجأ القانون».

لكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: ما هو هذا القانون، مَنْ صاغه، مَنْ أنشأه؟ فبوذا نفسه لم يفهم هذا القانون، لم يدركه إلاَّ لحظة جاءته الصَّحوة. إذن فالقانون ثابت مستقرٌّ، وينبغي تنفيذه بالضَّرورة، أمَّا مؤلِّف هذا القانون، منشئ هذا القانون فليس له وجود. لقد انتزع بوذا من خارطة العالم الموحَّدة التي لا تتجزَّأ، قلبها، الروح الكوني، الأمر الذي سلبها قاعدتها، أساسها ومفهوم روح الإنسان فيها. إنَّ بوذا لم يستطع أنْ ينفي وجود روح الإنسان على وجه العموم، لكنَّه رفض أنْ يكون ثمَّة روح ثابتة أزليَّة لا تتغيَّر، مختلفة تماماً ومنفصلة عن الجسد. فالروح بالنِّسبة لبوذا هي كتلة من العناصر المستقلَّة المتبدِّلة أبداً. ويظهر هذا بجلاء في الحوار الآتي. تطرح الميليندابانها سؤالاً عمَّا إذا كان الإنسان يبقى بعد الموت كما كان في الحياة الدنيا، أم أنَّه يتبدَّل. وقد طرح السؤال في ميليندا وأجاب عليه ناغاسينا. فأكَّد أنَّ الإنسان بعد الموت لا يبقى كما هو، لكنَّه لا يصير إلى آخر. وقال: «أيُّها الملك العظيم! إذا ما أشعل أحدهم القنديل مثلاً، فهل يبقى القنديل مشتعلاً طوال اللَّيل؟» «نعم أيُّها السَّيِّد، يمكن أنْ يبقى القنديل مشتعلاً طول اللَّيل». «ولكنْ أيُّها الملك العظيم، هل الشُّعلة في الترم الأول من اللَّيل هي نفسها في الترم الثَّاني؟». «كلاَّ أيُّها السَّيِّد». «وهل الشُّعلة في التَّرم

الثاني هي نفسها في الثالث؟». «كلا أيُّها السيّد». «وهل كان القنديل غير القنديل في الترم الأول والثاني، ثم في الثاني والثالث أيُّها الملك العظيم؟». «كلا أيُّها السَّيِّد، لقد كان الضوء ينبعث من القنديل عينه طوال اللَّيل». «هكذا تماماً أيُّها الملك المعظَّم، تتعاقب أشكال عناصر الوجود واحدها إثر الآخر. يظهر أحدها فيعبر الآخر: من غير بداية ونهاية يعقب واحدها الآخر مباشرة. لا كذاك عينه، ولا كالآخر تقترب كلها من التكوين الأخير للفيجينيانا». وكان بوذا نفسه قد وضَّح هذا التَّبدُّل على مثال تيار الماء (كما فعل هيراقليط)، أو على مثل الشُّعلة. وقد ساق المثل التَّالي: عندما ترهبنت كيساهوتامي، أشعلت شمعداناً في الدير. وعندما رأت شعلة الشمعدان تلتهب حيناً وتخبوا حيناً آخر قالت: «هكذا تظهر الكائنات الحيَّة وتعبر، ولكنَّ الذين يبلغون النرفانا لا يظهرون بعد ذلك أبداً». ثمَّ يروى أنَّ بوذا نفسه ظهر لها وأكَّد صدق ما قالت. ويسوق لنا نصٌّ آخر (تهيريجاتها) قصَّة الرَّاهبة باتاتشارا عن بلوغها الخلاص. وفي ختام القصَّة قالت باتاتشارا: «حينئذٍ أخذت قنديلاً وذهبت إلى الدير، فرأيت سريري واستلقيت عليه. وأخذت إبرة انتزعت بها فتيله. فتحرَّرت روحي مثلما انطفأ القنديل».

وهنا نقترب من عمق مغزى مفهوم «نرفانا». فالتَّصوُّر الشَّائع، هو أنَّ النرفانا تعني اللا وجود، العدم وحسب. بيد أنَّ مغزى هذا المفهوم أكثر عمقاً بكثير، فتعبير مثل «انطفأ القنديل» ينطق بلغة بالي هكذا: باديبا سيفا نيبانا. وكلمة نيبانا هذه تنطق في صيغتها السنسكريتيَّة نرفانا. وتتألَّف هذه الكلمة من البادئة «نيس» (= من) التي تتحوَّل قبل الحرف الصَّوتي إلى «نر»، ومن الجذر «فا»: «ينفخ»، «يعصف»، ومن اللاحقة «نا». وبذا يكون المعنى الحرفي لكلمة نرفانا، هو «المنفوخ»، «المطفأ»، «المخمد». وتتردَّد هذه الكلمة كثيراً بهذا المعنى في النُّصُوص البوذيَّة. ولكنَّ كلمة نرفانا هذه تسحب على إخماد نار الرَّغبة. ومعنى هذا أنَّ النرفانا لا تعني مجرَّد العدم وحسب. فوفق تعاليم بوذا من ينجح في ترويض أهوائه، فقد أدرك وهو على الأرض حالة السكينة المغبوطة، أي النرفانا. فالقديس يحقِّق النرفانا قبل الموت. وقد قالت تهيريجاتهيرا سامكرتيا عن تلك الحالة: «أنا لا أرغب في الموت ولا أرغب في الحياة. أنا أنتظر ساعتي كعامل ينتظر أجره. أنا لا أريد الموت ولا أريد الحياة. أنا أنتظر ساعتي مليئاً بالوعي والفكر». والحقيقة أنَّ وصف حالة النرفانا ورد أيضاً في الدراسات البراهمنية (قبل بوذا). فالنرفانا بالنسبة للبوذيين هي قبل كل شيء، حالة من الطُّهر وانعدام الآلام. فالرَّاهب المتجوِّل جامبوكهادانا خاطب شاريبوترا بالكلمات الآتية: «غالباً ما يقولون يا أخ شاريبوترا: نرفانا، نرفانا! ولكنْ ما هي النرفانا؟» فأجاب شاريبوترا: «قمع الأهواء، قمع الآثام، التَّخلُّص من العمه، هذا ما تعنيه النرفانا أيُّها الأخ». وتوصف طريق بلوغ النرفانا في

الجامابادا هكذا: «إذا كنت قد بتَّ لا تثار بعد، إذا كنت قد غدوت كالجرس المتصدِّع، فأنت بلغت النرفانا، ولن تدير بعد ذلك أحاديث حمقاء». وجاء في المصدر البوذي الآخر سوتانيباتا: «إنَّ من قضى على أهوائه، وتحرَّر من الغرور، وتجاوز طريق الرغبات كلها، وسيطر على نفسه سيطرة تامَّة وبلغ النرفانا، وكان ثابت الروح، فإنَّه يسير على الطريق الصحيحة في هذا العالم». ويتَّضح من هذا كله أنَّه ثمَّة خلاص في هذه الحياة. والحقيقة أنَّ البوذية لا تتفرد وحدها بهذا القرار، فالنُّظم الفلسفية الهندية الأخرى تلحُّ بدورها على أنَّ «الخلاص لا يتحقَّق إلاَّ بمعارف معيَّنة لا يمكن فقدانها بعد اكتسابها». زد إلى هذا أنَّ بوذا أدرج في تعاليمه عن هذه المسألة، ما كان موجوداً قبله في «جيفانموكتي» البراهمن. إنَّ من حقق الخلاص في حياته الدنيا لن يفقده بعد ذلك أبداً. فلن يأتي بعد بأفعال قد تؤثِّر على مستقبله. بل لن يأتي بأيِّ أفعال لا صالحة ولا طالحة. ومن تنتهي دورة حياته بالموت، فقد تفادى البعث من جديد. وبمعنى آخر إنَّ «من حقق الخلاص يموت ولا يصحو ثانية». وهذا ما يوضِّحه الحوار الذي ساقته سوتانيباتا. فمرَّة كان بوذا في ألافي، إذ مات فيها أحد الشيوخ: نيغرودهاكابا. وكان هذا معلِّم فانغيسا. وكان هذا الأخير راغباً جداً في معرفة ما إذا كان معلِّمه قد حقق النرفانا أم لا. فسأل بوذا: «ألم تكن حياة النقاء التي عاشها نيغرودها كابا مجرد عبث لا طائل منه؟ هل بلغ النرفانا، أم أنه لا وجود لسكانداه بعد؟» فأجابه الرَّبُّ بوذا: «لقد قمع في هذا العالم توق الاسم والصورة، قمع تيار ماراس الذي أقام فيه طويلاً؛ لقد تجاوز الميلاد والموت دون أنْ يترك لهما أثراً». وعن كونه لن يبعث ثانية، يمكننا أن نعبِّر بكلمات أخرى: لم يبقَ أيُّ أثر لسكانداه. وجاء في نصٍّ آخر، إنَّه عندما وضع العجوز الكهل غودهيكا حدّاً لحياته، قال بوذا معلِّقاً على ذلك: «لقد انتقل غودهيكا إلى النرفانا بانتصاره على عدوانيَّة الموت؛ ولم يكتسب الانبعاث من جديد، لقد اجتثَّ جذر التَّعطُّش». وحسب النُّصوص البوذيَّة إنَّ حالة الميت الذي حقق الخلاص النهائي من الانبعاث، هي النرفانا الكاملة (بارينرفانا).

وخبَّرت المهابارينيباناسوتا عن موت بوذا. ومنذ أنْ رحل بوذا عن هذا العالم اقترن اسمه بتعبير: النرفانا الكاملة (بارينرفانا). بمعنى آخر إنَّ للنرفانا مستويين. المستوى الأوَّل، هو الخلاص في الحياة الدنيا، أي النرفانا. والمستوى الثاني، هو الخلاص من الولادات المتتالية بعد الموت، وهو النرفانا الكاملة. وغني عن البيان أن مستوى الخلاص الثاني مستحيل بغير المستوى الأول. إذن الخاتمة المنطقية لتعاليم بوذا، هي الموت، وليس ثمَّة بعث قط، انطفاء الحياة نهائيَّاً.

ويستنتج من هذا كله أنَّه لا شيء بعد الموت البتة. ولكنَّ هذا العدم منوط بتحقيق الخلاص، الخلاص من انبعاثات جديدة. ويبدو واضحاً أنَّ غاية تعاليم بوذا، هي تهدئة كل الأفكار الباقية في النفس عن الولادات السابقة، وتحطيم ماهية التفكير العقلي، وكل الرغبات، كي يبقى الموت الأبدي، فعند بلوغه النرفانا الأولى، يعي الإنسان أن ذلك ممكن، ويقتنع بأن ولادته هذه هي الولادة الأخيرة وأنه سيبلغ النرفانا الكاملة بعد الموت. ولكنْ على الرغم من أنَّ حالة النرفانا الأولى لا تبقي على أيِّ أفكار، أو أهواء، أو أيِّ انفعالات نفسيَّة، إلاَّ أنَّنا نستطيع القول بصعوبة فائقة، إنَّ النرفانا الأولى هي بالنسبة للإنسان علَّة لسعادة فريدة من نوعها: «عالم لا مثيل له، خالٍ من الأحزان، ملجأ أزلي لا يعرفون فيه الألم، مكان ترسمه المصادر البوذيَّة بألوان زاهية». وقد قاد هذا التَّصوُّر في زمن لاحق إلى نشوء صورة الجنَّة.

لقد فهم بوذا نفسه نرفاناه فهماً دقيقاً محدَّداً: الانطفاء بعد الموت ونهاية الانبعاثات كلها، والحقيقة أنَّ هذا التَّصوُّر عن النرفانا لم يكن تصوُّراً مبتكراً. فقد عرفه أسلاف بوذا، كما عرفه معاصروه (البراهمن، والجاينيون وسواهم من الطوائف الأخرى).

لقد كانت المهمة الأساس لتعاليم بوذا، هي التحرير العملي لأكبر عدد ممكن من النَّاس، إنقاذهم. وكانت هذه المسألة قد عولجت في تعاليم بوذا معالجة مفصَّلة. فطريق البرِّ تتوزَّع على درجات. والدين الحق هو الدرجة الأولى على طريق البرِّ. والدرجات الخمس التالية هي: العزيمة الصادقة، والكلمة الصادقة، والعمل الصالح، والحياة الصالحة، والسعي الصادق. ومن الواضح أنَّ هذه الدرجات تتضمَّن الوصايا الخمس التي سبق الحديث عنها. وتلي هذه الدرجات درجتان أخريان: الفكر القويم والتأمل الصحيح. وبما أنَّ البوذية لا تعترف بوجود إله، فليس لديها صلوات. والحقيقة إنَّه ثمَّة بعض صيغ اعتناق الدين، هي عبارة عن مدائح وتمجيد لبوذا نفسه وللطائفة التي أسسها. وقد استعيض عن الصلوات إلى حدٍّ ما، بالاستغراق في التَّأمُّل. بيد أنَّه كان من الضروري تعلُّم تقنية هذا الاستغراق، وعلى مدى طويل. ولذلك لم يكن الاستغراق بما هو استغراق عميق، لم يكن متاحاً للمؤمنين. فمعرفة ممارسته كانت بمتناول يد الرُّهبان فقط. لكنَّ هؤلاء كانوا قلَّة، ولذلك فإنَّ المشكلة لم تجد حلاً كاملاً عبر هذه الطريقة. بمعنى آخر بقي أكثر المؤمنين عاجزاً عن ممارسة التأمل.

ونشير في السياق إلى أنَّنا عندما أنكرنا على البوذية وجود الصلوات فيها، فإنَّنا بهذا جانبنا الحقيقة بعض المجانبة. فثمَّة صلاة واحدة على أيِّ حال. فهي صلاة، أو كما يدعونها: صفة الصلاة المقدَّسة. وهي: «أوم ماني نادمي هوم». أي «نعم أنت جوهرة في اللوتس! آمين». وقد كتب مؤرِّخ البوذية عن هذه الصلاة يقول: «إنَّ هذه الصلاة، هي الصلاة الوحيدة تقريباً،

التي يعرفها الإنسان العادي في التيبت ومنغوليا عن البوذية. وهذه المقاطع الستة هي أول ما يتمتم به الطفل، وآخر ما ينطق به المحتضر. كما يتمتم به السائر في الطريق، والراعي مع قطيعه، والمرأة وهي تؤدِّي أعمال المنزل، والراهب في كل أطوار تأمُّله، أي عندما لا يفعل شيئاً: هي في الوقت نفسه الهتاف العسكري وصيحة النصر». ويمكننا أن نرى هذه الصلاة في معابد اللاما كلها، مكتوبة في غالب الأحيان بالسنسكريتيَّة. إنَّها حاضرة في كل مكان تسيطر فيه اللا مائيَّة. ويكتبونها أيضاً على الرايات، وحقول أوراق الكتب، وعلى الصُّخُور، والأشجار، والجدران. «فليس هناك صلاة تكتب أو تتلا أكثر من هذه. ويبالغون كثيراً في تمجيدها بصفتها تستوعب الدِّين كله في كلماتها، وتحتوي على الحكمة كلها، فهم يؤوِّلونها تأويلاً صوفيَّاً». ونحن لا يسعنا إلاَّ أنْ نعبِّر عن حزننا لحرمان شعب من نعمة الكلام التي يأتي كل شيء للإنسان عبرها. فالحقيقة إنَّه «في البدء كان الكلمة». ومن المفيد أنْ نتذكَّر الآن مزامير داود وسليمان، وصلوات محمَّد الموقَّعة، وكل أشعار الإنجيل. إنَّ هذا يجعلنا نحسُّ بالأسف لأنَّ البوذيَّة سلبت نفسها الكلمة. ولكنْ لا غرابة في هذا! فقد سلبت البوذية نفسها الإله. و«الإله كان الكلمة!».

لقد أعدَّ نظام الاستغراق في التَّأمُّل الذي كان يجب أنْ يحلَّ بدلاً من الصلوات، إعداداً دقيقاً مفصَّلاً. فقد أبرزت أربعة مستويات من الاستغراق الديني. ويجب أنْ تجري العملية في مكان هادئ منفرد. فيجلس الرَّاهب وساقاه مضمومتان مثنيتان، «جسده مستقيم، ووجهه محاط بهالة من التفكير النشط». فالرَّاهب يبحث عن «نقطة التركيز»، مكثِّفاً روحه في نقطة واحدة. وللمثال يسوقون ما حصل للرَّاهب الذي أراد أنْ يستغرق في التَّأمُّل؛ إذ جلس هذا على ضفَّة نهر أتشيرافاتي وأخذ يراقب ظهور أمواج الزبد واختفاءها. وقد رأى الرَّاهب في هذا مثالاً لظهور جسد الإنسان واندثاره. فاتَّخذ هذه الفكرة «نقطة تركيز». وفي مثل هذه الحالة من الاستغراق في الفكرة، بدأت روح الراهب تمتلئ شيئاً فشيئاً بالصَّفاء. وأخذت الأهواء تتلاشى، بيد أنَّ الروح لا تزال تابعة للتحديق في «نقطة التفكير» وسير المحاكمة العقليَّة. أمَّا عندما تتحرَّر الروح من المحاكمة العقليَّة والتَّحديق، وتبلغ درجة الثقة، فعندئذ تبدأ الدرجة الثانية من الاستغراق. فتتحقَّق حينئذ الصحوة والإلهام. وإذا يختفي الإلهام، والسعادة، والألم تبدأ الدرجة الثالثة من الاستغراق. وعلى الدرجة الرابعة يتوقَّف التَّنفُّس، ويغدو الإنسان لا مبالياً تجاه كل شيء. وفي هذه الحالة من التَّغيُّر يكتسب الإنسان إمكانيَّة استقاء المعلومات من حقل الإعلام الكوني (إذا جاز لنا أنْ نستخدم المصطلحات المعاصرة). ويستطيع أنْ يغوص إلى الماضي ويرى ما فيه، وإلى المستقبل ويرى ما يحمل. وترى البوذية أنَّ الراهب

الذي يحقّق الدرجة الرابعة من الاستغراق يصبح قريباً من النرفانا. ثم اعتقدوا بعد ذلك أنَّ الإنسان عندما يحقّق درجة الاستغراق الرابعة، يولد من جديد في إحدى السموات.

لقد وُصفت غبطة الاستغراق في العصور كلها بدهشة واضحة. ففي التهيراغاتها وصفها الكهل بهوتا هكذا: «عندما يقصف هزيم الرعد في السماء، وتملأ تيارات المطر الطريق الكونية كلها، ويترك الراهب نفسه لحالة الاستغراق في الكهف الجبلي، فليس ثمَّة متعة تقارب هذه بالنِّسبة إليه. وفي الليل، وحيداً في الغابة، والمطر ينهمر، والوحوش تزأر، يسلِّم الرَّاهب روحه للاستغراق في الكهف: ليس هناك متعة أعظم من هذه بالنِّسبة إليه».

ووصف بوذا تمارين التَّنفُّس التي تؤدِّي لهدف الاستغراق، أنَّها بديعة وغنيَّة بالفرح والحبور. وكان بوذا قد اقتبس عنصر الاستغراق هذا، وأشياء أخرى كثيرة عن تعاليم اليوغا. وحسب تعاليم بوذا إنَّ للبرِّ أربع درجات، «أربع طرق». الأولى هي الستروتاياپانا. وهي أولئك الذين «بلغوا المجرى»، وضعوا أقدامهم على طريق البرِّ. وهي أدنى درجات التشيُّع. ولبلوغ هذه الدرجة ثمَّة القليل مما يجب فعله: تلاوة نصٍّ معيَّن في مديح بوذا، وختامه بعهد صارم موضوع بدقَّة متناهية. وآخر أقوال العهد: «أرغب أنْ أعيش وفق الوصايا، محبوباً، نبيلاً، ثابتاً، كاملاً، نقيَّاً، طاهراً، حرَّاً، بما يرفع من شأن المتعقلين، والذين لا ينقضون عهودهم، ويفضي إلى الاستغراق (في عمق الذَّات)». ومن يبلغ الدرجة الدنيا من البرِّ ينعتق من الولادات في العوالم السفليَّة (في الحضيض، وعالم الأشباح، وعالم الحيوانات). ويضمن أنَّه حقق الخلاص، لكنَّه لم يبلغ بعد مستوى البرِّ الذي يؤهِّله لقطع سلسلة الانبعاثات: عليه أنْ يولد سبع مرَّات أخرى قبل أنْ يبلغ النرفانا. ويحقق الدرجة الثانية من البرِّ من قطع دابر الرغبات، والكره، والغواية في نفسه («حتى أقلَّ أثر»). ومثل هذا الإنسان لن يولد في هذا العالم سوى مرَّة واحدة بعد ذلك. وتعني الدرجة الثالثة من البرِّ أنَّ الإنسان الذي يبلغها لن يعود مرَّة أخرى إلى الحياة الدنيا، لكنَّ عليه أنْ يولد مرَّة أخرى في العالم الآخر، عالم الآلهة. ومن هنا تمتدُّ أمامه الطريق إلى النرفانا. ويمكن لأيِّ بوذيٍّ كان أنْ يحقق درجات البرِّ الثلاث هذه إذا ما كان سلوكه متوافقاً مع ما هو مطلوب. أمَّا الدرجة الأعلى من البرِّ، الدرجة الرابعة، فلا يستطيع تحقيقها سوى الراهب، فهؤلاء البررة (الأرهات) «ناجون من الخوف والكآبة»، حسب قول بوذا نفسه.

وعلاوة على هذا يقسم البوذيون الشماليون مستويات البرِّ إلى ثلاث طبقات: ١) التلميذ، والغلام، والمستمع؛ ٢) البوذا لنفسه؛ ٣) البوذا المقبل. وينتمي إلى طبقة التلاميذ، المؤمنون كلهم. وكان النص القديم بالي، قد جاء على ذكر البوذا لنفسه. بيد أنَّ النُّصُوص لا تأتي

على ذكر هؤلاء إلاّ نادراً جداً. وهؤلاء البوذا هم المؤمنون الذين اكتسبوا المعرفة بقواهم الذاتية. والمقصود هنا هو المعرفة الضرورية لبلوغ النرفانا. ولا يشيع هؤلاء معارفهم ولا يبشرون بها، بل يبقونها لأنفسهم. ولذلك دعوهم «بوذا لأنفسهم». وقالت النُّصُوص عن البوذا لنفسه، إنَّه يستطيع بلوغ النرفانا الأعلى، لكنَّه عاجز عن الكشف عن هذه المعارف لغيره، «تماماً كالأخرس الذي يستطيع أنْ يرى حلماً مهمّاً، بيد أنَّه يعجز عن شرحه للآخرين»، أو «كالمتوحش الذي يدخل المدينة فيقدِّم له أحد وجهائها ضيافة، وعندما يعود إلى الغابة لا يستطيع أنْ يعطي شركاءه هناك فكرة عن المأكولات التي أكل منها، لأنَّه لم يعتد على مثلها». أمَّا طبقة البررة الثالثة، فهي البودهيساتفا. فمع الوقت يغدو هؤلاء بوذا. ويمكن القول عن بوذا نفسه إنَّه قبل أنْ تأتيه صحوة العقل في الرابعة والثلاثين من عمره، كان بودهيساتفا. وقد يولد البودهيساتفا مرَّة أخرى في صورة حيوان، إلاّ أنَّه يبقى دائماً على درجة البرِّ هذه، ولا يقترف أيَّ إثم في أيِّ ولادة من ولاداته المتعاقبة.

وفوق الكائنات كلها يقف متعالياً لا يطال، بوذا البرّ، السَّامي، الصَّاحي، المشرق، أو الكامل الصَّحوة. ويبدأ كل نصٍّ بوذيٍّ بكلمات بوذا التالية: «المجد للسامي، البارّ، الكامل الصَّحوة!».

ولكنَّ بوذا الذي تحدَّثنا عنه، ليس البوذا الوحيد الذي ظهر على الأرض، فبعد أنْ تنصرم مقاطع زمنيَّة معيَّنة تدعى كالبا، سوف يهلك العالم كله، ثمَّ يلي ذلك بعث جديد. وقد يظهر بوذا في هذا العصر، لكنَّه قد لا يظهر أيضاً. وتدعى العصور التي ليس فيها بوذا: «كالبات خالية»، أو «بوذا كالبا». وقد يظهر في عصر واحد من العصور غير الخالية، أكثر من بوذا، حتى الخمسة بوذا. ويدعى مثل هذا العصر الغني بالبوذا، «العصر الكوني المبارك». والبوذا الذي يعيش في زمننا هذا، هو البوذا الرَّابع. ولكنْ من المعروف أنَّه يجب أنْ يظهر بوذا آخر، هو البوذا الخامس. بل أطلقوا على هذا الأخير اسمه: مايتريا، أو ميتيا بلغة بالي. ويلقي البوذيون آمالاً كبيرة على هذا البوذا الخامس الذي يجب أنْ يظهر في زمننا هذا. وهو موجود في وقتنا الراهن، ولكنَّه بصفة من لم يبلغ الصحوة بعد. ولذلك لا يزال مجرَّد بودهيساتفا. وهكذا فالعمليَّة الحسابية هنا هكذا: بما أنَّه انصرم كمٌّ لا عدَّ له من العصور، بما فيها عصور «غير خالية»، فهذا يعني أنَّه كان فيها كمٌّ لا عدَّ له من البوذا الذين حقَّقوا الصَّحوة. والبوذا الخامس في هذا العصر: البوذا ميتيا، سوف يظهر بعد ثلاثة آلاف سنة. وهناك سبعة وعشرون بوذا أسماؤهم معروفة، وثمَّة ملفات كاملة عن حياة أربعة وعشرين منهم، دوِّنت سير حياتهم شعراً: بوذافامسا. ودخلت هذه البوذافامسا قانون البوذيين الجنوبيين. أمَّا البوذيون

الشماليون فلديهم عدد أكبر من البوذا. لكنَّ الأهمَّ بينهم هم السبعة الأخيرون (بمن فيهم بوذانا). ويدعى هؤلاء البوذا: «بوذا الصورة البشرية». ثلاثة منهم في العصر الذهبي، واثنان في الفضّي، وواحد في الحديدي (هو بوذانا الآن). وللرواية الجنوبية عمليّاً، التّصوُّر عينه عن هؤلاء البوذا السبعة. ولكنَّ البوذيين الشماليين يضيفون إلى هؤلاء خمسة بوذا آخرين غير ماديين، ويدعونهم: «بوذا الاستدلال العقلي». ثمَّ أقرَّت طائفة البوذيين الشماليين فيما بعد أنَّ لكل بوذا يظهر على الأرض في صورة بشريَّة، مثيل في عالم اللاشعور. وليس لهذا الأخير اسم أو صورة. وبوذا الزمني ليس سوى انعكاس لانبثاق بوذا السماوي. والبوذا السماويون هم آلهة عمليّاً. فليس لهم والدان، لكنَّ كلاً منهم يصنع بانبثاقه ولداً له على الأرض. وينبغي على هذا أنْ يتابع تنفيذ القانون الصالح على الأرض. وهكذا تكتمل الحلقة: لقد حلَّ بوذا السماء بدلاً من الآلهة، ولكنْ مرَّة أخرى لا يؤتى على ذكر من صنع تلك القوانين الصالحة التي ينبغي مراقبة تنفيذها. فالقانون هو القانون. ويجب أنْ يكون واحداً في الأزمنة كلها، وله مؤلّفه الذي وضعه: صانعه، خالق هذا العالم. أمَّا البوذا فإنَّهم يظهرون بين وقت وآخر. وقد تمرُّ قرون لا يظهر فيها أيُّ بوذا. ولذلك فإنَّهم لا يمكن أنْ يكونوا هم من وضع هذا القانون الواحد الموحد، المستقر. فهؤلاء عابرون، طارئون. زد إلى هذا أنَّهم عاجزون عن متابعة تنفيذ القانون على الأرض، لأنَّهم ليسوا موجودين في الأرض دوماً. ونحن كنَّا قد رأينا أنَّ أتباع بوذا يفتقرون إلى وجود الإله الواحد، ويحاولون تعويض هذا النَّقص بإدخال بوذا السماء في موازاة بوذا الأرض. ولكنْ ما الداعي لهذا التعقيد كله إذا كان يمكن أنْ ندعو الأشياء بأسمائها، فندعو الإله إلهاً والبوذا بوذا. فهناك إله وهناك رسوله، ابنه الروحي إذا جاز لنا القول. فصحوة بوذا تتلخَّص في كونه أدرك القانون الفاعل في العالم، والذي صنعه الإله. ولكنَّ الفرحة جعلت بوذا ينسى صانع هذا القانون، وينسى وجوده نفسه، ويعلن أنَّه هو الأكثر ذكاء من الآلهة والناس. ولذلك حاول أتباع بوذا تجاوز السهوة فأقاموا في السماء بوذا سماويّاً بدلاً من الإله الواحد. ولكنَّهم فشلوا في جعله بوذا أزليّاً، وبغير هذا لا يمكن أنْ يكون إلهاً. وننوِّه في السياق إلى أنَّ البوذيين الشماليين حاولوا أنْ يذللوا هذه الصعوبة أيضاً. فرأوا أنَّه لم يكن ثمَّة انقطاع زمني بين البوذا الخمسة، وأنَّ مصدرهم كان واحداً، هو بوذا الموجود أبداً، بوذا السماوي الذي دعوه: بوذا البدئي. وبهذا يكون هؤلاء قد اقتربوا كثيراً من فكرة التوحيد التي تقوم على وجود بوذا البدئي بدلاً من الإله الواحد.

الفصل السابع

التلاميذ والطائفة

لقد انتقى بوذا تلاميذه من شرائح المجتمع كلها، من الكاستات كلها. ولم يعترف بالتقسيم الكاستي في هذا الميدان (الدِّيني). وقد جاء عن هذا في النَّصِّ البوذي ما يلي: «مَنْ يصير راهباً من الكاستات الأربع، وبارًّا، يكون قد قمع الغرور، وبات كاملاً، ورمى عن كاهله العبء الذي ألقاه التَّمسُّك بالعالم على كاهل الإنسان؛ لقد حقَّق هذا غايته، وقطع كل صلة له بالوجود وحقَّق الخلاص عبر كمال المعرفة، وعلا فوق الكل عبر القانون فقط». عبر القانون تحديداً، عبر القانون الواحد لجميعهم، عبر القانون الذي منحه الإله الواحد للعالم كله. ومَنْ يستطيع سوى الإله الواحد أنْ يمنح قانوناً واحداً؟ فأيُّ إنسان مهما كان متميِّزاً أو شبه إله، سوف يصوغ إرشادات حسب اعتقاده، وحسب فهمه لجوهر الأشياء. إنَّ القوانين البشريَّة تعكس كقاعدة، مصالح جماعات معيَّنة من النَّاس. علاوة على هذا أنَّ مثل هذا القوانين تكون عادلة، ونافذة خلال مقطع زمني محدَّد؛ ثم تستبدل بها قوانين أخرى. ولذلك فإنَّ الحديث عن قانون مطلق ملزم لجميعهم في الأزمنة كلها، ممكن فقط إذا كان هذا قانون وضعه صانع العالم، خالق الكون، الإله الواحد. فقانون الإله يعلن: «لا تقتل!» في أيِّ حال من الأحوال، وبناء على أيِّ أمر صادر عن أي كان. فالقتل (أو الأمر بالقتل، أو التحريض على القتل) إثم، القتل، أيُّ قتل، انتهاك لقانون الإله الواحد. أمَّا القانون البشري فإنَّه «كعريشة المركبة». فبقدر ما يقتل الإنسان من البشر الآخرين، أو بقدر ما ينجح في تنظيم عمليَّات القتل، بقدر ما يحظى بالاحترام، والتمجيد، والأوسمة. والحقيقة إنَّ مثل هذه المكافآت لا تُمنح لقاء أيِّ قتل، بل فقط لقاء القتل الذي للسلطات مصلحة به. ولذلك فإنَّ انتهاك القانون البشري يعدُّ جريمة، وليس إثماً. فالأفعال عينها (القتل مثلاً) قد تمنح الإنسان وساماً، وقد يدفع حياته ثمناً لها. ويرتبط الأمر كله بالقوانين النافذة في المكان المعني، في البلد المعني، وفي الزمن المعني. ولكنَّ القانون الإلهي لا يقبل هذا بحال من الأحوال. فهو واحد في الأزمنة كلها، وللشعوب كلها: لا تقتل: نهي قاطع عن القتل في تعاليم موسى، والمسيح، ومحمَّد، وبوذا. ولذلك فإنَّ هذه التعاليم (الديانات) تعيش

الآن، وسوف تبقى إلى الأبد، لأنَّها تقوم على القانون الإلهي الواحد. ففي مكان ما يمكن تحريم أكل لحم الخنزير، ولكن يمكن السماح به في مكان آخر، ويمكن أنْ يفرض الصوم يوماً في الأسبوع أو في العشرة أيَّام، ويمكن مواقتته مع أكثر الأيَّام صعوبة وفق الشروط الكونية، وأخيراً يمكن أنْ يفرض الصوم شهراً واحداً في العالم. فهذه كلها خصائص محلِّيَّة اشترطتها خصوصيَّات المناخ، ونمط العيش، وأخيراً حالة الفرد المعني والعمل الذي يؤدِّيه في الوقت المعني. ومن المعروف على سبيل المثال أنَّ محمَّداً أعفى المؤمن من الصيام إذا كان مريضاً، أو على سفر، أو... وما يجري هنا، هو ملاءمة هذا الجانب من القانون مع ظروف حياة الناس انطلاقاً من قاعدة واحدة وحيدة: جعل حياة مثل هؤلاء أفضل. أمَّا فيما يتعلَّق بقانون الإله الواحد (لا تقتل على سبيل المثال)، فنحن نعرف أنَّه واحد للشعوب كلها وفي الأزمنة كلها. وعليه، كان بوذا على حقٍّ عندما قال: يستطيع الإنسان أنْ يعلوا عبر القانون وحده. والحقيقة كان يجب أنْ يضيف: عبر القانون الذي منحه الإله الواحد، وإلاَّ فقدت كلمة «قانون» مغزاها المطلق. وما رفضه للكاستات عند قبول الأعضاء الجدد في الطائفة، أو في الرهبنة، سوى دليل على أنَّ بوذا أحسن فهم روح القانون الإلهي الذي يساوي بين الناس كلهم. والبوذيَّة عينها، بصفتها ديناً سوف تعيش إلى الأبد، لأنَّها صاغت القانون الإلهي صياغة صحيحة، وعلَّمت النَّاس كيفيَّة الالتزام به. أمَّا مواقع الخلل الموجودة فيها فإنَّها على الرَّغم من أنَّها تبدو للوهلة الأولى متمرِّدة، إلاَّ أنَّها تتراجع إلى المواقع الخلفيَّة. فالإنسان العادي لا ينشغل بها. وبالمقابل فإنَّ هذا الدين يقود الإنسان العادي على الطريقة الصَّحيحة التي تفضي إلى الإله الواحد، عبر السلوك القويم، والعيش المشترك، وعبر حبِّ القريب. وفي واقع الحال، لا يهتمُّ الإنسان العادي كثيراً لما يسمَّى به الإله الواحد، خالق القانون. إنَّه يهتمُّ أكثر بالجوهر باللُّبِّ. وكان بوذا قد تحدَّث عن هذا مراراً. وقد جاء في الدهاماباتا: «لا يتحوَّل أحد إلى براهمان لأنَّه يجدل شعره فقط، أو لأنَّه ينتمي إلى عائلة نبيلة. فالصَّالح، والعادل، والعادل وحده المغبوط، وحده البراهمان». وجاء في مكان آخر: «ماذا ينفعك شعرك المجدول أيُّها الأحمق، وما في ثيابك من جلود الماعز؟ أنت دنس من الدَّاخل، لكنك تنظِّف نفسك من الخارج». وقال بوذا أيضاً: «أنا لا أدعو أحداً براهمناً حسب منشئه، أو حسب والدته، مهما تفاخر في حديثه، ومهما كان ثريَّاً. فالفقير الذي تحرَّر من الرَّغبات، هو البراهمان عندي». وتشغل الحجج التي تفنِّد موضوعة كون البراهمن من حيث المنشأ أفضل من الآخرين، أبواباً كاملة في التريبيتاكا. كما تتحدَّث عن الموضوع عينه مصادر أخرى أيضاً. فقد ورد في السوتانيباتا مثلاً: «لا أكل الأسماك، ولا الصِّيام، ولا

المشي حافياً، ولا التونزورا (= الوقوف على الرأس)، ولا جدل الشَّعر، ولا قذارة الجسد، والجلود الطرية، ولا تكريم النَّار، ولا عهود الندم، ولا الأناشيد، ولا التقدمات، ولا الذبائح قادرة على تطهير الإنسان، إذا لم يتجاوز الشَّك». أو كما قال بوذا في مكان آخر: «ليس عبر الولادة يحقِّق الإنسان الخلاص، ولا عبرها يصير براهمناً؛ بل يغدو خالصاً بأعماله، وبراهمناً بأعماله».

وقال المسيح:

«اطلب الإحسان، لا القرابين».

وقبل المسيح قال بوذا:

«قانوني هو قانون الإحسان للجميع».

ثمَّ شرح قوله هذا على الوجه الآتي:

«بما أنَّ تعاليمي نقيَّة تماماً، فإنها لا تفترض وجود أيِّ فرق بين الوجهاء والبؤساء، بين الأغنياء والفقراء».

وقال في مكان آخر:

«مثلما الأنهار الكبرى كالغانج، ويامونا، وأتشيرافاتي، وساراغو تفقد أسماءها الأولى عندما تبلغ المحيط وتتلقَّى اسماً واحداً، هو المحيط العظيم، كذلك أيُّها الرُّهبان تترك الكاستات الأربع: الكشاتري، والبراهمن، والفيشياس، والسودرا، وطنها إلى الوجود الخارج الأوطان إذا اتبعت قانون السامي الكامل ونظامه، وتفقد أسماءها السابقة وسلالاتها القديمة وتتلقَّى اسماً واحداً فقط، هو النُّسَّاك الذين التحقوا بابن ساكي».

لقد كان تلاميذ بوذا ينتمون إلى مختلف شرائح المجتمع. فاناندا وديفادانا كانا من سلالة الساكيين. كما كان أنورودها من النبلاء أيضاً. وكان شاريبوترا وماودغالياينا من البراهمن. وكان مع هؤلاء في الفريق عينه الأوبالي، وهؤلاء من الحلاقين الذين عدُّوا في الهند أدنى درجات السلَّم الاجتماعي، بل كان في الفريق أيضاً قاطع الطريق أنغوليمالا. وقد قال تلميذ بوذا الآخر ستهافيرا سونيتا عن نفسه: «خرجت من سلالة وضيعة، فقيراً ومعدماً، وكانت مهنتي وضيعة كذلك، فقد كنت أكنس الزهور (الذَّابلة) من المعابد. لقد كنت محلَّ احتقار النَّاس، وكان ينظر إليَّ من علٍ، وأُشتم دوماً. وكنت أنحني بخنوع أمام كثيرين». وقال بوذا لسونيتا: «بالحماس المقدَّس وحياة العفَّة، بترويض النَّفس وإخضاع

الذّات، بهذا يغدو المرء براهمناً: أعلى درجات البراهمنيَّة». وكان بين تلاميذ بوذا «طبَّاخ كلاب» (ستهافيرا شفاياكا)، وصياد سمك (سواتم)، وراعي (ناندا). كما كانت راهبات طائفة النِّساء تتمين إلى أصول متباينة. ففيمالا كانت ابنة بغي. وكانت أمبابالي فيما مضى بغياً، أمَّا بورنا فقد كانت ابنة أَمَة منزليَّة. وكانت تشابا ابنة صياد. وكثيرات أخريات خرجن من عائلات فقيرة. ولا شكَّ إطلاقاً في أنَّ طائفة بوذا لم تعرف أيَّ شكل من أشكال التَّمييز بين أعضائها على أساس الانتماء الاجتماعي.

لقد أراد كثير من المؤرِّخين أنْ يرى في الشَّخصيَّات الدينية شخصيات ثوريَّة، سياسية أو ما شابه. فاتَّهموا المسيح في أنَّه لم يبنِ على الأرض مملكة العدالة بين النَّاس، وإنَّما وعدهم بمملكة لائقة في السماء. وحسب رأي هؤلاء أنَّه كان أمراً جيِّداً لو أنَّ المسيح أخذ على عاتقه مهمَّة بناء مجتمع يسوده العدل الاجتماعي هنا على الأرض. ولكنَّ المسيح قال: «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، وعزف عن الخلط بين المسألتين. وقال: «إنَّ مملكتي ليست من هذا العالم». وهذا ما فعله من قبل بوذا. فقد أدرك أنَّ الجميع سواسية أمام الإله. وبالنسبة لمن كرَّسوا أنفسهم لطريق الحقِّ، طريق البرِّ، في طائفته لم يكن ثمَّة تباين اجتماعي. فالأمر المهمُّ هنا تمثَّل في تحقيق مآثر على طريق بلوغ البرِّ. ولذلك يجب ألاَّ نتألم لأنَّ بوذا لم يعمل على إلغاء الكاستات في المجتمع الهندي. فهو لم يكن ثائراً اجتماعياً على أيِّ حال، فقد دعي الرجل لتأدية رسالة أخرى، وقد أدَّاها. كان بوذا يرى أنَّ بلوغ الحالة الدَّاخليَّة للعالم (البرّ)، أمر غير ممكن بأيِّ نظام فلسفي، أو أيِّ معارف، أو أيِّ أساطير. وأنَّ الوسيلة الأساس لبلوغ هذه الحالة هي الأخلاق، الأخلاق العمليَّة وهذا ما ميَّزه تمييزاً مبدئيَّاً عن فلاسفة تلك المدرسة عينها، مدرسة سامكهيا، الذين علَّموا، إنَّ الأعمال الصَّالحة تعيق الإنسان عن إدراك المعرفة الصَّحيحة، ولا تمهِّد له السَّبيل لبلوغها. وهذا ما يبين كيف يمكن للتَّفلسف أن يقلب الأمور رأساً على عقب. فكل فلسفة دون استثناء ينبغي عليها في آخر المطاف، أنْ تقود الإنسان إلى الأخلاق القويمة، وترشده إلى طريقها، وتجعله أفضل. وإذا لم تجعل الفلسفة الإنسان أفضل، فهي ليست علماً حقيقيَّاً، ليست فلسفة حقيقيَّة. والمقصود بالحقيقيَّة هنا، أنَّها يجب أنْ تعكس بشكل صحيح صورة العالم الموحَّدة، وتظهر للإنسان كيف يجب عليه أن يسلك سلوكاً صحيحاً، كي لا تتعارض نتائج تصرُّفاته مع قوانين الطَّبيعة، قوانين الإله. وكان بوذا نفسه قد عدَّ أنَّ «الفلسفة ليست الدَّواء لمن يبحث عن الخلاص». وأوردت سوتانيباتا على لسان بوذا أنَّه من الصَّعب اختيار الفلسفة الصَّحيحة من بين الفلسفات الكثيرة الموجودة. فبعضهم يختار هذه، وآخر يفضِّل

تلك. ولكنَّ الإنسان الذكي لا يعتنق وجهة نظر قطعيَّة، ولا يفضِّل نظاماً فلسفيّاً بعينه، ولا يقول: «كل شيء واضح لي وضوحاً كاملاً».

ويعتقد بوذا أنَّ الوداعة هي الأساس على طريق البرِّ. وقال في هذا الشَّأن: «هكذا أيُّها الرُّهبان، فالرَّاهب الآخر وديع تماماً، وهادئ تماماً، ومسالم تماماً إلى أنْ تصل مسامعه كلمات فظَّة. وإذا ما وصلت الكلمات الفظَّة مسامعه فإنَّه ينبغي عليه أيُّها الرُّهبان، أن يبدي الوداعة، ويحافظ على هدوئه، ويقدِّم نفسه مسالماً. فأنا لا أدعو الرَّاهب وديعاً إذا كانت وداعته لا تظهر إلاَّ عندما يتوسل ملابس، أو طعاماً، أو فراشاً، أو دواء إذا ما كان مريضاً. لماذا؟ لأنَّ مثل هذا الرَّاهب لن يكون وديعاً ولن يظهر وداعة إذا ما منعوا عنه الملابس، والطعام، والفراش، والدواء إذا كان مريضاً. ولكنَّني أيُّها الرُّهبان أدعو الراهب وديعاً إذا ما أظهر وداعته احتراماً للقانون، رافعاً رايته عالياً. ولذلك ينبغي عليكم أنْ تأخذوا بالحسبان أيُّها الرُّهبان أنَّنا سنبقى ودعاء، ونظهر الوداعة لأنَّنا نجلُّ القانون، نرفعه عالياً جداً، ونحترمه».

أمَّا فيما يتعلَّق بالطائفة، فإنَّ العيش المشترك لعدد كبير من النَّاس كان يقضي بوضع نظام محدَّد، وقواعد سلوك معيَّنة. ولكنَّ هذا وحده لم يكن يكفي. فقد كان الأمر الأساس هنا يتمثَّل في الاهتمام بتنمية الجانب الروحي لأعضاء الطائفة، وترسيخ رؤى صحيحة ونشرها بينهم. ولم يكن هذا كله بالأمر اليسير. لا سيما أنَّ بنية الطائفة غالباً ما كانت تتغيَّر. فبعض الرُّهبان كان يترك بمباركة من بوذا ويمضي لينشر تعاليمه في الهند، وخارجها. وكان كثير من هؤلاء لا يرجع، بل يستقرُّ بعيداً أو على مقربة، وينشئ مدرسته الخاصَّة به. أمَّا الرُّهبان الذين كانوا يعودون إلى طائفة بوذا، فيا لكثرة ما رأوا وسمعوا على امتداد الأرض الهنديَّة المترامية، وخارج حدودها؛ وكانت لديهم رغبة في التَّحدُّث عمَّا رأوا وسمعوا. وكان أعضاء الطائفة يتناقلون كل كلمة يقولها هؤلاء. وغنيٌّ عن البيان أنَّ كلماتهم تلك لم تكن تعكس تعاليم بوذا وحده، بل كثيراً مما كان يتعارض معها تعارضاً مباشراً. وهكذا أخذت تظهر شتَّى النِّزاعات (على خلفيَّة فكريَّة)، التي كانت تؤول أحياناً إلى انقسام الطائفة، أو تراجعها (لو مؤقتاً) عن تعاليم معلِّمها بوذا. ونحن لا نشكُّ لحظة في أنَّ بوذا قد تجاوز على مدى عشرات السِّنين أزمات عديدة مع طائفته. لا سيما أنَّ الشَّكل التنظيمي للطائفة لم يكن فعَّالاً. فعندما عجز موسى عن قيادة شعبه الذي سار خلف أولئك الذين فضَّلوا عبادة الثَّور الذَّهبي على عبادة الإله الواحد، امتشق سيفه. ومع أنَّ موسى كان يمتلك فنَّ التَّأثير على الجمهور بمختلف الوسائل، إلاَّ أنَّه وجد نفسه مرغماً على تجريد سيفه

وإلاّ ضاع العمل الذي انتدبه الإله له. ولكنَّ بوذا سلك طريقاً مغايرة. ويبدو كأنَّه كان يفضل أن تنتظم الأمور في الطائفة من تلقاء نفسها، وإلاّ كيف يمكننا أنْ نفسِّر سلوكه في آخر حياته عندما طلب إليه تلميذه المفضَّل أناندا أنْ يعلن آخر التعليمات في المشاعة، فأجابه بوذا قائلاً:

«ما الذي تطلبه مني طائفة الرُّهبان بعد الآن يا أناندا؟ لقد أعلنت القانون يا أناندا، ولم أُسقط شيئاً أو أُخفي شيئاً منه؛ لم ينس الكامل شيئاً يتعلَّق بالقانون، وهو معلِّمكم. وإذا ما فكَّر أحدهم يا أناندا وقال في نفسه: أريد أنْ أقود طائفة الرُّهبان، أو يجب على طائفة الرُّهبان أنْ تخضع لي، فليصدر هو التعليمات المطلوبة يا أناندا. ولكنَّ الكامل لا يفكِّر يا أناندا بأنَّه يجب أنْ يقود طائفة الرُّهبان، أو بأنْ تخضع طائفة الرُّهبان له؛ فلماذا يجب على الكامل يا أناندا أنْ يصدر تعليمات لطائفة الرُّهبان؟ أنا الآن شيخ مسنٌّ يا أناندا، كهل، أنهكته السنون، بلغ من العمر عتيًّا؛ عمري الآن ثمانون عاماً... عيشوا أنتم يا أناندا، بحيث تكونون لأنفسكم مشاعل، ملاذات؛ لا تبحثوا عن مشاعل أخرى سوى مشاعل القانون، ولا عن ملاذات أخرى سوى ملاذات القانون».

ولكنَّ سلوك بوذا هذا سلوك غريب حقّاً. حتى من الوجهة الأخلاقيَّة لم يكن بوذا محقّاً في سلوكه هذا، لقد كان لزاماً عليه أنْ يهتمَّ بمستقبل الطائفة، ويؤسِّس تنظيمها على أسس صحيحة، فلماذا لم يفعل؟ ربما منعه من ذلك كماله الذي كان المحيطون به يذكرونه به كل دقيقة. وربَّما كان من الصَّعب عليه أنْ يرى أحداً آخر يعتلي عرشه؟ ولذلك ليس غريباً أنْ تنهار طائفة بوذا بعد وفاته مباشرة. زد إلى هذا أنَّ تأثير الحدث انسحب على الهند كلها: سرعان ما أخذت تعاليم بوذا تغوص في عالم النسيان، حقاً يجب أنْ يكون القائد إيديولوجيًّا وخبيراً عمليًّا.

والحقيقة أنَّنا لسنا منصفين تماماً عندما نقول هذا عن بوذا. فقبل موته أعطى بوذا تعليماته للطائفة. وقد تلخَّصت هذه في أنَّه يجب على الرُّهبان ألاّ ينادي أحدهم الآخر بكلمة «أخ»، بل بما يتوافق وسنِّه. فقد بات على الأكبر سنّاً حسب التَّعليمات الجديدة أنْ ينادي الأصغر سناً باسم عائلته، أو يناديه بكلمة «أخ». وبات على الأصغر سناً أنْ ينادي الأكبر بكلمات مثل: «الجليل» أو «السيِّد».

وهاكم إحصائيات انقسام طائفة بوذا. قبل بداية القرن ٣ق.م.، بعد وفاة بوذا خرجت من الطائفة ثماني عشرة مدرسة تقريباً، وأسّست هذه أديرتها (ووضعت مواثيقها). ونحن نوّهنا سابقاً إلى أنَّ أوساط الرُّهبان لم تعرف أيَّ شكل من التراتبيَّة. مع أنَّ بعض الرُّهبان حقّق بعض البروز، ولكنْ بقدمه في عضويَّة الطائفة: «الكهول»، «الشيوخ». ومن حيث اللَّقب كان هؤلاء كالأحبار في المسيحيَّة. ولكنْ من حيث اللَّقب فقط، وليس حسب واقع الأشياء. ففي الواقع لم يكن هؤلاء إداريي الطائفة، ولم تكن لهم أيُّ سلطة. لقد كان لقب «شيخ» لقباً شرفيًّاً فقط. فتميُّزهم الذي كان يستند على كبر السِّنِّ، وتجربة حياتيَّة ورهبانيَّة كبيرة، لم تكن له أيُّ قوَّة قانونيَّة، ولم يرسخه ميثاق الدير. فطائفة الرُّهبان كانت هي المرجع القانوني الأعلى. ومن الواضح أنَّ هذا البناء التَّنظيمي لم يكن البناء الأكثر فعاليَّة لتنظيم العيش المشترك للجماعات البشريَّة.

ولم تبدأ عمليَّة وضع قواعد العيش المشترك وتنفيذها إلاَّ بعد وفاة بوذا. مباشرة بعد الانتهاء من مراسم حرق رفاته في كوشيناغارا. والحقيقة أنَّه لم يكن ثمَّة إمكانيَّة لأيِّ تأخير، لأنَّ فريقاً من الرُّهبان كان قد شطَّ كثيراً في معارضته. وهذا ما تشهد به كلمات الرَّاهب سوبهادرا التي سقناها قبل قليل. وقد تولَّى زمام المبادرة الرَّاهب ما هاكاشيان. فاقترح على الرُّهبان المجتمعين هناك اختيار لجنة لوضع القانون (دهارما، دهافا)، ونظام الانضباط (فينايا). فوافق الرُّهبان على ذلك الاقتراح الذي جاء في الوقت المناسب، وعهدوا إلى ماهاكاشيان تشكيل تلك اللَّجنة. فاختار ٤٩٩ أرهاتاً، ثمَّ ألحقوا أناندا باللَّجنة (لأنَّه كان على وشك أنْ يصير أرهاتاً). ثمَّ أقرَّ الاجتماع العام للطائفة قوام اللجنة. وكان على اللَّجنة أنْ تبدأ أعمالها خلال عدَّة أشهر في ضواحي مدينة راجاغريها. وتحدَّد وقت عمل اللَّجنة مع بدء فصل الأمطار. وبهدف خلق مناخ عمل ملائم للجنة، منع الرُّهبان من التواجد في المدينة وضواحيها خلال الوقت المعني. وبنى الملك أجاتاشاترو تكريماً للجنة بناء مسقوفاً قرب عاصمته على جبل وايبهارا. وفي الشهر الثاني من موسم الأمطار جرى افتتاح اجتماع اللَّجنة الذي استمرَّ عمله سبعة أشهر. وخلال ذلك الوقت نجح كاشيانا بمساعدة آوبالي في مراجعة قواعد الانضباط كلها ووضعها في سياق منطقي. ثمَّ رمَّم بمساعدة أناندا قواعد القانون. وتعلن النُّصُوص البوذيَّة أنه جرى في ذلك الوقت وضع نصِّ فينايابيتاكا وسوتابيتاكا. وليس لدى المتخصِّصين المعاصرين أدنى شك في هذا. لقد بات ذلك الدهامَّافينايا، «القانون ونظام الانضباط»، القاعدة التي قامت عليها الكنيسة البوذية. ويعتقدون أنَّ نصَّه كتب بلغة ماغادها. وقد استندت كل قوانين الكنيسة البوذية بعد ذلك على هذين الكتابين.

ولكنَّ القانون الذي وضعته اللَّجنة لم يعتمد من المشاعة كلها. فهناك ما يشهد على أنَّ الراهب بورانا الداكشيناغيري قد جاء إلى راجاغريها إثر انفضاض الاجتماع. وقد خاطبه الشيوخ بقولهم: «أيُّها الأخ بورانا، لقد أقرَّ الشيوخ القانون ونظام الانضباط. فاقبل بهذا القانون». لكنَّ بورانا عدَّ الأمر تطاولاً على حرِّيَّته الشَّخصيَّة. وعبر عن ذلك بقوله: «لقد أقرَّ الشيوخ أيُّها الأخوة قانوناً ونظام انضباط جيّدين. لكنِّي أفضِّل أنْ أتمسَّك بما سمعته بنفسي من الرَّبِّ وتعلَّمته منه». وكان بورانا على رأس خمس مائة راهب جاؤوا معه. ولم يكن بين يدي الشيوخ قاعدة قانونيَّة يلزمون بها بورانا على الالتزام بالميثاق الجديد. فقد كان ينبغي أنْ توضع مثل هذه القاعدة في حياة بوذا.

وبعد مائة عام دعي المجمع البوذي الثاني إلى الاجتماع. وكان على عرش ماغادها في تلك الأثناء الملك أشوك. وتمييزاً له عن الملك آشوك بريادارشين يدعى هذا الملك «بآشوك الأسود». وتمثَّل الداعي إلى عقد المجمع البوذي الثاني في ارتكاب فريق من الرُّهبان عشرة آثام. وكان بين هذه الأخيرة بعض الجنح البسيطة. فقد أوصى بوذا الرُّهبان على سبيل المثال، ألاَّ يجمعوا أيَّ ذخيرة لهم. ولكنَّ رهبان فايشالي انتهكوا هذه الوصية وخزنوا الملح في قرن. وكان الانتهاك الثاني الذي اقترفه رهبان فيايشالي هو أنَّهم باتوا يتناولون وجبتين في اليوم وليس وجبة واحدة. وتمثَّلت الآثام الأخرى في أنَّ هؤلاء أخذوا يشربون خمرة النَّخيل، ويقبلون صدقات من الفضَّة والذَّهب. فقد كان المؤمنون يرمون تقدماتهم من الفضَّة والذَّهب في قدر مليء بالماء كان الرُّهبان يضعونه في المعبد أيَّام الأعياد لهذا الغرض. وتفيد النُّصُوص أيضاً أنَّ الرُّهبان هم الذين كانوا يطلبون من المؤمنين أنْ يتبرَّعوا بالذَّهب، زد إلى هذا أنَّ النُّصُوص المتأخِّرة تقول، إنَّ قيِّم الدير كان لديه قدر خاص للتقدمات التي من الذهب الخالص. وفي أيَّام انتصاف القمر كان يرسل هذا القدر مع الكاهن إلى المدينة ليجمع به التقدمات الفضِّيَّة والذَّهبيَّة و...

لقد استنكر الجليل ياشاس ذلك السلوك إذ اطلع عليه عند زيارته للدير. ورفض حصَّة الذهب التي قدَّمها الرُّهبان له. فأحسَّ هؤلاء بالإهانة، وشرعوا يجادلون ياشاس أنَّه بسلوكه هذا يحتقر المؤمنين الذين يقدِّمون هذه التقدمات من قلب صاف قانع. وزعم الرُّهبان أنَّهم إنَّما يدافعون عن شرف المؤمنين الذي أهانه ياشاس، وأرغموا هذا الأخير على أنْ يقدِّم اعتذاره لهم. فتطوَّر النِّزاع حتى بلغ درجة الغليان، وانتهى إلى اجتماع المجمع البوذي الذي شارك في أعماله سبع مائة راهب. ولكنَّ أهميَّة المجمع كانت محلِّيَّة، ولم يقرّ إحداث أيَّ تغيُّرات في القوانين والقواعد.

وفي العام ٢٤٥ق.م. التأم المجمع البوذي الثالث. وقد كان ذلك هو العام الثامن عشر من عهد الملك آشوك بريادار شين. ففي عهد هذا الملك صارت البوذية إلى ديانة رسميَّة للدَّولة. ونحن سقنا سابقاً نصوص مراسيم هذا الملك التي تميَّزت بتسامحه مع الديانات الأخرى. وقبل التئام المجمع الثالث بخمس سنوات أنشأ آشوك مؤسسة خاصة «لموظفي الديانة» (دهارماهاماترا). وقد كانت وظيفة هؤلاء متابعة ذلك القطاع من النظام العام في الدولة الذي كان يتعلَّق بالشؤون الدينية. وعرض الملك في مرسومه الخامس، الواجبات التي ينبغي أنْ تضطلع بها تلك المؤسسة. وأبدى الملك كرماً فائقاً تجاه العالمين في الميدان الديني ورهبان الدير. وهذا ما حفَّز تدفُّق كمٍّ كبير من العناصر الغريبة عن البوذية كدين وأخلاقيات، واستقرارها في الأديرة. ففي كثير من الأديرة لم يكن ثمَّة أيُّ انضباط، حتى الرُّهبان أنفسهم لم يؤدُّوا طقس الاعتراف في أيَّام الأوبافاساتها. وقد حاول قيِّم الدير المركزي جاهداً أنْ يضع حدّاً للتَّسيُّب ويدفع الأمور نحو الأفضل. لكنَّ جهوده باءت بالفشل. عندئذٍ ترك الدير واعتزل في صحراء وراء الضِّفَّة الأخرى لنهر الغانج. فتدخَّل الملك في الأمر، ودعي المجمع البوذي الثالث إلى الاجتماع. وقد أسفر ذلك الاجتماع عن طرد الرُّهبان الذين لم تكن لديهم مجرَّد فكرة عن البوذية (٦٠,٠٠٠ راهب). وكان قد شارك في أعمال المجمع ألف راهب اختارهم القيِّم ماودغاليبوترا، الذي أعاده الملك من عزلته في الصحراء إلى الدير. ووضع الذين شاركوا في المجمع الثالث وثيقة خاصَّة، هي الكاتهافاتها، التي أُعطي فيها تأويل للمذهب البوذي الذي كان يعتقه مادوغاليبوترا وأنصاره. وقد دخلت هذه الوثيقة في أبهيدهامابيتاكا القانون الجنوبي. ولا يزال السينغاليزيون يعتقون هذا المذهب البوذي حتى يومنا هذا.

ومنذ انعقاد المجمع البوذي الثالث بدأت حركة التَّبشير البوذيَّة في البلدان الأخرى. ففي ذلك الوقت أُرسل مبشِّرون إلى كشمير، وكابولستان، والمملكة الإغريقيَّة الباكتريَّة، وبلدان سفوح الهيملايا، وغربيّ ديكان، والهند الصِّينيَّة. كما لم تخرج سيلان من الخطَّة. فقد توجَّه إليها ماهاندرا ابن الملك آشوك. لقد وضعت البوذيَّة نصب عينيها تحقيق مهمَّة عالميَّة تمثَّلت في إشراك شعوب آسيا غير المتحضِّرة في الثقافة الهنديَّة وإنجازاتها. ولسيلان دور متميِّز في تاريخ البوذية. فقد بقيت البوذية تحافظ هنا على صيغتها النَّقيَّة. أمَّا في الهند نفسها فقد دخلت البوذية طور السقوط، وخضعت في التيبت والبلدان الشمالية الأخرى لعمليَّة إفساد حقيقيَّة.

وانعقد المجمع البوذي الرابع في عهد الملك الهندي السكيثي كانيشكا، الذي كان يدير في القرن ١ق.م. دولة مترامية الأطراف. وكان جزء كبير من الهند يدخل قوام تلك

الدولة. واشتهر الملك كانيشكا بأعماله عند البوذيين الشماليين، كما كان الملك آشوك قد اشتهر عند البوذيين الجنوبيين. والحقيقة أنَّ الملك كانيشكا كان قد اتَّخذ في السنوات الأولى من عهده موقفاً معادياً للبوذيَّة، إلاَّ أنَّه تحوَّل بعد ذلك إلى بوذي غيور. فجعل كشمير العاصمة الأولى، مركزاً للبوذيَّة. وحسب الحوليات الصِّينيَّة أنَّ الملك كان يدرس المصادر البوذية المقدَّسة في السَّاعات القليلة التي كان يتحرَّر فيها من أعمال الحكم. وكان مرشده في تأويل تلك المصادر، الشَّيخ بارشيكا. وكان هذا يرئس مدرسة للبوذيين. وبنى الملك كانيشكا كثرة من المعابد البوذيَّة. ونقش على النقود صورة بوذا. واهتمَّ الملك بتثقيف شعبه. وكان طبيبه هوتشاروكا، أحد أشهر الأطباء الهنود. وقد وصلت مؤلَّفات هذا الطَّبيب في العلوم الطِّبِّيَّة حتى أيَّامنا هذه. كما عاش في قصر الملك، الشَّاعر الشهيد أشفاغهوشا، الذي كتب «حياة بوذا» (بودهاتشاريتا). ولا يزال هذا المصدر موجوداً حتى الآن.

وفي سياق اهتمامه بثقافة المجتمع وأخلاقه، لم يكن بمقدور الملك كانيشكا أنْ يرى النِّزاعات التي كانت موجودة بين قادة البوذيَّة. فقد ولدت تلك النِّزاعات الخصومة والتَّطاحن داخل الطوائف نفسها. ولتحسين الأحوال قرر الملك أنْ يدعو المجمع الرابع إلى الانعقاد. وقد التأم هذا وجرت أعماله في أحد أديرة كشمير القائمة على مقربة من جالاندهارا. ورئس أعمال المجمع البطريركان بارشفيكا وفاسوميترا. وكان من المهمات التي وضعها المجمع أمامه: إعادة النظر في الكتب المقدَّسة البوذيَّة، ووضع قانون جديد. ونحن لا نعرف حتى الآن إلى أيِّ حدٍّ كانت تلك التَّغيُّرات مبدئيَّة وجدِّيَّة. وليس لدينا كذلك معطيات عن سير أعمال المجمع، وبأيِّ لغة وضع القانون الجديد. ويؤكِّد المتخصِّصون أنَّ اللُّغة لم تكن لغة بالي. وعلاوة على القانون الجديد وضع أعضاء المجمع تعليقات وشروحات على ثلاثة أجزاء من التريبيتاكا. ووفق رواية الملك كانيشكا أنَّ النُّصُوص المعنية نُقشت على صفائح نحاسيَّة، ووضعت في صندوق حجري بنوا فوقه جرناً مهولاً (مرتفعاً تذكاريّاً). ولكنَّ المجمع لم ينته إلى وفاق، فلم ينجح البوذيون في توحيد صفوفهم. بل الذي حصل هو العكس، إذ تواصل انقسام الكنيسة البوذيَّة ولكنْ بوتائر أسرع. ففي حوالي العام ١٩٤م. أنشأ ناغارجونا طائفة - مدرسة دخلت التاريخ تحت اسم ماهايانا («السَّفينة الكبيرة»). وسرعان ما اكتسبت هذه المدرسة أعداداً كبيرة من الأتباع في الشمال. وقد كان ذلك انقساماً عالميّاً في الكنيسة البوذيَّة. أمَّا أولئك البوذيون الذين لم يتبعوا ناغارجونا فقد دعوا أنفسهم أتباع هينايانا («السَّفينة الصَّغيرة»). وجاء

نشوء هاتين التسميتين من الآتي: لقد وضع أتباع الماهايانا أمامهم هدف الانبعاث بودهيساتفا. بمعنى آخر، أعلنوا عن رغبتهم في بلوغ «مرتبة كبيرة» (ولذلك «السَّفينة الكبيرة»). أمَّا هينايانا فقد اكتفوا بهدف أكثر تواضعاً: تحقيق خلاص أنفسهم وحسب؛ أي «بمرتبة صغيرة» («السَّفينة الصَّغيرة»). والحقيقة أنَّ هؤلاء وضعوا لأنفسهم الهدف عينه الذي وضعه بوذا لأتباعه. ونحن إذا ما حاكمنا الأمور محاكمة شكليَّة فإنَّنا نستطيع أنْ نردِّد مع مؤرِّخي الدين، إنَّ أتباع الهينايانا هم أتباع البوذيَّة الحقيقيَّة، تلك البوذية التي جاءت إلى الوجود بفضل بوذا. وكان محور ارتكاز هذه التَّعاليم، هو الخلاص من الآلام، إذ يجب على كل إنسان أنْ ينقذ نفسه تحديداً. وغنيٌّ عن البيان أنَّ بوذا لم يهتمّ بإنقاذ نفسه فقط، بل بإنقاذ الآخرين كلهم أيضاً. ومن أجل هذا نفسه طوَّر بوذا تعاليمه وبشَّر بها في الهند وخارج الهند. ومع ذلك فالحديث لا يجري في تعالم بوذا إلاَّ عن إنقاذ الذات. والحقيقة إنَّ الأخلاق البوذية السامية، بدعوتها لحبِّ القريب، والصفح عن الأعداء، والتضحية بالنفس في سبيل خير الآخرين، تعوِّض فردانيَّة التعاليم الموما إليها (خلاص النَّفس). فمن حيث الجوهر لم يعجب النَّاس يوماً بالشخصيات التي تفرط بالاهتمام بمظهرها وخلاص روحها. فمثل هؤلاء قد تحترم فيهم قوَّة الإرادة، والمثابرة والتَّصميم على بلوغ الغاية، و... لكنك لا ترغب في أنْ تحبَّ مثل هؤلاء على الرَّغم من أنَّهم لا يتسبَّبون بالأذى لأحد، ولا يقترفون أيَّ شرٍّ ضدَّ أحد. فشعور «اللا أرغب» تجاه هؤلاء يأتي من مكان ما من الخارج، من اللاوعي، من حقل الإعلام الكوني، من الإله. وسبب هذا الشُّعور، هو أنَّ أيَّ إنسان على الأرض، أو أيَّ كائن حي في الكون لا يوجد بنفسه، ولا يعيش لنفسه، وليس وحده مستقلاً عن الآخرين. وليست الاستقلاليَّة الفيزيائيَّة الموهومة، خاصَّة بالنسبة للزاهد الناسك، سوى خداع للذات. فمن الممكن أنْ تقتات بالعسل والجذور البرِّيَّة والحشائش، وألاَّ تشرب إلاَّ مياه الأنهار، وقد تستطيع أنْ تستغني عن بني جنسك أشهراً وسنوات. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّك بتَّ مستقلاً عن الآخرين، معزولاً عنهم. ففي أيِّ حال من الأحوال لا يستطيع الإنسان أنْ يعزل نفسه عن النَّاس الآخرين. يمنعه عن ذلك الجوهر البشري نفسه، الذي يتكوَّن من أفراد مستقلِّين كما من خلايا مستقلَّة. فلكل خلية من خلايا الجسم البشري الوظيفة الخاصَّة التي تختصُّ بها هي وحدها في المحافظة على استمرار حياة جسم الإنسان كله. ومن أجل هذا جاءت خلايا الجسم البشري مختلف بعضها عن بعض، لأنَّ لكل منها وظيفة مختلفة. وكذلك الإنسان الفرد الواحد. فهو ليس سوى خليَّة في جسم البشريَّة الموحَّد، بل إذا شئتم في المادة الحيَّة

كلها، على الأرض وفي الكون (حسب مصطلحات ف.أ.فرنادسكي). ولذلك نحن لا نريد أنْ نحبَّ ذلك الذي يظهره مستقيماً في علاقاته كلها، لكنَّه لا يهتمُّ إلاَّ لخلاص نفسه وحسب. فهل يمكننا أنْ نتخيَّل المسيح ساعياً لخلاص روحه فقط، وهل يمكننا أنْ نتخيَّل محمَّداً، وإبراهيم، وموسى، وبولس الرسول وسواهم من عظماء الجنس البشري محصورين في هذا الدَّور وحده. لقد اهتمَّ عمالقة الروح هؤلاء بالنَّاس كلهم، ولم يهتمُّوا بأنفسهم. فالمسيح لم يذهب إلى الصالحين، بل إلى الخاطئين. فقد كان هؤلاء يحتاجونه كما يحتاج المرضى الطَّبيب. لقد ذهب إلى العشَّارين الذين كان المجتمع يحتقرهم، وذهب إلى الزانيات وأعادهنَّ إلى طريق الحقِّ. فالشَّاة الضَّالَّة أغلى مائة مرَّة من تلك التي مع القطيع! لقد كان المسيح محقَّاً إذ وعد أسوا الخطاة والمجرمين بفردوس السَّماء. ولكنْ فقط في حال ولدوا ولادة جديدة. إذن يجب أنْ يتبدَّل العالم الدَّاخلي للإنسان، فعليه أنْ يعي مكانه، وغاية وجوده، ويتوب توبة صادقة، ويقف على طريق الحق، الطريق التي تقود إلى الإله. وليس عبثاً أنْ قيل «إنَّ مملكة السَّماء في داخلكم». وهكذا حسب المسيح. يمكن لأيِّ إنسان أنْ يحقِّق الخلاص مهما كان ماضيه آثماً. أمَّا بوذا فقد قسم النَّاس إلى رهبان ومؤمنين، ومنح الرُّهبان وجوداً غير طبيعي على حساب المؤمنين. علاوة إلى هذا إنَّ راهب بوذا عندما يجد نفسه في وضع مميَّز، فإنَّه يستطيع أنْ يكرِّس كل اهتمامه لروحه والعمل على خلاصها. وحسب قوانين البوذية فإنَّ أيَّ مؤمن لا يستطيع يوماً أنْ يبلغ تلك القمَّة من الكمال الروحي التي يبلغها الرَّاهب. وليس عبثاً أنْ وضع بوذا الرَّاهب فوق الآلهة، وليس فوق الآلهة العاديين فقط، بل فوق الإله إيندرا نفسه. ونحن أشرنا سابقاً إلى أنَّ بوذا صعد إلى إيندرا في السَّماء وأدار معه نقاشات كان بوذا فيها أكثر من ندٍّ لإيندرا. وبعد بوذا صعد الرَّاهب ماودغاياياني إلى إيندرا. ولكي يري الآلهة مدى جبروته هزَّ السَّماء، عرش إيندرا، بإصبع من أصابع قدمه. إنَّ كل شيء هنا بالمقلوب. وليس فهم الأمر عسيراً. فالكون، بما في ذلك الإنسان بصفته جزءاً من الكون، صنع وفق خطَّة موحَّدة، وفق منهج واحد، وفق صناعة واحدة. وهو نظام عظيم التَّعقيد لم يأتِ أيُّ شيء فيه مصادفة. وهذا يعني أنَّ كل شيء يحدث وفق قوانين وضعت مرَّة واحدة فقط، ويمكننا أنْ ندعو تلك القوانين، قوانين الطَّبيعة أو نسمِّيها تسمية ما أخرى، بيد أنَّها في الأحوال كلها، ليست قوانين بشريَّة. ولكن باستطاعة الإنسان أن يكتشفها، أنْ يدرك أجزاء منها، أنْ يرى نتائجها. وعندما ينجح النَّاس في هذا (وكان الإله قد خلق الإنسان ومنحه عنصر الإبداع)، فإنَّهم يفخرون بأنفسهم، ويظنون أنَّهم ملوك الطبيعة.

ويعتقد هؤلاء في غضون ذلك أنَّه بما أنَّهم موجودون بإمكاناتهم العبقريَّة، فليس هناك ضرورة لوجود الإله. فالرَّاهب البوذيُّ زعزع أركان السَّماء بإصبع قدمه، والعالم لابلاس أعلن أنَّ نظريَّته عن بناء الكون لا تحتاج فرضيَّة وجود إله. إنَّ غطرسة الإنسان وعمهه لا حدود لهما.

ويمكن صياغة ما سبق عرضه هنا صياغة موجزة على الشَّكل التَّالي: بما أنَّ لهذا الكون علّته الأولى، مبدأه وقوانينه التي تسيّره، وبما أنَّ الكون منظومة موحَّدة، فإنَّه لا يمكن للإنسان ألاَّ يرى نفسه إنَّه مجرد جزيئة متناهية في الصِّغر، منخرطة في هذه الآلية الكونية المعقَّدة. ولذلك ليس بمقدوره أنْ يكون موجوداً بذاته، كما لا يمكنه أنْ يهتمَّ بخلاص نفسه وحسب، بل هو محكوم بأنْ يهتمَّ بخلاص الجميع، لأنَّ وجوده مرتبط بوجود هذا الجميع. ولذلك فإنَّ الدعوة إلى خلاص النَّفس ونفي وجود مبدأ الكون الموحَّد: الإله الواحد، يناقضن منطق الأشياء.

أمَّا تيَّار البوذية الثَّاني (الماهايانا)، فإنَّه حسب المتخصِّصين يقف بعيداً جداً عن تعاليم بوذا الأولى. فقد كتب هؤلاء على رايتهم المرفوعة على «السَّفينة الكبيرة» دعوة لا لإنقاذ الذات فقط، بل العمل على إنقاذ الآخرين أيضاً. والحقيقة أنَّ ابتعاد هذا التَّيَّار عن البوذيَّة الأمّ لا يقتصر على هذا الموقف فقط، فالبوذيُّون الشماليون أدخلوا تبدُّلات مبدئيَّة على الموقف من الطُّقُوس، والصلوات، والأيقونات وما إلى ذلك. ونحن لا ينبغي لنا أنْ نقوِّم مثل هذه الحال إلاَّ من زاوية وحيدة: ما الذي يعطيه هذا للنَّاس. فالانطلاق في هذا الشَّأن يجب أنْ يكون من المبدأ التَّالي: «لم يخلق الإنسان من أجل السَّبت، بل السَّبت من أجل الإنسان». وهذا يعني: ما يجب أنْ يؤخذ به، هو مغزى، جوهر ما يجري، وليس القيود الشَّكليَّة التي وضعها الرؤساء الروحيون. لقد منحت البوذيَّة الشماليَّة («السَّفينة الكبيرة»)، الديانة البوذيَّة آلهة وقورين محترمين. وقد تأسَّس هذا التَّيَّار فكريَّاً في كتاب: «إرشادات لكمال المعرفة». ويبدو أنَّ زعيم هذا التَّيَّار ناغارجونا، هو مَنْ وضع هذا المؤلَّف. وفيما بعد أُدخل على هذه الإرشادات مزيد ومزيد من الإضافات الجديدة. ويلحق البوذيون الشماليون النَّصَّ الأوَّل «للإرشادات» بالكتب التِّسعة القانونيَّة. ويتألَّف النَّصُّ من اثنين وثلاثين فصلاً كتبت نثراً باللُّغة السنسكريتيَّة في صيغة حوار بين بوذا نفسه وشاريبوترا وسوبهوتي.

لم يكن للبوذيَّة كما رأينا، مركز قياديٌّ واحد محدَّد، كما كانت الحال في المسيحيَّة. ولم يظهر مثل هذا المركز إلاَّ في القرن ١٢م. لدى البوذيَّة الشَّماليَّة، وتحديداً

في التيبت. ففي الوقت المعني كانت البوذيَّة قد ولدت هنا ولادة جديدة وتحوَّلت إلى الصوفية والسحر. وباتت تدعى يوغاتشارا، وكان أرياسانغا الكابولستاني قد أسَّس هذا الاتِّجاه البوذي منذ القرن ٥م. وقد جاءت هذه التَّعاليم الجديدة مركَّبة من التَّعاليم الفلسفيَّة والدينيَّة الماهايانية، وتعاليم اليوغا البراهمنيَّة، لقد تلاءمت هنا تعاليم اليوغا التي جرى تطويرها في عبادة شيفا. وتأسَّست في إطار هذه التَّعاليم الجديدة تعاليم مترابطة متناسقة عن السِّحر. وقد عُرضت هذه في مؤلَّفات خاصة دعيت بالتانترا. وهنا في هذه المؤلَّفات عولجت شتَّى المسائل، خاصَّة: كيف يمكن تحقيق قوى خارقة، وكيف يمن استخدام هذه القوى للحصول على ما تريد. وصيغت لهذا الغرض صيغ صوفيَّة مختصرة (دهاراني)، وحلقات سحريَّة (ماندلا)، وحجب (مودرا). كما كان للاغتسال الصوفي وسوى هذا من الطُّقوس دور مهمٌّ؛ وكانت المرأة تؤدِّي في هذا كله دوراً بارزاً. لقد ظنُّوا أنَّ الصيغ السحرية تعطي إمكانيَّة لتحقيق سلطة على الآلهة، والريح، والمطر. وكانت لهذه الصِّيغ - التَّعاويذ السحرية قوَّة الشِّفاء من الأمراض، ودرء النفس من لدغة الثُّعبان، والسُّمِّ، والكواكب الشرِّيرة وما إلى ذلك. وبعد مرور نحو السِّت مائة عام أنشأ تيَّار البوذيَّة هذا زعامة له في التيبت (ما يشبه منصب «البابا»). ويعتقد أنَّ هذا لم يحصل قبل العام ١٢٦٠م. لقد انتشرت البوذية من الهند لا نحو الشَّمال فقط، بل إلى البلدان الأخرى أيضاً: إلى الصِّين، ومنغوليا، ونيبال، واليابان. لكنَّ البوذيَّة في الصين لم يكن لها مركز قيادي. وكانت حال الرُّهبان فيها شبيهة بحالهم في الهند: عاشوا في أديرة مبعثرة في مختلف أرجاء البلاد. وكانت البوذية قد دخلت إلى الصين في العام ٦١م. وسرعان ما تحوَّلت في القرن ٤م. إلى ديانة رسميَّة للدَّولة. والحقيقة أنَّ هذا الوضع لم يستمرّ طويلاً. فبعد انصرام عدَّة قرون لاقت البوذيَّة في الصين مقاومة شديدة من قبل أنصار تعاليم كونفوشيوس. وفي العام ١٢٠٦م. انتقلت السُّلطة في الصين إلى سلالة منغوليَّة: الأمر الذي انعكس إيجاباً على أوضاع البوذيَّة هناك. ففي ذلك الوقت كانت البوذية في الصِّين قد انقسمت إلى تيارين كبيرين، إلى كنيستين بوذيَّتين. إحداهما كنيسة الفويستيين. وكلمة «فو» هي ما تحوَّلت إليه كلمة بوذا نفسها. وحملت الكنيسة الثانية اسم لام أو على الأصح، لاما، ومعنى هذه الكلمة التيبتيَّة، هو «الأعلى». وقد انتقلت هاتان المدرستان من التيبت إلى الصين (عبر منغوليا). ويتركَّز التَّباين بين المدرستين - الكنيستين في طقوس العبادة. وهما متمايزتان تمايزاً كبيراً من حيث ظاهر التنظيم والموقع الذي تشغله كل منهما في الدولة. فالفويستيون ليس لهم كهنوت قيادي. وكل دير

قائم بذاته. وكان رئيس الدِّير: الأبات أو القيِّم، يعامل معاملة موظَّف من الدرجة الثانية عشرة. وهكذا حُدِّد وضعه في الدولة. أمَّا اللامات فقد شكلوا فئة مغلقة تتكفَّل الدولة بكفايتها من كل شيء. وفي بعض الأقاليم كان اللاما يجمع بين السُّلطة الرُّوحيَّة والسلطة الزمنيَّة. لقد انتشرت اللامائيَّة في الصين في المناطق المتاخمة للتيبت ومنغوليا. أمَّا في المناطق الوسطى فالأديرة اللامائيَّة قليلة العدد. وثمَّة في الأقاليم الحدوديَّة المذكورة مجموعة من الأديرة اللامائيَّة الشهيرة التي يزورها الحجاج منذ زمن بعيد.

ومع مرور الزمن تبدَّل نظام القبول في الطائفة البوذيَّة تبدُّلاً مبدئيّاً. وكما رأينا، فقد كان الانتماء إلى البوذيَّة في بادئ عهدها حرّاً تماماً، وكذلك الانسحاب منها. وكنَّا قد قلنا إنَّ تلك الحريَّة لم تؤدِّ إلى أيِّ شيء ذي فائدة. فنتيجتها كانت الفوضى، والاستبداد، والتراجع الكامل عن تعاليم بوذا، إضافة إلى مختلف ضروب إساءة استخدام التَّعاليم. وتحفل النُّصُوص البوذيَّة بكثير من الأوصاف البديعة لمختلف الأمثلة التي تبيِّن الجانب الآخر لهذه الحرِّيَّة. فقد ساقت النُّصُوص مثلاً، المعطيات الآتية: في مدينة راجاغريها شاعت شهرة المدعو أوبالي، زعيم زمرة الأتراب السَّبعة عشر؛ لكنَّ والديه كانا قلقين في بحثهما عن حياة هانئة يسيرة خالية من الهموم لولدهما؛ فإذا ما صار كاتباً، فكَّر الوالدان، قد يعاني من ألم في أصابعه، وإذا ما صار عداداً فسوف يؤلمه صدره، وإذا ما صار ناسخاً فسوف تتأذَّى عيناه؛ وهكذا استعرض الوالدان مختلف المهن وتوقَّفا عند أكثرها سهولة، ألا وهي مهنة راهب بوذي. ولم يكن اعتقادهما هذا بعيداً عن واقع الأشياء، فبهذه المهنة ستكون حياة ابنهما ملائمة جداً: سينام تحت سقف وغطاء ويأكل جيِّداً.

وقد أعجب الابن أيَّما إعجاب باختيار والديه؛ فهو لم يكن يحبُّ العمل على أيِّ حال. وناقش الفكرة مع أترابه، ومضى جميعهم فريقاً واحداً ودخلوا الطائفة البوذية دون أيِّ عناء. ولكنَّ الخلافات ظهرت منذ اليوم الأوَّل. فمنذ الصَّباح الباكر أخذ الفتيان يطالبون بطعام طيِّب. وشرح لهم الرُّهبان، أنَّه ينبغي عليهم أنْ يمارسوا في الصَّباح التمارين الرُّوحيَّة، ويدرسوا تعاليم بوذا، وبعد ذلك يحملوا قدورهم ويجولوا على المؤمنين يطلبون منهم الحسنات. وإذا ما أحسن الآخرون لهم، يمكنهم عندئذ أنْ يأكلوا. فأجاب الفتيان على ذلك بالعصيان والشَّغب. ولمَّا سمع بوذا بالأمر أعطى تعليمات بعدم قبول الأعضاء الجدد في الدير قبل تمام العشرين من العمر، لأنَّ الفتيان ليسوا مؤهَّلين قبل بلوغ سنِّ الرُّشد لا روحيّاً ولا فيزيائيّاً للصَّبر على متاعب حياة الرهبنة. وهكذا أُقرَّ منذ ذلك الوقت عدم قبول أحد راهباً قبل أنْ يكون قد أتمَّ العشرين من العمر.

لقد كانت مسألة العضوية إذن قد طرحت نفسها بإلحاح شديد، خاصَّة بعد وفاة بوذا، حيث كان في الأديرة البوذيَّة آلاف من الرُّهبان الذين لم يسمعوا يوماً بتعاليم بوذا الحقيقيَّة. لقد كانت غاية هؤلاء واحدة: الإثراء السَّريع على حساب المؤمنين، والعيش حياة هانئة أرادوا أنْ يفهموها استغراقاً متواصلاً في التَّأمُّل. وكان يمكن دخول الدير منذ سنِّ الخامسة عشرة، ولكنْ ليس بصفة راهب، بل بصفة مستمع. وهناك كان المستجدُّ يخضع خضوعاً تامَّاً لسيطرة أحد الرُّهبان الأكبر سنَّاً: المرشد. ولم يقبل الرُّهبان في صفوفهم المجرمين، أو المدينين، أو الفلاحين الأقنان، أو الجنود. والأمر عينه بالنِّسبة للمشوَّهين والحاملين أمراضاً معدية. وفُرض الالتزام بشعائر طقس التَّكريس في الرهبنة. وكان طقس التكريس هذا ينقسم إلى تنويعتين، إلى درجتي تكريس، وقد دعيت الدرجة الأولى «خروجاً»، «رحيلاً» (برافراجيا). والمقصود هنا هو الخروج من الحياة المدنية. وقد يكون خروجاً من طائفة أخرى. لقد قالوا عن الذين كانوا ينضوون في عضوية الأخوية الرهبانيَّة: «إنَّه يخرج من الوطن إلى اللا وطن». ولذلك دعوه برافراجيتا، أي «الخارج»، «ذلك الذي رحل». وعمليَّاً كان كل مَنْ يرتدي رداء أصفر، ويقصُّ شعر رأسه ويحلق شعر لحيته، ويردِّد أمام راهب مكرَّس ثلاث مرَّات وهو في وضعيَّة التعبير عن الاحترام والتبجيل تعبير: «ألوذ بك»، يصير إلى «خارج». أما من كان يأتي إلى البوذية من ديانة أخرى، فقد كان ينبغي عليه بالتأكيد أنْ يجتاز مرحلة تجربة وإعداد مدتها أربعة أشهر. ومع أنَّه ثمَّة نصوص أوردت مثل هذه المعلومات، إلاّ أنَّ نصوصاً أخرى لم تشر إليها. وتقول النُّصُوص إنَّ المرحلة التجريبية كانت ملغاة بالنسبة لمن أراد أنْ ينتمي إلى الطائفة من سلالة بوذا. وقد قال بوذا في هذا الشَّأن: «إني أمنح أقاربي هذه الميزة». لقد كان المنتسب الجديد إلى عضويَّة الرهبنة أو درجة مستمع يختار لنفسه مرشدين من بين الرُّهبان ليقوداه إلى رحاب تعاليم بوذا.

أمَّا درجة التكريس الثانية التي دعيت «البلوغ» (أوباسامبادا)، فقد كانت تجري في احتفاليَّة أكبر، ومراسم أكثر فخامة. لقد كان كل شيء يجري في اجتماع الطائفة الذي كان ينبغي ألاّ يحضره أقلُّ من عُشر أعضائه الذين لهم كامل الأهلية. فيقدِّم المرشَّح للعضويَّة إلى الاجتماع، ويطلب مرشده من الأعضاء قبوله في الطائفة لأنَّه يستحقُّ أنْ يكون عضواً فيها. ثمَّ تعطى الكلمة للمرشَّح نفسه. وكان هذا يجب أنْ يرتدي رداء يغطي جسده وكتفه الأيسر (كتفه الأيمن يجب أنْ يكون عارياً). فيؤدِّي أمام الحضور إنحناءة تعبِّر عن احترامه العميق ويجلس أرضاً. وفي وضعية الاحترام تلك كان المرشَّح يطلب ثلاث مرَّات

قبوله عضواً في الطائفة. وكان عليه في كل مرة أنْ يرفع يديه فوق رأسه ضامّاً كفّيه بعضهما إلى بعض. بعد ذلك كان رئيس الجلسة يأخذ من المرشح عهداً بألاّ يقول سوى الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، ثمَّ يطرح عليه أسئلة كان يجب على المرشح أنْ يجيب عليها بدقّة ووضوح. وكانت تلك أسئلة من قبيل: «هل في جسدك دمامل؟ هل تعاني من البرص، أو السِّلّ الرئوي؟ هل أنت مدين؟ هل تخدم لدى الملك؟ هل وافق الوالداك على ما تفعل؟ هل بلغت العشرين من عمرك؟ هل تملك ضروريّات حياتك الجديدة من ملابس وقدر الحسنات؟ ما اسمك؟ من هو مرشدك؟» و... وإذا ما سار الحديث وانتهى على ما يرام، كان رئيس الجلسة يخاطب الحضور بالكلمات التالية (يكرِّرها ثلاث مرَّات): «أيتها الطائفة السامية اصغي! إنَّ تلميذ الجليل (يذكر اسم المرشد) هذا (يذكر اسم المرشَّح) يطلب الأوباسامبادا. ولا شيء يمنع قبوله، فلديه قدر الحسنات، ولديه ملابس. هذا (فلان) يطلب الأوباسامبادا من الطائفة. وإذا كانت الطائفة راغبة، فلتمنّ على (فلان) ومرشده بها. ذلكم هو العرض أيتها الطائفة السامية، اصغي. مَنْ من الأجلاَّء يوافق على منح الأوباسامبادا للتلميذ (فلان) ومرشده (فلان) فليصمت، ومن لا يوافق فليتكلم!». وإذا ما صمت جميعهم فإنَّ الرئيس يعلن الآتي: «إنَّ الطائفة تمنُّ على (فلان) ومرشده (فلان) بالاوباسامبادا؛ ولذلك فهي تصمت؛ وهكذا، إنَّني أقبل». وبعد ذلك كان يحدَّد الوقت وفق طول الظِّلّ، ويمجَّد الفصل واليوم. ثمَّ يثبَّت قوام الطائفة. ويخبرون المرشَّح «بمصادر العون الأربعة»، وتحديداً: كيف ينبغي عليه أنْ يحصِّل الأشياء الضرورية لعيشه. والمقصود بهذا: القوت، وكيف ينبغي استجداؤه، والملابس من القطع البالية التي يجدها مرميَّة هنا وهناك، والمضجع عند جذور الأشجار والبول كدواء. وقد سمح للرَّاهب أنْ يقبل من المؤمنين التقدمات التي تحسِّن شروط عيشه. وقد تكون هذه ملابس كتَّانيَّة، أو قطنيَّة، أو حريريَّة، أو صوفيَّة، أو قنّبية. ومن المأكولات: حليب البقر الطَّازج، والزَّيت النَّباتي، والعسل، والعصير وقت المرض. وأجيز للرَّاهب أنْ يقيم في دير أو منزل، أو كوخ. كما كان من حقّه أنْ يقبل دعوات إلى تناول وجبة الغداء عند المؤمنين في المنزل. إذن لم تكن «مصادر العون الأربعة» سوى المتطلّبات الضرورية التي تحدِّد الشَّكل الصَّارم لعيش الرُّهبان. وبعد هذا يطلعون الرَّاهب الجديد على «أربعة أشياء» يجب تركها. وهي الاتصال الجنسي (حتى مع الحيوانات)، والاستيلاء عنوة حتى على الحشيشة، وقتل أيٍّ كائن حي، حتَّى الديدان والنَّمل؛ والابتعاد عن التَّفاخر بسموِّ الكمال البشري الذي حقّقه، فقد حرِّم عليه حتى النُّطق بقول مثل: «يعجبني العيش في المنازل الخالية». وعند هذا الحدِّ كانت تنتهي

طقوس التَّكريس، طقوس «البلوغ» (أوباسامبادا). وقد أكَّد المتخصِّصون الذين حضروا هذه المراسم، أنَّها تثير مشهداً احتفاليَّاً رائعاً، وتترك انطباعاً مؤثِّراً.

إنَّ مراسم التكريس التي وصفناها هنا يتميَّز بها البوذيون الجنوبيون. أمَّا الكنيسة البوذيَّة الشَّماليَّة فإنَّها تطبِّق درجة تكريس ثالثة. وتقام مراسم هذه الدرجة في العام السَّابع أو التَّاسع من حياة الرَّاهب. وتستعرض في أثناء ذلك خلاصة حياة الرَّاهب وسلوكه إبَّان الفترة المنصرمة. وإذا ما تبيَّن أنَّه ارتكب أيَّ هفوة تخالف أيَّاً من الوصايا الأربع الرَّئيسة، أو أنَّ وجوده في الطَّائفة لا يتوافق ومبادئها، فإنَّها لا تتردَّد في اتِّخاذ قرار بطرده من صفوفها طرداً دائماً أو لوقت معلوم. لقد كان لكل راهب كامل الحرِّيَّة في أنْ يترك حياة الرَّهبنة وقتما يشاء، كما كان له الحقُّ في أنْ يفعل هذا بصمت أو يعلنه بحضور شهود. ونحن كنَّا قد نوَّهنا سابقاً إلى أنَّ سهولة الانضمام إلى الطائفة والخروج منها قد أُستُغلَّت استغلالاً سيِّئاً، إذ تحوَّلت الطائفة إلى ما يشبه المخبأ. فمنذ عهد الملك بيمبيسارا كانت الطائفة تحظى بالحصانة. ولذلك لم يكن غريباً أنْ ينتمي إلى الدير كل مَنْ يريد أنْ يتخلَّص من الخدمة العسكريَّة، أو يتفادى عقاباً استحقَّه بسبب سرقة أتاها أو أيِّ إثم آخر اقترفه. كما جاء إلى الدير عدد غير قليل ممَّن عضَّهم الفقر، فالحياة في الدَّير كانت بالنِّسبة لهؤلاء أكثر ملاءمة. ويؤكِّد المتخصِّصون أنَّ هذا الأمر لا يزال قائماً حتى يومنا هذا في البلدان الجنوبيَّة (سيلان مثلاً). وهذا الأمر ممكن فقط عند البوذيين الجنوبيين بسبب مرونة مواثيقهم وتعليماتها. فحتى وقتنا هذا يمكن للرَّاهب هناك في أيِّ وقت مناسب له (آلت إليه تركة، أو وقع في غرام فتاة، أو...)، أنْ يخرج دون أيِّ عائق من صفوف الطائفة. وبالسهولة عينها يمكن أنْ يعود ثانية. أمَّا البوذية الشَّماليَّة فتحرِّم مثل هذا السلوك بعد الدرجة الثَّالثة من التَّكريس.

لقد كانت زيجات أولئك الذين ينخرطون في صفوف الطائفة تلغى تلقائيَّاً. وتغدو زوجة الرَّاهب زوجة سابقة مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج، كما حرِّم على الرَّاهب أنْ تكون له ملكيَّته الخاصَّة، ولذلك كان يفقد حقَّه في كل ما كان يملكه قبل أنْ يصبح راهباً. وحرِّم عليه في هذا السياق عينه أنْ يكتسب أيَّ أملاك؛ وإذا لوحظ أنَّه ينتهك هذا التَّحريم، فإنَّه ينبغي عليه أن يعلن ندمه وتوبته ويتنازل عن نقوده للطائفة. وكانت النقود تعطى بعد ذلك لخادم الدَّير، أو لأي مؤمن ليشتري بها للطائفة زيت زيتون، أو زيتاً نباتياً، أو عسلاً. ولم يكن المذنب يعطى من هذا شيئاً. أمَّا إذا ما رفض المؤمن أنْ يلبِّي طلب الطائفة بشراء المطلوب، فكانوا يرجونه أنْ يحمل النقود المعنية ويرميها في أيِّ مكان. وإذا ما رفض أنْ يؤدِّي هذا

أيضاً، عندئذ تودع النقود لدى الرَّاهب الأكثر وقاراً واحتراماً لدى الطائفة، ويطلب منه أنْ يدفن تلك النقود في مكان لا يصل إليها فيه أحد في أيِّ يوم. ونحن كنَّا قد أشرنا إلى أنَّ الرُّهبان أخذوا مع الزمن ينتهكون في كل مكان، تحريم تلقِّي النقود. ولا يزال هذا الانتهاك قائماً حتى يومنا هذا.

ففي وقتنا هذا تعدُّ الأديرة البوذيَّة في سيلان كما في الهند الصِّينيَّة ثريَّة جداً. ومع ذلك لا تزال تحافظ على تقليد طلب الإحسان. وهو عند رهبانها طقس يومي. أمَّا في التيبت ومنغوليا فالأمر مختلف. إذ بات طلب الإحسان أمراً نادر الحصول عمليَّاً. ولا يجول طالباً الحسنات هنا سوى اللامات الجدد الذين أكثرهم من الغرباء. ويؤكِّد شهود العيان أنَّ أكثر الذين يجوبون طالبين الحسنات هم من الرُّهبان الجشعين، الذين يركبون الحيوانات ويرافقهم تلاميذهم في تجوالهم. ويلجأ هؤلاء إلى مختلف أساليب الاستجداء ويتوسلون المؤمنين منحهم النقود ورؤوساً من الحيوانات المنزليَّة. وما يحصل للبوذيَّة هو نفسه تقريباً الذي يحصل للمسيحيَّة: تراجع تامٌّ عن المصدر البدئي للدِّين. وهذا ما يتَّصف الإنسان به بصرف النَّظر عن انتمائه الدِّيني: للنقود والثَّراء عنده الأولويَّة الأولى.

لقد عرفت البوذية الأولى قيوداً صارمة على ملابس الرُّهبان ومأكلهم. فلم يسمح للرَّاهب أنْ يقتني أكثر من ثوب واحد، وكان يجب أنْ يتألَّف هذا من ثلاثة أقسام وحزام. القسم الأوَّل: الملابس الداخليَّة، وهذه عبارة عن سترة من نوع معيَّن حلَّت محلَّ القميص، وكان الرَّاهب يرتديها على الجسد العاري مباشرة. والقسم الثاني، هو زيُّ الرهبنة نفسه، الذي كان عبارة عن سترة مميَّزة تصل حتى الركبتين وتشدُّ بالحزام. أمَّا القسم الثَّالث، فهو المشلح، وكان هذا عبارة عن رداء يشبه المعطف، يرميه الرَّاهب عبر كتفه الأيسر ليغطِّي رجليه بالتأكيد. ويبقى الكتف الأيمن وجزءاً من الصَّدر في غضون ذلك عاريين. والحقيقة لم يكن محرَّماً ارتداؤه على الكتفين معاً. وقد نوَّهنا سابقاً إلى أنَّ لون الملابس يجب أنْ يكون أصفر، ملكيَّاً كالذي كان يرتديه بوذا يوم تركه قصره الملكي. ولا يزال زيُّ الرهبنة يحافظ على لونه هذا عند البوذيين الجنوبيين. أمَّا البوذيين - اللاما الشماليين فإنَّهم يرتدون معطفاً يميل لونه إلى الاحمرار. وثمَّة طائفة تدعى: ذوي القبعات الحمراء. وكل أجزاء ملابس هؤلاء من اللَّون البنفسجي أو القرمزي - الأحمر. أمَّا الفيوستيون في الصين فإنَّهم يرتدون كيفما اتَّفق لهم. لكنهم يميلون غالباً إلى اللون الرمادي. وما تجب الإشارة إليه، أنَّ الشروط المناخية تختلف اختلافاً بيِّناً من بلد بوذي لآخر (منغوليا وسيلان على سبيل المثال). وتختلف تبعاً لهذا ملابس الرُّهبان أيضاً. ففي لاداكا

حيث المناخ شديد البرودة، يرتدي رهبان الطبقة الدنيا سراويل. ويرتدي اللاما في التيبت ومنغوليا عدداً من الملابس الدّاخليَّة بعضها فوق بعض. وعندما يشارك هؤلاء في المواكب بصفتهم من مقامات دينية سامية، فإنَّهم يرتدون حبريات واسعة متموِّجة. لكنَّ الرُّهبان في البلدان الجنوبيَّة الحارَّة لا ينتعلون عادة أيَّ حذاء، ولا يضعون على رؤوسهم أيَّ غطاء. أمَّا في الشمال فينتعلون الجزم أو الأحذية. وتعدُّ القبَّعة من الضروريات التي لا غنى عنها، بسبب برودة المناخ، ولأنَّ ألوانها المختلفة تميِّز درجات رجال الدين. فبألوان القبعات والملابس (اللَّون الأصفر) يتميَّز رجال الدين في البوذيَّة الشمالية أو اللامائيَّة، على صورتها التي أقرَّها تسزونهافا في القرن ١٥م.، إنَّهم «ذوو القبَّعات الصَّفراء». أمَّا تعاليم البوذيَّة السابقة التي حافظت على درجة كبيرة من أصالتها عند البوذيين الجنوبيين، فقد أطلق على أتباعها لقب: «ذوي القبَّعات الحمراء».

وعيَّنوا لتسلُّم الملابس التي كان يتصدَّق المؤمنون بها على الرُّهبان، راهباً خازناً. لكنَّ توزيع الألبسة لم يكن منوطاً به، إذ كان يجري بالقرعة. وإذا ما توفّى أحد الرُّهبان فإنَّ ملابسه وقدر الحسنات كانت تؤول إلى الرَّاهب الذي كان يعتني به. وإذا ما ترك الرَّاهب المتوفى أيَّ أشياء أخرى، كانت تضمُّ إلى ملكية الكنيسة كلها. وكانت صيغة هذا الفعل تسمَّى: نقل الملكيَّة إلى «طائفة الحاضرين والغائبين في جهات الكون الأربع».

وكان قدر حسنات الرَّاهب يبدو على الشَّكل التَّالي: قدر كبير بعض الشَّيء، شكله مستدير، قاعه بيضوي وله فتحة في الأعلى. وغالباً ما كان القدر حديدياً، ولكنْ كان ثمَّة قدور طينيَّة وأخرى خشبيَّة. وكان يغطّى عادة من الخارج بقشرة زرقاء أو سوداء. لقد كان الرَّاهب يحمل قدره هذا بيده. لكنَّ هذا التَّقليد تبدَّل عند اللا مائيين، فلم يكن هؤلاء يحملون قدراً كبيراً، لأنَّهم غالباً ما كانوا يعزفون عن طلب الحسنات. لكنَّهم كانوا دائماً يحملون قدراً خشبيَّاً يعلِّقونه بالحزام، ومنه يأكلون. وفي منغوليا يحمل اللامات معهم زمزميَّة مليئة بالماء. ولكنَّهم لا يشربون منها مباشرة، بل يسكبون ماءها في أكفِّهم ويشربون. ولم يكن هذا مجرَّد إرواء عطش، بقدر ما كان ضرباً من ضروب التَّطهُّر.

لقد كان الالتزام بقواعد النَّظافة في المشاعة صارماً جداً. ففرض على الرُّهبان قصَّ شعر رؤوسهم وحلاقة شعر لحاهم مرَّتين كل شهر (يوم ينتصف القمر، ويوم يظهر الهلال). وأخذت القواعد بالحسبان تأدية التَّدابير الصِّحِّيَّة كلها: تنظيف الأسنان، وتقليم الأظافر، وما إلى ذلك. وبعد زمن طويل توقَّف رهبان الشَّمال عن حلق شعر لحاهم.

وكان المصفى من الأشياء الضرورية في أمتعة الراهب؛ فبه كان يصفّي المياه التي يشربها، وبه كان ينقذ حياة كثرة لا عدَّ لها من الأحياء الصَّغيرة التي كان يمكن لولا المصفى أنْ يبتلعها مع الماء الذي يشربه. كما كان على الرَّاهب أنْ يحمل معه إبرة للخياطة. وهكذا كان يجب أنْ تتألَّف مقتنيات الرَّاهب من ثلاثة أقسام: الملابس والحزام، وقدر الحسنات، والمصفى والقبَّعة. هذا ما كان في الزَّمن القديم. ثمَّ أُجيز له فيما بعد أنْ يحمل عصا. ولا يرتدي البوذيون الجنوبيون قبَّعة عادة. ولكنْ سمح لهم بحمل مظلَّة يتَّقون بها أشعة الشَّمس الحارقة، لا سيما أنَّهم حليقو الرُّؤوس. ويحمل اللامات معهم صولجان الصلاة. وفي أثناء تأدية صلواتهم يدوِّرون هذا الصَّولجان في مختلف الاتِّجاهات. كما يحملون جرساً، وطبلاً من الجماجم البشريَّة، ودفّاً صغيراً، وسبّحة، وحجاباً، وكتيِّباً. وعندما يطلبون الحسنة ينفخون في بوق من عظم قصبة بشريَّة. كما تبدَّلت العصا عند اللامات تبدُّلاً كبيراً، وتغيَّر غرضها، فعصا الشَّحاذ صارت إلى «عصا الإشارة». وهي عصا تنتهي بحربة ثلاثيَّة أو بحلقة على شكل ورقة. وعلى الحربة خواتم تصدر أصواتاً أثناء الحركة. وليس الغرض من الأصوات الإعلان عن حركة الرَّاهب، بل عزله عن صخب العالم المحيط. كما يجب أنْ تنبِّه أصوات عصا الإشارة الكائنات الصَّغيرة كي لا يطؤها الرَّاهب.

من المعروف أنَّ بوذا لم يشجِّع على أنْ يُراكِم الرُّهبان أرزاقاً كثيرة في الأديرة، ويقضون فيها حياة ساكنة مكتفية. ولم يكن بوذا مخطئاً إذ رأى أنَّه ينبغي على الرَّاهب أنْ يكون في الطَّريق دائماً، لكي ينشر التَّعاليم باسم خلاص البشر. ونحن رأينا إلى أيّ درجة من الانحطاط هبط رهبان دير العاصمة عندما امتنعوا عن تأدية أبسط واجباتهم. وكان بوذا قد رأى أنَّه يجب على الرُّهبان أنْ يقيموا مبعثرين في الغابات والكهوف. والواقع أنَّ هذه الأماكن كانت على مقربة من المراكز السُّكَّانيَّة، وإلاَّ كيف كان سيحصل الرُّهبان على قوتهم. ولكنْ في الوقت نفسه، أجيز للرهبان أنْ يزوروا المدن والقرى في أوقات محدَّدة لجمع الحسنات فقط. أمَّا الأديرة المريحة المعدَّة لإقامة مئات أو آلاف الرُّهبان، فلم يكن لها في زمن بوذا وجود. فقد كان على كل راهب أنْ يهتمَّ بنفسه لكي يكون له سقف فوق رأسه. فبنى الرُّهبان الأكواخ من الأشجار، أو حفروا الحفر وكسوها بالأعشاب. ولم يكن لهم في أثناء ذلك أنْ ينتظروا أيَّ مساعدة من المؤمنين. لقد كان الرُّهبان يعيشون منفردين. والحقيقة أنَّه كان مسموحاً لهم أنْ يتجمَّعوا في جماعات صغيرة. وفي مواسم الأمطار كان الرُّهبان يتجمَّعون ويعيشون حياة الاستقرار. وكان

المؤمنون يتبرّعون ببناء مساكن لهم في مثل هذه الفصول، مساكن جماعيَّة (فيهارا). وقد حاول الرُّهبان أنْ يؤسِّسوا هنا جوّاً مريحاً دافئاً. ونشير في السياق إلى أنَّه كانت توجد هنا حمامات دافئة، وممرَّات مسقوفة للتنزه (لقد كان هطول الأمطار يستمرُّ هنا أشهراً). وهكذا شيئاً فشيئاً أخذ الرُّهبان يعتادون على الإقامة في هذه الأماكن وقتاً مافتئ يطول ويطول. وقد كان هذا هو الطريق الذي قاد مباشرة إلى تأسيس الأديرة. وكان الرُّهبان قد تركوا منذ زمن طويل تقليد تناول وجبة واحدة في اليوم. فقد هيؤوا الآن لأنفسهم نمط عيش لا تقيِّده هذه القيود. زد إلى هذا أنَّ المشروبات الرُّوحيَّة أخذت مكانها على موائدهم. وقد مهَّد السَّبيل إلى هذا غياب الرقابة في الأديرة اللامائيَّة، وعدم وجود الموائد المشتركة، وشيوع عادة أنْ يأكل كل راهب بمفرده. كما كان لكل راهب اقتصاده المستقلُّ أيضاً.

لقد نوَّهنا سابقاً إلى أنَّه كان ينبغي على الرَّاهب أنْ يترك كبرياءه خارجاً قبل أنْ ينتمي إلى طائفة البوذيين أو يدخل الدير البوذي، وكان هذا واحداً من شروط اعتناق البوذيَّة. وعلى وجه العموم تعدّ الكبرياء في الديانات كلها إثماً كبيراً. لكنَّ ما يجب قوله، هو أنَّه إذا كان المسيح ومحمَّد لم يقربا إثم الكبرياء، فإنَّ بوذا سلك سلوكاً مغايراً تماماً. فمحمَّد مثلاً كان يكرِّر دوماً أنَّه ليس سوى رسول لله، وأنَّ رسالته هي نقل تعاليم الله إلى النَّاس، أي إيصال القرآن إليهم، وبعد ذلك هم وشأنهم. أمَّا بوذا فقد وضع نفسه فوق مقام كل إله. ولكنَّ الإله له قاض. ومع ذلك وضع بوذا وصيَّته للمؤمن العادي: لا تتفاخر بسموِّ الكمال البشري الذي بلغته. وبما أنَّ النُّصُوص البوذيَّة القديمة كانت توضِّح موضوعاتها الأساسيَّة بالأمثلة، فقد ساقت المثال التَّالي لبيان هذه الوصيَّة.

عندما قضى الرُّهبان فصل الأمطار مرَّة في أرض فريجي على ضفَّة نهر فالغو مودا، انتشرت مجاعة قاسية. ومن الواضح أنَّ هذا انسحب على الرُّهبان أيضاً. فاقترح الرُّهبان المجتهدون إن يخدموا لدى المؤمنين ليحصلوا على لقمة العيش. لكنَّ اقتراحهم رفض وأُخذ باقتراح آخر مؤدَّاه أنْ يمدح الرُّهبان واحدهم الآخر أمام المؤمنين مبرزين في أثناء ذلك تفوُّقهم الخارق. ويبدو أنَّ الفلاحين الجائعين قد استجابوا، وأطعموا رهبانهم هؤلاء جيِّداً، لأنَّهم كانوا يمتلكون الكمال البشري الأسمى. وبعد أن انقضى فصل الأمطار عاد الرُّهبان إلى طائفتهم، إلى بوذا، فظهرت وجناتهم حمراء منفوخة خلافاً لزملائهم الرُّهبان الآخرين. وقد كان عليهم أنْ يعترفوا كيف نجحوا في ترتيب شؤون معيشتهم. ولتفادي تكرار مثل هذه السابقة وجد بوذا نفسه مضطراً لإدخال هذه الوصيَّة: «لا تفاخر

بكمالك البشري الأسمى». بيد أنَّ الوصية لم تردع الرُّهبان إلاَّ لبعض الوقت، أمَّا بوذيُّو الشَّمال اللا مائيون فإنَّهم دون وازع من ضمير يصورون الأمر كأنهم تحت وصاية الآلهة مباشرة. وهذا ما يقدِّم لهم مساعدة فعَّالة لمضاعفة مدخولهم. ولكنَّ اللامات في الشَّمال لا يكتفون بالادِّعاء أنَّهم وسطاء بين الآلهة والنَّاس، فهم يمارسون المداواة، والتَّنبُّؤ، وطرد مختلف ضروب الأرواح الشرِّيرة. فالبوذيَّة المتأخِّرة أخذت عن الشيفائيَّة إيمانها بوجود الأرواح. وقد كتب المتخصِّصون عن هذا ما يلي: «كل رزيَّة تقع داخل البيت أو خارجه يتَّهم فيها شيطان ما، ولا يستطيع أحد أنْ يحدِّد أيَّ شيطان فعل هذا، سوى اللاما لأنَّ كل شيء مكتوب في كتبه؛ ولا أحد يملك القدرة على إخراج الشيطان الشرِّير سوى هذا اللاما نفسه. ولكنَّ الأمر يتطلَّب بذل جهود مضنية، بمعنى آخر يجب بذل مزيد من المال». كما يتوفَّر اللاما المعاصرون على مصادر دخل أخرى. فهم يرسمون الأيقونات، ويكتبون الكتب، ويصنعون السبحات والحجب، ومختلف ضروب الخرز البرَّاق.، كما يعملون في الزراعة وتربية الحيوانات، ويصنعون الأحذية، ويخيطون الملابس، وما إلى ذلك. وليس لهذا كله أيُّ غرض آخر سوى تحصيل مزيد من الأموال، والقيم المادِّيَّة الأخرى. ويُعدُّ هذا بحدِّ ذاته تراجعاً كاملاً عن جوهر الرهبنة. ومن البدهي أنَّه يجب على الرُّهبان أنْ يعملوا، ولكن يجب عليهم أنْ يبتعدوا عن روح الجشع، والطمع، والسَّعي إلى مُراكمة الأرباح؛ وإلاَّ أيُّ طريق برٍّ هذه التي يسيرون فيها، زد إلى هذا إنَّ الذي حدَّدها إنسان (بوذا) وضع نفسه فوق كل الآلهة. إنَّه هراء تامٌّ.

لقد كان رهبان زمن بوذا يشرعون بقراءة القانون ونظام الانضباط عند شروق الشَّمس. ويقضون ساعات الصَّباح كلها بالقراءة، والنِّقاش، والتَّحليل. وكانت حياتهم العمليَّة اليوميَّة تجري على ضوء هذا القانون. فبعد جولة جمع الحسنات، وتناول وجبة الغداء، وانقضاء وقت القيلولة، كان الرُّهبان يجلسون حتى وقت متأخِّر من اللَّيل يدرسون القانون، ويمارسون الاستغراق الذَّاتي أو ينصتون إلى روعة اللَّيل بصمت تامٍّ («الصَّمت النَّبيل»). وكان المؤمنون يتمُّون الطائفة أو الدير بين وقت وآخر طلباً للسكينة أو النصيحة.

أمَّا فيما يخصُّ الأديرة النسائيَّة، فإنَّه لا وجود لها الآن عند البوذيين الجنوبيين. وليس في أيَّامنا هذه من مرشَّحات لدخول الدير سوى كبيرات السِّنِّ، أو الأرامل المسنَّات اللواتي ليس لهنَّ أبناء، وإذا قبلن فعليهنَّ أنْ يقصصن شعر رؤوسهن، ويرتدين رداء أبيض، ويقمن على مقربة من الدير، أو داخل الدير في صوامع خاصَّة بهنَّ. وتجمع هؤلاء

الحسنات للدير، وتؤدِّين أعمال النظافة فيه، وتأتين بالماء للرهبان، وتؤدِّين مختلف ضروب الأعمال الصَّغيرة، ومن حقِّ الراهبة أنْ تترك الدير في أيِّ وقت تشاء. وإذا ما لوحظ خلل ما فإنَّ رئاسة الدير تطلب منها ذلك. وهذا هو المعمول به عند البوذيين الشماليين. أمَّا في الصِّين نفسها، وفي بلدان الهيملايا والتيبت، فلا تزال الأديرة النسائيَّة قائمة.

في زمن بوذا كانت طقوس العبادة في الطائفة محدودة جداً. إذ لم يكن الرُّهبان يجتمعون سوى مرَّتين في الشَّهر للاحتفال بأيَّام الأوبافاستها: يوم ظهور الهلال، ويوم انتصاف القمر. وكان حضور الرُّهبان لهذين الاحتفالين إلزاميَّاً. فقد كان هؤلاء يتوافدون من شتَّى الأرجاء إلى المكان المحدَّد وفي الوقت المحدَّد. ولم يكن يستثنى من الحضور حتى المرضى، إذ كانوا يحملونهم إلى مكان اللقاء، أو كان اللِّقاء يجري عند مضجع المريض منهم مرضاً شديداً. وكان مكان اللِّقاء يضاء بالمشاعل فيما يجلس الرُّهبان على مقاعد صغيرة. ولم يكن قوام المجتمعين يتألَّف إلاَّ من الرُّهبان المكرَّسين. وهنا كان يُقرأ الكتاب المقدَّس براتيموشكا. فيفتتح رئيس الجلسة الاجتماع بالكلمات الآتية: «المجد للسامي، المقدَّس، الكامل الصَّحوة؛ أصغي إليَّ أيتها الطائفة! اليوم هو اليوم الخامس عشر من الشَّهر، يوم الأوبافاستها. وإذا رغبت الطائفة فلتؤد طقوس الأوبافاستها، ولتقرأ البراتيموشكا بصوت مسموع. ولتعلنوا أنتم أيُّها الأجلاَّء ما إذا كنتم طاهرين من الإثم؛ وسأبدأ أنا أقرأ البراتيموشكا». فتجيبه الطائفة بصوت واحد: «سوف نستمع بانتباه ومن القلب». «من اقترف إثماً فليعلن عنه، ومَنْ لم يفعل فليصمت. ومَنْ من الرُّهبان الذين سُئلوا ثلاث مرَّات، لا يعلن عن إثم ارتكبه، سيكون مذنباً بالكذب المقصود. والكذب المقصود أعلنه السامي عقبة كأداء على طريق الخلاص. ولذلك فليعلن كل راهب عن إثم يعرف أنَّه ارتكبه ويرغب في أنْ يتحرَّر من عبثه. فالاعتراف يحمل إليه راحة النَّفس». وبعد ذلك يُسأل كل راهب عدداً من الأسئلة. ولكن كثيراً من هذا تغيَّر الآن، إلاَّ في سيلان، حيث يجري كل شيء، أو تقريباً كل شيء، هكذا بالضَّبط.

ويحتفل الرُّهبان مرَّة كل عام بعيد الدعوة (برافارانا). ويدعى هذا العيد باسم آخر أيضاً: الاستدعاء. ويحتفل بهذا العيد في آخر موسم الأمطار وبدء موسم التَّجوُّل. وفيه أيضاً يجري الاعتراف العلني بالآثام المرتكبة. وكان يشارك في اللقاءات الاحتفالات هذه، رهبان المنطقة المعنية دون استثناء. وهنا كان يسأل كل راهب زملاءه بإلحاح عمَّا إذا كان قد

ارتكب أيَّ إثم بحقِّ أيٍّ منهم. وفي غضون ذلك كان الراهب يرمي معطفه على كتفه الأيسر، ويجلس على الأرض رافعاً يديه، ضامَّاً راحتيه بعضهما إلى بعض مردِّداً ثلاث مرَّات: «أدعو إخوتي، والطائفة: هل تعرفون عني شيئاً، أو سمعتم شيئاً، أو هل لديكم أيَّ شكوك حولي، قولوا لي أيُّها الأجلاَّء ما إذا كان لديكم شيء من هذا، رحمة بي. وإذا ما عرفت فإنِّي سأعلن ندمي وتوبتي». ولكنَّ هذه الاعترافات العلنيَّة تحوَّلت مع الزَّمن إلى اعترافات شكليَّة صرف. وإذا ما وقعت صدامات، أو انتهاكات للميثاق، فقد كانت تسوَّى مسبقاً في دائرة ضيِّقة.

وفي زمن بوذا نفسه كانت الطُّقُوس تنتهي عند هذا. ولكنَّ عبادة الذخائر وتبجيل الأماكن المقدَّسة أخذا يظهران في وقت مبكر جداً. وكانت المهابارينيباناسوتا قد خبّرت، أنَّ بوذا نفسه أشار إلى أناندا بأربعة أماكن يجب أنْ تحظى لدى كل مؤمن ينتمي إلى عائلة صالحة بالاحترام، ويعدُّها جديرة بأنْ تزار، وتؤثر في القلب، المكان الأوَّل، هو المكان الذي ولد فيه بوذا. والمكان الثَّاني، هو المكان الذي أدرك فيه بوذا صحوة العقل، وأدار للمرَّة الأولى عجلة القانون الأكثر براعة (أي المكان الذي ألقى فيه موعظته الأولى). والمكان الرابع، هو المكان الذي دخل فيه بوذا البارينرفانا. وقال بوذا، إنَّ زيارة هذه الأماكن الأربعة واجب على الرُّهبان والراهبات، والمؤمنين، والمؤمنات. ووُعِد الذين يموتون بقلب نقيٍّ وهم في الطريق إلى الحجِّ إلى تلك الأماكن، بالبعث من جديد على الجانب الآخر للموت، في السماء.

لقد بجِّلت البوذية المتأخِّرة الذَّخائر تبجيلاً كبيراً. فحظي ناب بوذا مثلاً، بمجد لا يضاهى. وأُنشئت فيه مؤلَّفات خاصَّة. وأخذوا يصنعون فيما بعد أيقونات مأخوذة عن تماثيل بوذا. وأضافت البوذية الشمالية إلى الأيقونات صور براتيكا بودها، وديانيبودها ومختلف البودهيساتفا. كما شيِّدت معابد مهولة فخمة، ومصليَّات صغيرة على الطرقات، ومفارق الدروب، أو في السهوب؛ وشيِّدت أيضاً أبراج للصلاة أنجبتها الأجران. وبنوا علاوة على ذلك كله جدراناً حفروا عليها الدُّعاء نفسه: «أوم ماني بادمي هوم».

ويثير الفضول في هذا السياق ابتكار لا مائي عُرف باسم: طواحين الصلاة. فبما أنَّه يجب ترديد الصلاة أكبر عدد ممكن من المرَّات، لذلك صارت الصلاة إلى تكرار آلي. وهذه الآلية عبارة عن بنية تذكِّرنا بشكل البرميل أو الاسطوانة، مليئة بقصاصات ورقيَّة كتب عليها أدعية، وصلوات. وقد تكتب هذه النُّصُوص على سطح الأسطوانة. وقد اعتقدوا أنَّ تلاوة الصلاة أو تدويرها أمر سواء. ولذلك فطاحونة الصلاة، هي مسرِّع آلي

لترديد الصلاة. وثمَّة كمٌّ كبير من هذه الطواحين في متاحف أوروبا. ونحن لم نَسُقْ هذه الواقعة لكي نثير دهشة القارئ، بل لكي نبيِّن إلى أيِّ حدٍّ يمكن الابتعاد عن الجوهر نفسه. وكان المسيح قد علَّم: توجَّه إلى الآب بأفكارك. فالصلاة إذن، هي تواصل شخصي بين الإنسان والإله وجهاً لوجه. فأثناء تأديته الصلاة بصدق وإيمان يتحوَّل الإنسان، ويعتزم أنْ يتكيَّف مع الأفضل، أنْ يتوب عن آثامه ويندم على ارتكابها. إنَّ الصلاة فعل تطهُّر، وتحوُّل نحو الصَّفاء. فعن أيِّ آلات يمكن أنْ يجري الحديث هنا. نعم، لم يترك بوذا صلوات. لكنَّه ترك إرشادات تدلُّ على عمل الخير. والإيمان بغير فعل، هو إيمان ميت. ولكنْ أنْ تجعل أكثر وسائل التواصل مع الإله قداسة مجرَّد آلة، طاحونة، فهذا كفر، تطاول على الدِّين.

الباب الثالث

الكريشنائيَّة

تقـوم التَّعـاليم الدينيـة الكريـشنائية علـى الإيمـان بالإلـه كريـشنا، والقـوانين الـتي تضمَّنتها الفيدات؛ وهي أقدم الآثار الهنديَّة المكتوبة، فعلى أساس القوانين الفيديَّة التي دوِّنت منذ ٥٠٠٠عام، جرى تطوير حضارة عاشت على كل أراضي الهند المعاصرة، وجنوب شرقي آسـيا، وباكـستان، وأفغانـستان، وسـواها مـن بلـدان آسـيا الأخـرى. ويـرى الكريـشنائيون المعاصرون في هذه الحضارة، حضارة مثاليَّة. وتصف الدراسات الكريشنائيَّة المعاصرة ميزات الحضارة الفيدية على النحو الآتي:

«أراضٍ مترامية كانت تحت سلطة إمبراطور واحد، وخضع له حكام الدويلات والإمارات القائمة على هذه الأراضي كلهم. لقد أقرَّ الحكام التَّابعون بسلطة الإمبراطور، وأدُّوا له الأتاوات والخدمات، أو خضعوا لقوَّته العسكريَّة. لقد عمل الإمبراطور على إشاعة الأمن والسَّلام في أراضي إمبراطوريته، وسعى لكي يعيش الشَّعب في يسر وبحبوحة. وكان أفضل هؤلاء الأباطرة ملوكاً أقوياء، ورجالاً ذوي إيمان ديني عميق، يسجدون للرَّبِّ الأعلى، ويتفقَّهون في العلوم الرُّوحيَّة. وعادة ما كان المواطنون راضين عنهم طول فترة حكمهم. وبعد وفاة الإمبراطور أو أحد الملوك، كان العرش يؤول إلى ابنه الأكبر

شـريطة أن يُوافـق الـوزراء علـى هـذا الاختيـار. وبفـضل منـشئهم الرَّفيـع، ومعـارفهم الرُّوحيَّـة العميقـة، كـان هـؤلاء الورثـة عـادة، أشخاصـاً شـرفاء صـالحين. إذن، لقـد اسـتند البنـاء الاجتمـاعي للمجتمـع الفيـدي علـى سـلطة الدَّولـة القويـة التـي كانـت تتركَّـز بـين أيـدي ملـوك شـرفاء ملتـزمين التزامـاً صارماً بالمبادئ الدينية، ولـم يـسمحوا لأيٍّ كـان أنْ ينتهـك قـوانين الإلـه. لقـد عاش النَّاس بسلام وسعادة في ذلك المجتمع القائم على القيم الرُّوحيَّة السامية. وبنيت حياة المجتمع كله وفق إرشادات الفيدات، وهي كتب مقدَّسة عرضت فيهـا المعـارف التـي منحهـا الإلـه نفسه. وكـان البراهمـان الأبـرار هـم مرشـدو المجتمع الروحيُّون، الذين علَّموا الآخرين كلهم تطبيق قوانين الإله. وكان الملوك أنفسهم يتَّبعون إرشادات العلماء البراهمان، ولذلك كان كلهم راضياً عن حكمهم».

لقـد سـقنا هـذا المقطـع مـن كتيـب معـروف جـداً في روسـيا هـذه الأيَّـام. فالكريشناثيُّون يضعون هـدفاً أمـامهم الآن، هـو إحيـاء الحـضارة الفيديَّـة، أي إحيـاء ذلـك المجتمـع الـذي تكـون الـسُّلطة الزَّمنيَّـة خاضـعة فيـه للبراهمـان، أي للمرشـدين الروحيين. وقد قيل عن هذا الآتي: «لم يكن الملك يتَّخذ أيَّ قرارات قبل أنْ يتشاور مع البراهمان الذين كانوا يوجِّهون نشاطه وفق مبـادئ الكتب المقدَّسة. وكـان الأسـاس التشريعي لذلك المجتمع، هو «المانو-سامهيتا»، وهو الكتاب الـذي جُمعت فيه قوانين مانو، الأب الأوَّل للجنس البشري. وعلى هذا وسواه من الكتب المقدَّسة الأخرى، وضع البراهمان مبادئ إدارة المجتمع، وكـان الملك يطبِّق تلك المبادئ بمـا يتوافق والزَّمـان، والمكـان، والمعطيات القائمـة على الأرض، كمـا كـان الفكـر الـسَّليم رائـده في هـذا كله».

لقد كـان نظـام تلقِّي المعارف عند البراهمـان معروفاً في الهند، وفي الشَّرق على وجه العموم: من المعلِّم إلى التِّلميذ الـذي سيغدو بدوره معلِّماً ينقل معارفه لتلاميذه. هكذا كان ينتقل الفكر (التَّأويل) الفيدي ويحقِّق الكمال الروحي.

وحسب اعتقاد منظِّري الكريشنائيَّة اليوم أنَّ المجتمع الفيدي بدأ يتداعى إثر حلول قرن كالي الـذي تعيشه البشريَّة الآن. ولا تستخدم كلمة «قرن» هنا بمعناها التَّقليدي، فالقرن يطول حسب المفهوم الفيدي عدَّة آلاف من السِّنين. إذن مع حلول قرن كالي أخذ المجتمع الفيدي يفقد نقاءه وسيطرته على المجتمع شيئاً فشيئاً. وبدأ تداعي

البراهمـان أنفسهم أيضاً ، فغـرق المجتمـع كلـه في الآثـام والعيـوب. واهتـزَّت السُّلطة الملكيَّة. وتواصل انحلال الثَّقافة الفيدية حتى بداية عصر التَّاريخ الحديث. فسقطت الإمبراطوريَّة الهنديَّة الموحَّدة. وألحق مختلف أقاليمها بدول الغزاة. فقد أسَّست الشُّعوب التركيَّة على أرض الهند إمبراطوريَّة المنغول العظماء. واستمرَّت سلطة هؤلاء عدَّة قرون.

وفي أزمنة السَّيطرة المنغوليَّة هذه ظهرت كلمة «هندوس». وقد اشتقَّت من كلمة «سيندهو»، التي دعا المحتلُّون بها سكَّان البلاد الأصليين. ثمَّ بات سكَّان الهند كلهم يدعون فيما بعد هندوساً. ويرى أتباع الكريشنائيَّة، أنَّ الهندوس هم فقط أولئك الذين يلتزمون مبادئ الثَّقافة الفيديَّة. فالهندوسيَّة هي ديانة الفيدات. وبعد المنغول استولى الإنكليز على الهند، إذ وجد هؤلاء فيها اليد العاملة الرخيصة، والمواد الأوَّليَّة اللازمة لصناعتهم. وفي زمن السَّيطرة التركية على الهند انتشر الإسلام فيها، كما شرع الإنكليز ينشرون فيها ديانتهم: المسيحيَّة. وهكذا فقدت الثقافة الفيدية تأثيرها في المجتمع الهندي تقريباً، بيد أنَّها لم تندثر. واستمرَّ نقل معارف الفيدات من المعلِّم إلى التلميذ. وكان نظام نقل المعارف هذا قد ظهر منذ فجر خلق العالم، عندما وضع الإله كريشنا المعارف الفيديَّة في قلب براهما. وكان براهما هو الكائن الحيُّ الأوَّل الذي خلق في العالم. وكان ابنه نارادا هو تلميذه الذي نقل المعارف الإلهيَّة إليه. وكان لهذا بدوره تلميذه شريلافياساديفا الذي صاغ هذه المعارف في صيغة الفيدات، الأمر الذي جعلها في متناول أيدي النَّاس كلهم. بمن فيهم هؤلاء الذين يعيشون في زمننا هذا، وهو الزَّمن «الأكثر كآبة في تاريخ البشريَّة كله» (قرن كالي).

ثمَّ نقل فياسادفا المعارف الفيدية إلى مادهفاشارا، الفيلسوف العظيم البارّ. وقد بشَّر هذا بتعاليم الفيدات في كل أرجاء الهند، وكان له آلاف التلاميذ. وثمَّة في الهند الآن مئات الملايين ممن يؤمنون بالجوانب الرُّوحيَّة للثَّقافة الفيدية ويلتزمون مبادئها.

وشاعت الكريشنائيَّة شيوعاً واسعاً في العالم بفضل إنشاء الجمعية الدولية لمعرفة كريشنا. وقد أدَّت دوراً استثنائيَّاً في هذا الشأن، كتب شريلا برابهوبادا التي يقارب عددها المائة كتاب. وهذه الكتب عبارة عن ترجمة للأدب الفيدي إلى اللُّغة الإنكليزيَّة، مزوَّدة بشروحات وتعليقات مسهبة على بعض الموضوعات الفيديَّة. ويعدُّ شريلا برابهوبادا مثالاً ساطعاً لما يمكن أنْ يفعله الإنسان الملهم روحيَّاً. ففي

التَّاسعة والستِّين من العمر وصل شريلا إلى نيويورك وليس معه سوى عشرة دولارات وصندوق فيه مجلَّدات «شريماد-بهافاتام». وخلال عشر سنوات جال شريلا الكرة الأرضيَّة خمس عشرة مرَّة، وأنشأ الجمعية الدوليَّة لمعرفة كريشنا، وافتتح أكثر من مائة مركز لمعرفة كريشنا، في تسعة وأربعين بلداً من بلدان العالم، ومنح السيامة الرُّوحيَّة لآلاف التلاميذ، وعرَّف الملايين بمبادئ الأدب الفيدي. وفي العام ١٩٧١م. زار شريلا روسيا. وخرج إلى النور إبَّان حياته أكثر من مائة مجلَّد من مؤلَّفات الأدب الفيدي. وكتبت الموسوعة البريطانيَّة تقول: إنَّ هذا «أثار دهشة عالم العلماء كله».

ومعنى كلمة «فيدا»، هو «يعرف». والفيدات هي من حيث الأساس أناشيد كان يؤدِّيها الكهنة تمجيداً للآلهة. وتتألَّف «فيدا المدائح (الريغ-فيدا)» من ١٠١٧ نشيداً جمعت في تسعة كتب. وكرِّس الكمُّ الأكبر من أشعارها لتمجيد إله النَّار أغني، والإله إيندرا إله المطر والسَّماء. وثمَّة فيدا، هي «فيدا تقديم الذَّبائح» احتوت على تعليمات تأدية طقس تقديم الأضاحي للآلهة. وقد دعيت هذه «ياجور-فيدا». وهناك أيضاً «ساما-فيدا» («فيدا إنشاد الأغاني»)، وتتألَّف هذه من ١٥٤٩ بيتاً من الشِّعر، نقف على أكثرها في «الريغ-فيدا» ضمن سياق آخر. وتمجِّد «الساما-فيدا» على وجه الخصوص، مشروب السوما السماوي. أمَّا «الأتهارفا-فيدا»، فهي تحتوي على مختلف الأغاني والطُّقوس. وقد أعدَّ قسم كبير منها لمداواة الأمراض.

وقد كتب ساتسفارونا دوسا غوسفامي يقول: «هناك أربع فيدات تشجِّع على تلبية الرغبات المادِّيَّة عبر السجود لأنصاف الآلهة. فالذين يرغبون أنْ يستمتعوا بممارسة الجنس مثلاً، يسجدون لإله السموات إيندرا، أمَّا الذين يرغبون في أنْ تكون لهم ذرِّيَّة صالحة، فعليهم أنْ يتعبَّدوا للوالدين الأوَّلين العظيمين برادوكاباتي. ومن يسعى لتحقيق النَّجاح في مساعيه، يجب أنْ يتعبَّد الإلهة دورغا، ومن يرغب في امتلاك القوة، عليه أنْ يسجد لإله النَّار أغني. وعلى السَّاعي لتحصيل الثروة أنْ يتعبَّد فيسا، ومن يريد جسداً قويَّاً، عليه نْ يتعبَّد الأرض. ولكنَّ الأدب الفيدي في الأحوال كلها، لا يتحدَّث عن أنصاف الآلهة بصفتهم ثمرة المخيِّلة، بل بصفتهم منفِّذين للإرادة العليا ممنوحين سلطة لإدارة شؤون الكون. فالطَّبيعة لا تفعل شيئاً من تلقاء ذاتها، فخلف كل ظاهرة من ظاهراتها تقف شخصيَّة ما. فإيندرا يوزِّع هطول الأمطار، وفارونا يسيِّر البيئة البحريَّة. لكنْ ما تنبغي الإشارة إليه، هو أنَّ أيَّاً من هؤلاء الآلهة، وعددهم

ثلاثة وثلاثين مليوناً، لا يضاهي الإله الأعلى، بهاغافانا، الحقيقة العليا المطلقة (أوم تات سات).

إنَّ أنصاف الآلهة هؤلاء ليسوا سوى منفِّذين لإرادة الإله الأعلى. فالإله كريشنا يؤكِّد في «بهاغامَّاد-جيتا» مثلاً: إنَّ كل النِّعم التي يمنحها أنصاف الآلهة، هي في واقع الأمر «تلك التي أعطيها أنا وحدي».

وعلاوة على الفيدات الأربع المذكورة، يحتوي الأدب الفيدي على «المهابهاراتا» (تاريخ الهند»، والبورانات الثماني عشرة. وتعدُّ الأوبانيشادات جزءاً من الفيدات، وهناك كتاب مستقلٌّ جرى فيه تعميم نظري للمعارف الفيديَّة كلها، وقد خصِّص هذا الكتاب للفلاسفة. إنَّه كتاب «فيدانتا-سوترا»: الكلمة الأخيرة للفيدات. وقد جاء في «الفيدانتا-سوترا»، ما هو البراهمن، الحقيقة المطلقة: «إنَّ الحقيقة المطلقة هي ذلك الشيء الذي ينبثق منه كل شيء». ثمَّ جاء الشرح التفصيلي لهذه المقولة في «شاريماد-بهاغافاتا». وقيل: إنَّه يجب أنْ تمتلك الحقيقة المطلقة وعياً، إدراكاً. إنَّها «مقدَّسة بذاتها».

ويشكل علم الروح الأساس الفلسفي للكريشنائيَّة. ويرى الكريشنائيون إنَّ التفسير الأوفى لمكانة الإنسان في هذا العالم قد تتضمَّنته الفيدات تحديداً. فروح الإنسان لا تولد ولا تموت. ولذلك فإنَّ دراسة الروح عن طريق التجربة، في المختبرات، أمر غير ممكن، لأن المعرفة النسبية عاجزة عن تفسير ما هو متسامٍ فوق العالم المادِّي. وليست المعرفة المطلقة متاحة إلاَّ للإله نفسه. وتقول «بهاغافادا-جيتا»: «مثلما أُعدَّت الروح لكي تنتقل من جسم الطفل إلى جسم الشاب، ثمَّ إلى جسم الكهل، فإنَّها بعد الموت تنزح لتسكن جسداً جديداً. ولا تحيِّر هذه التبدُّلات الإنسان العاقل». لقد قامت الكريشنائيَّة على فكرة نزوح الروح هذه، هذا النزوح الذي يجري وفق قانون الكارما. وكما قلنا لدى وصفنا للديانات الشرقيَّة الأخرى، إنَّ قانون الكارما يعني، إنَّ كل فعل يقوم به الإنسان في العالم المادي، تنتج عنه نتائج معيَّنة. وسوف يجني الإنسان في المستقبل ثمار أعماله الصالحة والطالحة.

أمَّا فكرة نزوح الروح، فإنَّ نقطة ضعفها تكمن في أنَّ الإنسان لا يتذكَّر أيَّ شيء من المرَّات التي عاشها سابقاً. والغرض من الفكرة عينها، هو تحقيق العقاب الكامل عمَّا اقترفه الإنسان من آثام. وكل منَّا يعرف أنَّ هذا لا يتحقق في خلال حياة واحدة: لا يتلقَّى الإنسان جزاء أفعاله الشرِّيرة، أو ثواب أفعاله الصالحة في حياته عينها. وإذا ما امتدَّ وجود

الإنسان خارج إطار حياة زمنية واحدة، وخرج إلى رحاب آلاف المرَّات، فإنَّ المسألة برمَّتها تسقط: من يستطيع أنْ يتتبَّع ما يحدث للروح خلال الزمن المعني. ففي المسيحيَّة يتلقَّى الإنسان جزاء أفعاله بعد نهاية حياته (الواحدة الوحيدة)، ويقع الأمر عند حلوله في العالم الآخر مباشرة. ويرى كثيرون أنَّ فكرة نزوح الروح ليست فكرة منطقية لأنَّ الإنسان لا يتذكر أيَّاً من وجوداته الكثيرة السابقة. وهذا يعني أنَّه لا يتذكَّر أيَّ إثم من الآثام التي اقترفها في أيِّ وجود من وجوداته؛ وهو لا يعاني في هذا السياق أيَّ شكل من أشكال تأنيب الضمير. ولن يعمل بالتالي في سبيل أنْ يكفِّر عن آثامه التي اقترفها. فكيف يمكن إذن أنْ تعمل آلية الكمال الروحي عند الإنسان، وهي الآلية التي لا عمل لقانون الكارما بغيرها؟ وكيف أمكن لفكرة نزوح الروح نفسها أنْ تظهر؟ من البدهي أنَّها تنشأ من فراغ، ولم تبتكر ابتكاراً تأمُّليَّاً صرفاً لكي تعلِّل أو تفسِّر وجود العدالة، وتؤكِّد أنَّ تحقيق هذه الأخيرة في صورة قانون الكارما أمر مضمون. وكانت فكرة نزوح الروح قد ظهرت عندما رصد النَّاس كيف كانت روح مَنْ عاش سابقاً تظهر سماتها في مولود جديد. ونحن كنَّا قد عالجنا هذه المسالة معالجة وافية في كتابنا: «الإله، والرُّوح، والخلود». وواقع الأمر أنَّ روح الإنسان يمكن أنْ تأخذ لذاتها إحداثيات أرواح أخرى. ولكنَّ هذا لا يحدث إلاَّ في حالات خاصَّة، غالباً في حالة الأزمات النَّفسيَّة التي تتسبَّب بها حالات الشِّدَّة و...

ولكنَّ التَّكفير عن أيِّ إثم مقترف أمر مستحيل في إطار فكرة نزوح الروح هذه التي تقوم في صلب الكريشنائيَّة. وقد كتب الإيديولوجي الكريشنائي الروسي شريلاهاريكيشا سوامي: «لا يمكن أنْ يلغي الفعل الصَّالح الفعل الطَّالح، لأنَّ للأوَّل آثاراً إيجابيَّة وللثاني آثاراً سلبيَّة. ولا بدَّ لتفادي آثار الأفعال السَّيِّئة من امتلاك مهارة التكفير عن الآثام. ولكنَّ المبادئ العليا للفلسفة الفيديَّة ترفض النَّتائج الإيجابيَّة والسَّلبيَّة لأفعالنا على حدٍّ سواء، لأنَّ هذه وتلك تبقينا في العالم المادِّي، وهذا بحدِّ ذاته شرٌّ، لأنَّه طالما بقي الكائن الحيُّ في هذا العالم، فسوف تتواصل آلامه المادِّيَّة».

وينتج عن هذا أنَّ الحياة نفسها شرٌّ، ويجب أنْ يبذل كل جهد ممكن لوضع حدٍّ للحياة المادِّيَّة، ينبغي تحقيق الانعتاق. بَيْد أنَّ هذا لا يعني وضع نهاية للحياة عنوة (فحياة الروح تتواصل في هذه الحال أيضاً، في أناس آخرين). فهذا الانعتاق يجب أنْ يحصل بشكل طبيعي، إذ يقع في نهاية سلسلة الولادات المتكرِّرة.

لقد رأى المسيح أنّه يجب مساعدة كل إنسان ليصبح أفضل، وتعليم النّاس أنْ يحبَّ بعضهم بعضاً، وبهذا يستأصل الشّرُّ. فإذا ما قابل كل إنسان الشّرَّ بالخير، فإنَّ الشّرَّ سيندثر بالتّأكيد. ولكنَّ مفكّري الكريشنائيَّة يرون أنَّ النّاس عاجزين عن تحقيق هذه المهمَّة، ولذلك يجب بذل كل جهد للتّحرُّر من الحياة، من تلك الآلام التي تسبّبها الحياة. وقد كتب سوامي في هذا السّياق يقول: «يولد الإنسان لكي يدرك علم الروح ويعرف كيف تدخل دورة الولادات والميتات المتكرِّرة لتجني في أثنائها ثمار أفعالها التي قامت بها في الماضي. والإنسان العاقل سوف يعي عاجلاً أم آجلاً أنّه بات رهن الميلاد، والموت، والشّيخوخة والأمراض، وهو يحاول فهم سبب آلامه. لكنَّ البشر عاجزين عن حلِّ هذه المعضلات، بل لا يحاولون ذلك أصلاً».

بيد أنّه يصعب علينا أنْ نوافق على هذا. فليس في هذا العالم أيُّ مصادفة. وليس وجود الحياة مصادفة أيضاً. وليست مهمَّة الإنسان هي تصحيح ما خلقه الإله، بل الالتزام بقوانينه. ووفق هذه القوانين يجب على الإنسان أنْ يولد، ويحبَّ، وينجب، ويحب النّاس، ويمدَّ يد العون للقريب. وأنْ لا ترتكب الإثم، يعني أنْ لا تنتهك قوانين الإله، قوانين الطّبيعة، ولا يعني أنْ تتهرَّب من المعضلات القائمة. وإذا ما ارتكب الإنسان إثماً، فإنَّ مهمَّته أنْ يعود ثانية إلى طريق الحق إلى الطّريق التي حدَّدها الخالق. وعليه كيف يمكن أنْ يُعدَّ الإثم والتكفير عن الإثم شرّاً، استناداً فقط إلى كونهما مظهرين من مظاهر الحياة عينها. فلو كانت الحياة شرّاً لما خلقها الإله. ولذلك فإنَّ اعتناق الكريشنائيَّة كما وردت في النُّصوص التي سيقت هنا، لا يؤدِّي إلى كمال الإنسان والمجتمع.

إنَّ الحياة نفسها بالنِّسبة للكريشنائيين مجرَّد وهم (مايا). فقد كتب سوامي يقول: «عندما يقع في العالم المادِّي المصنوع من التُّراب، والماء، والنّار، والهواء، والعقل، والإدراك، والباطل، فإنَّ الكائن الحيَّ يلقى نفسه تحت سلطة مختلف أشكال الوهم الذي يسمَّى بالسنسكريتيَّة مايا، فالمايا، أي الوهم يغطّي الروح الأزليَّة بإرغامه إيَّاها على الاندغام بالجسد المادِّي، والعالم المادِّي». ثمَّ يقول بعد ذلك: «وإذ يقع تحت سلطة مايا، فإنَّ الكائن الحيَّ ينسى وضعه البدئي خادماً أزليّاً للإله، وفي سعيه لتلبية ضرورات الجسد المادِّي والأحاسيس المادِّيَّة يقضي على ذاته بالآلام في مختلف أشكال الحياة».

وها نحن مرَّة أخرى أمام الآلام: لتتخلّص منها يجب أنْ تتخلّص من الحياة نفسها. إنَّ الرسالة الحقيقيَّة لأي دين تقوم في جعل حياة الإنسان أفضل، وليس في السَّعي لوضع

حدٌّ لسلسلة الولادات بهدف التَّخلُّص من الآلام. بل على وجه العموم، لماذا ينبغي أنْ نتهرَّب من الآلام، لماذا يجب أنْ نخافها؟ فالآلام تشكل الجزء الرَّئيس من الحياة، أساسها. وبغير الآلام لا يمكن أنْ يتحقَّق الكمال الذَّاتي. ما هي ممارسة خدمة الإله كريشنا؟

لكي تغدو حياة الإنسان أكثر سموًّاً، وليعي شيئاً فشيئاً جوهر علاقاته مع الرَّبِّ الأعلى ويكتسب تجربة مباشرة في التَّواصل معه، يجب على الإنسان «أنْ يردِّد اسم الإله المقدَّس مجرَّد ترديد عادي، لأنَّ الأصوات المتساميَّة للاسم المقدَّس تطهِّر الروح». يجب تكرار النُّطق بمانتراهاري كريشنا. وتتألَّف هذه من أسماء الإله الواردة في الفيدات: هاري كريشنا، هاري كريشنا، كريشنا كريشنا، هاري هاري / هاري راما، هاري راما، راما راما، هاري هاري.

وبتكرار ترديد هذه المانترا يحقِّق الإنسان حالة الاستغراق في التَّأمُّل. «إنَّ أصوات الاسم المقدَّس أصوات معتادة بالنِّسبة للروح. ويمكن مقارنة تكرار المانترا ببكاء الطِّفل الذي يدعو أُمَّه، لأنَّنا نحن، النفوس الرُّوحيَّة نضلُّ طريقنا في مجاهل العالم المادِّي ونحتاج لحماية والدنا ووالدتنا. وكلمة هاري مشتقَّة من كلمة هارا، وهي اسم الطَّاقة السامية للرَّبِّ. وكريشنا هو اسم الرَّب الذي يشير إلى طبيعته الكليَّة الاستقطاب؛ أمَّا اسم راما فهو يعني أنَّ الرَّبَّ هو المستمتع الأعظم في العالمين الروحي والمادِّي».

أمَّا كريشنا فهو خالق الكون الوحيد الذي يصلِّي جميعهم له: المسيحيون، والمسلمون، والبوذيون، واليهود، والداوسيون. وكان شريلا برابهوبادا قد قال ما يلي عن كريشنا:

> «... إنَّنا نستطيع أنْ نتذكَّر كريشنا عندما نشرب الماء، لأنَّ كريشنا هو طعم الماء. وفي الصَّباح أيضاً عندما تظهر خيوط الفجر الأولى، يمكننا أنْ نتذكر كريشنا، لأنَّ ضوء الشَّمس يعكس ضياء جسده. وفي المساء عندما يظهر القمر نتذكَّر كريشنا، لأنَّ ضياء القمر انعكاس لنور الشَّمس. وإذ نسمع صوتاً نتذكَّر كريشنا، لأنَّ الصَّوت هو كريشنا. حتى البقرة تذكِّرنا بكريشنا الذي يدعونه هوفيندا المانح السعادة للبقر. ومن السَّهل جداً أنْ نتذكَّر كريشنا في القرية: إنَّه هو يقول عن نفسه إنَّه رائحة الأرض الطَّيِّبة. وزهور الرَّبيع، هي كريشنا أيضاً. كما تذكِّرنا به الرياح، والرعد، والبرق. والمؤمن عاجز عن أنْ ينسى كريشنا لو لحظة واحدة، فكل شيء هنا يذكِّر به!».

ويدعى الكريشنائيون المؤمنون بالأوفياء أو المخلصين. ويعيش هؤلاء في المعابد الكريشنائيَّة أو خارجها. ويوجد في العالم الآن أكثر من ثلاث مائة مركز كبير من مراكز معرفة كريشنا، كما يوجد كذلك كثير من المعابد. ولهؤلاء شعار رئيس واحد: عش ببساطة، وفكِّر بتسام. ويقصُّ الأوفياء من الرِّجال شعر رؤوسهم قصيراً، أو يحلقونه حلاقة، ويتركون ضميمة واحدة طويلة في مؤخِّرة الرَّأس. وتعدُّ هذه الضَّميمة العلامة الملازمة للبراهمن والأوفياء الذين يلتزمون بالمأثورات الفيديَّة. ويرتدي الرِّجال الكريشنائيون قميصاً بسيطاً ودهوتي: قطعة قماش طويلة عرضها متر واحد، تلفُّ حول الورك والسَّاقين بطريقة خاصَّة. وترتدي النِّساء أردية ألوانها فاتحة.

ويؤدِّي الكريشنائيون في معابدهم أناشيد وتراتيل معيَّنة. وفي معابدهم يقدِّمون للإله ست وجبات يوميَّاً: مختلف أصناف الطعام، والمرطبات والحلوى. وفي كل مرَّة ينشدون الأناشيد ويرتِّلون التراتيل. وبعد ذلك يبدأ الكاهن إقامة المراسم التي تسمَّى أروتيكا. ولا تزال هذه حتى الآن تقام كما كانت تقام منذ مئات السِّنين. وفي غضون ذلك يقدِّمون للرَّبِّ مصابيح بفتيل من القطن الأبيض المشبع بالزَّيت، كما يحرقون له البخور، ويقدِّمون الزُّهور، والماء، والمراوح المصنوعة من ريش الطَّاووس وريش الياق. وأخيراً يعلن بصوت القوقعة عن ختام المراسم.

ويجتمع الأمناء الذين يقيمون في المعبد، وقت الخدمة الصَّباحيَّة والمسائيَّة في هيكل المعبد ويؤدُّون تراتيل خاصَّة. ثمَّ ينشدون ترتيلة هاري كريشنا. وبعد الخدمة الصَّباحيَّة يمارس كل منهم بمفرده تمارين التَّأمُّل بمساعدة السبحة. وتشبه سبحاتهم (جابا) السبحات المسيحيَّة، وفي كل سبحة مائة وثماني خرزات. وهاكم العمليَّة الحسابيَّة لذلك: مع كل حبَّة يرتل الأمين مرَّة واحدة ترتيلة هاري كريشنا؛ وعليه أنْ يفعل هذا ست عشرة دورة لكل ترتيلة؛ ويستغرق هذا منه ساعتين من الوقت. ويساعد تكرار التراتيل الأمين على تركيز ذهنه على الرَّبِّ وتنمية حبه له. وبعد هذه التمارين يستمع الأمناء إلى محاضرة. ثمَّ يتناولون طعام الإفطار: يأكلون الطَّعام الذي قدِّم للرَّبِّ أثناء إقامة المراسم الصَّباحيَّة. وتتألَّف الوجبة من حبوب، وجوز الهند، والحليب، وزيت الزيتون، والفواكه، والخضار. فالأمناء الكريشنائيون أناس نباتيون لا يأكلون اللحوم. وهم يرون أنَّه ليس من حقِّ البشر قتل الحيوانات وأكل أجسادها. إنَّها وصية الفيدات.

وتتألَّف وجبة الغداء عادة من الرز، والخضار المطبوخة، والخبز، وفي أيَّام الأحاد يقيمون ولائم كبيرة يقدِّمون أثناءها للضيوف والأمناء المقيمين في المعبد عشرة أصناف كحدٍّ

أدنى. وفي المساء تلقى عليهم محاضرة ثانية في فلسفة إدراك كريشنا. وفي المعابد يقيم الرجال والنساء كل على حدة. ومثلهم مثل الرُّهبان أعطى هؤلاء عهداً بالعيش حياة العذريَّة والعفَّة. كما يعيش الأمناء خارج المعابد أيضاً. وهم يعملون لكي يعيلوا أنفسهم وعائلاتهم. ويقدِّمون جزءاً مما يكسبون للمعبد. وثمَّة من الأمناء من يحوِّل منزله إلى معبد. وغالباً يتَّحد ذوو العائلات من الأمناء في مشاعات زراعيَّة، ويزرعون الأرض، ويقدِّمون ثمار عملهم قرباناً للرَّبِّ الأعلى. كما يوزِّعون من المؤن التي ينتجونها على الجيران الذين يعيشون في المكان. وهناك الآن كثرة كثيرة من مثل هذه المشاعات في شتَّى البلدان. ولا ريب في أنَّ الإنسان يستطيع أنْ يحقِّق السَّلام والسَّكينة إذا عمل وعاش مع الآخرين الذين يقاسمونه رؤاه وقناعاته.

الباب الرابع

تعاليم جديدة
(الأخلاق الحيَّة)

تعاليم جديدة عن الإله

يُعدُّ الله في الديانات الغربيَّة الثَّلاث: اليهوديَّة، والمسيحيَّة، والإسلام، العلَّة الأولى لكل شيء. أمَّا في الديانات الشَّرقيَّة، بما في ذلك التَّعاليم الجديدة، فإنَّ تصوُّراتهم عن العلَّة الأولى لكل ما في الكون، وعمَّن يوجِّه كل شيء فيه، تتمايز تمايزاً مبدئيًّا. فمنذ أقدم الأزمنة وقع الانقسام هنا إلى علَّة أولى، وآلهة. وتدعى العلَّة الأولى في الشَّرق «ذلك» أو «ذاك». وقبل أنْ يوجد الكون كان هناك الذاك، كانت هناك الإمكانيَّة الكامنة لتحوُّل الكون. وقبل أنْ تظهر القوانين الكونيَّة، كان هناك الذاك، كانت الخطَّة التي ظهرت تلك القوانين وفقها. ولا تصف الديانات الشَّرقيَّة «الذاك» بأنَّه كلي القدرة، يرى كل شيء، ويعرف كل شيء، وما إلى ذلك. فلم يكن لهذا المبدأ الأعلى أيّ اسم، أو تعريف، أو جوانب، أو صفات. والإنسان عاجز عن تحديد صفات الذاك. ولا يستطيع أنْ يقول إنَّه مخلوق على صورة الذاك ومثاله. ولكنَّ بعض النُّظم الفلسفيَّة أطلق على الذاك اسم براهمان، وبارابراهمان، والمجهول العظيم، والعلَّة التي لا علَّة لها، والمطلق.

وكما قلنا في كتابنا «الإله، والروح، والخلود»، إنَّ الكون تشكل إثر انفجار عظيم. وهو موجود في زمن محدَّد، ثمَّ يهلك نتيجة تقلُّصه وتكوُّره في نقطة واحدة. وبعد زمن ما، يتشكل من هذه النقطة إثر انفجارها كون جديد. وهكذا دواليك. إذن، يولد الكون تارة ويندثر تارة أخرى، أمَّا الذاك فهو موجود دوماً. وحسب الكتب المقدَّسة الشَّرقيَّة أنَّه مع حلول اللَّيل الكوني، وعندما يتجمَّع الكون كله في نقطة واحدة لا يبقى سوى «الذي يحتوي على كل شيء، وغير محتوى في أيِّ شيء»: الذاك. فالذاك لا يستطيع أنْ يندثر في أيِّ ظرف من الظروف. وفيما بعد عندما يتشكل كون جديد في انفجار عظيم جديد، فإنَّ كل شيء يتشكل من هذا الذاك. ولذلك فإنَّ الذاك موجود في كل شيء: في المادَّة، وفي الحركة، وفي القوانين، وفي العقل، وفي كل شيء. ولكنَّ الذاك يبقى دائماً بالنسبة للإنسان أحجية، المجهول العظيم.

ويطبِّق الآلهة قانون الذاك في الحياة. وحسب المصطلحات الهندوسيَّة أنَّ هذه القوَّة التَّنفيذيَّة، أو الإله التَّنفيذي في نظام كوكبنا نحن، هو الإله إيشفارو (القوَّة الخالقة). فنظام كوكبنا يقع كاملاً تحت عناية هذا الإله: القوَّة. هو يصنعه، ويديره، ثمَّ في آخر المطاف يدمّره. ولكل نظام من أنظمة الكواكب الأخرى إلهه: إيشفاروه. وحسب المصطلحات الغربيَّة أنَّ إيشفارو، هو اللوغوس. لكنْ لهذا الإيشفارو - اللوغوس ثلاثة وجوه: براهما (الخالق)، وفيشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر). ولكنَّ البوذيَّة خلافاً للهندوسيَّة لا تعترف بإيشفارو إلهاً. فالبوذيَّة ترى أنَّ كل إنسان يعبر الطريق عينها التي يعبرها إيشفارو. وهو يخضع للقوانين الكونيَّة عينها التي يخضع الإنسان لها. ويبلغ الإنسان في أعقاب ارتقائه خلال زمن تجسُّداته الكثيرة، الحالة نفسها التي يبلغها إيشفارو. ويستنتج من هذا: إمَّا أنَّ هناك كثرة من الآلهة، أو ليس ثمَّة أي إله. والأرجحيَّة هنا للفرضيَّة الأولى: يوجد كثير من الآلهة. لكنَّ جميع هؤلاء يخضع للقوانين التي وضعها المبدأ الأعلى. وعند تدمَّر المعمورة، يهلك الآلهة الفرديون كلهم، ولا يبقى سوى الذاك. وبمعنى أدق أنَّ هؤلاء لا يهلكون، وإنَّما ينتقلون إلى حالة العدم. ووفق أوامر الذاك يعودون إلى الواقع من جديد لكي يخلقوا كوناً جديداً أكثر كمالاً.

وفي الفلسفة الغربيَّة نفسها تصوُّر مشابه عن استحالة إدراك الإله. بل حتى التوراة نفسها تؤكِّد أنَّه لا يمكن رؤية الإله.

وإذا ما أجرينا مقارنة بين تصوُّر الديانات الشرقية عن الإله وتصوُّر الديانات الغربية عنه، فإنَّنا نستطيع أنْ نقول بشيء من الابتذال: إنَّ للإله في الديانات الشرقية أقنومين: تشريعي (الذاك)، وتنفيذي (القوَّة الخالقة). وتخضع السُّلطة التنفيذية في غضون ذلك للسلطة التشريعيَّة. أمَّا في الديانات الغربيَّة فإنَّ الإله هو الذي يخلق القوانين وهو الذي ينفذها. فهل ثمَّة ضرورة لإثبات صحَّة هذه الرؤية وتلك؟ إنَّ الأمر الرئيس في هذا السياق، هو أنَّ كلاًّ من التَّصوُّرين الشَّرقي والغربي يقرُّ بوجود إله واحد أحد للكون كله. أمَّا تفاصيل نشاطاته وتنظيمها، فهي أمر ليس له أهمِّيَّة، وليس الإنسان مؤهلاً للحكم فيها. ولذلك فإنَّنا نستغرب إذ نقرأ، إنَّ التَّصوُّر عن الإله في الديانات الشرقية أكثر كمالاً. فعلماء الفيزياء الكونيَّة، والفيزياء الفلكيَّة، بل كل المفكرين العارفين بقوانين نيوتن وكيبلر لا يعرفون كيف يمكن لكل نظام كوكبي أنْ يدار من قبل لوغوسه، قانونه، قوَّته الخالقة. فهذا الأمر مستحيل من حيث المبدأ، لأنَّ كل ما في الكون يجب أنْ يخضع للوغوسات - القوانين عينها. لقد ظهر مفهوم القوى الخالقة وكثرتها، أي كثرة الآلهة

أيضاً، ظهر في الهندوسيَّة منذ القدم، قبل زمن طويل من إنشاء التوراة والقرآن، وفهم القوانين التي توجِّه عمل الكون. ولذلك فإنَّ مقارنة هذه المفاهيم عن القوى الخالقة، عن كثرة القوى الخالقة، بمفهوم الإله الواحد الخالق الصانع في البوذيَّة، والمسيحيَّة والإسلام ليس في مصلحة تلك الأولى. فالبشريَّة تتقدَّم وتتطوَّر، وتصوُّراتها عن العالم المحيط، والعلَّة الأولى تتغيَّر ولا تعدُّ عقيدة جامدة. ونرى من الملائم أنْ نسوق هنا ما جاء لدى كليزوفسكي عندما أجرى مقارنة بين رمز الإيمان المسيحي والتَّصوُّرات الشرقية عن الإله:

«كأنَّ المالك لكل شيء يتحدَّث عن المعطى الأول الأساس (الذاك) من جهة، لكنَّه في الوقت نفسه، هو خالق السماء والأرض. وهو بالتالي القوة الخالقة، أو اللوغوس، بيد أنَّ كل لوغوس هو نتيجة لعمليَّة ارتقاء، وليس العلَّة الأولى. والآلهة الأفراد، أو اللوغوسات كثيرون كثرة النظم الشمسيَّة، وربما أكثر؛ وينسب اللاهوتيون المسيحيون إلى لوغوسنا، الذي صنع نظامنا الشمسي هذا، صناعة الكون كله، وهذا ليس صحيحاً بالتَّأكيد، لأنَّه لا يتوافق وقوانين الارتقاء».

ونحن لا نستطيع أنْ نقول في هذا الصَّدد سوى شيء واحد، هو أنَّه من الغريب أنْ يصدر هذا في القرن ٢٠م. عن مثقف مهمٍّ مثل كليزوفسكي.

لقد كتبت ي. ب. بلافاتسكايا عن تقسيم الإله الواحد إلى الذاك والآلهة الفرديين ما يلي: «إنَّ الإله المطلق يجب أنْ يكون غير مشروط، ولا يمكن أنْ يُدرَك في الوقت نفسه كإله فعال، وخالق واحد حي بدون أنْ يسقط هذا المثل الأعلى من فوره. فالإله الذي يظهر في الزمان والمكان، وليس هذان سوى شكلين للذاك الذي هو كل شيء على الإطلاق، نقول إنَّ مثل هذا الإله لا يمكن أنْ يكون سوى جزيئة مبعثرة من الكل (الذاك)... وقد فهم القدماء هذا أفضل فهم، إلى درجة أنَّ شخصية معتدلة دينياً كأرسطو لاحظ: إنَّ عملاً دؤوباً كالخلق المباشر لم يكن ليليق بإله أبداً. وعلَّم أفلاطون والفلاسفة الآخرون الشَّيء عينه: لا يمكن أنْ يشترك الإله في عمل الخلق اشتراكاً مباشراً... وهذا ما أكَّد عليه القانون القديم أيضاً: إنَّ الطَّبيعة اعتياد يؤدِّي عمله بنفسه على أساس مبادئ الإنبات، فيحسِّن ويحتوي تلك الأشياء القليلة التي تنبثق من الطَّبيعة في الوقت الذي تعيِّنه الطَّبيعة بنفسها، وتؤدِّي عملها وفق قوانين ذاك الذي أظهرها.

إذن، في سعيها لتأكيد تصوُّرات القدماء عن الإله، لجأت ي. ب. بلافاتسكايا إلى معطيات قدماء الإغريق، مع أنَّه كان من المناسب أكثر لو ساقت تلك التَّصوُّرات في سياق العلم المعاصر. ولو فعلت لما ظهرت المواجهة بين القوانين الكونيَّة والإله، وهو ما كتب عنه أ. إ. كليزوفسكي:

«لقد نسب العالم الغربي كل الصفات الممكنة إلى المبدأ، فخلق بذلك أسطورة، خلق إلهاً لم يكن له وجود في أيّ وقت، وليس له وجود الآن. فبتوجهه إلى الإله بالصلوات والتَّوسُّلات، وبتسميته لهذا الإله المتخيَّل بالحبِّ، والرَّحمة، والشَّفقة، والحكمة، والعارف بكل شيء، وسوى ذلك من التسميات، يكون العالم الغربي قد دفع صلواته وتوسُّلاته من حيث الجوهر إلى مبدأ، أو قانون، لأنَّ الإله بصفته كائناً روحيّاً لا وجود له، أمّا فكرة اللا مدرك العظيم، فإنَّ الغرب لا يعرفها. وإذ أدغمت الإله، أو اللا مدرك العظيم بالقوَّة الخالقة، أو بالإله الفردي، فإنَّ المسيحيَّة لم تنشئ بذلك عقيدة دينيَّة عليا، زد إلى هذا أنَّها أدخلت العالم الغربي في خضمٍّ مآسٍ لا عدَّ لها، إذ ساقت تفكيره الديني إلى طريق الباطل، لقد وجهت إلى الإله المسيحي، الذي عدَّته تعاليم الكنيسة المسيحيَّة الحبَّ نفسه، والرحمة والإحسان، اتِّهامات لا عدَّ لها بالظُّلم، والقسوة، لأنَّ المؤمن المسيحي لا يدرك أنَّ الضربات التي يتلقَّاها ليست من الإله، وإنَّما من فعل القوانين الكونيَّة».

وحسب التَّعاليم الجديدة أنَّ موقف الإنسان تجاه العلَّة الأولى، اللا مدرَك العظيم، يجب أنْ ينطلق من كون هذا الموقف لا يتطلَّب وجود عقائد، أو معابد، أو طقوس. فالإنسان يجب أنْ يعرف أنَّ هناك قوى كونيَّة خلاَّقة (ويسوع المسيح منها). وإنَّ هذه القوى مجتمعة تؤلِّف تراتبيَّة سماويَّة هي التي توجِّه الكون، وتحديداً نظامنا الشَّمسي. إنَّ التَّعاليم الجديدة تقيِّد اهتمام الإنسان بالنِّظام الشمسي، لأنَّ ثمَّة قوى خلاَّقة أخرى تؤدِّي عملها في أجزاء الكون الأخرى. أمَّا نظامنا الشمسي فإنَّ القوَّة الخلاَّقة التي صنعته، هي «ذلك الإله الواحد الذي بين يديه مصير نظامنا الشمسي، وكل ما في داخله، ويجب ألاَّ تذهب صلواتنا وتوسُّلاتنا إلى أبعد منه».

ومن البدهي أنَّنا لا نتَّفق مع مثل هذا الزَّعم. فهو في زمننا هذا يمثِّل خطأ خارجاً عن تسلسل المنطق العلمي. فحقل المعطيات البيولوجي، العقل الكوني، يخترق امتداد الكون كله، ولا يقتصر على نظام كوكب واحد منفرد. والقوانين الكونية واحدة للكون كله،

ويعدُّ الإنسان جزءاً من هذا الكون. ولذلك لا يجوز أنْ يقيِّد الإله الواحد الأحد في إطار نظام كوكب واحد. وغني عن البيان أنَّ مثل هذه الأنظمة لا عدَّ له في الكون. فهل هذا يعني أنَّ عدد الآلهة لا عدَّ له أيضاً؟

وانطلاقاً من هذا المعطى، لم يكن غريباً ألاَّ يرى بوذا فيهم آلهة أصلاً. وأباح بصمت وجود الذاك فقط. وقد كتب راما شاراكا عن هذا يقول: «لم ينف بوذا وجود الذاك، لكنَّه قبل به دون براهين، كحقيقة بديهيَّة أساسيَّة. علاوة إلى هذا أنَّه نوَّه في نظامه بوضوح إلى البراهمن، أو البراهمن الأعلى، أي براهما في ماهية العدم واللا تجلِّي». ونحن كنا قد أشرنا إلى أنَّ بوذا احتفظ لنفسه بمكانة الإله الفردي. ولذلك يرى كثير من اللاهوتيين والفلاسفة الغربيين في البوذية ديانة إلحادية. والأمر هكذا فعلاً من حيث الفهم الصحيح لجوهر المسائل المطروحة، وإلاَّ ماذا يمكن أنْ يعني الإله (براهمن) في ماهية العدم، اللا تجلِّي؟ فمحمَّد والمسيح أكَّدا على أنَّ الله يتجلَّى في كل شيء، في كل شيء على الإطلاق، وفي كل فرد منَّا.

إذن، في أعلى القمَّة يقف المطلق: ذاكَ، اللا مدرَك العظيم، المبدأ والمنتهى لكل شيء. ولن يكون هذا مفهوماً للنَّاس في أيٍّ وقت، فجوهره محجوب عنهم. ولكنَّ الذَّاك لا يوجه العالم بطريقة مباشرة. إنَّ مَنْ يوجِّه العالم هو قوى الكون الخلاَّقة. وتؤلِّف هذه مجتمعة، تراتبيَّة سماويَّة: إنَّهم أولئك الآلهة الوحيدون، الفرديون، الذين لهم في الكون وجود. وليس هؤلاء في واقع الأمر سوى بشر نجحوا في اجتياز حقبة ارتقاء بلغوا في نهايتها مستوى سامياً. ومنهم بوذا، والمسيح، ومحمَّد. ولكنَّ هؤلاء كثر جداً، فمنهم على سبيل المثال يلينا ريريخ وآخرون. ويقف على رأس التراتبيَّة السماوية الذاك الوحيد. ويعدُّ أعضاء التراتبيَّة السماوية كلهم أبناء الإله، ومنقذي العالم. لقد بلغ هؤلاء درجة أنصاف الآلهة.

ويقف كل حبر (معلِّم) من الأحبار على درجة معيَّنة من سلَّم التراتبيَّة (سلم يعقوب). لكنَّ أحداً لا يعرف من على الدرجة الأعلى ومن على الدرجة الأدنى. فالبشر عاجزون من حيث المبدأ عن معرفة ذلك ولذلك فإنَّ الجدال حول مَنْ من الأحبار أعلى من الآخر، هو جدال عقيم لا طائل منه. وتضع التَّعاليم الجديدة المؤمنين كلهم في شروط متماثلة. وقد قيل في هذا الشَّأن ما يلي: «إنَّ التَّعاليم الجديدة تمنح الحرِّيَّة الكاملة للإنسان المتنوِّر، الآن وفي المستقبل، إذا ما رأى ثمَّة ضرورة لتبجيل أيِّ مبدأ مجرَّد بدلاً من إلهه، أنْ يجلَّه إمَّا في المطلق الذي يتضمَّن كل شيء ولا يتضمَّنه أيُّ شيء، أو في الروح الأزلي، أو في

المادَّة الأزليَّة، أو في القلب الكوني، أو في العقل الكوني، قصارى القول، في أيِّ شيء يريده».

ويوجد ملايين الأحبار من مختلف درجات السُّلطة، والقوَّة والسلطان، وهؤلاء هم الذين يديرون شؤون الكون وليس الإله، كما يرى المسيحيون. ولو جاز لنا أنْ نستخدم مفردات اللغة المعاصرة لقلنا، إنَّ كل ما في العالم الذي مصدره الذَّاك، المجهول العظيم، مبنيّ وفق مبدأ الإدارة الذَّاتيَّة، لكنَّ دور القادة - الأحبار هو الذي يقرِّر كل شيء. وقد قيل في هذا الصَّدد ما يلي:

«عندما يتجمَّع عرق جديد، فالذي يجمعه هو الحبْر. وعندما تبنى درجة جديدة للجنس البشري، فإنَّ الباني هو الحبر. وعندما تبنى على إيقاع الحياة درجة عيَّنها المغناطيس الكوني، فإنَّ الحبر على رأسها. فليس في الحياة ظاهرة تخلو بذرتها من حبر. وبقدر ما تكون الدرجة قويَّة بقدر ما يكون الحبر قويًّا».

وهكذا تستبدل التعاليم الجديدة بمفهوم الإله، مفهوم المعلِّم الحبر. ولكنْ يجب على أتباع التعاليم أن يمتنعوا عن تقديم الأضاحي للأحبار والصَّلاة لهم، إنَّما يجب عليهم أنْ يعترفوا بالتراتبيَّة ويبجِّلوا الأحبار كأخوة أكبر سنًّا.

وقد يصير الرئيس الروحي الأرضي إلى حبر. فقد قالت «أغني - يوغا»: «ليكن لكل معلِّم على الأرض». فهذا المعلِّم الزمني هو الذي يصلكم بتراتبيَّة القوى. «ينبغي ألاَّ يكون التلميذ مستعبَداً والمعلِّم مستعبِداً. ومطلوب في غضون ذلك وعي التراتبية وتوافق الأفعال، ودمج الإرادة الحرَّة باعتراف المعلِّم. وعادة ما تقع العقول الضعيفة في حيرة. فغنيٌّ عن البيان طبعاً، أنَّ الشروط والقيود تناقض الحرِّيَّة بمعناها الفظ المبتذل. ولكنَّ وعي المقصد، والثقافة يشكلان الأهمِّيَّة العظيمة للمعلِّم. فالقبول بفهم المعلم سيكون بمثابة عبور البوابات الأولى لعمليَّة الارتقاء. ولا ينبغي أنْ ندخل في مفهوم معلِّم مقدِّمات أرضيَّة. فهو من سيقدِّم أفضل نصائح الحياة. وسوف تشمل هذه الحيوية، المعرفة، والإبداع، واللا محدوديَّة» («أغني -يوغا»).

وها نحن قد وصلنا إلى أهمِّ المسائل المبدئيَّة في الديانات كلها، وفي النظم الفلسفيَّة كلها. وهذه المسألة قد يطرحها أيُّ إنسان كان. والسؤال هو كيف يمكن أنْ يوجد الشَّرُّ في العالم الذي خلقه ويوجِّهه الإله العارف بكل شيء والقادر على كل شيء؟ والإله هو بالتَّأكيد إله الخير. وفي العالم القديم أقرُّوا وجود إلهين: إله الخير وإله الشَّرِّ. وقدَّموا القرابين

لكليهما. أما التوراة فقد أعطت للمسألة حلاً مغايراً: ينفصل الشيطان عن الإله الواحد (إله الخير)، وكان الشيطان من قبل ملاكاً، لكنَّه عصى أمر الرَّبِّ. ويجب في آخر المطاف أنْ يهزم.

ولكنْ كيف تتعامل التَّعاليم الجديدة مع هذه المسألة؟ حسب هذه التعاليم أنَّ العلَّة الأولى (الإله الواحد)، ثنائي منذ الأزل، أي إنَّه يتألَّف من قطبين، من مبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشَّرِّ. ولذلك ليس ثمَّة ضرورة للبحث عن إجابة للسؤال: كيف ومتى ولماذا ظهر الشَّرُّ على الأرض. فالمبدآن موجودان (السَّالب والموجب) منذ الأزل. ولذلك فإنَّ كل شيء في الكون مزدوج، ثنائي، أي يتألَّف من موجب وسالب، من خير وشرّ. وينسحب هذا على الإنسان أيضا. وتزعم التَّعاليم الجديدة، أنَّه «كما يوجد النهائي واللانهائي، والكامن والملحُّ، والجاذب الإيجابي والنَّابذ، كذلك توجد القوَّة والعجز، والعقل والعمه، والدِّفء والبرد، والنور والظلام، والخير والشرُّ وما إلى ذلك. ولكنَّ هذه المتعاكسات كلها ليست متعاكسات إلاَّ في تصوُّرنا نحن؛ لأنَّ كل ما يصدر عن العلَّة الأولى ليس خيراً وشرَّاً، وعقلاً وعمهاً، وقوَّة وعجزاً؛ إلاَّ أنَّه يتحول إلى هذه المفاهيم تبعاً لرغبتنا، ووفق مطامحنا وتجاذباتنا؛ إلاَّ أنَّه يمكن القول، إنَّه ثمَّة بين الأقطاب: بين الخير والشَّرِّ، والنور والظلام، والعقل والعمه رابطة حرَّة للكائن العاقل، هي التي تحدِّد طريق الكائن المعني».

ومن الواضح أنَّه يصعب كثيراً ألاَّ نوافق على هذا لأنَّ الجزء المادِّي من الكون قائم على وحدة المتناقضات وتواجهها، صراعها، وبذلك فإنَّ الإرادة الحرّة للإنسان تجيز له أن يختار بين الخير والشرّ، والنور والظلام. وليس صعباً من الوجهة المنطقية أن نتخيّل أن لقوى الظلام، قوى الشرّ التنظيم نفسه، التراتبية نفسها التي لقوى النور، قوى الخير.

كما تثير الاهتمام أيضاً كثرة من الكائنات التي تزعم التعاليم الجديدة أنها تقف الآن في معسكر قوى الشرّ. وتتألف هذه من شتّى أنواع الوحوش القبيحة الشبه العاقلة التي لها أهمية كونية متدنية. فالعالمان الكوني والناري مسكونان بأرواح البيئات التي تؤدي عملاً معقداً وكبيراً في مختلف بيئات الطبيعة. وهذه الأرواح هي الأقزام، والسيلفي، والاوندينى (=أرواح الهواء والماء م). والسمادل. وقد اشتهرت هذه في هيئات الحوريات، والساحرات، والدوموفي، وعفاريت الغابات، وعفاريت المياه، و... وتعيش هذه الكائنات بالقرب من الإنسان، بل كانت في زمن ما صديقة له. ولكن

الإنسان فقد صلته معها بسبب عدم إيمانه وعجزه عن التواصل، وعدم قدرته على فهم جوهر المسألة كلها. وهذا ما دفع بتلك الكائنات إلى الابتعاد عنه، فخسر مساندتها. ولكن هل فقدت تلك الكائنات شيئاً بسبب ذلك؟ إن كل ما في الكون يسير على طريق الارتقاء. وبما أن صلات الإنسان معها أخذت تتقطع رويداً رويداً، لذلك تقلّص تأثيره على عملية ارتقائها. ولكنّ الطور التالي لارتقاء هذه الكائنات، هو صيرورتها إلى الحالة الإنسانية.

وعلى مستوى أعلى من التطوّر، تقع قوى الشرّ العاقلة. فهذه منظمة في تراتبيتها وتؤلّف معاً مقصورة سوداء باتباعها وطقوسها.

الفصل الثاني

نزوح الأرواح
حسب التعاليم الجديدة

يُعدّ نزوح الروح (التجسّد ثانية)، التقمّص، واحداً من أهمّ أسس الديانات والمعتقدات الشرقية كلها. فهذا القانون يسهّل كثيراً إعطاء تفسير منطقي لكثير من المسائل المبدئية في حياة الإنسان. فالإنسان (الطفل الصغير) على سبيل المثال يصاب بمرض خطير ويموت. فأين العدل الذي يجب أن يكون على الأرض وفي الكون كله؟ ولكن إذا اعتقدت بنزوح الروح، فإنه من السهل أن ترى أن المرض في هذه الحياة، هو جزاء الآثام التي ارتكبت في الحيوات السابقة. وبكلمات أخرى، ما تزرعه تجنيه. وتجنيه حتماً، وإن لم تجنه فوراً خلال حياة واحدة. إذن ليس ثمّة من يعاقب الإنسان من فوق في حيواته. إنه يعاقب نفسه بنفسه بالأعمال التي يأتيها.

فالإنسان يمتلك إرادة، وحق الاختيار. ويمكن القول إنه هو الذي يصنع مصيره. ولكل فعل من أفعال الإنسان آثار محددة بدقّة، تجرّ عليه العقاب أو تكافئه بالثواب، ونتيجة لهذا يتواصل سير ارتقاء الإنسان. وإذ يأتي الفرد منا أفعالاً خيرة نبيلة، فإنه يتقدّم على طريق الكمال، يرتقي إلى درجة أعلى على سلّم التقدّم.

بيد أن طريق الكمال التام شديدة التعقيد، وطويلة جداً. فحسب التعاليم الشرقية، بما فيها تعاليم الأخلاق الحيّة، إنه ينبغي على الإنسان في تقدّمه من حياة لأُخرى أن يعبر كل المراحل التي عبرتها البشرية خلال تاريخها كله. ويتأتى للإنسان خلال حيواته المتعاقبة أن يغدو كل شيء (بدءاً من الوضيع البائس حتى الملك، ومن الرجل حتى المرأة).

ونتيجة لتكرار التجسّد مرّات كثيرة يكتسب الإنسان بالتدرّج تجربة، ويبلغ الكمال المطلق. ومنذ هذه اللحظة لا تعد به حاجة للعودة إلى الأرض. ويتابع تأدية عمله، ولكن في إهاب غير فيزيائي. فيتحوّل إلى شبه إله ويمارس مع أمثاله من أشباه الآخرين تأثيراً على سير ارتقاء الآخرين الذين لم يبلغوا درجة الكمال بعد. إن الإنسان الذي يقطع خلال حيوات كثيرة

طريق الارتقاء كلها بنجاح ويبلغ درجة الكمال المطلق يصير إلى معلّم. ويؤلّف هؤلاء المعلمون حسب التعاليم الجديدة، المقصورة البيضاء العظيمة. إنهم أخوة البشرية الذين يوجهون ارتقاءها في المجرى الضروري.

وتعلل لنا تعاليم نزوح الروح كثيراً مما هو غير مفهوم أو مما يصعب فهمه من وقائع الحياة اليومية التي تصادفنا. مثلاً، لماذا ينشأ عند والدين طيِّبين ربيا أولادهما تربية صحيحة، أبناء فاسدون؟ فعلى ضوء قانون نزوح الروح يبدو مثل هذا الأمر طبيعياً، لأنَّ الأمر المهم لا يتعلّق بمن هما الوالدان الآن، بل بماهية الحيوات التي عاشها الطفل من قبل، وطبيعة النتائج التي حصل عليها. بكلمات أخرى، نحن ننتظر العدل انطلاقاً من حياة واحدة؛ بينما يجري تحقيقه على امتداد زمني أطول بكثير. كم حياة يعيش الإنسان على الأرض؟

سوف تكون إجابتنا على هذا السؤال مقطعاً من «كؤوس الشَّرق» الرسالة ١٧):

«... يجب على الإنسان أنْ يحقق على كل كوكب، بما فيها كوكبنا، سبع دورات صغرى في سبعة أعراق، وسبع سبعة فروع... ومع ذلك فإنني لكي أوجهك إلى الطريق الصحيحة، أقول: إنَّ حياة واحدة في كل عرق من الأعراق الأساسيَّة تساوي سبع حيوات في كل من الأعراق الفرعيَّة التِّسعة والأربعين، أو ٧×٧×٧ = ٣٤٣، وضف إليها سبعاً أخر، وعلاوة على هذا عدداً من الحيوات في كل فرع وفريع عرقي، بحيث نحصل في النتيجة على ٧٧٧ مرَّة يتجسَّد الإنسان فيها في كل محطة أو كوكب. ويمارس مبدأ التَّسريع والإبطاء تأثيره بطريقة تفضي إلى إبعاد الأجيال الدنيا كلها والإبقاء فقط على الجيل الأسمى لكي يحقق الدورة الصُّغرى الأخيرة. ولا يستوجب الأمر كله خلافاً بسبب بضعة ملايين من السنين التي يقضيها الإنسان على كوكب واحد. ولذلك فلنأخذ فقط مليوناً واحداً من السنين، وهو المليون الذي خمَّنوه تخميناً واعتمده علمكم اليوم، ونعتمده نحن كبرهة كاملة لإقامة الإنسان على أرضنا في هذه الدورة الكبيرة. فإذا أجزنا أنَّ متوسِّط أمد الحياة الواحدة مائة عام، يكون الناتج أنَّ الفرد الواحد أمضى في خلال أزمنة حيواته كلها على كوكبنا (في هذه الدورة الكبرى) ٧٧,٧٠٠ عام فقط، وفي المجالات الذاتية ٩٢٢,٣٠٠ عام. ألا يثير هذا العدد كثيراً جداً، إلهام الغيورين جداً من أنصار تعاليم نزوح الروح المعاصرين الذين لا يتذكرون في أحسن الأحوال سوى بعض من وجوداتهم السابقة!.

وأنتم إذا أردتم إجراء أيِّ حسابات، فتذكَّروا أنَّنا لم نحسب هنا سوى متوسط الحيوات المسؤولة والواعية. فلم نقل أيَّ شيء عن إخفاقات الطَّبيعة: الخدَّج، والمرضى عقليَّاً، وموت المواليد والأطفال في حلقة السنوات السبع الأولى، عدَّاك عن الاستثناءات التي

لا أستطيع أنْ أتحدَّث عنها. وتذكَّروا أيضاً أنَّ متوسط أمد حياة الإنسان يتباين تبايناً كبيراً تبعاً للدورة العظمى. وأنا على الرغم من أنَّني كان يجب عليَّ أنْ أمسك عن البوح بمعلومات عن كثير من المسائل، إلاَّ أنَّني رأيت أنَّ الواجب يدعوني لإطلاعكم عليها، إذ ربَّما تمكَّن أحدكم من حلِّ مسألة ما من هذه المسائل بمفرده. حاولوا إذن أنْ تجدوا حلاً لمعضلة ٧٧٧ تجسيداً(١)».

ومن حيث المبدأ، إنَّ كل إنسان يواصل ارتقاءه في كل حياة جديدة بدءاً من المستوى الذي حقَّقه في الحياة السابقة. إذن فهو في تقدُّم دائم نحو القمَّة، ولكنَّ سرعة التَّقدُّم تختلف من شخص لآخر. وفي البره الفاصلة بين حياة أرضيَّة وأخرى يقع الإنسان في حالة انحلال الجسد على أعلى المستويات العقليَّة، ويقيم في الديفاتشينا (وفق المصطلحات الهندوسيَّة)، أو في الجنَّة، وفق المصطلحات المسيحيَّة. وينبغي على الإنسان أنْ يعبر كثرة من التَّجسُّدات لكي يكشف عن مختلف جوانب الوعي، ويظهر على وجه أكمل القوَّة، والجمال، والعظمة الكامنة فيه. هكذا تعلَّم الأغني - يوغا.

والآن، وفق أيِّ تتابع تحدث عمليَّة التَّجسُّد؟ قبل الولادة الجديدة للإنسان على الأرض يهبط «جسده الباقي» الذي تخلَّص من الحياة السابقة نتيجة للموت، إلى المقام العقلي الأدنى، بعد أنْ كان يتكوَّن من مادة تنتمي إلى المقام العقلي الأسمى. ثمَّ يبدأ يبني هنا بمساعدة الكائنات العليا جسداً عقليَّاً (جسد الفكر)، محيطاً نفسه بمادة المقام العقلي. وبوساطة هذا الجسد العقلي سوف يبدأ هذا الإنسان المولود من جديد يفكِّر. وبعد أنْ يبنى الجسد العقلي يهبط مع الإنسان المعني إلى المقام الكوني. وهنا يُبنى جسد كوني بالطريقة عينها، من مادَّة المقام الكوني. وهذا هو جسد الرغبات نفسه. وبوساطة هذا الجسد سوف يعبِّر الإنسان المولود من جديد عن انفعالاته، وأهوائه، ورغباته. وبعد ذلك يبنى الصنو الأثيري. ويصنع هذا من مادَّة المقام الفيزيائي، وهو نسخة طبق الأصل عن الجسد الفيزيائي للإنسان الذي سيولد بعدئذ. وربَّما كان من الأصحِّ أنْ يدعى هذا الصنو بالنموذج الأصل، لأنَّه موجود قبل الإنسان الذي يجب أنْ يولد على صورته ومثاله. فالجسد الفيزيائي للمولود ثانية يكرر، يصوِّر الجسد الفيزيائي للصنو الأثيري. وبعد أطوار الخلق كلها هذه تأتي لحظة ميلاد الإنسان نفسه.

ومن المهمِّ جداً في هذا السياق، تحديد العائلة التي سيولد الإنسان فيها في حياته التالية. وإذا كان هذا قد بلغ في حياته السابقة درجة الوعي العليا، فيترك له حق اختيار العائلة التي سيولد فيها. أمَّا الذين لم يحقِّقوا سوى درجة أدنى من الوعي، والذين لا يؤمنون بالخلود،

ولا يعترفون بنزوح الروح، فإنَّ القوى العليا، أرباب الكارما هم الذين يقرِّرون أين يولدون. ولكنَّ قرار هؤلاء لا يمكن أنْ يكون تعسُّفياً. فوفق قرارهم يجب أنْ يولد الإنسان الذي لم يبلغ سوى درجة ضعيفة من التَّطوُّر، في شروط تتوافق توافقاً صارماً مع الأعمال التي أتاها في حياته السابقة. وهكذا فإنَّ قانون الأسباب والنتائج، قانون الكارما، هو الذي ينظِّم كل شيء.

فما هو دور الوالدين في هذه العمليَّة الطويلة لولادة الإنسان الجديد، ابنهما؟ لا شك أنَّه دور شديد الأهمِّيَّة، فهما اللذان يمنحان صغيرهما الجسد الفيزيائي، جسد الأفعال. ولا يأخذ الطفل عن والديه سوى السمات الفيزيائيَّة التي يتميَّز بها العرق والقوميَّة التي يلد الطفل فيهما. أمَّا ما تبقى فيحمله المولود من جديد إلى هذه الحياة معه. يحمل معه كل ما أتاه من أفعال في حيواته الكثيرة السابقة وما أستحقه عليها. إذن إنَّ سعى كل إنسان مولود في الأرض من جديد، سواء كان ولداً أو بنتاً، ليس إلاَّ نتيجة لما جمعه في حيواته السَّابقة. وخلال حياته الجديدة يجب على المتجسِّد من جديد أنْ يملأ كأسه حتى التَّمام، أي يجب أنْ تتواصل عمليَّة ارتقائه نحو الكمال ويصعد درجة أو عدة درجات نحو القمَّة. وحسب الثيوصوفيَّة التي تستند إليها تعاليم الأخلاق الحية، أنَّه ثمَّة أكثر من مستوى لتقدُّم البشر. وينتمي إلى المستوى الأعلى من هذه المستويات، كل مَنْ أنهى طريق تجسُّداته وحقَّق أسمى درجات الكمال. فهؤلاء لا حاجة لهم بعد الآن لأنْ يعيدوا كرَّات التَّجسُّد، لأنَّهم باتوا أشباه آلهة. والحقيقة أنَّهم يدعونهم باسم آخر: نصير، أو معلِّم الحكمة. ويجتمع هؤلاء كلهم في المقصورة البيضاء العظمى، ويقودون معاً ارتقاء الجنس البشري. وما يجب قوله، هو إنَّ هؤلاء ليسوا محرومين إمكانيَّة التَّجسُّد في حيوات أرضيَّة جديدة. ولكنْ إذا ما فعلوا ذلك إنَّما يفعلوه بملء إرادتهم، ولغرض وحيد، هو العمل على تسريع ارتقاء الجنس البشري.

ويقع النَّاس الذين وعوا ضرورة الكمال، ويصنعون مستقبلهم عن سابق قصد ومعرفة، على الدرجة القبل الأخيرة من سلَّم الكمال. فهؤلاء يسعون لتسريع عمليَّة ارتقائهم، ولذلك لا يصرفون بين حياتين أرضيَّتين وقتاً طويلاً في الغبطة، على مستويات الواقع السامية (مع أنَّهم استحقُّوا ذلك)، إنَّما ينغمسون مباشرة في حياة ثانية بعد انتهاء الأولى دون أنْ يضيعوا وقتاً. وتعاقب الحيوات لدى هؤلاء سريع إلى درجة أنَّهم لا يبدِّلون إهابهم الكوني والعقلي. ويدعى مثل هؤلاء المتطورون جداً، الساعون إلى تحقيق الكمال الذَّاتي: «الذين في الطريق». ويطوِّر كل منهم نفسه تحت إشراف معلِّم هو الذي يختار لتلميذه العائلة التي يجب أنْ يولد فيها، وشروط الحياة التي سيعيشها.

أمَّا الذين يتطوَّرون ويرتقون سلَّم الكمال بإيقاع أبطأ فهم يقعون على درجة أدنى من زملائهم السابقين. وقد يمتد الوقت عندهم بين تجسيد وآخر مئات، وربَّما آلاف السنين. فلا يتسنَّى لهؤلاء أنْ يتجسَّدوا سوى مرَّتين أو أكثر في كل عرق فرعي. ويبدو النَّاس في هذا كله إيجابيين جداً: إنَّهم يعملون على تحقيق أهداف عليا، ويمتلكون مثلاً سامية، ويدركون جوهر وحدة الحياة في الكون، كما يدركون وحدة الجنس البشري كله أيضاً.

ويقع على مستوى أدنى من التَّقدُّم أولئك الذين لا تتعدَّى اهتماماتهم حدود دولتهم، وقومهم، وعائلتهم. ولا يعرف مثل هؤلاء لا المخيلة ولا المبادرة. وتسير عمليَّة تجسُّداتهم ببطء شديد. فهم يتجسَّدون مرَّات كثيرة في كل عرق فرعي.

أمَّا المستوى الأدنى من التَّطوُّر، المستوى الخامس، فينتمي إليه أولئك الذين لم يحقِّقوا أيَّ تقدُّم. وهؤلاء هم الذين يعجزون عن ضبط أهوائهم الجامحة وترويض طبيعتهم الفظَّة. ولا يزال مستوى التَّطوُّر الذهني لهؤلاء في حالة جنينية. ولذلك فإنَّ حركة ارتقائهم بطيئة إلى الحدِّ الأقصى.

لقد نوَّهنا سابقاً إلى أنَّ كل إنسان يجب أنْ يمرَّ في حيواته الأرضيَّة الكثيرة في الحالات كلها. وعليه على وجه الخصوص أنْ يعيش حالة الرَّجل وحالة المرأة. وتؤكِّد الثيوصوفيا في هذا السياق، إنَّ الإنسان لا يبقى في الحقل نفسه أكثر من سبع حيوات. ولكنَّ هذا الأمد لا يمكن أنْ يكون أقلَّ من ثلاث حيوات متعاقبة. إذن في مئات التَّجسُّدات يولد الإنسان رجلاً عدَّة مرَّات على التَّوالي، ثمَّ مثلها تماماً امرأة.

كما شاع شيوعاً واسعاً التَّصوُّر الذي مؤدَّاه أنَّ الإنسان قد يتجسَّد في حيوان أو نبات. ولكنَّ مثل الزَّعم يتعارض مع التَّعاليم الحقيقيَّة لأغني - يوغا، التي تؤكِّد على أنَّ الإنسان لا يتجسَّد إلاَّ إنساناً. والحقيقة أنَّه حسب هذه التَّعاليم أنَّ الممالك الدُّنيا في الطَّبيعة (الحيوانات والنَّباتات) تتجسَّد كذلك. وهاكم المبدأ: «كل ما هو موجود فهو يعيش، وكل ما يعيش له جسم وروح، ولكنَّ كل جسد دائم الموت، وكل روح دائمة الولادة (تتجسَّد)». ويرون في هذا السياق أنَّه بينما للإنسان روح فرديَّة خاصَّة به تتطوَّر نحو الكمال محقِّقة بذلك صالح البشريَّة كلها، فإنَّ النَّباتات والحيوانات لها روح نوعها. ولذلك بعد أنْ يموت الجسد الفيزيائي للنَّبات أو الحيوان يعود هذا إلى روح نوعه. والغرض من ذلك، هو الاستزادة من الخبرة للحيوات الآتية.

لقد وصفنا هنا بالتَّفصيل أطوار عمليَّة التَّجسُّد نفسها قبل أنْ يولد الإنسان إلى حياة أرضيَّة جديدة. فكيف تحدث إذن العمليَّة المعاكسة: التَّخلُّص من الجسد؟ حسب تعاليم

الأغني - يوغا أنَّ العمليَّة تحدث على الوجه الآتي. عندما يقع ما ندعوه نحن موتاً، تغادر الروح الجسد الفيزيائي. ويخرج الصنو الأثيري منفصلاً عنه، وهذا الأخير هو القالب الأمُّ الذي صنع وفقه الجسد الفيزيائي. وثمَّة من النَّاس مَنْ هو قادر على رؤية الصنو الأثيري في الأيَّام الأولى التي تلي الدفن ويحسبونه روح المتوفى أو شبحه. ولكنَّ هذا في واقع الأمر ليس إلاَّ الظلّ المسالم للجسد الفيزيائي. ولا يلبث هذا الظل أنْ يتلاشى في الهواء دون أنْ يترك أثراً. وبعد ذلك يصل الإنسان إلى العالم الكوني غير المنظور. وإذ يكتسب الإنسان جسداً كونياً يحسُّ بنفسه في العالم الكوني إحساساً واقعيَّاً، تماماً كما كان يحسُّ بنفسه في العالم الفيزيائي عندما كان له جسد فيزيائي. ولكنْ خلافاً للعالم الفيزيائي لا يستطيع الإنسان في العالم الكوني أن يحقِّق رغباته (التي يحسُّ بها كما في العالم الفيزيائي)، لأنَّه لا يمتلك أداة تحقيق الرغبات: الجسد الفيزيائي. ومن الواضح طبعاً أنَّ الحديث يدور عن رغبات الطبيعة الفيزيائية. وليس الحرمان من تلبية الرغبات الفيزيائيَّة سوى جهنَّم نفسها، ولذلك من الأفضل أنْ تترك هذه الرغبات خارجاً عند الولوج إلى العالم الكوني. وهذا بمقدور المحتضر أنْ يفعله: عليه أنْ يركِّز تفكيره على الرغبات التي يمكن تحقيقها في عالم عقلي أكثر سموَّاً. والحقيقة أنَّ وجود الإنسان في العالم الكوني يعدُّ وجوداً عابراً، مؤقتاً، يمضي الإنسان بعده إلى العالم العقلي. فأمد وجود الإنسان في العالم الكوني مرتبط به نفسه (بمآثره)، وقد يكون وجوده فيه محروماً من تلبية رغباته الفيزيائيَّة، أسوأ من وجوده في جهنَّم نفسها؛ وقد يطول هذا أياماً، وسنين، ومئات السنين، وربَّما آلاف السنين. إنَّه فعل قانون السَّبب والنتيجة، قانون الثواب والعقاب: ينال الإنسان تلقائيَّاً لقاء ما فعل في الحيوات السابقة.

وعندما يرمي الإنسان عنه أخيراً الجسد الكوني، يهبط إلى أدنى مقامات العالم العقلي. ومرَّة أخرى يرتبط وضعه بمستوى تطوُّره الروحي. فالجسد الكوني لا يغادر الإنسان فوراً، ولا يتركه نهائيَّاً. فقد يتأخر بعض الوقت استجابة للانفعالات العاطفيَّة التي يعانيها أقارب المتوفَّى حزناً عليه. والمتوفَّى نفسه قد يساهم في تأخير رحيل الجسد الكوني بأسفه على مغادرة الحياة الدُّنيا. وغالباً ما يرى بعضهم في تجلِّي «القشور» المرمية، ظهوراً لروح المتوفَّى. و«يتحدَّثون» إليها في أحيان كثيرة خلال جلسات استحضار الأرواح. لكنَّهم في واقع الحال عاجزون عن قول أيِّ شيء عن العالم الآخر، وليس لديهم أي معلومات إلاَّ عن الحياة التي عاشها المعني على الأرض.

أمَّا روح الميت نفسها فإنَّها تكون في هذا الوقت بعيدة ولا تشارك في تسالي استحضار الأرواح. ومع الوقت تتناثر القشور التي يرميها المتوفَّى. كما يرمي عنه أيضاً القشرة التالية

التي تتألَّف من مادَّة المقام العقلي الأسمى، أي الجثَّة. وهنا أيضاً يكتسب جسداً، لكنَّ رمي هذا الأخير غير ممكن؛ ويدعى هذا الجسد بالجسد الدَّائم. وهو يبقى وعاء الجوهر الحقيقي للإنسان. ويمكن أنْ يدعى روحاً أو إدراكاً. وتدعوه تعاليم الأغني - يوغا بالمبدأ الخامس. ولكنَّ هذا الجسد الدَّائم: روح الإنسان، لا يُعدُّ نهائيَّاً غير قابل للتَّجزئة. ففي هذا الجسد الدَّائم تقيم روحنا، «أنانا» التي اكتست قشرة أخرى من المقام الأسمى. وهذه القشرة الجديدة هي وعينا. وإذا أراد الإنسان فإنَّه يستطيع في تطوُّره اللاحق أنْ يرمي هذه القشرة أيضاً: الجسد الدَّائم. وعندئذ لا يبقى سوى الوعي فقط.

ويطلق كل من القشور البشريَّة إشعاعات تشكل الآورا. وهذه الأخيرة عبارة عن ضرب من ضروب الملابس. وبقدر ما يكون التَّطوُّر الروحي للإنسان أعلى، بقدر ما تكون آوراه أكثر وأغنى من حيث تنوُّع الإشعاعات. وتعدُّ آورا الإنسان مؤشِّراً على تطوُّره الروحي.

وكما تتمايز العوالم الثَّلاثة: الفيزيائي، والكوني، والعقلي، كذلك تتمايز أنواع العقل الثَّلاثة: الأدنى (الغريزة)، والأوسط (البصيرة)، والعقل الأعلى (القدرة على نفاذ البصيرة). وهذه الأنواع الثَّلاثة متفاعل بعضها مع بعض وغالباً ما ينتقل واحدها إلى الآخر. ويمكننا القول، إنَّ العقل الغريزي، هو عقل الماضي (عقل الحيوانات، والمتوحشين)، وعقل البصيرة، هو عقل الحاضر، والعقل النَّافذ البصيرة، هو عقل المستقبل.

وثمَّة في معضلة نزوح الروح سؤال شديد الأهمِّيَّة، هو إذا كان الإنسان يعيش حيوات كثيرة ليحقق الكمال الذاتي، ويراكم التجربة، فلماذا إذن لا يتذكَّر شيئاً سوى أحداث حياة واحدة وحيدة؟ ويفسَّر هذا على الوجه الآتي: إنَّ أحد أعضاء الجسد الفيزيائي: الدماغ، هو حامل الوعي. وفي حالته الجديدة لا يستطيع هذا أنْ يعرف شيئاً عن الحيوات السابقة. ولكنَّ معلومات الحيوات السابقة لا تندثر مع موت الجسم الفيزيائي والدماغ في كل مرَّة. بل تبقى مقيمة في الجسد الدائم. وقد جاء في التَّعاليم أنَّ هذه المعلومات موجودة خلال حياة الإنسان في الجسم الفيزيائي، داخل «كأس» تقع قرب قلبه. بيد أنَّها لا تصل من هناك إلى الدماغ. وهكذا يسقط التناقض، إذ بما أنَّ «الجسد الدائم» للإنسان يحفظ معلومات حيواته السابقة كلها حتى اللَّحظة التي يبلغ الإنسان فيها الكمال المطلق، ويرميه. ولكنَّ هذه المعلومات لن يكون لها وقتئذٍ أيَّ لزوم للإنسان، ويثير الاهتمام في هذا السياق وصف طريقة نقل المعلومات عبر القشور كلها إلى الجسد الدائم. «في أثناء حياتنا في الجسد الفيزيائي تتوجَّه كل انطباعات الحياة الخارجيَّة التي نتلقَّاها بوساطة أجهزة إدراكنا عبر العامل الفيزيائي للوعي: الدماغ، تتوجّه في صيغة استجواب إلى سيد القشور كلها: أنانا. فيسجل

حامل وعي الجسد الكوني، جسد الأحاسيس والانفعالات، ما تلقاه الجسد الفيزيائي سواء كان ساراً أم غير سار، ويرسله إلى الأبعد، إلى الجسد العقلي. وبعد أنْ يسجل حامل وعي الجسد العقلي شعور الجسد الكوني، يرسله إلى الجسد الدائم. وهنا في هذا الأخير يولد القرار الذي يُنقل عائداً إلى الوعي الفيزيائي بصيغة إجابة على السؤال المعطى، لكي يتحدَّد على هديها اعتماد هذا الفعل أو ذاك. وتتواصل هذه المراسلات من الوعي الفيزيائي إلى الجسد الدائم وبالعكس، خلال حياة الإنسان دون توقف، طالما يؤدي الوعي وظائفه لديه».

ونشير في سياق حديثنا هذا إلى أنَّ «أغني - يوغا» تقول، إنَّ الأطفال يتذكرون في أعوامهم الأولى كثيراً من أحداث حيواتهم السابقة: «يمكننا أنْ نلاحظ لدى الأطفال نظرات غريبة سريعة، إنَّهم بالتأكيد يرون شيئاً ما مبهماً. وعلى أيّ حال فهم يقولون شيئاً ما عن حريق وعن نجوم، وعن أضواء. وغنيٌّ عن البيان أنَّ المربيات يرون في هذا مرضاً أو هراء، ولكنَّ الانتباه يجب أنْ يتركَّز على هؤلاء الأطفال بالذَّات، ومن المعروف أنَّ الأطفال الصغار السِّنِّ يستطيعون رؤية الصور الكونيَّة بسهولة ويسر؛ زد إلى هذا أنَّ المرهفين منهم على وجه الخصوص يرون الأنوار الفضائيَّة. ومن الأجدر مراقبة مثل هذه الكائنات الحيَّة عن كثب منذ الأيَّام الأولى، وكونوا على ثقة أنَّه وضعت فيهم إمكانات الأغني - يوغا، وإذا ما هيَّأت لهم بيئة نقيَّة، فإنَّهم سيقدِّمون مثالاً للإمكانات».

قانون الكارما

لقد كان الإنسان يشعر دوماً بالحاجة إلى العدالة. ولذلك بجّل الناس في الغرب الإلهة نمسيس، وبجلوا في الشرق كارما. وتعد كارما - نمسيس مرادفاً للعناية الإلهية. وكانت ي. بلافاتسكايا قد كتبت تقول: «ليس لنمسيس أي صفات؛ فهذه الإلهة مطلقة، قاطعة، ومبرمة، إنها كالمبدأ، لكننا نحن أفراداً وأُمماً نطبّقه ونعطيه الدفعات التي توجهه. فكارما - نمسيس هي التي خلقت الشُّعُوب والبشر، ولكن بما أن هؤلاء قد خلقوا وانتهى الأمر، فإنهم هم الذين يصنعون منها إلهة متسلّطة، أو ملاكاً يكافئ».

وكما أنه ليس للإله صفات شخصية (إنه قانون)، كذلك كارما - نمسيس لا صفات لها. وفاعلية المبدأ، قانون الأسباب والنتائج، هي فاعلية قطعية ومبرمة لا رادّ لها. «ليس حكيماً من يظن أن بإمكانه أن يسترضي الإلهة بالقرابين والصلوات، أو من يعتقد أن عجلتها يمكن أن تحيد قيد شعرة عن الطريق التي اختطتها... فلا رجعة عن الطرق التي تجري عليها، ولكننا نحن الذين ننسج هذه الدروب، لأننا بأنفسنا أفراداً وجماعات نحددها... إن كارما - نمسيس تحرس الصالحين وترعاهم في هذه الحياة والحيوات المقبلة؛ وتعاقب الأشرار حتى قبل تجسّدهم السابع: في الحقيقة إلى أن يكفّروا تماماً عن الآثام التي ارتكبوها كلها. لأن مطلب كارما الوحيد الأبدي الذي لا يتبدّل، هو الانسجام المطلق في عالم المادة، مثلما هو موجود في عالم الروح. وعليه ليست الكارما هي التي تعاقب وتكافئ، بل نحن أنفسنا نثيب أنفسنا أو نعاقبها، فالأمر كله مرتبط بما إذا كنا نعمل مع الطبيعة، وفي الطبيعة، وبوساطة الطبيعة، خاضعين للقوانين التي يرتبط بها هذا الانسجام، أم أننا ننتهكها».

ومراعاة الإنسان لقوانين الانسجام، قوانين الطبيعة والكون، تماثل إقامة علاقات أخوية مع الناس الآخرين («أحبب قريبك كنفسك»). «لو لم يفكر الإنسان بأن يتسبب بالأذى لأخيه الإنسان، لما كان لكارما - نمسيس ذريعة لكي تظهر، ولا سلاح تستخدمه. فالوجود الدائم بيننا لمختلف عناصر الصراع، والمواجهة، وانقسام الشُّعُوب، والقبائل، والمجتمعات، والأفراد إلى قايين وهابيل، إلى ذئاب وحملان، هو السبب الرئيس «لطرقات العناية الإلهية»...

إننا نقف بذهول أمام خفايا أعمالنا، وألغاز الحياة التي لا نرغب في حلّها... ولكن حقاً ليس هناك حدث واحد في حيواتنا، ولا يوم تاعس واحد، أو رزيّة، إلاّ ويمكن تتبعها رجوعاً وردّها إلى تصرّفاتنا نحن في هذه الحياة أو الحيوات الأخرى. وإذا ما انتهك أحد قوانين الانسجام، أو «قوانين الحياة»، فإن عليه أن يكون مستعداً ليغرق في الفوضى التي صنعها بنفسه... فالإنسان هو منقذ نفسه، وهو مدمّر نفسه» (ي. بلافاتسكايا).

إذا كنا نعرف القانون جيّداً، ونفهمه جيّداً، فإننا نستطيع أن نتلاءم معه، أي أن لا ننتهكه. أما إذا كنا عاجزين عن فهم القانون، فإننا سنرى في كل ما يحدث سلسلة من الأحداث الطارئة التي تتوافق توافقاً ضعيفاً مع مبادئ العدالة والمجازاة.

وإذا ما تحدّثنا عن العدالة على المستوى الكوني، فإن فاعلية قانون الكارما هي التي تحققها.

أمّا التعاليم الجديدة فإنها تدعو إلى أن تستبدل بالندم والتوبة عن الأفعال السيئة تأدية أعمال خيّرة عن كل فعل سيّئ. وقد قيل عن هذا ما يلي: «أمّا من أدرك حماقته، فإن عليه أن يغطيها بعقلانية حقيقية. ويمكن استنفاذ الحماقة بالتعاون العقلاني». والحقيقة أن كلمة «كارما» نفسها تعني باللغة السنسكريتية: «يؤدي عملاً». ولا تلحق الفلسفة الشرقية بمفهوم الكارما نتائج عملنا فقط، إنما العمل نفسه كذلك. ولذلك فإنه يمكن القول، إننا نخلق كارمانا بصورة متواصلة، لأننا لا نكفّ لحظة واحدة عن فعل شيء ما.

فارتقاء الإنسان يجري وفق قوانين محددة. وأهمّها قانون نزوح الروح، وقانون الكارما. وينبغي معرفة هذين القانونين معرفة دقيقة: «أليس من الأفضل أن تجعل ارتقاءك واعياً، بدل أن تتقدّم إلى الأمام تحت ضربات سوط الكارما».

وليس الارتقاء هو أيّ تطوّر يأتيه الإنسان، إنه فقط ذلك التطوّر الذي يجري نحو الأفضل، نحو بلوغ الكمال، نحو تحقيق الانسجام مع العالم المحيط كله. أمّا الحركة نحو الأسفل وانتهاك الانسجام، وانتهاك القوانين الكونية، فهي ليست سوى حركة تقهقر. وتدرس التعاليم الجديدة مغزى الارتقاء في سياق صراع المادي والروحي داخل الإنسان. ويرون أن الغاية من الارتقاء هي التمكّن منه وروحنته. وبكلمات أخرى، إن الغاية من الارتقاء، هي تحويل المادّة من حالتها الدنيا إلى حالة سامية. ويقوم الصراع بين المادّي والروحي في الإنسان، في سعي المادة الخاملة المشوّشة المختلّة، لابتلاع الحالة السامية للمادة وتدميرها، أي تدمير ما حققته الروح تحديداً. وقد ألقت القوى العليا على عاتق الإنسان إنجاز مهمة تحويل المادة وروحنتها.

وتقوم علاقة التناسب بين المادة (الفيزيائي) والروح في الحياة البشرية في الآتي. تخرج «أنا» الإنسان من مصدر الحياة الأوّل وهي تتوفّر على حالة روحية عالية. بيد أنها لا تتوفر على أيّ وعي. فلا يمكن للوعي أن يتطوّر إلاّ في المادة. وتغرق «أنا» الإنسان في المادة باثّة الروح فيها بوساطة وعيها. ولكنّ تطوُّر الوعي في الإنسان غير ممكن إلاّ على قاعدة ماديَّة، ولذلك سوف يترافق بالضرورة بخسوف الحالة الرُّوحيَّة. وهكذا يقف الإنسان في حياته أمام مشكلة غير سهلة: عليه أن يبثّ بوعيه الروح في المادَّة، وأنْ يفعل ما في وسعه ليرتقي بحالته الرُّوحيَّة. وعندما يرجع في آخر حياته إلى المصدر البدئي عليه أنْ يكون حاملاً معه حالة روحية ووعياً. ينبغي عليه أنْ يعود من حيث أتى. فخطُّ مسيره مغلق يشكل دائرة. ويقال إنَّ الإنسان يحقّق دورة كاملة.

وإذا فصَّلنا في عملية روحنة المادة هذه، والجهد الذي يبذله الإنسان لإنتاج الوعي والروح، فإنَّ المخطط (الهندسي) يبدو على الصورة الآتية: لنرسم دائرة (هي دورة حياة الإنسان كاملة)، ثم نقسمها بمستقيمين عمودي وأفقي إلى أربعة أقسام متساوية. أوَّل ربع من طريقه، من دورة حياته الكاملة، يُدخل الإنسان أعمق فأعمق في قلب المادَّة. إنَّها مرحلة الطفولة والمراهقة. وفي هذا الطَّور لا وجود للكارما، لأنَّ الإنسان يتصرَّف بغير وعي (أو تقريباً بغير وعي)، ولذلك لا يمكن في الحساب العام أنْ يكون مسؤولاً عن تصرُّفاته. ولا تبدأ الكارما إلاّ منذ اللّحظة التي تتوازن فيها في الإنسان، الروح والمادة. إنَّها لحظة التَّحوُّل من الربع الأوَّل إلى الربع الثَّاني، من «الطفولة الرعناء» إلى الحياة الواعية. وعندما نعبر نصف الدَّائرة، نصل إلى النقطة التي لا وجود للكارما بعدها (كما هي الحال في الطفولة). وعدم وجود الكارما هنا سببه أنَّ الإنسان يكون قد بلغ خلال ما مضى من حياته مستوى من التَّطوُّر الروحي يؤهِّله لأنْ يحجم عن سابق وعي عن التَّصرُّفات التي يمكن أن تخلق كارما سلبيَّة سيِّئة. وثمَّة حضور واسع في الديانات والفلسفات الشَّرقيَّة لصورة الكارما الموصوفة هنا. وغالباً ما يقارنونها بالدوران الدوري للأرض حول الشَّمس. وفي مثل هذه المقارنة تتماثل لحظتا الانقلاب الشتوي والصيفي مع بداية طريق الإنسان ومنتصفها. كما يتماثل المستقيم الذي يصل بين هاتين النقطتين مع مستقيم الدورة الكاملة الذي يفصل بين مقطع حياة الإنسان الذي يحدث خلاله الارتقاء، ومقطعها الذي يتوقف الارتقاء فيه. ويستخدم مثل هذا التَّصوُّر (في صورة دوائر). لتحليل ارتقاء البشرية كلها. وفيما يتعلّق بالبشريَّة كلها فإنَّها تنهي الآن الربع الأوَّل من دورة حياتها الكاملة، أي إنَّها بدأت للتّوِّ حركة ارتقائها. وحسب المخطط العام يجب عليها أنْ تبدأ الآن روحنة المادَّة، عبر تطوير وعيها إلى الأمام.

أمَّا تقدُّم الإنسان على الكوكب، فإنَّ المعلِّم يصفه في «كأس الشَّرق» (الرسالة ١٧)، على الوجه الآتي: «وهكذا لدينا:

الحلقة الأولى. الكائن الأثيري، كائن بغير عقل لكنَّه على درجة عالية من الروحانيَّة. وفي كل عرق، أو عرق فرعي، أو عريق من أعراق الارتقاء التَّالية، يتطوَّر الإنسان العتيد محبوساً أكثر فأكثر في الجسد، أو في كائن متجسِّد؛ لكنَّ الحالة الأثيريَّة تبقى هي الغالبة. ومثله مثل الحيوان والنَّبات فإنَّه ينمِّي جسداً وحشياً يتوافق وبدائيَّة المحيط كله.

الحلقة الثانية. يبقى الإنسان أثيريًّاً وبأحجام عملاقة، لكنَّه يزداد تكثيفاً في الجسد، أي يغدو إنساناً أكثر فيزيائيَّة، إلاَّ أنَّه أقلَّ عقلانيَّة منه روحانيَّة؛ لأنَّ ارتقاء العقل عمليَّة أكثر بطئاً وصعوبة من ارتقاء البنية الفيزيائيَّة، فلا يمكن للعقل أنْ يرتقي بالسُّرعة التي يرتقي فيها الجسد.

الحلقة الثَّالثة. للإنسان الآن جسد محدَّد تماماً أو مكثَّف؛ في الأوَّل في صورة قرد عملاق، أكثر عقلانية (أو الأصحّ أكثر فطنة)، منه روحانيَّة. لأنه بلغ على المنحنى المنحدر النقطة التي انخسفت فيها روحانيَّته خلف منطقته الناشئة. وفي النصف الأخير من هذه الحلقة يتناقص جسده العملاق، وتتحسَّن أنسجته؛ ويغدو الإنسان نفسه كائناً أكثر تعقُّلاً، مع أنَّه لا يزال قرداً أكثر منه إنساناً.

الحلقة الرَّابعة. يحقِّق العقل في هذه الحلقة تقدُّماً كبيراً جداً. وتكتسب الأجناس البكماء كلامنا البشري، وابتداء من العرق الرابع يطرأ تحسُّن على اللغة وتتضاعف معرفة الظاهرات الفيزيائيَّة».

لقد بدأ الإنسان ينشئ الكارما منذ اللحظة التي رجح فيها الميزان لصالح المادَّة على الروح. ففي هذا الوقت كان الإنسان قد فقد نهائيًّاً مؤهلاته العليا. وفي هذا الوقت عينه وقع انفصال العنصر الذكري والأنثوي. ونتيجة لذلك تحوَّل الإنسان من جوهر موحَّد إلى روح ثنائيَّة. وكان هذا كله قد وقع في منتصف العرق الثَّالث من دورتنا هذه.

ونحن يجب علينا أنْ ننظر بالتَّفصيل في مسألة تنصيف الإنسان. فقبل أنْ تنقسم ماهيَّته كان الإنسان يمتلك العنصرين، الإيجابي والسلبي معاً (الذكري والأنثوي). وقد أطلقت المصطلحات الغيبيَّة على هذا الكائن اسم: أندروجينوس. وتميَّز هذا بكمال تنظيمه الروحي، ووحدة جوهره الدَّاخلي. ولم يعرف أيّ شيء عن المساعي الأزليَّة الجامحة. ففي رسالتها المؤرَّخة في ٥ أيَّار من العام ١٩٣٤م. كتبت يلينا ريريخ تقول: «إنَّ للتعاليم عن الأرواح الثنائيَّة أساس، وكأنَّها تضع حدَّاً لرمز الأندروجينوس. فرموز الأندروجينوس تهدف كلها إلى التنويه بضرورة

وجود العنصرين في النظام الكوني، في تجليّاته كلها، من أجل الحياة والتّوازن، ولكنَّ كل الخرافات التي تتحدَّث عن القرابة بين الأرواح، قائمة على حقيقة عظمى، لأنَّ وحدة العنصرين واندغامهما أُرسيا في القانون البدئي... ومع التمايز يقع انفصال العنصرين، وينطلق هذان في مجالات متباعدة؛ ويجب على المغناطيس المرسى في العنصرين أنْ يوحِّدهما من جديد على امتداد أيونات الصيرورات وتحوُّلات التطهير. وهذه هي الخاتمة العظمى أو تاج النظام الكوني».

إنَّ ما تدعوه التعاليم الجديدة انفصال العنصرين (الذكري والأنثوي)، موجود في التعاليم الدينية الأخرى، لكنَّ له فيها وصفاً آخر. فقد جاء في التوراة: «لقد أنزل الرَّبُّ على آدم مناماً قصيراً، ولمَّا نام أخذ الرَّبُّ ضلعاً من أضلاع آدم وخلق حوَّاء منه». وجاء عن هذا في التلمود: «كان الرَّجل والمرأة في البدء جسداً واحداً ووجهين، عندئذ شطر الرَّبُّ جسدهما إلى اثنين ومنح كلاًّ منهما عموداً فقرياً».

ومنذ لحظة ظهور العنصرين المنفصلين، الذكري والأنثوي، أخذت تنشأ الكارما البشرية. ومنذئذٍ أخذت المادة تتفوَّق في الجوهر البشري على الروح، وفقد الإنسان نهائيَّاً مؤهّلاته الرُّوحيَّة العليا. وننوِّه في السياق إلى أنَّ الخطيئة الأصليَّة التي ارتكبها آدم وحوَّاء وقعت في هذه اللحظة من تاريخ الجنس البشري؛ ووقتئذٍ طرد الإنسان من الجنَّة.

وحسب التَّعاليم الجديدة أنَّ الإنسان خسر كثيراً جداً من جرَّاء الانفصال إلى عنصرين، ذكري ونثوي. لقد فقد وحدته، وقدرته الجبَّارة على المقاومة، وقابليَّته للحياة، التي كان يملكها من قبل؛ وغدا غير متوازن، وغير ثابت، وغير راضٍ. وأخذ وعيه لقصوره يمضه. هذا كله دفع الإنسان إلى الاتحاد مع عنصره المفقود.

فبعد انفصال العنصرين تبدَّل الإنسان نحو الأسوأ، إذ وجَّه نشاطه كله لتلبية حاجات طبيعته الجديدة، وإرضاء رغباته وأهوائه المستجدَّة. فظهرت فيه رغبة الاستيلاء والتَّملُّك. لقد نمت الأنانية في الإنسان بالمعيار الكامل، وعرف الشَّرَّ بتمامه. ومنذ اللحظة التي أدرك الإنسان فيها الشَّرَّ، بدأ ينتج كارماه. وسوف يتواصل إنشاء الإنسان للكارما إلى أنْ يعي أنَّ هذا كله ليس سوى سراب لن يناله منه إلا الآلام والخيبات؛ وإنَّ العدو خلف هذا السَّراب هو مصدر الكارما السَّيِّئة السلبيَّة. فالسَّعي نحو العنصر المعاكس يجب أنْ يتراجع أمام السعي نحو تحقيق الكمال الذَّاتي.

بانتهاء الدورة الكاملة يعبر الإنسان والبشرية كلها عصوراً من الارتقاء وأخرى من التَّداعي. وتتعاقب من خلال ذلك أطوار الصعود والانحدار. وذلكم هو المغزى الفلسفي

لكل ما يجري في هذا العالم: فلكي تتوحَّد يجب أنْ تنفصل، ولكي تجد يجب أنْ تفقد، ولكي تبلغ الكمال يجب أنْ تعي النَّقص. ففي أطوار التَّداعي ينفصل الإنسان عن مصدر الحياة الأوَّل، عن المطلق. وفي أطوار الارتقاء يقترب منه. وعبر هذه وتلك من الأطوار يعبر الإنسان في حيواته الكثيرة طريقاً طويلة تمتدُّ بين شبه الحيوان في بدايتها، وشبه الإله في نهايتها.

ويتكوَّن الإنسان من ثلاثة عناصر: حيواني، وبشري، وإلهي - بشري. يوافقها الجسد، والنَّفس، والروح. ويمكننا تبعاً لهذا أنْ نميِّز ثلاثة عصور مديدة في حياة الجنس البشري يمتدُّ كل منها ملايين السِّنين.

العصر الأوَّل، هي طريق الإنسان البدائي بصفاته كلها، وغلبة الحالة الحيوانيَّة في بداياتها، وتباشير الوعي الإنساني في آخرها.

العصر الثَّاني، وهي الطَّريق البشريَّة، إذ يتنامى في الإنسان الإدراك والعقل، والنَّفس. ونحن نعبر الآن نهاية هذا العصر. أمَّا العصر الثَّالث، عصر الإلهي - البشري، فلا يزال في المجهول. ولا يبدأ بالنِّسبة للإنسان قبل أنْ يقرَّ هذا الأخير بمنشئه الإلهي. وعندئذٍ يضع الإنسان نصب عينيه غاية: بلوغ الحالة الإلهيَّة. لكنَّ تحقيق هذه الغاية يقتضي منه بلوغ أعلى مستويات الوعي، وأسمى مستويات الروحانية.

لقد نوَّهنا سابقاً إلى أنَّ عجلة تقدُّم البشرية تسير بفضل القوانين الكونيَّة، والقانون الرئيس بينها، هو قانون نزوح الروح، ثم قانون الكارما (قانون الأسباب والنتائج). ويحقِّق هذين القانونين إخوة البشرية. فهذه الكائنات السامية هي التي تحمل عبء العناية بكل منَّا. وهي التي تحدِّد لنا زمن التَّجسُّد في حياة جديدة وشروطه، وهي التي توقظ وعينا، وتعلِّمنا أنْ نميِّز بين الخير والشَّرِّ.

وما ينبغي أنْ نأخذه بالحسبان، هو أنَّه ثمَّة عدَّة أنواع للكارما: الكارما الفرديَّة، والكارما الجماعيَّة، والكارما الشَّعبيَّة، وسوى ذلك من أنواعها. لكنَّها تنشأ كلها في عمليَّة تفاعل مديدة تجري بين جماعات بشريَّة أعدادها متباينة. وهاكم بيان ذلك في هذا المقطع من «أغني - يوغا»: «لم يحدث ألاَّ تهجع الأورا القديمة التي للتَّجسُّدات السابقة. لا سيما عندما تصحب الكارما أتباعاً غير محبَّذين. ولكنْ عندما ينتهي كل لقاء، تحلُّ لحظة من الارتياح، تماماً كإعادة ما للغير. وما لا يقلُّ عن نصف اللِّقاءات الزمنيَّة يصدر عن التَّجسُّدات السَّابقة. ونحن يمكننا أنْ نتخيَّل كيف تتلاصق الحلقات الصَّغيرة تحت ضغط التوتر الكهربائي العالي.

وينشئ تطبيق الكارما بصورة واسعة مركّبات معقّدة، كأنّها قرابة ثنائيّة وثلاثيّة. ولكنْ خير لك أنْ تكون ممّن يدفعون لا ممّن يتلقّون، لأنَّ كل دفع ينهي الماضي، بينما التّلقّي يمكن أنْ يعيد الارتباط من جديد».

إنَّ الإنسان هو مَنْ يصنع كارماه لأنّه يملك حرية الإرادة وحقَّ الاختيار. والحقيقة إنَّ الإنسان دائماً أمام خيار بين «الأنا» الأعلى وطبيعته الدُّنيا. ومثل الإنسان في هذا مثل المؤشِّر المغناطيسي يتراوح بين القطبين. وفي غضون ذلك تتجمَّع أفعاله، وتصرُّفاته، وحتى أفكاره كلها وتنشئ في العوالم ذات الصِّلة نتائج متكافئة. وهذه هي بالضَّبط عمليَّة إنشاء الكارما التي تحدِّد حياة الإنسان المقبلة.

ولكي يستطيع الإنسان أنْ يختار طريقه بصواب، ويبني تصرُّفاته بما يتوافق والقوانين الكونيَّة، يجب عليه أوَّلاً أنْ يعرف هذه القوانين. فالنَّقص في المعرفة والفيض في الشَّك، هما سبب كثير من الأخطاء التي يرتكبها الإنسان، وهذه الأخيرة هي التي تستدعي بناء كارما سيِّئة. ويصنع الإنسان الكارما في ثلاثة عوالم في الآن عينه: في العالم الفيزيائي، والكوني، والعقلي، أي بتصرُّفاته، ورغباته، وأفكاره. ويجب أنْ يقود هذا الواقع إلى أفكار محزنة، ولكنَّ «التراتبيَّة» تقول: «والحقيقة أنَّ الكارما ليست مخيفة إلاَّ لمن يغرق في البطالة، ولكنَّ الفكر المندفع الساعي، يتحرَّر من عبء الماضي، وكالجسد السَّماوي، يندفع، لكنَّه لا يكرِّر طريقه. وهكذا حتى إذا كنت تحمل كارما ثقيلة، فقد تظهر انعتاقاً مفيداً». وورد هناك أيضاً: «في كل حياة يستطيع الإنسان أنْ يطفئ ذلك الجزء من الكارما القديمة، الذي يدركه في تجسُّده المعني، ومن البدهي أنّه يبدأ في اللَّحظة عينها كارما جديدة، ولكنْ مع وعي رحب وتفكير نقي يمكنه أنْ يتجاوز الكارما التي راكمها بصورة أسرع، وسوف تكون الكارما الجديدة التي يصنعها ذات نوعية أسمى. زد إلى هذا أنَّ الكارما القديمة لن تشكل مصدر خوف بالنِّسبة إليه، لأنَّ التفكير النَّقي، والآورا النقية يرتكسان للضَّربات العكسيَّة بطريقة مغايرة تماماً. وبشكل رئيس يمكن للإنسان أنْ يخرج من حلقة الكارما التي بدت كأنَّها مسحورة، لكنَّ المقصود هنا طبعاً الكارما الأرضيَّة التي تقيِّده إلى الأرض، لأنَّ الكارما لا يمكن أنْ تتوقف طالما يوجد الوعي، والفكر. إنَّ الكارما التي تسير مع القوانين الكونيَّة سوف تتسامى في كيفيَّتها إلى ما لا نهاية، منخرطة في حلقات جديدة خارجة منها، وهكذا دواليك».

ويستفاد ممَّا قيل إنَّ الإنسان قادر على تجاوز كارماه إذا ما سعى بقوَّة لبلوغ الكمال الروحي، وتطوير قواه الرُّوحيَّة، وتوجيه هذه القوى كلها لخير القريب، ولفائدة الارتقاء. ولا

يخدم الإنسان في أثناء ذلك كارماه السَّيِّئة وحسب، بل يحرِّر البشريَّة كلها من نتائج كارما سيِّئة.

وما الذي يحدث للكارما عند انتقال الإنسان من العالم الفيزيائي إلى العالم الكوني؟ في هذه الحال تتوقَّف كارما الأفعال، لأنَّها مرتبطة بالعالم الفيزيائي. وتبقى كارما الرغبات المرتبطة بالعالم الكوني، وكارما الأفكار المرتبطة بالعالم العقلي. وثمَّة مستويات شتَّى للعالم الكوني. وبقدر ما يكون المستوى أعلى بقدر ما يكون أقرب إلى المطلق! ولكنْ إلى أيِّ مستوى يصل الإنسان المعني، فإنَّ الأمر متعلِّق بدرجة تطوُّره الروحي. فمن كان في حياته ينفي نفياً تامَّاً وجود العوالم غير المرئيَّة، فإنَّه محكوم عليه أنْ يعمه في ظلمات العالم الكوني. وفي الحال عينها يتجسَّد في الحياة الجديدة. وهو لا يستطيع أنْ يغيِّر وعيه، ويرفع من مستوى تطوُّره الروحي، إلاَّ في الحياة الأرضيَّة، ويتعارض هذا تماماً مع التَّصوُّر الشَّائع جداً، الذي يزعم أنَّ الإنسان عندما يصل إلى العالم الآخر يُكشف له كل شيء، ويرى ويعرف كل شيء. فهناك فقط يستطيع أنْ يعرف ما الذي سعى إليه في حياته الزمنيَّة.

ونحن قلنا سابقاً، إنَّ قوى النُّور، القوى السامية هي التي توجِّه عمليَّة الارتقاء. بيد أنَّها لا تتدخَّل قط في كارما الإنسان. ولكنَّها غالباً ما تأخذ على عاتقها كارما الأخطاء البشريَّة، ضلال البشر وجرائمهم. وبهذه الطريقة تعتق القوى السامية الجنس البشري من الكارما السَّيِّئة. وحسب التَّعاليم أنَّ المسيح كان واحداً من هؤلاء الذين كفَّروا عن آثام البشر. فمن وقت لآخر يظهر مثل هؤلاء المخلِّصين في عالمنا ويدفعون ارتقاء البشريَّة إلى الأمام.

وتقول «أغني - يوغا» عن المخلِّصين: «للتَّعاليم عن المخلِّصين ملحقات في الوجود كله. حقاً، كما يمكن أنْ تؤثِّر وتتقرَّب عبر الأيقونات، يمكن أنْ تأخذ كارما الآخرين على عاتقك عبر الوعي. لاحظوا كيف أمكن في ظلِّ الخبرات الضَّعيفة تحمُّل ألم الآخرين، إذ تعلَّق الأمر بميدان الأعصاب. وهكذا تماماً يمكن أنْ تأخذ على عاتقك كارما الآخرين. ويمكن في آخر الأمر تحمُّل كارما الجماعة: بهذا لن تكون تسمية مخلِّص مجرَّد معتقد خرافي. فكل ما في الأمر أنَّه يجب وعي أهمِّيَّة قبول تحمُّل وزر الآخر».

وتشير التَّعاليم إلى ثلاثة ظروف قادرة على أنْ تثقل الكارما كثيراً. وهي: العزوف عن المعلِّم، والارتياب في أنَّ الصلة مع التراتبية يمكن أنْ تسبب الأذى، والتَّهرُّب من تكليف ذي شأن.

ويؤلِّف الذين حقَّقوا حالة أشباه الآلهة تراتبيَّة معيَّنة. ولذلك يدعى كل منهم حبر (ايراش)، وهو واحد ممن يوجهون ارتقاء البشريَّة.

وتتنبَّأ تعاليم أغني - يوغا بحلول عصر جديد للنَّار سوف يحوِّل الأرض ويطهِّرها من النفايات الكونيَّة. وينذر بحلول هذا التَّغيُّر انهيار الشُّعُوب وانحلالها اللذان يسبقان لحظة التَّغيُّر مباشرة، وهو ما كان قد تنبَّأ به الكتاب الهندوسي المقدَّس «فيشنو بورانا»: «سوف يكون الملوك المعاصرون الذين يحكمون في الأرض، ملوك الروح الجلف، والأخلاق الفظَّة، منغمسين في الكذب والشَّرِّ. وسوف يقتلون النِّساء والأطفال والبقر؛ ويستولون على أملاك رعاياهم؛ وستكون سلطتهم مقيَّدة، وحياتهم قصيرة، وتلبية رغباتهم بغير جدوى. وإذ يتخالط معهم الناس من مختلف البلدان، فإنَّهم يحذون حذوهم... وسوف تتناقص الثروات وأعمال البرِّ يوماً بعد يوم، إلى أنْ يغرق العالم كله في الفساد... الثروة وحدها ستحدِّد المكانة؛ والثروة وحدها سوف تكون مصدر الاحترام والوفاء؛ وستكون الأهواء الوسيلة الوحيدة للنَّجاح في الدعاوى القضائيَّة؛ ولن تكون النِّساء سوى موضوع لتلبية الرَّغبة الجنسيَّة... وسيكون المظهر الخارجي هو الفارق الوحيد بين مختلف مستويات الحياة؛ وسيتحوَّل الغشُّ إلى وسيلة عامَّة للعيش؛ ويصير الضَّعف ذريعة للتبعيَّة؛ ويحلُّ التَّهديد والتَّصلُّب في الرأي محلَّ المعرفة؛ ويدعى الكرم إحساناً؛ ويُعدُّ الثَّري طاهراً؛ ويحلُّ التَّوافق الثُّنائي محلَّ الزَّواج... هكذا سوف يجري في الكالي - يوغا الانحلال بدأب إلى أنْ يقترب الجنس البشري من لحظة دماره. وعندما تغدو لحظة نهاية الكالي - يوغا قريبة جداً، ينزل إلى الأرض جزء ذلك الكائن الإلهي الموجود بقوَّة طبيعته الرُّوحيَّة الذَّاتيَّة... الموهوب ثمانية مؤهِّلات خارقة. فيعيد العدالة إلى الأرض، وتصحو عقول الذين يكونون على قيد الحياة في آخر الكالي - يوغا، وتغدو نقيَّة شفَّافة كالكريستال».

وحسب التَّعاليم أنَّ الإنسان لا يصنع كارما حسنة عندما لا يأتي فعلاً سيِّئاً، بل عندما يفعل الخير لصالح الآخرين. فليس مهمَّاً ما فعلناه، إنَّما المهمُّ الدَّوافع، والبواعث والأفكار التي وقفت وراء فعلنا. إنَّ المساعدة التي نقدِّمها للآخر بغرض الثناء والحمد، لا تصنع كارما حسنة. وكانت «البهاغافاد-جيتا» قد قالت عن هذا: «كل تصرُّف تتصرَّفه من أجل نفسك، يرتد تأثيره إليك نفسك. وإذا كان هذا تصرُّفاً حسناً، فنتائجه حسنة لك، وإذا كان سيِّئاً فإنَّك ستحصل على نتائج رديئة، لكنَّ أيَّ فعل تفعله لا من أجل نفسك بل من أجل الآخر، فمهما كانت نتائجه لن يرتد تأثيرها إليك». وإذا ما ساعد الإنسان قريبه، فإنَّه بذلك ساعد نفسه.

قدِّم العون إلى حيث تصل يدك؛ إلى حيث يحلِّق فكرك. فهكذا ندقُّ أبواب المستقبل. هكذا ندرك أنَّ كل ساعة سلبت منك سوف تمضي إلى المستقبل. يجب أنْ نعتاد على أنَّ تعاونَنا يأتي بكل ما هو ضروري إذا لم تجف اليد التي تمسك بالينبوع. إنَّ القلب الدَّافق

بالمعونة، هو قلبنا. وهكذا يمكننا الآن أنْ نخطو في الزَّمن الذي مثَّل الرُّعب بالنِّسبة لمن لا يعرف لكنَّه لامع زاهٍ بالنِّسبة لمن يدرك.

ينبغي على الإنسان أنْ يعمل لكي يتفتَّح وعيه، كي يستطيع أنْ يفهم القوانين الكونية الفاعلة في هذا العالم، ويحدِّد مكانه فيه. ولكنَّ فهم هذه القوانين وحده لا يكفي، إنَّما يجب أنْ يكون الالتزام بها صارماً. وتبعاً لهذه القوانين الرُّوحيَّة، يجب ألاَّ تكون غاية المرء أنانيَّته الشَّخصيَّة، بل خدمة الخير العام. وإذا ما نجح الإنسان في هذا، فإنَّه يغدو سيِّد مصيره، وقادراً على تحقيق ارتقائه بوعي، ولن تصنع تصرُّفاته كارما رديئة. وإذ يبلغ المرء هذه الحالة، فإنَّه ينتقل إلى طور الإله - الإنسان. وعن هذا يقول «نور على الطَّريق»: «كل امرء لنفسه طريق وحقيقة وحياة». فحين يبلغ الإنسان هذا المستوى من الكمال الروحي، يغدو نوراً أمام أولئك العامهين في الظلام، وحقيقة وطريقاً للآخرين. وحين يتحقَّق هذا، فإنَّ «يدي الإنسان ستطالان النجوم، وسوف يرى عبر الأرض، ويفهم لغة الطَّير، والوحش، ويلبِّي أفكار السَّماء والأرض، عندما ستتحدَّث هاتان إليه» (إيمرسون).

لنتوقَّف الآن عند مسألة مبدئيَّة أخرى: أين يقع الإنسان في البرهة الفاصلة بين تجسيد وآخر، وكيف يرتبط هذا بكارماه؟ لقد ورد في «كأس الشَّرق» (الرسالة ١٩)، أنَّ «كل مَنْ لم يغرق في حمأة قذارة الآثام التي لا مغفرة لها، ولم يعاشر الحيوانات، يمضي إلى ديفاتشينا (الجنَّة)». أمَّا عن كارما هؤلاء الرَّديئة، فقد قيل في الرِّسالة عينها: «يتوجَّب عليهم أنْ يكفِّروا عن آثامهم، الإراديَّة واللاإراديَّة، فيما بعد. أمَّا الآن فهم مثابون: ينالون نتائج الأسباب التي أتوها هم». ثمَّ تشرح الرسالة مغزى مفهوم ديفاتشينا (الجنَّة):

«من البدهي أنَّها حالة. حالة، إذا صحَّ القول، من الأنانيَّة الشَّديدة التي تجني «الأنا» فيها ثواب نكرانها ذاتها على الأرض. إنَّها غارقة غرقاً كليَّاً في غبطة كل إلحافاتها، ونوازعها، وأفكارها الذَّاتيَّة الأرضيَّة، وتجمع هنا ثمار أعمالها الفاضلة الجديرة. فلا يعكِّر صفو غبطتها أي ألم، أو كدر، أو ظل حزن: لأنَّ هذه الحالة هي حالة المايا المتواصلة. وبما أنَّ إدراكها الواعي لذاتها على الأرض، ليس أكثر من حلم لحظة عابرة، فإنَّ هذا الإحساس لن يكون في الديفاتشينا إلاَّ كالحلم، لكنَّه أقوى بمائة مرَّة. إنَّه قوي من حيث الجوهر إلى درجة أنَّ «الأنا» المغبوطة تكون عاجزة عن أنْ ترى عبر هذا الحجاب أيَّ شيء من البؤس والمعاناة، والحزن التي ربَّما يعاني منها الذين أحبَّتهم على الأرض. فهي تعيش حلماً حلواً مع الذين أحبَّتهم: أرَحلوا من قبل؟ أم ما زالوا على الأرض؟ إنَّها تراهم على مقربة منها، سعداء، مغبوطين، أبرياء كرائي الحلم نفسه، الذي لا جسد له».

الباب الخامس

الكونفوشيوسيَّة

الصِّين قبل كونفوشيوس

إذا ما قارنًا بين الهند والصِّين، فلا بدَّ لنا من أنْ نقرَّ بالفرق بين رؤيتيهما للعالم. فشعب الهند الحالم كان دائم التَّطلُّع إلى السَّماء، إلى الآلهة، إلى الروح الكوني. وكان يرفع قادته إلى السَّماء حتماً؛ وقد أسكن في هذه الأخيرة كثرة من الآلهة (يقال إنَّ عددهم هناك لا يقلُّ عن ٣٢٠ مليون إله). ومن المعروف أنَّ البوذيَّة مرتبطة بالسَّماء. فانبعاث المرء في هذه القشرة الجسديَّة أو تلك، وتحقيق إمكانيَّة قطع سلسلة الآلام الأبديَّة، تلكم هي المعضلة التي عملت على حلِّها الديانات والمدارس الفلسفيَّة الهنديَّة. فقد حاول كلها تعليم الإنسان كيف يتبع سلوكاً يفضي في آخر المطاف إلى قطع هذه السلسلة وبلوغ السَّكينة المرجوَّة: النرفانا. ولم تذهب أحلامهم إلى أبعد من ذلك، فلم يفكِّر هؤلاء النَّاس بالجنَّة السماويَّة، ولا بالعالم الآخر وروعة العيش فيه. وإنَّما فكَّروا وتوسَّلوا الآلهة والإله منَّة واحدة فقط: أنْ يقطع خيط الآلام ويمنح الفرصة السَّانحة لولوج العدم، النرفانا.

أمَّا الشَّعب الصِّيني فقد نظر إلى مسائل حياته من زاوية مغايرة كليّاً. فقد رأى الصِّينيون أنَّ الحياة لم تمنح للإنسان عبثاً. فهي حياة واحدة منحت لكي تعاش على أحسن وجه، وأفضل كفاية. وقد سخَّروا كل مواهبهم وكفاءاتهم لتنظيم هذه الحياة الزمنيَّة تنظيماً أكثر سداداً، وأكثر إنصافاً، وأكثر عقلانيَّة. وعلى وجه الخصوص، أكثر عقلانيَّة. فقد رأى العلماء أنَّ العقلانيَّة هي التي تقوم في صلب النظم الفلسفية والدينية الصينية، وليس الصوفية، والباطنيَّة وما إلى ذلك.

لقد أقرَّ الصِّينيون بأنَّ بداية البدايات، ومصدر كل ما هو موجود على الأرض يقع هناك، في السَّماء. ولم يختلقوا أيَّ شيء بخصوص ما يجري في السَّماء على وجه الخصوص، وكم من الآلهة هناك، وكيف تجري علاقاتهم، و... ولم ينشئ الصينيون أيَّ أساطير عن طريقة عيش الآلهة والصِّراع بينهم؛ ولم يهبطوا بهم إلى ما دون منزلة الرَّاهب البوذي. إنَّهم بكل بساطة أدركوا أنَّ السَّماء تحمل بداية البدايات كلها، وفيها مفتاح حياتهم الزمنية. ومع عدم معرفتهم ببنية بداية البدايات، إلاَّ أنَّ الصينيين أدُّوا لها آيات

الاحترام، وسجدوا لها، واهتدوا بهديها. ويمكن القول إنَّ السَّماء كانت بالنسبة للصينيين هي الإله، هي المشترك الكليّ الأسمى، المجرد، البارد، الصَّارم، اللا مبالي تجاه الإنسان. فالسَّماء بالنِّسبة للصينيين ليست الإله الرحوم الرَّؤوف: المحبَّة عند المسيحيين. ولكنَّها في الوقت نفسه ليست شرِّيرة، وليست طيِّبة. إنَّها الناموس، القانون الذي يجب احترامه بدقَّة والتزام، لأنَّ الحياة على الأرض ترتبط به. ولم يكن متعارفاً عليه لدى الصينيين أنْ يتحدَّثوا عن حبِّ السَّماء. لقد اعترفوا بها بداية البدايات وحسب، فخضعوا لسلطانها، وخشوا انتهاك قانونها.

ولذلك، عمليَّاً ليس لدى الصينيين ميثولوجيا. أمَّا الأبطال الميثولوجيون الذين رفعهم الصينيون قديماً إلى السَّماء، فما لبثوا أن أعادوهم شيئاً فشيئاً إلى الأرض، ولم يعودوا ميثولوجيين. وفي الوقت نفسه جلُّ الصينيون أولئك الذين تصرَّفوا بحكمة، وعدل، ووفق قوانين السَّماء. فمنذ القدم (قبل أن يظهر بوذا في الهند)، لم يتأسَّس المجتمع الصيني على القرابين، والتَّصوُّرات الصوفيَّة عن الآلهة والمعبودات، ولا على الدين بالمغزى الذي يفهمه فيه الأوروبيون، بل على الأخلاق، على معايير السلوك التي يجب أنْ يلتزم الصيني بها في شتَّى الحالات. ونرى أنَّه من الأفضل أنْ تدعى تلك المعايير طقوساً. فكل ما في المجتمع بُني وفق مبدأ العقلانيَّة، والملاءمة، والفائدة. والثَّقافة التقليديَّة الصينية عينها لم يشكلها الدين بصفته ديناً، بل شكلتها هذه الأخلاق الطقسيَّة الصُّوريَّة. وغنيٌّ عن البيان أنَّه في مثل هكذا حالة لا يمكن أنْ يكون لرجال الدين أيُّ دور مميَّز أو ذي أهميَّة خاصَّة. فقد تلخَّص دور الكهنة هنا في تأدية الأعمال التي تهمُّ الحياة الزمنيَّة، والاهتمام بالتزام الشَّعب بالمعايير الأخلاقيَّة. ولذلك فإنَّ الكهنوت بالمعنى الأوروبي لم يكن له وجود في الصين. فواجبات الكهنة أثناء تأدية الخدمة الدينيَّة على شرف السَّماء، وأهمُّ الآلهة، والأرواح الأسلاف، كان يؤدِّيها العلماء، فهم الفئة المميَّزة في المجتمع الصيني.

ولم ترس أسس هذا البناء الاجتماعي في الصين في زمن يتجاوز الألف ٢ق.م.، ففي هذا العصر ولدت الحضارة الإينيَّة المدينيَّة الطابع. وفي هذا الوقت تقريباً استولى الآريون على الهند. وما يثير الفضول، إنَّ إرث الآريين وإرث الإينيين كان متماثلاً عمليَّاً. فقبل هؤلاء ازدهر الإيمان بكثرة من الآلهة والمعبودات، وكذلك الأرواح. وقدَّم الصينيون والهنود إلى هؤلاء قرابين دموية، بما فيها القرابين البشريَّة. ومن البدهي أنَّه كان للهنود آلهتهم، وللصينيين آلهتهم. بيد أنَّ الوضع من حيث المبدأ كان متشابهاً. ثمَّ بعدئذٍ سارت عمليَّة التَّطوُّر في كل من البلدين في طريق مغايرة تماماً.

ففي الصين أخذ يبرز من بين كثرة من الآلهة، إله واحد هو الإله شاندي. ولكنَّ هذا كان إلهاً فريداً. فهو لم يكن الإله الأعلى فقط، إنما كان إضافة إلى ذلك الجدَّ الخرافي المؤسس للشعب الصيني، السَّلف الأوَّل: الطوطم. وهنا بالضبط يقع مفرق الطريقين الكبيرتين اللَّتين سار المجتمع الهندي على إحداهما، والصيني على الأخرى. فعند الصينيين غدا الإله سلفاً مؤسِّساً، إذ نزل إلى الأرض الصينية وألَّه منشأ الشعب الصيني. ولذلك ليس احترام الوالدين، والجدَّين، والأسلاف عند الصينيين مجرَّد قاعدة من قواعد الأخلاق، بل هو موقف تجاه الإله. وهذا ما يفتقر إليه مجتمعنا المعاصر. وهو من حيث الجوهر محور الارتكاز الرئيس الذي يستند إليه كل مجتمع. ويبيِّن لنا مثال الصين أنَّ آلاف السِّنين عجزت عن كسر محور الارتكاز هذا. وهذا يعني أنَّ المجتمع الصيني نجح في الحفاظ على استقراره. ومن المعروف أنَّ تاريخ الصين عرف انتفاضات، وثورات، وتعاقب سلالات، كما خضعت الصين للاحتلال الأجنبي، إلاَّ أنَّ هذا كله لم يحدث أيَّ تغيير في جوهر بنية المجتمع الصيني، أو في هيكله. بل بفضل هذا الهيكل كان المجتمع الصيني ينهض ويتابع طريقه من جديد. وحتى عواصف الشيوعيَّة لم تكسر هذا الهيكل، وبفضله يمضي الصينيون قدماً بخطى ثابتة وثقة بالمستقبل. وبفضل هذا الهيكل لن تعرف الصين بيريسترويكات عبثيَّة لا يقودها قيصر، ولن يعرف حركات إفلاس للشَّعب كالتي يعيشها مجتمعنا الروسي الآن. ولكنْ يجب ألاَّ نعتقد أنَّ هذا الهيكل يُعدُّ شيئاً ما يشبه القيد الذي يقيِّد تقدُّم المجتمع. إنَّه كهيكل برج أستانكنا (برج التليفزيون في موسكو. م.): يسمح للبرج بدائرة واسعة من الحركة، لكنَّه لا يسمح له بالسُّقوط. وما يجدر التَّنويه به، هو أنَّ هذا الهيكل يجيز للشَّعب حقَّ الانتفاضة، والثَّورة، إذا ما أحجم زعيم البلاد عن تنفيذ واجباته بنزاهة. ولذلك كان حاملو هذا النِّظام ورعاته إلى جانب الثائرين دوماً. وسرعان ما كانت السلالة تعقب الأخرى، وسرعان ما كان المجتمع يتعافى من أزمته ويعود من جديد إلى حياته سليماً معافى. وعلى مَنْ يحاول بناء روسيا اليوم أنْ يعرف التَّاريخ، ويعي أنَّ لكل شعب، لكل إتنوس هيكله الذي بفضله يعيش. وطالما يحتفظ هذا الهيكل بقوَّته وطاقته، فإنَّ الشَّعب لا يخشى أيَّ تغيُّرات أو أزمات داخليَّة. ولكنْ إذا ما سقط الهيكل فإنَّ كل شيء انتهى. فيتداعى كل شيء دون أيِّ أسباب واضحة، ولا فائدة من الاستعانة بأيِّ تجربة قوميَّة كانت، أو أيِّ نموذج من نماذج البناء الاجتماعي. ولكنْ كما يحدث انهيار البلاد على حين غرَّة، فإنَّها تستطيع على حين غرَّة أنْ تنهض من الركام. بيد أنَّ هذا لا يحدث إلاَّ إذا عادت واكتسبت هيكلها من جديد، واستعادت روحها إذا صحَّ التَّعبير، وسوف يكون من المفيد جداً أنْ يتذكَّر هذا، الذين أخذوا الآن على عاتقهم مسؤولية

النهوض بروسيا من الركام، بل بمعنى أدق، من المفيد لو عرفوا هذا؛ فالإنسان لا يتذكّر إلاّ ما يعرفه.

هكذا، منذ القدم قوي في المجتمع الصيني مبدأ العقلانيَّة، مبدأ الواقعية الذي تجلّى في المبالغة في عبادة الأسلاف، حسب رأي الأوروبيين. وكانت عبادة الأسلاف هذه بالذات، هي التي باتت قاعدة المنظومة الدينية الصينية. ويدعو المؤرِّخون العصر الذي نتحدَّث عنه، عصر شان - إين، والحضارة التي كانت قائمة وقتذاك، حضارة الإين. ويتزامن هذا العصر تقريباً مع بدء حقبة كتابة التوراة، أي في الألف ٢ق.م.، وفيما يتعلّق بالحكام - الفان، فقد عدُّوا منذ ذلك الوقت الممثلين الأرضيين للإله شاندي، الذي كان كما أشرنا السَّلف المؤسس للشعب الصيني. وعلى هذا النحو كان أسلاف الصينيين بمرتبة آلهة، وكان التواصل معهم مستمرّاً، ومهمّاً جداً، بل كان العنصر الأهمُّ لوجود الصينيين.

وكان هذا التواصل مع الأسلاف وعلى رأسهم شاندي، يتمُّ عن طريق التنجيم. وقد ترافق طقس التنجيم بطقس تقديم القرابين. وكان الغرض من التنجيم محدَّداً وواضحاً: تزويد الأسلاف بالمعلومات عن أحفادهم، عن أهمِّ لحظات حياتهم؛ وتلقّي الإرشادات والنَّصائح منهم. وكان ذلك كله يجري على الوجه الآتي: يؤدِّي دور حامل المعلومات عظم لوح كبش، أو درع سلحفاة. فقد كانت المعلومات تحمَّل للحامل المعني بطريقة محدَّدة: على شكل تجويفات ونصوص مؤلَّفة من عدد من الرموز التصويريَّة. وكانت المعلومات تُصاغ على شكل أسئلة إجاباتها «نعم» - «لا». ولكي تظهر الإجابة كان العظم أو الدرع يكوى في تجويف صفيحة برونزيَّة محمَّاة. فتظهر المعلومات الجديدة في صورة صدوع على الجهة الأخرى. وليست تقنية التنجيم هي المهمة بالنسبة لنا. وإنَّما المهمُّ هو أنَّ المنجمين لم يكون من المشعوذين القرويين الجهلة، بل أشخاص متعلّمون، مثقّفون، ذوو مواهب ومؤهّلات، ويديرون شؤون البلاد. وكانوا علاوة على هذا كله يتقنون الكتابة التصويريَّة التي عُدَّت الأساس الذي قامت عليه الهيروغليفيَّة. وبذا لم يكن التنجيم شأناً فرديّاً بقدر ما كان شأناً حكوميّاً. لقد كان هناك نظام كامل من المؤشرات المدروسة المدوَّنة. كما كان في ذلك النِّظام مقاييس موضوعيَّة للتَّقرير الحسابي.

في العام ١٠٢٧م. انتهى عصر شان - إين. ولكنَّ النِّظام نفسه لم يندثر، إنَّما طرأ عليه بعض التَّغيُّرات بالاتجاه الجيِّد. فالمسألة، هي أنَّ الشُّعُوب المجاورة اتَّحدت ودمَّرت دولة إين. واستقرَّت على امتداد حوض نهر خوانخي سلالة جديدة، هي سلالة تشجوو. واقتبست هذه السلالة عن السلالة السَّابقة كل شيء تقريباً: عبادة الإله السلف شاندي، وممارسة التنجيم،

و... ولكنَّها أرست في المجتمع جديدها أيضاً. فقد كانت عبادة السَّماء متقدِّمة عند المنتصرين. وفي طور لاحق أزاحت عبادة السَّماء عبادة الإله شاندي، وانتقل هذا الأخير إلى فئة الأسلاف المؤلَّهين. وبات الحكَّام يردُّون نسبهم إلى السَّماء لا إلى شاندي. وقد بقي حكَّام الصِّين أبناء السَّماء حتى القرن ٢٠م. وكما نوَّهنا سابقاً، فإنَّ عبادة السَّماء لم تحمل طابعاً صوفيَّاً، بل طابعاً معنويَّاً - أخلاقيَّاً. لقد كانت السماء تعاقب المسيئين وتكافئ المحسنين. وألقى النِّظام على الملك بالتزامات محدَّدة صارمة، وهو ما لم يحصل في أيِّ بلد من بلدان العالم، في أيِّ عصر تاريخي كان. ويُعدُّ هذا واحداً من الشروط التي بفضلها كان الصينيون دائماً مجتمعاً راسخاً وقويَّاً. فالصِّين لم تعرف قط ولن تعرف في أيِّ يوم الحالات التي كان الحاكم يؤلَّه فيها حتى آخر لحظة من حياته، وبعد موته يخرج من قبره ويلوَّث بالقاذورات، ويتفل عليه.

لقد عُدَّ الحكَّام كلهم أبناء السَّماء، ومع ذلك كان يجب على كل حاكم، لكي يحقَّ له حكم الشَّعب، أنْ تكون له «دي»: أنْ يتحلَّى بالفضيلة والعفَّة. وكانت لهذه «الدي» المكنونة صبغة مقدَّسة. وإذا ما فقد الحاكم «الدي» فإنَّه لا يفقد السَّماء، إنَّما يفقد الشَّعب. وذلكم هو الرادع الأقوى. وكانت السماء بالنسبة للصينيين هي العقل، والمنفعة، والعدل، والفضيلة. وهكذا أُبرز المبدأ العقلاني إلى المقام الأوَّل على مستوى أرحب بكثير ممَّا كانت عليه الحال في عهد السُّلالة السَّابقة، سلالة الإينيين. لقد دعا الحكَّام أنفسهم بأبناء السماء، والبلاد التي كانوا يحكمونها أرض السَّماء. فالسَّماء فوق الأرض كلها واحدة. وهذا يعني أنَّ أرض السَّماء كلها واحدة كذلك. أمَّا ما تبقى ممَّا لم يندرج في تلك اللحظة في أرض السَّماء، فهو كله مجرَّد تفاصيل: الأطراف البربريَّة التي كانت تسعى بهذا الشَّكل أو ذاك إلى أرض السَّماء، والتي عدَّ أبناء السَّماء أنفسهم مسؤولين عنها. وبما أنَّ المقصود بأرض السَّماء هو العالم كله، فإنَّ مركزها، أي الصِّين، دعيت بالدَّولة المركز.

أخذت عبادة الأسلاف تتطوَّر في عهد السلالة الجديدة، وبدأ تأثيرها ينعكس على بنية المجتمع. فلم تعد الأهمِّيَّة الآن لواقعة وجود السلف نفسها، بل لحقيقة مَنْ كان السلف المعني، إلى أيِّ عائلة ينتمي، وإلى أيِّ حدٍّ كان هذا قريباً من السلالة الحاكمة. فقد كان ثمَّة جدول دقيق للمراتب. وتراجع مستوى إقلاقهم للأسلاف بالشؤون الأرضيَّة، لكن ما كان منتظراً منهم في ذلك العالم كان كثيراً جداً. لقد اعتقد الصينيون أنَّ للإنسان نفسين، نفس ماديَّة تمضي مع المتوفَّى إلى داخل الأرض، ونفس سماويَّة تمضي بعد وفاة الشخص إلى السَّماء لتشغل هناك مكانة تتوافق بدقَّة مع مرتبة هذه النَّفس، مع مرتبة هذا الشخص. وكان الذين

تتوفَّر لديهم الوسائل (الحكّام والارستقراطيا) يبنون على أسلافهم الراحلين معابد منزليَّة، لكن كل شيء داخل هذه المعابد كان يخضع بصرامة لنظام واحد، لجدول المراتب. فبقدر ما كانت مرتبة السَّلف المعني عالية، بقدر ما كان يُسمح بوضع ألواح تحمل اسمه في المعبد. ففي معبد الحاكم كان عدد الألواح سبعة، وفي معبد حاكم المقاطعة خمسة، وفي معبد الأرستقراطي ثلاثة. وهناك تقدُّم آخر حصل في عهد سلالة تشجوو بالمقارنة مع عهد سلالة إين، وهو أنَّهم منعوا أنْ يدفن مع الميت أناس أحياء: العبيد، والخدم وما شابه ممن يمكن أنْ يحتاج المعني إلى خدماتهم في العالم الآخر.

أمَّا في ميدان الإنتاج فقد كان الفلاحون هم مطعمو الشَّعب الصيني كله. وكان المحصول هو الهمُّ الأزلي لهؤلاء. ولذلك توجَّهت عبادتهم نحو الأرض. وكانت الصِّلة مع الأرض تحققها النساء الشامانات. لقد كانت كاهنات الأرض الأمّ هؤلاء يقفن عاريات تحت أشعة الشمس الحارقة ساعات طويلة يتوسَّلن هطول المطر. ولم تكن الشامانة تهتمُّ إلاَّ باستجابة توسُّلاتها. وإذا ما أحجمت الأمُّ الأرض عن إرسال المطر في فترة الجفاف، كانوا يحرقون الشامانة وهي حيَّة، أو بكلمات أخرى، كانوا يقدمونها قرباناً لإله الجفاف.

لقد كان في كل قرية مذبح على شرف روح الأرض («شي»). وعلى هذا المذبح كانوا يقدّمون القرابين على أمل جمع محصول أفضل. وفيما بعد بات الارستقراطيون يبنون مذابح شي، بل حتى الحكام أنفسهم كانوا يبنونها. ثم غدا هذا المذبح رمزاً للسلطة. وعُدّ استيلاء الأعداء عليه نصراً ناجزاً لهم. أما أسرى العدو فقد قدّموا قرابين على هذه المذابح. ولم تكن الأعمال الزراعية تبدأ في الصين إلاّ بعد أن يحرث الحاكم بنفسه الثلم الأوَّل في فصل الربيع. وكان هذا الثلم يمتدّ على مقربة من مذبح الشمس شيه. ومثلهم مثل الشُّعُوب الأخرى، كان الصينيون يقيمون احتفالات خريفية احتفاء بجني المحاصيل. وفي الفصل نفسه كانت تقام الأعراس، و...

يتضح لنا إذن أنه قام في الصين بناء إداريّ زمني روحي شديد التعقيد. وإذا كانت السُّلطة الرُّوحيَّة لدى المسلمين قد أخذت على عاتقها في الطور الأوَّل من قيامها، مهمات السُّلطة الزمنية ووظائفها كلها، فإن الأمر في الصين سار في الاتجاه المعاكس: كانت السُّلطة الزمنية (الحاكم وموظفو الإدارة) هي التي تنهض بمهمات السُّلطة الرُّوحيَّة. وما سهّل الأمر أن تأدية وظائف السُّلطة الرُّوحيَّة في الصين: السجود للسَّماء والأرض، وإقامة طقوس عبادتيهما، لم تكن تتطلّب صرف كثير من الوقت أو الجهد، أو وجود خدم متخصصين في الخدمة الرُّوحيَّة. وبهذا الشكل تكون قد نشأت في الصين سلطة زمنية ذات صبغة روحية.

فقد كان الحاكم وموظفوه مسؤولين عن حسن سير النظام في أرض السَّماء، أمام السَّماء نفسها؛ وقد رأوا أن واجبهم الأساس يتلخّص في تحقيق هذه المهمّة. ولم يكن ذلك يقتضي بناء كثرة من المعابد المكرّسة لمختلف الآلهة والقدّيسين. بالتالي لم تكن هناك حاجة لكفاية جيش من مختلف المراتب الكهنوتية. فالصيني لم يلتزم بالمعايير الأخلاقية خوفاً من إله، إنما لأن رخاءه هنا على الأرض كان يرتبط بالتزامه هذا. فقد كان الالتزام غير المشروط بقواعد الأخلاق السامية، هو الضمان الوحيد الذي عوّل عليه المواطن الصيني ليضمن لنفسه عيشاً طبيعياً أو ليحقق مستقبلاً وظيفياً مرموقاً، وليحظى باحترام الآخرين. ولذلك لم يتأت للأخلاق الشيوعية (وهي أخلاق رائعة!) في الصين أن تلقّح الشعب بالسوط والسكاكر. فالصينيون عاشوا هذه الأخلاق آلاف السنين. ولكنهم عاشوا في ظلّ نظام لم يكن يسمح للفئة الحاكمة بالفساد والانحلال، إذ التزم جميعهم من القاعدة إلى القمّة بتحقيق متطلبات هذا القانون الأخلاقي.

لقد شاعت في أوساط الشعب الصيني كثرة من العبادات المحلية والمعتقدات الخرافية، ونشطت حركة الشامانات، والعرافين، والمنجّمين. كما كان الإيمان بوجود القوى الخارقة حقيقياً. ولكنّ نظام الدولة الذي اندرج فيه النظام الديني، كان شديد الواقعية. ولم يكن فيه مكان للصوفية، ومختلف الانفعالات الدينية الأخرى التي يمكن أن تفضي إلى التوتر الاجتماعي. وفي الآن عينه كان الدين في الصين القديمة شأناً من شؤون الدولة الخطيرة. وكان كل شيء يجري في هذا الميدان بمنتهى الجدّية والدقة. ولذلك لم يكن الموقف من الطُّقوس الدينية كما هي الحال عند المسيحيين. ففي الصين كانت علاقة الشخص المعني مع الإله - السَّماء تتراجع إلى المقام الثّاني. بينما يقوم كل شيء عند المسيحيين على هذه العلاقة الشَّخصيَّة. وكان الشأن الرئيس في كل طقس عند الصينيين، يتمثل في فهم الأهمِّيَّة السياسية للطقس المؤدّى. فكما هي حالهم في كل شأن، كان هؤلاء مواطنين أوّلاً وقبل كل شيء. هكذا أنشأهم النظام الذي نحن بصدده، على امتداد قرون كثيرة.

ومن المفيد أن نقول بعض الكلمات عن الفلسفة الصينية القديمة. لقد كان المحور الأساس الذي قامت عليه هذه الفلسفة، هو تقسيم كل ما هو موجود إلى مبدأين متعاكسين: المبدأ الذكري (إين)، والمبدأ الأنثوي (يان). وعدّ المبدأ الذكري إيجابياً. فربطوه بالشمس وكل مضيء، وساطع وقوي. بينما ربطوا المبدأ الأنثوي بالقمر، وكل مظلم، وكدر وضعيف. ولكنّ المبدأين حسب هذه الفلسفة كانا مترابطين، ومتفاعلين بانسجام تام. وكل ما هو موجود ليس سوى ثمرة هذا التفاعل. وكانت نظرية إين - يان هذه قد ظهرت في حوالي

القرن ٤ق.م. ثمّ أكملتها بعد وقت نظرية أوسين. وقد قامت هذه الأخيرة على تصوّرهم عن تفاعل العناصر الخمسة الأولى، الماهيات الخمس البدئية وتداخل بعضها مع بعض. وهذه العناصر، هي النار، والماء، والأرض، والمعدن، والخشب. ولفت مؤرّخو الفلسفة الانتباه إلى أن تعاليم زرادشت احتوت بدورها فكرة مبدأي الكون المتعاكسين: النور والظلام. وعرفوا في الوقت عينه تصوّراً عن البيئات الأساسية النقية، الماهيات النقية البدئية: النار، والماء، والأرض، والمعدن، والنبات، والقطيع. ولم تكن مسألة القطعان في الصين مسألة مهمّة، ولذلك كان من البدهي أن يسقط هذا العنصر. وهكذا تتضح لنا صلات الفلسفات بعضها ببعض. وتعدّ الزرادشتية هي العلّة الأولى بين هذه الفلسفات.

ولكنّ الفكر الفلسفي الصيني لم يراوح في مكانه. فقد تطوّر وتقدّم وصاغ نظريات صوفية، وميتافيزيقية وسوى ذلك من النظريات الفلسفية.

الفصل الثاني

الكونفوشيوسية

إن الأفكار العظيمة التي تبدعها الشّخصيّات الفذّة لا يمكن أبداً أن تنبت في أرض خواء. بل على الضد من هذا تماماً، إذ عندما تحلل فإنك تجد أن تلك الأفكار كانت معدّة جاهزة حتى قبل أن يظهر مؤلّفها إلى الوجود. وهنا بالضبط مربط الفرس، فالإنسان العظيم مرسل من أجل أن يضع في لحظة المنعطف التاريخي الخطير، تلك الآلية الجاهزة في السياق الصحيح. ويبدو لنا أحياناً أن ما فعله هؤلاء بسيط جداً. فالنظرية النسبية مثلاً كانت تقريباً جاهزة قبل أ. انشتين. ولكن هذه «التقريباً» التي نظن الآن أنها كانت طافية على السطح، لم ينجح أحد في التقاطها، لم تصل إلى ذهن أحد. فالمسألة هي أن الأفكار لا تصنع داخل المخ، إنما تأتي إليه. إنها تحلّق في الهواء ونحن نلتقطها بإدراكنا كما يلتقط جهاز الراديو موجات الإرسال. لكنّ جهاز الاستقبال هذا يجب أن يكون من نوعية فائقة الجودة. ومعنى هذا أن المرء يجب أن يمتلك ذهناً فذّاً، وأخلاقاً سامية، و...

لقد ولد كونفوشيوس في زمنه، وأدّى عمله، عمل الأفكار التي وردت إلى رأسه. وُلد كون - تسزي في العام ٥٥١ق.م، وعاش ٧٠ عاماً. وقد كان ذلك العصر عصر انتقال المجتمع الصيني من المعايير الأبوية - العشيرية إلى نظام السُّلطة المركزية لحكّام الممالك المستقلّة، الذين باتوا يعتمدون الآن على جهاز من الموظفين الذين لا ينتمون إلى الفئات العليا من المجتمع. فالعمل في هذا الجهاز لم يعد يقتضي الانتماء إلى فئة الوجهاء كما كانت عليه الحال سابقاً، بل امتلاك المؤهّلات الكفيلة بضمان تأدية المهمة الملقاة على عاتق المرئ، على أكمل وجه. وغنيّ عن البيان أن الانتقال من بنية إدارية إلى أخرى لا ينجز دفعة واحدة وفي وقت محدد. فالجديد جاء يحطّم القديم حاملاً وجهاً ضارياً وأنياباً حادة. فطفت على السطح المحسوبيّة، والجشع، وانتهاك القوانين، والطغيان، والخيانة. ورأى كثيرون في ذلك الانهيار نهاية الكون. فقارنوا مراراً وتكراراً ما يقع أمام أعينهم بالحال المثاليّة التي كانت سائدة في الماضي، حين كان الحاكم الحكيم الطّيِّب يقود البلاد وفق إرادة السماء، وكان كل شيء هادئ وعلى ما يرام. وأفكار مقارنة الحاضر بالماضي هذه، هي التي عزّزها كونفوشيوس وأبرزها. فعلى

أساس من هذه المعاكسة أنشأ كونفوشيوس مثاله عن الإنسان الكامل (تسزيون - تسزي)، النموذج الذي يجب أنْ يقتدي المواطنون به. وحسب رؤية كونفوشيوس أنَّ هذا المواطن المثال يجب أنْ يتحلّى بميزتين هما الأهمّ: الإنسانيَّة، والإحساس بالواجب. ونحن نتخيَّل السِّمة الأولى بصورة محدَّدة تماماً: حبُّ البشر، والرأفة، والاستعداد للتَّعاون مع الآخر. ولكنَّ كونفوشيوس أعطى لهذا المصطلح («جين») تأويلاً واسعاً جداً. فالإنسانيَّة شملت عنده التَّواضع، والعدل، وضبط النَّفس، والوقار، ونكران الذَّات، وحب النَّاس، ومفاهيم أخرى كثيرة من هذا القبيل. من قبيل مجموع المثل التي كان يتحلّى بها الأقدمون وحدهم. أمَّا فيما يخصُّ الشُّعور بالواجب، فلم يكن ثمَّة ترتيب صارم. كما كان هذا المفهوم بدوره عريضاً جداً، وكان الإنسان نفسه مسؤولاً عن محتواه الأخلاقي. لقد عدَّ الإحساس بالواجب التزاماً أخلاقيّاً يفرضه المرء على نفسه بنفسه، ولا يفرضه عليه أحد آخر. ورأوا أنَّ المواطن المثالي (تسزيون - تسزي النبيل)، يسترشد في أثناء ذلك بالمعرفة والمبادئ السامية، وليس بالمكاسب على أيِّ حال من الأحوال. وكان كونفوشيوس نفسه قد علَّم هكذا: «الإنسان الشَّريف يهتمُّ بالواجب، ولا يفكِّر الخسيس إلاَّ بالمكسب». وانطوى الإحساس بالواجب على السَّعي لاكتساب المعرفة، وواجب التَّعلُّم، وإدراك حكمة القدماء. وعلاوة على سمات المواطن المثالي المثقف هذه، صاغ كونفوشيوس سمات أخرى. منها الإخلاص، والتواضع (تشجين)، والوقار، ومراعاة المراسم والطُّقُوس (مي). وقد ترك لنا كونفوشيوس مجموعة أقوال دوِّنت في كتاب: لونيوي. ووصف المواطن المحترم في هذه المجموعة بأنَّه إنسان شريف ومتواضع، ومستقيم، وجريء، يرى كل شيء ويفهم كل شيء، يقظ في حديثه، حذر في عمله. والتسزيون - تسزي الحقيقي لا مبالٍ حيال الطَّعام، والثَّروة، ومباهج الدنيا، والمنفعة الماديَّة. وعليه أنْ يحسن تسوية الأمور عندما لا يكون واثقاً مما حوله، ويفكِّر في تصرُّفاته عندما يكون غاضباً، ويهتمُّ بالأمانة في مشروعه النَّاجح. وعليه في أثناء ذلك أنْ يتحاشى الرغبات في سنِّ الشَّباب، والنَّزعات في سنِّ النضوج، والشُّحَّ في سنِّ الشيخوخة. وعلى هذه الصورة فإنَّه يجب على المواطن المحترم أنْ يكرِّس نفسه لخدمة المثل العليا، والنَّاس، والبحث عن الحقيقة. ورأى كونفوشيوس أنَّ مثل هذا الإنسان إذا ما أدرك الحقيقة صباحاً «يمكنه أنْ يموت مطمئناً في المساء».

ولكنْ هل يمكن للمرء أنْ يغدو هكذا فعلاً؟ لا شك في أنَّه كان مثالاً تأمُّليَّاً، جمعاً ما للأخلاقيات السامية. بيد أنَّ الحياة صحَّحت هذا المثل وجعلته أكثر قابلية للاستمرار، جعلته واقعياً، والأهم من هذا كله إلزامياً للمواطن. وشيئاً فشيئاً تراجعت حدَّة العواصف،

وتصاغرت النوازع الاجتماعيَّة، وأخذ المجتمع الصيني يسعى إلى الاستمرار. وصعدت هيبة تعاليم كونفوشيوس وزاد احترام المجتمع لها. وبات اعتناقها مدعاة للفخر. وقد انسحب هذا أوَّل ما انسحب على ممثلي الفئات الاجتماعيَّة العليا: العلماء - الموظفين، والبروقراطيين - الإداريين الذين باتوا يديرون الإمبراطورية الصينية، وكان العصر المعني طويلاً جداً، إذ امتدَّ خمس مائة عام (من القرن ٣ق.م. حتى ٣م). وعند نهاية هذا العصر كانت الإمبراطوريَّة الصينية قد باتت كونفوشيوسيَّة بالكامل: باتت تعاليمه تخدم لدى الدولة. وغنيٌّ عن البيان دون شك أنَّ المواطنين لم يتحوَّلوا كلهم إلى مثال السلوك الصالح. فهذا أمر غير واقعي. ولكنَّ المجتمع ككل اتَّخذ موقفاً إيجابيَّاً من هذا المثال. ورويداً رويداً نشأت وتقننت المعايير ذات الصلة، والنماذج الأصل لسلوك كل مواطن. وقد ارتبطت هذه المعايير بالمكانة التي يشغلها المواطن في التراتبية الاجتماعيَّة. فصيغ في ذلك الوقت عينه صياغة دقيقة **قانون اللباقات الصيني**، وجرى ضبطه وتنظيمه بصرامة شديدة، وهو ما يعرف اليوم «بالتَّكلف الصيني». لقد وضعت قواعد سلوك دقيقة لأحوال الحياة اليومية كلها. وكانت مجموعة قواعد اللباقات الظاهرية (ليتسزي) إلزامية للمواطنين كلهم على طول أكثر من ألفي عام. وكلما كانت المرتبة الاجتماعيَّة أعلى، كلما زادت صرامة الالتزام بتطبيق هذه القواعد. فعلى تطبيق مجموعة هذه القواعد تأسَّست الإمبراطوريَّة الصينية نفسها، بجهازها البيروقراطي الجبَّار.

ولم يكتفِ كونفوشيوس بصياغة قواعد السلوك ومتطلباتها لكل شخصية. بل صاغ المثل الأعلى للمجتمع الذي يجب أنْ تعيش فيه الشَّخصيَّة المعنية. لقد قال كونفوشيوس: «فليكن الأب أباً، والابن ابناً، والحاكم حاكماً، والموظف موظفاً». ورأى أنَّ تركيبة المجتمع يجب أنْ تكون راسخة، وعلى جميعهم احترامها، وعلى كل أنْ يعرف حقوقه وواجباته ويؤدِّي ما عليه تأديته. ويجب أنْ تتألَّف تركيبة الدولة هذه من طبقتين: على الطبقة العليا أنْ تفكِّر وتقود، وعلى الدنيا أنْ تعمل وتخضع، وقد رأى كونفوشيوس وأنصاره أنَّ هذا النظام الاجتماعي هو وحده النظام الممكن، والأبدي، والواقعي. وقد كانوا على حقٍّ. ولقد كانوا على حقٍّ مرَّتين: عندما رأوا أنَّ الانقسام إلى طبقة عليا وطبقة دنيا يجب ألاَّ يرتبط بالمنشأ الطَّبقي، والثروة، والقرب من القصر الإمبراطوري؛ وإنما يجب حسب كونفوشيوس، أنْ يكون الانقسام حسب درجة قرب الشَّخصيَّة المعنية من مثال المواطن الشَّريف الموصوف أعلاه. وعلى هذا الشكل يكون المجتمع مجتمعاً شفَّافاً من تحت إلى فوق. فكل مَنْ يمتلك معارف، ويتحلَّى بالفضائل يستطيع أنْ يخرج إلى السطح ويكون سنداً للدولة، بتأديته واجبه

بأمانة ونزاهة. وتحضرني في هذا السياق مسألة ناقشتها روسيا في القرن الماضي: هل ينبغي أنْ يسمح للفئات الشعبية الدنيا بالتَّعلُّم. وفي المجتمع الصيني حسمت هذه المسألة ببساطة منذ ألفي عام. فقد كان واضحاً وقتئذٍ، إنَّه كي لا ينحط المجتمع ويتداعى يجب أنْ يُضخَّ فيه دم جديد سليم، يمنح المجتمع قوى جديدة، وطاقة جديدة، ومعارف جديدة، واستقامة تخرج منه كل ما يعيق عمله بصورة طبيعيَّة. ويجب أنْ تخلو منظمة نقل الدم هذه من الصمامات، والحواجز، والعوائق: يجب أنْ تكون الفرصة متاحة دائماً للموهوب، الشريف، العارف، لكي يصعد إلى فوق ويقدِّم مزيداً من الفائدة للمجتمع، لشعبه. وإذا كان المجتمع شفافاً فإنَّ تيار العارفين الشرفاء المندفع من تحت، سوف يكنس منه الرشوة، والفساد، والتَّسيُّب، والسَّعي لتحقيق المنافع الشَّخصيَّة على حساب المصلحة العامَّة. ومجتمعنا القريب العهد لم يكن مجتمعاً شفافاً، حرَّاً. فالشريحة العليا كانت محجوبة عن الفئات الدنيا بحاجز مظلم. وقد منع هذا الحاجز انتقال الدماء الطازجة المعافاة إلى المجتمع. ولذلك لم يكن انهياره مستغرباً. أمَّا في المجتمع الصيني فقد كانت تهوية المجتمع تتحقَّق منذ ألفي عام. وحملت رايات الكونفوشيوسيَّة شعار: «الشعب أوَّلاً، والمعبودات ثانياً، والحاكم ثالثاً». وعندما شغل تلميذ كونفوشيوس تسيو، منصب الوزير وفرض ضرائب كبيرة أعلن كونفوشيوس بالصوت العالي: «ليس هذا تلميذي!».

ويعدُّ مطلب احترام كبار السِّنِّ عنصراً مهمَّاً في تعاليم كونفوشيوس. ومن الأكبر سنَّاً: الوالد، والموظف، والحاكم، ومَنْ في حكمهم. فالكبير بالنِّسبة للأصغر شخصية يحرِّم الاعتراض على ما يصدر عنها. وقد قال كونفوشيوس، إنَّ الدولة عائلة كبيرة، والعائلة دولة صغيرة. وأسهبت تعاليم كونفوشيوس إسهاباً خاصَّاً في دراسة موضوعة احترام الابن لوالديه (سياو). فعدَّ كونفوشيوس أنَّ هذا الاحترام هو أُسُّ الموقف الإنساني، ومعنى هذا أنَّه ينبغي على كل ابن أنْ يُوقِّر والديه. ويرتفع هذا الالتزام إلى ثلاثة أضعافه بالنِّسبة للشخص المتعلِّم، المثقَّف، الإنساني الذي يتحلَّى بالإحساس بواجب المواطنيَّة. وإنَّ الأبناء ملزمون بخدمة والديهم وفق قواعد «لي»، ودفنهم وتقديم القرابين لهم (حسب قواعد «لي»). وقواعد لي هذه تعني الآتي: يجب على الابن أنْ يعتني بوالديه طول حياته، ويفعل كل شيء من أجلهما وأجل صحتهما، ويوقِّرهما في الأحوال كلها. وإذا ما كان الوالد غير فاضل، فيجب على الابن أنْ يحاول توجيهه إلى طريق الحقِّ، لكنَّ عليه أنْ يفعل هذا محافظاً على اللباقة والاحترام. فيحاول تحقيق غرضه بالحسنى، والتَّوسُّل، والإقناع. وانطلاقاً من هذه القواعد كان على الابن ألاَّ يشهد ضدَّ والده. وينسبون إلى

كونفوشيوس قوله: ليست الاستقامة والشَّرف في أنْ تغدر بوالدك، إنَّما في أنْ تتستَّر عليه حتى لو كان «سرق كبشاً».

وقد أعطت قواعد احترام الوالدين في الصين ثمارها. فغدت معيار حياة المجتمع الذي بفضلها صار مستقرّاً أو منصفاً. أمَّا ما يمكن أنْ يؤدِّي إليه انتهاك هذه القواعد، فإنَّنا نراه عند كل خطوة نخطوها في بلادنا روسيا التي نجحت في هدم كل ما يجعل المجتمع صلباً. وإذا ما عدنا إلى الصين، فإنَّ موقف الأبناء السَّليم تجاه والديهم مهَّد السَّبيل لتقوية لحمة العائلة، وحتى إلى ازدهارها، كما يؤكِّد المؤرِّخون، ففي المجتمع عُدَّت العائلة لبَّ المجتمع. ووضعت مصلحة العائلة فوق مصلحة المجتمع. لقد نشأت في المجتمع شروط ومواقف تجاه العائلة جعلتها كبيرة ولا تتجزَّأ. ومعنى هذا أنَّ الأبناء كانوا يبقون للعيش مع والدهم حتى بعد أنْ يتزوَّجوا. وثمَّة كثرة من العائلات الكبيرة لم تنفصل إلاَّ بعد وفاة الأب. وكانت معايير الانقسام على الوجه الآتي: يشغل الابن الأكبر مكان ربِّ العائلة، وهو الذي كان ينال النَّصيب الأكبر من التركة. فله يؤول منزل العائلة ومعبد الأسلاف. أمَّا باقي الأرزاق فقد كان يوزَّع على الأبناء الآخرين بالتساوي. وهكذا كانت العائلة الكبيرة تتداعى، ولكنَّ تداعيها لم يكن كليَّاً. فمعبد الأسلاف بقي واحداً لجميعهم، وكان هذا يبقى لدى الأخ الأكبر. وهو الذي كان يوحِّد العائلة في كل واحد. ومع أنَّ بنية العائلة تجزَّأت، إلاَّ أنَّ فروعها بقيت متمسكاً واحدها بالآخر. وغالباً ما كانت هذه العشيرة العائلة الكبيرة تشغل قرية بكاملها. ومن الملائم أنْ نؤكِّد مرَّة أخرى على أنَّ بناء مثل هذه العائلات الكبيرة الراسخة الغنية عادة، بات ممكناً بفضل بناء القاعدة الأخلاقيَّة الضرورية لنشوئها: احترام الأسلاف، واحترام الأكبر سنَّاً، واحترام الوالدين، والتَّحلِّي بشتَّى الفضائل، والإحساس بالواجب.

لقد كانت البطون العائليَّة تقرِّر كثيراً من شؤونها الإداريَّة والتشريعيَّة بنفسها. وكان هذا ضرباً من ضروب الإدارة العائليَّة- القرويَّة. فقد اتَّحد أعضاء البطون العائليَّة كلهم في تعاونيَّة واحدة. وكان ثمَّة دون شك مَنْ هم أعلى ومَنْ هم أدنى. لكنَّ كلهم كان يعمل لكي تكون أحوال العشيرة العائليَّة التي ينتمي إليها أفضل، فمصالح الجماعة، العشيرة أولاً، ومصالح الفرد ثانياً. وكان معبد الأسلاف هو المركز الروحي والإداري للعشيرة العائليَّة. فلم يجتمعوا هنا للاحتفال بالأعياد المشتركة فقط، بل لمناقشة شؤون حياة الجماعة كلها أيضاً. وكان كل شيء يقرَّر هنا في هذه اللقاءات، ولم يكن لأيِّ فرد من أفراد الجماعة حقّ «الفيتو» عندما كان يجري تقرير مصيره الشخصي. فنظام التربية كان مبنياً منذ البداية على أنْ يعتاد المواطن منذ صغره على كون العاطفي والخاص أقلَّ أهمِّيَّة مما هو اجتماعي عام.

لقد أعلن كونفوشيوس أنّه لا ينشئ شيئاً بنفسه، أو وفق اعتقاده، إنّما هو ينقل للأحفاد التقاليد المنسيَّة التي كرَّسها الحكماء القدماء العظام. ولكنَّ هذه الكلمات تحمل الحقيقة كما تحمل كذباً مقدَّساً. فكونفوشيوس قدَّم مساهمات شخصية كبيرة، وأعطى فهمه الخاص لتقدُّم المجتمع، لكنَّه أضاءه بتقاليد الأسلاف. ولم تخسر تعاليمه شيئاً عندما نسبها كاملة إلى الحكماء القدماء، إنّما ربحت من هذا كثيراً. وعلى وجه العموم لم يقل كونفوشيوس سوى الحقيقة، لأنّه فعلاً لم يُدخل في تعاليمه أيَّ شيء غريب الجنس يمكن أنْ يتعارض مع تعاليم القدماء. ولم يقتصر اهتمام كونفوشيوس وأنصاره على العناية بمصادر الحكمة القديمة المدوَّنة، بل عملوا على أنْ تكون تلك المصادر يسيرة الفهم. وفي عملهم على هذه المصادر اهتمَّ هؤلاء بتسليط الضوء خاصَّة على أجنة النظام الكونفوشيوسي لبناء المجتمع التي كانت كامنة هناك. ولم يكتفِ هؤلاء بإبراز تلك الإرهاصات، إنّما عملوا على تطويرها أيضاً. فقد أكمل الكونفوشيوسيون مثلاً وحرَّروا حولية تشونسيو، وكتاب الروايات التاريخية شوتسزين، وكتاب أغاني سيتسزين و... وقد شكلت هذه المصادر معين حكمة نهلت منه أجيال كثيرة من الصينيين. وفي الوقت نفسه كانت الأجيال تجمُّ أصول الكونفوشيوسيَّة نفسها.

قد ينشأ انطباع مما أوردناه هنا عن الصين، أنَّ الكونفوشيوسيَّة كانت الاتجاه الفلسفي الوحيد فيها إبان الحقبة المعنية، بيد أنَّ الأمر ليس كذلك. إنّما الواقع هو أنَّ الكونفوشيوسيَّة كانت الفلسفة الغالبة في المجتمع الصيني وقتئذٍ. والحقيقة أنّها لم تكن فلسفة وحسب. ففي القرون ٥-٣ق.م. كانت تتطوَّر إلى جانب الكونفوشيوسيَّة، متنافسة معها، أنظمة فلسفيَّة أخرى مختلفة. ونذكر من هذه الفلسفات على وجه الخصوص، فلسفة القانونيين: الليجيين. فقد كان هؤلاء من أنصار القانون المكتوب، الذي رأوا أنّه يجب تطبيقه تحت التهديد بالعقاب الجسدي. وحسب رأيهم أنَّ النظام في المجتمع يجب أنْ يدعمه نظام طاعة يعتمد على العصا. وقد وضع الليجيون خطَّة مماثلة لإدارة المجتمع: يصوغ الحكماء - المصلحون القوانين؛ فيصدرها الحاكم، ويجب أنْ يكون ثمَّة جهاز من الموظفين يديره وزراء، مهمتهم تطبيق القوانين - الأوامر الصادرة. وينبغي على السُّلطة التنفيذية أنْ تكون صارمة بما يكفي لتطبيق القوانين. ومن الواضح أنَّ خطَّة الليجيين صحيحة من حيث الشكل، بل هي مطبقة الآن فعلاً. ولكنْ ما يثير الفضول، هو أنَّ نظام الليجيين خلا تماماً من حضور السَّماء فيه، وهي حسب الصينيين المعيار المطلق للعدالة والفضيلة. فلم يكن فيه سوى العقلانيَّة التي بلغت إذا صحَّ القول، حدَّ الاستهتار. فما هي الميادين التي وقف فيها نظام الليجيين في مواجهة

الكونفوشيوسيَّة؟ لقد خلا نظام الليجيين خلوّاً تامّاً من الروح، روح الأخلاق السامية، الروح التي يعجز المجتمع عن العيش بدونها، فينهار. كما خلا هذا النظام من تواصل الأزمنة، فليس ثمَّة صلة فيه بين الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ لقد كانت روح المجتمع، والأمَّة، والشعب ميتة في نظام الليجيين، ولذلك لم تصب الليجية إلاَّ نجاحاً محدوداً، وفي الأماكن التي كان يحكم فيها أمراء محليُّون. إذ كانت تبرر أيَّ سلوك يسلكونه. أمَّا النُّبل والواجب فلم يكن الحديث عنهما ممكناً في النظام الليجي، فمهمة هؤلاء الأمراء كانت واحدة: الحفاظ على استقلالهم وإخضاع مزيد من الأملاك الخاصة لسلطانهم.

ومهما بدا الأمر غريباً، إلاَّ أنَّ النظام السلبي ما لبث أنْ طرح ثماراً إيجابيَّة. ففي غربي الصين أخذت إحدى الإمارات تقوى على حساب جيرانها. وقد نجحت إمارة سين هذه في نهاية المطاف في الاستيلاء على أراضي الصين كلها في القرن ٣ق.م.. لقد نشر مؤسس السلالة سين إين - خواندي، الخطة الإدارية التي وضعها الليجيون. وحسب هذه الخطة كان ينبغي أنْ تنفذ إرادات الإمبراطور دون أيِّ تسويف. ولم تحسب السُّلطة المركزيَّة حساباً لأيِّ شيء، فسلبت الناس كل شيء لأنها كانت بحاجة شديدة إلى موارد لبناء سور الصين العظيم، وبناء مجمَّع القصور الملكيَّة في العاصمة، وأشياء كثيرة أخرى. فالحاكم وموظفوه لم يلقوا بالاً لكون الناس البسطاء باتوا لا يملكون شروى نقير. إذ كانوا على عجلة من أمرهم لجعل الصين بلداً عظيماً بأيِّ ثمن كان، وحمايتها من العالم الآخر كله بسور جبَّار. ولكنَّ السَّهَّام بالغ كثيراً في شدِّ الوتر فانكسرت القوس. فقد انفجر المجتمع بانتفاضة شعبيَّة، أودت بالسلالة السينيَّة، وانهارت معها الليجية أيضاً. فأعقبتها سلالة جديدة، هي السلالة الخانية. وبدا أنَّ الطريق خالية أمام الكونفوشيوسيَّة التي استقلت بهدوء وسكينة على النظام الإداري - البيروقراطي الجبَّار الذي كان قد تشكل. وفي عهد الإمبراطور الخاني أو-دي صارت الكونفوشيوسيَّة إلى إيديولوجيا رسميَّة للدولة. ويمكننا أنْ نقول بغير مبالغة، إنَّ ذلك كان منعطفاً كبيراً في تاريخ الكونفوشيسيَّة والصين كلها.

ولكنَّ النظام الفلسفي الذي كان مدعوّاً لضمان استقرار المجتمع وتحقيق تقدُّمه، كان مدعوّاً في الوقت نفسه لكي ينتج شيئاً ما أكثر مما هو متوفِّر فيه، بيد أنَّه بقي حتى اللحظة نظاماً فلسفيّاً وحسب. لقد كان على النظام المتكيِّف أنْ يدخل إليه قوانين صارمة ينبغي أنْ تنفذ بغير تردُّد أو تسويف. وقد نجحت الكونفوشيوسيَّة في صيغتها المكيَّفة أنْ تضمن استقرار المجتمع فعلاً، لكنَّها في غضون ذلك فرضت على الحاكم تحقيق شروط

معيَّنة: كان على الحاكم أنْ يتحلَّى بالفضيلة السماوية السامية «دي» التي مرَّ بنا الحديث عنها. فقد كان ذلك شيئاً ما من قبيل التفويض الإلهي الذي تمنح السَّماء به حقَّ إدارة البلاد. ولكي ينال الحاكم مثل هذا التَّفويض كان عليه أنْ يكون فاضلاً بالمعنى العريض للكلمة. وعلى هذه الصُّورة لم تتحوَّل الكونفوشيوسيَّة إلى خادم للحاكم، بل نجحت في أنْ تحدِّد له مكاناً في نظامها. وعلى الرَّغم من أنَّ هذا النظام كان قد صار إلى نظام رسمي، حكومي، إلاَّ أنَّه أقرَّ للشَّعب حقَّه في الثَّورة على الحاكم الذي قد يفقد حقَّ التَّفويض السَّماوي. ويستفاد من هذا أنَّ الثورة كان يمكن أنْ تنشب إذا ما نشأت ظروف معيَّنة. ويُدلُّ على مثل هذه الحالة في اللغة الصينيَّة بكلمة: غي-مين. وربَّما كانت هذه هي الحالة الوحيدة في تاريخ البشريَّة التي يزرع فيها النِّظام الحاكم في داخله لغماً يمكن أنْ ينفجر في أيِّ لحظة يحيد فيها الحاكم عن الحقِّ، ويودي بالنظام كله. والحقيقة إنَّه من الأصوب ألاَّ نستعمل هنا كلمة «يفجِّر»، بل كلمة يصحِّح، يقوِّم، لأنَّ الحديث لا يجري عن الانتفاضة وحسب، إنَّما عن تغيير السُّلطة بالعنف. لقد قضى هذا النِّظام بوجود حاكم هو أشبه بالموجِّه الآلي: يصحِّح خطَّ سير المجتمع دائماً بما يتوافق والنِّظام. ولم يترك النِّظام أيَّ فرصة لحدوث قفزات حادَّة يمكن أنْ تخرج عن الخطِّ العام، ولو حدثت فإنَّها لا يمكن أنْ تدوم طويلاً.

ومن المسائل التي كانت لها أهمِّيَّة استثنائيَّة، مسألة إعداد الكوادر الفكريَّة، العلماء - الموظَّفين. فالمهمات التي أُلقيت على عاتق هؤلاء كانت بحق كبيرة جداً، لأنَّ الأمر لم يقتصر على إدارة البلاد، إنَّما التَّعليم والتَّربية أيضاً. ويجب أنْ نعترف بأنَّ الإداريين الكونفوشيوسيين قد أدُّوا هذه المهمات بنجاح كبير. وهذا ما تؤكِّده النتائج. فقد كان كل مواطن كونفوشيوسيَّاً أوَّلاً وقبل كل شيء، ثمَّ بعد ذلك صينيَّاً. وفي طور ما من أطوار حياته كان يمكن للمواطن الصِّيني أنْ يعتنق أيَّ ديانة أو فلسفة أخرى، لكنَّه كان دائماً يسلك سلوكاً كونفوشيوسيَّاً.

لقد كانت تربية المواطن تبدأ لحظة ولادته. ففي العائلة كان الصيني يتعلَّم عبادة الأسلاف ومعايير السياو. ويعتاد على الالتزام الصَّارم باللَّباقات، لا في العائلة فقط، إنما بين النَّاس كذلك. ومن كان من الوالدين يملك الإمكانيَّة، كان يعلِّم أبناءه القراءة والكتابة. وكان الأطفال يدرسون أيضاً المؤلَّفات الكونفوشيوسيَّة الكلاسيكيَّة. وشاع كثير من موضوعات التَّعاليم في صيغة مقولات شفهيَّة. لذلك كانت هذه المقولات في متناول الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. وقد تضمَّنت مغزى القانون العظيم. لقد كانت تمتدُّ آفاق واسعة أمام الذين يتعلَّمون القراءة والكتابة. فالمواطن المتعلِّم المثقَّف مؤهَّل لأنْ يقرأ، ويفهم، ويؤوِّل

الحكمة التي تنطوي عليها الكتب المقدَّسة، كانت له مكانة عالية جداً في المجتمع. لقد كان مثل هؤلاء هم حاملو المعارف، وبهم كان يرتبط التَّعليم في البلاد كما ترتبط إدارتها. ولذلك كانت هذه الشَّريحة من المواطنين المؤهَّلين تشغل أعلى مكانة، المكانة التي لم يشغلها في المجتمع الأوروبي سوى رجال من طبقة النُّبلاء. وتعدُّ هذه السِّمة الجوهريَّة، هي السِّمة الأكثر إيجابيَّة التي تميِّز المجتمع الصيني بها.

وحسب رؤيتنا المعاصرة كان التَّعليم في الصين أحادي الجانب: تركَّز على العلوم الإنسانية وحسب. أمَّا ما كان يتعلَّق بالعلوم الطَّبيعيَّة، فقد عدَّ علماً ليس بذي أهمِّيَّة ولم يعره أحد اهتمام. وهذا ما ينبغي أنْ يتذكَّره أولئك الذين يرون أنَّ كل فرد من أفراد المجتمع الصيني القديم الذي ابتكر البارود، كان مبتكراً وماهراً في كل شيء. ولكنَّ هذا ليس صحيحاً أبداً. فالتَّعليم لم يتضمَّن سوى مواد العلوم الإنسانيَّة. واقتصرت متطلَّباته على معرفة النُّصُوص القديمة، وتحليل مقولات الحكماء، ثمَّ في نهاية المطاف كتابة المؤلَّفات. وكان المطلوب أنْ تتوفَّر في هذه الأخيرة القدرة على عرض حكمة القدماء والتَّعليق عليها (وكان لهذا المطلق الأخير أهمِّيَّة خاصَّة). لقد ثمَّنت الصِّين المعارف دوماً. فهي التي كانت تفتح الطريق نحو الأعلى، وتوفِّر فرصة الارتقاء الوظيفي، وامتلاك السُّلطة والثَّروة. ولكنَّ تعلُّم القراءة والكتابة في الصِّين لم يكن بالأمر اليسير. إذ كان ينبغي أنْ تحفظ عدّة آلاف من الهيروغليفات، وبعد ذلك يمكنك أنْ تبدأ محاولة فكِّ عقد النُّصُوص القديمة. وكان ذلك يستغرق سنوات، وعليه لم يكن الفقراء قادرين على أنْ ينفقوا على تعليم أبنائهم. ولكنَّ الفتيان الموهوبين، بمن فيهم الفقراء، غالباً ما كانوا يحقِّقون نجاحاً: كان عمل البرِّ شائعاً جداً في الصِّين.

لقد كان نظام إعداد الموظَّفين المثقَّفين في الصِّين نظاماً فعالاً إلى درجة كبيرة. فقد كان التَّقدُّم في درجات الخدمة يجري على قاعدة المسابقات، وكانت هذه تجري علنيَّة أمام جميعهم. ولذلك لم تكن المناصب المهمَّة في المجتمع تشغل من قبل أبناء الوجهاء والمتنفِّذين، بل كان يشغلها دوماً أشخاص مؤهَّلون وذوو كفاءات. ففقير الأمس يمكن أنْ يشغل اليوم أعلى المناصب، إذا ما كان موهوباً ونجح في تحصيل المستوى التعليمي المطلوب. أمَّا المحسوبيَّة فلا مكان للحديث عنها. لقد كان التَّقدُّم في المناصب الوظيفيَّة من نصيب ذوي الكفاءات فقط، أمَّا ما تبقى فقد كانوا يتساقطون أثناء الامتحانات. وكان يشارك في المستوى الأوَّل من الامتحانات (وهو أدنى درجاتها: سيوتساي)، خريجو المدارس دون استثناء، وكذلك من درس القوانين بنفسه خارج المدارس. لقد كان كل راغب يحضر إلى مركز الامتحان في

الوقت المحدَّد. وهنا كان هؤلاء يحضّرون للامتحان ويتقدَّمون إليه تحت مراقبة صارمة من قبل موظّفين حكوميين متخصِّصين. كما كانت الامتحانات نفسها تجري بطريقة مبتكرة. لقد كان يوضع كل متقدم في حجرة خاصَّة به، ويبقى فيها دون أيِّ كتب أو موادٍ أخرى، طول يومين أو ثلاثة أيَّام يجب عليه أنْ يؤلِّف خلالها قصيدة ملحميَّة عن حدث ما من أحداث التَّاريخ القديم، إضافة إلى بحث في موضوع مجرَّد. وكانت شروط الامتحان معدَّة بطريقة لا تمرِّر إلى المستوى الثَّاني من الامتحانات أكثر من ٢-٣٪ من الممتحنين (وسُمِّي الدَّور الثَّاني تسزيويجين). وكانت أسئلة هذا الامتحان نفسها تقريباً، لكنَّ المتطلَّبات كانت أكثر صعوبة بكثير. ولذلك لم يكن يجتازه سوى عدد قليل جداً.

وفي كل عامين أو ثلاثة أعوام كانت تجري المسابقة الثَّالثة (تسزينشي) في العاصمة. وكان يتابع هذه الامتحانات كبار موظَّفي الدَّولة، وأحياناً الإمبراطور بنفسه. فهنا بالضَّبط كان مصدر الكوادر الذين كانت تحتاجهم الدَّولة. وكل مَنْ كان يجتاز الدَّور الثَّالث كان يبدأ خدمته في مناصب الدَّولة العليا. وهكذا تحقق له الارتقاء الوظيفي، وبات الإجلال، والمجد، والثروة بمتناول اليد. ولكنَّ هذا كله تحقَّق بشرف، وليس بالمحسوبيَّة. فالمرء لم يشغل في المجتمع إلاَّ المكان الذي هو مؤهَّل له، المكان الذي أعدَّ نفسه له سنوات، وبذل الجهد المضني لتحصيله. والمجتمع نال بدوره أشخاصاً مؤهَّلين حقاً لشغل المواقع المهمَّة فيه.

كما قدَّر المجتمع تقديراً عالياً أولئك الذين لم يتجاوزوا الدَّور الثَّاني من الامتحانات. فاستخدموا في الوظائف الحكوميَّة الأدنى مرتبة، لكنَّ أهمِّيَّتها كانت كبيرة. فكل منصب من مناصب الدَّولة كانت له أهمِّيَّته. وكان عمل كل موظف ظاهراً للعيان، وفي أيِّ لحظة كان يمكن أنْ يحلَّ بدلاً منه موظف آخر أكثر اجتهاداً، وتأهيلاً، وإنتاجاً. وفي دوائرهم الإدارية المحلِّيَّة، أدَّى هؤلاء الموظَّفون دوراً بالغ الأهمِّيَّة، في الحياة السِّياسيَّة، كما في الحياة العمليَّة للدَّائرة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أنَّ الذي اجتاز الدَّور الامتحاني الأوَّل كان له تقديره أيضاً. فهو واحد من بين ثلاثين متقدِّماً تقريباً. ولذلك كان هذا بدوره ينال مكانه المناسب في جهاز إدارة الدَّولة (على مستوى أدنى، لكنَّه شديد الأهمِّيَّة).

ويرى المؤرِّخون (باستثناء المؤرِّخين الماركسيين)، أنَّ الصين لم تعرف الطبقات بصفتها طبقات. ولكنْ إذا دعونا كل الموظَّفين - المؤهَّلين طبقة، فإنَّنا نستطيع أنْ نقول بثقة، إنَّ هذه الطبقة كانت الطبقة الأكثر تميُّزاً، مع أنَّه من المتعارف عليه أنْ تدعى بفئة شينشي. وكانت هذه دوماً فئة معافاة، ومؤهَّلة لتأدية أعمالها. ولكنَّها لم تستطع أنْ تنال أكاليل الغار، لأنَّ ما

كان مطلوباً منها كان كثيراً جداً. وكل مَنْ كان يسهو أو يتوانى كان يستبدل به آخر على قاعدة المسابقات عينها. ولكنَّ مبدأ الشَّفافيَّة لم يكن يسمح بالصعود إلى فوق فقط، إنَّما كان يرغم أولئك الذين وصلوا إلى فوق أنْ يعملوا بأقصى طاقة ممكنة، وأنْ يكونوا مثالاً للفضيلة، والعدل، والرَّأفة. إذن لم تكن فئة الموظَّفين المؤهَّلين فئة راكدة ساكنة لا حركة فيها، بل كانت فئة في حركة دائمة نحو الأعلى ونحو الأسفل. ولذلك كانت هذه الفئة دائماً في حالة حركة. وقد كان ذلك لصالح المجتمع كله، إذ كان يؤدِّي وظائفه فيه المواطنون الأكثر صلابة، وتأهيلاً، واستقامة.

ويبيِّن تاريخ مختلف البلدان والعصور، أنَّه عندما تضعف السُّلطة المركزيَّة يتنامى الفساد وينتشر بسرعة قياسيَّة. ويعمِّق الفساد بدوره الأزمة ويزيدها تفاقماً. وليس ثمَّة سوى مخرج واحد من الدَّائرة المفرغة: تقوية السُّلطة المركزيَّة. وهذا ما أظهره تاريخ الصين أيضاً. وعلينا أنْ نقرَّ بأسبقيَّة الفضل للصينيين في حسم هذه المسألة. ففي أزمنة القلاقل والاضطرابات كانت فئة المثقَّفين المؤهَّلين (شينشي) تفرز دائماً عدداً كافياً من الشَّخصيَّات التي كانت تقف سدَّاً منيعاً ضد الفساد الإداري. فلم يحسب هؤلاء أيَّ حساب للمخاطر الشَّخصيَّة التي كانت تحيق بكل منهم، وبذلوا كل جهد ممكن لإعادة المجتمع إلى طريق الاستقامة. وقد دعا المؤرِّخون الصينيون أولئك المواطنين الشجعان «بالموظَّفين الشُّرفاء». والحقيقة أنَّ الكونفوشيوسيين وقفوا غير مرَّة يدافعون عن مصالح الشَّعب والدَّولة في أزمنة القلاقل. وهذا ما زرع لهم سمعة طيِّبة في المجتمع. وعلى مَنْ يرغب في أنْ يفهم الثَّقافة، والأدب، والموسيقا الصينيَّة، أنْ يتذكَّر هذا دائماً. فأبطال الروايات في الأدب الأوروبي هم الأرستقراطيون، والنبلاء - الفرسان، ورجال الدين، والملوك. وضباط المبارزات الثنائيَّة وما إلى ذلك. أمَّا في الأدب الصيني فيشغل البطل العالم - الموظَّف المكانة الأولى. فهو بالذَّات الذي كان يمثِّل المثل الاجتماعي الأعلى في الصين القديمة.

وللشَّكل («اللباقات الصينية») دور مميَّز جداً في الكونفوشيوسيَّة. فقد كانت مراعاة كل اللباقات وتفاصيل آداب السلوك، وضبط كل التَّصرُّفات، وترتيب الهندام، والحركات، والدخول والخروج، والتزيُّن، مسألة واجبة وضروريَّة. وقد عدَّ الالتزام بها معيار الثَّقافة والوقار. وغنيٌّ عن البيان أنَّ خير من التزم بهذا كله هم حاملوه، عارفوه: العلماء - الموظَّفون.

ونعود في الختام إلى مسألتنا الرئيسة: كيف كان موقف الكونفوشيوسيَّة من الدين؟ لا شك أنَّه يصعب كثيراً أنْ نجيب عن هذا السؤال في سياق عابر. فمن الوجهة الشَّكليَّة كل

صفات الدين حاضرة هنا: الإله الأعلى، السَّماء، وفرائضه في الفضيلة، والعفَّة، والسُّموّ الأخلاقي. وهو نفسه الذي تفرضه الديانات الأخرى، ولكنْ بلغة مختلفة. أمَّا غياب الصوفية عند الصينيين، أو غيابها تقريباً، وعدُّهم أمَّة عقلانيَّة أخمدت انفعالاتها في سبيل السَّلام الاجتماعي، وأنَّهم لبسوا لبوس اللباقات، ومشوا مشية واحدة، فإنَّ هذا كله ليس سوى خصوصيَّات هذا الشَّعب، سمات طريق التَّقدُّم التي اختاروها. ويرى مؤرِّخو تاريخ الأديان، أنَّ الكونفوشيوسيَّة ديانة، لكنَّها ديانة وفق المعايير الصينية. فمن قال إنَّ السِّمة الملازمة للدِّين هي وجود أعداد لا عدَّ لها من رجال الدين المتسلِّطين، المكتفين، المتحجِّرين في الزَّمان؛ وعدد كثير من المعابد والأديرة و... إنَّ هذا كله ليس ضروريّاً للدِّين أبداً، وليس ضروريَّاً بأيِّ حال من الأحوال للاتصال مع الإله. لقد أثبت الصينيون أنَّ لا لزوم لرجال الدِّين، والمعابد، والطُّقُوس لكي يكون الشَّعب متديِّناً، إنَّما المهم هو أنْ تبني مجتمعك على قوانين الفضيلة، والعدل، والاستقامة، والتَّضحية في سبيل القريب، والإله، والسَّماء.

الباب السادس

الدَّاوسيَّة

لقد كانت الكونفوشيوسيَّة هي الديانة الرَّئيسة، النِّظام الاجتماعي الأساس في الصين. بيد أنَّها لم تكن النظام الوحيد فيها. فتعاليم كونفوشيوس لم تتطرَّق إلى الأسئلة التي أقلقت الإنسان على مرِّ العصور في كل مكان من الدنيا: هل الروح خالدة، وهل ثمَّة حياة أخرى، وما الذي يحدث للإنسان بعد الموت و... وكان كونفوشيوس قد قال في هذا الصَّدد: «نحن لا نعرف كنه الحياة، فأنَّى لنا أنْ نعرف كنه الموت».

ومع ذلك كانت شائعة في أوساط الشَّعب دوماً تصوُّرات محدَّدة عن الأرواح، والحياة الأخرى. بيد أنَّ العقلانيَّة الصينية أوقفت امتداد مثل هذه الرؤى، فلم تتحوَّل إلى رؤى رائدة في المجتمع. ويعدُّ الفيلسوف لاو-تسزي أبَ الدَّاوسيَّة. وكان هذا معاصراً لكونفوشيوس. وعلى امتداد تاريخ الصين كله، حتى يومنا هذا، كانت الدَّاوسيَّة تتطوَّر في موازاة الكونفوشيوسيَّة. ولكنَّ هذه الأخيرة كانت دائماً تشغل المكانة الأولى في الدَّولة. أمَّا الدَّاوسيَّة فلم تسعَ إلى هذا في أيِّ يوم من الأيَّام. ومع ذلك أثبتت أنَّها قادرة أنْ تستمرَّ على قيد الحياة.

لقد كان للتَّعاليم الفلسفيَّة - الدينيَّة الدَّاوسيَّة تأثير كبير جداً على الثَّقافة الصينيَّة كلها، ثمَّ تجاوزت حدود الصِّين إلى ثقافة بلدان آسيا الأخرى: فيتنام، وكوريا، واليابان.

فمدرسة إيزين اليابانيَّة مثلاً تكوَّنت من مركَّب تعاليم الدَّاوسيين والتَّعاليم البوذيَّة الآتية من الهند. وتقوم أفكار الدَّاوسيَّة في أساس الفنون القتالية المعروفة في الشَّرق الأقصى، مثل الكونفو، والتيتسزي - شيوان و... وعلى هذه الأفكار نفسها تأسَّست أفكار مدِّ أمد العمر، بل قام عليها أيضاً الطِّبُّ التَّقليدي الصيني على وجه العموم. وترتبط الدَّاوسيَّة بكثير من العلوم الباطنيَّة: علم التَّنجيم، والسِّيمياء، وعلم الفراسة، والسِّحر.

وعرضت أسس تعاليم الدَّاوسيَّة في كتاب لاو-تسزي «كتاب الطَّريق والغبطة» (داو دي تسزين). ويشغل هذا الكتاب في الدَّاوسيَّة المكانة نفسها التي يشغلها كتاب العهد الجديد في المسيحيَّة والقرآن في الإسلام.

لقد عاش لاو-تسزي وأبدع في القرن ٦ق.م.. وقد كان ذلك العصر عصراً مميَّزاً في تاريخ البشريَّة. ففي العام الذي ترك فيه لاو-تسزي الصِّين وتوجَّه غرباً نحو الهند، ولد بوذا. وفي هذا الوقت نفسه كان فيثاغورس يبدع في دول المدن الإغريقيَّة في إيطاليا. وقبل ذلك بقليل ظهرت إبداعات زرادشت العظيم، في المكان الذي تقاطعت فيه دروب حضارات الصِّين، والهند، والبحر المتوسِّط. وفي العصر نفسه شاعت مواعظ أنبياء التوراة، وحكمة حكماء الكلدانيين. وبعد قليل ظهرت إبداعات سقراط في الغرب، ومو-تسزي في الشَّرق. وقد بشَّر هذا الأخير بالحبِّ الكلي الشامل الذي دخل الدِّيانات والتَّعاليم الحقَّة كلها. ضف إلى هؤلاء كلهم كونفوشيوس معاصر لاو-تسزي. لقد كانت تلك لحظة ساطعة في تاريخ الجنس البشري، تعرَّض فيها هذا الأخير «لصدمة باسيوناريَّة» (= روحانيَّة) تلقَّاها من العقل الكوني (حسب قول ل. ن. غومليوف). ففي وقت تاريخي قصير خرجت إلى الوجود الأفكار الأساسيَّة القادرة على جرِّ البشريَّة وراءها. وقد حدَّدت تلك الأفكار عمليَّاً كل سير العمليَّة التَّاريخيَّة اللاحقة، وقامت في صلب مختلف الدِّيانات التي نشأت بعد ذلك.

ونحن لا نعرف عن مؤسِّس الدَّاوسيَّة إلاَّ النذر اليسير. وكلمة لاو - تسزي تعني «الفيلسوف القديم». كما يمكن ترجمتها بمعنى «الطفل القديم». كلنا يعرف عن الأطفال الجدِّيين الذين يدعونهم لذكائهم الشَّديد «بالعجائز». ويبدو أنَّ لاو -تسزي كان طفلاً من هذا النَّمط. أمَّا اللَّقب الحقيقي لهذا الفيلسوف فهو، «لي»، واسمه «زي». واستخدم إضافة إلى هذا اسماً مستعاراً، هو «هاكويان».

ويفترضون أنَّ لاو - تسزي ولد في حوالى العام ٦٠٤ق.م.. وقد عاش والداه في قرية كيكو-زين من دائرة ليي في مقاطعة كوك التَّابعة لمملكة سو التي كانت تقع غير بعيد عن موقع مدينة بكين الآن. وليس معروفاً عمل والدي لاو-تسزي. فالرَّجل حمل لقب لي انتساباً

لأمِّه، واختار لقب والده هاكويان اسماً مستعاراً له. ومما لا ريب فيه أنَّ لاو -تسزي نال قسطاً جيِّداً من التعليم. وهذا ما يشهد عليه واقع وجوده موظَّفاً في جهاز الدَّولة (كان ناظر المكتبة الحكوميَّة: الأرشيف). وكتب لاو-تسزي عن نفسه قائلاً: «كثير من النَّاس يملك ثروات، وأنا لا أملك شيئاً، كأنِّي أضعت كل شيء»، وقال أيضاً: «أنا أوزِّع الحسنات في خوف عظيم». لقد كانت الوظيفة التي يشغلها توفِّر له الموارد الضَّروريَّة للعيش.

كان لاو-تسزي متزوِّجاً، وكان ابنه سو يعمل في القوَّات المسلحة، وهي المهنة التي كان الوالد يرفضها على طول الخط.

وبعمله ناظر المكتبة الإمبراطوريَّة توفَّرت للاو-تسزي فرصة لا تقدَّر بثمن ليتمِّم معارفه، فالمكتبة كانت أكبر مخزن للكتب في الصِّين كلها. ويتَّضح من كتابه «كتاب الطَّريق والغبطة» أنَّ لاو-تسزي لم يكن راضياً عن الحكمة العمليَّة لشعبه، لا سيما وقد توفَّرت له إمكانيَّة دراستها بالكامل. وفتحت الخدمة لدى الإمبراطور عيني هذا الفيلسوف على أنَّ السِّياسة عمل قذر. وكانت هذه الحقيقة منصفة في تلك الأزمنة أيضاً، بل في الأزمنة كلها.

لقد ترك لاو-تسزي العمل الحكومي وهو في سنِّ النُّضج. وقد برَّر قراره هذا بعدم رضاه عن سير الشؤون الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة. فاعتزل وحيداً في كهف؛ الأمر الذي كان غريباً بالنِّسبة للصِّين. وعلى وجه العموم لم يكن لاو-تسزي صينيّاً في أشياء كثيرة. وفي معتزله كرَّس لاو-تسزي حياته للتأمّل والتَّفكير. وخلال السنوات التي صرفها في الكهف فكَّر في أُسُس الدَّاوسيَّة وصاغها في كتابه الذي أشرنا إليه أعلاه: «كتاب الطَّريق والغبطة». لقد كتب لاو-تسزي في هذا الكتاب يقول: «عندما تتكلل الأعمال بنجاح باهر، ويغدو اكتساب اسم طيِّب حقيقة واقعة، فإنَّ الاعتزال يغدو أفضل تصرُّف. وهذا هو الدَّاو السماوي بعينه».

وفي آخر المطاف عزم لاو-تسزي على أنْ يغادر الصِّين، ويترك بلاد البرابرة عبر الحدود الغربية (إلى الهند). ويرى بعض المستشرقين في هذا رمزاً يدلُّ على صلة كتاب لاو-تسزي بالغرب.

وترد أكثر المعلومات يقيناً عن لاو-تسزي في كتاب «مذكرات تاريخيَّة» الذي وضعه المؤرِّخ الصيني الأكبر صيم-تسيان (١٤٥-٨٦ق.م). وجاء فيه: «يظنُّ بعضهم أنَّ لاو-تسزي عاش ١٦٠عاماً، ويظنُّ آخرون أنَّه عاش ٢٠٠عام، بفضل حياة البرِّ التي عاشها وفق الدَّاو». وعن المظهر الخارجي للاو-تسزي كتب صيم تسيان هكذا: «كان لاو-تسزي طويل القامة، وجهه

أصفر اللون، حاجباه جميلان، أذناه طويلتان، جبينه عريض، أسنانه متباعدة وجميلة، فمه مربّع الشّكل وشفتاه غليظتان وقبيحتان».

وتختلف تعاليم لاو-تسزي (= الدّاوسيّة) اختلافاً مبدئيّاً عن تعاليم كونفوشيوس. والواقع أنّه كان ينبغي أنْ تختلفا، لأنَّ كلاً منهما عالج موضوعات مختلفة، وميادين مختلفة. فموضوع تعاليم كونفوشيوس، هو الآلام الدُّنيويَّة أما الموضوع الأساس عند لاو-تسزي، فهو أمداء الروح المشرقة. وبينما توجَّهت تعاليم كونفوشيوس نحو جعل حياة الجماعة، حياة المجتمع أفضل، فإنَّ تعاليم لاو-تسزي كما تعاليم سقراط، قلبت بمعاكساتها الدّائمة المدلول البدئي السّليم، وهزّت ثوابت التفكير المعتاد المبتذل. لقد سعى لاو-تسزي إلى إخراج الفكر البشري خارج حدود المدلول المعتاد، وفتح المدى الكوني أمامه. ولذلك لا ينبغي أن نعاكس هذا بذاك، إنّما علينا أنْ نعي أنَّ كلاً منهما يكمِّل الآخر.

ومع ذلك فإنّه لا ضير من أنْ نتوقف قليلاً عند معاكسة لاو-تسزي وكونفوشيوس؛ لا لأنَّ معاصريهما فعلوا هذا منذ آلاف السنين، بل لأنَّ هذه الوقفة تقدِّم لنا فرصة لفهم جوهر تعاليم لاو-تسزي فهماً أفضل.

ثمَّة قصَّة - مثل في الكتاب الصيني القديم «ربيع السَّيِّد ليوي وخريفه»، تقول: «فقد أحد سكّان مملكة تسزين قوسه، لكنَّه لم يبحث عنها، وعلل سلوكه هذا هكذا: امرء من تسزين أضاع، وامرء من تسزين وجد، فما الفرق؟!».

وإذ سمع كونفوشيوس هذا قال: «فقط يجب حذف كلمة «من تسزين»، وعندئذ يستقيم الأمر!». ولكنْ عندما سمع لاو-تسزي هذا عينه قال: «يجب أنْ تحذف أيضاً كلمة امرء، وعندئذٍ يستقيم الأمر!». «يبقى كونفوشيوس دائماً على المستوى البشري العام، فهذا بالنِّسبة إليه هو المستوى الأعلى الممكن، حيث حتى أكثر مفاهيم الجين تجريداً وسموّاً تنعكس بهيروغليف رمزه المفتاحي الإنسان» (كلمة جين معناها الرحمة). ولكنَّ لاو-تسزي يذهب في المسألة إلى الأعمق، فيرتفع إلى الفكرة النقية، إلى المستوى الذي تجاوز الإنساني نحو الكوني. وفي هذه الحال فإنَّ كل شيء نسبي من الوجهة العمليَّة، فيندغم الاكتساب بالفقدان. ولذلك قال لاو-تسزي: «أيتها البليَّة! عليك تستقرُّ السَّعادة. أيتها السَّعادة! أنت تقفين على البليَّة».

وقد نقل إلينا مختلف المصادر الصينية القديمة معلومات عن لقاء جرى بين كونفوشيوس و لاو-تسزي. فيروي لنا غي هون مثلاً أنَّ كونفوشيوس أحسَّ بالخزي وكان مشتتاً بعد لقائه مع لاو-تسزي، لأنّه قابل فكراً على مستوى أعلى (ويجب أنْ نأخذ بالحسبان أنَّ غي هون كان داوسيّاً).

ولكنَّ كونفوشيوس اعترف لأحد تلامذته قائلاً: «لقد أدركت أنَّ فكره كالطير يحلِّق في الأعالي. فصنعت من بلاغتي سهماً لأرمي الطير به، ولكنِّي لم أدركه، فضاعفت بذلك مجده. إنَّ فكره كالأيل تماماً، كأنَّه الوعل في الأدغال. فأرسلت بلاغتي كلاب مطاردة لتطارد الأيل والوعل، لكنَّها فشلت في إدراكه، ولم تصب سوى العرج. إنَّ فكره كالسمكة في نهر عميق. فصنعت من بلاغتي صنَّارة لأصطاد هذه السمكة، لكنِّي لم أصطد شيئاً، وتداخلت الصنارة في بعضها عقداً. إنِّي لا أستطيع مطاردة تنين يحلِّق وراء الغيم ويتجوَّل في الصفاء الأعظم. لقد أدركت أنَّ لاو-تسزي هو كهذا التنين! ففغرت فمي دهشة، ولم أستطع إطباق شفتيَّ، وفجأة سقط لساني، وتعكَّرت روحي، ولم أعرف أين يمكث...».

أمَّا في كتاب صيم تسيان «مذكرات تاريخيَّة»، فقد جاء عن اللِّقاء ما يلي: «عندما مرَّ كونفوشيوس في سيو، زار لاو-تسزي لكي يسمع رأيه بصدد الطُّقُوس. فقال لاو-تسزي له: لاحظ أنَّ الذين علَّموا الشَّعب قد ماتوا وبلت عظامهم، لكنَّ كلامهم لا يزال على قيد الحياة حتى الآن. فعندما تساعد الظروف الحكيم، فإنَّه سيركب مركبة، أما عندما تعاكسه فإنَّه سيمشي على قدميه حاملاً أثقاله على رأسه ممسكاً أطرافها بيديه. وقد سمعت أنَّ التاجر الخبير يخفي بضاعته كأنَّه لا يتوفر على شيء منها. والأمر عينه تماماً، عندما يتحلَّى الحكيم بأخلاق سامية، فإنَّ خارجه لا يوحي بذلك. ارمِ حكمتك ومعها كل ضرب من ضروب الأهواء؛ وابقِ على حبِّك لكل ما هو جميل مع ميل نحو الحساسيَّة المرهفة، لأنَّه لا نفع من هذا كله بالنسبة إليك. وهذا ما أقوله لك، وأكثر من هذا لن أقول».

وبعد اللِّقاء قال كونفوشيوس لتلميذه حسب ما ورد عند تشجو-تسزي: «... في إدراك الطَّريق كنت كالدودة داخل إبريق مليء بالخلّ: لو لم يرفع المعلِّم الغطاء لما أدركت الوحدة العظمى للسَّماء والأرض». وغنيٌّ عن البيان أنَّ تشجو -تسزي قد كثَّف الألوان كثيراً، لأنَّ كونفوشيوس لا يستحقُّ مثل هذا الهوان. ومع ذلك فإنَّ الصورة التي رسمت لكل من الفيلسوفين في هذا اللِّقاء، هي واحدة تقريباً في كل مصدر: يستوي لاو-تسزي المجلل ببياض الشَّيب، على القمَّة، وأمامه يقف كونفوشيوس الأكثر شباباً. وليس هذا مجرَّد عُمْرٍ، أو مشهد من مشاهد الحياة اليوميَّة، إنَّما هذا رمز: سيِّد أكبر، وسيِّد أصغر وضيف. وكان على هذا الرَّمز أنْ يعكس هرم القيم الفلسفيَّة.

لقد كان كونفوشيوس يعمل للمجتمع، أمَّا لاو -تسزي فقد وصف هذا المجتمع بأنَّه جمع من «البقر المقدَّس». ورأى الدولة والرحمة من زاوية مغايرة تماماً.

إنَّ أُسَّ الأُسُس حسب لاو-تسزي، هو الروح، الأُمُّ الأولى للوجود. فلاو-تسزي يتجوَّل في رحاب خارجيَّة. ووجوده كله ساعٍ نحو ما هو غير معتاد. وقد تأمَّل في الموت عبر صلته التي لا تنفصم عراها مع الحياة. ووضع العدم فوق كل وجود. وبينما يسعى كونفوشيوس إلى تغيير حياة المجتمع نحو الأحسن، في تعاليمه، فإنَّ لاو-تسزي كان بعيداً تماماً عن إلقاء أيِّ مواعظ، فلم يكن عنده سوى ثلاثة تلاميذ، ولكنَّ واحداً منهم فقط كان فالحاً وأخذ عن معلِّمه المعرفة التي تتجاوز الشُّعور. وقد قامت هذه المعرفة في أنَّ الإنسان كان قادراً على أنْ يرى ويسمع كل ما في هذا العالم «بغير عينين وأذنين»، وأنَّه «غرق روحياً في اللاشيء». ونحن كنَّا قد بيَّنا في كتابنا «الإله، والروح، والخلود» إنَّه تحدث في أثناء ذلك مراجعة مباشرة للمعلومات عبر مقارنتها مع حقل الإعلام الكوني. فتعاليم لاو-تسزي لم تكن معدَّة للنخبة فقط، بل لنخبة النخبة، أي لأولئك الذين كانوا مؤهَّلين لإدراك الغبطة واكتساب نفاذ البصيرة، وبلوغ الحكمة الأبديَّة، وليس الدُّنيويَّة.

إنَّ لاو -تسزي يرى الأشياء بمقاييس مضاعفة. وهو يرى أنَّنا لا نرى هنا على الأرض سوى الظِّلال، أمَّا الموضوعات نفسها فنحن لا نراها. ونشير في السياق إلى أنَّ سقراط حلَّل مفهوم الظِّلِّ في السياق نفسه. فقد عدَّ أنَّه يمكن مقارنة الإنسان بالجالس في كهف قرب نار بحيث لا يستطيع أنْ يرى سوى ظلال المارَّة فقط. وليس هذا في واقع الأمر سوى تقليص لأبعاد المكان الثلاثة إلى بعدين. وعلى هذا المنوال يتَّهم لاو-تسزي كونفوشيوس بأنَّه يحاول أنْ يحكم على الحذاء عندما لا يرى أمامه سوى أثره على الأرض.

فتعاليم لاو-تسزي (الداوسيَّة)، هي تعاليم فلسفيَّة عميقة تلامس جوهر العقيدة، وبناء العالم، ومكان الإنسان فيه. لقد رأى هذا الفيلسوف في العالم المحيط به وحدة لا تتجزَّأ، تسير وفق قوانين ثابتة. وكان على يقين راسخ بأنَّ كل ما في هذا الكون الموحَّد العظيم مترابط بعضه مع بعض ومتماثل بعضه مع بعض. وعلى المنوال نفسه جاء بناء المعمورة، والدَّولة، وجسم الإنسان. فجوهر الأشياء كلها واحد، لأنَّ قوانين الكون قطعيَّة، باتَّة في أيِّ نقطة منه. وعليه فليس ثمَّة أهمِّيَّة للزَّمان، أو لمكان معيَّن في المكان الكوني. ولذلك يجب على المرء الحكيم الذي أدرك هذه القوانين لو إدراكاً جزئيَّاً، أنْ يسلك سلوكاً متماثلاً في كل مكان وزمان. ولهذا السبب فإنَّ تعاليم الحكيم لاو-تسزي لا تشيخ، إنَّما معاصرة، بل تقدُّمية أيضاً. واحكموا بأنفسكم: منذ ألفين وخمس مائة عام خلت أدرك لاو-تسزي أنَّ تراكم البشر في المدن عمل مهلك بالنِّسبة للجنس البشري. ورأى أنَّه يجب تقسيم التَّجمُّعات البشرية المهولة (المدن) إلى خلايا صغيرة، ويجب ألاَّ تستعمل في أماكن سكنى الناس أي حيل

تقنية. فالإنسان لا يمكن أن يعيش سعيداً إلاّ في شروط طبيعية بكر نقية، إذ في مثل هذه الشروط فقط يمكن أنْ تسير حياته منسجمة مع الطبيعة، وعندئذ سيعود طعام الإنسان حلواً، وحياته هادئة، وملابسه بديعة بحقّ. وتتطهّر أخلاق الناس وعاداتهم من الكره والعنف. ويغدون سعداء مشرقين كما في الزمن القديم. ولن يكون للأسلحة دور في مثل هذه القرى سوى إبعاد الغواية لاستعمالها. ونحن لن نقول إلى أيّ حدٍّ يبدو هذا واقعياً بالنسبة للمجتمع المعاصر، فالإجابة واضحة. وما يبعث في النفس الأسى أنّه إذا ما عبرت البشرية إلى حضارة جديدة تتوافق قوانينها مع قوانين الطبيعة، فإنّ ذلك لن يكون إلاّ عبر هزّات وكوارث عالمية عميقة. وبعضها واقف الآن على عتبة الباب: تهديم طبقة الأوزون، والعوز المناعي المكتسب (الإيدز).

لقد أدرك لاو-تسزي أنّ ارتقاء الجنس البشري لن يفضي إلى تقدُّم حقيقي، بل على الضِّدِّ من ذلك، سيدفع الإنسان بعيداً عن التّواؤم مع الطبيعة. وقد عرف أنّ فرع التّطوُّر هذا، فرع مسدود أمام تقدُّم البشرية. فنحن ملأنا الفخر إذ شطرنا الذّرَّة، وأوغلنا عميقاً في علم الوراثة، لكنَّنا نقف الآن حائرين لا نعرف كيف ننجو من اكتشافاتنا. وكان لاو-تسزي قد رأى أنّ الأفق مسدود أمام مثل هذا الارتقاء. ودعا إلى العيش في معاشر مغلقة، لأنّ التّقدُّم يقتلع الإنسان من الجنَّة ويقذف به إلى دوّامة الزمن التي تسلبه السعادة الحقيقيَّة. إنّ السلاح الذي صنعه الإنسان لا يحمل سوى الموت والمعاناة. وهذا بدوره يجعل الإنسان بلا روح. فتغدو نجاحاته في نتيجة الحساب وهماً ثمنه باهظ. وفي حالة العداء التي أحطنا وجودنا فيها هذه، نحن عاجزون عن تربية أطفالنا بروح حبِّ القريب، أي عاجزون عن جعلهم سعداء. وإذ نقتل في الحروب الكبيرة والصغيرة أعداداً كبيرة من النّاس الأبرياء، فإنّنا نعجز عن اكتساب السكينة الروحية. كما تقتل المدن الكبرى مواطنينا وهم أحياء، إذ تجعل منهم مدمني مخدرات، ومدمني كحول، ولصوصاً. نحن نبشِّر «بالخير بالقبضات»، ونتناسى أنّ هذا مجرد هراء نخدع أنفسنا به. وفي هذا الخداع تجري حياة أجيال بكاملها. «فمن أجل كنوز الأرض نهدم جبالها، ومن أجل درر البحار نعكر صفوها، ومن أجل نزاع وثرثرة نهلك أجسادنا». أمّا السلوك المستقيم فإنّه يقوم في أن «لا يكون الحكيم طمّاعاً: كلما أعطى الآخرين أكثر، كلما نال أكثر، وكلما بذل للآخرين أكثر، كلما اكتسب أكثر» (لاو-تسزي. «داو دي تسزين» «كتاب الطريق والغبطة»).

إذن فيما تقوم طريق الإنسان القويمة؟ إنها الطريق القانون، الداو. دعاها كونفوشيوس بالطريق البدئية، البدء؛ بينما دعاها يان سيون بالمكنونة. وليس الداو وحيداً

واحداً في الكون اللا متناهي وحسب، وإنما هو أوحد في نوعه كذلك. ويبدأ بالداو «انتشار» العالم، أي ارتقاؤه في الزمان والمكان. فحسب لاو - تسزي إن الداو أحدث في بدء الزمان، الحدود في الفراغ، وبدورها حدود الفراغ أحدثت الزمان والمكان. ثم أحدث الزمان والمكان الأثير البدئي (يوان تسي)، الذي انقسم فيما بعد إلى مبدأين كونيين اثنين (عنصرين): إين ويان. وأنجب هذان العنصران السَّماء، والأرض، والإنسان. وبعدئذٍ أنجب هذا الثالوث حشد الأشياء، والكائنات، والظاهرات. وقد قال لاو- تسزي «واحد أنجب اثنين، واثنان أنجبا ثلاثة، والثلاثة أنجبوا عشرة آلاف شيء». ويرى لاو - تسزي إن وجود الداو «سابق على وجود الرب الأعلى»، إنه «يعيش منذ الأزل، ولا علّة لوجوده».

لقد قلنا في كتاب «الإله، والروح، والخلود»، إن مبدأ كل شيء في الكون، هو الحقل الإعلامي البيولوجي، ففيه تكمن خطّة بناء الكون وتطويره. وكان لاو - تسزي قد رأى أيضاً إنه في البدء عندما لم يكن ثمّة مكان ولا زمان بعد، كان هناك الداو اللا متناهي وحده. وقد كان ذلك فراغاً خالياً من كل شكل.ونحن نستطيع أن نقول، إن الداو هو هذا الحقل الإعلامي عينه، الذي يخترق الكون كله ويخلق الوجود من العدم.

وينقسم البناء الكوني في الفلسفة الداوسية إلى خمسة أطوار. في الطور الأوّل أُطلقت الخطّة التي كأنها كانت رابضة «على تخوم العدم والأشكال». ويدعى الطور الأوَّل طور «الانقلاب العظيم»، لحظة الدافع الأوَّل الذي تلاه طور «البداية العظمى». ففي تلك اللحظة ظهرت سحابة الأثير الكوني المتماثلة تمام التماثل (سحابة برانا تسي). وتتوافق تصوُّرات لاو- تسزي هذه تمام التوافق مع تصوّرات فيزياء الكون المعاصرة عن ارتقاء الكون بعد الانفجار الأكبر. وجاء في «مذكرات عن أجيال الأرباب والملوك»، إن «البداية العظمى تبدأ عند أوّل ظهور التسي البدئي»، وفي «الكاوس (=الخراب الكوني-م) المتماثل الظاهر لتوّه، تتحرّك مع الداو آلاف مؤلفة من الأشياء والكائنات المندغمة في كل واحد».

وتجري في الأطوار الأخرى التالية عملية تشكيل الكون. ولكنّ كل شيء يجري فيها وفق الخطة المرساة في الحقل الإعلامي للداو. فيبدأ الكون يتجسّم رويداً رويداً، خارجاً من الكاوس، فيكتسب أشكاله ومكانه، ووظائفه. ويتلقّى الأثير الكوني في أثناء ذلك توجهاً متبايناً. ويقع في هذا الطور انشطار الموجب والسالب، والإيجابي والسلبي، والخير والشرّ. وعن هذا كتب فيلسوف معاصر يقول: «كما العمليات التي تجري في حوض مائي عكر، حيث يترسّب ويتباعد شيئاً فشيئاً الماء والطين المتخالطان في كتلة متماثلة واحدة، كذلك عمليات نشوء الكون ترفع إلى مجالات الكون العليا كل نوراني، ودقيق،

ونقي؛ وترسّب إلى تحت كل قاتم، وثقيل، وفظ، وقذر. فتولد السَّماء والأرض، ومع ظهورهما ينشطر الأثير الكوني كله إلى اثنين مكتسباً علاقة مختلفة: الإيجابي والسلبي، والنور والظلام، والمذكر والمؤنّث، واللّين والصلب، وما إلى ذلك. وينبغي ألاّ نظنّ أن هذا العدد، هو مجرّد تقسيم ذهني، أو ثمرة إنشاءات فكرية تجريدية، أو رمزية جدلية. فـ «إين ويان» ليسا مجرّد تناقض: تدفق الأثير النوراني والقاتم عبر قنوات الجسم الإنساني؛ وتخالطا بمعايير مختلفة فخلقا الرجل والمرأة؛ وفي مختلف فصول السنة، وفي لحظات شتى من حركة النظام الكوني الدائبة، ساد الأثير في الكون باتجاهات مختلفة». إن ظهور الكوسموس (=النظام الكوني) يعني «تشييء» الداو، تجسيمه. وهكذا ظهر الحد الأعظم للكون، الذي ينبض في داخله نبضاً متواصلاً، متمدداً أحياناً، ومنكمشاً أحياناً أخرى، نوعان من الأثير: إين ويان. ولذلك لم يعد الداو خطّة، إمكانية كامنة، إنما تحوّل إلى واقع مجسّم. إن الداو هو القانون الكوني. لقد عدّ لاو - تسزي إنه ليس ثمّة مكان في الكون لا وجود للداو فيه. ونحن نضيف أن هذا ممكن بفضل البناء المتماثل للكون. أمّا عن حقل الإعلام (الداو)، فقد كتب لاو - تسزي يقول: «وأنت تنظر إليه لا تلحظه، وأنت تستمع إليه لا تسمعه، وتلمسه فلا تحسّ به». ولذلك فإننا لا نرتاب في وجود الحقل الإعلامي، أي العقل الكوني. وعنه كتب صيما تصين يقول: «يجري الينبوع العظيم للدرب من السَّماء؛ والسَّماء لا تتغيّر، وكذلك الدرب لا تتغير أيضاً». وعن هذا نفسه كتب اوغسطين المغبوط يقول: «أفي مكان آخر يجري الينبوع الذي منه يتدفق إلينا الوجود والحياة؟ كلاّ، فأنت تصنعنا يا رب!».

ويقول أُو - تسزي: «إن الداو هو الذي بفضله يجري التوجّه إلى الجذر، والعودة إلى البداية». وكتب الفيلسوف خان فييه - تسزي يقول: «يتفرس الحكيم في فراغاته المكنونة ويستخدم دورانه الدائري. فعندما يدور الداو مع العالم، فإنه يصنع حيوات طويلة الأمد، ويوآزر النجاحات المديدة». لقد ماثلوا الدوران بالشمس، التي عدّها الداو سيون بمثابة مركز كوني يستشعر الداو وينقل نبضه إلى العالم الأرضي. وتحت تأثير هذا النبض تحدث على الأرض التبدّلات، وتظهر الفصول.

وحسب الداوسية، إن انشطار النور والظلام، و «الإين واليان»، والموجب والسالب كان أمراً ضرورياً لكي تتحقق الحركة («إين أحياناً، ويان أحياناً أخرى»). وبعد حين ظهرت مسألة بلوغ الكمال. ولتحقيق الكمال ظهر الإنسان في العالم. ولذلك فهو «يمتلك استشعار اللا مرئي، واللا مسموع، وما لا يقاس، وما لا يلمس».

فكيف يؤدّي الإنسان مهمته إذن؟ وكيف يتلقّى المعلومات من حقل الإعلام الداوي؟ لقد جاء في الكتاب القديم «غوان - تسزي»: «في السَّماء، الداو في الشمس؛ وفي الإنسان هو في القلب». وتساءل فيلسوف القرن ٣ق.م سيون - تسزي قائلاً: «بأيّ صورة يعي الناس الداو؟». ويجيب: «بمساعدة القلب!». ويقول سيون - تسزي في مكان آخر: «لا يمكن للقلب ألاّ يعرف الداو». وعن هذا عينه يتحدّث العلم الحديث، لكنّه يدقق مؤكّداً على أن صلة الإنسان الإعلامية مع حقل الإعلام الكوني، أي مع العقل الكوني، تتحقق عبر اللاوعي، عبر لاوعي الإنسان. وحسب تعاليم الداو إن قلب الإنسان يجمع بين الحركة والسكون، بين الامتلاء بالإحساس والتطهّر الذاتي منه حتى درجة «الخلو» التامّ. والقلب قادر على أن «يشطر» إلى مبدأين متناقضين. وللداو الخاصيات نفسها، وهو ثابت لا يتغير. ويثوي الداو في الفراغ محيطاً بالوجود كله. والداو واحد وحيد، لكنه يلد الكثرة. ففي قصّة للزاهد تساو غو - تسزي وصف لزيارة قام بها الساحران الخالدان خان تشجون - لي، وليوي دون - بين للزّاهد. لقد سألا الفيلسوف الداوسي عمّا يفعله في الجبال؟ فأجاب الداوسي قائلاً: «إن الغاية الوحيدة لإقامتي هنا، هي أن أُربّي الداو في ذاتي».

- فسأل الضيفان: «وأين يقع هذا الداو؟».

- «الداو هناك!»، وأشار تساو إلى السَّماء.

- «وأين السَّماء؟»، سأله ضيفاه مرّة أخرى، فأشار تساو إلى قلبه دون أن يجيب.

- فابتسم له تشجولي وقال: «القلب هو السَّماء، والسَّماء هي الداو. لقد نفذت إلى جوهر الأشياء».

ويستفاد من تعاليم الداوسيين، إن تواصل الإنسان مع الداو لا يجري عبر قوّة الإرادة أو الإدراك الفكري، بل على الضد من هذا، إذ يحدث الاستغراق في عمق الوجود الآخر في لحظة الانعتاق من رؤية العالم المادّي، في لحظة تجاوز قلق الأهواء والتركيز على الوحيد. وهذا هو التأمّل بعينه. إن تحقيق تبادل المعلومات مع الداو بالعقل، أمر مستحيل؛ لأن عملية التبادل هذه لا تنتمي إلى التجربة الحسية. فأيّ قسر للحالة الطبيعية يعطي هنا نتائج عكسية.

وقد أسفر الاستشفاء الروحي عن إمكانات لا متناهية لإبراء الناس. ووفق المعنى الحصري للكلمة، لم يكن اللجوء إلى التأمّل إلزامياً هنا؛ إذ كان الأمر المهم، هو أن تذهل عن الهموم والمخاوف الصحية التي تضنيك، وتترك قاربك للأمواج. وهذا هو في حقيقة الأمر جوهر التأمّل. فأشكال التّأمُّل شتى. ولكنه في الأحوال كلها طريق التنوّر الداخلي، وتواصل مع المبهم العظيم الذي يقيم خارج إمكانات أجهزة الحسّ البشرية، أي خارج حدود العالم

المادّي. وغني عن البيان أن الداوسيين، بمن فيهم لاو - تسزي قد مارسوا تمارين الاستغراق في التأمّل. فالتأمُّل لا يحرر من العالم المادي وحسب، بل في أثنائه تستغرق الأشكال، أي هولوغرامات الإنسان في أبعاد مغايرة، في حقل الإعلام الكوني. وفي القرن ٥ق.م وصف الحبر الداوسي لي - تسزي بداية تمسكه ونهايته على الشكل التالي:

ها قد مرّت ثلاث سنوات منذ أن أقمت على خدمة معلّمي وصديقي، وقد طردت فيها من قلبي التفكير بالحق والباطل، وحرّمت على شفتيّ التحدّث بالنافع والضارّ. وحينئذٍ فقط استحقيت نظرة معلّمي. وانصرمت خمس سنوات، فولدت في قلبي أفكار أخرى جديدة عن الحقّ والباطل، وبتّ أتحدّث بطريقة جديدة عن النافع والضارّ. وحينئذٍ فقط استحقيت ابتسامة معلّمي. ثمّ انصرمت سبع سنوات، فأطلقت لقلبي حريته ولم أعد أفكّر بالحق والباطل، وأطلقت لشفتي الحرية ولم أعد أتحدّث عن النافع والضارّ. وحينئذٍ فقد دعاني المعلّم وأجلسني إلى جانبه على الحصير. ومرّت تسع سنوات، فبتّ مهما أكرهت قلبي على التفكير، ومهما أكرهت شفتي على الحديث، لم أعد أرى ما هو حقّ بالنسبة لي وما هو باطل، ما هو نافع وما هو ضارّ؛ كما لم أر ما هو حقّ بالنسبة للآخر وما هو باطل، ما هو نافع له وما هو ضارّ؛ ولم أعد أرى أن المعلّم هو مرشدي، وإن ذلك الشخص هو صديقي. لم أعد أُفرّق الداخلي عن الخارجي. وعندئذٍ بدا لي كأن أحاسيسي اندغمت في كل واحد: تماثلت الرؤية مع السمع، والسمع مع الشمّ، والشمّ مع الطعم. تفكيري تراجع، وجسدي تحرر، واتحدت عظامي مع عضلاتي في كتلة واحدة. ففقدت الإحساس بما يتركز جسدي عليه، وما تطؤه قدماي، وتبعاً للريح أخذت أتحرّك شرقاً وغرباً. ومثلي مثل ورقة شجر أو قشرة يابسة، وأخيراً لم أعد أعي ما إذا كانت الريح هي التي أسرجتني أم أنا أسرجت الريح».

لقد كان الداوسيون على يقين من أن القلب البشري كان قد أحسّ إحساساً مباشراً بحركة الداو عند فجر البشرية. فعندئذٍ أعلن الداو عن نفسه بصورة غير مباشرة، عبر رتل طويل من الأحداث، والظاهرات، والآيات. لقد كان ذلك العصر من الزمن الماضي مثلاً أعلى للخير، والحكمة، والطبيعية. وقد قامت هذه الأخيرة في أن سلوك الإنسان سار وفق قانون الداو، بما يتوافق وقوانين الطبيعة، والعقل الكوني. وهذا ما لا يمكن قوله عن سلوك الإنسان في العصور التالية، فما بالك بعصرنا نحن. إن فلاسفة الصين القدماء تحدّثوا عن «الزمن الذي كان الداو فيه في العالم». وقالوا عن الأزمنة الرديئة: «عندما حل زمن اندحار الداو (الدرب)». وليس المقصود هنا الداو نفسه بالتأكيد، إنما تأثيره على الإنسان. فالداو

نفسه، الدرب نفسه بالمغزى الصارم لهذا المفهوم، حاضر في كل مكان وفي كل زمان. إلا أننا لا نحسّه دائماً. وكان فيلسوف معاصر قد قال في هذا الصدد: «لقد بات من النادر أكثر فأكثر أن يغسل الإنسان قلبه في تياره، وتبعاً لهذا يغدو الخير في العالم أقل فأقلّ، والطباع تتصلّب أكثر فأكثر».

وعلى هذه الصورة تعدّ تعاليم الداو، الحقيقة الأكثر باطنية والتي لا يمكن إدراكها. ولكن الفلاسفة الداو سيون، وأوّلهم لاو - تسزي نفسه، يعالجون المسائل العملية في جوهر الداو، وتحديداً مسألة: كيف يُظهر الداو نفسه في العالم المرئي. وبكلمات أخرى: كيف يُظهر المطلق نفسه في ظاهرات العالم المحيط بنا. وتجلّي الداو هذا يعني باللغة الصينية: دي. وعلى هذه الصورة يكون الداو هو المعطى أولاً، والدّي هو المعطى ثانياً. ولكن الأوَّل والثاني ينتميان معاً إلى درجات مختلفة في مستويات تجلّي المطلق. وإذا ما سقنا مقارنة مع الفلسفة الإغريقية القديمة فإن الداو، هو اللوغوس، والدّي، هو الإيدوس (=الصورة، المظهر الخارجي، م). وبالطبع فإن الدّي كما الداو، ينتمي إلى العالم الروحي، لكن هذه الروحانية هبطت الآن إلى العالم المادي، إلى عالم الأشياء. وإذا ما عبّرنا بطريقة أكثر أرضية، فإننا نقول: إن الدّي هي بدرجة معينة «شيء لنا». وكان شارحو تعاليم لاو - تسزي القدماء قد وضعوا هذا المغزى عينه في مفهوم الدّي. ونحن يمكننا أن نقول تبعاً للمغزى الحقيقي لتعاليم لاو - تسزي، عن دي هو معلومات وطاقة الخطّة الكامنة في حقل الإعلام الكوني، إنه تمدد الكون، «الحركة الحتمية» للعالم، وفي الوقت نفسه، ليس الدّي حالة مادية، إلاّ أنه الكامن الذي يمنح إمكانية كل تجسيم مادي. وما يدل على أن الحديث يجري في الدّي عن الكمون، عن الإمكانية الكامنة، هو كتابة كلمة دي في صورة هيروغليف. فالهيروغليف دي يعكس هذا المفهوم في صورة ينمو فيها من عين المرسوم فرخ نبات ما. ومعنى هذا، إن الدي رمز للنماء، والارتقاء، والانتقال من حالة كمون «الشيء لذاته»، إلى حالة «الشيء للعالم». وهذا هو رمز الخروج من الظلام إلى عالم المرئيات. ولو أُتيحت الفرصة للهنود القدماء لقالوا، إن الكلام يجري عن عالم المايا، عالم الأوهام.

وليست فكرة النماء هذه من سمات المدارس الفلسفية الصينية القديمة وحدها. ففي واحد من أقدم الكتب الهندية، يدعى العالم الذي نعيش فيه: «الزرع العظيم». وكان المسيح قد ردد مراراً مثاله عن الزرع والحصاد، قاصداً بذلك انتشار أفكار تعاليمه.

وكما شاعت في الديانات الهندية القديمة فكرة الروح الكوني، كذلك تحدّثت التعاليم الفلسفية الدينية الصينية القديمة عن البذرة الرُّوحيَّة الكونية.

وإذا كانت روحانية الداو، هي البذرة، فإن الدّي هي النبتة التي ستنمو عليها مع الوقت بذور جديدة. فالداو والدّي هما بمثابة شحنة النماء المقبل وكمونه. وقد جاء في «كتاب التحولات» القديم، إن «أعظم دي السَّماء والأرض يدعى حياة». كما نرصد حضور هذه الفكرة في مقولات الداوسيين المتأخرة أيضاً.

ولكنّ التشابه بين التعاليم الصينية والداو والتعاليم الهندية لا ينتهي عند هذا الحدّ. فنحن نقف عند الداوسيين على ما يشبه الكارما. ويتحدّث هؤلاء عن إمكانية تراكم طاقة الدّي. وفي غضون ذلك ينتقل الإنسان إلى مستوى نوعي جديد. وقد جاء عن الفرق بين الدّي والكارما ما يلي: «إن نتائج الدّي تظهر أساساً هنا والآن، بينما ترتبط الكارما بنظرية النزوح الكوني، ونتائجها لا تظهر في هذه الحياة عادة، بل في ولادات لاحقة».

والآن آن الآوان لكي نتحوّل إلى المسألة الأهم، إلى المسألة الأكثر مبدئية في الديانات كلها، والنظم الفلسفية كلها، وهي: من أين يأتي المبدأ السلبي، من أي قوى الظلام في العالم الذي خلقه ويديره إله واحد أوحد. من الواضح أن الإله في الداوسية، هو الداو. ويستفاد من دراسة تعاليم الداو سيين أن الداو يمكن أن يعلن عن نفسه في قوى النور وفي قوى الظلام التي تصدر عن أصل واحد، هو الواحد العظيم. وهي التسمية الأصحّ للإله. ويجب ألاّ يثير هذا استغراب أحد. فهذه حاضرة في التوراة، وفي الإنجيل. فلنتذكر معاً موعظة الجبل التي قال المسيح فيها: «تشرق الشمس على الأبرار والأشرار على حدّ سواء». وحسب التوراة أنهم كانوا يقدمون القرابين للإله الواحد، ولإله الشر (جدي الخلاص). وهذه الفكرة التي نرصد حضورها في التعاليم الفلسفية وديانات شتى القارات، هي فكرة عميقة جداً وتتوافق وبناء العالم: الموجب والسالب «يعملان» معاً، في الآن عينه، يكمّل أحدهما الآخر، وهما محرّك تطوّر البشرية، والكون كله.

ومن الواضح إنه من الصعب جداً قبول هذا كله، إذ يبدو كأنه تبرير للشرّ. ولذلك يبدو أن أكثر المؤلّفين القدامى أدغم طاقة الدّي كلها بقوى النور، بحركة الأثير المشرق يان. ورأوا أن «الحياة هي ضياء الدّي» (تشجوان - تسزي). وقال لاو - تسزي نفسه عن الداو، إنه مصدر الخير للوجود كله.

في ترجمته إلى اللغة الروسية حمل كتاب لاو - تسزي العنوان: «كتاب الطريق والغبطة». والطريق، هي الداو. أمّا الغبطة، فهي الدّي. والمطلق هو الذي يمنح الغبطة، الخير للعالم. وقد اعتقد القدماء أن بعض الأشخاص وخططهم، وقراهم، وحتى دولهم تنال طاقة الدّي الرُّوحيَّة الخيّرة. ويخلق وجود الدّي داخل الإنسان فيه شتّى الميزات الأخلاقية. ولذلك يمكن القول إن الدّي هو الفضيلة.

ولكن معاكسة الخير والشرّ هي حسب تعاليم لاو - تسزي أمر ليس له مغزى. فكل من هذين المفهومين ينطوي على نقيضه، أي أن الخير يحمل في داخله جنين الشرّ والعكس صحيح. وقد ورد في الإنجيل: «لا يمكن فصل الخير عن الشرّ، كما لا يمكن فصل النهار عن الليل». فالعالم يتكوّن من الإيجابي والسلبي، ولكن وجود الإيجابي من غير السلبي أمر غير ممكن. وفي تخطيط «التقسيم العظيم»، أي عالمنا الذي نعيش فيه، يحتوي العنصر المشرق يان عند حدّه الأكمل، على جزيئة من العنصر المظلم إين؛ ويحتوي هذا الأخير لحظة نضوجه الأقصى على نواة يان. فالأشياء تبلغ حدّها ثم تنقلب إلى ضدها. وإذا ما بات الجمال بمتناول الكل، فإنه يفقد جاذبيته، ويبدو مبتذلاً؛ والخير الذي يقرّ جميعهم به، ويُرفع إلى منصّة الشرف، يولّد شرّاً مقابلاً.

وتترتب على هذا نتائج عملية بعيدة المدى. فلا تحاول أن تثبّت الخير على منصّة الشرف، ولا تسعى من فورك إلى جعل الناس سعداء كلهم، لأن «خيوط السعادة والمآسي داخل الكبّة، متداخل بعضها مع بعض، والفصل بينها ليس ممكناً» إن استئصال الشرّ مستحيل، لأنه يشقّ طريقه بإهاب آخر، عبر عملية إنشاء الخير. ونحن لا نرى ضرورة لسوق أي مثل لهذا، لأن نظرية البشرية كلها تمثّل هذا المثل. فتعاليم المسيح رائعة، ولكن عندما رفعها آباء الكنيسة إلى منصّة الشرف، كم من الآلام ظهر، وكم من الدماء سال. فباسم المسيح خدعوا، وقتلوا، ونهبوا، وابتزوا المؤمنين إيماناً صادقاً. وهذا ما حصل للتعاليم الأخرى أيضاً. وقد قال لاو- تسزي: «كيفما يكون النداء، يكون الصدى». فبقدر ما يكون نداء الخير قوياً، بقدر ما تزداد ضراوة الشرّ. ولذلك لا تقسم العالم إلى خير وشرّ، إلى صالح وطالح، لأن فرض الأحكام على الآخرين أمر محفوف بالمخاطر. «لا تدينوا كي لا تدانوا» (الإنجيل). وهذا ما قاله لاو - تسزي أيضاً، ولكن بكلمات أخرى. فقد رأى أن الإنسان الحكيم يجب ألاّ يشارك في مثل هذا اللهو: تعظيم أحدهم وتحقير آخر. لأنه لهو خطر من حيث جوهره. وحياة الحكيم كامنة في داخله هو. فهو يعلّم بصمت، «من القلب إلى القلب». وقد كان المسيح حكيماً من هذا الطراز. فلم يدع إلى حرب مع الشر، إنما بطريقة عيشه، بوجوده نفسه جعل العالم أكثر إشراقاً، وأكثر طيبة. ليس الحكيم هو المستغرق في تفكيره متبطلاً لا يفعل شيئاً. فالفكر يتصف بالمادّية. ولذلك فإن الحكيم الماكث في تفكير الماكث خارج الفعل يصنع الخير. ولكنه يصنعه بطريقة أكثر فاعلية من أولئك الذين يحاولون أن يغيروا العالم علانية، ويجعلون الناس سعداء بالعنف. «فمن القلب إلى القلب» تواصل بوذا مع تلاميذه. ولحظة تحوّل بوذا إلى النرفانا فهمه تلميذه

كاسيانا بغير كلام، وقبل الزهرة وابتسم. ويفترضون أن تعاليم بوذية جديدة قد ولدت في تلك اللحظة، هي تعاليم إيزين (تشان).

لقد تحدّثنا قبل قليل عن صلة الإنسان بالحقل الإعلامي، الداو. وبقدر ما تكون أخلاق الشخص المعني سامية، بقدر ما تكون هذه الصلة أفضل. لأن الرؤية الدّاخليَّة لمثل هذا الشخص ليست معكرة بآثام الرغبات والأهواء. وقلبه صاف كمرآة المياه التي لا تهزّها الرياح. ولذلك فإن هذه المرآة تعكس كل شيء بدقة وصدق ودون تحريف. إن لمثل هذا الإنسان السامي الأخلاق قدرة على أن يمتلك ما لا يستطيع أحد امتلاكه، وأن يدرك ما لا يدرك. فليس بينه وبين حقل الإعلام الكوني، الداو حجاب. إنه قادر على أن ينزل سلّم الزمن إلى العالم البدئي حينما لم يكن الاسم الأزلي قد نطق به بعد. والاسم الأزلي، هو اسم الطريق الأبدي، اسم الإله. إننا نتحدّث دوماً عن المعلومات، ومن الضروري جداً لنقل هذه الأخيرة، امتلاك كلمة مفتاحية، اسماً. ومن المعروف أن أسماء الآلهة في الديانات كلها، كانت أسماء سرّية مكنونة. فالمسيحيون يصلّون قائلين: «ليتقدّس اسمك». ويقول الصوفيون، إن الإنسان إذا عرف الاسم يحظى بالسلطان حتى في المجال الخارق. أمّا الداو فإنه يتلقّى اسماً عندما يتحوّل من الحالة البدئية الأولى، حالة العدم والخراب، إلى حالة الكوسموس (النظام). وابتداء من تلك اللحظة ينتقل إلى «التقسيم العظيم». ومنذ تلك اللحظة بات اسم الداو راسخاً رسوخاً أبدياً. وقد قال لاو-تسزي: «الذي لم يكن له اسم، غدا مبدأ السموات والأرض، وباكتسابه اسماً صار أُمّ الأشياء كلها». ثُمّ يقول: «الرصين أبداً يبصر الحريز الصعب المنال»، أمّا «عبد الأهواء، فلا يرى سوى المحدود المتناهي». ومعنى هذا أن ما يتلقاه هذا الأخير من حقل الإعلام من المعرفة محدود جداً. فلا تمتد في مرآة قلبه الكدرة سوى خطوط المكنون المهوكة. ومعارفه مقتصرة على ما هو موجود في الواقع الذي أخرجه الاسم إلى الحياة، أي على أشياء العالم المحيط وظاهراته. إن المعرفة السامية لا تمنح لأيّ كان. ولا تدرك إلا بالولوج إلى عمق سرّ من الأسرار. فقد قال المعلّق على تعاليم لاو-تسزي (القرن ٣ق.م.)، «شيخ من ضفاف النّهر الأصفر»: «إنَّ عبارة: سرٌّ من الأسرار معناها، أنَّه ثمَّة سماء في السَّماء. ولا يعطي المعرفة الحقيقيَّة سوى النَّفاذ إلى خارج المجالات القصوى. فالكلمات غير مؤهَّلة لنقل التَّجربة اللاشعوريَّة. أمَّا هذه الأخيرة نفسها، فهي الوسيلة الوحيدة لمقاربة جوهر الأشياء. وليست الكلمات والمفاهيم مؤهَّلة لنقل المعرفة، لأنَّ هذه الأخيرة خارج ما هو عقلي. ولا يمكن للإنسان أنْ يأمل بأنْ يعي ما هو موجود، وما هو غير موجود، إلاَّ إذا نفذ إلى السَّماء الثانية، إلى المجالات الخفيَّة».

إنَّ بلوغ السِّرّ من الأسرار يقتضي بذل جهد معيَّن. وعن هذا قيل: «لقد مات بريقك، فاختلط مع الرَّماد». وهي دعوة لتدمير الذَّات والخضوع. إنَّ الدَّاو كالماء، يسعى لكي يشغل أدنى مكان في هذا العالم. ولكي يندغم الإنسان بالدَّاو، عليه أنْ يحذو حذوه. وكان المسيح قد دعا إلى الخضوع أيضاً، إذ قال: «مَنْ يريد منكم أنْ يرتفع عليه أنْ يصير خادماً لكم».

ويحدث الاستغراق في أمداء الدَّاو «عندما تتبدَّل حالة الوعي»، وهو ما كتبنا عنه في كتابنا «الإله، والروح، والخلود». والحديث يجري عن حالة التَّأمُّل وسواها من الحالات النفسية «المختارة» الأخرى. ففي مثل هذه الحالة يحدث الدخول إلى المجال الواقع خارج المجال الأقصى. وترفع هذه الحالة كل التناقضات التي يتميَّز الواقع بها. في غضون ذلك يتحوَّل الإنسان إلى مقام أسمى وبكيفيَّة مغايرة. ولا بأس بالقول، إنَّه ينقلب إلى مستويات أعلى لذلك الإشعاع السمعي الدَّقيق، الذي يراه الجوَّابون الخارقون، بمن فيهم الدَّاوسيون الصينيون واليوغيون الهنود. وكان تشون يان (عصر مين) شارح تعاليم لاو-تسزي، قد وصف الاستغراق في التَّأمُّل، الذي بات كتاب لاو-تسزي رائده.

«لقد فلَّت نصال المسواة بنفسها، فبتُّ لا أشعر بالمسواة، ولا أحسُّ فكرة اندثارها. والسياط من الخارج لا يمكنها أنْ تنفذ إلى الدَّاخل، وبما أنَّها لا تنفذ، فلا حاجة لجدْلها أصلاً؛ لقد اندثرت تلقائيَّاً، ولا تخرج إلى الخارج بل تبقى صامتة. وفي اللحظة التي أستغرق فيها في سكوني، تغدو هذه الأعباء عاجزة عن إسخاط روحي، أو إقلاق نفسي، أو تمزيق قلبي، أو تشتيت سيي، أو تبذير بذوري. وما أنْ يتوقَّف الإسخاط، والإقلاق، والتمزيق، والتشتيت، والتبذير، حتى ينبلج نور طبيعتي. وعندما ولد النور في داخل سكينتي، عندها فقط تمكَّنت من أنْ أُدرك ما وراء حدوده، وأتنوَّر بقوانينه المكنونة، وأنفذ إلى عمق لجَّته، وأفيد من وعائه. فقط عندما تغوص إلى قاع الماعون، يمكن أنْ تدعو ذلك تحقيق الانسجام. وعندما يصل المرء إلى تلك الدرجة من تدريب الجسم، بحيث يغدو هذا ساكناً كالأرض لا يتزحزح، حينئذ فقط يمكن القول إنَّه جمع حبيبات غباره». ثمَّ يصف تشون يان بعد ذلك عمليَّة الاستغراق على مستويات جديدة. ويقول، إنَّه في أثناء ذلك تولد في الظلمة نماذج مشرقة بالكاد يمكن تمييزها؛ ويظهر إحساس مشوَّش بتيار الداو؛ وتنشأ رؤية الوليد الذي لا يرى. إنَّ ما يحصل إذن هو تجسيم مادي لكلمات لاو-تسزي حين قال: «أنا لا أدري ابن مَنْ هو». ثمَّ يختفي شعور «الأنا». وأخيراً يقع الذوبان التام في الداو.

لقد رأى الداوسيون أنَّ الرحمة وحدها القادرة على قطع سلسلة الشَّرِّ اللا متناهية. ولا يمكن لأي شيء آخر أنْ يفعل هذا. ونحن كنَّا قد أشرنا إلى أنَّ كونفوشيوس عدَّ الرحمة

أسمى صفات الرجل النبيل. وقال، إنَّ الرحمة هي «حبُّ الآخرين». إنَّها الاجتهاد في أنْ «لا تصنع للآخرين ما لا تريده لنفسك».

ويدرس الداوسيون رحمة السَّماء والأرض، ولو كنَّا مكانهم لقلنا، رحمة القوانين الطبيعية للعالم المحيط بنا. فعند الصينيين أنَّ السَّماء هي الإله، وهي قلب. كما عدَّ الصينيون القدماء الأرض حيَّة أيضاً: إنَّها شرايين الدماء. ومُنحت السَّماء والأرض إدراكاً وإرادة. ولكنَّ رحمة السَّماء والأرض (الإله) رحمة فريدة. «تعلوان فوق الكل، وتسكبان نعمتهما بالتَّساوي لا على الإنسان وحده، مع أنه الأغلى، إنما على الوجود كله، على العظيم والضئيل، لصاقاً حتى الشجر والعشب، والزواحف، والحشرات. كأنَّهما على الجانب الآخر للخير والشَّرِّ، ولكن «كأنَّهما» وحسب، لأنَّ الداو إلى جانب الصالحين دوماً. ففي بعض الأحيان تبدو رحمتهما السامية لا إنسانية، بيد أنَّ هذا مجرَّد ظاهر فقط. وهكذا ينبغي على الإنسان أنْ يكون، فإذا ما أدرك أسمى درجات الكمال الروحي، يغدو رصيناً، بعيداً عن الأهواء، ويفسح للعدالة العليا أنْ تتحقَّق».

ويجب على الإنسان أن يحاول أن يسلك مثل هذا السلوك كذلك. فالمسيح لم يرفض أحداً، وحاول أن يساعد كل مَنْ أتى إليه. وقال، لا يأتي الطبيب إلى المعافى، بل إلى المريض. وداوى أرواح الناس. والداوسيون أيضاً يدعون الإنسان إلى الاقتداء بالسَّماء والأرض في منح رحمتهما، أي يدعونه لكي يصير خالداً. ولكنهم يختلفون هنا مع المسيح اختلافاً مبدئيًّاً. فهم يرون أنَّه ينبغي على المرء أن يكون رصيناً، بعيداً عن الأهواء في علاقاته مع الأقارب (الطيِّبين والأشرار). فلا يجب عليه أن يرحم، بل أن يترك الفرصة للإله الأعلى كي يتجلَّى، كي يظهر الرحمة العليا. وقد كتب تشون يان عن هذا ما يلي: «السَّماء والأرض عاليتان علواً متناهياً وواسعتان اتساعاً متناهياً... وتتوزَّع بركتهما وعطفهما على الوجود كله، ويظهر هذا في أنَّهما تلدان، وتربِّيان، وتكبِّران إلى حدِّ الكمال آلافاً مؤلَّفة من مخلوقاتهما، وفي هذا تقوم رحمتهما. إنَّ السَّماء والأرض تحتويان الوجود كله، وكل ما هو موجود يحسُّ بركتهما. وبما أنَّها لا أشكال لها ولا آثار، فإنَّ هذه البركة تنتمي إلى الغبطة العليا، التي لا تبارك الرحمة العليا، التي ليست رحيمة. وهذه هي بالضبط الرحمة المتناهية؟ فبفضل «لا رحمتهما» بقيت السَّماء والأرض موجودتين هذا الأمد الطويل كله... إنَّ المرء الكامل الحكمة الذي يعمل على تحسين كماله، محاكياً السَّماء «اللا رحيمة»، لا يفعل شيئاً سوى أنَّه يغيِّر نفسه وحده، ولكنْ عندما يتحدَّثون عن «مائة عشيرة»، فإنَّ هذا ليس سوى جسد واحد، إنَّه هو عينه، وليس الآخرون. إنه قلب البلاد، فكر الملك، قلب الشَّعب. فبتبطّله يحوِّل الجسد، وبتبطّله يحافظ على القانون. وهذه هي الرحمة بعينها، ففي السكون والاحتجاج، وعدم

إظهار الرأفة يحذو الكامل الحكمة حذو الرحمة العليا للسَّماء والأرض، هذه الرحمة التي «لا ترأف»؛ وهكذا يسعى لكمال نفسه».

تعدُّ مشكلة الرحمة مسألة مبدئية في تبيان الاختلافات بين ديانات الشرق والغرب، ولذلك نرى أنه من الضروري أن نعالجها بالتفصيل. ولنعد مرَّة أخرى إلى تشون يان: «كيف يمكن للمرء الساعي إلى كمال نفسه ألاَّ يحاكي الأرض والسَّماء؟! فالذي يطوّر نفسه بمساعدة الفراغ، يكتسب جماله وغموضه: ليست به حاجة لأن يطمع بالمجد، أو بالطريق. فما أن يبلغ الخواء حدَّه حتى تحدث حركة ما. وعندما تبدأ هذه الحركة تريق الجمال، يبدأ إحساسك بمكنون ما يجري يتزايد. وهذا ما لا يمكن التعبير عنه! ولذلك فإنَّ روعة أن تدرك ذاتك، ومكنون اللقاء مع ذاتك، وسر التركيز في داخل ذاتك إلى درجة النسيان الكلي، وعزل ذاتك في أقصى وسط الطريق الأقصى، وبراناك الواحدة الحقيقية الأزلية، هذه كلها التي بفضلها تسعد بحقيقة السَّماء، لهي أفضل من الخسائر التي لا حصر لها. أو ليست هذه هي تلك اللا إنسانية التي يغدو فيها الحكيم الكامل الساعي إلى تحسين كماله، شبيهاً بالسَّماء والأرض، أوليس هذا، هو قانون الفراغ الخفي المكنون؟ إنَّ رحمة السَّماء والأرض تكمن في لا رحمتهما. كم هو مكنون في عظمته اللا متناهية هذا السرُّ، كم هو مكنون رسوخه اللا محدود».

وعن هذا نفسه يقول شيخ ضفاف النهر الأصفر (القرن ٣ق.م): «كثيرة هي الهموم التي تؤذي الروح، وكثير هو الكلام الذي يؤذي الجسد. فعندما تنفرج الشفتان وينطلق اللسان على هواه، فإنَّ البلية والرزيَّة واقعتان لا محالة، أليس من الأفضل أنْ تستغرق في التركيز على الفضيلة الدَّاخليَّة، وتهتم بإنبات بذرة الروح وتعشق البرانا -تسي وتقلل من الكلام؟».

وهذا كما نرى يميِّز الفلسفة الشرقية عن الفلسفة الغربية، وديانات الشرق عن ديانات الغرب. فالمسيحيَّة والإسلام يهتمان بالمجتمع كله، بأفراد الطائفة كلهم دون استثناء. فالشاة الضالة بالنسبة إليهما أغلى من تلك التي تسير على الطريق الصحيح. ويستحقُّ الابن الضال استقبالاً حافلاً من قبل والده: لقد عاد أخيراً إلى الحقِّ. فللإنسان أهمِّيَّته في هاتين الديانتين لأنَّه يُعدُّ جزءاً من المجتمع، من الطائفة، من الجماعة. ولا يجوز أنْ يترك جائعاً، وعارياً، وبلا رجاء، لقد قال المسيح إنَّ قبوله، قبول تعاليمه، يعني إطعام الجائع، وإكساء العاري، ومواساة المريض و...وفي هذا يقوم جوهر تعاليمه. وإذا أرادت المسيحيَّة المعاصرة أنْ يكون لها مستقبل، فإنه ينبغي عليها أن تدرك هذا، لا أن تهتم بدخلها المالي فقط. ولكن كيف تتعامل الديانات الشرقية مع هذه المشكلة؟ لقد أجبنا على هذا السؤال قبل قليل؟ ولكنَّنا نكرِّر:

لا يغيِّر المرء الكامل الحكمة الساعي إلى تحسين نفسه، سوى نفسه وحدها فقط. أليس من الأفضل التركيز على الغبطة الداخليَّة، والاهتمام بإنبات البذرة الرُّوحيَّة، وتنقية النفس. ونحن نجيب: «لا، ليس هذا هو الأفضل»، لأنَّ المجتمع كله، والبشرية كلها كائن حيٌّ واحد، وجزء من الكائن الحيِّ الذي يملأ الأرض. فالمجتمع ليس مجرَّد كمٍّ من المواطنين، أو من أفراد كل منهم قائم بذاته مستقلٌّ عن الآخرين، إنَّه كائن حيٌّ لا يمكن للإصبع، أو الساق، أو أيِّ عضو آخر أنْ يعيش فيه ويتصرَّف على هواه. إنَّ الإنسان يولد فرداً، له مواهبه، وقدراته، ومؤهلاته، وميوله، ومساعيه، بيد أنَّه يُعدُّ في هذا كله جزءاً من نظام: مجتمع، ولذلك فإنه ملزم أن يعمل لخير المجتمع. فالشخصية لا وجود لها خارج المجتمع. والشخصية الحقّة تظهر بصفتها شخصية حسب موقفها من الآخرين، من المجتمع كله، فقد سار المسيح إلى الصليب من أجل المجتمع، من أجل الناس. يقيناً أنه كان كامل الحكمة، ولكن لا يمكن تخيُّله وقد قصر اهتمامه على التركيز الذاتي، وإنبات البذرة الرُّوحيَّة والروح. لماذا إنبات الروح وتربيتها إذا كانت لن تسخِّر لخلاص القريب، ورفع شأن المجتمع كله؟ وما الفائدة من أن تقضي حياتك كلها متأملاً على قمم الجبال وفي الكهوف، إذا كنت لن تقدِّم شيئاً للآخرين؟

وعليه يغدو من الواضح لماذا أخذت الديانات والتعاليم الشرقية تلقى مزيداً من الانتشار في الغرب. فالمجتمع الغربي يتشظى إلى كثرة من الأفراد الذين تعذبهم الوحدة في تلك الأدغال الحجرية. فالكائن الحيُّ يسقم، ولا يمكن لبعض خلاياه منفردة أنْ تكون سعيدة. ولذلك نراها تبحث عن خلاصها في فردانية الشرق، في الانفصال عن الواقع، في النسيان.

إن ما قلناه هنا لا يمثِّل رفضاً لديانات الشرق، فالحديث يجري عن محور ارتكازها الذي يميِّزها عن ديانات الغرب. بيد أنَّ هذا لا يعني أنَّ أخلاقياتها تختلف في شيء عن أخلاقيات المسيحيَّة والإسلام. ففي مقدِّمته التي كتبها لترجمة كتاب لاو-تسزي إلى اللغة الروسيَّة في العام ١٩١٣م، كتب ليف تولستوي يقول: «إنَّ أُسَّ تعاليم لاو-تسزي هو نفسه واحد، كأُسِّ التعاليم الدينية الحقَّة العظمى الأخرى كلها. وهو التالي: يعي المرء نفسه أوَّلاً بصفته شخصية جسمية، منفصلة عن كل ما عداها، وتريد الخير لها وحدها فقط. ولكن قبل أن يعدَّ المرء نفسه بيتر، أو إيفان، أو ماريا، أو كاترين، فإنه يعي ذاته أيضاً بصفته روحاً بغير جسد، مثله مثل الروح الذي يعش في كل كائن ويمنح الحياة والخيرات للعالم كله. ويمكن للإنسان أن يحيا إما بشخصيته الجسمية المنفصلة عن العالم، والتي لا تريد الخير إلاَّ لذاتها، أو بروحه اللا جسدي الذي يعيش فيه ويتمنَّى الخير للعالم كله. إنَّ الإنسان قادر على أن يعيش لجسده أو لروحه. فعش أيُّها الإنسان لجسدك، والعيش للجسد بلية، لأنَّ الجسد

يعاني، ويسقم، ويموت. وعش أيُّها الإنسان لروحك والعيش للروح خير، لأنَّ الروح لا تعاني، ولا تسقم، ولا تموت.

ولذلك كي لا تكون حياة الإنسان بلية بل خيراً، فإنَّه يجب عليه أنْ يتعلَّم العيش لا لجسده، إنما لروحه. وهذا ما يعلِّم به لاو-تسزي. إنه يعلِّم الانتقال من حياة الجسد إلى حياة الروح. وهو يدعو تعاليمه طريقاً، سبيلاً، لأن تعاليمه كلها ترشد إلى هذا المعبد؛ ومن هنا حملت تعاليمه كلها اسم: «كتاب الطريق والغبطة». وتقوم هذه الطريق حسب تعاليم لاو-تسزي، في ألاَّ تفعل شيئاً مما يريده الجسد، أو افعل الحدَّ الأدنى منه، كي لا تخمد ما تريده الروح، ولا تعرقل عمل الأعمال الجسدية، وتمنع إمكانية أنْ تظهر في روح الإنسان قوَّة السَّماء (هكذا يسمِّي لاو-تسزي الإله)، التي تعيش في كل شيء.

وإذا كان المترجم قد نقل هذه الفكرة بدقَّة، فإنَّ ما يثير الاهتمام، هو أنها غالباً ما تنعكس بصورة غريبة مقصودة، ولكنها تمثِّل في الأحوال كلها أسَّ التعاليم كلها.

وهذه الفكرة لا تشبه وحسب، وإنما هي عينها الفكرة التي وردت في رسالة يوحنا الثانية وتقوم في صلب تعاليم المسيحية. فحسب لاو-تسزي أن الداو هو الطريق الوحيدة التي يتحد الإنسان بوساطتها مع الإله. أما الداو فلا يتحقق إلاَّ بالإحجام عن كل ما لا لزوم له، عن ما هو جسدي. وهذا ما عكسته التعاليم التي جاءت في رسالة يوحنا الأولى. فحسب تعاليم يوحنا أنَّ المحبة هي وسيلة الاتحاد مع الإله. والمحبة كالداو، لا تتحقق إلاَّ بالإحجام عن كل ما هو جسدي، وذاتي. وكما أنَّ المقصود بكلمة داو، وفق تعاليم لاو-تسزي، هي طريق الاتحاد مع السَّماء والسَّماء نفسها؛ كذلك فإنَّ المقصود بكلمة محبَّة في تعاليم يوحنا، هي المحبة نفسها والإله بذاته (الإله محبَّة). ويقوم جوهر هذه التعاليم وتلك في إن الإنسان قادر على أن يعي نفسه منفرداً ومتحداً، عابراً وأبدياً، جسداً وروحاً، حيواناً وإلهاً، وحسب لاو-تسزي إنَّه ثمَّة طريق واحدة يحددها بكلمة داو، تنطوي في ذاتها على مفهوم الغبطة السامية. ويدرك هذا بالتحلِّي بصفة يعرفها الناس كلهم. إذن، جوهر تعاليم لاو-تسزي، هو عينه الإحجام عن كل ما هو جسدي، وعبر العنصر الروحي الإلهي الذي يشكل أسَّ حياة الإنسان».

من الواضح أنَّ تولستوي لم ينطلق في مقارنته بين الداوسية والمسيحيَّة إلاَّ من المعايير الأخلاقية دون أنْ ينخرط في تحليل الأسس الفلسفية لتعاليم الداوسيين، وفيما يتعلَّق بالأخلاق، فإنَّها كالأخلاق النابعة من الديانات العالمية الأخرى، لا تناقض من حيث المبدأ الأخلاق المسيحيَّة.

وهكذا رأى لاو-تسزي، أنَّ الإنسان الحكيم يجب أنْ يتعامل كما تتعامل السَّماء والأرض اللتان تنبتان مليارات الكائنات وتمنحانها القوت والعناية. وعلى الإنسان أن يفعل الشيء عينه إذا كان يريد الخير لنفسه. فثمَّة في الكون قانون، هو قانون ثواب الأعمال الصالحة التي يصنعها الإنسان بتفانٍ.

ويقول لاو-تسزي، إنَّ «نهم الرغبات يهلك الروح، ووفرة الثروات تضني الجسد». وجاء في الإنجيل: «لا تكنز كنوزاً على الأرض، حيث يفنيها العثُّ والصدَّأ، وينقب اللصوص ويسرقون»، و«من الصعب أنْ يدخل ثري ملكوت الرب!». وقد علَّم لاو-تسزي ضرورة أن يعرف المرء القسط، فقال: «عارف القسط غنيٌّ!». وعن هذا قال شارح تعاليم لاو-تسزي: «في السمت تبدأ الشمس تميل نحو الغروب، وإذ يكتمل القمر يبدأ يتناقص، وبالازدهار يستبدل الذبول، وبالسعادة الأسى». بكلمات أخرى، إنَّ كل ما في العالم يتحوَّل مع الوقت إلى نقيضه.

وتشير تعاليم لاو-تسزي بوضوح إلى الكيفية السليمة لتعامل الإنسان مع جسده، وقد عبَّر تشجين عن هذا بقوله: «يجب على الإنسان أن يحرص على جسده لا أن يحبَّه... فعندما يرفعون الصلوات إلى الداو، يضاعفون أعمال الخير، ويصنعون الفضائل، ويزرعون البذرة الرُّوحيَّة وينبتون الروح، والروح يصنع الخلود السحري، وبذا يغنون النفس. ولكنَّ أولئك الذين يتعطشون إلى الجد والإجلال، ويثقلون بذرتهم الرُّوحيَّة وفكرهم لكي يكسبوا الثروات، ويحشون أجسادهم بالطيِّبات، وهذا لعمري جوهر حبِّ الجسد، هؤلاء لا يجمع بينهم وبين الداو شيء».

ويثير الاهتمام رأي الداوسيين بصدد المصير. وعن هذا قال فان تشون (العام ١٠٠م.): «إذا كان الفقر مكتوباً لصنفك، وأنت اغتنيت بسعيك وكدِّك، فإنك بعد أن تغتني تموت. وإذا كانت الضِّعة مكتوبة لصنفك، وأنت نجحت بمواهبك ومؤهلاتك أن تبلغ الوجاهة، فإنك أنت الذي حققت الوجاهة، سوف تُخصى. فالقسمة والمصير ليسا بقادرين على احتواء الثروة والوجاهة اللتين اكتسبتا بالقدرات والمواهب والحفاظ عليهما، فهما كالماعون الذي له سعة محدودة».

وفيما يخصُّ الأخلاق البشرية، فقد كانت هذه دوماً في الأزمنة كلها على أدنى مستوى. وهذا ما نقرأ عنه في التوراة والقرآن والمصادر الهنديَّة. وهناك أيضاً يجري الحديث عن العصر الذهبي للبشريَّة، حينما كان كل شيء مختلفاً، حينما كان كل شيء على انسجام مع القوانين الإلهيَّة، مع قوانين الطبيعة، وحسب التوراة إنَّ هذا كان في الجنة قبل أن يخالف آدم وحواء وصية الرَّبِّ ويأكلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشَّرِّ. كما تنوِّه المصادر الصينية القديمة بدورها إلى عصر الانسجام:

«في أزمنة الداو العظيم كان الأطفال مبجّلين في العائلات، وكان يمكن أن ترصد في البلاد الصدق، والإخلاص، والأمانة، والرحمة، والعدل والواجب. ولكن عندما دخل الداو العظيم دور التقهقر وخرج من حيِّز الاستخدام، وتكالب الشَّرُّ على الحياة، عندئذٍ ظهرت الرحمة، والعدل، والواجب لكي ينقلوا الداو من جيل إلى جيل، وظهر الإجلال البنوي، وعناية الوالدين من أجل أن يرعى الطرفان أحدهما الآخر، وظهرت الرعية المخلصة...». وبعد ذلك يُسلب الإنسان الحقيقة المطلقة، وليست الأخلاق البشرية مؤهَّلة لتأخذ مكانها. وقد كتب «الشيخ» يقول: إنَّ الداو وحده القادر على منح المعايير الأخلاقيَّة الحقيقيَّة. ففي حضور الداو يتلاشى الإجلال البنوي وعناية الوالدين، وتختفي الرحمة، والعدالة، والواجب كما يختفي ضوء النجوم وضوء القمر عندما يظهر نور الشَّمس». وبتعبير أدق، فإن هذه لا تختفي، إنما تكتسب مغزاها الحقيقي العميق، فالأخلاق البشرية، هي في واقع الحال نتيجة لفساد البشرية، وبديل عن الأحاسيس الطبيعية والتواصل مع الحقيقة. وقد دعا لاو-تسزي إلى رمي الحكمة المختلقة الباطلة والمعرفة السطحية البائسة، لأنهما عاجزتان عن منح الإنسان السعادة. ويقول فيلسوف معاصر، إنَّ لاو-تسزي يدعو إلى «الامتناع عن الساطع الذي يلفت النظر، لكنه سطحيٌّ طارئ وغير ذي جوهر، والالتفات إلى الجوهر الأبدي والطبيعية المجرَّدة غير المزركشة. ولم يطرح لاو-تسزي سوى ثلاثة مطالب، لكنها أنفس من كثرة منها: رمي الحكمة البشرية كلها، ورمي الأخلاق المبتذلة، والعزوف عن كل حيل الطمع، أي تدمير كل دافع بشري يحرِّض على الفاعليَّة، لقد تلمَّس لاو-تسزي بدقة دوافع التقدم البشري الثلاثة الفاعلة في أبعاد وجوده الثلاثة: التعطش لتحقيق البحبوحة المادية، وهو الذي ينشِّط عمليَّة الإنتاج؛ والتراكم وتطوير التقنيات، والتعطش للمعرفة، الذي يفضي إلى ظهور العلوم، ثم في آخر المطاف إلى التوسع الكوني للبشرية؛ وأخيراً المقولات الأخلاقية، المقولات الإيديولوجيَّة التي تدرج هناك حيث لسبب ما فقدت النفعية البشرية أو حب المعرفة فاعليَّتهما».

وتدفعنا دعوة لاو-تسزي إلى العزوف عن المعرفة المبتذلة إلى أن نتذكَّر كلمات التوراة: «من تزداد معرفته تزداد أحزانه». إنَّ المعرفة الحقَّة لا تزرع في الإنسان سوى الالتفات إلى علَّة العالم البدئيَّة، أي إلى الداو.

«إنَّ الداو يخلق الحياة ثواباً على فعل الخير، ويخلق الموت لكي يخيف الشَّرَّ. فالموت هو ما يخافه الإنسان! ولكنَّ الحكَّام والرجال الأبرار، وكذلك ناس البهرجة الباطلة، سيَّان بالنِّسبة إليهم خوف الموت وفرح الحياة، ومع ذلك يسلكون سلوكاً متبايناً. فالسَّاعي وراء البهرجة الباطلة يخاف أن يموت، ولكنَّه لا يستطيع أن يؤمن بالداو، ويميل دوماً إلى الأعمال الحمقاء: كيف

يمكنه أن ينجو من الموت؟ أمَّا الرجل البارُّ فهو يؤمن بالداو خوفاً من الموت، ويلتزم بالتعاليم لأنَّه متوائم مع الحياة» (تشنجان). ومن المفيد أن نؤكِّد على أن الإيمان بالداو والتواصل معه، والسعي إلى عمل الخير يمكن أن تمنح الإنسان الحياة الأبديَّة. وهذا ما تقول به التوراة أيضاً.

فالصلاح هو الشرط الضروري لكي تثمر بذرة الحقِّ. وعن هذا كتب تشجان يقول: «لنشبِّه البذرة بالماء في السَّدِّ الصغير، والجسم الذي يحبس الماء بالسدّ، وأعمال الخير بالينبوع. وإذا ما اجتمع ثلاثتهم فإنَّ السَّدَّ راسخ قوي وممتلئ بالماء. ولكن إذا لم يكن القلب نازعاً إلى الخير، فعندئذ لن يكون هناك سدٌّ يحبس الماء، فيترك هذا المكان ويمضي في سبيله. وإذا لم تتراكم أعمال الخير، فإنَّ النفايات تتجمَّع في المكان ويجفُّ الماء».

ويتألَّف «كتاب الطريق والغبطة» من خمسة آلاف كلمة. وقد كرِّست لدراسته ثلاثة آلاف كتاب، عمل كلها على تأويل «كتاب» لاو-تسزي. ولكنَّنا لم نسق هنا سوى بعض ما قاله أشهر المعلِّقين على الكتاب وشارحيه. وها نحن نسوق أيضاً بعض آيات «كتاب» لاو-تسزي، لكي نعطي القارئ تصوُّراً عن صيغة الكتاب وأسلوبه وخصائصه.

الآية ٢: تهذيب الذات

فقط ينبغي على كل مَنْ في أرض السَّماء (= الصين. م.) أن يدرك،
أن البديع بديع، ولكنه بات الآن شرّاً!
فقط يجب أن يعي أن الخير هو خير، ولكنه لم يعد الآن خيراً!
لأن ما هو موجود وما هو غير موجود يلد أحدهما الآخر.
فالعسير واليسير يشكل واحدهما الآخر.
والطويل مع القصير يعطي كل منهما الآخر الجسد.
والعالي مع المنخفض يتمدد كل منهما نحو الآخر.
والصوت واللحن بعضهما مع بعض يتوافقان.
و«القبل» و«البعد» يلي كل منهما الآخر...
ولذلك يبدع الحكيم في تبطُّله إرشادات صامتة.
ينشئ أفواجاً من الأشياء، ولا يرفضها.
ينجب، ولكنه لا يملك،
يبدع، ولكنه لا يتفاخر.

مآثره تتزايد، ولكنه لا يحيا عليها.
وبما أنه لا يحيا عليها، فإنها لا تبارحه.

الآية ٣: تهدئة الشعب

إذا لم تعظِّم الحكماء، فلن ينشب الصراع في أوساط الشعب؛
وإذا لم تحرص على ما حصلت عليه بالعناء، فلن يكون في الشعب لصوص.
وإذا لم يكن ثمة ما يُرغب به، فلن تهيج قلوب الناس.
وهاك دواء الحكيم الناجع:
اجعل قلوبهم خاوية،
واملأ بطونهم،
وخفف من غلوائهم،
وصلِّب بنيتهم.
لكي يبقى الناس دوماً بغير معرفة، وبغير رغبات، ولكي
لا يجرؤ حتى العارف منهم على الفعل، ازرع التبطُّل، عندئذ يبرأ كل منهم.

الآية ٨: بدّل طبيعتك

الخير الأسمى كالماء، يحمل النَّفع لآلاف مؤلَّفة من الكائنات،
ولا ينافس أحداً. اختر القسمة التي يحتقرها جميعهم،
تقترب من الداو. أقم في الأماكن الطَّيِّبة، واملأ قلبك من المنابع
الصالحة، وتواصل مع الناس الصالحين، وقل الصدق
والصَّلاح، وحقِّق الإدارة الصالحة، ونَمِّ القدرات الطَّيِّبة،
وكن فاعلاً بما ينفع الزمن... ولكن فقط لا تتنافس مع أحد،
فتتفادى الحزن!

الآية ١٠: القدرة على الإنجاز

إذا شبكت روحك السماوية وروحك الزمنية،
وحضنتهما معاً، فهل تستطيع أن تبقي عليهما؟!
وإذا ما سقت روح التسي إلى حدود الرِّقَّة، فهل بمقدورك أن تعود رضيعاً؟!
وإذا ما غسلت الرؤية الصوفية وطهَّرتها، أيمكنك أنْ تزيل غشاوتها؟
* * *

إذا أحببت الناس، وأنت تدير المملكة، أيمكنك أن تمكث متبطلاً؟!
وأنت تفتح بوابات السَّماء وتغلقها، أبمقدورك أن تلتزم الأنوثة؟!
وإذا ما تبيَّنت الحدود الأربعة عن كثب، فهل تستطيع أنْ تحتفظ بجهلك؟!

* * *

أنجب وضاعف!

* * *

أن تنجب ولا تتسلط، وتنجز ولا تفخر، وتكبِّر ولا تترأس؛
فهذا هو ما يدعى بالغبطة المكنونة!

الآية ١٦: العودة إلى الأصل

أبلغ أطراف الخواء، أحتشد في السكون والسكينة.
فهنا تُخلق متواقتة آلاف مؤلَّفة من الأشياء، وأنا أرقب رجوعها.
ها هي الأشياء تنمو، وكل منها يرجع مرَّة أخرى إلى جذوره.

والعودة إلى الجذور طمأنينة، وفي الطَّمأنينة اكتساب مصير جديد، وفي اكتساب المصير الجديد خلود، وفي إدراك الخلود صحوة. ومن لا يعي السرمديَّة يصنع الشرور عامهاً، أمَّا مَنْ يعي الأزل فإنه يستوعبه في داخل ذاته.

ومن استوعبه بات نزيهاً، والنزيه ربّ، والرَّبُّ، هو السَّماء، والسَّماء هي الطريق، والطريق أبدية. حتى إذا اندثر الجسد فأنت لن تهلك!

الآية ١٨: التصاغر الدنيوي

عندما دخل الداو العظيم طور الانحطاط، ظهرت «الرحمة»، و«العدالة»، و«الواجب». وعندما طفت الحكمة والمعارف إلى السطح، ظهرت الكذبة الكبرى، وعندما ساد النزاع بين الأقارب، ظهر «الإجلال البنوي» و«عناية الوالدين»، وعندما بدأت الفوضى والاضطرابات في البلاد، ظهرت «الرعية المخلصة».

الآية ٢٠: الخلق القديم

تخلَّ عن سعة العلم، فتختفي الأحزان!

«النعم» و«الكلاَّ»، هل تقف واحدتهما بعيداً عن الأخرى؟!

والخير والشَّرُّ، هل يختلفان كثيراً؟!

ما يخافه الناس لا يمكنك ألاَّ تخاف منه، ولكن وا أسفاه،

كم هم بعيدون عن الصحوة!

الناس فرحون وغير مبالين، كأنهم ذاهبون إلى وليمة قربان كبيرة،

كأنهم يتنزَّهون في يوم ربيعي جميل.

فقط أنا وحدي، بحيرة لا تتماوج، أنا كالرضيع الذي لم يغد طفلاً بعد.

آه، كم تعبت، ويهيأ لي أن لا رجعة...

الناس لديهم فيض في كل شيء. وأنا وحدي فقط كما لو أنـي فقـدت كل شيء. فأنا أيضاً قلب أحمق فيه خراب!

كل شيء جلي لأهل الباطل، وأنا وحدي جاهل؛ فلأهل الباطل شـأن في كل شيء، وأنا وحدي لا مبالٍ.

عريض بلا حدود، كما البحر، وكالريح لا أعرف الحواجز...

لكل من الناس مهارته، وأنا وحدي فقط بليد كالمتوحش.

أنا وحدي فقط لا أُشبه الآخرين، لأني حريص على مطعمتي!

الآية ٢١: خواء القلب

إهاب الغبطة الشديدة مرهون بالطريق فقـط، والطريـق بعـد أن تشيَّأت بالكاد نتبيَّنها، بالكاد تومض... ولكن في الظلام الدامس، في الوميض أشكال، صور، في الـوميض، في الظـلام الـدامس أشـياء، في الديجور الحالك تكمن البـذور. وتلـك بـذور عميقـة الحقيقـة، فيهـا اليقين.

* * *

منذ الأزل وحتى اليوم ذلك الاسم حاضر لا يفارق.

لكي يبصر أب كل شيء. ومن أين لي أن أعرف كيـف يبـدو أب كـل شيء؟ بفضله هو.

الآية ٢٢: فائدة الخضوع

من ينحني يسلم، والمتقوس يستقيم، والعميق يمتلئ، والقديم يتجدد،
ومن لديه القليل يكسب، والطامع بالكثير يرتاب. لأنَّ الحكيم الذي ركَّز
على الواحد الوحيد، هو مقياس لهذا العالم:
لا يقدِّم نفسه ولذلك فهو شهير، ولذلك فهو معترف به، هو نفسه
لا يهاجم ولذلك له مآثر، ولا يفاخر بنفسه ولذلك أمده طويل.
ليس في العالم من يستطيع أن يقهره، لأنه لا يشارك في صراع.

* * *

فالقول المأثور القديم: «إذا ما انحنيت سلمت» ليس جوهراً لكلام فارغ إذن. حقاً يحمل معه حكمة.

لقد عرف تاريخ الصين أطواراً أدَّى الداوسيون فيها دوراً مهمّاً في حياة البلاد السياسية، وكانت تلك أدوار الأزمات التي عاشتها السُّلطة المركزيَّة، وساد خلالها الاستياء الشعبي في كل مكان. ويعرف التاريخ انتفاضة «الأربطة الصفراء» التي قادها الداوسيون. فخلال وقت قصير أنشأ الساحر الداوسي تشجان تسزيوي طائفة كبيرة منظمة عسكرياً ومستعدَّة لاتخاذ أيِّ تدابير كانت ضد الحكومة المركزيَّة. لقد كانت تلك نهاية السلالة الخانية، إذ احتشدت حينئذٍ البلايا كلها معاً: الأزمة السياسية، والكوارث الطبيعية، والأوبئة. فبدأت القلاقل. ودعا الداوسيون إلى الإطاحة بالسلطة المركزيَّة. وطرحوا بدلاً منها مملكة العدل الأعظم. فأعلن قائد طائفة الداوسيين تشجان تسزيوي أنَّ العام المائة والأربعة والثمانين سيكون في الصين عام «السَّماء الصفراء». وهو الطور الذي يحمل للعالم السعادة والرخاء، ويضع حداً نهائياً لعصر «السَّماء الزرقاء» (السلالة الحاكمة التي عُدَّت مصدر الشَّرِّ والظلم). لقد عقد أنصار «السَّماء الصفراء» أربطة صفراء حول رؤوسهم. ولذلك دخلت الانتفاضة التاريخ تحت اسم: انتفاضة «الأربطة الصفراء».

ولكنَّ السُّلطة استبقت الأحداث ودمَّرت الانتفاضة. وقد قتل قائد الداوسيين أثناء الأحداث، وفرَّ من بقي منهم على قيد الحياة، غرباً. وكانت تنشط هنا في الأقاليم الحدودية طائفة داوسية أخرى بزعامة تشجان لو. وقد تحوَّل الإقليم إلى ما يشبه الدولة الداوسية المستقلَّة، لأنَّ السُّلطة المركزيَّة انهارت، وامتدَّ الطَّور الفاصل بين السُّلطتين وقتاً طويلاً بعض الشَّيء. (القرون ٣-٦م).

لقد قامت دولة الدّاوسيين هذه وبنيت على مبدأ الثيوقراطيا. فقسِّمت إلى أربع وعشرين طائفة دينيّة. وقام على رأس كل منها أُسقف. وكانت سلطة الأساقفة هذه وراثيّة. لقد كانت السُّلطة في كل طائفة بأيدي المرشدين الدّاوسيين. وكان يقف على رأس الدَّولة بطريرك، وسلطته كانت وراثيّة أيضاً. وبعد العام ١٩٤٩م. (بعد الثّورة الشيوعيَّة الصِّينيَّة. م.)، انتقل آخر بابوات سلالة التشجانيين هذه إلى تايوان.

الباب السابع

التوراة والقرآن

(التوراة = بيبليو، كلمة إغريقيَّة معناها «كتاب»). ولكنَّ البيبليو (= التوراة)، ليس مجرَّد كتاب وحسب، إنَّما هو كتاب الكتب. فالتوراة كما هو معروف، تتألَّف من حوالي ٨٠ كتاباً قائماً بذاته. أصغر هذه الكتب يتألَّف من عدَّة صفحات. وتتألَّف التوراة نفسها من جزأين: العهد القديم، والعهد الجديد. ومن حيث الحجم يشكل العهد القديم حوالي ثلاثة أرباع التوراة كلها. وقد وضع كتب العهد القديم عدد من المؤلِّفين على امتداد ألف وخمس مائة عام. أمَّا العهد الجديد، فهو يتضمَّن تعاليم يسوع المسيح. وقد وضعت كتبه خلال زمن قصير نسبيَّاً.

وبعد ستِّ مائة عام من ميلاد المسيح جاء النَّبي محمَّد (ص) بالقرآن. وقد تأسَّس القرآن بالكامل على المادَّة التَّوراتيَّة. وتعاليم العهد القديم هي أساس اليهوديَّة، وهي ديانة اليهود. ولا تعترف هذه بقدسيَّة تعاليم العهد الجديد والقرآن. وترى أنَّ الإله الأعظم أرسل حقائقه الكبرى عبر الأنبياء إلى شعبه المختار: اليهود، وهي حقائق أزليَّة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل. ولكنَّ تعاليم العهد الجديد تعيد النَّظر في كثير من تعاليم العهد القديم. فتعاليم العهد الجديد تتوجَّه إلى البشر كلهم بصرف النَّظر عن انتمائهم القومي. ومع هذا يؤلِّف العهد الجديد مع العهد القديم كلاً واحداً موحَّداً. فقد قال المسيح: «ما جئت لأنقض العهد بل لأتمِّمه». ولذلك تقوم ديانة

المسيحيين على كتاب التوراة بجزأَيْه. ولكنَّ المذهب المسيحي البروتستانتي يشكل استثناء في هذا التَّعميم، فهو لا يقرُّ العهد القديم.

وتختلف التوراة بعض الاختلاف في كل مكان عند اليهود، والكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت. وتكمن المسألة هنا في أنَّه تمَّ اختيار جزء محدَّد من مجمل الرِّوايات التوراتية واعتمد بصفته الكتاب القانوني المعترف به. وعُدَّت الكتب الأخرى التي لم تدخل قوام الأسفار القانونيَّة كتباً غير قانونيَّة. وثمَّة ضرب آخر من هذه الكتب، يدعى بالكتب المنحولة (= أبوكريف). وكلمة أبوكريف نفسها تعني: «مكنون»، «سرِّي». فهذه الكتب لم تستخدم إلاَّ سرَّاً، لأنَّها كانت كتباً ممنوعة، ولم يكتمل تقنين أسفار العهد القديم إلاَّ في حوالي ٩٠-١٠٠م. على يدي الأكاديميَّة اللاهوتيَّة اليهوديَّة والسيندريون (= المحكمة الدينيَّة اليهوديَّة العليا)، اللذين شكلا مؤسسة واحدة كان مركزها مدينة يامبيا الفلسطينيَّة. وقد أقرَّت اليهوديَّة والمسيحيَّة كتاب العهد القديم القانوني هذا. أمَّا الكتب التي لم تدخل التوراة القانونيَّة، فإنَّ مواقف الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت منها مختلفة. فالبروتستانت لا يعترفون بها أصلاً، كما لا يعترفون بالعهد القديم كله، وتقسم الكاثوليكيَّة والأرثوذكسيَّة المصادر التي لم تدخل التوراة القانونيَّة إلى: أسفار غير قانونيَّة، وأسفار منحولة. وينشرون في منشوراتهم الكنسيَّة الكتب القانونيَّة والكتب غير القانونيَّة. أمَّا الكتب المنحولة فلا ينشرونها، ولم تكن أسفار العهد القديم وحدها التي خضعت للتقنين، فأسفار العهد الجديد قننت أيضاً (في المجمع الكنسي الذي عقد في العام ٣٦٤م.). لقد تضمَّن كتاب العهد الجديد ٢٧ كتاباً قانونيّاً. ولا يحتوي العهد الجديد على كتب غير قانونيَّة، بيد أنَّه ثمَّة عشرات من الكتب المنحولة فيه.

أمَّا القرآن فهو يمثِّل عملاً موحَّداً، كتاباً واحداً وحيداً أُرسل إلى النَّاس عبر النَّبي محمَّد. ويؤمن القرآن بالإله عينه الذي يؤمن به العهدان القديم والجديد. فقد ردَّد محمَّد في القرآن مرَّات كثيرة، أنَّ الإله الذي أرسله هو إله إبراهيم، والإله عينه الذي أنبياؤه هم نوح، وموسى، ويسوع المسيح.

وهكذا صارت أجزاء الكل الواحد الثَّلاثة: العهد القديم، والعهد الجديد، والقرآن، إلى أصول، إلى منابع لديانات ثلاث، هي اليهوديَّة (العهد القديم)، والمسيحيَّة (العهد القديم والعهد الجديد)، والإسلام (العهد القديم، والعهد الجديد، والقرآن). ومع الوقت التحقت بهذه المصادر الثَّلاثة الأولى موضوعات جديدة أفضت إلى تغيير الأسس الأولى لكل من الدِّيانات الثَّلاث، وما يجدر ذكره، أنَّ التَّغيُّرات كانت مبدئيَّة وفي الجوهر. والدِّيانات الثَّلاث موجودة

الآن في وضعها الجديد هذا. أليس من المفارقات أنْ يكون النَّبي محمَّد الآن رسول إله متميِّز يدعونه الله، بينما أعلن هو نفسه غير مرَّة أنَّه رسول الإله عينه الذي بشَّر به إبراهيم، وموسى، ويسوع المسيح. فالله ليس سوى التَّنويعة العربية لكلمة إللوهيم (إله العهد القديم). ألا يثير الاستغراب أنْ يصدر القرآن في القرن الماضي دون أنْ ترد فيه كلمة الله إلاَّ نادراً، وأنْ تحلَّ في التوراة كلمة الإله، أو الرَّبُّ محلَّ كلمة إللوه (إللوهيم).

وينظر المسيحيون إلى القرآن بصفته ضرباً من ضروب الهرطقة التي لا تستحق الاهتمام، وأنَّه لا صلة له بالتوراة من قريب أو بعيد. ويتجاهل هؤلاء تماماً أنَّ محمَّداً رأى غاية رسالته تبشير النَّاس (العرب) بقوانين الإله الواحد، إله إبراهيم، أي الإله عينه الذي يعبده المسيحيون واليهود الآن.

في الأوَّل دُوِّن العهد القديم باللغة اليهوديَّة القديمة، ما عدا بعض أجزائه الصَّغيرة التي دُوِّنت باللغة الآراميَّة. وفي وقت مبكِّر جداً ترجم إلى اللغة الإغريقيَّة. ودعي نصُّه الإغريقي هذا بالترجمة السبعونية، لأنَّه بناء على طلب ملك مصر بطليموس فيلاديلف قام بترجمة نصِّ العهد القديم إلى الإغريقيَّة اثنان وسبعون مترجماً يهوديَّاً جاؤوا من بطون إسرائيل الاثني عشر (ستَّة من كل بطن).

وهكذا نقل نصُّ العهد القديم إلى اللغة الإغريقيَّة القديمة. ثمَّ ترجم هيرونيم المغبوط التوراة كلها (العهد القديم والعهد الجديد) إلى اللغة اللاتينيَّة في أواخر القرن الميلادي السَّادس. وبذلك باتت التَّوارة بمتناول جميعهم وتحوَّلت إلى كتاب شعبي. ولذلك دعيت «فولغاتا» (= شعبيَّة). وحظي هذا النَّصُّ بدوره بالاحترام نفسه الذي حظي به النَّصُّ اليهودي الأصل، والتَّرجمة السبعونيَّة.

ولم تترجم التوراة إلى لغات العالم كلها (١٦٥٩ لغة)، إلاَّ منذ وقت قريب نسبيَّاً، فهي لم تترجم إلى اللغة الروسيَّة مثلاً إلاَّ في القرن الماضي (١٩م.). وكانت الكنيسة الكاثوليكيَّة وكذلك الأرثوذكسيَّة هما اللَّتان وقفتا بحزم ضدَّ ترجمة التوراة إلى اللغات الشَّعبيَّة. ويجب أنْ نعترف بفضل كيريل وميفوديا اللذين ترجما التوراة إلى اللغة السلافيَّة منذ القرن ٩م.، وعملا على أنْ تؤدّى الخدمة الإلهيَّة في الكنائس بلغة يفهمها الحاضرون جميعهم. وما يثير الذهول أنَّ الخدمة الإلهيَّة تقام الآن في المعابد الأرثوذكسيَّة باللغة السلافيَّة القديمة التي لا يفهمها الحاضرون أكثر مما يفهمون اللغة الإغريقيَّة أو اللاتينيَّة. فالرُّعاة الأرثوذكس يرون أنَّ أفضل طريق للوصول إلى قلوب النَّاس يمتد عبر الإبهام التَّامِّ.

عند قراءتك للتوراة تلاحظ أنَّ النَّصَّ ينقسم إلى فصول (إصحاحات. م.)، وآيات مرقَّمة. وهذا ما يسهِّل كثيراً العمل على النَّصِّ. ففي القرن ١٣م. قسَّم الكاردينال ستيفان لينغتون

النَّصُّ التوراتي إلى إصحاحات. وفي القرن ١٦م. قسَّم الطبَّاع الباريسي روبرت ستيفان الإصحاحات إلى آيات ورقَّمها. وقد اعترف بهذا الترقيم كل من اليهوديَّة والمسيحيَّة.

ويندرج في العهد القديم ٣٩ سفراً قانونيّاً، تصف ما مرَّ به الشَّعب اليهودي خلال ألفي عام من تاريخه قبل الميلاد: الأحداث التَّاريخيَّة، والعادات والأخلاق، والشَّرائع المدنيَّة، والجنائيَّة، والأخلاقيَّة، وأغاني مختلف المناسبات، والتَّأمُّل الفلسفي في الحياة وغاية الإنسان، وما إلى ذلك مما يتَّصف الإنسان به بغضِّ النَّظر عن العصر التَّاريخي: الصِّدق والكذب، والعدل والغدر، والبطولة والجبن، والشَّرف والخيانة. ونحن عندما نقرأ العهد القديم فإنَّنا نتفحَّص الكوميديا (التراجيديا؟) البشرية كلها على امتداد مئات السِّنين مكررة مشهداً مشهداً ويوماً بيوم. ومع أنَّ هذا كله ارتبط في العهد القديم بالشَّعب اليهودي، إلاَّ أنَّه تتوفَّر لنا الفرصة لكي نرى شعوباً أخرى حالفت اليهود أو عادتهم عداءً مرّاً. وعلى الرَّغم من أنَّ العهد القديم كتبه مؤلِّفون يهود، إلاَّ أنَّ فيه كثيراً من النَّقد المرير لليهود، بيد أنَّ النَّصَّ لم يخلُ من روح البطولة الوطنيَّة التي وضعت اليهود فوق الشُّعُوب الأخرى. ولكنَّ ما يجب أنْ نتذكَّره دوماً، هو متى وقع ذلك كله، وفي أيِّ ظرف تاريخي: عندما كان اليهود تحت سلطة حكَّام الشُّعُوب الأخرى.

ولكنْ ما يهمُّنا من ذلك كله هو ما يجعل التوراة توراة، أي كتاباً مقدَّساً، وعلى وجه التَّحديد، الإرشادات الأخلاقيَّة التي تحتويها. فثمَّة مَنْ لا يهتمُّ لتفاصيل التَّاريخ القديم. غير أنَّ الفهم الدقيق لجوهر التوراة، ولهذه الإرشادات أمر غير ممكن من دون معرفة الحالة المحددة، والظرف التَّاريخي الذي كتبت التَّعليمات فيهما. فللزمن طابعه على كل ما كتب في تاريخ البشريَّة. وإذا أردنا أنْ نعي مغزى ما قيل، فعلينا أنْ نعرف مَنْ قال ذلك، ومتى، وفي أيِّ مناسبة. ولذلك يجب علينا قبل أنْ نحلِّل جوهر ما احتواه كتاب العهد القديم، أنْ نحدِّد المجرى التَّاريخي ونربط إليه كل سفر من أسفار العهد القديم. وهكذا فقط يمكننا أنْ ننتظر تأويلاً صحيحاً لما قيل في كل سفر من هذه الأسفار حول هذا الدَّاعية أو ذاك.

من حيث المغزى يتألَّف كتاب العهد القديم من ثلاثة أجزاء كبيرة. يحتوي الأوَّل منها، وهو الجزء الرئيس، على كل شروط العهد القديم مع الإله؛ إنَّها أسفار موسى الخمسة. والثَّاني: أسفار الأنبياء. والثَّالث: «الكتب». وفي اليهوديَّة يدعى العهد القديم كله: تاناخ، وهي كلمة مؤلَّفة من الأحرف الأولى للكلمات: توراة (الكتب الخمسة)، ونبييم («الأنبياء»)، وخسوبيم أو كسوبيم («الكتب»).

وتجعل الدراسات المسيحيَّة من مجموعة الأسفار التوراتيَّة «التَّاريخيَّة»، مجموعة مستقلَّة. وهذه هي سفر القضاة، وأسفار الملوك الأربعة، وسفرا أخبار الأيَّام الأوَّل والثَّاني، وسفرا عزرا ونحميا. فلهذه الأسفار مغزى تاريخي.

كما يقسمون الأنبياء إلى أنبياء كبار وأنبياء صغار. والكبار هم أشعياء، وأرميا، وحزقيال، ودانيال. والصغار اثنا عشر، هم هوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، و... وتحتوي مجموعة الأسفار التي يدعونها «كتباً»، على مادَّة متنوِّعة تنوُّعاً كبيراً. ففيها أبحاث فلسفيَّة (الجامعة، وأيوب)، وأناشيد للصَّلاة (المزامير)، ونشيد الأنشاد: ملحمة شعريَّة غنائيَّة شهوانيَّة.

أمَّا أسفار العهد القديم الخمسة الأولى، أي أسفار موسى، فهي تحتوي على تاريخ شعب إسرائيل، وعلى الشَّرائع نفسها (الناموس). وأسفار موسى الخمسة هذه (التوراة) تشكل أساس الديانة اليهوديَّة.

ويعيد شعب إسرائيل مبدأه إلى إبراهيم (أبرام)، واسم إسرائيل نفسه، هو اسم يعقوب ثاني أبناء إبراهيم (كذا في النَّصِّ الأصلي، ولكنَّ يعقوب هو الابن الثَّاني لإسحق ابن إبراهيم وليس ابن إبراهيم نفسه. م). ومعنى اسم إسرائيل: «الذي صارع الإله». وكان يعقوب (حفيد إبراهيم. م) قد تلقى اسمه الجديد هذا بعد أنْ صارع الإله في الحلم. وأحفاد إسرائيل - يعقوب، هم الذين جاؤوا إلى مصر ثمَّ أخرجهم موسى منها. ورواية العهد القديم كلها عن هؤلاء اليهود بالذات. ولكنْ كانت هناك قبائل يهوديَّة أخرى غيرهم لم تأتِ عبر مصر. وهذا ما يجب أنْ نضعه في الحسبان، ونشير في السياق إلى أنَّ كلمة «يهودي» نفسها تعني: الوافد. فاليهود كانوا قوماً بداة رحَّلاً، ولذلك كان من الطَّبيعي أنْ ينالوا مثل هذه التسمية.

إبراهيم (أبرام)

لقد بيَّن علم التَّاريخ المعاصر أنَّ تطوُّر المجتمع البشري ليس مرتبطاً بتطور التكنولوجيا (وسائل الإنتاج) وحدها، فهو يرتبط أيضاً بالتَّأثيرات الخارجيَّة التي تدفع به بين وقت وآخر، وقد دُعيت هذه بالصدمات الباسيونارِيَّة (= الروحانية. م.). وقد اشتقَّ المصطلح من الكلمة الإيطاليَّة باسيو - Passio، التي تعني الولع الشَّديد، الحماس الخارق. وجوهر الأمر هنا، هو أنَّ الصَّدمة الخارجيَّة التي تصيب المجتمع كله، إنَّما تأتيه عبر أشخاص أفراد: باسيونار. ومن الواضح دون شكٍّ أنَّ الصَّدمة الباسيوناريَّة ليست فعلاً فيزيائيّاً، إنَّما هي صدمة إعلاميَّة: يندفع سيل المعلومات من الخارج، فيتحوَّل الشَّخص الذي نفذ السيل إليه، إلى الباسيونار، حامل هذا الولع الشَّديد، الولع الجامح. فلا يعود هذا يملك نفسه، بل يتصرَّف بما يتوافق وهذه المعلومات، بما يتوافق وما قدِّر له دون أنْ يشفق على حياته (بالمعنى المباشر للكلمة). وهاكم ما كتبه المؤرِّخ ل.ن. غوملیوف عن الباسيونار: «يرتبط تشكل الإيتنوس دائماً بوجود بعض الأفراد الذين لديهم النَّزعة الدَّاخليَّة الضروريَّة للعمل الهادف الذي يرتبط دائماً بتبدُّل المحيط، الاجتماعي أو الطَّبيعي، وفي غضون ذلك غالباً ما يكون الهدف المرسوم وهميّاً أو متخيَّلاً، لكنَّ تحقيقه يعدُّ بالنِّسبة للفرد المعني أغلى من حياته نفسها. ومن البدهي أنْ تكون مثل هذه الظاهرة النادرة، ظاهرة خارجة عن معايير سلوك النَّوع، لأنَّ الدَّافع الموصوف هنا يتعارض مع غريزة الحفاظ على الذَّات، غريزة حبِّ البقاء، فهو بالتَّالي يتحلَّى بسمة معكوسة. وقد يكون مرتبطاً بوجود مؤهِّلات مفرطة (نبوغ، موهبة)، كما قد يكون مرتبطاً بمؤهِّلات متوسطة، فهذا ما تظهره استقلاليَّته بين باقي دوافع السلوك الموصوفة في علم النفس. ولم يصف أحد حتى الآن هذه السِّمة أو يحلِّلها. ولكنَّها هي بالذات التي تقوم في صلب الخلق المتفاني (اللا أناني)، حيث مصالح الجماعة، حتى إذا لم تكن مُدرَكة إدراكاً صحيحاً، تغلب على الشَّغف بالعيش والاهتمام بإنجاب الذُّرِّيَّة. إنَّ الشَّخصيَّات التي تملك مثل هذه السِّمة تحقِّق إذا ما لاقت ظروفاً ملائمة، أعمالاً تكسر بمجملها خمول التَّقليد وتنتج إيتنوسات جديدة».

وهكذا يتّضح أنَّ الشخص الذي قدِّر له أنْ يغدو باسيونار ليس سوى منفِّذ لإرادة خارجيَّة تندرج في معلومات تنتقل عبره. وهو ينفِّذ العمل الذي عهد به إليه حتى منتهاه، على الرَّغم من أنَّ ذلك يهدِّد حياته بالخطر. فليس ثمَّة مَنْ يستطيع أنْ يوقف مثل هذا الباسيونار. فهو لا يضحي بنفسه لأنَّه يتجاوز غريزة حبِّ الحياة ببطولة نادرة، بل لأنَّه لا يحسُّ هذه الغريزة أصلاً. فالباسيونار يحسُّ شيئاً واحداً فقط، هو أنَّه عهد إليه بالصَّدمة الباسيوناريَّة.

وفي غالب الأحيان لا تؤثر الصدمة الباسيوناريَّة على شخص واحد مختار فقط، بل يمتدُّ تأثيرها الإعلامي - الحماسي ليشمل شخصيَّات أخرى، ولكنْ بدرجة أقلّ. وترتبط نتيجة التَّأثير الباسيوناري على المجتمع بدرجة الحامل الأوَّل للباسيوناريَّة، بقوة الباسيونار الأوَّل بين هذه الجماعة من الباسيونار.

أمَّا أعظم الباسيونار الذين عرفهم التَّاريخ البشري، فهم يسوع المسيح، ومحمَّد، وبوذا. كما ينتمي إلى هذه الفئة أيضاً، إبراهيم، وموسى وآخرون. ومن الباسيونار الأقل قدرة، نابوليون، والإسكندر المقدوني، ولوسيوس كورنيلوس سولاً (وضباطه: بومبيوس، ولوكولا، وكراسوس، و...)، ويان غوس، وجان دارك و...

ولا شكَّ في أنَّ إبراهيم ينتمي إلى الخمسة الأوائل من الباسيونار. فهو الأب الأوَّل للديانات العالميَّة الثَّلاث: اليهوديَّة، والمسيحيَّة والإسلام. ولكي نفهم الأحداث التاريخيَّة، والحياة الشَّخصيَّة للباسيونار وتصرُّفاتهم فهماً صحيحاً، ينبغي أنْ نعي بدقَّة الأمر الرئيس مما قيل هنا: يتصرَّف الباسيونار وفق المعلومات التي تأتيه من الخارج، وأنَّه لا يهتمُّ قط لرخائه الشخصي أو حياته الشَّخصيَّة والحفاظ عليها (إذا كان ذلك يتعارض مع هذه المعلومات).

وقد تأتي المعلومات إلى الباسيونار بطرق مختلفة: أصواتاً يسمعها، أو حلماً يراه وهو نائم، أو رؤيا معيَّنة تحلُّ عليه. ولكنْ في الأحوال كلها تنفذ المعلومات إلى وعي الإنسان آتية من حقل الإعلام الكوني، من العقل الكوني، من الإله، فتمتلكه وتصير إلى الرائد الأوحد لما يفعله.

فلنتتبَّع إذن حياة الباسيونار الأوَّل ونشاطه، إذ تمثلت في الشَّخصيَّة التي وقفت عند منابع ثلاث ديانات، إنَّه إبراهيم. لقد ولد إبراهيم في العام ٢١٨٠ق.م. تقريباً. وهو ينتمي وفق خطٍّ مباشر إلى شيث ابن آدم الذي ولد بعد مقتل هابيل.

لقد عاشت عائلة إبراهيم مع عائلات القبيلة الأخرى في مدينة أُور الكلدانيَّة. لكنَّ تارح رب العائلة قادها من أُور هذه قاصداً أرض الكنعانيين. بيد أنَّهم لم يصلوا إلاَّ إلى حرَّان حيث استقرُّوا فيها. وبعد أنْ مات تارح تابع إبراهيم مع العائلة طريقهم. ويقول سفر «التكوين» التوراتي عن ذلك الحدث:

﴿وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً.﴾

(تكوين ١٢: ١-٢)

ثمَّ جاء في الإصحاح عينه:

﴿فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكل مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ.﴾

(تكوين: ١٢: ٤-٧)

ولم يكن إبراهيم وسارة قد أنجبا أولاداً. ولأنَّ سارة كانت قد باتت مسنَّة، فقد فقد إبراهيم الأمل في الإنجاب. لذلك اتَّفق معها على أنْ يلجأ إلى العرف الشرقي القديم الذي كان شائعاً جداً في ذلك العصر: إذا ولدت الخادمة أو الجارية أو أَمَة الزوجة ولداً من الزَّوج على ركبتي الزَّوجة، فإنَّ المولود يُعدُّ ابناً شرعيَّاً للزوج والزوجة. ووفق هذا التَّقليد أنجبت خادمة سارة المصريَّة هاجر، من إبراهيم ابنه إسماعيل. ولكنَّ هاجر تفاخرت بهذا على سارة كثيراً وعيَّرتها بعقمها، غير أنَّ سارة نفسها أنجبت بعد ذلك. وتفادياً للنِّزاعات تقرر الفصل بين المرأتين. فتركت هاجر وابنها إسماعيل عائلة إبراهيم. ولكنَّ إبراهيم لم يتركهما ليواجها مصيرهما، فقد التقى ابنه. وقالت التوراة عن إسماعيل:

﴿وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ. وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.﴾

(تكوين ٢١: ٢٠-٢١)

وخرج من إسماعيل ابن إبراهيم شعب: قبيلة العرب الإسماعيليين التي ينتمي إليها النَّبي محمَّد الذي أرسل الإله القرآن عبره. وكان محمَّد قد كرَّر في القرآن غير مرَّة، أنَّ إلهه هو إله إبراهيم الواحد الأحد الذي يخضع لسلطانه كل ما في الأرض والسَّماء.

ومع مرور الزمن انفصل إبراهيم ولوط عن عائلته وناسه، لأنَّ:

﴿وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعاً إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعاً﴾.

(تكوين ١٣ : ٦)

﴿أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ﴾.

(تكوين ١٣ : ١٢)

وبعد أن انفصل لوط وعد الرَّبُّ الإله إبراهيم بالأرض التي بات اليهود يدعونها «أرض الميعاد»:

﴿لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضاً يُعَدُّ. قُمِ امْشِ فِي الأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا لأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا. فَنَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ.﴾

(تكوين ١٣ : ١٥-١٨)

وكان عهد الرَّبِّ مع إبراهيم هو الآتي:

﴿فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقاً قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ.﴾

(تكوين ١٥ : ١٨)

وحسب العهد كان على إبراهيم وذرِّيَّته من الذكور إقامة طقس الختان.

﴿وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كل ذَكَرٍ فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كل ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كل ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَاناً وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْداً أَبَدِيّاً. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي.﴾

(تكوين ١٧ : ٩-١٤)

لقد عارض إبراهيم زواج ابنه إسحق بكنعانيَّة معارضة صارمة. فأرسل خادمه إلى قبيلة يهوديَّة حمل إليه منها ابنتها رفقة التي ستغدو زوجة إسحق. وكانت هذه هي المسألة المبدئيَّة الثَّالثة.

- الأولى: أرض الميعاد التي وعد الرَّبُّ نفسه اليهود بها إذا ما حافظوا على عهده معهم (لذلك ظهر مصطلح «العهد القديم»).

- الثانية: الالتزام بالختان حسب عهد الرَّبِّ.

- الثَّالثة: تحريم الزيجات المختلطة.

وقد اعتمدت الديانات الثَّلاث: اليهودية، والمسيحيَّة، والإسلام اتفاق إبراهيم هذا مع الرَّبِّ. ولكنَّ هذا العهد القديم تجدَّد. فظهر العهد الجديد. وبعد ستِّ مائة عام ظهر القرآن، فمثَّل عهداً آخر متجدِّداً مع الرَّبِّ الإله.

وكان الأمر الجوهري الأساس في العهود الثلاثة، هو الإقرار بوجود إله واحد خالق كل شيء، وواضع القوانين التي يجري كل شيء على الأرض وفي الكون وفقها. والاعتراف بوجود إله واحد للكون كله، يعني الاعتراف بالقوانين التي أنشئ الكون وفقها (بما فيه الإنسان)، والخضوع لهذه القوانين. وإذا ما أقرَّ المرء بالخالق الواحد، بالمبدأ الواحد، فعليه بالضرورة أنْ يعترف بأن هذا الخالق قد خلق الناس كلهم، ومنحهم الحقّ عينه في الحياة، وإن في خلقه لهم الغاية عينها. ومن هنا جاءت وصية: لا تقتل! ووصية لا تسرق! وباقي قواعد العيش المشترك الأخرى. لكنَّ حديثنا عن هذا سوف يأتي لاحقاً. أمّا الآن فإنه من المهمّ أن نعي أن الإيمان بالإله الواحد يعني تلقائياً الاعتراف بقواعد السلوك هذه، التي إذا ما تقيّد المرء بها فإنه لن ينتقص من حقوق الآخرين شيئاً. لقد عقد إبراهيم العهد مع الإله، فاعترف به واحداً أوحد، وبذل كل جهد ممكن لكي تكون قبيلته وشعبه مخلصين لذلك العهد - الاتفاق.

ولكن كثيراً من ناقدي التوراة رأى في وعد الإله لإبراهيم (وشعبه) بأرض الميعاد، وعداً مطعوناً به. فقد عدّ هؤلاء إنه من الغريب أن يتعهد الإله الواحد لشعب واحد بمنحه أرضاً يملكها شعب آخر. ألم يختلق إبراهيم نفسه وعد أرض الميعاد؟ ومما لا شك فيه أنه كانت لإبراهيم صلة بالعقل الكوني، بحقل الإعلام الكوني، بالإله. فقد كان هذا باسيونار. ويكفي لو تذكّرنا حدثاً واحداً من حياة هذه الشَّخصيَّة كي لا نرتاب بعدئذٍ في هذا. والواقعة معروفة جيداً: استعداده لتقديم ابنه الحبيب الوحيد الذي أنجبته له زوجته سارة في آخر عمره، قرباناً للرَّبِّ (ومع ذلك لم يفعل، أمّا الإغريقي آغاممنون فقد فعل وراحت ايفجينيا ضحية الغباء الإنساني. م). لقد كان إسحق وريثه الوحيد، وبه وحده سوف تتواصل الذرية وتحيا. وقد انتظره إبراهيم طويلاً (أَلَيس إسماعيل ابنه من صلبه أيضاً؟!الم.)، وكان على ثقة بأنه سوف يكون له ابن، ووُلد الابن فعلاً. ولم يكن لدى إبراهيم شك في أنَّ ذلك حصل بإرادة الربِّ، ولذلك لم يتردَّد في تقديم ابنه هذا قرباناً له. وتقول التوراة عن هذا:

﴿✿فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ✿ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. ✿فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: إِبْرَاهِيمُ إِبْرَاهِيمُ. فَقَالَ: هَئَنَذَا ✿فَقَالَ: لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئاً لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي.﴾

(تكوين ٢٢ : ٩ - ١٢)

ثم قال:

﴿وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي﴾

(تكوين ٢٢ : ١٨)

يقيناً إن إبراهيم كان باسيونار. وكان يتلقى المعلومات من العقل الكوني، من الإله، ثمّ ينقلها إلى الآخرين، أي يعيد إذاعتها عليهم.

أمّا فيما يتعلّق بالأرض الموعودة التي وعد الإله شعب إبراهيم بها، فإنه ليس ثمّة تناقض هنا. لأن إبراهيم كان يعلم أنه إذا ما التزم ناسه، قبيلته، شعبه بتنفيذ العهد، أي إذا ما آمنوا بالإله الواحد ونفّذوا وصاياه، فإن العيش الطبيعي على أراض خالية سوف يكون مضموناً لهم (لكن أرض كنعان كانت تعجّ بسكانها الكنعانيين. م). ففي تلك الأزمنة لم تكن أراضي الدولة مسكونة كلها كما هي الحال اليوم. لذلك كان إبراهيم يتحرك مع عشيرته ويشغل الأرض بغير عائق، ومن غير أن يثير أي سخط لدى أولئك الذين كانوا يشغلون الأراضي المجاورة. هكذا كانت الظروف، وهكذا كانت الأخلاقيات. فلنتذكّر كيف انفصل إبراهيم وابن أخيه بعضهما عن بعض دون صعوبات:

﴿✿فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. ✿أَلَيْسَتْ كل الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأَنَا يَمِيناً وَإِنْ يَمِيناً فَأَنَا شِمَالاً. ✿فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كل دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ قَبْلَمَا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ كَجَنَّةِ الرَّبِّ كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ. ✿فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كل دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ وَارْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقاً. فَاعْتَزَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الآخَرِ. ✿أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ﴾

(تكوين ١٣ : ٨-١٢)

كما ترون إذن، لقد شغل كل من إبراهيم ولوط الأرض من دون عنف ومواجهات. فقد فعلا كما كانت القبائل تفعل في تلك الأزمنة: تشغل الأراضي الخالية.

وعلى هذه الصورة، فإن عهد إبراهيم مع الإله لم يكن سوى وعد امرء (الناس كلهم) بأن يلتزم بالقوانين السارية في العالم، وفي الكون، وأن يبني سلوكه تجاه الناس الآخرين، وتجاه العالم الحي وغير الحي المحيط به بما لا يتعارض وهذه القوانين، بما لا يتعارض والعقل الكوني، والرَّبِّ الإله. إن كل المؤلفات المجتمعة في التوراة الواحدة، تشكل كلاً موحَّداً، لأن لها كلها محور ارتكاز واحد، هو العهد مع الإله على أساس الإيمان به وحده، والسلوك بما يتوافق وهذا الوعد. ولكن مرور الزمن بدّل القواعد التي كانت تنظّم العلاقات بين الناس، فباتت هذه أكثر إنسانية. وفي هذا السياق نفسه تجدَّد العهد. وغدت مقتضياته تفرض على الناس أن يكونوا أكثر محبّة بعضهم تجاه بعض، وأكثر طيبة ورحمة. بيد أن الأمر الرئيس، المبدأ الأساس في العهد لم يتغيَّر: الإيمان بالرَّبِّ الإله الواحد، وبالمبدأ الواحد للكون، وخالقه الواحد.

ولكن التَّصوُّرات الشائعة عن تجسُّد الرَّبِّ الإله في صورة إنسان، تسبَّبت بأذى كبير لفهم التوراة والقرآن فهماً صحيحاً. فقد زعموا أن الإله شيخ طيّب ملتحٍ، يستوي على سحابة وقدماه الحافيتان تتدلّيان إلى تحت. ويعيق مثل هذه التَّصوُّرات البدائية الكثيرين عن العثور في التوراة على ما هو فيها حقاً، أي تجربة قرون راكمتها شعوب وضعت فيها فكرها، وحدسها، وإلهاماتها. ويوغل البروتستانت عميقاً في هذا الضلال إلى حدّ رفضهم العهد القديم جملة وتفصيلاً، وعدّهم إيَّاه غير ذي أهمِّيَّة لدينهم. حقّاً إنه أعمى يقود أعمى.

بعد موت سارة تزوّج إبراهيم نساء كثيرات، كما كان عنده كثير من الجواري. وقد أنجب كثيراً من الأبناء من هؤلاء وأولئك. فأعطى أبناء الجواري هبات وأرسلهم إلى الأرض الشرقية. وأعطى كل أملاكه وأرزاقه لابنه البكر الذي أنجبته سارة، أي إسحق. ذلك هو القانون (أيّ قانون هذا، قانون الإله، أم قانون العقل الكوني؟! م). ومات إبراهيم عن مائة وخمسة وسبعين عاماً. ودفنه ولداه إسحق وإسماعيل.

وكان لإسماعيل اثنا عشر ولداً، خرجت منهم اثنتا عشرة قبيلة. وسوف يكون لنا لقاء مع الشعب الإسماعيلي عند دراستنا للقرآن. ومات إسماعيل عن مائة وسبعة وثلاثين عاماً. وقد عاش الإسماعيليون:

﴿وَسَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الَّتِي أَمَامَ مِصْرَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ أَشُّورَ أَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ نَزَلَ.﴾

(تكوين ٢٥: ١٨)

أمّا إسحق فقد أنجب توأمين: عيسو ويعقوب. وكان عيسو صيّاد وحوش، بينما كان يعقوب «امرأ يعيش في الخيام». وكان عيسو هو الوريث الشرعي لوالده إسحق، لأنه وُلد أوّلاً. ولكنّه تنازل عن حقّ البكورية ليعقوب مقابل صحن من عصيدة العدس، عندما عاد إلى الديار جائعاً في أحد الأيّام. غير أن يعقوب انتزع بركة والده بالخديعة قُبيل وفاة هذا الأخير. ففي آخر أيّامه فقد إسحق بصره، فجاءه يعقوب مدّعياً أنه عيسو، إذ ارتدى جلد ماعز ليحاكي جسده جسد عيسو الكثيف الشعر. وقد أفضى ذلك إلى نشوء عداوة مريرة بين الشّقيقين. ولمّا كان يعقوب يعرف أنه مذنب، فقد هرب. أمّا عيسو فقد ذهب إلى إسماعيل وتزوّج ابنته.

لقد أنجب يعقوب اثني عشر ولداً، ومنهم خرجت قبائل الشعب اليهودي الاثنتا عشرة. وكان يوسف أحبّ أبناء يعقوب إلى قلبه. ولذلك لم يكن أخوة هذا الأخير يحبّونه. وعندما سنحت لهم أوّل فرصة تخلّصوا منه: باعوه لقافلة تجاريّة كانت تقصد أرض مصر، وقالوا لوالدهم: مزّقته وحوش البرية.

وفي مصر بيع يوسف إلى أحد وجهاء قصر الفرعون. وبعد أن مرّ بتجارب ومعاناة كثيرة، بات يوسف في آخر المطاف الناظر الأكبر في أرض مصر.

لقد فسّر يوسف حلم الفرعون وتنبّأ له بأن البلاد سوف تعرف سبع سنوات وفيرة الخيرات تعقبها سبع سنوات عجاف. فعهد إليه الفرعون جمع الأقماح في السنين الطيّبة وخزنها استعداداً للسنين القاحلة. وعندما حلّت سنوات المجاعة جاء أخوة يوسف إلى مصر لشراء القمح. فعرّفهم بنفسه واجتمعت قبيلة يعقوب بعد ذلك في مصر. وهكذا جاء اليهود إلى مصر. وفي مصر عاش يعقوب سبعة عشر عاماً ومات، فدفنوه في أرض كنعان. وبعد خمسين عاماً مات يوسف أيضاً. وقد قال قبيل موته، إن الإله سيُخرج الشعب اليهودي من مصر ويُعيده إلى أرض كنعان.

ثمّ تطوّرت الأحداث بعد ذلك على الوجه الآتي: رحل يوسف محسوب الفرعون إلى الدار الآخرة. وبات الفراعنة يخشون تكاثر الغرباء في دولتهم. فأخذوا يضيّقون على اليهود إلى درجة أنهم شرعوا يقتلون مواليدهم. وألفى اليهود أنفسهم أمام واحد من خيارين: إمّا أن يتحوّلوا إلى عبيد، أو أن يتخلّصوا من ذلك السجن الطوعي. وقد تبيّن أن الخيار الثّاني لم يكن سهلاً. ولكنّ موسى جعله ممكناً. وأخرج الشعب اليهودي من عبودية المصريين.

الفصل الثاني

موسى

لقد وصفنا الأحداث التي عرضناها هنا، وفق كتاب التوراة الأوّل، تحديداً وفق جزئها الأوَّل: العهد القديم، وهو الكتاب الذي يدعى سفر التكوين. وجاء وصف تحرير اليهود من عبودية مصر وخروجهم منها، فيما تبقّى من كتب موسى الخمسة. ونحن سوف نقتفي أثر هذا الوصف. ولكننا ننوّه قبل كل شيء إلى أن مهمّتنا لا تقوم في عرض ما تحتويه التوراة. فليس ثمّة ضرورة لذلك، لأن أيّاً كان يمكنه أن يقرأ النص التوراتي بنفسه. إنما مهمّتنا تقوم في تقديم تحليل مقارن لموضوعات العهد القديم، والعهد الجديد، والقرآن، ومقابلتها مع النجاحات العلمية، والوصول إلى النتائج التي تحدد مكانة التوراة والقرآن في العالم المعاصر، في حياة كل منّا. وفيما يخص العلم المعاصر وموقف نتائجه من فكرة الإله، فإننا ألقينا الضوء على هذه المشكلة في كتابنا: «الإله، والروح، والخلود»، الذي يمكن أن يعدّ الجزء الأوَّل من كتابنا هذا. ولذلك سوف يكون من الأفضل لو قرأ القارئ كتابنا المذكور أولاً. فعندئذٍ لن تثير استغرابه شتّى المعجزات الموصوفة في التوراة، أو ظهور الأصوات، أو الرؤيا، أو لقاء الربّ الإله نفسه. فهذا كله لا يتعارض مع العلم، إنما يجب تأويله تأويلاً صحيحاً.

لقد كان موسى هو الباسيونار القويّ الثّاني. وليس للعهد القديم معنى من غير موسى، كما من غير إبراهيم. فموسى جعل من اليهود العبيد شعباً منظماً، ومؤمناً بإله واحد، هو إله إبراهيم.

في مصر ولد لإحدى العائلات اليهودية مولود. وحسب أمر الفرعون كان يجب أن يُقتل المواليد الذكور من اليهود. ولذلك أخفت الأُمّ مولودها حتى الشهر الثالث من عمره، وبعد ذلك بات الأمر محفوفاً بالمخاطر. عندئذٍ وضعت الأم طفلها في سفط وحملته إلى خور مياهه هادئة، عرفت الأم أن ابنة الفرعون تحبّ أن تستحمّ فيه. ولمّا رأت هذه الطفل البهيّ أمرت خادماتها أن تأخذنه. وكانت أُخت موسى تراقب ما يجري من وراء الدغل، فجاءت وعرضت والدتها مرضعة للطفل. ودعي الطفل باسم موسى، ومعناه: «المأخوذ من الماء».

بوجوده في قصر الفرعون تلقى موسى تعليماً ممتازاً وتربية راقية. ومع بلوغه الأربعين من عمره اضطر إلى الفرار من مصر خوفاً من عقاب كان يمكن أن ينزل به لأنه قتل مصرياً كان يضرب يهودياً. لقد لجأ موسى إلى شبه جزيرة العرب، إلى أرض مديان. وهناك أقام عند الكاهن يترو، فتزوّج ابنته صفورة وصار يرعى له غنمه. وعلى امتداد أربعين عاماً عاشها موسى في الصحراء اكتسب خبرة كبيرة ومعارف كثيرة أفاد منها إفادة كبرى عندما قاد شعبه من مصر عبر الصحراء إلى أرض الميعاد.

وفي أحد الأيام وقع لموسى الآتي:

﴿✿وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ. ✿وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ! ✿فَقَالَ مُوسَى: أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هَذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟ ✿فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: مُوسَى مُوسَى. فَقَالَ: هَئَنَذَا. ✿فَقَالَ: لا تَقْتَرِبْ إِلَى هَهُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ. ✿ثُمَّ قَالَ: أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. ✿فَقَالَ الرَّبُّ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ ✿فَنَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. ✿وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَيَّ وَرَأَيْتُ أَيْضاً الضِّيقَةَ الَّتِي يُضَايِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ﴾

(خروج ٣: ١-٩)

لقد تلقّى موسى الأمر ولم يعد ملكاً لنفسه، لقد صار إلى باسيونار فأخذ زوجته وأبناءه ومضى يؤدّي الرسالة التي ألقيت تأديتها على عاتقه. وفي مصر ساعده أخوه هارون على إنجاز مهمته الشاقّة هذه. وفي هذا الصدد قيل:

﴿فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ وَأُعَلِّمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ.﴾

(خروج ٤: ١٥)

لكن الفرعون لم يطلق اليهود من مصر. فضرب موسى المصريين بعشر رزايا أنزلها بهم الإله. وقبيل البلية الأخيرة أمر موسى اليهود بأن تنحر كل عائلة منهم حملاً وتشويه وتأكله مع فطيرة وأعشاب حارّة، وألاّ تكسر في أثناء ذلك عظام الحمل. كما أمرهم أن يطلوا عتبات منازلهم وعضائدها بدماء الحملان. لقد كانت تلك هي ليلة خروج اليهود من مصر. فالبلية العاشرة التي أنزلها إله موسى بالمصريين تمثلت في قتل ملاك الربّ لأبكار المصريين كلهم، ولم يقتصر القتل على أبكار البشر منهم، بل طال أبكار حيواناتهم كذلك. أمّا المنازل التي كانت مطلية بالدماء، فقد كان الملاك يتجاوزها. وهكذا اضطر الفرعون بعد البلية (المجزرة. م) العاشرة إلى أن يسمح لليهود بمغادرة مصر. وكان ذلك اليوم هو يوم الخلاص من البلاء، يوم «الاستحياء»، يوم «التجاوز»، وهو نفسه يوم الفصح (وهذا هو المعنى الحرفي للكلمة «فصح»). فالحديث يجري عن تجاوز الملاك القاتل لمنازل اليهود والمرور بجانبها فقط دون أن يؤذيها. ومنذ ذلك اليوم واليهود يحتفلون بعيد الفصح هذا. فعشية الذكرى ينحرون الحملان ويشوونها ويأكلونها مع الفطير، ويتواصل الاحتفال بهذا العيد عندهم سبعة أيام.

عندما قاد موسى اليهود عبر الصحراء كان يتوجب عليه أن يعطيهم الشرائع التي تنظم حياتهم التي تغيرت الآن تغيراً جوهرياً. فقدّم له حموه النصيحة الآتية:

﴿الآنَ اسْمَعْ لِصَوْتِي فَأَنْصَحَكَ. فَلْيَكُنِ اللهُ مَعَكَ. كُنْ أَنْتَ لِلشَّعْبِ أَمَامَ اللهِ وَقَدِّمْ أَنْتَ الدَّعَاوِيَ إِلَى اللهِ وَعَلِّمْهُمُ الْفَرَائِضَ وَالشَّرَائِعَ وَعَرِّفْهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ وَالْعَمَلَ الَّذِي يَعْمَلُونَهُ. وَأَنْتَ تَنْظُرُ مِنْ جَمِيعِ الشَّعْبِ ذَوِي قُدْرَةٍ خَائِفِينَ اللهَ أُمَنَاءَ مُبْغِضِينَ الرَّشْوَةَ وَتُقِيمُهُمْ عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ أُلُوفٍ وَرُؤَسَاءَ مِئَاتٍ وَرُؤَسَاءَ خَمَاسِينَ وَرُؤَسَاءَ عَشَرَاتٍ فَيَقْضُونَ لِلشَّعْبِ كل حِينٍ. وَيَكُونُ أَنَّ كل الدَّعَاوِي الْكَبِيرَةِ يَجِيئُونَ بِهَا إِلَيْكَ. وَكل الدَّعَاوِي الصَّغِيرَةِ يَقْضُونَ هُمْ فِيهَا. وَخَفِّفْ عَنْ نَفْسِكَ فَهُمْ يَحْمِلُونَ مَعَكَ. إِنْ فَعَلْتَ هَذَا الأَمْرَ وَأَوْصَاكَ اللهُ تَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ. وَكل هَذَا الشَّعْبِ أَيْضاً يَأْتِي إِلَى مَكَانِهِ بِالسَّلاَمِ. فَسَمِعَ مُوسَى لِصَوْتِ حَمِيهِ وَفَعَلَ كل مَا قَالَ.﴾

(خروج ١٨: ١٩-٢٤)

في الشهر الثالث بعد خروجهم من مصر وصل اليهود إلى صحراء سيناء، وألفوا أنفسهم قبالة جبل سيناء. فصعد موسى إلى الجبل لكي يتواصل مع الإله. وفي واحد من تلك اللقاءات

«قال الرب لموسى: سآتي إليك في سحابة كثيفة لكي يسمع الشعب كيف أتحدّث معك فيثق بك إلى الأبد. ونقل موسى كلام الشعب إلى الرب»؛ كلامه الذي تعهد فيه بالالتزام بالوصايا التي يوصي الرب بها كلها. وأخذ الشعب يستعد على مدى يومين للقاء الرب. فظهر على الجبل الذي لم يسمح إلاّ لموسى بالصعود إليه.

﴿وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كله يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ وَارْتَجَفَ كل الْجَبَلِ جِداً. فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَاداً جِداً وَمُوسَى يَتَكلمُ وَاللهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ.﴾

(خروج ١٩: ١٨-١٩)

﴿ثُمَّ تَكلمَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهَكَ إِلَهٌ غَيُورٌ أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ وَأَصْنَعُ إِحْسَاناً إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلاً لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلاً مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكل مَا فِيهَا وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِتَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ. لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلاَ عَبْدَهُ وَلاَ أَمَتَهُ وَلاَ ثَوْرَهُ وَلاَ حِمَارَهُ وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لِقَرِيبِكَ.﴾

(خروج ٢٠: ١-١٧)

تلكم كانت الوصايا العشر الشهيرة، التي تشكل القانون الأخلاقي الإلزامي لأي مجتمع كان، إذا أراد أن يبقى مجتمعاً بشرياً.

وعلاوة على هذه الوصايا حمل موسى إلى شعبه من عند الإله قانوناً مدنياً جنائياً كاملاً نظّم به العلاقات داخل المجتمع. وها نحن نسوق الشرائع الرئيسة لهذا القانون. وسوف نعمل في حينه على مقارنتها بشرائع العهد الجديد وشرائع القرآن. وهاكم هذه الشرائع، الوصايا:

﴿اشْتَرَيْتَ عَبْداً عِبْرَانِيّاً فَسِتَّ سِنِينَ يَخْدِمُ وَفِي السَّابِعَةِ يَخْرُجُ حُرّاً مَجَّاناً.﴾

(خروج ٢١: ٢)

﴿✿مَنْ ضَرَبَ إِنْسَاناً فَمَاتَ يُقْتَلُ قَتْلاً. ✿وَلَكِنَّ الَّذِي لَمْ يَتَعَمَّدْ بَلْ أَوْقَعَ اللهُ فِي يَدِهِ فَأَنَا أَجْعَلُ لَكَ مَكَاناً يَهْرُبُ إِلَيْهِ.﴾

(خروج ٢١: ١٢-١٣)

﴿✿وَمَنْ ضَرَبَ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ يُقْتَلُ قَتْلاً. ✿وَمَنْ سَرِقَ إِنْسَاناً وَبَاعَهُ أَوْ وُجِدَ فِي يَدِهِ يُقْتَلُ قَتْلاً. ✿وَمَنْ شَتَمَ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ يُقْتَلُ قَتْلاً.﴾

(خروج ٢١: ١٢- ١٧)

﴿وَإِذَا ضَرَبَ إِنْسَانٌ عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ بِالْعَصَا فَمَاتَ تَحْتَ يَدِهِ يُنْتَقَمُ مِنْهُ.﴾

(خروج ٢١: ٢٠)

﴿✿وَعَيْناً بِعَيْنٍ وَسِنّاً بِسِنٍّ وَيَداً بِيَدٍ وَرِجْلاً بِرِجْلٍ ✿وَكَيّاً بِكَيٍّ وَجُرْحاً بِجُرْحٍ وَرَضّاً بِرَضٍّ.﴾

(خروج ٢١: ٢٤-٢٥)

﴿✿وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مَعَهُ لاَ يُعَوِّضُ. إِنْ كَانَ مُسْتَأْجَراً أَتَى بِأُجْرَتِهِ. ✿وَإِذَا رَاوَدَ رَجُلٌ عَذْرَاءَ لَمْ تُخْطَبْ فَاضْطَجَعَ مَعَهَا يَمْهُرُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً. ✿إِنْ أَبَى أَبُوهَا أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا يَزِنُ لَهُ فِضَّةً كَمَهْرِ الْعَذَارَى. ✿لاَ تَدَعْ سَاحِرَةً تَعِيشُ.﴾

(خروج ٢٢: ١٥-١٨)

﴿✿مَنْ ذَبَحَ لِآلِهَةٍ غَيْرِ الرَّبِّ وَحْدَهُ يُهْلَكُ. ✿وَلاَ تَضْطَهِدِ الْغَرِيبَ وَلاَ تُضَايِقْهُ لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ✿لاَ تُسِئْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ.﴾

(خروج ٢٢: ٢٠-٢٢)

﴿✿لاَ تَقْبَلْ خَبَراً كَاذِباً. وَلاَ تَضَعْ يَدَكَ مَعَ الْمُنَافِقِ لِتَكُونَ شَاهِدَ ظُلْمٍ. ✿لاَ تَتْبَعِ الْكَثِيرِينَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ وَلاَ تُجِبْ فِي دَعْوَى مَائِلاً وَرَاءَ الْكَثِيرِينَ لِلتَّحْرِيفِ.﴾

(خروج ٢٣: ١-٢)

﴿۞لاَ تُحَرِّفْ حَقَّ فَقِيرِكَ فِي دَعْوَاهُ. ۞إِبْتَعِدْ عَنْ كَلاَمِ الْكَذِبِ وَلاَ تَقْتُلِ الْبَرِيءَ وَالْبَارَّ لأَنِّي لاَ أُبَرِّرُ الْمُذْنِبَ. ۞وَلاَ تَأْخُذْ رَشْوَةً لأَنَّ الرَّشْوَةَ تُعْمِي الْمُبْصِرِينَ وَتُعَوِّجُ كلاَمَ الأَبْرَارِ.﴾

(خروج: ٢٣: ٦-٨)

﴿۞ثلاَثَ مَرَّاتٍ تُعَيِّدُ لِي فِي السَّنَةِ. ۞تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. تأْكل فَطِيراً سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ لأَنَّهُ فِيهِ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ. وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ. ۞وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ.﴾

(خروج ٢٣: ١٤-١٦)

وهاك ما قيل عن الفصح:

﴿۞هَذِهِ مَوَاسِمُ الرَّبِّ الْمَحَافِلُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي تُنَادُونَ بِهَا فِي أَوْقَاتِهَا. ۞فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ فِي الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ فِصْحٌ لِلرَّبِّ. ۞وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ عِيدُ الْفَطِيرِ لِلرَّبِّ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تأْكلونَ فَطِيراً. ۞فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ يَكُونُ لَكُمْ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. عَمَلاً مَا مِنَ الشُّغْلِ لاَ تَعْمَلُوا. ۞وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تُقَرِّبُونَ وَقُوداً لِلرَّبِّ. فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ يَكُونُ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. عَمَلاً مَا مِنَ الشُّغْلِ لا تَعْمَلُوا.﴾

(لاويين ٢٣: ٤-٨)

ولم تسمح الشريعة بتناول لحوم الحيوانات كلها:

﴿۞وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ۞قُولاَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: هَذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكلونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: ۞كل مَا شَقَّ ظِلْفاً وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ فَإِيَّاهُ تأْكلونَ. ۞إِلَّا هَذِهِ فَلاَ تَأْكلوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفاً فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ۞وَالْوَبْرَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفاً فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ۞وَالأَرْنَبَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفاً فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ۞وَالْخِنْزِيرَ لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفاً وَيَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ لَكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ۞مِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكلوا وَجُثَثَهَا لاَ تَلْمِسُوا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ لَكُمْ. ۞وَهَذَا تَأْكلونَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الْمِيَاهِ: كل مَا لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْمِيَاهِ فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ فَإِيَّاهُ

تأكلون. ✿لكِنْ كل مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ مِنْ كل دَبِيبٍ فِي الْمِيَاهِ وَمِنْ كل نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي الْمِيَاهِ فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ ✿وَمَكْرُوهاً يَكُونُ لَكُمْ. مِنْ لَحْمِهِ لاَ تَأْكلوا وَجُثَّتَهُ تَكْرَهُونَ. ✿كل مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْمِيَاهِ فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ. ✿وَهَذِهِ تَكْرَهُونَهَا مِنَ الطُّيُورِ. لاَ تُؤْكل. إِنَّهَا مَكْرُوهَةٌ: النَّسْرُ وَالأَنُوقُ وَالْعُقَابُ ✿وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ عَلَى أَجْنَاسِهِ ✿وَكل غُرَابٍ عَلَى أَجْنَاسِهِ ✿وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأَفُ وَالْبَازُ عَلَى أَجْنَاسِهِ ✿وَالْبُومُ وَالْغَوَّاصُ وَالْكُرْكِيُّ ✿وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ ✿وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبْغَاءُ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ ✿وَكل دَبِيبِ الطَّيْرِ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ.﴾

(لاويين ١١: ٢-٢٠)

﴿✿كل إِنْسَانٍ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. قَدْ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ. ✿وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ. ✿وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَبِيهِ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كلاَهُمَا. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ✿وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ كَنَّتِهِ فَإِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كلاَهُمَا. قَدْ فَعَلاَ فَاحِشَةً. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ✿وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ فَقَدْ فَعَلاَ كلاَهُمَا رِجْساً. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ✿وَإِذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَأُمَّهَا فَذَلِكَ رَذِيلَةٌ. بِالنَّارِ يُحْرِقُونَهُ وَإِيَّاهُمَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ رَذِيلَةٌ بَيْنَكُمْ. ✿وَإِذَا جَعَلَ رَجُلٌ مَضْجَعَهُ مَعَ بَهِيمَةٍ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَالْبَهِيمَةُ تُمِيتُونَهَا. ✿وَإِذَا اقْتَرَبَتِ امْرَأَةٌ إِلَى بَهِيمَةٍ لِنِزَائِهَا تُمِيتُ الْمَرْأَةَ وَالْبَهِيمَةَ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ✿وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ أُخْتَهُ بِنْتَ أَبِيهِ أَوْ بِنْتَ أُمِّهِ وَرَأَى عَوْرَتَهَا وَرَأَتْ هِيَ عَوْرَتَهُ فَذَلِكَ عَارٌ. يُقْطَعَانِ أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي شَعْبِهِمَا. قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أُخْتِهِ. يَحْمِلُ ذَنْبَهُ. ✿وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ طَامِثٍ وَكَشَفَ عَوْرَتَهَا عَرَّى يَنْبُوعَهَا وَكَشَفَتْ هِيَ يَنْبُوعَ دَمِهَا يُقْطَعَانِ كلاَهُمَا مِنْ شَعْبِهِمَا. ✿عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ أَوْ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهُ قَدْ عَرَّى قَرِيبَتَهُ. يَحْمِلاَنِ ذَنْبَهُمَا. ✿وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ عَمِّهِ فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ عَمِّهِ. يَحْمِلاَنِ ذَنْبَهُمَا. يَمُوتَانِ عَقِيمَيْنِ. ✿وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةَ أَخِيهِ فَذَلِكَ نَجَاسَةٌ. قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ. يَكُونَانِ عَقِيمَيْنِ.﴾

(لاويين: ٢٠: ٩-١٨)

﴿وَإِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ جَانٌّ أَوْ تَابِعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ﴾.

(لاويين. ٢٠ : ٢٧)

﴿✿وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ. ✿كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ. ✿لاَ تَرْتَكِبُوا جَوْراً فِي الْقَضَاءِ لاَ فِي الْقِيَاسِ وَلاَ فِي الْوَزْنِ وَلاَ فِي الْكَيْلِ. ✿مِيزَانُ حَقٍّ وَوَزْنَاتُ حَقٍّ وَإِيفَةُ حَقٍّ وَهِينُ حَقٍّ تَكُونُ لَكُمْ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.﴾

(لاويين ١٩ : ٣٣-٣٦)

﴿✿وَعِنْدَمَا تَحْصُدُونَ حَصِيدَ أَرْضِكُمْ لاَ تُكَمِّلْ زَوَايَا حَقْلِكَ فِي الْحَصَادِ. وَلُقَاطَ حَصِيدِكَ لاَ تَلْتَقِطْ. ✿وَكَرْمَكَ لاَ تُعَلِّلْهُ وَنِثَارَ كَرْمِكَ لاَ تَلْتَقِطْ. لِلْمِسْكِينِ وَالْغَرِيبِ تَتْرُكُهُ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ. ✿لاَ تَسْرِقُوا وَلاَ تَكْذِبُوا وَلاَ تَغْدُرُوا أَحَدُكُمْ بِصَاحِبِهِ. ✿وَلاَ تَحْلِفُوا بِاسْمِي لِلْكَذِبِ فَتُدَنِّسَ اسْمَ إِلَهِكَ. أَنَا الرَّبُّ.﴾

(لاويين ١٩ : ٩-١٣)

﴿لاَ تَنْتَقِمْ وَلاَ تَحْقِدْ عَلَى أَبْنَاءِ شَعْبِكَ بَلْ تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. أَنَا الرَّبُّ.﴾

(لاويين ١٩ : ١٨)

لقد أوصى الإله اليهود على لسان موسى أن يحفظوا العهد ويتقيّدوا بالوصايا التي أُوصوا بها. وهذا ما كان يجب أن يكون ضمانة لعيش الشعب حياة هانئة.

﴿✿لَكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي وَلَمْ تَعْمَلُوا كل هَذِهِ الْوَصَايَا ✿وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَرَائِضِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُكُمْ أَحْكَامِي فَمَا عَمِلْتُمْ كل وَصَايَايَ بَلْ نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي ✿فَإِنِّي أَعْمَلُ هَذِهِ بِكُمْ: أُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ رُعْباً وَسِلاًّ وَحُمَّى تُفْنِي الْعَيْنَيْنِ وَتُتْلِفُ النَّفْسَ. وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكله أَعْدَاؤُكُمْ. ✿وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ.﴾

(لاويين ٢٦ : ١٤-١٧)

﴿أَجْلِبُ عَلَيْكُمْ سَيْفاً يَنْتَقِمُ نَقْمَةَ الْمِيثَاقِ فَتَجْتَمِعُونَ إِلَى مُدُنِكُمْ وَأُرْسِلُ فِي وَسَطِكُمُ الْوَبَأَ فَتُدْفَعُونَ بِيَدِ الْعَدُوِّ.﴾

(لاويين ٢٦: ٢٥)

﴿✿وَأُخْرِبُ مُرْتَفَعَاتِكُمْ وَأَقْطَعُ شَمْسَاتِكُمْ وَأُلْقِي جُثَثَكُمْ عَلَى جُثَثِ أَصْنَامِكُمْ وَتَرْذُلُكُمْ نَفْسِي. ✿وَأُصَيِّرُ مُدُنَكُمْ خَرِبَةً وَمَقَادِسَكُمْ مُوحِشَةً وَلاَ أَشْتَمُّ رَائِحَةَ سُرُورِكُمْ. ✿وَأُوحِشُ الأَرْضَ فَيَسْتَوْحِشُ مِنْهَا أَعْدَاؤُكُمُ السَّاكِنُونَ فِيهَا. ✿وَأُذَرِّيكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ وَأُجَرِّدُ وَرَاءَكُمُ السَّيْفَ فَتَصِيرُ أَرْضُكُمْ مُوحِشَةً وَمُدُنُكُمْ تَصِيرُ خَرِبَةً.﴾

(لاويين ٢٦: ٣٠-٣٣)

بنقله شريعة الإله إلى الشعب اليهودي، أدّى موسى مهمّة شديدة التعقيد. فإدارة حشود من الناس في صحراء مترامية، كانوا يتذمّرون دوماً بسبب أو بغير سبب، هي بحد ذاتها مسألة في غاية الصعوبة. فتارة نقص في المؤن، وأخرى نقص في مياه الشرب، وثالثة انتشار الأمراض؛ ومرّة يثورون لأن آلهتهم انتزعت منهم. ولذلك ليس عبثاً أن شكا موسى نفسه للرب الإله قائلاً: إنهم قد يرجموني بالحجارة. فلم يكن من السهل أبداً إخضاع تلك الحشود الدائمة التذمّر التي أعلنت لموسى غير مرّة، إنها كانت تفضّل لو بقيت في مصر. وعلى الرغم من أنهم رأوا وسمعوا كيف تواصل موسى مع الإله على جبل سيناء، إلاّ أنهم ألحّوا على هارون حتى سكب لهم عجلاً يسجدون له. فقد غاب موسى أربعين يوماً قضاها صائماً على جبل سيناء. ولدى عودته سمع أناشيد انفعالية تنشد تمجيداً للإله الجديد. وقد اضطره ذلك إلى اللجوء لاتخاذ إجراءات صارمة. وقال سفر الخروج عن ذلك:

﴿✿وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ وَقَالَ: مَنْ لِلرَّبِّ فَإِلَيَّ! فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لاَوِي. ✿فَقَالَ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كل وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ وَاقْتُلُوا كل وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكل وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكل وَاحِدٍ قَرِيبَهُ. ✿فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل.﴾

(خروج ٣٢: ٢٦-٢٨)

وخطوة خطوة حوّل موسى الحشود المتذمّرة المشتتة، إلى مجتمع منظم يتصف بصفات الشرعية والبناء التراتبي كلها.

﴿✿وَأَخَذَ مُوسَى الْخَيْمَةَ وَنَصَبَهَا لَهُ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ بَعِيداً عَنِ الْمَحَلَّةِ وَدَعَاهَا خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ. فَكَانَ كل مَنْ يَطْلُبُ الرَّبَّ يَخْرُجُ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ الَّتِي خَارِجَ الْمَحَلَّةِ. ✿وَكَانَ جَمِيعُ الشَّعْبِ إِذَا خَرَجَ مُوسَى إِلَى الْخَيْمَةِ يَقُومُونَ وَيَقِفُونَ كل وَاحِدٍ فِي بَابِ خَيْمَتِهِ وَيَنْظُرُونَ وَرَاءَ مُوسَى حَتَّى يَدْخُلَ الْخَيْمَةَ.

﴿وَكَانَ عَمُودُ السَّحَابِ إِذَا دَخَلَ مُوسَى الْخَيْمَةَ يَنْزِلُ وَيَقِفُ عِنْدَ بَابِ الْخَيْمَةِ. وَيَتَكلمُ الرَّبُّ مَعَ مُوسَى﴾

(خروج ٣٣: ٧-٩)

وعند جبل سيناء أقام اليهود معسكراً لهم طول عام كامل. وخلال ذلك العام بنى موسى معبداً - سكينيا محمولاً، صنعه من الحجارة الكريمة، والذهب، والفضة، والنحاس، والأقمشة الثمينة التي ربطت على أعمدته. وكان المعبد يتألف من ثلاثة أقسام: الفناء، والهيكل، وقدس الأقداس.

وكان الشعب يدخل إلى الفناء ليؤدي الصلوات. وهنا في الفناء كان يقوم المذبح والمغسلة النحاسية. أمّا القسم الثّاني، أي الهيكل فلم يكن يدخله سوى الكهنة فقط. وكانت تقوم فيه مائدة عليها اثنا عشر رغيفاً، وشمعدان ذهبي بسبع شمعات أو قنديل بسبعة مصابيح، ومحراب للبخور. وكان هذا المحراب بمثابة مذبح يحرق الكهنة البخور عليه. وثمّة حجاب في آخر الهيكل يفصل القسم الثّالث: قدس الأقداس عن القسمين الآخرين. ولم يكن يسمح إلاّ للأرخيريا، أي لرئيس الكهنة بدخوله. وكان هذا يحدث مرّة واحدة كل عام. ويقوم هنا في قدس الأقداس تابوت العهد، عهد الربِّ الإله. ودعي التابوت باسم آخر، هو كيفوت. وقد كان هذا عبارة عن صندوق مصنوع من الخشب، ومطليٍّ من الدّاخل والخارج بالذّهب. وكان غطاء الصندوق من الذّهب الخالص. وقد تعالى فوقه كيروبيمان من الذّهب أيضاً.

وصيغ عهد الإله في عشر وصايا دُوِّنت على ألواح تدعى ألواح العهد. وهنا أيضاً وضعت عصاة هارون، وكأس المنِّ، ثمّ فيما بعد وضعت الكتب المقدّسة فيه كذلك. وبما أنّ التّابوت كان محمولاً، فقد صنعوا على كل جانب من جانبيه حلقة، ووضعت في الحلقتين عيدان مذهّبة، وبذلك يكون الصندوق قد أخذ شكل الهودج. كما صنع المحراب في شكل الهودج أيضاً. لقد كانت السكينيا تضاء بالزيت المقدّس. وتمّ تعيين خدم لها: الكاهن الأكبر (هارون)، والكهنة (أبناء هارون الأربعة)، وطاقم الخدمة الدينية: اللاويين (أحفاد لاوي).

ومن سيناء تحرّك اليهود باتجاه أرض الميعاد (أرض الكنعانيين). ولمّا وصلوا بعد معاناة كثيرة، إلى حدود كنعان مباشرة، أرسل موسى جواسيس يجوسون الأرض ويتقصّون أحوالها. وقد اختار للمهمّة رجلاً من كل قبيلة. وجاس هؤلاء السفراء الأرض أربعين يوماً. ولدى عودتهم إلى المعسكر أشاع عشرة منهم الذُّعر في قلوب اليهود. إذ قالوا: «إنّ الشّعب الذي يعيش في الأرض شعب جبّار، ومدنه عظيمة وحصونها قوية... ولا قدرة لنا على محاربة مثل هذا الشّعب، إنّه أقوى منّا. لقد رأينا هناك جبابرة عمالقة لسنا نحن أمامهم إلاّ كالجراد».

وثار اليهود مرَّة أخرى على موسى وهارون، وقالوا لهما:

﴿✿وَلِمَاذَا أَتَى بِنَا الرَّبُّ إِلى هَذِهِ الأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِالسَّيْفِ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً. أَلَيْسَ خَيْراً لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلى مِصْرَ؟ ✿فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نُقِيمُ رَئِيساً وَنَرْجِعُ إِلى مِصْرَ﴾

(عدد: ١٤: ٤)

ووصل الأمر إلى درجة أنَّ موسى وهارون:

﴿فَسَقَطَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ كل مَعْشَرِ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيل.﴾

(عدد ١٤: ٥)

لقد أراد الحشد أنْ يقتلهما رجماً بالحجارة ويختار قادة آخرين. ولم يدافع عن موسى وهارون سوى يشوع بن نون وكالب، اللذين كانا في عداد الجواسيس الذين جاسوا أرض كنعان. فقد قال هذان الحقيقة عن أرض الميعاد: الأرض حسنة جداً.

وفي اللحظة الحرجة ظهرت كلمة الرَّبِّ في صورة سحابة وقفت فوق السكينيا أمام الشَّعب كله. وقال الرَّبُّ مستاء:

﴿✿حَتَّى مَتَى أَغْفِرُ لِهَذِهِ الجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ المُتَذَمِّرَةِ عَلَيَّ؟ قَدْ سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيل الذِي يَتَذَمَّرُونَهُ عَلَيَّ. ✿قُل لهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ لأَفْعَلنَّ بِكُمْ كَمَا تَكلمْتُمْ فِي أُذُنَيَّ. ✿فِي هَذَا القَفْرِ تَسْقُطُ جُثَثُكُمْ جَمِيعُ المَعْدُودِينَ مِنْكُمْ حَسَبَ عَدَدِكُمْ مِن ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِداً الذِينَ تَذَمَّرُوا عَلَيَّ. ✿لنْ تَدْخُلُوا الأَرْضَ التِي رَفَعْتُ يَدِي لأُسْكِنَنَّكُمْ فِيهَا مَا عَدَا كَالِبَ بْنَ يَفُنَّةَ وَيَشُوعَ بْنَ نُون. ✿وَأَمَّا أَطْفَالُكُمُ الذِينَ قُلتُمْ يَكُونُونَ غَنِيمَةً فَإِنِّي سَأُدْخِلُهُمْ فَيَعْرِفُونَ الأَرْضَ التِي احْتَقَرْتُمُوهَا. ✿فَجُثَثُكُمْ أَنْتُمْ تَسْقُطُ فِي هَذَا القَفْرِ ✿وَبَنُوكُمْ يَكُونُونَ رُعَاةً فِي القَفْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَحْمِلُونَ فُجُورَكُمْ حَتَّى تَفْنَى جُثَثُكُمْ فِي القَفْرِ. ✿كَعَدَدِ الأَيَّامِ التِي تَجَسَّسْتُمْ فِيهَا الأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْماً لِلسَّنَةِ يَوْمٌ. تَحْمِلُونَ ذُنُوبَكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَتَعْرِفُونَ ابْتِعَادِي.﴾

(عدد ١٤: ٢٧-٣٤)

ولكنَّ الحشد لم يستوعب هذه الكلمات وقام لتوِّه وصعد إلى قمَّة الجبل حيث يقيم العمالقة والكنعانيون. وهناك مُنيوا بهزيمة قاسية. وقضوا بعد تلك الأحداث أربعين عاماً

يتنقلون في صحراء شبه جزيرة العرب. ولكن بعد أنْ أعقب الجيل الذي ولد في مصر جيل جديد، دخل اليهود أرض الكنعانيين تحت قيادة يشوع بن نون. أما موسى فلم يرَ أرض الميعاد إلاَّ من بعيد، من على جبل فسجة. وفي الكتاب التوراتي السادس، كتاب يشوع بن نون وصف لما تلا من قصَّة اليهود مع أرض الميعاد. ونحن نوَّهنا فيما سلف إلى أنَّ كتب التوراة الخمسة الأولى، أي كتب موسى تضمَّنت القانون الأساس، عهد الإله القديم مع الشَّعب اليهودي. لقد كان موسى ألمع شخصية في تاريخ الشعب اليهودي، وواحداً من عدد قليل من الباسيونار الكبار الذين ينتمون إلى البشريَّة كلها.

الفصل الثالث

داود و سليمان

خلال ستِّ سنوات نجح الإسرائيليون في الاستيلاء على أرض الكنعانيين. وكان يشوع بن نون هو قائد قواتهم خلالها. فوزِّعت الأرض على قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة. ولكنْ غالباً ما وقع الإسرائيليون تحت سلطان أعدائهم، لأنَّهم لم يلتزموا بعهدهم مع الإله. ولكنَّ أطوار الهزائم والعبودية كانت تعقبها أطوار أفضل تتحسَّن فيها أحوال اليهود عندما يحكمهم حكام منهم. وكان عهدا داود وسليمان من أكثر حقب تاريخ اليهود سطوعاً. وقبل ذلك برز من أوساط هؤلاء أربعة عشر قاضياً، حكموا الشعب اليهودي في أزمنة مختلفة، وكان هؤلاء قادة عسكريين وحكّاماً في الآن عينه. ومن أشهر هؤلاء القضاة:

- جدعون، اشتهر بأنَّه خلَّص اليهود من أعدائهم المديانيين الذين اضطهدوهم سبع سنوات.

- شمشون، اشتهر بقوَّته الجسديَّة الخارقة. حارب الفلسطينيين بالدرجة الأولى. ومعروف أنَّه هلك مع كثرة من أعدائه تحت أنقاض المعبد.

- صموئيل، هو آخر القضاة الأربعة عشر. وعندما بلغ صموئيل سنَّ الفتوَّة قادته والدته إلى السكينيا وسلَّمته إلى كبير الكهنة إيليا لكي يخدم الإله. وكان إيليا هذا الكاهن الأكبر والقاضي في الوقت عينه. وبعد أنْ توفّى إيليا خلفه صموئيل قاضياً. كما كان صموئيل نبيَّ الإله الواحد. إذ أقنع اليهود بترك عبادة الأوثان والالتزام بوصايا الشريعة. وفي تلك الحقبة تحرَّر اليهود من سلطة الفلسطينيين. لقد قاد صموئيل الشعب أربعين عاماً، ثمَّ مسح شاول ملكاً.

لقد كان شاول ينتمي إلى قبيلة بنيامين. وخلال السنوات الأولى من حكمه حقق شاول انتصارات متتالية على الأعداء، فأحبَّه الشعب. ولكنَّه ما لبث أنْ تحوَّل إلى متغطرس، فنشأ الصراع بينه وبين النبي صموئيل. وأخذ هذا يبحث عن مخرج من الحالة التي نشأت. ومرَّة قال الرَّبُّ له: «إلى متى سيطول حزنك على شاول؟ امضِ إلى مدينة بيت لحم، فقد وجدت لك

ملكاً هناك بين أبناء يسّى». فقام شاول ومضى إلى هناك حيث مسح داود ملكاً. وداود هو ابن يسّى من قبيلة يهوذا.

ولمّا كان شاول يعاني من الكآبة دوماً، فقد أشاروا عليه بأنْ يستدعي داود ليروّح عنه بعزفه العذب على المزمار. ولم يكن شاول على علم بمسح داود ملكاً.

لقد كان داود شاباً مقداماً. ففي الحرب مع الفلسطينيين انتصر على فارسهم العملاق جليات. فجعله شاول أحد قادة قوّاته. ولكنَّ شاول ما لبث أنْ بات يغار من داود الذي حقّق مجداً كبيراً، ويخاف منه على عرشه. فعزم على قتله، لكنَّ داود نجح في التواري عن أنظار الملك. وبعد موت شاول صار داود الملك اليهودي الثّاني. وقد كان عهده هو العهد الذهبي للدّولة اليهوديّة. لقد كان داود أفضل الملوك الإسرائيليين، فهو من جعل أورشليم عاصمة الدولة بعد أن استولى عليها (من أصحابها اليبوسيين. م). وبنى فيها سكينيا جديدة نقل إليها تابوت العهد.

ولم يكن داود عازفاً ماهراً على المزمار وحسب، إنما كان شاعراً أيضاً، ومن المعروف أنه ألّف أناشيد للصلاة. ولذلك لُقّب بمُنشد المزامير. ولا تزال مزاميره تُرتَّل في الكنائس حتّى يومنا هذا. فمن هذه المزامير يتألّف كثير من صلوات المسيحيين.

لقد دام حكم داود أربعين عاماً؛ ثمّ مسح ابنه سليمان ملكاً من بعده، وأوصاه أن يبني في أورشليم معبداً.

لقد دخل سليمان التاريخ اليهودي (ليس تاريخ اليهود فقط)، كأحكم ملك - فيلسوف. وليس عبثاً أن ربطوا ملكه بلقائه مع الإله (في الحلم). وفي اللقاء طلب سليمان من الإله أن يهبه البصيرة ليحكم الشعب. فأجابه الإله قائلاً: «لأنك لم تطلب مني حياة مديدة، ولا ثروة طائلة، ولا النصر على الأعداء، إنما طلبت البصيرة لكي تحكم الشعب، فإني أُعطيك حكمة لم تكن لأحد مثلك ولن تكون. وما لم تطلبه سوف أعطيه لك: الثروة والمجد. أمّا إذا حققت وصاياي فإني سأمنحك حياة مديدة أيضاً».

بدأ سليمان بناء المعبد على جبل المريا، حيث طلب الإله من إبراهيم أن يقدّم ابنه إسحق ذبيحة. واستغرق بناؤه أكثر من سبع سنوات. واشتغل فيه نحو ١٨٥ ألف عامل. ومن حيث مخطط بنائه كان المعبد يحاكي السكينيا التي بناها موسى، لكنه كان أكبر منها. وكما السكينيا كذلك المعبد كان يتألف من ثلاثة أقسام: الفناء، والهيكل، وقدس الأقداس. لقد جاء معبد سليمان بناء بديعاً، إذ جرى تلبيس جدرانه من الخارج

بحجر المرمر الأبيض، وطليت من الداخل بالذهب. ومن الذهب أيضاً صنعت الأشياء التي تستخدم لتأدية طقوس العبادة. ومما يجدر ذكره أن شؤون الدولة اليهودية سارت في عهد سليمان على أفضل وجه: لقد تحوّلت إلى دولة واسعة الثراء. وجاء بناء المعبد انعكاساً لذلك الثراء. فكانت أبعاده: ٣٠ متراً طولاً، و ١٠,٥٤ المتر عرضاً. ولكنّ موقعه على الهضبة التي دُعِّمت بكتل حجرية عمودية مصقولة، جعله يبدو عظيم الحجم كأنه يعانق السَّماء.

حكم سليمان أربعين عاماً تميّز حكمه خلالها بالحكمة واليمن. فذاع مجده حتى تجاوز حدود إسرائيل. وقد روت التوراة قصة ملكة سبأ التي جاءت تختبر حكمة سليمان بألغازها. وإذ أيقنت بحكمة سليمان قالت: «مبارك الرّبّ إلهك الذي بارك جلوسك على عرش الإسرائيليين!» وكانت ملكة سبأ تحكم زمنئذٍ على شعب كان يعيش في أثيوبيا. لقد كانت دولة السبئيين دولة غنية، تتاجر مع صور، والهند، وبلدان غربي آسيا كلها بالعطور، والبلسم، واللبان، والبخور، والذهب، والأحجار الكريمة. ويروي القرآن في السورة ٢٧، إن ملكة سبأ لمّا دخلت قصر سليمان رفعت رداءها كي لا يبتلّ، لأنها ظنّت أرض القصر حوضاً مائياً. وورد في إنجيل متى أن «الملكة الجنوبية» جاءت «من أطراف الأرض لتسمع حكمة سليمان» (متى ١٢ : ٤٢). والحقيقة أن سليمان بدوره أقرّ بحكمة الملكة، وتغنّى بجمال أنوثتها. وبهتت الملكة للطريقة التي كان يحقق سليمان بها حكمته في الحياة اليومية، في تنظيم بناء دولته. فقد قسم البلاد إلى أقاليم إدارية لم تكن تتطابق مع التقسيمات القبلية؛ الأمر الذي حدّ من فرص تنظيم المؤامرات. وأنشأ شبكة من المؤسسات الإدارية التي أتاحت للسلطة العليا أن تدير الدولة بفعالية ومرونة؛ لقد ابتكر سليمان تراتبية أقامها في قصره كما في المجتمع: بدءاً من الكتبة حتى التجار، ومن الجنود حتى قادة الجيش.

ولم تتجلّ حكمة سليمان في سياسته الدَّاخليَّة فقط، بل في سياسته الخارجية أيضاً. فقد أقام علاقات دبلوماسية مفيدة لبلاده وحافظ عليها مع مختلف الأراضي والدول، حتى البعيدة منها. وتحوّلت هذه إلى صلات ثقافية وتجارية مفيدة. فلدوافع دبلوماسية تزوّج سليمان ابنة فرعون مصر وبنى لها قصراً بديعاً.

ولكنَّ تحقيق علاقات دولية تطلّب تطوير وسائل الاتصال. وقد أدرك سليمان هذا، فبنى أسطولاً تجارياً أبحرت سفنه إلى شواطئ بلدان بعيدة. وهكذا تحوّل الشعب اليهودي البدوي إلى شعب ركب البحار. وليست بدايات سليمان هذه معروفة إلاّ قليلاً. فما اشتُهر عنه

هو أمثاله، وحكمته، وبساطته الفلسفية. لقد مرّ زمن طويل على عصر موسى، وتغيّر العالم نفسه، وكان يجب أن تتغيّر الأخلاق أيضاً. فحسب شريعة موسى: «أحبب قريبك كنفسك». أمّا سليمان فقد ذهب إلى أبعد من هذا، إذ قال:

﴿إِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ خُبْزاً وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ مَاءً﴾

(أمثال ٢٥: ٢١)

وسوف ينصرف ألف عام آخر، فيقول يسوع المسيح: «أحبب عدوّك». وهكذا كان الإنسان يطوّر الرحمة في نفسه خطوة خطوة ويدرك عبثية العدوان ونتائجه المهلكة. كما ورث سليمان عن والده داود موهبة الشعر. وهو ما يدل عليه «نشيد إنشاده» الذي استلهمه كثير من الشعراء، ولم يفقد جماليته حتى بعد مضيّ أكثر من ثلاثة آلاف عام على إنشائه؛ إنه الشعر الحقيقي الذي غذّى غنائيات الحبّ على مدى القرون.

وقلّة هم الذين يعرفون أن سليمان لم يكن شاعراً وفيلسوفاً وحسب، بل وضع مؤلّفات في علوم الطبيعة، والمداواة. وفلسفة سليمان معروفة لجميعهم: «باطل الأباطيل كل شيء باطل وينهك الروح». هذا ما قاله سليمان في سفر الجامعة. وينبغي على كل امرء أن يقرأ جوهرة الوعي الإنساني هذه لمغزى الحياة ومكانة الإنسان: الحكمة لا تشيخ ولا يؤثّر فيها عامل الزمن. وهي في الآن عينه بسيطة دائماً.

لقد كتب سليمان يقول:

﴿وَوَجَّهْتُ قَلْبِي لِلسُّؤَالِ وَالتَّفْتِيشِ بِالْحِكْمَةِ عَنْ كل مَا عُمِلَ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ. هُوَ عَنَاءٌ رَدِيءٌ جَعَلَهُ اللّٰهُ لِبَنِي الْبَشَرِ لِيَعْنُوا فِيهِ. رَأَيْتُ كل الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ فَإِذَا الْكل بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ. اَلأَعْوَجُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَوَّمَ وَالنُّقْصُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُجْبَرَ. أَنَا نَاجَيْتُ قَلْبِي قَائِلاً: هَا أَنَا قَدْ عَظُمْتُ وَازْدَدْتُ حِكْمَةً أَكْثَرَ مِنْ كل مَنْ كَانَ قَبْلِي عَلَى أُورُشَلِيمَ وَقَدْ رَأَى قَلْبِي كَثِيراً مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَوَجَّهْتُ قَلْبِي لِمَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَلِمَعْرِفَةِ الْحَمَاقَةِ وَالْجَهْلِ. فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا أَيْضاً قَبْضُ الرِّيحِ. لأَنَّ فِي كَثْرَةِ الْحِكْمَةِ كَثْرَةُ الْغَمِّ وَالَّذِي يَزِيدُ عِلْماً يَزِيدُ حُزْناً.﴾

(الجامعة ١: ١٣-١٨)

﴿فَعَظَّمْتُ عَمَلِي. بَنَيْتُ لِنَفْسِي بُيُوتاً غَرَسْتُ لِنَفْسِي كُرُوماً. عَمِلْتُ لِنَفْسِي جَنَّاتٍ وَفَرَادِيسَ وَغَرَسْتُ فِيهَا أَشْجَاراً مِنْ كل نَوْعِ ثَمَرٍ. عَمِلْتُ لِنَفْسِي

بِرَكَ مِيَاهٍ لِتُسْقَى بِهَا الْمَغَارِسُ الْمُنْبِتَةُ الشَّجَرَ. ✿قَنِيتُ عَبِيداً وَجَوَارِيَ وَكَانَ لِي وُلْدَانُ الْبَيْتِ. وَكَانَتْ لِي أَيْضاً قِنْيَةُ بَقَرٍ وَغَنَمٍ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا فِي أُورُشَلِيمَ قَبْلِي. ✿جَمَعْتُ لِنَفْسِي أَيْضاً فِضَّةً وَذَهَباً وَخُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْبُلْدَانِ. اتَّخَذْتُ لِنَفْسِي مُغَنِّينَ وَمُغَنِّيَاتٍ وَتَنَعُّمَاتِ بَنِي الْبَشَرِ سَيِّدَةً وَسَيِّدَاتٍ. ✿فَعَظُمْتُ وَازْدَدْتُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلِي فِي أُورُشَلِيمَ وَبَقِيَتْ أَيْضاً حِكْمَتِي مَعِي. ✿وَمَهْمَا اشْتَهَتْهُ عَيْنَايَ لَمْ أُمْسِكْهُ عَنْهُمَا. لَمْ أَمْنَعْ قَلْبِي مِنْ كل فَرَحٍ لأَنَّ قَلْبِي فَرِحَ بِكل تَعَبِي. وَهَذَا كَانَ نَصِيبِي مِنْ كل تَعَبِي. ✿ثُمَّ الْتَفَتُّ أَنَا إِلَى كل أَعْمَالِي الَّتِي عَمِلَتْهَا يَدَايَ وَإِلَى التَّعَبِ الَّذِي تَعِبْتُهُ فِي عَمَلِهِ فَإِذَا الْكل بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ!﴾

(جامعة ٢: ٤-١١)

وخلص سليمان مما قاله هنا إلى النتيجة الآتية: ينبغي على المرء أن يعرف منذ سنّ الشباب شرائع الإله ووصاياه، ويتذكّرها وينفّذها. وإذا ما استعملنا مصطلحاتنا المعاصرة نقول: يجب على الإنسان أن يعيش وفق قوانين الكون، قوانين الطبيعة. ويجب أن يتوافق حقله الحيوي، نظامه الإعلامي توافقاً تاماً مع الحقل الإعلامي الواحد للكون كله.

لقد كتب سليمان يقول:

﴿✿فَاذْكُرْ خَالِقَكَ فِي أَيَّامِ شَبَابِكَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ الشَّرِّ أَوْ تَجِيءَ السِّنِينَ إِذْ تَقُولُ: لَيْسَ لِي فِيهَا سُرُورٌ. ✿قَبْلَ مَا تَظْلُمُ الشَّمْسُ وَالنُّورُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَتَرْجِعُ السُّحُبُ بَعْدَ الْمَطَرِ. ✿فِي يَوْمٍ يَتَزَعْزَعُ فِيهِ حَفَظَةُ الْبَيْتِ وَتَتَلَوَّى رِجَالُ الْقُوَّةِ وَتَبْطُلُ الطَّوَاحِنُ لأَنَّهَا قَلَّتْ وَتُظْلِمُ النَّوَاظِرُ مِنَ الشَّبَابِيكِ. ✿وَتُغْلَقُ الأَبْوَابُ فِي السُّوقِ. حِينَ يَنْخَفِضُ صَوْتُ الْمِطْحَنَةِ وَيَقُومُ لِصَوْتِ الْعُصْفُورِ وَتُحَطُّ كل بَنَاتِ الْغِنَاءِ. ✿وَأَيْضاً يَخَافُونَ مِنَ الْعَالِي وَفِي الطَّرِيقِ أَهْوَالٌ وَاللَّوْزُ يُزْهِرُ وَالْجُنْدُبُ يُسْتَثْقَلُ وَالشَّهْوَةُ تَبْطُلُ. لأَنَّ الإِنْسَانَ ذَاهِبٌ إِلَى بَيْتِهِ الأَبَدِيِّ وَالنَّادِبُونَ يَطُوفُونَ فِي السُّوقِ. ✿قَبْلَ مَا يَنْفَصِمُ حَبْلُ الْفِضَّةِ أَوْ يَنْسَحِقُ كُوزُ الذَّهَبِ أَوْ تَنْكَسِرُ الْجَرَّةُ عَلَى الْعَيْنِ أَوْ تَنْقَصِفُ الْبَكَرَةُ عِنْدَ الْبِئْرِ. ✿فَيَرْجِعُ التُّرَابُ إِلَى الأَرْضِ كَمَا كَانَ وَتَرْجِعُ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَعْطَاهَا. ✿بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ قَالَ الْجَامِعَةُ: الْكل بَاطِلٌ.﴾

(الجامعة ١٢: ١-٨)

ويقول سليمان في النهاية:

﴿۞فَلْنَسْمَعْ خِتَامَ الأَمْرِ كله: اتَّقِ اللَّهَ وَاحْفَظْ وَصَايَاهُ لأَنَّ هَذَا هُوَ الإِنْسَانُ كله. ۞لأَنَّ اللَّهَ يُحْضِرُ كل عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ عَلَى كل خَفِيٍّ إِنْ كَانَ خَيْراً أَوْ شَرّاً﴾

(الجامعة ١٢: ١٣-١٤)

إن كل شيء هنا صحيح ما عدا كلمة «أخشَ». إذ يجب أن تستبدل بها كلمة «أحبب»، وهو ما فعله يسوع المسيح.

الفصل الرابع

يهوذا و إسرائيل

بعد سليمان استوى على العرش ابنه رحبعام. وقد ورث هذا عن والده دولة قوية وغنيّة. ولكن لم يرث منه حكمة رجل الدولة. فحكم بالقسوة والعنف. لقد قال رحبعام لشعبه: «إذا كان أبي سليمان قد وضع النير على أعناقكم، فإني أضاعفه؛ وإذا كان هو قد عاقبكم بالسوط، فإني سوف أُعاقبكم بالعقارب» (كانت هذه هي تسمية السياط التي تحمل صمولات معدنية). ولذلك كان من الطبيعي أن يثور ضده الجزء الأعظم من المملكة. فلم يبقَ تحت سلطته من القبائل الاثنتي عشرة سوى قبيلتين فقط. أمّا القبائل العشر الأخرى فقد اختارت يربعام ملكاً عليها، ويربعام هذا ينتمي إلى قبيلة أفرايم. وجعل يربعام مدينة السامرا عاصمة للدولة الجديدة، التي باتت تدعى: إسرائيل. أمّا قبيلتا يهوذا وبنيامين فقد أسستا دولة يهوذا. وبات مواطنو هذه الدولة يدعون يهوداً. ولكي لا يزور مواطنو دولته معبد أورشليم، أقام يربعام ملك إسرائيل، عجلين ذهبيين للعبادة في مدينتي مملكته. وقال لرعاياه: «لا حاجة لكم في الذهاب إلى أورشليم. فهاهما إلهاكما اللذان أخرجاكما من مصر». وهكذا بات الإسرائيليون يسجدون للأوثان.

لقد عاشت دولتا الشعب الإسرائيلي منفصلتين على مدى قرنين ونصف القرن. والحقيقة إن ذلك لم يكن مجرّد انفصال وحسب، إنما حالة عداء. وهذا ما أضعف الدولتين وأدّى في نهاية الأمر إلى سقوطهما تحت ضربات جيرانهما الأقوياء.

فدولة إسرائيل عاشت ٢٥٧ عاماً، ثمّ استولى عليها الملك الآشوري سلمنصر، وساق أعداداً كبيرة من سكانها أسرى إلى بلاده. ونقل من مملكته جماعات وثنية أسكنها في الأراضي التي كانت تقوم عليها مملكة إسرائيل. وتخالط هؤلاء الوافدون الجدد مع ما بقي من الإسرائيليين وشكلوا شعباً بات يدعى بالسامريين (نسبة إلى مدينة السامرا).

وبعد سقوط مملكة إسرائيل عاشت مملكة يهوذا نحو مائة عام أخرى. ولكن خطر الاستيلاء عليها كان ماثلاً للعيان. وكان النبي أرميا أوّل من أحسّ بذلك، وحاول جاهداً تأخير وقوع الحدث. لقد كان أرميا ثاني أنبياء العهد القديم الكبار، واحداً من

أكثر رجالات زمنه ثقافة، كما كان سياسياً ذا إدراك عميق ودقيق. وكانت نعمة التنبؤ قد جاءته منذ أن كان في سنّ الشباب، ولذلك كان أصغر الأنبياء سنّاً. وفي الآونة الأولى عانى أرميا من هذه الحالة. ولكن الطبيعة أنعمت عليه بصوت راعد جبّار، وعينين ناريتين، وحديث حماسي جذاب. فما يكاد الناس يسمعونه حتى يقفوا كمن وقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي. لقد كان أرميا يحذّر كل يوم من خطر السبي البابلي:

﴿قَدْ صَعِدَ الأَسَدُ مِنْ غَابَتِهِ وَزَحَفَ مُهْلِكُ الأُمَمِ. خَرَجَ مِنْ مَكَانِهِ لِيَجْعَلَ أَرْضَكِ خَرَاباً. تُخْرَبُ مُدُنُكِ فَلاَ سَاكِنَ.﴾

(ارميا ٤ : ٧)

﴿هُوَذَا كَسَحَابٍ يَصْعَدُ وَكَزَوْبَعَةٍ مَرْكَبَاتُهُ. أَسْرَعُ مِنَ النُّسُورِ خَيْلُهُ. وَيْلٌ لَنَا لأَنَّنَا قَدْ أُخْرِبْنَا. اِغْسِلِي مِنَ الشَّرِّ قَلْبَكِ يَا أُورُشَلِيمُ لِتُخَلَّصِي. إِلَى مَتَى تَبِيتُ فِي وَسَطِكِ أَفْكَارُكِ الْبَاطِلَةُ؟ لأَنَّ صَوْتاً يُخْبِرُ مِنْ دَانَ وَيُسْمِعُ بِبَلِيَّةٍ مِنْ جَبَلِ أَفْرَايِمَ: أُذْكُرُوا لِلأُمَمِ. انْظُرُوا. أَسْمِعُوا عَلَى أُورُشَلِيمَ. الْمُحَاصِرُونَ آتُونَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ فَيُطْلِقُونَ عَلَى مُدُنِ يَهُوذَا صَوْتَهُمْ.﴾

(ارميا ٤ : ١٣-١٦)

﴿نظَرْتُ إِلَى الأَرْضِ وَإِذَا هِيَ خَرِبَةٌ وَخَالِيَةٌ وَإِلَى السَّمَاوَاتِ فَلاَ نُورَ لَهَا.

(ارميا ٤ : ٢٣)

﴿مِنْ صَوْتِ الْفَارِسِ وَرَامِي الْقَوْسِ كل الْمَدِينَةِ هَارِبَةٌ. دَخَلُوا الْغَابَاتِ وَصَعِدُوا عَلَى الصُّخُورِ. كل الْمُدُنِ مَتْرُوكَةٌ وَلاَ إِنْسَانَ سَاكِنٌ فِيهَا.﴾

(ارميا ٤ : ٢٩)

ولمّا ألقى أرميا خطبته الشهيرة في المعبد ووجّه فيها انتقادات لاذعة لنبوخذنصّر، حكم عليه الكهنة بالموت. ولم ينج من القتل إلاّ بفضل تدخّل عدد من الشّخصيّات المتنفّذة. لكنه منع من إلقاء المواعظ. وقد جعله هذا التحريم يكتب مواعظه بنفسه كما كتبها أنصاره أيضاً، وهذا ما ساعد على بقائها للأجيال. ولم يكتف تلميذه النبي باروخ بأن كتب كل ما قاله أرميا، بل كان يلقي هذا كله أمام الناس.

لقد فعل أرميا وسعه ليحبط خطط ملك اليهودية صدقيا، الذي وقف ضد بابل. ورأى فيها خططاً جنونية. فالخطة كانت تقوم في التحالف مع مصر لتفادي عبوديّة نبوخذنصّر.

وأثبتت الأحداث أنَّ أرميا كان على حقٍّ. فسرعان ما مُني الفرعون المصري بالهزيمة، ووقعت اليهوديَّة في تبعيَّة بابل.

وفي بادئ الأمر أخضع الملك البابلي لسلطانه ملك اليهوديَّة، لكنَّه لم يدمِّر البلاد. ولكن اليهود أعلنوا العصيان، فجرُّوا على أنفسهم عبوديَّة بابليَّة طال أمدها، ودمِّرت أورشليم ونهبت، كما دمِّر معبد سليمان وأحرق. وهلك معه تابوت العهد. وفي العام ٥٨٩ق.م. سيق شعب اليهوديَّة أسيراً إلى بابل؛ ولم يبقَ في الأرض إلاَّ الفقراء المعدمين ليخدموا الأعمال الزراعيَّة وكروم العنب. وبقي معهم النَّبي أرميا، الذي دعا شعبه قبل الانتفاضة إلى عدم العصيان لأنَّ فيه دمار البلاد، والشَّعب، وأورشليم، والتبعية لبابل.

لقد اشتهرت كثيراً مراثي أرميا على أطلال أورشليم المهدَّمة:

«✿شُيُوخُ بِنْتِ صِهْيَوْنَ يَجْلِسُونَ عَلَى الأَرْضِ سَاكِتِينَ. يَرْفَعُونَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. يَتَنَطَّقُونَ بِالْمُسُوحِ. تَحْنِي عَذَارَى أُورُشَلِيمَ رُؤُوسَهُنَّ إِلَى الأَرْضِ. ✿كلتْ مِنَ الدُّمُوعِ عَيْنَايَ. غَلَتْ أَحْشَائِي. انْسَكَبَتْ عَلَى الأَرْضِ كَبِدِي عَلَى سَحْقِ بِنْتِ شَعْبِي لأَجْلِ غَشَيَانِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ فِي سَاحَاتِ الْقَرْيَةِ. ✿يَقُولُونَ لِأُمَّهَاتِهِمْ: أَيْنَ الْحِنْطَةُ وَالْخَمْرُ؟ إِذْ يُغْشَى عَلَيْهِمْ كَجَرِيحٍ فِي سَاحَاتِ الْمَدِينَةِ إِذْ تُسْكَبُ نَفْسُهُمْ فِي أَحْضَانِ أُمَّهَاتِهِمْ. ✿بِمَاذَا أُنْذِرُكِ بِمَاذَا أُحَذِّرُكِ؟ بِمَاذَا أُشَبِّهُكِ يَا ابْنَةَ أُورُشَلِيمَ؟ بِمَاذَا أُقَايِسُكِ فَأُعَزِّيكِ أَيَّتُهَا الْعَذْرَاءُ بِنْتَ صِهْيَوْنَ؟ لأَنَّ سَحْقَكِ عَظِيمٌ كَالْبَحْرِ. مَنْ يَشْفِيكِ؟ ✿أَنْبِيَاؤُكِ رَأَوْا لَكِ كَذِباً وَبَاطِلاً وَلَمْ يُعْلِنُوا إِثْمَكِ لِيَرُدُّوا سَبْيَكِ بَلْ رَأَوْا لَكِ وَحْياً كَاذِباً وَطَوَائِحَ. ✿يُصَفِّقُ عَلَيْكِ بِالأَيَادِي كل عَابِرِي الطَّرِيقِ. يَصْفِرُونَ وَيُنْغِضُونَ رُؤُوسَهُمْ عَلَى بِنْتِ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: أَهَذِهِ هِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّهَا كَمَالُ الْجَمَالِ بَهْجَةُ كل الأَرْضِ؟ ✿يَفْتَحُ عَلَيْكِ أَفْوَاهَهُمْ كل أَعْدَائِكِ. يَصْفِرُونَ وَيُحَرِّقُونَ الأَسْنَانَ. يَقُولُونَ: قَدْ أَهْلَكْنَاهَا. حَقّاً إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي رَجَوْنَاهُ. قَدْ وَجَدْنَاهُ! قَدْ رَأَيْنَاهُ. ✿فَعَلَ الرَّبُّ مَا قَصَدَ. تَمَّمَ قَوْلَهُ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُنْذُ أَيَّامِ الْقِدَمِ. قَدْ هَدَمَ وَلَمْ يُشْفِقْ وَأَشْمَتَ بِكِ الْعَدُوَّ. نَصَبَ قَرْنَ أَعْدَائِكِ. ✿صَرَخَ قَلْبُهُمْ إِلَى السَّيِّدِ. يَا سُورَ بِنْتِ صِهْيَوْنَ اسْكُبِي الدَّمْعَ كَنَهْرٍ نَهَاراً وَلَيْلاً. لاَ تُعْطِي ذَاتَكِ رَاحَةً. لاَ تَكُفَّ حَدَقَةُ عَيْنِكِ. ✿قُومِي اهْتِفِي فِي اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ الْهُزُعِ. اسْكُبِي كَمِيَاهٍ قَلْبَكِ قُبَالَةَ وَجْهِ السَّيِّدِ. ارْفَعِي إِلَيْهِ يَدَيْكِ لأَجْلِ نَفْسِ

أَطْفَالِكِ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُوعِ فِي رَأْسِ كل شَارِعٍ. ۞أُنْظُرْ يَا رَبُّ وَتَطَلَّعْ بِمَنْ فَعَلْتَ هَكَذَا. أتأكل النِّسَاءُ ثَمَرَهُنَّ أَطْفَالَ الْحَضَانَةِ؟ أَيُقْتَلُ فِي مَقْدِسِ السَّيِّدِ الْكَاهِنُ وَالنَّبِيُّ؟ ۞اضْطَجَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فِي الشَّوَارِعِ الصِّبْيَانُ وَالشُّيُوخُ. عَذَارَايَ وَشُبَّانِي سَقَطُوا بِالسَّيْفِ. قَدْ قَتَلْتَ فِي يَوْمِ غَضَبِكَ. ذَبَحْتَ وَلَمْ تُشْفِقْ.﴾

(مراثي أرميا ٢: ١٠-٢١)

وفي مصر أنهى أرميا حياته، إذ حمله إرهابيون إلى هناك عنوة في عداد مجموعة الرَّهائن. وكان هؤلاء قد قتلوا حاكم مدينة ماسيف وفرُّوا إلى مصر. ومن مصر أرسل أرميا رسالة إلى الأسرى اليهود في بابل، شجَّعهم فيها على الصبر وتنبَّأ بقرب العودة. لقد كتب النَّبي إلى أبناء قومه في بابل يؤكِّد لهم، إنَّ الأسر البابلي لا يمكن أنْ يستمرَّ أكثر من سبعين عاماً. ثمَّ تبيَّن أنَّ النَّبي كان على حقٍّ. فبعد سبعين عاماً أُطلق اليهود إلى ديارهم. أمَّا أرميا فقد قتله اليهود في مصر، لأنَّه لم يهادن في انتقادهم، واتَّهمهم بالخروج على القانون وترك عبادة الإله.

وكان من معاصري النَّبي أرميا، النَّبي حزقيال، وهو واحد من أربعة أنبياء كبار عرفهم طور الأسر البابلي. ومن الصَّعب جداً أنْ نتخيَّل حياة اليهود في بابل من غير النَّبي حزقيال، كما يصعب أنْ نتخيَّل كتاب العهد القديم بغير نبوءاته. وينتمي حزقيال أصلاً إلى يهود الأسر البابلي. وقد جاءته الموهبة الإلهيَّة فجأة، إذ أحسَّ بالإلهام الإلهي الذي هزَّ كيانه، وبدَّل وجوده، ودفع بروحه نحو الرَّبِّ الإله. وكان حزقيال بطبيعته إنساناً شاعريَّاً، انفعاليَّاً ومتحمِّساً للغاية. ففي لحظات رؤياه غالباً ما كان يقع في نوبات من الذهول، وأحياناً ما كان يعاني نوبات تشبه نوبات الصَّرع. وننوِّه في السياق إلى أنَّ حزقيال كان في شبابه خادماً لأرميا. وخلافاً لأرميا لم يلقَ حزقيال خطباً علنيَّة، بل أدار نقاشات هادئة كانت تهزُّ كيان محدِّثه. لقد كان حزقيال نبيَّاً - كاتباً كتب أحاديثه كلها.

فما الذي تنبَّأ به حزقيال؟ قبل كل شيء عن اجتماع شعب إسرائيل كله مستقبلاً. أيجب أنْ نبالغ في تقويم الدَّور الذي يؤدِّيه الأمل في حياة الأسرى؟ لقد كانت رؤى حزقيال مغرقة في رمزيَّتها. وإذا كان الأنبياء الآخرون قد سمعوا الصَّوت الإلهي في غالب الأحيان، فإنَّ حزقيال كان يرى في أكثر الأحيان ما تحتويه النُّبوءة. وهناك كثير من نبوءات حزقيال لم يُتَّفق على تأويله حتى الآن. ولكنَّ لأكثرها مغزى واضحاً. وكانت على وجه العموم خير معين لليهود إبان وجودهم في الأسر البابلي.

وأهمُّ رؤيا من رؤى حزقيال، هي رؤياه عن العظام الجافّة المبعثرة في أرجاء الأرض. فقد كان مقدَّراً لها أنْ تبعث وتلتحم وتشكل من ذاتها الشّعب الحي المعافى. ويُقرأ نصُّ هذه الرؤيا الشهيرة في يوم السَّبت العظيم، في كل الكنس اليهودية في العالم:

﴿كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسَطِ الْبُقْعَةِ، وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَاماً. وَأَمَرَّنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدّاً عَلَى وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدّاً. فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟ فَقُلْتُ: يَا سَيِّدُ الرَّبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ. فَقَالَ لِي: تَنَبَّأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كلمَةَ الرَّبِّ. هَكذا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهَذِهِ الْعِظَامِ: هَئَنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحاً فَتَحْيُونَ. وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَباً وأَكْسِيكُمْ لَحْماً وَأَبْسُطُ عَلَيْكُمْ جِلْداً وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحاً فَتَحْيُونَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. فَتَنَبَّأْتُ كمَا أُمِرتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَتنَبَّأُ كَانَ صَوْتٌ وَإِذَا رَعْشٌ فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كل عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ. ونَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وبُسِطَ الْجِلْدُ علَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. فَقَالَ لِي: تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هَكذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَتْلَى لِيَحْيُوا. فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ، فَحَيُوا وَقَامُوا عَلَى أَقدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدّاً جِدّاً. ثُمَّ قَالَ لِي: يَا ابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كل بَيتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدِ انْقَطَعْنَا.﴾

(حزقيال ٣٧: ١-١١)

لقد تحقق كثير مما تنبَّأ حزقيال به. ولكنَّ نشاط حزقيال لم يقتصر على التَّنبُّؤ. فقد كان هذا رجلاً تقدُّمياً.

وهذا ما تدلُّ عليه نظريته التي تقول، إنَّ الأبناء يحملون وزر آثام والديهم. وقد يبدو أنَّ هذا الرَّأي يعارض معطيات الوصايا المعطاة من قبل كلها. بيد أنَّ الأمر هكذا، إذا ما أخذنا بالحسبان حرفيَّة الشَّريعة.أمَّا إذا رأينا أنَّ الإنسان هو غاية الشَّريعة بكماله وإنسانيَّته، فسوف يتَّضح لنا أنَّ حزقيال سار على هذه الطَّريق إلى مدى أبعد. وفلسفته في هذا السياق قريبة جداً من فلسفة يسوع المسيح:

﴿...الابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ. فَإِذَا رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُ الَّتِي فَعَلَهَا وَحَفِظَ كل فَرَائِضِي وَفَعَلَ حَقّاً وَعَدْلاً فَحَيَاةً يَحْيَا. لاَ يَمُوتُ.﴾

(حزقيال ١٨ : ٢٠- ٢١)

﴿هَلْ مَسَرَّةً أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ؟ أَلاَ بِرُجُوعِهِ عَنْ طُرُقِهِ فَيَحْيَا؟﴾

(حزقيال ١٨ : ٢٣)

وهكذا ترسَّخت الرحمة، التي تعدُّ حجر الزاوية في تعاليم المسيح، ترسَّخت أكثر فأكثر (ابتداء من إبراهيم، إلى موسى، عبر حزقيال).

لقد مات حزقيال مثله مثل أرميا، مقتولاً على يد أحد يهود الأسر البابلي.

وانتهت سنين الأسر في بابل لكنَّ المحرَّرين منه كانوا أناساً آخرين. فسبعون عاماً من الأسر فعلت فعلها، ونشأت أجيال جديدة لا تعرف شيئاً عن وطنها الأوَّل. كما بقي كثير من اليهود في بابل، إذ حقَّق هؤلاء فيها ثروات كبيرة وفقدوا رغبتهم في العودة. ولكنْ في الوقت نفسه كان هناك مَنْ حافظ على التقاليد الشعبية، وحفظ الوصايا والشَّرائع. فقد عاد إلى اليهوديَّة من بابل اثنان وأربعون ألف يهوديٍّ فقط. ومثَّل هؤلاء موكباً بائساً. إذ تمسَّكوا بعصبيَّة بالماضي الذي رحل إلى الأبد، ولم يشاؤوا أنْ يروا التَّغيُّرات التي حصلت. لقد سعوا لإعادة التَّاريخ إلى الوراء، فدفعوا الثَّمن باهظاً. وكان الكاهن العالم عزرا مثالاً سيِّئاً في هذا الشَّأن. فعزرا هذا كان ينتمي إلى سلالة هارون مباشرة. ورأى أنَّ مستقبل اليهود كله يرتبط بمدى حفاظهم (والأصحُّ باسترجاعهم) على العادات كلها، وعلى الإيمان التَّقليدي. ودعا إلى العودة لكل ما كان معمولاً به في زمن موسى حتى أدقِّ التَّفاصيل. فحسب رأيه أنَّ هذه هي الطريق الوحيدة التي تحفظ لليهود وجههم. وبفضل علمه حظي عزرا بمكانة مرموقة في قصر أرتاكسيراكس. ولم يعدْ عزرا مع الذين عادوا إلى اليهوديَّة، لا لأنَّه كانت تنقصه الرغبة في ذلك، بل لأنَّه رأى أنَّ اليهود الذين بقوا في بابل يحتاجون إليه أكثر. ولكنَّ عزرا كان على علم دقيق بكل ما كان يفعله اليهود العائدين من الأسر. فقد علم أنَّ بناء المعبد يسير ببطء شديد، وأنَّ الشَّعب لا يراعي وصايا موسى، فيعقد الزيجات المختلطة، ولا يقيم كبير وزن لعبادة الرَّبِّ الإله. لهذا كله خفَّ عزرا إلى أورشليم. وقد جاء ومعه صلاحيات استثنائيَّة منحها له

الإمبراطور الفارسي أرتاكسيراكس نفسه. أي إنَّ العالم النَّبي عزرا جاء إلى اليهوديَّة حاكماً أعلى وبصحبته جماعة كبيرة من المستوطنين، وكنوز كثيرة للمعبد. وهنا في أورشليم رأى عزرا أنَّ النَّقص ليس في حجارة بناء المعبد فقط، إنَّما هناك نقص كبير في الكهنة الذين يجب أنْ يقوموا على الخدمة الدِّينيَّة. فنجح في جمع ٢٢٠ لاوياً، واستؤنفت الصلوات التَّقليديَّة في أنحاء البلاد كلها.

ولكنَّ مأساة كبيرة خسفت هذا الفرح لدى أكثر أفراد الشَّعب. فقد طالب عزرا بفسخ عقود الزواج من غير اليهود واليهوديات خلال عام واحد. ولم يكن هذا مجرَّد طلب، بل كان أمراً صادراً عن الحاكم الأعلى. فحلَّت البليَّة في كل عائلة تقريباً. كما جعل عزرا من الدَّولة التي كانت قائمة سابقاً في اليهوديَّة، مشاعة طائفيَّة دينيَّة معزولة عن باقي شعوب الإقليم وقبائله. ولم يكن هذا كله من حيث الجوهر سوى فوضويَّة، عودة إلى الوراء قروناً كثيرة، الأمر الذي ترك تأثيراً كبيراً على وضع اليهود بين الشُّعُوب الأخرى. ولا شكَّ في صحَّة ما جاء في أحد الكتب: «لقد فرَّق عزرا شعبه عن جيرانه، وضرَّج حدود الدَّولة بالدِّماء. فالشَّعب لا يستطيع أنْ يعيش معزولاً، إنَّه يختنق في غطرسته». وكتب ألكسندر مين عن عزرا فقال: «لقد حوَّل هذا القانوني السلفي إسرائيل نهائيَّاً من أمَّة إلى ما يشبه الأخوية الدِّينيَّة، أو الطائفة المغلقة. ويُعدُّ نجاحه هذا واحداً من أكثر الصَّفحات سواداً في تاريخ اليهوديَّة بعد الأسر البابلي».

وهنا بالذَّات يكمن مبدأ الفساد في اليهوديَّة، الذي دعي يسوع المسيح لمحاربته. فقد أنجب الأساس الدِّيني الأخلاقي السَّليم، أي شريعة موسى، شيئاً ما نقيضاً له، مسخاً مشوَّهاً خنق الأخلاق البشريَّة الحقيقيَّة، كما خنق الدِّين الصَّحيح. لقد اتَّخذ كل شيء صيغة مشوَّهة. وصار حاملو هذا «اللاشيء» وأنصاره شارحين ومؤوِّلين متخصِّصين (فريسيين). ولذلك ليس من قبيل المصادفة أنْ صارت تسمية فريسي - كتبي في زمن يسوع المسيح مرادفة لتسمية يهودي.

لقد عاش اليهود الذين عادوا من الأسر البابلي حوالي المائتي عام تحت سلطة ملوك فارس. وبعد أن استولى الإسكندر المقدوني على الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وجد اليهود أنفسهم تحت سلطة الحكَّام الإغريق. وكان الإسكندر نفسه قد وقَّر قدسيَّة معبد أورشليم، وقد نستطيع القول إنَّه منح اليهود حمايته. ولكنَّ مملكته انقسمت بعد موته بين قادة جيوشه الأربعة. وقد آلت مصر إلى واحد منهم: بطليموس، الذي لم يرحم اليهود. فساق آلافاً منهم عبيداً إلى مصر.

ولكنَّ ابنه بطليموس فيلاديلف اتَّخذ من اليهود ودينهم موقفاً طيِّباً. وهو الذي أمر بترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقيَّة، التي كانت اللغة الأكثر شيوعاً في ذلك العصر، وهو ما ساهم بالتَّالي في انتشار كتاب العهد القديم.

وبعد حوالي المائة عام ألحقت اليهوديَّة بملوك سوريا الإغريق الذين اضطهدوا اليهوديَّة والمؤمنين بها.

ثمَّ حلَّ أباطرة روما محلَّ الملوك الإغريق حكَّاماً على اليهود. ووضع هؤلاء على فلسطين واحداً من أحفاد عيسو، هو أنتيباتر حاكماً. وبعد أنْ مات هذا مسموماً عُيِّن ابنه هيرودوس حاكماً مكانه، وقد دعي هيرودوس هذا بهيرودوس الكبير، وأعلن ملكاً يهوديًّا. لقد أعاد هيرودوس تجديد معبد أورشليم سعياً منه لكسب ودِّ اليهود واستمالتهم إلى جانبه. فلم يكن الملك يحكم اليهوديَّة بمفرده، إذ كان هناك أيضاً الوالي الروماني الممثِّل الشخصي للإمبراطور. أمَّا الإدارة المحلِّيَّة فقد نهض بها مجلس مؤلَّف من كبار الكهنة وشيوخ الشَّعب، ودعي هذا المجلس بالسيندريون، لكنَّه كان تابعاً للوالي الروماني مباشرة. وكانت صلاحيات السيندريون محدودة. فلم يكن من حقِّه مثلاً أنْ ينفِّذ الحكم بالإعدام إلاَّ بعد موافقة الوالي الروماني.

بانتظار المخلِّص

لقد عرف اليهود على امتداد تاريخهم القديم كله كل شيء: الارتداد عن عبادة إلههم والتَّحوُّل إلى عبادة الأصنام، ونير جيراهم الأقوياء وما حمله من أسر وعبوديَّة، عدَّاك عن الحروب الأهليَّة. وشيئاً فشيئاً تحقَّق ما وعدهم الرَّبُّ الإله به فيما إذا انتهكوا عهده معهم. وعن هذا قيل:

﴿وَأُذَرِّيكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ وَأُجَرِّدُ وَرَاءَكُمُ السَّيْفَ فَتَصِيرُ أَرْضُكُمْ مُوحِشَةً وَمُدُنُكُمْ تَصِيرُ خَرِبَةً.﴾

(لاويين ٢٦: ٣٣)

لقد رأت الشَّخصيَّات الدِّينيَّة اليهوديَّة أنَّ خلاص الشَّعب ووحدته يقومان في تنظيم سلوكه تنظيماً صارماً، وتحقيق التزامه بالعهد. بل حاول هؤلاء أنْ يجعلوا ضوابط السلوك أكثر صرامة، ومعايير الوصايا أكثر ضيقاً. ووضعوا لتحقيق خطَّتهم مزيداً من لوائح الوصايا والإرشادات التي يجب على كل يهوديٍّ أنْ يتقيَّد بها بدقَّة. ومن يخالف فإنَّ محكمة السيندريون بانتظاره لتنزل به أقسى أنواع العقوبات التي قد لا تخطر له على بال. وكان قد بدأ وضع مثل هذه الإضافات إلى شرائع موسى، منذ زمن الأسر البابلي. فقد حمل الكهنة اليهود نصَّ الكتاب المقدَّس معهم وحافظوا عليه بسرِّيَّة تامَّة؛ بل درسوه بمزيد من العمق بحثاً عن الخلاص. وأعادوا هناك نسخ كثير من النُّصُوص وملؤوا الأماكن المفقودة منها بما حفظته ذاكرتهم. وكان عزرا النَّبي هو روح ذلك العمل. والنَّبي عزرا هو مؤلف السفر التَّوراتي «أخبار الأيَّام الأوَّل والثَّاني»، الذي يُعدُّ تكملة لأسفار الملوك الأربعة. ففي هذا السفر كتب النَّبي عزرا بيده ذلك الطور من تاريخ اليهود الذي عايشه هو نفسه. كما قام بهذا العمل مع عزرا، الكتبيون الآخرون. وقد تابع هؤلاء عملهم حتى بعد أنْ عادوا من الأسر البابلي. وجاءت نتائج ذلك العمل مذهلة: لقد صاغ الكتبيون إضافة إلى شرائع موسى ٦١٣ وصيَّة وفرضاً. ٢٤٨ منها كانت أوامر واجبة، و٣٦٥ منها محرَّمات. وبهذا تكون الشَّخصيَّات الدِّينيَّة اليهوديَّة قد انقطعت تماماً عن الحياة الواقعيَّة، وسعت لحشر حياة اليهود في أُطر عبثيَّة لا معنى لها، خلافاً لمنطق العقل ومغزى شرائع موسى، الذي علَّم: «أحبب قريبك كما تحبُّ نفسك». وهناك حيث تفرض المحرَّمات ينبغي أنْ تتحدَّد العقوبات كذلك. ويجب أنْ تتقدَّم العقاب الإدانة،

وتتقدَّم هذه الأخيرة الوشاية. فقد اعتمد كل شيء على الوشايات، على الإبلاغ. إذن، عن أيِّ حبٍّ للقريب كان يمكن أنْ يجري الحديث. لقد كان النَّاس يرجمون بالحجارة إذا ما انتهكوا عن غير قصد هذا المعيار أو ذلك، أو هذا الفرض أو ذاك. وكانت عين الفريسيين - الكتبيين التي لا تسهو ترصد كل صغيرة وكبيرة. وهذه العيون التي كبَّلت الشَّعب اليهودي، هي التي سعى يسوع المسيح لسملها. فالمسيح لم يقف ضدَّ ناموس موسى، بل ضدَّ تلك المحرَّمات والقيود الكتبيَّة التي جعلت من الدِّيانة الحيَّة جثَّة هامدة. ودعا المسيح تلك المحرَّمات ساخراً: «أساطير العجائز»، التي تناقض الوصايا العشر وسواها من الشَّرائع التي وردت في أسفار موسى. فذلك العمل الذي ضيَّق على حياة النَّاس حتى باتت لا تطاق، كان يتدخَّل في تفاصيل العيش اليومي، واستمرَّت الحال هكذا عدَّة قرون كان الفريسيون الكتبة خلالها يحصون على النَّاس أنفاسهم. وفي حوالي العام ٥٥٠م. وضعت تلك الوصايا والإرشادات والمحرَّمات كلها في قانون يهودي واحد حمل اسم التلمود. ويتألَّف التلمود من جزأين: الميشنا، وقد اكتمل في حوالي العام ٢٠٠ق.م.؛ وبعد نحو ٥٠٠ عام ألحق الجزء الثَّاني بالميشنا، وهو الهيمارًا، أي «الختام». وبدلاً من أنْ يعدَّ القادة الدينيون سبيل التَّقدُّم في مجتمعهم، سعوا إلى استبعاد شعبهم، وسلبه قواه، وتحويله إلى عبد للمحرَّمات والفرائض التي اختلقوها. ومن المعروف أنَّ «تحويل الدين إلى شكليَّات يؤدِّي إلى الارتداد عنه، وجعل القانون متطرِّفاً إلى درجة المحال، يولد الجريمة». وهكذا لم يبقَ للشعب اليهودي سوى أنْ ينتظر حلول الزَّمن الأفضل، الذي تظهر فيه شخصية ما تعيد بناء الدَّولة اليهوديَّة القوية التي تعيد أمجاد دولة سليمان، وتحكم بحكمة وعدل وتسامح. لكنَّ هذا كله كان مجرَّد أحلام لم يقيَّض لها أنْ تتحقَّق. وكان الأنبياء بدورهم حزانى لما يحدث، ولكنَّهم رأوا المنقذ بشكل مختلف بعض الاختلاف: لم يكن هذا ملكاً يهودياً، بل مخلِّصاً الشَّعب اليهودي من الآثام.

لقد كان النَّبي أشعياء واحداً من ألمع الأنبياء الذين بشَّروا بظهور مخلِّص الشَّعب اليهودي هذا. وكان أشعياء هذا نبيَّاً ألمعيَّاً في أشياء كثيرة، خاصَّة رؤية الأحداث قبل وقوعها بسنوات كثيرة. فأشعياء الذي عاش قبل الأسر البابلي بزمن طويل، تنبَّأ به بكل اليقين، إذ قال:

﴿فَقَالَ إِشَعْيَاءُ لِحَزَقِيَّا: اسْمَعْ قَوْلَ رَبِّ الْجُنُودِ: هُوَذَا تَأْتِي أَيَّامٌ يُحْمَلُ فِيهَا كل مَا فِي بَيْتِكَ وَمَا خَزَنَهُ آبَاؤُكَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ إِلَى بَابِلَ. لاَ يُتْرَكُ شَيْءٌ يَقُولُ الرَّبُّ.﴾

(أشعياء ٣٩: ٦٥)

لقد قيل هذا قبل مائتي عام من الأسر البابلي. فهل كانت هذه نبوءة محلِّل سياسي ملهم؟ كلاَّ! فعندما قيلت هذه الكلمات لم يكن ثمَّة أيُّ أحداث تنبئ بالأسر البابلي. لقد عرف أشعياء بالحدث من مصدر آخر: من الإله. وهو لم يساوره شكٌّ في هذا قط. فثقته بأنَّ

الإله نفسه يخاطب الشَّعب عبره، تجلَّت في أنَّ الحشد الكبير الذي كان يسمعه قد أدرك مغزى كلامه بوضوح، واستمع إليه بوقار وصمت مطلق. لقد كان حديث النَّبي مدوّياً وحازماً. والأهمُّ من هذا كله أنَّه كان يقول الحقيقة غير عابئ بتهديد الملوك وحكّام العالم وقتئذٍ. وليس غريباً أنْ جاء انتقامهم منه مروِّعاً. فقد أمر الملك مناسي بأنْ يشطر النَّبي بمنشار الخشب. فلم يستطع مناسي أنْ يغفر له انتقاداته اللاذعة للقصر الملكي، وفضحه للطغيان السَّائد في اليهوديَّة، وارتداد الشَّعب اليهودي عن شريعة موسى التي تلقاها من الإله في سيناء:

﴿الثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيهِ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لا يَفْهَمُ. وَيْلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءٍ. عَلَى مَ تُضْرَبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيَغَاناً! كل الرَّأْسِ مَرِيضٌ وكل الْقَلْبِ سَقِيمٌ. مِنْ أَسْفَلِ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيَّةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَيَّنْ بِالزَّيْتِ. بِلاَدُكُمْ خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تأكلها غُرَبَاءُ قُدَّامَكُمْ وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانْقِلاَبِ الْغُرَبَاءِ. فَبَقِيَتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كَمِظَلَّةٍ فِي كَرْمٍ كَخَيْمَةٍ فِي مَقْثَأَةٍ كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيَّةً صَغِيرَةً لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ.﴾.

(أشعياء ١: ٣-٩)

وتنبَّأ أشعياء بظهور المخلص، المسيا، ابن الإله الذي بآلامه سيخلّص العالم الغارق في الآثام:

﴿وَيَأْتِي الْفَادِي إِلَى صِهْيَوْنَ وَإِلَى التَّائِبِينَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فِي يَعْقُوبَ يَقُولُ الرَّبُّ.﴾

(أشعياء ٥٩: ٢٠)

وقد تحدَّث يسوع المسيح فيما بعد عن نبوءة مجيء ابن الإله هذه. ولكنَّ أشعياء لم يكتفِ بأنْ تنبَّأ بظهور المخلّص، بل أعدَّ له الطريق أيضاً. ففلسفة النَّبي قريبة جداً من فلسفة المسيح، على الرَّغم من القرون السبعة التي فصلت بينهما. وهذا ما توحي به أقوال النَّبي أشعياء نفسه:

﴿رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ. لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلَهِنَا. لأُعَزِّيَ كل النَّائِحِينَ.﴾

(أشعياء ٦١: ١-٢)

ولم يكن من الغريب أنْ يقرأ يسوع المسيح هذه الكلمات في معبد النَّاصرة المحلّي. وعن هذا كتب لوقا في إنجيله يقول:

﴿فَدُفِعَ إِلَيْهِ سِفْرُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ. وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوباً فِيهِ: رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ...﴾ (لوقا ٤: ١٧-١٨)

كما تضمَّن كتاب النَّبي زكريا نبوءات عن مجيء المخلِّص، المسيا. وقد كانت تلك النبوءات محددة ودقيقة إلى درجة أنَّها لا تزال حتى اليوم تثير الدهشة بيقينيَّتها. فقد وصف زكريا دخول المخلِّص أورشليم راكباً على أتان، وبيعه بثلاثين من الفضَّة (بل تنبَّأ أيضاً بأنَّ تلك النقود ستدفع ثمناً لأرض تشرى «من خزَّاف»)، وكسوف الشَّمس لحظة صلبه، وطعن جنبه بالحربة. وعلاوة على هذا تنبَّأ زكريا باستيطان تلاميذ المسيا مختلف البلدان.

لقد ولد النَّبي زكريا في الأسر البابلي، وهناك بدأ يتنبَّأ. ثمَّ عاد مع اليهود الذين عادوا إلى أورشليم وشارك مشاركة نشطة في إعادة بناء المعبد.

وكان النَّبي دانيال قد ولد في الأسر البابلي أيضاً، وبدوره تنبَّأ بمجيء المخلِّص. وبفضل مواهبه الفطريَّة جرى تقريبه مع فتيان يهود آخرين إلى القصر الملكي. ولكنَّه عرف معاناة مريرة بما فيها الرَّمي في جبِّ الأسود. وحدَّد دانيال في نبوءاته تاريخ مجيء المخلِّص: بعد «سبعين سبع»، أي بعد ٤٩٠ عاماً. وهذا ما حصل.

وتنبَّأ بمجيء المخلِّص أيضاً أنبياء آخرون مثل حجي وملاخي. فحجي قال إنَّ معبد أورشليم الثَّاني على الرَّغم من صغر حجمه وقلَّة موجوداته، إلاَّ أنَّ مجده سوف يكون أعظم من المجد الذي كان لمعبد سليمان؛ أعظم لأنَّ المخلِّص، المسيح الذي تنتظره شعوب الأرض كلها سوف يدخل إليه. ومن الواضح أنَّ الحديث لا يجري هنا عن الشَّعب اليهودي وحده، إنَّما عن شعوب الأرض كلها. ونشير في السياق إلى أنَّ المخلِّص الواحد الآتي من الشَّرق، كانت تنتظره شعوب وثنية كثيرة كانت داخل قوام الإمبراطوريَّة الرومانيَّة.

ولم يتنبَّأ النبي ملاخي بقرب مجيء المخلِّص فقط، بل تنبَّأ بقرب مجيء بشيره أيضاً. ومهمَّة البشير، هي إعداد النَّاس لاستقبال المخلِّص. ومن المعروف أنَّ يوحنا المعمدان كان ذلك البشير. فقد عمَّد يسوع المسيح في نهر الأردن. أمَّا ملاخي فلم يعقبه لدى اليهود نبي طول أربع مائة عام. وبدلاً من الشَّرارة الإلهيَّة جاء الكتبيون، حرَّاس كلمة الشريعة، ومبتكرو مزيد من القيود والوصايا التي أفضت في نهاية الأمر إلى هلاك الشَّعب اليهودي؛ بمعنى أنَّ اليهود الذين كان الكتبيون - القانونيون يقودونهم لم يقبلوا تعاليم المسيح، وفشلوا في أنْ يرتقوا إلى درجة أعلى في تقدُّم المجتمع البشري، إلى درجة أسمى في ميدان الإنسانيَّة، وحبِّ الآخر، والرحمة. فقد بدا كأنَّ اليهود تكلسوا داخل مئات القواعد والقيود الشَّكليَّة التي تضاعفت أعدادها بعد صلب يسوع المسيح، إذ دعوا شهود زور لكي يبرِّروا حكم الإعدام الذي أُنزل به.

الفصل السادس

حياة يسوع

إنَّ تعاليم يسوع المسيح تعاليم فريدة من نوعها لدرجة أنَّها تجعل المرء يتساءل كيف أمكن أنْ تظهر منذ ألفي عام.

فهي تعاليم فريدة بتناهيها. فيها قيل كل شيء. ولا يمكن أنْ يضاف إليها شيء. وإذا كانت التَّعاليم السَّابقة قد اقترحت خطوات معيَّنة لتحقيق الكمال في المجتمع والشخصية الفرد، ففي تعاليم المسيح صيغت المهمَّة كلها بكامل حجمها، وفي صورة مكتملة.

فأين صلب المعضلة نفسها؟ في جعل حياة المجتمع والفرد حياة سعيدة. وكيف يتحقَّق ذلك؟ لقد أدرك يسوع أنَّ بليَّة المجتمع والفرد هي العدوانيَّة، التي لا أساس لها، ولا مستقبل لها، وهي في آخر المطاف وبال وحسب. ورأى أنَّه إذا ما أمكن ردع هذه العدوانيَّة، فإنَّ هذا وحده كافٍ لجعل الإنسان سعيداً في حياته. وتتجلَّى عدوانيَّة الإنسان في الحسد، واضطهاد الآخرين، والعداء، والصراع المفتوح. ولكي يتخلَّص الإنسان من عدوانيَّته، يجب أنْ يربَّى بروح مغايرة. وهنا بالذات تظهر المسألة الأساس، القانون الرَّئيس لتعاليم خلاص الإنسان الجديدة: «أحبب عدوَّك». لقد تمثَّلت قمَّة الفلسفة الجديدة، التَّعاليم الجديدة في «أحبُّوا أعداءكم». إنَّها قمَّة الهرم. أمَّا في داخل الهرم، في معايير السلوك التي يحقِّق الالتزام بها حياة سعيدة للفرد وللمجتمع، فثمَّة نسق كامل من القواعد المترابطة، وقوانين السلوك. وليست خدمة الإله سوى خدمة الواحد منَّا للآخر. إذا لم تمدَّ يد العون للقريب المحتاج، فإنَّك بذلك منعت المساعدة عن ابن الإله، عن الإله نفسه. ولا تقوم خدمة الإله نفسها في مواصلة الصَّلاة، والصوم، وتأدية مختلف ضروب الشكليات الطقوسيَّة. فالإله يرضى عن ذاك الذي يفعل الخير، ويمدُّ يد العون لمن يحتاج العون، ويعيش شريفاً، مستقيماً، يبادل بالشَّرِّ الخير. ومعنى هذا أنَّ «إيمانكم في أعمالكم».

لقد جاء يسوع المسيح إلى هذا العالم لكي ينقذ البشر، لكي ينقذ البشريَّة كلها. ولكنْ ممَّا؟ من الخطيئة دون ريب، من الإثم الذي يعيشه الجنس البشري ابتداءً من آدم. فلنتذكَّر أنَّ أحد ولدي آدم قتل شقيقه عبثاً، لا لأيِّ شيء آخر؛ لا لشيء كما يفعل النَّاس في زمننا هذا، وكما فعلوا دائماً.

إذن، إنَّ تلك الخطيئة الأصليَّة التي أنجبتها عدوانيَّة الإنسان فقط، يمكن التكفير عنها الآن إذا ما تراجع النَّاس عن عدوانيَّتهم وعادوا يتعامل واحدهم مع الآخر بطيب وحبٍّ. وعندما يحصل هذا فإنَّ المحبة هي التي سوف تحكم العالم الجديد وليس العدوانيَّة والتَّعسُّف.

لقد وهب يسوع المسيح حياته في سبيل تعاليمه، في سبيل أنْ يقدِّم تلك التَّعاليم للنَّاس؛ وتلك هي وسيلة التكفير عن الخطيئة الأصليَّة، إنَّها الوسيلة التي تجعل النَّاس سعداء.

كانت تعاليم يسوع فريدة في قدرتها على الغوص إلى عمق المسألة، وقدرتها على طرح الحلول التي تقود إلى الخروج من الحالة المستعصية. فما هو الأساس الذي قامت عليه؟ من أيِّ تعاليم مبكرة أخرى نبتت؟ ومن كان ذلك الذي أنشأ تلك التعاليم؟ إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة تقتضي منَّا تحليل جوانب نشوء هذه التعاليم كلها، ودراسة شخصية واضعها.

واسم يسوع (= إيسوس بالإغريقيَّة)، هو الصيغة العربية للاسم اليهودي يشوع، ومعناه: «خلاصه هو يهوه». والصيغة مأخوذة من كلمة أوشيا أو أوسيا، ومعناها: «الخلاص»، وكان الاسم أكثر الأسماء شيوعاً بين اليهود في تلك الأزمنة. فقد كان الوالدان يمنحان أبناءهم هذا الاسم تيمُّناً بالقائد اليهودي يشوع بن نون الذي استولى لهم على الأرض الموعودة. كما فخر اليهود أيضاً بكاهنهم الأكبر يشوع الذي أخرجهم من الأسر البابلي.

والمسيح أيضاً صيغة عربيَّة للاسم اليهودي ميسيا، ومعناه النَّبي الممسوح، أو الكاهن أو الملك الممسوح.

لقد ولد يسوع وعاش الثَّلاثين عاماً الأولى من حياته في الجليل. وكلمة جليل تعني باليهوديَّة «دائرة إداريَّة». وألحقت هذه الكلمة بالمدن الاثنتي عشرة الموجودة في دائرة قادش نفتاليم. وكان سليمان قد وهب هذه المنطقة لحيرام مكافأة له على خشب الأرز الذي أعطاه لسليمان لبناء المعبد. وقد دعا حيرام المنطقة: كابول، أي «القبيحة، المثيرة للاشمئزاز.

لقد تميَّز الجليل عن مناطق اليهوديَّة الأخرى بجغرافيَّته وموقعه على الحدود الدُّوليَّة. فكان يعيش في مدن الجليل فينيقيون، وعرب، وسواهم من الأقوام الأخرى. ودعي الجليل «بالجليل الوثني». وكانت اللغة الإغريقيَّة هنا هي لغة التَّفاهم بين السُّكَّان. أمَّا اللغة اليهودية فلم يكن لها حضور هنا. لقد كانت لغة ميتة تدرَّس في مراكز التعليم التي لم يكن ينتسب إليها إلاَّ المختارون. وحقيقة أنَّ يسوع قد تشكل في مثل ذلك الوسط الأممي، أدت دوراً بالغ الأهمِّيَّة في تكوين رؤاه. لقد كان يسوع يتكلم الآراميَّة، لكنَّه كان يعرف اليهوديَّة بالتَّأكيد. وعرف الإغريقيَّة كذلك. لكنَّنا لا نعرف حتى الآن ما إذا كان يعرف اللاتينيَّة أم لا.

وآرام (أي البلاد العالية)، هي سوريا ووادي الرافدين، وقد امتدَّت حدودها من منابع نهر الأردن حتى الفرات. وتحدَّثت التوراة عن آرام (انظر تكوين ٢٤: ١٠؛ ٢٥: ١٠).

وقبل أن نصف تعليم يسوع وحياته، دعونا نتعرف على المكان الذي كان وطنه الأمُّ، إنَّه مدينة النَّاصرة الواقعة في جبال الجليل. ففلسطين كلها تنقسم جغرافياً إلى أربع مناطق طبيعيَّة تمتدُّ بموازاة البحر المتوسط: الساحل، والمنطقة الجبليَّة، ووادي الأردن، وسلسلة جبال شرقي الأردن.

وتنقسم المنطقة الجبليَّة إلى قسمين كبيرين. فشكلت المجموعة الجنوبيَّة من تلك الجبال الكلسيَّة إقليم اليهوديَّة، وشكلت المجموعة الشماليَّة منها إقليم الجليل.

كان كاتب سيرة حياة المسيح قد وصف النَّاصرة هكذا:

«في وسط هذه السلسلة الجبليَّة يتوضَّع فجٌّ كلسي يشكل مدخلاً إلى واد صغير. وإذ يترك العابر الوادي يصعد الجبل في درب ترابيَّة ضيِّقة صعودها قاسٍ جداً، تحيط بها الشعاب والزهور في مكان لا شيء فيه عظيم أو طاغٍ، ولكنَّ كل شيء هنا رائع وحيٌّ بصورة غير معهودة وعلى يمين الصاعد الجبل يضيق الوادي شيئاً فشيئاً إلى أنْ يصل إلى حدود عرض نصف فرسخ (الفرسخ = ١،٠٦كم). وتقسِّم أسيجة الصبَّار الوادي إلى مزارع وبساتين تتحوَّل في فصل الأمطار الشتوية إلى لوحة ساحرة ساكنة هانئة، ثمَّ تتلألأ أنواع النباتات بألوانها البديعة. وتقع غير بعيد عن الدرب الضيِّقة بئران تستقي منهما نسوة لسن أقلَّ جمالاً من لوحة الطَّبيعة، أمَّا الفتيان الرُّعاة ذوو الوجنات الورديَّة هناك في ملابسهم الشَّرقيَّة الزاهية، فإنَّهم لاهون، جريئون ومرحون أكثر مما يمكن أنْ تراه في أيِّ مكان آخر. ورويداً رويداً يتحوَّل الوادي إلى مدرَّج من التلال يشكل صورة فوهة بركان خامد. وعندما يغوص في وهدات الجبل، يرى الصَّاعد إلى ارتفاع خمس مائة قدم (القدم = ٣٠،٤٨سم) سطوحاً مستوية وشوارع ضيِّقة لبلدة شرقيَّة صغيرة. وثمَّة في هذه البلدة كنيسة صغيرة، وأبنية معبد تشكل كتلة واحدة، ومنارة مسجد عالية، وينبوع ماء عذب نقي طافح؛ منازل البلدة الصَّغيرة مبنيَّة من الحجر الأبيض، وتتوزَّع بينها حدائق تزدحم بشجر التين والزيتون، وشجر البرتقال والرمان البيضاء والحمراء. وفي الرَّبيع على أقلِّ تقدير، يبدو كل شيء هنا مرحاً جميلاً ومسالماً؛ فاليمام يتراقص على الشَّجر، وترفرف الحساسين إلى الأمام وإلى الخلف من غير تعب؛ وتحلِّق

الزرازير الزرقاء الفاتحة اللون، التي تعدُّ أحبَّ الطيور في فلسطين، تحلّق كالياقوت الحيّ فوق الحقول المبرقشة بكثرة لا عدَّ لها من أنواع الزهور. وهذه البلدة الساحرة هي النّاصرة».

أمَّا البيئة المنزليَّة التي نشأ فيها يسوع، فليس فيها ما هو مشترك مع ما نراه في لوحات رسّامي القرون الوسطى جوتُّو، وفرا-أنجيل «اللذين يصوِّران العذراء ماريا جالسة ومعها ابنها الإلهي فوق عرش باذخ، قائم على أرضيَّة من الموزاييك البديع تحت مظلّة زرقاء مذهَّبة؛ وألبساهما ثياباً ملوَّنة بألوان ساحرة، كحقول الصَّيف، وناعمة كزهور الرَّبيع؛ ووشيا أطرافها بزخرفات من ذهب وحجارة ثمينة». ولكنَّ واقع الحياة كان مختلفاً تماماً.

لقد عاش يسوع وأُمُّه مثلما عاش جميعهم هنا، يقول مؤرِّخ سيرته:

«عاش يسوع كما كان يعيش أبناء الآخرين من البسطاء في تلك البلدة الصغيرة، وكما يعيش أكثر سكّانها الآن. ومن رأى أطفال النّاصرة في قفاطينهم الجميلة، وقمصانهم الحريريَّة أو القطنيَّة المضمومة بزنانيرهم الملوَّنة، وفوقها السترة البيضاء أو الزرقاء؛ ومن شاهد مرحهم الصّاخب وسمع ضحكاتهم الرّنّانة وهم يتراكضون على تلال واديهم الصّغير، أو يلهون جماعات على منحدر تلّ قرب ينبوع بلدتهم، إنَّ مَنْ رأى هذا كله لا يصعب عليه أنْ يكوِّن لنفسه صورة ما عن الحياة التي عاشها يسوع عندما كان لا يزال صغيراً. وأيُّ زائر راقب أيَّ طفل من أولئك الأطفال وتبعه إلى منزله وشاهد موجوداته البسيطة، وطعامه العادي الطّيّب الصّحّي المتشابه في المنازل كلها، وحياته العائلية الأبوية، فإنَّه يستطيع أنْ يرسم لنفسه صورة حيَّة عن تلك البيئة التي عاش يسوع فيها. فلا يمكن أنْ يكون هناك ما هو أكثر بساطة من تلك المنازل التي يتشمّس الحمام على سطوحها، وتحبو عرائش العنب صاعدة على جدرانها. أرض تلك المنازل مفروشة «ببسط مصنوعة من القماش، أو بالسجّاد؛ وعند مدخل البيت يترك الدّاخل حذاءه؛ وفي وسط البيت ثمّة قنديل معلّق هو في الوقت نفسه مادّة الزينة الوحيدة في الحجرة. وفي الجدار بروز فيه خزانة خشبيَّة مطليَّة عادة بألوان زاهية، توضع فيها الكتب وسوى ذلك من مقتنيات العائلة. وثمّة على امتداد الجدار مضجع عليه أغطية مطوية بترتيب واضح، هي الأغطية التي تستخدم وقت النّوم، وهنا أيضاً توجد الأواني الفخاريَّة التي تستعمل في الحياة اليوميَّة؛ وثمّة عند الباب

خوابي فخاريّة كبيرة حمراء اللّون تستخدم لتخزين الماء العذب، وللحفاظ على برودة مائها يلقون فيها أوراقاً خضراء هي في غالب الأحيان أوراق نباتات طيّبة الرّائحة. وعندما يحين موعد الغداء توضع في وسط الحجرة طاولة ملوّنة يحملون إليها على صينيّة كبيرة طبقاً من الرزّ واللحم، واللبن أو حساء من الخضار. وعلى هذا المنوال كانت تسير حياة العائلة المقدّسة في النّاصرة». ثمّ يواصل المؤلّف حديثه هذا فيقول: «ولكنّ ذلك الفقر لم يكن فقراً مدقعاً، ولم يكن فيه أيّ شيء مذلّ؛ لقد كانت الحياة تسير بسلام، وبساطة، وكفاية، وسعادة، وهناءة. وماريا كانت على أغلب الظّنّ مثلها مثل النسوة الأخريات تغزل، وتعدّ الطّعام، وتشتري الثمار، وتذهب كل مساء إلى الينبوع لتستقي الماء؛ ولا يزال نبع الماء هذا يسمّى حتى اليوم: «نبع العذراء». أمّا يسوع فقد كان يلهو مع أترابه، ويتعلّم، ويساعد والديه في عملهما اليومي، ويذهب في كل سبت إلى المعبد».

وقبل أنْ نتحوّل إلى وصف طفولة يسوع، من الضروري أنْ نبيّن كيف جاء يسوع إلى النّاصرة، إذ من المعروف أنّه ولد في بيت لحم. لقد حدث الأمر هكذا: تنفيذاً لأمر الإمبراطور الروماني أغسطس جرى إحصاء لسكّان الإمبراطوريّة كلها. وكانت اليهوديّة جزءاً من الإمبراطوريّة. لكنّ عمليّة الإحصاء سارت فيها بطريقة غريبة: لقد كان على كل ساكن من سكان هذا الإقليم أنْ يعود إلى المكان الذي تنتمي إليه عائلته الأصل. ولم يكن هذا الإجراء صادراً في الأمر الإمبراطوري، بل صدر عن اليهود أنفسهم سعياً منهم لإحياء ذكرى قبائلهم التي كانت قد اندثرت منذ عهود. ولذلك كان ينبغي على يوسف النّجّار أنْ يسافر مع زوجته ماريا إلى بيت لحم، موطن سلالة داود التي كانا ينتميان إليها، وكانت ماريا في آخر أيّام حملها. وإلى بيت لحم وصل يوسف وزوجته مع هبوط اللّيل، فسعيا للمبيت في أحد النُّزل، لكنّهما فشلا في العثور على مكان بسبب كثرة الوافدين إلى البلدة. ولمّا لم يجدا إمكاناً في النُّزل أقاما في الزّريبة، زريبة النُّزل على الأعشاب الجافّة والتّبن اللذين كانا يغطّيان أرض الزريبة. وهنا ولد يسوع في تلك اللّيلة. وهناك في الزريبة ألفى الرعاة الذين تحدّثت الأناجيل عنهم، يوسف وماريا ويسوع الطفل. ومرّ الحدث بصمت. «لكنّ خيال الشعراء والرّسّامين نضب في تصوير العظمة الاحتفالية لمشهد الميلاد. فتغنّوا بوصف الملائكة الذين كانوا يرفرفون في المكان، وكيف أبطأت الكواكب حركتها لكي يتسنّى لها أنْ تسكب ضوءها السّاحر العذب ليضيء المكان كله بنور ساطع قوي أرغم الحاضرين على حجب

وجوههم بأيديهم. بيد أنَّ هذا كله كان بعيداً عن الواقع. ولم تكن تلك العظمة المجيدة التي رآها أولئك الرعاة البسطاء سوى رؤية عين الإيمان».

لقد كان السَّعي إلى تحريف الحياة الطَّبيعيَّة، واستبدال المعجزة بها، والمعجزة تحديداً لأنَّهم اعتقدوا دوماً أنَّ هذه الأخيرة وحدها التي يمكن أنْ تؤكِّد وجود الإله وكل ما هو إلهي؛ نقول، لقد كان مثل هذا السَّعي ملازماً لطبيعة البشر دوماً. ولذلك تهيَّأ لهم أنَّه من غير المعقول أنْ يولد مخلِّص البشريَّة دون أنْ تحدث هزَّات أو تحوُّلات خارقة. بيد أنَّ تلك الهزَّات كانت من إبداع مخيِّلتهم، ولا يزالون يبدعون حتى اليوم. ففي إنجيل يعقوب المنحول وصف شديد التَّعبيريَّة لميلاد يسوع: لحظة ولد يسوع توقَّف محور السَّموات وصمتت الطَّير؛ واستلقى العمال على الأرض وأيديهم في الأواني «ولم يستطع الذين يملؤون أنْ يملؤوا، وعجز الذين ملؤوا عن العمل، ومن حمل شيئاً إلى فمه عجز عن أخذه؛ واتَّجهت الوجوه كلها إلى فوق؛ ويتابع الرَّاوي روايته فيقول، لقد رأيت كيف وجمت الغنم خائفة، فرفع الرَّاعي عصاته لكي يسوقها لكنَّه عجز عن إنزالها؛ لقد نظرت إلى مياه النَّهر وقد انحنت الماعز عليها لتشرب، فلم تفعل، وكل ما كان مندفعاً إلى الأمام توقَّفت حركته».

ونحن يمكننا أنْ نردِّد خلف مؤرِّخ سيرة يسوع قوله: «إنَّ ما يلفِّقه الإنسان يختلف اختلافاً كاملاً عن الأعمال التي يصنعها الإله».

لقد كان يمكننا ألاَّ نقف عند هذه المسألة بالتَّفصيل لولا أنَّ النُّزوع نحو المعجزات لم يهلك الإيمان الحق القائم على المعارف. ولا نزال حتَّى يومنا هذا نشاهد مثل هذا الاستبدال: الأخذ بالمعجزات بدلاً من الرُّؤية المعرفيَّة. فالمبشِّرون (خاصَّة أولئك الذين ينتمون إلى ما وراء المحيط) يخرجون من جلودهم لكي يستعرضوا معجزة المداواة زاعمين أنَّهم يؤكِّدون بذلك على صحَّة الدِّين. تستبدل بالإيمان المعجزة، والمعجزة تقتل الإيمان تماماً، وتشوِّهه في أعين الذين يفكِّرون بعقولهم. ولا يبقى من الإيمان الحق، من الدين الحق المدعو لجعل حياة النَّاس سعيدة، سوى بعبع المعجزة. فيختفي كل شيء ويختلط في مجال آخر لا يتقاطع أبداً مع الحياة الواقعيَّة، مع الهموم الحقيقيَّة، مع السلوك اليومي للنَّاس. يُختصر كل شيء في المعجزة. ولكنَّ ميلاد يسوع المسيح لم يترافق بأيِّ معجزات.

لقد نشأ يسوع الصَّغير وتطوَّر وكبر مثله مثل أيِّ طفل من أطفال النَّاصرة الآخرين، لم يقدِّم نفسه متميِّزاً عن الآخرين، ولم يميِّزه الآخرون في شيء. نعم، لقد أظهر معرفة فائقة بالشَّريعة (العهد القديم) في حديثه مع كبار شارحي الشَّريعة عندما زار معبد أورشليم، كما ورد في الإنجيل. ولكنْ حتَّى هذه الواقعة يقدِّمونها دائماً كأنَّها معجزة، بينما الواقع هو أنَّ

الفتى يسوع كان يتلقّى العلم في المعبد على أيدي الحكماء. ولذلك كان كل شيء طبيعيًّا وعادياً. ففي الثَّانية عشرة من العمر اعترفوا بالفتى النَّاصري، أي فتى، فرداً راشداً. وفي هذه السِّنِّ كان ينبغي على يسوع كما على أيٍّ من أترابه الآخرين أنْ يعرف الشَّريعة كلها، وليس الشَّريعة وحسب. فقد كان ذلك هو نظام التربية والتَّعليم عندهم. ابتداءً من الخامسة من العمر كان الطفل يبدأ يتعلَّم الكتاب المقدَّس (الميكرا)، وفي العاشرة الميشنا، وفي الثَّالثة عشرة التلمود، وفي الثَّامنة عشرة عليه أنْ يتزوَّج، وفي العشرين يبدأ بجمع الثَّروة، وفي الثَّلاثين القوَّة، وفي الأربعين الفطنة والتَّعقُّل و... وحسب الإنجيل «إنَّ الفتى يسوع كان بسيطاً، لطيفاً، مطيعاً ومتواضعاً؛ يذعن لوالديه، ويؤدِّي أعمال المنزل العادية التي توافق من هم في مثل سنِّه؛ كما كان يحبُّ النَّاس كلهم، وأحبَّ هؤلاء بدورهم ذلك الفتى الهادئ، المسالم النَّبيل».

في الثَّانية عشرة من عمره جاء يسوع إلى هيكل أورشليم. وكنَّا قد نوَّهنا إلى أنَّ هذه السِّنّ كانت سنّاً حرجة، تلزم كل مَنْ بلغها أنْ يتقيَّد بالشَّريعة. لقد كان والدا يسوع يزوران معبد أورشليم سنويَّاً في كل فصح. ثمَّ اصطحبا يسوع معهما. وكان سكَّان الأقاليم يحجُّون إلى المعبد جماعات، قوافل. وفي طريق العودة بعد أن انتهت الزِّيارة لاحظ والدا يسوع غيابه عن القافلة. وعندما عادا إلى أورشليم وجداه في المعبد يجادل الحكماء وعارفي الشَّريعة. وليس في هذا أي معجزة، كما أسلفنا. «فالفتى كان هناك لكي يسأل ويتعلَّم، لا لكي يمتحن المعلِّمين وينتقدهم...». لقد كان يسوع يكتسب المعارف والعلوم شيئاً فشيئاً، مثله مثل باقي أترابه، أي إنَّ عمليَّة تقدُّمه كانت تسير سيرها الطَّبيعي المعتاد بالنِّسبة لأيٍّ كائن بشري آخر. وحسب لوقا أنَّ يسوع وقف في معبد أورشليم بكل الخضوع والاحترام أمام الشُّيوخ الكبار، مثله مثل كل محبٍّ للمعرفة وكل تلميذ نجيب موهوب، وقد أثار اجتهاده دهشة المعلِّمين، واستحقَّ سلوكه احترامهم ومحبَّتهم. لقد كان كل صلف أو رغبة في تقديم نفسه على الآخرين، غريبين تماماً عن طبع ذلك الذي كان منذ نعومة أظفاره «وديعاً، مسالماً، طيِّب القلب».

وعندما عثر يوسف وماريا في آخر المطاف على يسوع في المعبد، عذلاه بكل حبٍّ وطيبة قائلين: «يا بني! ما الذي فعلته بنا؟ فها هو والدك وأنا بحثنا عنك بجزع عظيم». فأجابهما يسوع قائلاً: «لماذا تبحثان عنِّي؟ ألا تعرفان أنَّه ينبغي عليَّ أنْ أكون فيما هو لأبي؟». ومعنى هذه الإجابة أنَّ يسوع كان يدرك أنَّ مكانه هناك حيث يؤوِّلون الشَّريعة. لقد كان على وعي أكيد بأنَّ له رسالته في هذا العالم. ومع ذلك مضى مع والديه إلى النَّاصرة «وكان مطيعاً لهما».

ومن المعروف أنّه كان ليسوع إخوة وأخوات. ولكنْ مَنْ هم؟ ليس لدينا أسس لكي نرى في هؤلاء إخوة وأخوات أشقّاء له وشقيقات. فمن الواضح إذن أنَّ الحديث يجري عن أولاد ليوسف أنجبهم قبل ولادة يسوع. وقد يكون هؤلاء أولاد أخت والدة يسوع. ومهما كان الأمر فقد تزوَّج هؤلاء وتفرَّقوا ليعيش كل منهم في بيته ومع عائلته. ولم يبقَ في المنزل مع يوسف وماريا سوى أخوي يسوع: يهوذا ويعقوب. وعلى الرَّغم من إن مسألة القرابة بين يسوع وإخوته لا تزال مفتوحة بانتظار الحلّ، إلاَّ أنَّ الذي لا ريب فيه، هو أنَّهم كانوا كلهم «أناساً ذوي سمات شخصيَّة فذَّة، وغيرة حارَّة، وبساطة تماثل زهد اليسيين، وكره شديد لكل ما هو فاسد، ومتسيِّب أو غير طاهر؛ كما كانوا على يقين لا يتزعزع بأمل الخلاص، والتزموا التزاماً دقيقاً بالعادات الطُّقوسيَّة لبلادهم». ومن المعروف أيضاً أنَّهم لم يعترفوا بألوهيَّة يسوع مباشرة، باستثناء يهوذا الأصغر سناً من الآخرين. ويشير مؤرِّخ السيرة إلى أنَّهم «كانوا يتميَّزون بعناد صلب، وغيرة يهوديَّة، ونقص في الحنوّ والرِّقَّة والتَّوقير».

وكان ليسوع قريب آخر، هو يوحنَّا المعمدان. وهو أكبر من يسوع سنَّاً بخمس سنوات فقط (كذا في النَّصِّ الأصل، لكنَّ الإنجيل يؤكِّد على أنَّ الفرق في السِّنِّ بين يوحنا المعمدان ويسوع هو خمسة أشهر فقط. قد تكون غلطة مطبعيَّة؟ م.). ولكنَّهما لم يتعارفا من قبل، لأنَّ يوحنا كان يعيش في الجنوب في مدينة يوتا في بيت والده الكاهن.

ويقال إنَّ يوحنا كان نبيَّاً مرسلاً من الإله. وكان هذا زاهداً ناسكاً يُبشِّر في البرِّيَّة. وكانت هذه البرِّيَّة تمتدُّ من أريحا ومخاوض نهر الأردن حتى شواطئ البحر الميت. وعلى الرَّغم من أنَّ اللصوص وقطّاع الطُّرق كانوا رابضين بين صخور الممرِّ الضَّيِّق بين أورشليم وأريحا، والكواسر والتَّماسيح كانت ترتع في الأدغال الممتدَّة على طول نهر الأردن؛ على الرَّغم من هذا كله كان الشَّعب يتوافد على يوحنا الذي لقَّبوه بالمعمدان.

لقد كان ذلك الزَّمن زمناً مختلفاً قيل عنه:

«في عصر الاضطرابات والقلاقل، عندما يتهاوى القديم متسارعاً، والجديد لمَّا يظهر بعد، كان يمكن أنْ نعذر الفريسيين إذا ما أفادوا من كل مناسبة للإعلان عن سخطهم، ونستطيع أنْ نتلمَّس العذر أكثر لليسيين إذا ما أوغلوا في العزوف عن الزواج والانعزال عن المجتمع البشري. لقد ساد في كل مكان انتظار ذلك «الغضب الآتي» الذي كان يجب أنْ يقبل كآلام المخاض لولادة المملكة الجديدة، كالظَّلام الحالك قبيل بزوغ الفجر. لقد بات العالم كهلاً

هرماً، وبلغ جنون الديانة الوثنيَّة حدَّ الإفراط الذي أثار الاشمئزاز. ونتج عن الإلحاد بالإله، كما هو معتاد دوماً، انهيار في الأخلاق. وعملت اللا أخلاقيَّة كما هو واضح، على أن تعبَّ كأس الكفر حتَّى آخر قطرة. وامتنعت الفلسفة أنْ تتنازل عن كبريائها وتخدم الحقيقة، واكتفت بإرضاء قلَّة قليلة من هواتها. فسادت الجريمة في كل مكان، ولم ينج أحد من الرُّعب والدَّمار اللذين بعثتهما في آلاف القلوب. حتى تأنيب الضَّمير فقد قدرته وبات النَّاس ذوي «ضمائر ميتة». لقد عمَّ الفساد القلوب في كل مكان، حتَّى أنَّ أصحاب القلوب الجافَّة أنفسهم اعترفوا بأنَّ مثل هذه الشُّرور غير مألوفة من قبل. وأحسَّ العالم الوثني نفسه بأنَّ «قضاء الأزمنة» قد حلَّ.

لقد كان يوحنا المعمدان السَّلف المباشر ليسوع المسيح، بشيره، الذي أعدَّ له الطَّريق. «في ظهوره وأعماله كان المعمدان كالنِّبراس القادم؛ كانت حياته الاجتماعيَّة كالهزَّة الأرضيَّة؛ حياته كلها بشارة؛ وكان محقَّاً إذ دعا نفسه صوتاً، صوتاً صارخاً في البرِّيَّة: «أعدُّوا طريق الرَّبِّ».

«لقد كان المظهر الخارجي ليوحنا المعمدان يوحي بأنَّه معلِّم من نمط مختلف. حتَّى قبل أنْ يدوِّي هذا الصَّوت النَّاطق بالغضب والسُّخط، فإنَّ وجهه المتوهِّج، وشعره المسترسل، وشفتيه المزمومتين، وحزامه الجلدي، وملابسه المصنوعة من وبر الجمل، هذا كله يوحي فوراً بأنَّ هذا كان إنساناً حقيقيّاً بعظمة طبيعته كلها، وصلابة قوَّته، إنساناً كايليا، صورته الأصل، الذي وقف غير وجل أمام آخاب الوقور وإيزابيل الشَّهوانيَّة. وعرفنا عن المعمدان حتى نمط عيشه نفسه. فلم يكن يشرب سوى ماء النَّهر، ولم يأكل سوى الجراد والعسل البرِّي. لقد كان كل مَنْ يراه يشعر أنَّ فيه قوَّة السلطان التي يتميَّز بها دائماً أولئك الذين ينكرون ذاتهم نكراناً تامَّاً. فمن يتعالى على الغرور البشري المعتاد، يقف أيضاً فوق الخوف البشري المعتاد. وإذا كان لا يرجو شيئاً من ميل المحيطين نحوه، فلن يخيفه ابتعادهم عنه؛ وبما أنَّه لا ينتظر أيَّ منفعة من التَّزلُّف، فلن يضيره قول الحقِّ عاذلاً لائماً. لأنَّه يقف سامياً فوق معاصريه، كأنَّه على منصَّة السَّلام والنَّقاء المشرقة، لا يحجب رؤيته السَّديم الذي يحجب أبصارهم، ولا تقلقه الهموم الصغيرة التي تعكِّر صفو حياتهم».

كان يوحنا المعمدان يعظ الجموع التي كانت تتوافد إليه في البرِّيَّة داعياً إلى التَّوبة، ومبشِّراً بمملكة السَّماء. وكانت المعموديَّة في مياه نهر الأردن، هي رمز التَّوبة. وقد اقتدى المعمدان في هذا بالنَّبي حزقيال الذي قال:

﴿وَأَرُشُّ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِراً فَتُطَهَّرُونَ..﴾

(حزقيال ٣٦: ٢٥)

ووعظ يوحنا البشير بقدوم المخلِّص الذي هو قبله، لأنَّه كان موجوداً من قبله، الذي لا يستحقُّ هو أنْ يحلَّ رباط حذائه. والمخلِّص لن يعمِّد بالماء. بل بالروح القدس والنَّار، كما قال يوحنا.

أمَّا المخلِّص، المسيا، فقد كان بينهم. ومثله مثله الآخرين جاء إلى يوحنا ليتلقى المعموديَّة منه، وكان له من العمر حينئذٍ ثلاثون عاماً. ولم يكن المعمدان يعرف أنَّه يعمِّد قريبه.

لقد أسر شكل يسوع، نظرته، جمال سجاياه النقي، عظمة مظهره الخارجي البادية للعيان، هذه كلها أسرت روح المعمدان. وكان يوحنا الدمشقي (القرن ٨م.) قد وصف صورة يسوع المسيح على الوجه الآتي: «كان يسوع يشبه العذراء ماريا، لقد كان جميلاً طويل القامة إلى حدٍّ ملفت، شعره طويل فاتح اللَّون أجعد بعض الشَّيء لم تمسَّه يدا أُمِّه قط، حاجباه قاتمان، وجهه بيضوي فيه بعض الصُّفرة والسَّمار، عيناه ملوَّنتان، ظهره محدودب قليلاً، نظرته تعبِّر عن تسامح، ونبل، وحكمة». كما وردت هذه السِّمات نفسها في رسالة لينتولا إلى الإمبراطور الروماني. فقد جاء في الرسالة: «لقد ظهر في أيَّامنا هذه إنسان عظيم العفَّة يدعى خرستوس إيسوس (= المسيح يسوع م.)... طويل القامة، جميل الصورة، له وجه نبيل، ومن ينظر إليه يحبُّه ويهابه. شعره متموِّج أقرب إلى الأجعد ولونه كلون النَّبيذ، ينسدل على كتفيه بعد أنْ ينقسم في منتصف رأسه حسب ما هو متعارف عليه في النَّاصرة. قامته نظيفة ومستوية، ووجهه نقي ليس فيه أيُّ بقع أو تجاعيد، لكنَّه به حمرة لطيفة. فمه وأنفه جميلان لا عيب فيهما؛ له لحية عريضة كثيفة لونها كلون الجوز، ليست طويلة، لكنَّها منفرجة إلى قسمين. عيناه زرقاوان صفاؤهما شديد. إنَّه مهيب مخيف لحظة العذل، ومليء محبَّة لحظة يعظ، مرح لكنَّه يحافظ على وقاره. لم يره أحد يبتسم، لكنَّهم غالباً ما يرونه يبكي. قامته مستقيمة، يداه وأعضاء جسده جميلة المنظر. عظيم في حديثه، متواضع وذكي؛ وهو رائع بين بني البشر» (لقد تبيَّن للمتخصِّصين أنَّ رسالة ليتولا هذه منحولة وضعها الكرسي البابوي في القرن ١٣م.، فعدَّاك عن أنَّه من غير المنطقي أنْ يهتمَّ رجل الدَّولة، فما بالك بالإمبراطور الرُّوماني عينه،

بمثل هذه التَّفاصيل التي لا يهتمُّ بها سوى الرَّسَّامين عادة؛ يأتي استخدام الصِّيغة الإغريقيَّة لاسم يسوع المسيح: إيسوس خريستوس خارج السِّياق التَّاريخي نهائيَّاً؛ لأنَّ اسم إيسوس خريستوس لم يطلق على يسوع إلاَّ بعد أنْ أخذت المسيحيَّة تنتشر في المدن الإغريقيَّة على يدي بولس الرسول في أواخر القرن الميلادي الأوَّل. ولم يكن بمقدور ليتولاً أنْ يستخدم هذا الاسم في زمن المسيح كما يرد في الرِّسالة المزعومة. ولا أظنُّ أنَّ المؤلِّفين ذاهلان عن هذه المعلومة. م.).

مع حضور يسوع المسيح كانت قدرة يوحنا المعمدان قد اختفت تماماً. فقد رفض عزم يسوع على أنْ يعتمد على يديه قائلاً له: «أنا من يحتاج ليعتمد منك، وأنت تأتي إليَّ؟» فأجابه يسوع: «دعك من هذا الآن، لأنَّه ينبغي لنا أنْ نحقِّق كل حقيقة».

وبعد أن تلقى يسوع المعمودية في نهر الأردن مضى إلى البرِّيَّة واعتزل فيها أربعين يوماً. فقد كانت تلك هي عادة مَنْ يكرِّسون أنفسهم للخدمة الإلهيَّة، كان الشَّخص المعني يتطهَّر من كل رجس، فيقضي تلك الأيَّام في الصَّوم والصَّلاة منعزلاً عن النَّاس عزلة تامَّة.

وعندما ظهر يسوع ثانية عند نهر الأردن، لم يكن لدى المعمدان ريب في أنَّ الذي أمامه هو المسيا. وفي تلك اللحظة قال يوحنا قولته الشَّهيرة على مسمع من الشَّعب: «هذا هو حمل الرَّبِّ الذي سوف يحمل خطيئة العالم». في هذا التَّعبير يكمن لبُّ تصوُّرنا عن المسيح الذي «سوف يحمل خطايا العالم كلها»، وأنَّه بآلامه على الصَّليب سينقذ الجنس البشري من عبء الخطيئة الأصليَّة، ومن الآثام كلها التي غاص العالم فيها. ولكنَّ هذه النَّظريَّة الأساسيَّة صيغت فيما بعد فقط. أمَّا المعمدان فقد أطلقها مرَّة عفو الخاطر، بأمر الروح، بقوَّة مواهبه التَّنبُّئيَّة. فلماذا دعا يسوع حملاً؟ قبل قليل سقنا وصفاً لمظهر يسوع الخارجي: لقد كان الرحمة بعينها، والمحبَّة بذاتها. زد إلى هذا أنَّ الحَمَلَ كان يرتبط عند اليهود بالكثير الكثير: بالخروج من مصر، وبالفصح، وبذبائح الفجر والمساء. وقد قرأ يوحنا في وجه يسوع أنَّه سوف يغدو قرباناً، ذبيحة. أمَّا فيما يخصُّ خطايا العالم، فإنَّه ربَّما يكون من الأصحِّ أنْ نترجم كلمات يوحنا هكذا: «هذا هو حَمَلُ الرَّبِّ الذي سوف يحمل خطيئة الشَّعب»، أي الشَّعب اليهودي. فيوحنا مثله مثل الأنبياء الآخرين الذين سبقوه، تحدَّث إلى شعبه واهتمَّ بشعبه وحسب. ولم يكن بمقدوره أنْ يقول شيئاً عن العالم كله بصفته كلاً واحداً. فمثل هذه النقلة لن تحدث إلاَّ فيما بعد، بعد وقت طويل، عندما سيبشِّر بولس الرسول الشعوب كلها بتعاليم المسيح. حينئذٍ فقط سوف يكون بالإمكان الحديث عن العالم. وعندما عاد المسيح في اليوم التَّالي، صاح يوحنا مرَّة أخرى بشعور من الرَّهبة والخوف: «ها هو حمل الرَّبِّ».

وفيما بعد علم يسوع أنَّ يوحنّا قابع في السِّجن بأمر من هيرودوس أنتيبا. فعندما جاؤوا بيوحنا إلى قصر هيرودوس، أخذ ينتقده انتقاداً لاذعاً (كان هيرودوس قد انتزع من شقيقه زوجته هيروديا وتزوَّجها. وهي في الوقت نفسه ابنة أخته). وكانت هيروديا تفعل كل ما تستطيع لكي تتخلَّص من يوحنا. وبناء على توصيتها طلبت ابنتها سالومي من الملك هيرودوس رأس المعمدان، الذي كان حينذاك في السِّجن. فحصلت عليه. وهكذا انتهت حياة واحد من أعظم أنبياء العهد القديم وبشير العهد الجديد في الوقت عينه.

المسيح المعلِّم

لقد سبق المسيح كثير من الأنبياء الذين تنبَّؤوا بدقَّة عن أحداث وقعت بعد مئات السِّنين. وقال «أنبياء الإله» هؤلاء الحقيقة لشعوبهم، وغالباً ما كانت هذه مرَّة. ودفع أكثرهم حياته ثمن ذلك. وعلى الرَّغم من أنهم كانوا مختلفين، وفرديين، إلاّ أنَّ عاملاً مشتركاً واحداً جمع بينهم: تنبَّؤوا بتلك الحقيقة التي كان ينبغي عليهم حملها إلى شعبهم؛ بالتَّحديد إلى شعبهم، لا إلى فرد واحد آثم تاعس فقد الإيمان بنفسه، وأمل في اكتساب حياة جديدة. لقد كان أنبياء العهد القديم رجال بريَّة حرموا أنفسهم من كل شيء، فصاموا وصلُّوا، وصلُّوا وصاموا. ووعظوا الشَّعب الذي كان يتوافد عليهم في البراري أو في ساحات المدن.

ولكنَّ المسيح لم يكن نبيَّاً، لقد كان أكبر من نبيٍّ، كان معلِّماً. فقد قلب رأساً على عقب كل التَّصوُّرات التي كانت معروفة عن أولئك الذين يجب عليهم أنْ يقودوا شعبهم إلى حياة جديدة أفضل. وإذا كان الأنبياء الذين سبقوه قد توجَّهوا إلى الشَّعب كله، إلى الحشد، فإنَّ المسيح توجَّه كقاعدة إلى الفرد الواحد القائم بذاته، فدخل حياته وتعرَّف إلى ظروف حياته الآثمة، ولم يرفضه بصفته خاطئاً ضالاً، بل كان يساعده لكي يعود إلى حياة أفضل. وعندما لاموه على تواصله مع النِّسوة السَّاقطات، والعشَّارين (جباة الأتاوات)، الذين عدُّوهم نفايات المجتمع، أجابهم بقوله: لا يأتي الطَّبيب إلى الأصحَّاء، بل إلى المرضى. وقد كان هو ذلك الطَّبيب، الذي داوى أرواح النَّاس بفطنة ورحمة. فزرع الأمل في نفوسهم بأنَّ كل خاطئ يستطيع أنْ يكفِّر عن آثامه إذا ما تغيَّر وسار على طريق الكمال الدَّاخلي، وانتزع من روحه كل الشَّرِّ القابع فيها. ومن روحه تحديداً، لأنَّ المسيح لم يستصوب التَّأدية الشَّكليَّة لمختلف ضروب الشَّعائر والطقوس. وانتقد بشدَّة كل مَنْ يقهر نفسه بالصَّوم. ونحن نعرف أنَّ مثل هذا القهر الذَّاتي يمهِّد سبيل استقبال التَّيَّارات الإعلاميَّة - المولِّدة للطَّاقة، من الفضاء الكوني، من الكائن الأسمى. وقد كانت قناة الإعلام هذه مفتوحة لدى المسيح إلى حدِّها الأقصى، إلى نهايتها التَّامَّة. ولذلك لم يشعر هو شخصيَّاً بالحاجة لأنْ يوصل نفسه بطريقة متكلفة مصطنعة إلى حالة الشِّدَّة النَّفسيَّة، التَّوتُّر النَّفسي. لكنَّ هذا لا يعني أنَّه أخذ على

الآخرين صيامهم. كلاًّ! بل دعا إلى ذلك. بيد أنَّه هو نفسه نادراً ما لجأ إلى هذه الوسيلة. فلم يعش المسيح كأيِّ زاهد متنسِّك آخر، إنَّما عاش عيشة أيِّ إنسان عادي. فحسب قوله هو نفسه: إنَّه «أكل وشرب»، لكنَّه كان في ذلك مثالاً للاعتدال والقسط. لقد شارك في المناسبات الاحتفاليَّة، ولقاءات الأصدقاء. ويروى أنَّ أعداءه قالوا عنه: «هاكم هو الشَّخص الذي يحب أنْ يأكل ويشرب النَّبيذ».

قبل المسيح بمئات السنين وكلهم ينتظر مجيء الميسيا في شخص ملك إسرائيلي قويٍّ وحكيم. وكان يجب أنْ يكون ذلك الملك ملكاً قوياً قبل كل شيء، لكي يخضع الشعوب الأخرى لسلطانه، فيعيش الإسرائيليون بنعيم ورخاء على حساب الأتاوات التي تقدِّمها الشعوب الأخرى. هذا ما كان يحلم به الشَّعب الإسرائيلي الذي عرف نير الإمبراطوريَّات الأخرى على مدى قرون، وعاش تجربة الأسر البابلي التي امتدَّت سبعين عاماً. ولكنَّ الميسيا الذي ظهر فعلاً، خيَّب آمال أبناء قومه هذه. فقد أُرسل ليؤدِّي رسالة أكثر أهمِّيَّة بكثير: إقامة مملكة الإله على الأرض. لقد جاء ليقول: إنَّ مملكة الإله هذه قائمة في كل إنسان؛ ولكي يحسَّ الإنسان بها ينبغي عليه نْ يغيِّر نفسه من الدَّاخل أوَّلاً، أنْ يجدِّد روحه، أنْ يبدِّل طبيعة موقفه من النَّاس الآخرين. إنَّ هذه المسألة التي حلَّها المسيح كانت أكثر تعقيداً بما لا يقاس من تلك التي حلَّها مختلف الفاتحين الذي أقاموا ممالك جبَّارة، غنيَّة قامت على استعباد الشعوب الأخرى. لقد كان المسيح أوَّل نبي رأى العدوَّ الحقيقي للجنس البشري كله، ولكل فرد على حدة. إنَّه عدوٌّ قابع في داخل كل منَّا. ولذلك أعطى يسوع الوصايا العشر التي فرضتها شريعة موسى أبعاداً أكثر عمقاً بكثير.

ونحن يجب أنْ نعرف هذا كله ونأخذه بالحسبان لكي نفهم سلوك المسيح فهماً صحيحاً بعد أنْ تلقَّى معموديَّة يوحنا. فمنذ تلك اللحظة شرع يعلم، وبدأ يكفِّر عن الخطيئة الأصليَّة التي ارتكبها الجنس البشري (بسبب عدوانيَّته)، يكفِّر عنها بإعطائهم الوسيلة، الأداة التي تمكِّنهم من تفادي هذا الإثم. لقد قدَّم لهم الوسيلة التي ينبغي على كل منهم أنْ يختبرها على نفسه إذا أراد أنْ يتخلَّص من هذه الخطيئة ويعيش حياة سعيدة.

لقد توجَّه المسيح إلى أفراد محدَّدين، إلى أولئك الذين كانوا يحتاجون إليه. وأخذ هؤلاء بدورهم يقتربون منه، فنقل تعاليمه إليهم. وقد ظهر تلميذاه الأوَّلان على الشَّكل الآتي: عندما ترك يسوع يوحنا على ضفَّة نهر الأردن، تبعه خلسة شابَّان. فتوقَّف وسألهما: «ما الذي تريدانه؟» فأجابا على سؤاله بسؤال: «أيها الرَّابي أين تقيم؟» فأجاب يسوع: «اتبعاني فتعرفا». وكان أندراوس أحد هذين، ويوحنا الإنجيلي الآخر. ولم يتأخَّر أندراوس ليحكي لأخيه

سمعان عن ذلك اللّقاء. وقد أطلق المسيح على هذا الأخير فيما بعد اسم: بطرس. «أنت يا سمعان ابن يونا، تدعى كيفا (بطرس) الذي معناه الصَّخرة». وهكذا بات لدى المسيح ثلاثة تلاميذ كانوا هم قد وجدوه. وكان لكل منهم شخصيَّة تختلف عن شخصية الآخر: يوحنا ذو خيال متوقّد ويميل إلى التَّأمُّل؛ أمَّا بطرس فقد كان متأنِّياً وجلاً في تصرُّفاته، ومندفعاً في أحاسيسه. وقد كانا معاً صيَّادي أسماك مثل أندراوس. وفي اليوم الرَّابع على خروجه من البرِّيَّة التقى المسيح فيليبوس الذي من بيت صيدا، والذي كان يعرفه من قبل. ولم يكن فيليبوس يحمل اسماً إغريقيَّاً فقط، بل كان يعرف اللُّغة اليونانيَّة معرفة جيِّدة، كما كان له كثير من الأصدقاء الإغريق. فقال المسيح لفيليبوس: «اتبعني». وبات هذا الإنسان الوديع المطيع تلميذه الرَّابع. وسارع فيليبوس من فوره يبحث عن صديقه ناثانائيل حتى عثر عليه وغدا هذا التِّلميذ الخامس. وسوف يحمل في الأناجيل اسم برثولماوس. وهكذا قال فيليبوس لصديقه برثولماوس: «لقد وجدنا الذي كتب عنه موسى في الشَّريعة، والأنبياء». ويفترض بعضهم أنَّ برثولماوس كان ينتمي إلى طبقة اجتماعيَّة أرقى من التي ينتمي إليها التَّلاميذ الرُّسل الآخرون.

لقد كانت النَّاصرة البلدة الصَّغيرة الهادئة التي ارتفعت على فوهة بركان إلى فوق، إلى الإله، كانت مكاناً ملائماً للتَّأمُّلات اليوميَّة، والعزلة عن النَّاس، والتَّواصل مع الإله. ولكنَّ إيصال المعارف إلى النَّاس، ونقل التَّعاليم إليهم، التَّعاليم المتلقّاة من الإله، كانا يقضيان بضرورة اختيار مكان آخر؛ مكان تتقاطع فيه دروب مختلف تيَّارات النَّاس الذين ينتمون إلى مختلف الشعوب، ولهم شتَّى العادات. ولم يكن مثل ذلك المكان بعيداً عن النَّاصرة، وكان المسيح يعرفه. إنَّه مركز فلسطين الصِّناعي الذي يضجُّ بالحياة والنَّاس: مدينة كفرناحوم. وكانت بحيرة جينسارت لؤلؤة المدينة. ولم تكن البحيرة لؤلؤة وحسب، إنَّما كانت مصدر خيرات كثيرة. فمستوى الماء فيها أقل بخمس مائة قدم (القدم = ٠,٣٠٤٨ م.) عن مستوى البحر المتوسِّط. وكانت هذه البحيرة - الكأس، أو القيثارة تمتدُّ حوالي العشرين فرسخاً (الفرسخ - ١,٠٦كم). في الطول، ونحو العشرة فراسخ في العرض. وكان تجويف البحيرة قد صنع هنا منطقة مناخيَّة محلِّيَّة متميِّزة. فالبحيرة محاطة بشريط من الخضرة عرضه نحو نصف الفرسخ. وارتفع فوق هذا الشَّريط بحوالي الألف قدم منحدر تلال عارية. وفصلت بين التِّلال وديان مكفهرة مبهمة. وكان ذلك كله عبارة عن طبيعة بكر لم تمسَّها يد الإنسان، طبيعة برِّيَّة ووحشيَّة، لكنَّها مهيبة وعظيمة. وفي هذا المكان الموحش اعتزل المسيح البشر، واجتمع مع أفكاره، وتواصل مع الإله. وكان منذ الطفولة

يدرك قدر مثل هذا التَّواصل، الذي كان يفتح الكثير دائماً أمامه. لقد كان كمن يرى عبر عدسة التَّكبير: ما كان يراه الآخرون منتظماً، متناسقاً، موحّداً، متماثلاً؛ رآه هو معقّداً، مركّباً، متنوّعاً خاضعاً لمبدأ الأسباب والنَّتائج. ولذلك كان يسوع يدرك قيمة أحاديثه مع الإله، لأنَّها كانت تفتح عينيه دوماً، فدعا الإله والده. ومنذ أنْ كان في الثَّانية عشرة من عمره أجاب والدته في معبد أورشليم عندما وبَّخته على فعلته: «ولماذا تبحثان عنّي أم إنكما؟ لا تعلمان إنه ينبغي عليَّ أنْ أكون في ما هو لأبي؟» لقد أدرك يسوع بدقَّة أنَّ مصدر معارفه، وأخلاقه، وتعاليمه، هو أحد ما يمنحه هذا كله مباشرة؛ ولا يمكن أنْ يكون ذلك الأحد ما، سوى الإله - الأب.

وجاء في إنجيل متَّى أنَّ كفرناحوم كانت «مدينته» (متى ٩: ١). أمَّا البحيرة فقد كانت قلب المدينة. وكان يبحر في مياهها حوالي الأربعة آلاف سفينة معاً. وكانت تلك السُّفن تتوزَّع على سفن الرُّومان القتاليَّة، وقادسات (= سفن قديمة م.) الملوك والحكّام المذهَّبة، والسُّفن التِّجاريَّة، وسفن نقل الرُّكاب، وعدد كبير من قوارب صيد الأسماك. وكان أكثر تلاميذ يسوع من صيَّادي الأسماك. ولم يكن اتِّصال البحيرة مع العالم يجري عبر الطرق البحريَّة فقط، إنَّما كان ثمَّة أربع طرق بريَّة: الطَّريق التي كانت تسير مع الجهة الغربيَّة من وادي الأردن؛ والطَّريق التي كانت تصل حتى حدود مدينة أريحا الأزليَّة؛ والطَّريق التي كانت تعبر عاصمة الجليل لتخرج إلى البحر المتوسِّط، إلى ميناء عكَّا؛ ثمَّ الطَّريق التي كانت تمتدُّ عبر الجبال إلى النَّاصرة ومنها إلى السَّامرة فأورشليم. لقد كانت تسير على هذه الدُّروب عابرة كفرناحوم، من مصر إلى الشَّام قوافل تجاريَّة كبيرة. ولذلك كانت تتلاقى في شوارع هذه المدينة أقوام الإقليم كلها، ولغاته ودياناته كلها. ولم يكن ثمَّة مكان أفضل من هذا للتبشير بالأفكار الجديدة، ونشرها بأسرع وقت ممكن، واختبارها على أناس ينتمون إلى شتَّى الشعوب والثَّقافات، والطبقات الاجتماعيَّة، والدِّيانات. لقد اجتمعت في كفرناحوم عبر ممثليها قارات آسيا، وأوروبا وأفريقيا. ففيها عاش اليهود، والعرب، والفينيقيون، والسوريون، والإغريق، والرومان. ومن هؤلاء كلهم كانت تتألَّف الحشود التي تستمع إلى مواعظ يسوع. وعليه فإنَّه ينبغي علينا أنْ ننسى تماماً فرضية نشوء تعاليم المسيح في وسط يهودي، وأنَّها جاءت لليهود وحدهم، وأنَّ صاحبها هو يسوع اليهودي. وهل يجب أنْ نؤكِّد مرَّة أخرى على أنَّ الآراميَّة كانت لغة المسيح وليست اليهوديَّة. يقيناً إنَّ تعاليم العهد الجديد تمدُّ جذورها في تربة العهد القديم، أي في شريعة اليهود. ولكنَّ الاختلاف بين تعاليم العهدين كالاختلاف بين الجذور والأغصان. فالإله في العهد الجديد

ليس مجرَّد إله غضوب، جبَّار يجب أنْ تقدَّم له القرابين (وإذا احتاج الأمر يجب أنْ تقدَّم له الابن الوحيد)، وإنَّما هو إله أب للنَّاس كلهم؛ أب محبٌّ ومتفهِّم، لا يحتاج أيَّ قرابين أو شعائر شكليَّة، أو نظام صارم من شتَّى ضروب الصَّغائر والإيمان المزدرى. فحسب تعاليم المسيح أنَّ الإله أب يعيش كل منَّا فيه. أب يرى في الإحسان والصِّدق والطَّاعة والمحبَّة أساس الوجود كله. والمسيح نفسه لم يأتِ إلى هذا العالم لكي يملأه عواصف وقلاقل، بل لكي «يوقِّع الأنغام الجميلة كلها على هذه القيثارة ذات الألف وتر، ويجمعها وفق هرمونيا السَّماء». وهذا بالضَّبط هو تعريف السَّعادة، فهذه الأخيرة لا تتحقَّق إلاَّ عندما يتوافق سلوكنا مع قوانين الطَّبيعة، قوانين الإله أبينا الذي أنجبنا، وهذا هو الانسجام، الهرمونيا، التَّواؤم والسَّعادة. وقد قامت رسالة يسوع في إيصال هذا إلى النَّاس.

وفي أثناء ذلك لم يكتف يسوع بالتَّعليم، والمواعظ، لكنَّه تصرَّف أيضاً وبحزم. وإلى مثل هذه التَّصرُّفات ينتمي طرده للباعة والتُّجَّار من معبد أورشليم. وما يجب قوله في هذا السِّياق، هو أنَّ المعابد كانت على مرِّ العصور مرتبطة بالتِّجارة بهذا الشَّكل أو ذاك. فعندما كانت الحشود تتوافد على المعابد في أيَّام الأعياد الكبيرة، كانت تسعى لغرضين: تأدية الأسرار الدِّينيَّة، والمتاجرة. ولكنَّ هذه الأخيرة كانت قد غلبت على الأولى في أورشليم منذ زمن. فرجال الدِّين حوَّلوا المعبد إلى وكر للتِّجارة. وأدخلوا آلافاً من رؤوس الأغنام إلى حرم المعبد المقدَّس. وتحوَّل المكان المكرَّس لإقامة الصَّلوات إلى ما يشبه حظيرة الماشية، إلى بازار يغصُّ بالنَّاس الذين كانوا يعقدون فيه مختلف صفقاتهم التِّجاريَّة، وهنا أيضاً كان الصَّرَّافون يمارسون أعمالهم ويتبادلون شتَّى العملات. لقد كان ذلك كله يجري على باب معبد الرَّبِّ الأعلى! إنَّها حقَّاً «لبابل»، ولا شيء يذكِّر بأجواء الصَّلاة والتَّواصل مع الإله. فمأمأة الغنم، وثغاء الماعز، وخوار الثيران، وصراخ الباعة ومشاحناتهم بشتَّى اللُّغات، وصليل الموازين ورنين النقود، هذا كله جعل صلوات الكهنة وإنشاد اللاويين لا تسمع.

لقد جاء المسيح إلى أورشليم صحبة قافلة كبيرة عبرت كفرناحوم. ولمَّا رأى ما يحدث في المعبد سخط سخطاً شديداً. فصنع سوطاً من الحبال التي كانت مبعثرة في المكان وطرد الأغنام والثِّيران والماعز من مواقفها، وطرد معها حشد التُّجَّار والباعة الذين كانوا يمارسون عملهم في المكان المقدَّس. ثمَّ جاء إلى الصَّرَّافين وقلب مقاعدهم ومناضدهم التي كانت تحمل أعمدة من العملات. كما طرد باعة الحمام قائلاً لهم: «خذوا هذا من هنا». فسخط المتضرِّرون وصاحوا به بغضب وحقد لأنَّه أصابهم بخسائر. ووقف

الطّرفان في المكان: التُّجّار والباعة من جهة، ويسوع وحده من جهة أخرى. فأجاب على عويلهم بهدوء قائلاً: «لا تجعلوا من بيت أبي بيت تجارة». ويبدو أنَّ ذلك الرَّدَّ الهادئ الآمر الحازم قد فعل فعله. لماذا؟ لأنَّه لم يرَ أيٌّ من الحاضرين في المسيح مسيحاً، ولم يعرفوا حقَّه في فعل ذلك، فليس وراء الرَّجل أيّ سلطة. ومع ذلك فإنَّ أحداً لم يؤذه. لماذا؟ لأنَّ مثل هذا كان قد حدث قبل ذلك غير مرَّة. ويمكننا أنْ نقول: إنَّ أحداً لم يؤذه لأنَّ كلهم كان يعرف أنَّ يسوع على حقٍّ، وهم مخطئون، بل آثمون، وهذا الإثم هو نقطة ضعفهم. لقد كانت تلك عصفة سخط طاهر ضدَّ كل ما هو فاسد ودنيء. ولذلك كانت صرخته ظافرة، لأنَّ الحقَّ ظافر دوماً، والضَّمير الفاسد عاجز دوماً، ولا يمكن للعيب أنْ يصمد أمام الفضيلة.

أمَّا الكهنة، والفريسيون، والكتبيون، واللاويون الذين أذهلهم ما رأوا وما سمعوا، فإنَّهم لم يدينوا يسوع مباشرة، على الرَّغم من أنَّهم كانوا ملتزمين التزاماً صارماً بضبط التَّصرُّفات كلها. ولكنَّ أكثر ما أقلقهم، بل أقضَّ مضجعهم، هو السُّؤال التَّالي: بأيِّ حقٍّ يفعل الرَّجل هذا كله؟ مَنْ هو هذا الذي يرتدي زيَّاً جليليَّاً ويدعو الإله أباه؟ ولذلك اكتفوا بأنْ طلبوا منه أنْ يثبت صلاحيَّاته التي يدّعيها، طلبوا منه أنْ يصنع معجزة.

فأجابهم يسوع قائلاً: «اهدموا هذا الهيكل وأنا سأرفعه في ثلاثة أيَّام». ولكنَّ هذا كان أكثر مما يُحتمل. أوَّلاً، كان كفراً بالنِّسبة إليهم أنْ يتحدَّث أحد عن هدم معبد أورشليم؛ ثانياً، ماذا يعني أنْ «يرفعه في ثلاثة أيَّام؟» وسوف يختلفون كثيراً حول مغزى ما قاله يسوع. فسيرون في قوله هذا تعبيراً مجازياً عن قيامته بعد ثلاثة أيَّام من صلبه. وثمَّة من افترض أنَّ المسيح قصد بقوله هذا إعادة بناء الهيكل الإلهي الذي يجب أنْ يكون في كل منَّا، ولم يقصد إعادة بناء الهيكل مادِّيَّاً. وفي الأحوال كلها فعل يسوع فعله وأكَّد أنَّه ليس مجرَّد نبيٍّ، إنَّما شيء آخر: لقد كان يحقِّق تعاليمه في الواقع، دون أيِّ تردُّد أو وجل، واضعاً نفسه وحيداً في مواجهة حشد من الجشعين. وفي مثل هذه الحالات تقرِّر الروح كل شيء، وكانت في يسوع روح الإله، فيه اليقين المطلق في صحَّة ما يفعل، إنَّه يعمل عمل أبيه!

أمَّا فيما يخصُّ دور المعبد، فقد اختلطت المفاهيم بعد ظهور تعاليم المسيح. وتحوَّل المعبد من معبد حجري بديع مذهَّب، من معبد من صنع اليد إلى معبد لم تبنه يد بشر، فحسب تعاليم المسيح أنَّ الروح الإلهي يعلو على كل المعابد المادِّيَّة، إنَّه «روح حقٍّ طاهر». ومعبد الإله يجب أنْ يكون في كل منَّا، ومن أجل هذا ينبغي أنْ يكون قلبنا حقاً وطاهراً، وضميرنا صاحياً

ونقياً. وتعدُّ هذه الموضوعة حجر الزَّاوية في تعاليم العهد الجديد، إنَّها الأصول في تعاليم المسيح، مفتاح خلاص كل منَّا على حدة، وخلاص كلنا معاً، خلاص البشريَّة كلها. فالسَّعادة لا تتحقَّق إلاَّ على طريق السَّعي إلى بلوغ الكمال الدَّاخلي، الكمال الروحي، وإبراء النَّفس من عيوب مثل الطَّمع، والحسد، واللامبالاة، والعدوانيَّة، وهو ما سبق الحديث عنه.

وما يذكر أنَّهم لم ينسوا للمسيح كلماته عن هدم المعبد الأورشليمي وإعادة بنائه في ثلاثة أيَّام، عندما لفَّقوا الحكم القضائي.

أمَّا الكمال الدَّاخلي فإنَّه يجب أنْ يكون له منطقه المستقل، وغايته النهائية. «الحقَّ الحقَّ أقول لك: إذا لم يولد الإنسان من جديد (أو من فوق)، فلن يكون بمقدوره أنْ يرى مملكة الإله». هذا هو ما أجاب المسيح به الرَّابّي الذي جاءه ليلاً وهو يرتجف من الخوف والحذر معاً ليتلقَّى منه إجابات على أسئلة كانت قد أمضَّته. فقد سأل المعلِّم عمَّا يجب عليه أنْ يفعله، فوضع المسيح السؤال أمامه في صيغة أخرى وقال: ليس السؤال، هو ماذا يجب أنْ نفعل، إنَّما السؤال هو مَنْ نكون. ولكنَّ الرَّابي أخذ كلمات يسوع الواردة قبل قليل على حرفيَّتها.

ونحن نشهد الآن في أيَّامنا هذه فهماً مماثلاً ليسوع المسيح، إذ يُقاس كل شيء حسب مقامه المادِّي: تحصى الأديرة، والكنائس، وشعائر الخدمة الإلهيَّة وما شابه بالكمِّ، بالعدد. ولكنْ ما هي حال الموضوعة الأساس للتَّعاليم: معبد الإله ينبغي أنْ يكون في داخل كل منَّا؟ كلهم يصمت، لأنَّ هذا هو الأمر الأكثر تعقيداً، وتحقيقه الأكثر صعوبة، والأضعف ظهوراً إلى الخارج، ولا يعطي أيَّ نفع مادِّي.

وقد كتب أغسطين المغبوط يقول: «أو تريد أنْ تصلِّي في المعبد؟ صلِّ في داخلك، وكن أوَّلاً وقبل كل شيء معبداً إلهيّاً». خلال السَّنوات الثَّلاث التي بشَّر المسيح فيها وعلَّم كان في صدام دائم مع الفريسيين - الكتبيين اليهود. ونحن كنَّا تحدَّثنا عنهم. لكنَّنا نسجِّل هنا أنَّ هؤلاء كانوا يهتدون بستٍّ مائة فريضة تلموديَّة، ولذلك كان سلوكهم، وقراراتهم رجعيَّة ومعادية للروح البشريَّة، والمنطق العقلي. فقد رأوا مثلاً إنَّه لا يجوز أنْ نأخذ في السَّبت سنبلة قمح ونأكل الحبَّ منها. وهذا ما اتَّهموا به تلاميذ المسيح فيما بعد. ورأوا كذلك أنَّه لا يجوز مدُّ يد العون للمحتاج الذي نزلت به بليَّة، ولا يجوز مداواة المريض، لأنَّه السَّبت. وكانت روح الفريسيَّة الشرِّيرة هذه ترى كل شيء وتعاقب بصرامة. فحسب الشَّرائع اليهوديَّة كان يحقُّ لرؤساء الدِّين أنْ يحكموا بالموت رجماً بالحجارة على

كل يهودي يرتد عن فرائض التلمود، وفرائض الدِّين اليهودي. وغالباً ما استخدم الفريسيون اليهود هذا الحق المعطى لهم، قبل المسيح وبعد إعدامه. لكنَّ المسيح نفسه حوكم بموجب القانون الروماني، ولذلك أعدم صلباً. ولو كان حوكم في محكمة السيندريون لأُعدم رجماً بالحجارة. وقد أنهى كثير من أتباعه حياته مقتولاً بالحجارة. فأكثر المسيحيين الأوائل لم يسقط ضحيَّة الوثنيين والحكّام، بل ضحيَّة هؤلاء الفريسيين اليهود بالذّات.

فعلى الرَّغم من أنَّ اليهوديَّة كانت تتبع الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، إلاَّ أنَّ الرومان منحوها حقَّ إدارة شؤونها المحليَّة. ونحن ننوِّه إلى هذا لأنَّ سنوات نشاط المسيح الثَّلاث سارت تحت عين الفريسيين السَّاهرة دوماً. وحدث مرَّات كثيرة أنْ وجد نفسه على حدِّ السِّكِّين، إلى أنْ تمكّنوا منه في آخر المطاف وسلبوه حياته.

لقد قلنا سابقاً إنَّ اليهود أجروا حملة «تنظيف» في صفوفهم («مأثرة عزرا») بعد عودتهم من الأسر البابلي، وعزلوا أنفسهم عن باقي العالم. ونشأت علاقة من نوع مختلف بينهم وبين إخوتهم بالدَّم: السَّامريين. وهذه التَّسمية أُطلقت على الشَّعب الذي تشكل نتيجة لتخالط اليهود المهزومين، مع الأقوام الأخرى التي أرغمت على السَّكن في بلادهم. وعندما عرض السَّامريون (نسبة إلى عاصمتهم السَّامرة) على اليهود مساعدتهم لإعادة بناء معبد أورشليم بعد أنْ عاد هؤلاء من الأسر البابلي، رفض اليهود العرض رفضاً قاطعاً. وعلاوة على هذا عدَّ اليهود السامريين قوماً من مقام أدنى، وناصبوهم الكره والعداء في كل سانحة. وعدُّوهم أُناساً محتقرين مع كل ما يترتَّب على ذلك من نتائج.

أمَّا بالنِّسبة للمسيح فلم يكن هناك فرق بين يهود، وسامريين أو ممثلي أيِّ شعب آخر. وكما أسلفنا، فقد كان الأمر الأهمُّ حسب تعاليم المسيح مختلفاً تماماً، وهو تحديداً: من نكون (بالروح لا بالشَّكل ولا باللُّغة). وهذا ما أعلنه يسوع في حديثه المعروف مع السَّامريَّة. وكانت تلك الأحداث التَّعليميَّة التي تمثِّل عبرة قد وقعت على الوجه الآتي:

كان المسيح عائداً مع تلاميذه من أورشليم إلى الجليل بعد الفصح. وكانت السَّامرة على طريقهم. وعادة ما يتخطَّى اليهود المدينة عبر درب جانبيَّة. لكنَّ المسيح سار في الطَّريق المعتادة. وحدث أنْ توقَّف عند بئر ليشرب. ولم يكن لديه ما يستقي به. وما لبثت أنْ أمَّت البئر سامريَّة شابَّة. فقال لها: «أعطني لأشرب». فبهتت المرأة إذ سمعت مثل هذا الطَّلب من يهودي (فلا أحد منهم يتنازل ويطلب مثل هذا الطَّلب من سامري). ثمَّ دار بينهما حديث

فلسفي. فقد تبيَّن أنَّ المرأة كانت قد تزوَّجت خمس مرَّات من قبل، وهي تعيش الآن مع السَّادس من غير زواج. ومع ذلك، وبصرف النَّظر عن كونها سامريَّة، فإنَّ يسوع لم يرفضها، ولم يوبِّخها، ولم يحتقرها، وإنَّما شرح لها. وعندما سألته هي السؤال الرَّئيس الذي كان يقلق السَّامريين كلهم: «من المحقٌّ أمام الإله: اليهود أم السامريون، ولمن نسجد وأين: في هذا الجبل، أم في أورشليم»؛ أجابها يسوع الإجابة المعروفة لنا: ينبغي ألاَّ يُسجد في أورشليم في المعبد، ولا في هذا الجبل في المعبد، بل في معبد الإله الموجود لدى كل منَّا في روحه، هناك يجب أنْ يسجد.

فانطلقت السَّامريَّة من فورها لتخبر قومها بما سمعته. وما أنْ سمع سكَّان شكيم الخبر حتى اندفعوا نحو يسوع كالنَّهر. وعندما رأى يسوع ذلك السَّيل البشري، التفت إلى تلاميذه وقال: «أنتم تقولون إنَّه بقي أربعة أشهر حتى موسم الحصاد. انظروا إلى هذه الحقول كيف اصفرَّت للحصاد الروحي. سوف يجنون بفرح المحصول الذي زرعته أنا بجدِّي وآلامي؛ أمَّا أنا الذي بذرت، فإنِّي أفرح عندما أفكِّر بهذه السَّعادة القادمة».

وسرعان ما تأتَّى ليسوع أنْ يتيقَّن بنفسه من أنَّه لا أنبياء في أوطانهم. وكان هو يعرف هذا من قبل، إذ قال: «لا كرامة لنبيٍّ في وطنه». ولمَّا جاء إلى الناصرة اختبر هذا على نفسه. ودارت أحداث المشهد المأساوي في معبد البلدة. وكانت الخدمة الإلهيَّة تؤدَّى في تلك الأزمنة على الوجه الآتي: بعد الصَّلوات كانوا يقرؤون عادة نصين من الكتاب، أحدهما من أسفار موسى الخمسة (أي من الشَّريعة)، والآخر من الأنبياء. وكان الرعايا هم مَنْ يفعل ذلك، كل كما يرى، لأنَّه لم يكن يوجد في بلدة صغيرة كالنَّاصرة كاهن مسؤول. ولذلك كان النشطاء من الرَّعيَّة ينهضون بمثل هذه النشاطات. وكان هؤلاء هم أعضاء الأبرشيَّة الأبرز. وقد كان عددهم في النَّاصرة حوالي العشرة. يأتي بعدهم مباشرة رئيس المعبد والحارس الذي يحرس الكتب المقدَّسة، ثمَّ العمدة والكاهن.

إذن لقد كان من حقِّ أيٍّ من أبناء الرَّعيَّة أنْ يختار النَّصَّ الذي يريد قراءته بعد الصَّلاة، بل كان يمكنه أيضاً أنْ يشرحه ويعلِّق عليه. وبعد أنْ وصل المسيح إلى النَّاصرة، مضى كدأبه الماضي، إلى المعبد في أوَّل سبت تلا وصوله. وعندما انتهت الخدمة الإلهيَّة طلب أنْ يقرأ هو النَّصَّين من الكتاب المقدَّس (أي نصين يختار)، فأذن له رئيس المعبد بذلك. أمَّا ما حدث بعد ذلك فنقرؤه في إنجيل لوقا:

﴿✿وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ ✿فَدُفِعَ إِلَيْهِ سِفْرُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ. وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوباً فِيهِ: ✿رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ ✿وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ. ✿ثُمَّ طَوَى السِّفْرَ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْخَادِمِ وَجَلَسَ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ كَانَتْ عُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَيْهِ. ✿فَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هَذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ. ✿وَكَانَ الْجَمِيعُ يَشْهَدُونَ لَهُ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَلِمَاتِ النِّعْمَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ فَمِهِ وَيَقُولُونَ: أَلَيْسَ هَذَا ابْنَ يُوسُفَ؟ ✿فَقَالَ لَهُمْ: عَلَى كل حَال تَقُولُونَ لِي هَذَا الْمَثَلَ: أَيُّهَا الطَّبِيبُ اشْفِ نَفْسَكَ. كَمْ سَمِعْنَا أَنَّهُ جَرَى فِي كَفْرِنَاحُومَ فَافْعَلْ ذَلِكَ هُنَا أَيْضاً فِي وَطَنِكَ ✿وَقَالَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ مَقْبُولاً فِي وَطَنِهِ. ✿وَبِالْحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ أَرَامِلَ كَثِيرَةً كُنَّ فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِ إِيلِيَّا حِينَ أُغْلِقَتِ السَّمَاءُ مُدَّةَ ثَلاَثِ سِنِينَ وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ لَمَّا كَانَ جُوعٌ عَظِيمٌ فِي الأَرْضِ كلها ✿وَلَمْ يُرْسَلْ إِيلِيَّا إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلاَّ إِلَى أَرْمَلَةٍ إِلَى صِرْفَةِ صَيْدَاءَ. ✿وَبُرْصٌ كَثِيرُونَ كَانُوا فِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَانِ أَلِيشَعَ النَّبِيِّ وَلَمْ يُطَهَّرْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلاَّ نُعْمَانُ السُّرْيَانِيُّ. ✿فَامْتَلأَ غَضَباً جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ حِينَ سَمِعُوا هَذَا ✿فَقَامُوا وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى حَافَّةِ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَتْ مَدِينَتُهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ حَتَّى يَطْرَحُوهُ إِلَى أَسْفَلُ. ✿أَمَّا هُوَ فَجَازَ فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى.﴾

(لوقا ٤: ١٦-٣٠)

وهكذا ترك يسوع وطنه النَّاصرة إلى غير رجعة. فجاء إلى قانا، ثمَّ انتقل منها مع والدته وإخوته إلى كفرناحوم التي باتت مكان إقامتهم. ومن الناصرة انتقل إلى كفرناحوم أقارب يسوع كلهم ما عدا إخوته، ولكنَّ كلاً منهم عاش مستقلاً عن الآخر. فالذي حصل أنَّ الأذى لحق بأقارب المسيح عبثاً، لأنَّهم لم يعترفوا به ميسيا في أيِّ يوم. لكنَّ ما فعله في النَّاصرة أثار الناس عليهم فنهبوا أرزاقهم، وكرهوهم، ثمّ طردوهم، وهذا ما دفع هؤلاء للابتعاد عن المسيح أكثر فأكثر.

وفي كفرناحوم عاش المسيح بعيداً عن أهله. ولمَّا لم يكن يملك بيتاً، فقد أقام عند حماة الأخوين أندراوس وبطرس. وكان هذان يقيمان في بيت صيدا ويترددان على كفرناحوم. كما كان يوحنا تلميذ يسوع يقيم في كفرناحوم أيضاً، وكان هذا صيَّاد أسماك بدوره.

وما أنْ وصل كفرناحوم حتَّى مضى يسوع من فوره إلى أولئك الذين كانوا يحتاجون مداواة روحيَّة وجسديَّة. ويقول الإنجيل إنَّه: «جال في كل مكان فيبارك ويشفي الجميع». وهذا هو الأمر الأهمُّ في تعاليم المسيح.

ونلفت الانتباه هنا إلى أنَّ يسوع لم يرَ مهمَّته في أنْ يغدو ناسكاً معتزلاً أو صوفيَّاً معجباً بتصوُّفه، أو زاهداً يقهر ذاته، إنما في أنْ يقدِّم العون لمن يحتاجون العون. وكانت هذه هي الوصيَّة الأهمُّ في تعاليم المسيح. وما يلفت الانتباه كذلك أنَّ اهتمام المسيح لم ينصبّ على بناء معابد جديدة وترميم القديمة؛ فلم يجمع من الشَّعب تبرُّعات لهذا الغرض، ولم يولِ اهتماماً لحجارة أسس مثل هذه المعابد؛ إنَّما اهتمَّ بالمعابد التي في الروح، في روح كل إنسان على حدة، وبذل كل جهد ممكن لإقامة معابد الأرواح هذه. فمن يهتمُّ لهذا في أيَّامنا هذه؟

ومن البدهي أنَّ يسوع كان يعظ في المعابد اليهوديَّة. «ولم تكن المعابد في تلك الأزمنة واسعة، ولذلك كانت تغصُّ بالمصلين دائماً؛ ولكي تعظ حشداً ينتظر صادقاً أنْ يعرف، ولكي تعظ كما كان هو يعظ، لا في صيغ إرشاديَّة ميتة لا روح فيها، بل بأفكار حيَّة وكلمات متأجِّجة، لكي تعلِّم كما يعلِّم أولئك الذين ينسجمون بعمق أحاسيسهم مع اللَّحظة التي يتحدَّث فيها القلب إلى القلب، من أجل هذا كله كان يجب أنْ تملك طاقة متجدِّدة تعوِّض لك القوى التي تستهلكها الموعظة. ولكنَّ هذا ليس كل شيء. فعندما كان يتحدَّث كان الشَّعب يستمع إليه منصتاً صامتاً بكثير من الذهول. ومتتبعاً كل كلمة ينطق بها...». هكذا وصف عظات يسوع أحد كتَّاب سيرة حياته.
وعند ذلك الوقت كان عدد تلاميذ المسيح قد صار ستَّة. فدعا أربعة منهم إلى كفرناحوم (الأخورين أندراوس وبطرس، والأخوين يعقوب ويوحنا)، ليبقوا معه ويتبعوه. كما حظي متَّى الإنجيلي بنداء متميِّز. فقد كان متَّى هذا عشَّاراً، جابي أتاوات، ولم يكن اليهود يكنُّون أيَّ ودٍّ لهؤلاء، بل يمكن القول، إنَّهم كانوا يحتقرونهم. والحقيقة أنَّ جباة الضَّرائب هؤلاء لم يكونوا شرفاء، إلاَّ قلَّة منهم. فغالباً ما كان الموظَّفون الرومان يعهدون بذلك العمل إلى حثالة المجتمع، وكان هؤلاء يستغلُّون صلاحيَّات وظيفتهم هذه

أسوأ استغلال. ولذلك كان جميعهم ينظر إليهم بنفور ويضعهم في منزلة واحدة مع الساقطين والساقطات. وكان هذا العار يلحق حتى بالشُّرفاء منهم. ومتَّى من هؤلاء الأخيرين. ولكنَّ المسيح لا يكون مسيحاً إذا انطلق من المعايير العامَّة التي أقرَّها اليهود، أثناء اختياره تلاميذه. فقد قرَّب متَّى إليه، وجعل منه رسولاً له يقرأ العالم كله اليوم إنجيله بلغات الكون كلها. إذن كان يتَّضح من كل خطوة يخطوه المسيح، أنَّه جاء لينقذ الذين سقطوا في الإثم. ففي الوسط الوثني الفاسد (ومتى لم يكن لمثل هذا الفساد حضور؟) نجح في أنْ يُسكن القداسة المسيحيَّة.

وسرعان ما ارتفع عدد تلاميذه - رسله إلى اثني عشر تلميذاً. ولم يكن اختيار هذا العدد مصادفة. فهو عدد متميِّز له مدلولاته عند اليهود، وعند الشَّرقيين على وجه العموم. لكنَّنا الآن بصدد رسل المسيح، فما الذي نعرفه عنهم؟ قبل قليل تعرَّفنا على أندراوس وسمعان (بطرس) ولدي يونا. وعلى يعقوب ويوحنا ولدي زبدي. وينتمي هؤلاء الأربعة ومعهم فيلبُّوس إلى بيت صيدا. أمَّا متَّى فهو ابن حلفى، أي شقيق يعقوب الأصغر ويهوذا شقيق يعقوب. وينتمي هؤلاء الأخيرون إلى كفرناحوم وقانا. ويرى بعضهم أنَّ زوجة حلفى (أوكليونا) كانت الأخت الصغرى لوالدة المسيح. وإذا صحَّ هذا يكون يعقوب الأصغر ويهوذا ابني خالة يسوع. وكان برثولماوس الرسول من قانا، وتوما وسمعان القانوي كانا من الجليل أيضاً. وكان يهوذا الأسخريوطي ابن سمعان ينتمي إلى بلدة أسخريوط.

ولا يتوفَّر لنا القدر نفسه من المعلومات عن الرُّسل كلهم، فثمَّة معطيات كثيرة عن بعضهم وأخرى شحيحة عن بعضهم الآخر، ولا نملك أيَّاً منها عن بعضهم الثَّالث. فليس لدينا أيَّ معلومات مثلاً، عن يعقوب الأصغر، ويهوذا أخي يعقوب، ولا عن سمعان. أمَّا توما الرسول فقد كان شخصاً له طابع فريد: ساذج وبسيط، حادٌّ وطيِّب القلب، ومستعدٌّ دوماً ليبذل روحه في سبيل المخلِّص. ولكنَّه اشتهر بضعف إيمانه وشكِّه.

لقد كان يعقوب، ويوحنا، وبطرس أقرب التَّلاميذ إلى يسوع. وكان يوحنا الإنجيلي صيَّاد أسماك أيضاً، لكنَّه كان يمارس هذه الحرفة على نطاق أوسع مما كان يفعله الرُّسل الآخرون. فهو مع أخيه يعقوب ووالدهما زبدي كانوا يؤجِّرون عمالاً للعمل معهم، وكانوا يبيعون أسماكهم في أسواق أورشليم. ويبدو أنَّ هذا هو ما يفسِّر سرَّ اختلاف إنجيل يوحنا عن الأناجيل الأخرى. فيوحنا كان يعرف عن المسيح كثيراً مما لم يكن يعرفه التَّلاميذ الآخرون، خاصَّة عن نشاطه في اليهوديَّة. أمَّا بطرس فهو خلافاً ليوحنا، كان رمزاً للحياة العمليَّة. ولكي نكوِّن تصوُّراً عن يوحنا يجب أن نقرأ رؤاه

بإمعان. وعندئذٍ سنتأكَّد من أنَّه كان يمتلك روح صقر لا روح حمامة. فأبرز سماته الغيرة، والحماس، وهو ما جعل المسيح يميل إليه أكثر. وليس عبثاً أنْ قيل، إنَّ يوحنا كان التِّلميذ «الذي أحبَّه يسوع». لقد تميَّز يوحنا أيضاً بالعمق وقوَّة الروح، والقدرة المدهشة على الجمع بين الحركة النشطة والتَّأمُّل الفكري، وبين الوداعة والقوَّة، والإيمان المطلق والصحبة، وعدم الإحساس بأيِّ خوف. وكان هذا كافياً لكي يجعل يسوع يحبُّه محبَّة خاصَّة.

ولكي نصف بطرس نسوق ما قاله عنه هاملتون: «يصعب علينا أنْ نحدِّد فيما انعكست غيرته: في عبادته أم في أعماله. ففيض قلبه أعطى القوَّة والاندفاع لكل حركة من حركاته. وإذ أحاط الأشرار الضَّواري بالمعلِّم، تجلَّت حميَّة بطرس في سيفه المجرَّد الذي جعل من صيَّاد الأسماك الجليلي مقاتلاً مقداماً. وإذ ذاع خبر قيامة المعلِّم من القبر، سبقه يوحنا الذي كان يسير أسرع من صديقه الأكبر سنَّاً؛ ولكنَّ نفاذ صبر بطرس تجاوز حبَّ يوحنا الهادئ، فعندما وقف هذا مرتبكاً، اندفع بطرس من فوره إلى داخل القبر الفارغ. هل يسوع الذي قام من الموت على شاطئ البحيرة؟ رفاقه يجمعون شباكهم ويديرون قواربهم صوب الشَّاطئ، أمَّا بطرس فيقفز من على ظهر القارب ويندفع مع الأمواج مبلَّل الثياب ليرتمي على قدمي المعلِّم. وإذ قال يسوع: هاتوا السَّمك الذي اصطدتموه الآن: قبل أنْ يدرك الآخرون مغزى الكلمات، كان بطرس قد سحب الشبكة بأسماكها الطازجة؛ وبوجوده كله يجيب على سؤال المخلِّص: سمعان، هل تحبني؟ قصارى القول، إنَّ هذا الرَّجل كان الرَّجل الذي إذا اقتضى الأمر يستغرق في إحساس حماسي تجاه الخلق الإلهي ومجد الإله، أو يتبع المسيح إلى السِّجن أو يؤدِّي أيَّ أعمال في مختلف ظروف العمل». لقد توقَّفنا بهذا التَّفصيل عند وصف شخصيَّة بطرس، لأنَّه أحد الأعمدة الكبرى للكنيسة المسيحيَّة. وهو إلى جانب بولس الرسول، أشهر الشَّخصيَّات المسيحيَّة. ولكنَّ بولس لم يظهر إلاَّ فيما بعد؛ ولم يكن في عداد الفريق الأوَّل الذي ألَّفه المسيح بنفسه. فقد دعاه يسوع لخدمته وخدمة الإله بعد أنْ أُعدم على الصَّليب. واستجاب بولس (= المجد) للدَّعوة، وبثَّ في تعاليم المسيح نَفَساً جديداً، إذ نشرها في أوساط الوثنيين. لكنَّنا لن نتحدَّث عن هذا إلاَّ فيما بعد.

إذن، لقد تعرَّفنا على امتداد الصَّفحات السَّابقة على المبادئ الأساسيَّة لتعاليم المسيح، أي لتعاليم العهد الجديد. ويدعى هذا العهد جديداً لأنَّه يختلف عن العهد الذي سبقه، عن العهد القديم، أي عن مجموعة الشَّرائع المعطاة في الأسفار الخمسة. فبين

الشَّريعة القديمة والشَّريعة الجديدة بون واسع، ومع هذا فإنَّهما تمثلان مقطعين زمنيين مختلفين للشريعة عينها، شريعة الإله، وهي الشَّريعة التي يعيش وفقها الكون كله. فلم يكن لموضوعات الشَّريعة الجديدة، العهد الجديد، أنْ تظهر في الزَّمن الذي عاش فيه موسى. لأنَّ ذلك الزَّمن كان زمناً مختلفاً وشروطه مختلفة، بل ناسه مختلفون أيضاً. ولذلك كانت لشريعته تجليَّات مختلفة كذلك. ثمَّ جاء المسيح وأعطى شريعة جديدة، مؤكِّداً على أنَّه لم يأتِ لينقض الشَّريعة القديمة بل ليكمِّلها. وقد بقي على إيمانه بروح الشريعة لا بحرفيَّتها. لقد جاء لكي يجعل الشَّريعة القديمة متوافقة، متلائمة مع الزَّمن الجديد، مع المستوى الجديد لتطوُّر المجتمع. لقد جاء ليعطي أخلاقاً جديدة، أي ليغيِّر بذلك العالم. جاء ليستبدل بشريعة الثأر والانتقام شريعة التَّسامح، والرَّحمة، والمحبَّة.

وإذا كنت قارئي الكريم لم تقرأ بعد أيَّاً من العهدين القديم والجديد، وتريد أن تتعرَّف إلى جوهرهما معاً، فإنَّنا ننصحك بقراءة عدة صفحات من الإنجيل سيقت فيها موعظة المسيح على الجبل عند بحيرة كفرناحوم عينها. فموعظة الجبل هذه، هي خلاصة تعاليم المسيحيَّة. ولذلك نرى أنَّه من الضَّروري أنْ نتوقف عندها. فموضوعات موعظة الجبل عميقة جداً، وعرضت بإيجاز، ووضوح، وبروز مجسَّم إلى درجة تجعلنا نرى أنَّه من الأنسب أنْ نقتبسها، لا أنْ نعرضها ونؤوِّلها. ولذلك سوف نسوق النَّصَّ الإنجيلي ثمَّ بعد ذلك نعلِّق عليه.

﴿✿وَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ فَلَمَّا جَلَسَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلاَمِيذُهُ. ✿فعَلَّمَهُمْ قَائِلاً: ✿طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ✿طُوبَى لِلْحَزَانَى لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. ✿طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ. ✿طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. ✿طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. ✿طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ. ✿طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ يُدْعَوْنَ. ✿طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ✿طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كل كلمَةٍ شِرِّيرَةٍ مِنْ أَجْلِي كَاذِبِينَ. ✿افْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُمْ هَكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ. ✿أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ وَلَكِنْ إِنْ فَسَدَ الْمِلْحُ فَبِمَاذَا يُمَلَّحُ؟ لاَ يَصْلُحُ بَعْدُ لِشَيْءٍ إِلاَّ لأَنْ يُطْرَحَ خَارِجاً وَيُدَاسَ مِنَ النَّاسِ. ✿أَنْتُمْ نُورُ

الْعَالَمِ. لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ ✿وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجاً وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ. ✿فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هَكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ✿لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ✿فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكل. ✿فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ فَهَذَا يُدْعَى عَظِيماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. ✿فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ. ✿قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. ✿وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كل مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. ✿فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئاً عَلَيْكَ ✿فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ وَاذْهَبْ أَوَّلاً اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ. ✿كُنْ مُرَاضِياً لِخَصْمِكَ سَرِيعاً مَا دُمْتَ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ لِئَلَّا يُسَلِّمَكَ الْخَصْمُ إِلَى الْقَاضِي وَيُسَلِّمَكَ الْقَاضِي إِلَى الشُّرَطِيِّ فَتُلْقَى فِي السِّجْنِ. ✿اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ تَخْرُجُ مِنْ هُنَاكَ حَتَّى تُوفِيَ الْفَلْسَ الأَخِيرَ! ✿قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. ✿وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كل مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. ✿فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كله فِي جَهَنَّمَ. ✿وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كله فِي جَهَنَّمَ. ✿وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلاَقٍ ✿وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي. ✿أَيْضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَحْنَثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. ✿وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا

كُرْسِيُّ اللَّهِ ۞وَلاَ بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ وَلاَ بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. ۞وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. ۞بَلْ لِيَكُنْ كلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ لاَ لاَ. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ. ۞سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ۞وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً. ۞وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. ۞وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِداً فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. ۞مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ. ۞سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. ۞وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ ۞لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. ۞لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ ۞وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ فَأَيَّ فَضْلٍ تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ هَكَذَا؟ ۞فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.﴾

(متى: ٥: ١-٤٨)

﴿۞احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ۞فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِالْبُوقِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاؤُونَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي الأَزِقَّةِ لِكَيْ يُمَجَّدُوا مِنَ النَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! ۞وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ ۞لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. ۞وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! ۞وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. ۞وَحِينَمَا تُصَلُّونَ لاَ تُكَرِّرُوا

الْكلاَمَ بَاطِلاً كَالأُمَمِ فَإِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ بِكَثْـرَةِ كلاَمِهِـمْ يُسْتَجَابُ لَهُـمْ. ✿فَـلاَ تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ. لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ. ✿فَصَلُّوا أَنْتُمْ هَكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. ✿لِيَـأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَـى الأَرْضِ. ✿خُبْزَنَـا كَفَافَنَـا أَعْطِنَـا الْيَـوْمَ. ✿وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْـضاً لِلْمُـذْنِبِينَ إِلَيْنَـا. ✿وَلاَ تُـدْخِلْنَا فِـي تَجْرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِـينَ. ✿فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ يَغْفِرْ لَكُـمْ أَيْـضاً أَبُـوكُمُ الـسَّمَاوِيُّ. ✿وَإِنْ لَـمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضاً زَلاَّتِكُمْ. ✿وَمَتَى صُمْتُمْ فَلاَ تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ فَإِنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. ✿وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَـادْهُنْ رَأْسَـكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ ✿لِكَيْ لاَ تَظْهَرَ لِلنَّاسِ صَائِماً بَـلْ لأَبِيـكَ الَّـذِي فِـي الْخَفَـاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. ✿لاَ تَكْنِـزُوا لَكُـمْ كُنُـوزاً عَلَـى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَـسْرِقُونَ. ✿بَـلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِي السَّمَاءِ حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَـدَأٌ وَحَيْـثُ لاَ يَنْقُـبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ ✿لأَنَّـهُ حَيْـثُ يَكُـونُ كَنْـزُكَ هُنَـاكَ يَكُـونُ قَلْبُـكَ أَيْـضاً. ✿سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كله يَكُـونُ نَيِّـراً ✿وَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةً فَجَسَدُكَ كله يَكُونُ مُظْلِماً فَإِنْ كَانَ النُّورُ الَّذِي فِيكَ ظَلاَماً فَالظَّلاَمُ كَمْ يَكُونُ! ✿لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْـدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ. ✿لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكلونَ وَبِمَـا تَـشْرَبُونَ وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ ✿اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَـعُ إِلَـى مَخَازِنَ وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ ✿وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعاً وَاحِدَةً؟ ✿وَلِمَاذَا تَهْتَمُّـونَ بِاللِّبَـاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. ✿وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كل مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَـا. ✿فَـإِنْ كَـانَ عُـشْبُ الْحَقْـلِ

الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غداً فِي التَّنُّورِ يُلْبِسُهُ اللَّهُ هَكَذَا أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدّاً يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ ✿فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكل أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ ✿فَإِنَّ هَذِهِ كلها تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ كلها. ✿لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللَّهِ وَبِرَّهُ وَهَذِهِ كلها تُزَادُ لَكُمْ. ✿فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ.﴾

(متى: ٦: ١-٣٤)

﴿✿لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا ✿لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ. ✿وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟ ✿أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِي أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ وَهَا الْخَشَبَةُ فِي عَيْنِكَ. ✿يَا مُرَائِي أَخْرِجْ أَوَّلاً الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّداً أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ! ✿لاَ تُعْطُوا الْمُقَدَّسَ لِلْكِلاَبِ وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ لِئَلَّا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ فَتُمَزِّقَكُمْ. ✿اسْأَلُوا تُعْطَوْا. اطْلُبُوا تَجِدُوا. اقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. ✿لأَنَّ كل مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ. ✿أَمْ أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خُبْزاً يُعْطِيهِ حَجَراً؟ ✿وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ ✿فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ. ✿فَكل مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ لأَنَّ هَذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ. ✿ادْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ! ✿مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ! ✿احْتَرِزُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلاَنِ وَلَكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلٍ ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ! ✿مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَباً أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِيناً؟ ✿هَكَذَا كل شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَاراً جَيِّدَةً وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَاراً رَدِيَّةً ✿لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَاراً رَدِيَّةً وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَاراً جَيِّدَةً. ✿كل شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ✿فَإِذاً مِنْ

ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. ❁لَيْسَ كل مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ❁كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ ❁فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ! ❁فَكل مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا أُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الصَّخْرِ. ❁فَنَزَلَ الْمَطَرُ وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ وَوَقَعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ فَلَمْ يَسْقُطْ لأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّساً عَلَى الصَّخْرِ. ❁وَكل مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا يُشَبَّهُ بِرَجُلٍ جَاهِلٍ بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الرَّمْلِ. ❁فَنَزَلَ الْمَطَرُ وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ وَصَدَمَتْ ذَلِكَ الْبَيْتَ فَسَقَطَ وَكَانَ سُقُوطُهُ عَظِيماً!. ❁فَلَمَّا أَكْمَلَ يَسُوعُ هَذِهِ الأَقْوَالَ بُهِتَتِ الْجُمُوعُ مِنْ تَعْلِيمِهِ ❁لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ.﴾

(متى: ٧: ١-٢٩)

وإذا ما قرأنا بإمعان موعظة المسيح على الجبل كلها، فسوف يتكوّن لدينا يقين بأنَّ الشَّريعة القديمة التي تلقّاها موسى على جبل سيناء، تبقى كلها قائمة دون تغيير. فتبقى الوصايا العشر تحتفظ بكامل وجودها وقوتها، وهي لبُّ الشَّريعة الموسويَّة كلها. ولكنَّ المسيح ذهب إلى أبعد منها في تعاليمه وفي فرائضه الأخلاقيَّة. فبالنِّسبة إليه لم تكن واقعة الجريمة (لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، و...). وحدها المهمَّة، إنَّما التَّفكير فيها، والنَّوايا الشريرة التي تقود إلى البلية، والأذية وسوى ذلك من الشرور. ولذلك طلب المسيح من الإنسان ألاّ يفعل الشَّرَّ حتَّى في أفكاره، أو في نواياه. وكم تبدو مثل هذه الأفكار متلائمة مع زمننا هذا على الرَّغم من أنَّه مضى عليها الآن حوالي الألفي عام. فعلماء اليوم يقولون، إنَّ الفكر ماديٌّ. ولكل فكرة ما يوافقها من العمليات المحدَّدة في العالم الذي يحيط بنا، صورة الفكرة. ولذلك فإنَّ «مَنْ يخطئ بأفكاره، يكون قد أخطأ في واقع الحال». وهذا ما لم تأتِ به شريعة موسى. لقد طالب العهد الجديد الإنسان بنقاء الفكر، وصفاء النية، والسيطرة على الأفكار والرغبات. ولم يكن عبثاً قول المسيح: «من نظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه». وهكذا كان المقياس في كل شيء. إذن ليس المهمُّ هو ما يفعله المرء وحسب، إنَّما المهمُّ أيضاً مَنْ يكون هو نفسه. ومن الضروري أوَّلاً وقبل كل شيء أنْ يطهِّر الإنسان روحه من كل شرٍّ، وليس هذا ممكناً إلاّ بمساعدة فعل الخير. فلا

يمكن أنْ يهزم الشَّرُّ بالشَّرِّ، إنَّما بالخير. ولذلك قيل «أحبُّوا أعداءكم». وعلى مدى الألفي عام اللذين انصرما بعد زمن المسيح، أيقن الناس مرَّات كثيرة بهذه الحقيقة؛ لقد رأوا أنَّ الأيدي الملطَّخة بالدَّم لا تجعل العالم سعيداً، وإنَّ التَّعسُّف، والجريمة، وسفك الدِّماء لا تحقق العيش الهانئ. فالخير وحده القادر على وضع حدٍّ للشرّ، تماماً مثلما يوازن الموجب السَّالب. ويجب أن تنبثق هذه الوسيلة الوحيدة: الخير، من روح إنسانيَّة نقيَّة. فالإنسان ينبغي أنْ يعمل كي لا تصدر عنه، كي لا تخرج من روحه أي أفكار رديئة. وكم يتوافق هذا الآن مع المعضلات التي يعمل المحلِّلون النَّفسيُّون على حلِّها. يقول عالم معاصر: «لكي تمتلك زمام روحك، ينبغي عليك أنْ تنمِّي في ذاتك القدرة على حشد الفكر، القدرة على التركيز الفكري، أو بكلمات أخرى، أنْ تبلغ درجة السَّيطرة الدَّائمة على ذاتك. عليك أنْ تتعلَّم توجيه مختلف نوازع روحك بما يجعل المثال الأعلى المختار قادراً على أنْ يؤلِّفها كلها في كل واحد. ولتحقيق هذا عليك أنْ تجد لحظات للتَّفكير بصمت في عزلة عن الآخرين، حيث يسمح الجوُّ كله بالتَّفكير في الموضوعات الروحيَّة. وتسمَّى هذه الحالة: «حالة الاستغراق في الصَّمت».

ونحن سوف ندرس هذه المسألة بالتَّفصيل في فصل آخر من هذا الكتاب. ونكتفي الآن بأنْ نؤكِّد مرَّة أخرى على أنَّ تعاليم المسيح تقضي بضرورة السَّعي إلى تحقيق الكمال الذَّاتي، وتنقية الروح من الأفكار الرَّديئة، وبناء معبد الإله داخل روح الإنسان. وتلكم هي المهمَّة التي وضعها المسيح أمام الإنسان منذ ألفي عام، ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا. ومع ذلك فإنَّ الإنسان لم يحقِّق تقدُّماً يذكر على طريق تحقيقها. فأكثر المسيحيين يظن أنَّ اعتناق المسيحيَّة يعني تقبُّل سرِّ المعموديَّة، وزيارة الكنيسة من وقت لآخر، وتأدية الصَّلوات أحياناً و...، وهذا كل شيء. وغالباً ما نسمعهم يردِّدون: نحن مسيحيون!» اقرأ بإمعان موعظة المسيح على الجبل، وسوف تدرك ما ينبغي على المسيحي أن يفعله لكي يغدو من أتباع تعاليم المسيح حقّاً. فهل يلبِّي متطلبات الانتماء إلى المسيحيَّة الحقَّة أكثر مسيحيي اليوم؟ ليس بين متطلبات الإيمان المسيحي الحقيقي ما يفرض عدد المرَّات التي يجب أنْ نزور فيها الكنيسة، ونؤدِّي طقس الاعتراف، ونوزِّع الحسنات و... ولكنْ هناك بالمقابل متطلَّبات إلزاميَّة مبدئيَّة: حرِّر نفسك من الحسد، والمباهاة، وعامل الآخرين بما تحب أنْ يعاملوك به، بالشَّر الخير، بل لا تفكِّر بما هو رديء، وما إلى ذلك. والحقيقة أنَّه يصعب أنْ نزيد شيئاً ما على القانون الأخلاقي المسيحي هذا. لكنَّ الالتزام به أمر عسير أيضاً. وليس ثمَّة سوى قلَّة تستطيع أنْ تشعر بالسَّعادة لأنَّها تقترب منه بعض

الشَّيء. أمَّا فيما يخصُّ المؤمنين العاديين، فقد كتب جونتان إدواردز عنهم يقول: «يجب أنْ نصلِّي من أجل أولئك النَّاس الصالحين الذين لا وجود للرُّوح المسيحي الحي فيهم، لكي يحييهم الإله أو يرسل لهم الموت؛ يجب أنْ نصلِّي من أجلهم إذا ما كان ما يقولون عنه في أيَّامنا هذه صحيحاً: يتسبَّب هؤلاء الصالحون ذوو الأرواح الميتة بالشَّرِّ أكثر من الأشرار العاديين، ويقودون أرواحاً أكثر إلى الهلاك، وسوف يكون من الأفضل بالنِّسبة للجنس البشري لو مات هؤلاء كلهم». وتبدو هذه الكلمات غريبة للوهلة الأولى؛ إذ كيف يمكن تفضيل الطالحين على الصالحين؟ ولكنْ إذا كان الحديث يجري على المؤمنين إيماناً شكليَّاً، فيبدو أنَّ هذه الكلمات صحيحة. فمثل هؤلاء المؤمنين اللا مبالين لن يصبحوا مسيحيين حقيقيين في أيِّ يوم من الأيَّام، أمَّا الساقطون فقد يصبحون كذلك في أيِّ وقت. ولذلك فنحن نحاول أنْ نلفت الانتباه إلى أسِّ الإيمان المسيحي، إلى قاعدته، إلى لبِّه لكي يمكن لأيٍّ كان أنْ يعي أنَّ التَّردُّد إلى الكنيسة بين وقت وآخر لا يمكن أنْ يحلَّ بدلاً عن الالتزام الحقيقي بتعاليم المسيح.

ولم يكن المسيح وحده الذي بشَّر بتعاليمه. فقد حان الوقت الذي عهد فيه بهذه المهمَّة لتلاميذه - رسله. فأرسلهم أزواجاً ليبشِّروا اليهود أولاً. ومنعهم من أنْ يبشِّروا السامريين والوثنيين. وقد اقتصرت مهمَّتهم على التبشير بقرب قيام مملكة السَّماء. وكان ينبغي عليهم أنْ يؤيِّدوا مواعظهم «بأعمال الجبروت»، وأعمال البرِّ. والمقصود «بأعمال الجبروت» مداواة الأمراض، وهو ما كانوا قد تعلَّموه. فقد جاء في إنجيل متَّى، أنَّ المسيح «أعطاهم سلطة على الأرواح النَّجسة ليطردوها ويشفوا كل مرض وكل علَّة». وإذ أرسل المسيح رسله زوَّدهم بالكلمات التالية: «لا تحملوا معكم ذهباً أو فضَّة، ولا نحاساً في أحزمتكم. وتأخذوا مخلاة للطريق، ولا ثوبين، ولا حذاء، ولا عصاة. لأنَّ مَنْ يكدح يستحقُّ أنْ يرزق قوته. وإذا ما دخلتم أيَّ مدينة أو قرية فانظروا فيها مَنْ يستحقُّ وامكثوا عنده إلى أنْ تخرجوا. وعندما تدخلون المنزل حيُّوه بقولكم: «السَّلام لهذا البيت. وإذا ما كان البيت يستحقُّ فعلاً فإنَّ السَّلام سيأتي. أمَّا إذا كان لا يستحقُّ فسيعود سلامكم إليكم. وإذا لم يستقبلوكم، ولم يسمعوا لكلماتكم، فأزيلوا غبار أقدامكم عندما تخرجون من ذلك المنزل أو تلك المدينة... وها أنذا أرسلكم كالخراف بين الذئاب: كونوا حكماء كالأفاعي، وودعاء كالحمام. فاحذروا النَّاس، لأنَّهم سوف يسلِّمونكم إلى القضاء، وسوف يضربونكم في معابدهم، ويقودونكم إلى الملوك والحكَّام من أجلي، وللشهادة أمامهم وأمام الوثنيين. وحينما يسلِّمونكم لا تهتمُّوا بما ستقولونه وكيف، لأنه في تلك

السَّاعة سوف يُعطى لكم ما تقولونه، لأنَّه ليس أنتم من سيتكلم، إنَّما روح أبيكم هو الذي سيتكلم فيكم...

وسوف يكرهكم كلهم من أجل اسمي؛ ومن يصمد إلى النهاية يكون خالصاً. وعندما سيطاردونكم في مدينة، اهربوا إلى مدينة أخرى.

فلا تخافوهم، لأنَّه ليس من مكتون إلاّ ويظهر، وليس من خفيٍّ إلاّ ويُعلم. وما أقول لكم في الظّلام، قولوه في النُّور، ما أقوله لكم همساً، تحدَّثوا به من فوق السطوح. ولا تخافوا قاتلي الجسد العاجزين عن قتل الروح، إنَّما خافوا من مَنْ في مقدوره أنْ يهلك الروح والجسد في الجحيم».

الفصل الثامن

المواجهة

لقد وقف اليهود حماة التلمود موقفاً شديد العداء من تعاليم المسيح الجديدة. فالمسيح دافع عن روح الشَّريعة الموسويَّة، عن روح القانون الإلهي ومغزاه، وحاول أنْ يجعل هذا المغزى أكثر عمقاً وأكثر تحديداً. ولكنَّ الفريسيين وصلوا حدَّ العبث، حدَّ السُّخف في ابتكار مزيد من المحرَّمات الجديدة التي زعموا أنَّها تنبثق من شريعة موسى. ويكفي أنْ نسوق هنا بعض العيِّنات من تلك التشريعات. فمن الإضافات التي أضافوها إلى الشَّريعة: تحريم احتذاء الأحذية ذات المسامير يوم السبت، وحجَّتهم أنَّ المسامير تشكل ثقلاً. أمَّا الأحذية التي ليس فيها مسامير فقد سمح باحتذائها. كما قضوا بأنَّه يمكن أنْ يسير المرء بفردتيّ حذاء، ولا يجوز له أنْ يسير بفردة واحدة. وإذا ما حمل المرء يوم السَّبت رغيف خبز فلا ضير عليه، أمَّا إذا حمل الرَّغيف شخصان فإنَّ في ذلك إثماً. وكان ثمَّة كثرة كثيرة من مثل هذه المحرَّمات الحمقاء التي لا تثير سوى سخريَّة ذوي التَّفكير السَّليم. ولكن مثل هذه المحرَّمات لم تكن مجرَّد توصيات، إنَّما فرائض واقعيَّة قد يدفع اليهودي حياته ثمن الاستهتار بها. فقد كانت المحاكم الدِّينيَّة اليهوديَّة نشطة في اتِّخاذ قرارات الإعدام رجماً بالحجارة لمن كانت تتأكَّد مخالفته لمثل هذه المحرَّمات. وهكذا كان الحماة الغيورون لمثل هذا العبث يضعون حدَّاً لحياة الموهوبين الذين لم يكن بمقدورهم التعايش مع مثل هذه الموضوعات بسلام، أو لحياة أولئك الذين كانوا يتبعون المنطق السَّليم فيخالفون عن غير قصد تلك المحرَّمات.

لقد لاحق الفريسيون المسيح وتلاميذه وأنصاره في كل مكان. وتحرَّشوا بهم في كل مرَّة سنحت لهم فيها فرصة. فعندما مرَّ يسوع يوم سبت عبر حقول مزروعة، قطف تلاميذه سنابل وأكلوا حبَّها. فقال له الفريسيون الذين رأوا المشهد: ها هم تلاميذك يفعلون في يوم السَّبت ما لا يجوز أنْ يُفعل. فقال لهم: ألم تقرؤوا ماذا فعل داود حينما جاع هو ومَنْ معه؟ ألم يدخل بيت الإله ويأكل خبز التَّقدمة الذي كان يحرَّم أكله عليه وعلى مَنْ معه، ولا يجوز إلاَّ للكهنة؟ أوَلم تقرؤوا في الشَّريعة أنَّ الكهنة ينتهكون

الإنجيل: من لديه أكثر يُعطى أكثر، ومَنْ لديه أقلُّ يؤخذ منه. فمغزى هذه الكلمات ليس متماثلاً كما يؤوِّلونها في غالب الأحيان. ونحن يبقى لدينا إحساس بالغصَّة لأنَّه بعد جدال كفرناحوم الذي وصفناه هنا، أدار كثيرون ظهرهم للمسيح مبتعدين عنه. ولم يقلب له ظهر المجن خصومه التَّقليديون: الفريسيون والكتبيون، وحسب، إنَّما اتَّخذ موقف الحذر منه أيضاً، كثير ممن كانوا تلاميذه. فقد أشكل عليهم فهم مغزى كلماته: «إنْ لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه، فلن تكون لكم حياة في ذاتكم». نعم لقد أخذ أنصار المسيح الأقل قرباً منه يلتزمون بهذه الإرشادات التزاماً حرفيًّاً، لقد غاب عن ذهن هؤلاء أنَّ المسيح كان دوماً من أنصار الجوهر لا الشَّكل، من أنصار المغزى لا الفرائض الشَّكليَّة. وكان مغزى تعاليمه واضحاً. أوَّلاً، «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، لكنْ بكل كلمة تخرج من فم الإله». ثانياً، الحياة الأبديَّة هي حياة الروح، ولا يستحقُّها إلاَّ الذين يلتزمون بالحقيقة الإلهيَّة، بتعاليم يسوع (الذي جاء ليحقِّق إرادة الإله، لا إرادته هو).

وفي تحليله للجدال الذي وصفناه آنفاً، رأى أوغسطين المغبوط أنَّ قول المسيح لم يكن عصيًّاً فهمه إلاَّ على قساة القلوب، ولا غريباً إلاَّ بالنِّسبة لضعاف الإيمان. فقد عدَّ أنَّه من البدهي أنْ يكون «خبز السَّماء» غذاء روحيًّاً لمن يقتات به، وهو يعزِّز الحياة الأبديَّة. ولا ريب في أنَّ الحديث إنَّما جرى على أنَّه يجب عليهم أنْ يقتاتوا به (أي بالمسيح، بجسده ودمه) إيماناً في قلوبهم. أمَّا التَّلاميذ الذي ارتابوا في صحَّة تعاليم المسيح، فقد خاطبهم بلغة أكثر ثوريَّة. «لقد حدَّثهم عن القيامة المنتظرة التي يجب أنْ تثبت لهم أنَّه قد نزل من السماء فعلاً، وأنَّ الحديث عن جسده الذي سيحمله معه إلى السماء لا يمكن أنْ يكون له سوى مغزى مجازي(!!!)». هذا ما كتبه أحد أشهر دارسي حياة يسوع المسيح وتعاليمه: د. ف. فارَّار. لقد خاطب المسيح تلاميذه الذين أخذهم الشَّكُّ، قائلاً: الروح يحيى والجسد يفنى إنَّ الكلام الذي أقوله لكم جوهر، وروح، وحياة، لقد كان المسيح يعرف مصدر عدم فهمهم، إنَّه عدم الإيمان. وكان قد قال: إنَّ روح الإيمان نعمة من الإله، إحسان فريد يمنُّ الإله به.

بعد «أزمة» كفرناحوم خسر المسيح كثيراً من أنصاره. وتناقص عدد الحشد الذي كان يعترف به ويحبُّه أكثر فأكثر. وسأل تلاميذه بأسى «ألا تريدون أنتم أنْ تتركوني أيضاً؟» فأجابه بطرس: وإلى مَنْ نمضي يا رب؟ فأنت تملك ينابيع الحياة الأبديَّة. ونحن آمنَّا وعرفنا إنَّك قدُّوس إلهي».

لقد أولى الذين وصفوا حياة المسيح كلهم، اهتماماً كبيراً لأعمال الشّفاء التي كان يقوم بها. وكونه كان روحانيّاً شديد التّأثير، فقد نجح المسيح في شفاء أمراض لم يستطع الآخرون معالجتها. ولكنَّ الأمر الأهمَّ في هذا كله، هو الأساس الفلسفي. وقد قام هذا في الآتي: لكي تداوي الجسد يجب أنْ تداوي روح الإنسان أوّلاً، يجب أنْ تزيح عن روحه عبء الآثام، والآلام، وعذاب الضّمير. ولذلك ينبغي على من يرغب في أنْ يشفى، أن يندم ويتوب عن آثامه، أنْ يؤمن في حقيقة الإله («حسب إيمانكم ترزقون»). وكل مَنْ كان يتوب ويندم على خطاياه كان المسيح يقوله له: «مغفورة لك خطاياك». وكان هذا الإعلان يثير غضب الفريسيين ويستدعي إدانتهم للمسيح. فموقفهم من مغفرة الخطايا كان موقفاً تقليديّاً: لا يمكن أنْ ينال المرء مغفرة الخطايا إلاّ إذا أدّى شعائر طقس تقديم القربان بمشاركة الكهنة وتأدية كثرة من الشّكليّات. أمّا المسيح فلم يكن يعير هذا أيَّ اهتمام. فقد كان كل شيء عنده يجري بعيداً عن المعبد، والكهنة، والصوم وسوى ذلك من الفرائض التي لا تعدُّ ولا تحصى. حسب المسيح، كان كل شيء يتعلّق بروح كل إنسان بعينه، كل إنسان بآثامه، وغواياته، وضعفه، وتردُّده. لقد جعل المسيح معضلات البشريَّة كلها على روح إنسان محدَّد. وكان يحبُّ أنْ يردِّد كلمات النَّبي أشعياء: «رحمة أُريد، لا تقدمات». الرحمة تحديداً، والتَّسامح، والمحبَّة، وليس محبَّة القريب فقط، بل محبَّة العدوِّ كذلك. لقد كان المسيح يمدُّ يد العون للأرواح الضَّالَّة، الآثمة، أي لأرواح بشر حقيقيين معروفين في الحياة اليوميَّة. وعندما عذلوه في هذا (في ذلك الزَّمان كان ثمَّة بون شاسع يفصل بين الزُّعماء الدِّينيين والشَّعب، وبين مختلف المذاهب الدِّينيَّة)، أجابهم بقوله: لا يحتاج الأصحَّاء إلى الطَّبيب، بل المرضى». وكان هو يساعد أولئك المرضى. لقد كان سلوكه معهم كما عامل الأب ابنه الضَّالُّ، إذ أقام وليمة احتفاء بعودته إلى البيت. وسامحه على تبذيره نصيبه من ثروة العائلة وأرزاقاً أخرى كثيرة. لكنَّ رحمة الأب هذه أثارت حنق ابنه الأصغر، الذي ينعكس في سلوكه الحسد البشري، وغلّ الأنانيَّة، وعوز المحبَّة. ويصعب جداً مداواة مثل هذه العيوب البشريَّة. وقد بذل المسيح كل جهد ممكن لإبراء الروح منها. فحاول أنْ يوقظ في مثل هؤلاء البشر الإيمان، الإيمان النابع من القلب والروح.

وإذ نتحدَّث عن أهمِّ موضوعات تعاليم المسيح التي استندت إلى الأناجيل، يجب علينا أنْ ننوِّه إلى «الإنجيل المختصر»، كما دعا آباء الكنيسة صلاة «أبانا». ففي عدد من الجمل عرضت فيها زبدة تعاليم المسيح. فاقرؤوها:

«❁...أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّس اسْمُكَ. ❁لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْض. ❁خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. ❁وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. ❁وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.»

(متى: ٦: ٩-١٣)

ومن الواضح أنَّ هذه الصَّلاة الرَّئيسة المرفوعة إلى أبينا الإله، لا تتضمَّن سوى مطلب ماديّ واحد: خبزنا اليومي أعطنا كفاف يومنا هذا. وهو مطلب محدود جداً يقتصر على خبز يوم واحد، خبز اليوم. أمَّا خبز الغد فحصِّله بنفسك. وليس ثمَّة زيادات في هذا المطلب، إنَّه الخبز الضروري للعيش يوماً واحداً وحسب. وباقي المطالب التي تضمَّنتها الصَّلاة، هي مطالب روحيَّة كلها. ويتلخَّص محتواها في أنَّنا نضع روحنا بين يدي الإله، ونتمنَّى أنْ تنبسط إرادته على كل ما في الوجود، وعلينا في الآن عينه. فنحن نريد أنْ تتَّحد روحنا في الإله، في العقل الكوني. وإذا استخدمنا مصطلحاتنا المعاصرة، فإنَّه يمكننا أنْ نقول: إنَّنا نرغب في أنْ تتوافق صورتنا، هولوغرامَّانا (الهيكل الإعلامي لأنانا)، توافقاً تامَّاً مع حقل الإعلام الكوني، أنْ تندغم فيه تماماً. ولكنْ لا يكفي أنْ نتمنَّى. وإنَّما يجب أنْ نبذل كل جهد ممكن لكي يتحقَّق ذلك. ولذلك فإنَّنا نتعهد في صلاتنا هذه بأنْ نترك للذين لنا عليهم. ولا يجوز أنْ نحدَّ من معنى هذه الكلمات. فهي شديدة العمق والسِّعة. مغزاها، هو أنَّه كما سيتعامل كل منَّا مع الآخرين، كذلك سيكون موقف الإله منه. وهذا هو بالضَّبط ما نطلبه نحن بأنفسنا من الإله. فإذا ما عزمنا على ألاَّ نتعامل مع الآخرين بضمير نقي صاح، أي بضمير مسيحي، فإنَّنا بذلك نطلب من الإله أنْ يجازينا على ذلك. فهل نعي مغزى الصَّلاة التي نرفعها إلى الإله؟ ففحواها لا يقوم في مجرَّد تلاوتها أكثر عدد ممكن من المرَّات، وإنَّما في أنْ نسلك في حياتنا سلوكاً يتوافق مع مقتضياتها. فتعاليم المسيح لم تعطَ للنَّاس من أجل المسيح، بل من أجل النَّاس. وعن هذا يقول إنجيل متَّى:

«❁وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. ❁وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ ❁فَيُقِيمُ

الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. ✿ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. ✿لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي. ✿عُرْيَاناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. ✿فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ: يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ أَوْ عَطْشَاناً فَسَقَيْنَاكَ؟ ✿وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَآوَيْنَاكَ أَوْ عُرْيَاناً فَكَسَوْنَاكَ؟ ✿وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ ✿فَيُجِيبُ الْمَلِكُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ. ✿ثُمَّ يَقُولُ أَيْضاً لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ ✿لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي. ✿كُنْتُ غَرِيباً فَلَمْ تَأْوُونِي. عُرْيَاناً فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضاً وَمَحْبُوساً فَلَمْ تَزُورُونِي. ✿حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضاً: يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَوْ عَطْشَاناً أَوْ غَرِيباً أَوْ عُرْيَاناً أَوْ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟ ✿فَيُجِيبُهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا.)

(متى ٢٥: ٣١-٤٥)

فوفق تعاليم المسيح إذن، أنَّ الإله لا ينتظر من النَّاس أنْ يخدموه هو في مقام شكلي صرف (قرابين، وشعائر، وخدمة دينيَّة وصلوات و...)، بل أنْ يساعد بعضهم بعضاً، إنَّه ينتظر من النَّاس أنْ يطعموا الجائع، ويسقوا العطشان، ويؤووا الشَّريد، ويساعدوا المريض، ويزوروا السَّجين. ففي هذه الأعمال الطَّيِّبة تقوم خدمة الإله. وهذه لا تتحدَّد بعدد المعابد، وخدم العبادة، بل بمدى استعداد كل منَّا لمدِّ يد العون لقريبه. وهذه هي المهمَّة الرَّئيسة لرجال الكنيسة: إعداد كل منَّا شيئاً فشيئاً. والخدمة الكنسيَّة يجب ألاَّ تكون مجرَّد استعراض مهيب تترافق تأديته بلغة كنسية قديمة قلَّما يفهم أحد منها شيئاً. فالخدمة الكنسيَّة يجب أنْ تكون موجَّهة إلى قلب كل منَّا، إلى روح كل منَّا، كما يجب أنْ تكون مفهومة لجميعهم، وأنْ تجعل من كل مَنْ يحضرها إنساناً أفضل، إنساناً أكثر طيبة، ورحمة، ومحبَّة: «رحمة أُريد لا تقدمات».

إنَّ نفس الإنسان، روح الإنسان، عالمه الدَّاخلي هو الذي يقرِّر كل شيء. وتغيير بالاتِّجاه الصَّحيح، هو وحده الذي يجعل منه إنساناً سليماً معافى فيزيائيّاً ونفسيّاً. وقد تحدَّثت الأناجيل نفسها عن هذا. فالحالة الروحية الطَّبيعيَّة الصِّحِّيَّة للإنسان، هي تلك التي تتوافق مع حقل الإعلام الكوني، مع العقل الكوني، مع روح الإله.

ففي العلم المعاصر يُعدُّ الحقل الإعلامي، هو المكافئ لروح الإله. وبناء على ما قيل، فإنَّ الروح الإلهي، الروح القدس، يُعدُّ الأساس الرَّئيس الذي يقرِّر كل شيء في الكون وفي كل منَّا. وعن هذا نفسه قيل في إنجيل متَّى: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وأضرَّ نفسه؟ أو أيَّ فدية يؤدِّيها الإنسان عن روحه؟».

والإيمان هو عتلة التَّأثير الأساسيَّة على الروح. وعن هذا جاء في إنجيل مرقس:

﴿فَأَجَابَ يَسُوعُ: لِيَكُنْ لَكُمْ إِيمَانٌ بِاللَّهِ. لأَنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهَذَا الْجَبَلِ انْتَقِلْ وَانْطَرِحْ فِي الْبَحْرِ وَلاَ يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُل مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ.﴾

(مرقس ١١: ٢٢-٢٤)

فوفق تعاليم المسيح إنَّ كل شيء يحتشد في روح الإنسان. وإنَّ الإيمان هو أساس الأُسس كلها. ولكنَّ الإيمان بلا عمل هو إيمان ميت. وعليه فإنَّ أعمال الإنسان هي التي تحدِّد كل شيء. وإذا كانت هذه موجَّهة لخير النَّاس، وتسير وفق وصايا الإله، فإنَّ ما دعاه الأنبياء الأوائل بمملكة السَّماء، هي التي تسود في روحه. وحسب المسيح إنَّ مملكة السَّماء مثلها مثل الجحيم، تقع في داخلنا أيضاً. وتتمثَّل الحالتان في الغبطة، والألم الروحي الممضّ. فما الذي يمكن أنْ يكون أشدَّ ألماً من هذا؟ وننوِّه هنا إلى أنَّه ينبغي ألاَّ نفهم القول عن الجحيم النَّاري فهماً حرفيّاً. فالروح التي تبقى لتعيش بعد موت الجسد الفيزيائي لا يمكن أن تحترق، لأنَّها ليست مادَّة. ولكنَّها تتألَّم، تعاني، وسوف تعاني دائماً إذا كانت مثقلة بأعمال لا تتوافق والإرادة الإلهيَّة، والشَّرائع التي سنَّت لنا من قبل الطَّبيعة، الإله.

وحتى يومنا هذا ثمَّة كثير ممن يتصوَّرون أنَّ مملكة السَّماء سوف تقوم إثر نهاية العالم، وبعد يوم الدينونة. وعندئذٍ فقط سوف يثاب الإنسان عن أعماله أو يدان بها.

فقد كتب م. يو. ليرمونتوف يقول: «هناك ديَّان رهيب، وهو ينتظر». ولكنَّ ليرمونتوف أخطأ في قوله، إنَّ الدَّيَّان ينتظر. فهو في حقيقة الأمر لا ينتظر، إنَّما يقاضي دون توقُّف، والمحكمة تعمل باستمرار، ومملكة السَّماء تقوم لكل إنسان في وقت مختلف، لكنَّ قيامها لا يتأخَّر لحظة واحدة. ولذلك عندما سئل المسيح: متى تقوم مملكة السَّماء؟ أجاب: إنَّ مملكة السَّماء أخذت تقوم. فهي تقوم بالنِّسبة لمن يقبل تعاليم المسيح، ويحب قريبه، ويصنع الخير للناس كلهم. يقول المسيح: إنَّ مملكة السَّماء كحبَّة الخردل التي زرعها صاحبها في حقله، وهي مع أنَّها أصغر البذور، إلاَّ أنَّها عندما تنمو تغدو أكبر المزروعات وتصير شجرة تأتي طيور السَّماء وتأوي بين أغصانها.

لقد كان الفريسيون والكتبيون يلاحقون المسيح في كل مكان لكي يكتشفوا تناقض تعاليمه مع شريعة موسى والتلمود. وهو ما كان يعطيهم الحجَّة الضرورية لتقديمه للمحاكمة، خاصَّة أنَّهم كانوا قد قرَّروا التَّخلُّص منه بأيِّ طريقة كانت ولم يكفُّوا عن نصب المكائد للإيقاع به. وعلى سبيل المثال، جاؤوه يوماً إلى المعبد بزانية أدركوها بالجرم المشهود. وحسب شريعة موسى كان يجب قتل المرأة رجماً بالحجارة. ولكنَّ الزَّمن تغيَّر. ولم يكن الفريسيون أنفسهم براء من الآثام، ولم تكن الشَّريعة تطبَّق في واقع الأمر. وسأل الفريسيون المسيح عن كيفية معاقبة الزانية حسب الشَّريعة. فقالوا له: يا معلِّم! لقد شوهدت هذه المرأة وهي تزني. وقد أوصانا موسى في الشريعة أنَّ مثل هؤلاء يرجمن. فما تقول أنت؟»

وفي هذه الحالة كان على يسوع أنْ يختار بين أمرين: إمَّا الإقرار بصحَّة شريعة موسى والقضاء على التَّاعسة بالموت رجماً، أو الاعتراف بخطأ الشَّريعة وإنقاذ الزَّانية. وبدا أنَّه ليس ثمَّة خيار ثالث. فأجابهم يسوع على سؤالهم بما يلي: مَنْ منكم بلا خطيئة فليكن أوَّل مَنْ يرميها بحجر. عندئذٍ ما لبث الحشد الهائج أنْ أخذ يتشتَّت، أمَّا المسيح فقد واصل عمله الذي كان يعمله. ولم يمضِ سوى بعض الوقت حتَّى بقي وحده مع الزَّانية. لقد كانت المسكينة منهكة ذاهلة. وعن هذا قال أوغسطين المغبوط: «لم يبقَ هناك سوى الكأداء والرَّحمة».

«يا امرأة! سأل المخلِّص، أين مَن اتَّهموك؟ لم يدنك أحد؟» «لا أحد يا رب». «وأنا لن أُدينك أيضاً. امضي ولا تأثمي بعد الآن».

وهكذا عاد الفريسيون بخفّي حنين. أمّا المسيح فقد أظهر مرّة أخرى أنّه «رحمة أُريد لا تقدمات». فالأمر الأهمُّ في تصرُّفات المسيح كلها، وفي تعاليمه كلها هو الولاء للرَّحمة، لعون الإنسان، لخلاصه، وليس الولاء لحرفيَّة الشَّريعة، والوصيَّة، والمحرَّمات. ومن لا يعرف كلمات المسيح القائلة: تعالوا إليَّ أيها المحتاجون وثقيلو الأعباء وأنا أريحكم. خذوا نيري على كاهلكم وتعلّموا منّي: لأنّي أنا وديع ومستكين القلب؛ وجدوا سكينة أرواحكم.

الفصل التاسع

الأسبوع الأخير
(أسبوع الآلام)

لقد جمَّ الأسبوع الأخير من حياة المسيح كل ما يتَّصف به البشر على وجه العموم؛ ففي أوَّل الأسبوع استقبلته الحشود لدى دخوله أورشليم مهلِّلة صاخبة مرحِّبة، وفي آخر الأسبوع عينه هاجت وطلبت من الوالي الروماني بيلاطس البنطي: «اصلبه، اصلبه». وليس تاريخ البشريَّة كله سوى تكرار لهذا السيناريو، يتبدَّل الأبطال وتبقى الحشود هي نفسها؛ الحشود التي لا تعي ماذا تفعل.

فلنتتبَّع إذن أحداث هذا الأسبوع الأخير بالتَّفصيل. مع حلول الفصح (وتحديداً قبله بأيَّام)، كانت الحشود البشريَّة تنحدر مع وادي الأردن باتِّجاه أورشليم. وهناك كان على كل منهم أنْ يطهِّر نفسه من كل دنس قبل بدء العيد العظيم. وكان الوافدون يقيمون في ضواحي المدينة في أكواخ مؤقَّتة يبنونها بأنفسهم.

وإلى أورشليم جاء أيضاً المسيح مع تلاميذه. وكانت المحكمة اليهوديَّة العليا، السيندريون، قد اتَّخذت قراراً سرِّيّاً بسلب يسوع حياته. وكانت قد تجمَّعت لدى السيندريون حجج قويَّة لاتِّخاذ مثل هذا القرار. وقد قامت أقوى تلك الحجج في أنَّ المسيح أثار الحشود، فأساء بذلك لسمعة السيندريون. وليس عبثاً أن اقتفى الفريسيون أثره كالجواسيس، بحثاً عن مختلف الذَّرائع. لقد انتهك المسيح السَّبت، ولم يلتزم بفريضة الصَّوم، واستهتر بمحرَّمات التلمود، وفريضة التَّطهُّر، و... كما كان يحذِّر علانية وفي كل مكان من خطر المدرسة الفريسيَّة، وخطر الالتزام الشَّكلي بشريعة موسى، على حساب روح هذه الشَّريعة. وتطلَّع أعضاء السيندريون إلى الحكَّام الرومان. فقال قيافا الذي كان وقتئذٍ رئيس الكهنة ورئيس السيندريون في الآن عينه، إنَّه من الأفضل أنْ يعاني فرد واحد بدل أنْ يقوم الرومان لتهدئة الحشود الثَّائرة، الأمر الذي سيؤدِّي بالضرورة إلى زهق أرواح كثيرة. لقد كان المسيح شخصيَّة غير مرغوب فيها على المستويات كلها. ولذلك بات التَّخلُّص منه أمراً مطلوباً. ولكنْ كيف؟ إذا ما جرى الالتزام بالإجراءات القانونيَّة المعمول بها، فالمسألة سوف تستغرق أشهراً

عدَّة. وهذا أمر غير مرغوب فيه. لقد كان المطلوب هو إزاحة يسوع دون إثارة صخب: تأجير أيٍّ قاتل. ولكنَّ هذا الاقتراح لم يلقَ إجماعاً لدى أعضاء السيندريون. أمَّا المسيح فقد مضى لملاقاة حتفه في أورشليم. وكان سرُّ قرار السيندريون بقتل المسيح قد ذاع، وعلم به الشَّعب والمسيح نفسه. فقد كان دائم التَّساؤل مع مجادليه من الفريسيين: «لماذا تسعون إلى قتلي؟».

لقد رغب المسيح في أنْ يقضي الأسابيع الأخيرة وحيداً، في عزلته يتواصل مع الإله فقط. فمضى خفية إلى مدينة أفرايم التي كانت تقع على أطراف البادية، وقلَّ مَنْ كان يعرفها. وكان معه تلاميذه بالتأكيد. وهكذا خرج من تحت أنظار الفريسيين، الأمر الذي أقضَّ مضاجعهم. فأصدروا أمراً يقضي بأنَّه على كل مَنْ يعرف شيئاً عن مكان وجود المسيح، إبلاغ السيندريون بذلك.

ولكنْ ما أنْ مضى بعض الوقت حتى ترك المسيح وتلاميذه مدينة أفرايم وتوجَّهوا إلى أورشليم للاحتفال بالفصح. وحسب الأناجيل أنَّ المسيح قال لتلاميذه في الطَّريق من أفرايم إلى أورشليم، إنَّه سوف يُسلَّم لرؤساء الكهنة وسيحكمون عليه بالموت؛ وقال أيضاً إنَّه سوف يُصلب ويقوم في اليوم الثَّالث. ولكنَّ التلاميذ لم يكونوا في حالة تسمح لهم بفهم ذلك كله. فهم مثلهم مثل الآخرين غيرهم كانوا ينتظرون المعجزة، معجزة قيام مملكة السَّماء على الأرض، لقد كانوا توَّاقين لرؤية المسيح ملكاً يهوديَّاً قويَّاً آمراً مسيطراً. ولكنَّ كلمات المسيح هذه خيَّبت آمالهم، ولم يشاؤوا أنْ يقبلوا هذا. فقد كانوا كالنَّاس العاديين الآخرين، ينتظرون حصولهم على مختلف الامتيازات والخيرات الماديَّة. فوالدة الرسولين يوحنا ويعقوب طلبت من المسيح أنْ يكون ولداها دون سواهما عن يمين المسيح وشماله في المملكة السَّماوية المرتقبة. وكان المسيح قد أمضى ثلاث سنوات كاملة في تواصل مستمرٍّ مع تلاميذه. فعلَّمهم التَّضحية، ومحبَّة القريب، والطَّاعة، ثمَّ لاقى في آخر طريقه مثل هذا المطلب. إنَّه الجهل التَّامُّ بجوهر تعاليمه. وما يؤسف له أنَّ تلاميذ المسيح أظهروا مثل هذا الجهل في غالب الأحيان. وفي هذه المرَّة قال المسيح لتلاميذه كلهم، إنَّ الشَّرف الأسمى يُكتسب بالوداعة الأسمى، وإنَّ سيِّد الكل في المملكة السَّماويَّة ينبغي أنْ يكون عبداً للكل. ومن الملائم أنْ نذكِّر بأنَّ مملكة السَّماء تقع بالنِّسبة للمسيح في داخل كل منَّا (إذا نجحنا في أنْ نبلغها بتحقيق الكمال الذَّاتي). لقد امتدَّت طريق المسيح إلى أورشليم عبر أريحا، المدينة الأزليَّة، ومعنى اسمها: «جنَّة الإله». وفي تلك الأزمنة كانت أريحا مدينة صاخبة تعجُّ بسكَّانها والوافدين إليها عبوراً باتِّجاهات شتَّى. وكان أكثر سكَّانها من رجال الدِّين والعشارين جباة الضَّرائب والأتاوات. هنا في أريحا كان العابرون إلى أورشليم يرتاحون قبل متابعة طريقهم، لأنَّ الطَّريق

من أريحا إلى أورشليم كانت مضنية. فلم تكن شمس الصحراء الحارقة وحدها بانتظار العابرين، بل اعتداءات قطّاع الطُّرق أيضاً.

وفي أريحا لم يتوقّف المسيح عند الكهنة المشهورين أحفاد هارون، إنَّما عند العشّار، وتحديداً عند كبير العشارين زاخي. وهنا خلا المسيح مع نفسه. فكم من مرَّة أعلن أنَّ الأصحَّاء لا يحتاجون إلى الطّبيب، إنَّما يحتاجه المرضى. وفي أكثر الأحيان نجح المسيح في «شفاء» هؤلاء المرضى، وباتوا أحسن حالاً بعد اللقاء معه. لقد هزَّ اختيار المسيح لزاخي مضيفاً له، هزّ الرجل إلى درجة أنَّه قال له: «يا سيِّد! سوف أُعطي نصف ما أملك إلى المحتاجين، وإذا ما كنت قد ظلمت أحداً ما فسأعوضه بأربعة أضعاف». هكذا كان يؤثّر المسيح في أرواح المرضى، دافعاً إيَّاهم إلى التوبة. وبتصرُّفه هذا يكون المسيح قد أعلن للنَّاس أنَّ الانتماء العرقي ليس الانتماء الرَّائد، أو العامل الحاسم المقرَّر. فقال لزاخي: «الآن جاء الخلاص إلى هذا البيت، لأنَّه ابن إبراهيم أيضاً» (ابن إبراهيم بمعنى الإيمان والأعمال، لا بمعنى الانتماء العرقي).

أمَّا الذاهبون إلى الفصح في أورشليم، فكانوا قد توقّفوا قبل ذلك على أطراف المدينة أو في ضواحيها. وكان المسيح قد توقّف في بيت عنيا عند أصدقائه في البيت الذي كان يحبُّه. وكانت تعيش في ذلك المنزل، الأختان ماريا ومارثا وشقيقهم أليعازر. وقبل ذلك ببعض الوقت كان المسيح قد أحيا أليعازر من الموت؛ وها هم سكّان البيت يستقبلونه بفرح عارم. لقد حدث ذلك قبل ستَّة أيَّام من الفصح، قبيل شروق شمس يوم الجمعة من الشَّهر الثَّامن للعام ٧٨٠ بعد تأسيس روما (وحسب تقويمنا المعاصر، يوافق هذا التَّاريخ ٣١ آذار من العام ٣٠م). (من المتَّفق عليه الآن أنَّ روما قد تأسَّست في العام ٧٥٣ق.م.، وإذا كان المسيح قد عاش ٣٣عاماً، فمعنى ذلك أنَّ الحدث المشار إليه هنا لم يقع في العام ٣٠م.، بل في العام ٢٣م.؛ أو علينا أنْ نعترف بأن المسيح ولد في العام ٣ ق. م، وهو ما يخالف كل منطق. م). وننوِّه هنا إلى أنَّ اليوم الجديد كان يبدأ مع شروق الشَّمس.

وذهب أنصار المسيح الذين شكلوا حشداً سار خلفه؛ ونزلوا في أطراف أورشليم، أمَّا هو فقد سكن في يوم السَّبت إلى الراحة. ولكنَّ وحدته لم تستمر. فقد ظهر مزيد من الفضوليين الجدد الذين لم يألفوا بعد حقيقة أنَّ أليعازر الذي استلقى أربعة أيَّام في القبر قد أعيد إلى الحياة منذ وقت قريب على يد المسيح وهو يجلس معه الآن إلى مائدة العشاء. فالحدث هزَّ الكثيرين بقوَّة، وزادت أعداد أنصار المسيح. الأمر الذي زاد من سخط الحزب الحاكم في أورشليم.

وهنا في بيت عنيا وقعت قبيل بدء العشاء بقليل واقعة عكسها الرَّسَّامون استناداً إلى النَّصِّ الإنجيلي في عدد من اللّوحات. فقد سكبت ماريا أخت أليعازر على رأس المسيح ثمَّ على

قدميه زجاجة من العطر الهندي الفاخر الثَّمين، ومسحتهما بجدائل شعرها. فأثار فعلها هذا تذمُّر الأسخريوطي الذي قال: لماذا لم نبع هذا العطر الثَّمين بثلاث مائة دينار ونوزِّعها على المحتاجين؟ فقال المسيح ردّاً على ذلك: لماذا تكدِّر المرأة؟ دعها، فإنَّها عملت لي عملاً طيِّباً. فالفقراء معكم دوماً، أمَّا أنا فلست معكم دائماً. لقد وفَّرت هذا العطر ليوم دفني». وهكذا نوَّه المسيح مرَّة أخرى إلى موته المرتقب على الصَّليب. وفي تلك اللَّيلة ذهب يهوذا الأسخريوطي بمفرده إلى أورشليم، وجاء إلى بيت قيافا (في مقرِّ اجتماع كبار الكهنة)، وعرض خدماته لإلقاء القبض على المسيح. ولكنَّ القضاة لم يكونوا يميلون إلى استعجال الأحداث ومزامنة محاكمة يسوع مع مناسبة الفصح التي تمتلئ أورشليم خلالها بالحجاج.

ومن بيت عنيا توجَّه يسوع وتلاميذه إلى أورشليم. وكان اليوم هو يوم الأحد (مع غياب الشَّمس انتهى يوم السَّبت). ويدعى يوم الأحد هذا في أيَّامنا هذه «أحد الشعانين». وبعد أنْ قطع الرَّكب بعض الطَّريق، أرسل المسيح الرسولين بطرس ويوحنا في مهمَّة إلى القرية المجاورة ليأتياه بأتان وجحش ابن أتان من أيِّ مكان كان. وإذا ما سئلا: لماذا تفعلان هذا، كان عليهما أنْ يجيبا: «الرَّبُّ يريدهما». وقد قام الرسولان بعملهما خير قيام وعادا ومعهما الحيوانان. فألقى التلاميذ أرديتهم عليهما رمزاً للتَّشريف الملكي: لقد كان يجب أنْ يركب المسيح على جحش فتي. فالجحش رمز السَّلام. ولذلك اختاره المسيح من بين الحيوانات الأخرى كلها. وكان النَّبي زكريا قد كتب عن مجيء الميسيا:

﴿اِبْتَهِجِي جِدّاً يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ.﴾

(زكريا ٩:٩)

وعلى طريق موكب المسيح أخذ النَّاس يخلعون ملابسهم ويفرشون بها طريقه، ورموا أمامه أغصان التِّين، والزيتون، أو أشجار الكستناء. وفي أثناء ذلك كان الشَّعب يهتف: «أفسحوا الطَّريق لابن داود! مبارك الآتي باسم الرَّبِّ! افسحوا في الأعالي!» هكذا استقبل الشَّعب مخلِّصه. وتابع الموكب طريقه حتى سفوح جبل موريا، لأنَّه لم يكن مسموحاً بأبعد من ذلك. فتفرَّق الحشد، ودخل المسيح إلى المعبد. وكرَّر فيه ما كان قد فعله منذ ثلاث سنوات خلت: أخلا المعبد من التُّجَّار والباعة. ثمَّ بدأ موعظته. ومع انتهاء الموعظة والجدال انسحب المسيح من المعبد خلسة. واعتزل خلف أسوار المدينة تحت حراسة تلاميذه وأتباعه. يقول الإنجيل: خرج إلى خارج المدينة، إلى بيت عنيا مع التَّلاميذ الاثني

عشر». ويرى الباحثون أنَّهم لم يصلوا إلى بيت عنيا نفسها، إنَّما مكثوا وباتوا ليلتهم في العراء.

وفي صباح اليوم التَّالي، يوم الاثنين، ظهر المسيح وتلاميذه في المعبد من جديد. فقابلهم الوجهاء بعدوانيَّة: رؤساء الكهنة، والكتبيون، والرَّابيُّون، وباقي ممثِّلي طبقات السيندريون. وكان لهؤلاء كلهم هدف وحيد: إلقاء الرُّعب في قلب النَّبي المسكين الجاهل الذي خرج من المدينة المحتقرة: النَّاصرة؛ إلقاء الرُّعب في قلبه أمام وفد من كبار الوجهاء ذوي السلطة الحقيقيَّة. فسألوه: «بأي سلطان تفعل هذا كله؟ ومَنْ منحك مثل هذا السُّلطان؟» وقد قصدوا بذلك دخوله الاحتفالي إلى أورشليم، وإخلاء المعبد من التُّجَّار، ومواعظه عن رسالته بصفته ابن الإله. ولكنَّ الوفد المهيب لم يزحزح المسيح بأسئلته الآمرة. فقال لهم بحضور روحي لا مثيل له، إنَّه سوف يجيب على سؤالهم إذا هم أجابوا على سؤاله: «من أين جاءت معمودية يوحنا، من السَّماء أم من الإنسان؟» وكان يوحنا قد أقرَّ بأنَّ يسوع هو المسيح المخلِّص. ولكنَّ محاوريه لم يعترفوا بيوحنا المعمدان. ولذلك لم يعطوا إجابة، وبذا يكون المسيح قد أعفى نفسه من الإجابة على سؤالهم أيضاً. وتابع يعرض تعاليمه عبر الأمثال؛ أما الفريسيون والكتبيون فقد انسحبوا واجتمعوا ليقرِّروا ما ينبغي عليهم فعله للاقتصاص منه.

وفي اليوم التَّالي (الثُّلاثاء) جاء المسيح إلى المعبد مع تلاميذه مرَّة أخرى. وكان قد قال لتلاميذه وهم في الطَّريق إلى المعبد، إنَّ التَّسامح مفتاح كل شيء فالطَّريق إلى الإيمان بالإله تمتدُّ عبر مغفرة الخطايا، وسرّ الصلاة المقبولة يكمن في الإيمان. وقال لهم أيضاً، إنَّ مَنْ لا يعرف كيف يغفر للآخرين، لن يعطى قوَّة، ومَنْ لا يغفر لن يُغفر له. وفي المعبد حاول الفريسيون مرَّة أخرى أنْ يصطادوه على تناقض ما مع الشَّريعة. فقالوا له: «قل لنا، هل تجوز تأدية الجباية لقيصر أم لا؟ فأجابهم قائلاً: مالكم توسوسون أيها المراؤون؟ أروني النقود التي تؤدَّى جباية». وإذ أروه واحدة سألهم: «ما هذا الرَّسم وهذا الختم؟» «لقيصر»، أجابوه. فأجابهم بقوله الشَّهير: «إذن، أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للإله للإله». وسألوه: ما هي الوصية الأعظم في الشَّريعة؟ فسمَّى لهم المسيح اثنتين عدَّهما أعظم الوصايا: «الرَّبُّ إلهكم ربٌّ واحد»، و«أحبب قريبك كما تحبّ نفسك». فحبُّ الإله يولِّد حبَّ الإنسان، حبَّ القريب، وتحتوي هاتان الوصيَّتان عل الوصايا الأخرى كلها. وهكذا باءت محاولات الفريسيين لحشر المسيح في الزَّاوية، كلها بالفشل. وهذا ما جعل حقدهم عل المسيح أعظم. وبعد تلك المحاولات ترك المسيح المعبد إلى الأبد. وبينما كان يغادر المعبد لفت تلاميذه انتباهه مرَّة أخرى إلى

عظمة المعبد. أمَّا بالنِّسبة للمسيح فقد كان جمال المعبد الوحيد في نقاء قلوب المصلّين فيه وصدق إيمانهم.

بعد ترك المسيح وتلاميذه المعبد ذهبوا إلى بيت عنيا. وفي الطَّريق أخذ المسيح يعلّم تلاميذه الموضوع الرَّئيس في تعاليمه. فقال: أنْ تخدم الإله يعني أنْ تخدم الآخر، أنْ تساعد الآخر في محنته، أنْ تتعامل معه كما لو كنت تتعامل مع نفسك، أنْ تكون متسامحاً وتصفح عن أخطاء الآخرين.

﴿كل مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ﴾.

(لوقا ١٤ : ١١)

﴿وَلَمَّا سَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: مَتَى يَأْتِي مَلَكُوتُ اللهِ؟ أَجَابَهُمْ: لاَ يَأْتِي مَلَكُوتُ اللهِ بِمُرَاقَبَةٍ وَلاَ يَقُولُونَ: هُوَذَا هَهُنَا أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ﴾

(لوقا ١٧ : ٢٠-٢١)

وفي آخر الأمر قال المسيح لتلاميذه: أنتم تعلمون أنَّ الفصح بعد يومين، وابن البشر سوف يسلّم لكي يصلب.

لقد عاد المسيح إلى بيت عنيا ومعه تلاميذه، أمَّا أعداؤه الفريسيون، والصدوقيون، والهيروديون، والكهنة، والكتبيون، والشيوخ فقد فاض كيل حقدهم عليه. فتعاليمه كانت تهدِّد وجودهم. وكان قد قال في المعبد: الويل لكم أيها الفريسيون والكتبيون، وقد أدرك هؤلاء أنَّ ما قال حقّ. فعقدوا اجتماعهم من فورهم وأظهروا فيه وحدة نادرة في المسألة الرئيسة: يجب أنْ يموت يسوع. وحضر ذلك الاجتماع يهوذا الأسخريوطي.

وقضى يسوع يوم الأربعاء في وحدة عميقة، في سكينة وصمت. لقد كان يدرك ما الذي كان ينتظره، وكان يستعدُّ روحيّاً في صلاته وسكينته، للأهوال التي تنتظره. فمشى يتجوَّل على أطراف القرية وفوق مرتفعاتها يحادث أباه السماوي. ويوم الخميس أرسل بطرس ويوحنا إلى أورشليم لكي يبلغا صاحب بيت حدَّده لهما، بأنَّه سوف يحتفل وتلاميذه بالفصح عنده. والحقيقة أنَّ المسيح حدَّد ذلك الاحتفال قبل حلول الفصح اليهودي. ولذلك كانت تلك الأمسية تختلف عن الفصح اليهودي لا بتوقيتها فقط، بل بجوهرها أيضاً، وبتنظيمها كذلك. فقد كان ينبغي أنْ تتحوَّل تلك الأمسية إلى احتفال أكثر سموّاً

وأعمق مغزى. وعرفت هذه الأمسية بالعشاء السرِّي، التي عكسها كثير من الرَّسَّامين في أشهر لوحاتهم.

وسمِّيت الأمسية سرِّيَّة لأنَّ المسيح وتلاميذه جاؤوا تحت جنح الظَّلام إلى العلِّيَّة التي كانت جهِّزت بما يلزم من موائد ومضَّجعات. وكانت تنتظرهم مائدة معدَّة في «علِّيَّة كبيرة». وكان كل مضجع قد أُعدَّ لثلاثة أشخاص معاً. وتوزَّعت المضجعات حول المائدة من جهات ثلاث. وربَّما لم تكن تلك المائدة قد مدَّت على منضدة واحدة، إنَّما على عدد من الموائد الصغيرة الخشبيَّة الملوَّنة، التي لم تكن ترتفع عن المضجعات إلا قليلاً. وكان ثمَّة في وسط الجلسة مقعد تشريفي جلس عليه المسيح. وكان الاستلقاء يعدُّ في تلك الأزمنة طريقة جلوس الأحرار: كانوا يتمدَّدون على طول الجسم ويتكئون على اليد اليسرى وتبقى اليد اليمنى حرَّة. وفي هذا السياق خالفت اللوحات الفنِّيَّة كلها الحقيقة، بما فيها لوحة «العشاء السري التي رسمها ليوناردو دافنشي. فالواقع الحقيقي كان مغايراً تماماً لما عكسته اللوحات. وعلى وجه العموم فإنَّ كل ما انعكس في اللوحات الفنِّيَّة من مشاهد حياة يسوع المسيح مخالف لواقع الأشياء. وهذا لا يساعد أبداً على فهم جوهر تعاليمه. ومع أنَّ هذا الكذب الفنِّي كذب بريء، إلاَّ أنَّه لا يخدم القضيَّة المسيحيَّة.

وقد أظهرت بداية الأمسية مدى ضعف الإنسان، فالنَّاس الذين كان يسوع يعلِّمهم كل يوم على مدى ثلاث سنوات، هؤلاء الذين لم يسمعوه وحسب، بل تنفَّسوا معه الهواء نفسه، أخذوا يتشاجرون على الأماكن القريبة من مقعده. فروح الاعتداد بالنَّفس وحبُّ الذَّات روح شرير قابع عميقاً في النَّفس الإنسانيَّة، وليس استئصاله بالأمر السَّهل. ولم يعلِّق المسيح على مهاترة تلاميذه بخصوص الأماكن الأولى بالكلام، إنَّما بالفعل. فخلع رداءه الخارجي وأخذ منشفة تمنطق بها، وغسل أقدام تلاميذه واحداً واحداً. والحقيقة أنَّ مثل هذا التَّقليد كان معروفاً زمنئذٍ، ولكنَّ العبيد هم الذين كانوا يقومون بهذا العمل. أمَّا هنا فإنَّ المعلِّم نفسه هو الذي أخذ على عاتقه القيام بذلك. لقد أظهر لهم إن التواضع ونكران الذَّات أُس تعاليمه. ثم شرح لهم مغزى ما قام به هكذا:

«أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ

أَرْجُلَ بَعْضٍ ✿لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً.﴾

(يوحنا ١٣: ١٣-١٥)

ومن حيث الجوهر فإنَّ ما قاله المسيح وما فعله معناه أنَّ مَنْ يؤمن بتعاليمه حقَّ الإيمان يجب أنْ يكون هو الأكثر تواضعاً، وهو الأوَّل بين أولئك الذين يأخذون على عاتقهم أثقل الأعباء، ويباشرون أكثر الأعمال ضعة دون أنْ يطلبوا مكافأة زمنيَّة.

لقد كان المسيح يعلم أنَّ تلميذه يهوذا الأسخريوطي سوف يخونه. وأعلن ذلك أمام جميعهم دون أنْ يسمِّي أحداً بعينه:

﴿لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هَذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ وَشَهِدَ وَقَالَ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي.﴾

(يوحنا ١٣: ٢١)

فبهت جميعهم وأخذوا يتساءلون: مَنْ منهم. وإذ سأله الأسخريوطي: ألست أنا يا رابِّي (= يا معلِّم)؟، أجابه يسوع: «أنت قلت»، ثمَّ تمهَّل قليلاً وقال ليهوذا بصوت عالٍ: «عجِّل بفعل ما تفعله». فنهض الأسخريوطي تاركاً المائدة وغاص في اللَّيل. فقال المسيح: إنَّ ابن البشر يسير إلى ما كتب عنه، ولكنَّ الويل لذلك الإنسان الذي سوف يخون ابن البشر، فمن الخير له لو لم يولد قط.

وحدث في أثناء العشاء السرِّي حدث آخر كانت له أهميَّته أيضاً: الإفخارستيا الأولى، القربان المقدَّس الأوَّل. وقد وصف الرسول بولس هذا السرَّ المقدَّس على الوجه الآتي:

﴿✿لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضاً: إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا أَخَذَ خُبْزاً ✿وَشَكَرَ فَكَسَّرَ وَقَالَ: خُذُوا كلوا هَذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمْ. اصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي. ✿كَذَلِكَ الْكَأْسَ أَيْضاً بَعْدَمَا تَعَشَّوْا قَائِلاً: هَذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هَذَا كلمَا شَرِبْتُمْ لِذِكْرِي✿﴾

(الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١١: ٢٣-٢٦)

واختتم العشاء السرِّيَّ بإنشاد المزامير. وبعد ذلك توجَّه يسوع وتلاميذه إلى بستان جثسيماني. وكلمة «جثسيماني» تعني: «معصرة الزيتون». وقال المسيح لتلاميذه في الطَّريق إلى هناك، إنَّ جميعهم سيتخلَّى عنه في هذه اللَّيلة. وقال لبطرس: سوف تنكرني قبل صياح الدِّيك ثلاث مرَّات. وهذا ما حصل.

وفي البستان ترك يسوع تلاميذه لكي يمرحوا، وابتعد قليلاً مع بطرس ويعقوب ويوحنا لكي يصلّي. وقال لهم: روحي جزعة حتى الموت؛ ابقوا هنا يقظين. لقد كان يسوع يعرف الذي ينتظره. فصلّى بلهفة وعمق وتوسّل الإله قائلاً: يا أبي! أبعد هذه الكأس عنّي إذا كان ذلك ممكناً؛ ولكنْ ليكن كما تريد أنت لا كما أريد أنا.

ولمّا عاد إلى بطرس ويعقوب ويوحنا وجدهم نياماً مع أنّه طلب إليهم أنْ يبقوا يقظين. فقال: «سمعان، أنت نائم؟ ألا تستطيعون أنْ تبقوا ساعة واحدة يقظين معي؟ استيقظوا وصلّوا كي لا تقعوا في الضّلال. فالروح يقظة، أمّا الجسد فعاجز. ثمّ تركهم وابتعد ليصلّي، ولمّا أنهى صلاته وعاد، وجدهم نياماً أيضاً. وتكرّرت الحال عينها في المرّة الثّالثة كذلك. حقّاً إنّ الجسد لعاجز إذا كانت فيه روح ضعيفة! ولمّا وجدهم نياماً في المرّة الثّالثة قال لهم: أما زلتم راقدين نائمين؟ طبعاً قد أتت الساعة، وها هو ابن البشر يُسلّم للأشرار. انهضوا ولنمضِ: ها هو الذي سيسلّمني يقترب». وفي اللّحظة ظهر يهوذا الأسخريوطي. فسمع صليل السيوف، ووقع أقدام متعجّلة، وصخب حشد يقترب. وكان يهوذا على رأس المسيرة كلها. فسأله المسيح: «لما أتيت يا صديقي؟!» فأجابه يهوذا: «بالأحضان يا رابّي!» وقبّله. وكانت تلك القبلة هي الإشارة المتّفق عليها بين يهوذا والحرّاس: خذوا الذي أقبّله وكونوا حريصين. فقال له المسيح: يهوذا أبقبلة تخون ابن البشر؟ ثم خاطب الحرّاس: من تطلبون؟ فأجابوا: يسوع النّاصري، فقال المسيح: أنا هو.

فلجم الخوف ألسنتهم. فكرّر المسيح سؤاله. وبعد ذلك قال: «قد قلت لكم: أنا هو». وإذا كنتم تطلبونني أنا فأطلقوا هؤلاء إلى حال سبيلهم». ولكنْ بعد لحظة الخوف الأولى، تشجّع الحشد وتواقح. فخاطبهم يسوع قائلاً: «كأنكم خرجتم على قاطع طريق بالسيوف والحراب، لقد كنت معكم في المعبد كل يوم، ولم ترفعوا عليّ يداً؛ لكنّ اللحظة لكم وسلطان الظّلام». وفي تلك اللّحظة ترك التلاميذ معلّمهم، بمن فيهم بطرس ويوحنا التلميذ الحبيب.

أمر القائد الروماني بتقييد يدي يسوع وقادوه إلى بيت رئيس الكهنة. ومع أنّ قيافا هو الذي كان رئيس الكهنة في ذلك الوقت (كان نائب القاضي الروماني هو الذي يعينه)، إلاّ أنّ حماه حنانيا هو الذي كان الشخصيّة الأقوى نفوذاً في حزب الكهنة، وكان هذا هو رئيس الكهنة سابقاً لكنّهم أزاحوه. ولذلك قادوا المسيح إليه ليحقّق معه أوّلاً. وهنا سألوه عن تعاليمه وتلاميذه. فردّ قائلاً: لقد تحدّثت علناً أمام النّاس، وعلّمت دائماً في المعابد، والمعبد حيث يجتمع اليهود، ولم أقل أيّ شيء في

الخفاء، فلما تسألني؟ اسأل السامعين عمَّا قلته لهم، فإنَّهم يعرفون ما قلته. فصرخ به أحد المحقِّقين قائلاً: أهكذا تجيب رئيس الكهنة؟ وقام وصفعه على وجهه. فتجاوز يسوع الإهانة بوداعة وقال بهدوء: إذا كنت قد قلت ما يسيء، فأرني أين السوء، وإذا كنت لم أسئ، فلما تضربني؟

بعد هذا التحقيق قادوا يسوع عبر الفناء إلى تحقيق آخر عند رئيس الكهنة الشَّرعي يوسف قيافا. وما يجدر أنْ ننوِّه إليه هو أن قيافا كان صدُّوقيّاً، وكذلك حنانيا. وقد حاولوا هنا أنْ يلصقوا بيسوع تهمة انتهاك الشَّريعة اليهوديَّة وعدم الالتزام بها دائماً. ولتأكيد ذلك أعدُّوا شهود زور. وفي آخر المطاف تحوَّل قيافا إلى مسعور حقيقي صاح في وجه يسوع قائلاً: «أنت هو المسيح ابن الإله؟» فأجاب المسيح بالإيجاب. وعدت إجابته هذه كافية لإثبات واقعة التَّجديف. فصاح قضاة السيندريون الحاضرون: «محكوم بالموت». وانتهى التَّحقيق القضائي الثَّاني مع يسوع.

وهاكم ما قاله بمرارة عالم درس سيرة حياة يسوع المسيح: «هكذا استقبل اليهود أخيراً ميسيّهم الموعود، الذي انتظروه بأمل متَّقد طول ألفي عام، فدفعوا جزاء ذلك ألفي عام أخرى من المرارة والذُّلِّ».

وحسب القضاء اليهودي كان الحكم بالإعدام يعني الرَّجم بالحجارة حتى الموت. ولكنَّ تنفيذ حكم الإعدام لم يكن من صلاحياتهم، فقد كان ذلك يفترض قراراً من نائب القاضي الروماني (الوالي. م.). وبمعنى أدق كان الأمر يتطلَّب قراراً من المحكمة القضائيَّة (التي كانت تحكم وفق القوانين الرومانيَّة)، وقراراً من اجتماع السيندريون بكامل أعضائه. ولكنَّ الاجتماع اللَّيلي للسيندريون لم يحضره الأعضاء كلهم. أمَّا اجتماع هيئة القضاء والسيندريون فقد كان ينبغي حسب القانون إن يلتئم نهاراً. ومع طلوع النَّهار تعرَّض المسيح لمختلف ضروب الإهانات والإذلال.

وهكذا قادوا المسيح إلى مقرِّ حراسة الفوج الروماني. وهنا ضربوه بالعصي واللكمات. وعصبوا عينيه بعصابة وأخذوا يضربونه ثمَّ يسألونه هازئين: «احزر من ضربك أيها الميسيا؟» وهكذا بقي ذلك الحشد الجاهل الشرِّير الوقح، الذي صدمته عظمة موقف يسوع وتفوُّقه، بقي يلهو ويهزأ بمن حشد في نفسه أفضل ما يمكن أنْ يكون عليه الإنسان. وهكذا تتعامل هذه الدهماء اليوم مع صفوة الصَّفوة.

في حوالي السَّاعة السَّادسة صباحاً توقفت عمليَّة تعذيب المسيح: لقد وقف الآن أمام الاجتماع الكامل لأعضاء السيندريون. وصوتت الأكثريَّة العظمى من الحاضرين لصالح

إنزال عقوبة الموت به. ولكنَّ القانون كان يحول بينهم وبين تنفيذ الحكم، إلاَّ بعد أنْ تصدر السلطات الزَّمنيَّة قراراً بذلك. وقد أصدرت محكمة السلطة الزَّمنيَّة قرارها بإعدام يسوع. وكان ينبغي أنْ يصدِّق هذا القرار الأخير البروكوراتور (نائب القاضي. م.). الروماني. وبعد هذه المحاكمة الأخيرة انهالوا على المسيح بسيل آخر من التَّهكُّم والهزء شارك فيه الآن الكهنة والشيوخ، صفوة الشَّعب.

وقاد أعضاء السيندريون يسوع إلى البروكوراتور بيلاطيس البنطي. مغلول اليدين مربوطاً بحبل من عنقه. وكان هذا الإذلال كله قد مورس بحقِّ شخص لم يُدَنْ بعد. وبعد أنْ حقَّق بيلاطس مع يسوع وجده غير مذنب. وهل يمكن أنْ يدان شخص لأنَّه أعلن نفسه ملكاً يهوديًّاً في عالم غير هذا العالم. وبناء على ذلك أصدر بيلاطس قراره الأوَّل بتبرئة يسوع: «لا أرى أنَّه مذنب في شيء». ولكنَّ أعداء المسيح لم يستسلموا. وألحُّوا على حكم بالإعدام. فأرسل بيلاطس يسوع إلى مقرِّ هيرودوس حاكم الجليل، الذي كان يحتفل بالفصح في أورشليم. فازدراه هيرودوس مع متهتكيه ومرتزقته، وسخر منه. وألبسه حلَّة احتفاليَّة تثير الضَّحك، ثمَّ ردَّه إلى بيلاطس. ومرَّة أخرى حقَّق بيلاطس مع يسوع ووجده بريئاً: «وأيُّ شرٍّ فعله هذا؟»، أنا لا أرى أنَّه فعل شيئاً يستحقُّ بسببه الموت؛ وهكذا أُعاقبه، ثمَّ أُطلقه». وكان العقاب جزءاً من إجراءات الإعدام. فاقترح بيلاطس الاكتفاء به. ولكنَّ الدهماء المسعورة ما فتئت تصرخ: «الموت له! أطلق لنا باراس! اصلبه، اصلبه!» والأمر هنا هكذا: حسب التَّقليد كان بيلاطس يعفو كل عام إكراماً للفصح، عن واحد من ثلاثة محكومين بالإعدام. فاقترح العفو عن يسوع. لكنَّ الجميع طالب بصلبه والعفو عن قاتل دموي. وأذهَلَ وقار يسوع الإلهي، وعظمته الإلهيَّة ووداعته، بيلاطس. لقد كان يسوع يقف إلى جانب بيلاطس بردائه الأرجواني الممزَّق المدمَّى، وعلى رأسه الإكليل الذي انغرزت أشواكه في رأسه، كان منهكاً حتَّى الرَّمق الأخير. فحدَّق بيلاطس به وندَّت عنه صيحة لا إراديَّة: «هذا الإنسان!».

فألحَّت الدهماء على صلبه خاصَّة لأنَّه كان إنساناً. فهي تسعى بدأب للتَّخلُّص من كل مَنْ يتفوَّق عليها بالنُّبل والفضيلة، الإنسانيَّة، والاجتهاد. وواصلت زعيقها: «اصلبه».

فأجاب بيلاطس باشمئزاز ظاهر: خذوه أنتم واصلبوه، فإنِّي لا أرى فيه أيَّ ذنب». لقد كانوا يؤكِّدون على صحَّة موقفهم استناداً إلى شريعتهم: «إنَّ لدينا شريعة، وحسب

شريعتنا يجب أنْ يموت، لأنَّه جعل نفسه ابن الإله». ومرَّة أخرى يقود بيلاطس يسوع إلى مقرِّ المحكمة ويسأله: «من أين أنت؟» لكنَّ المسيح صمت. فأغاظ صمته بيلاطس الذي صرخ في وجهه قائلاً: «ألا تجيبني أنا؟ ألا تعرف أنّي أملك السلطة لصلبك، أو إطلاقك؟ ويبدو أنَّ يسوع أحسَّ بميل إلى بيلاطس، الذي ظهر أنَّه لا يملك سلطة حماية العدالة والحق. فأجابه بهدوء: «ما كان لك عليَّ أيَّ سلطة لو لم تُعطى لك من فوق؛ وفي هذا الأمر يقع الإثم الأعظم على مَنْ سلَّمني لك». وكان بيلاطس يعرف أنَّ يسوع على حقٍّ، وأحسَّ بتفوُّقه. فزادت رغبته لإنقاذه. وجاء مرَّة ثالثة إلى مكان المحاكمة أمام الجمع وقام بمحاولته الأخيرة. فخاطب الحشد قائلاً: «هذا هو ملككم»، فانفجر الجمع بصراخ كالعاصفة: «اصلبه». «أأصلب ملككم؟» فتلقَّى من الحشد جعجعة تقول: «ليس لنا ملك سوى قيصر!».

لقد كان صراخ رؤساء الكهنة والصدوقين يعلوا على الأصوات الأخرى كلها. وكان هؤلاء مستعدين لأيِّ شيء في سبيل أنْ يتخلَّصوا من يسوع. فهاجم رؤساء الكهنة بيلاطس وصاحوا مع الدهماء قائلين: «إنْ أطلقته فلست صديقاً لقيصر!». وأخيراً رمى بيلاطس أسلحته خوفاً على مستقبله الوظيفي، وربَّما حفاظاً على حياته، وخرج من اللُّعبة كلها. فأمر أنْ يأتوه بماء، وغسل يديه أمام الحشد قائلاً: «لست مذنباً في سفك دم هذا الصِّدِّيق؛ فانظروا أنتم!» فأجابه اليهود بعويل: «دمه علينا وعلى أبنائنا...». وهكذا استسلم بيلاطس وأرسل يسوع ليصلب.

وسارت إجراءات الصَّلب على الوجه الآتي: نزعوا عنه رداءه العسكري الذي ألبسوه له في مقرِّ حرس الفوج الروماني عندما هزؤوا به وجعلوه ملكاً، وأعادوا له رداءه الأوَّل. وصوَّرت لنا اللوحات الفنِّيَّة صليباً ضخماً طويلاً. لكنَّ المتخصصين يؤكِّدون أنَّ هذا لا يوافق الواقع. فلم يكن الصليب بذلك الحجم، ولا مصنوعاً بذلك الإتقان. بل لم يكن المصلوب يُرفع فوق الأرض كما ظنُّوا، بل كان يبقى على الأرض تقريباً. وكان مباحاً لمن يشاء أنْ يتهكَّم قدر ما يريد على المحكوم، فيضربه، ويتفل عليه و... وهذا ما عانى منه يسوع أيضاً. أمَّا مكان الصَّلب فهو الجلجثة. وحمل صليب يسوع من بوَّابات المدينة حتى مكان الصَّلب شخص يدعى «سمعان القيرواني، والد الإسكندر، وروف».

وعيَّن بيلاطس فرقة من الجنود لتنفيذ الحكم. لقد كانت أورشليم تعجُّ بالحجاج. فاجتمع لمتابعة المشهد كثير من الفضوليين إلى جانب أعداء يسوع اللدودين.

ولكن كان هناك من كان متعاطفاً مع المسيح أيضاً، بخاصَّة النِّساء فقد تأثَّرن أشدَّ التأثر للجريمة التي كانت ترتكب، فلطمن صدورهنَّ وانتحبن بانفعال شديد. ولكنْ سرعان ما وضع يسوع حدّاً لذلك المشهد الذي يقطِّع القلب. فقال لهنَّ: يا بنات أورشليم! لا تبكين عليَّ، بل ابكين على أنفسكنَّ وأطفالكنَّ، لأنَّه تأتي أيَّام سيقولون فيها: طوبى للعاقرات والبطون التي لم تلد، والصدور التي لم ترضع. عندئذٍ سيقولون للجبال: اسقطي علينا وللتِّلال: غطِّنا. لأنَّه إذا كانوا قد صنعوا هذا مع الشجرة المورقة، فما الذي سيحدث لليابسة إذن؟

وعلى الصليب من فوق، فوق رأس يسوع مباشرة ثبتت لوحة كتب عليها بالرومانيَّة، والإغريقيَّة، واليهوديَّة: «الملك اليهودي». وفي الطَّريق إلى الجلجثة حمل الجنود الرومان تلك اللوحة. ولم تكن الجلجثة جبلاً كما عدُّوها عادة، بل مجرَّد مكان لتنفيذ أحكام الإعدام. ودعي المكان جبينيَّاً لأنَّه كان عبارة عن مرتفع مستدير يشبه شكله شكل الجبين. أمَّا جبل الجلجثة الصَّخري الذي نراه في اللوحات الفنِّيَّة كلها، فلا يشبه واقع الأشياء قط. وليس لمثل هذا الجبل وجود في ضواحي أورشليم. ولا نعرف أين يقع بالضَّبط مكان الجلجثة هذا اليوم. فما هو موجود مجرَّد تخمينات وحسب. ولا يمكن لمن يعتنق تعاليم المسيح بحق، أنْ يعطي أهمِّيَّة رئيسة للقرائن المادِّيَّة لحياته وأعماله. فقد علَّم المسيح نفسه بأنَّ المعبد المادِّي ليس هو المعبد الرَّئيس، إنَّما المعبد الذي في روحنا، في داخلنا هو المعبد الأهمُّ. «إنَّ مملكة الإله في داخلكم». ولذلك ينبغي ألاَّ نعطي كبير أهمِّيَّة للتَّفاصيل ذات الطَّابع المادِّي، ونتساءل أين؟ ومتى؟

فثمَّة لحظتان بارزتان مرتبطتان بحدث الإعدام. أوَّلاً، لقد كان متعارفاً عليه عند الرومان أنْ يُطعن المصلوب طعنة غير قاتلة في خاصرته، لكنَّها تعجِّل بموت المحكوم وتقصِّر أمد آلامه. وكانوا يفعلون ذلك عادة مع بدء الإعدام. ولكنَّنا لا نعرف لماذا لم يلتزموا بهذا العرف وقتئذٍ. ثانياً، في التنويعة اليهوديَّة للإعدام صلباً كانوا يقدِّمون للمحكوم فور تعليقه على الصَّليب رشفة نبيذ ممزوج بمادَّة مخدِّرة شديدة الفعاليَّة. وكانوا يفعلون ذلك مع كل مجرم بصرف النَّظر عن موقفهم منه. فقد كان ثمَّة مجرمان عن يمين المسيح ويساره. وقد شرب هذان المخلوط الذي قُدِّم لهما. أمَّا المسيح فرفض ذلك المشروب، مع أنَّه كان يعرف أنَّ ذلك كان يمكن أنْ يخفِّف عنه آلام الاحتضار؛ لكنَّه فضَّل أنْ ينظر إلى الموت وجهاً لوجه، وأنْ يعيش رعب تلك اللَّحظة دون نقصان، وأنْ يتجرَّع كأسه حتى آخر قطرة.

عندما رفع يسوع على الصَّليب، وغدا جسده مستنداً إلى نقاط جراحه الأربع، وهو على تلك الحالة من الآلام الممضَّة توجَّه إلى الرَّبِّ الإله متوسِّلاً لأولئك الذين صلبوه وقتئذٍ، وللذين صلبوه في الأزمنة كلها حتى يومنا هذا، فقال: «يا أبتي، اغفر لهم لأنَّهم لا يعرفون ماذا يفعلون».

وقبيل الصَّلب عبر المكان حشد، وكان لكل حرِّيَّة الهزء من المحكوم. وتهكَّمت على المسيح الغوغاء ورؤساء الكهنة، والكتبيون والشيوخ. فاقترحوا عليه ساخرين أنْ ينزل عن الصَّليب، ويخلِّص نفسه و... وتمازحوا فيما بينهم قائلين: «لقد أنقذ الآخرين، وعجز عن إنقاذ نفسه. المسيح ملك الإسرائيليين فلينزل الآن عن الصَّليب لكي نرى ونؤمن». ولم يتخلَّف عن مهرجان التَّهكُّم حتى الجنود الرومان، بل والمصلوبان معه كذلك. فأثناء احتضاره لم يسمع يسوع أيَّ كلمة تعاطف أو مواساة. لقد بيَّن النَّاس مدى استعدادهم لقبول تعاليم المسيح عن محبَّة القريب وجعل الآخرين سعداء. فأرغى حول معلِّم البشريَّة بحر من النِّفاق، والضَّراوة، والغيظ. ولا يزال هذا البحر يرغي ويزبد حتى الآن.

ومن البدهي أنَّ أقارب يسوع والمقرَّبين منه كانوا في مكان الإعدام: والدته ماريا، وماريا المجدليَّة، وماريا زوجة كليوبا والدة يعقوب، ويوسي وسالوما زوجة زبدي. وحاول هؤلاء أنْ يكونوا على مقربة من الصَّليب. فوقع نظره على نظر أمِّه التي كانت تقف إلى جانب تلميذه يوحنا. فقال لها: «أيتها الأُمُّ، هذا هو ابنك». وقال ليوحنا: «هذه هي أُمّك». وهكذا غدا الرسول يوحنا ابناً لأُمِّ يسوع ماريا. ويقول الإنجيل: «إنَّ التِّلميذ أخذها إليه».

أمَّا الطَّقس الجوِّي في تلك السَّاعات فقد كان مختلفاً جداً بالنِّسبة لذلك الفصل من كل عام. فبدلاً من الشَّمس الحارقة المعتادة بالنِّسبة لبعد ظهر أيَّام ذلك الشَّهر من السَّنة، حلَّت حلكة مكفهرَّة. وقيل إنَّ «السَّماء أظلمت تماماً». ولكنَّ الوقت كان وقت انتصاف القمر، كما هي حال أيَّام الفصح دائماً، ولذلك فكسوف الشَّمس لا يمكن أنْ يحدث إطلاقاً. وقد كان لمثل تلك الظَّاهرة التي ليس لها تفسير طبيعي، دور في زيادة قوَّة الإحساس الخفي بقرب وقوع بليَّة. وخيَّم الرُّعب.

لقد بقي المسيح معلَّقاً على الصَّليب ما يقارب السِّت ساعات. وقبيل موته بقليل قال: «إلهي! إلهي لما تركتني؟» وهي كلمات من مزمور لداود. وبعد لحظات صرخ يسوع قائلاً: «عطشان!» فجاءه أحدهم بإسفنجة مملوءة بمزيج من ماء وخلٍّ وبيض. وكان الجنود الرومان يشربون هذا المشروب عادة. ولم يرفض المسيح ذلك العمل الطَّيِّب؛ لكنَّ ظمأه زاد أكثر. وزاد

معه هياج الحشد وتعالت سخرياتهم. فثمَّة مَنْ قال: «انتظر، لنر ما إذا كان إيليا سوف يأتي لينقذه؟» وقبيل لحظة موته مباشرة قال يسوع بصوت عالٍ: «يا أبتي! بين يديك استودع روحي!» وكانت كلمة النَّصر الأخيرة التي نطق بها: «قد تمَّ!» وهنا سقطت رأسه على صدره وسلَّم الروح.

وللتَّعجيل بموت المصلوب اعتادوا أنْ يكسروا عظام ركبتيه بمطرقة كبيرة، فيرتخي بعدئذ جسده ويموت. وهذا ما فعلوه مع المصلوبيْن الآخريْن مع يسوع. أمَّا يسوع فقد رأوا أنَّه لا ضرورة لكسر ركبتيه لأنَّه كان قد «سلَّم الروح». ولكنْ لكي يتيقَّنوا تماماً من موته، اقترب منه أحد الجنود وطعن جنبه بسكِّينه. و«للتوِّ انبثق دم وماء».

وكان من المتعارف عليه تقليديَّاً أنْ يقتسم الحراس ثياب المعدوم. وهكذا تقاسموا ثياب المسيح أيضاً. لكنَّهم رموا على ردائه القرعة كي لا يمزِّقوه إلى قطع.

بعد أنْ تحقَّقت وفاة يسوع جاء عضو السيندريون والثَّري اليهودي المعروف يوسف الرَّامي إلى بيلاطس ليأخذ موافقته على رفع جسد المسيح عن الصَّليب ودفنه. ولم يمانع بيلاطس لكنَّه استغرب أنْ يكون يسوع قد مات بهذه السُّرعة. وكان الكفن الذي أعدَّه يوسف كفناً فخماً باذخاً ضمَّخه بمائة ليتر من مرٍّ وعود جاء بها نيقوديموس. وبعد أنْ كُفِّن جثمان المسيح بهذا الكفن نُقل إلى قبر كان أعدَّه الرَّامي في بستانه لنفسه، فحفره في كتلة صخريَّة كبيرة. وكان يجب بالضَّرورة الانتهاء من طقوس الدَّفن قبل بدء سبت الفصح، أي قبل غياب شمس يوم الجمعة. ولذلك تعجَّلوا كل شيء. فغسلوا الجسد، وطيَّبوه، ولفُّوه بالكفن، ووضعوه في القبر الصَّخري. وجرت العادة أنْ يُغلق باب القبر بحجر مهول ثقيل ينوب عن الأبواب المقفلة. وهذا ما فعلوه الآن. وكما قلنا سابقاً، فقد كان محرَّماً فعل أيّ شيء في يوم السَّبت. ولذلك حدَّدت النِّسوة اللَّواتي كنَّ يبكين يسوع مكان القبر (ماريا المجدليَّة، وماريا أُمُّ يعقوب، ويوسي)، وذهبن على أنْ يعدْن لإكمال تطييب الجسد الذي لم يكتمل بسبب ضيق الوقت.

أمَّا أعداء يسوع فقد كانوا يخافونه حتى بعد موته. فختموا باب القبر لكي يحولوا دون تحقيق قيامة يسوع، وهو الأمر الذي كان قد شاع أكثر وأكثر.

وفي صباح أحد الفصح الذي كانت النِّسوة تنتظرنه بنفاد صبر، جئن إلى القبر. كانت الماريَّتان في المقدِّمة، وخلفهما سالومي ويوحنا. وقد حملن الطيب. ولكنْ تبيَّن أنَّ

لا لزوم له. فجسد المسيح ليس في القبر. ولمّا اقترين من القبر لم يكن هناك سوى ملائكة. وروى يوحنا المشهد في إنجيله على الوجه الآتي: في أوّل يوم من أيّام الأسبوع جاءت ماريا المجدليّة إلى القبر في الصّباح الباكر، قبل أنْ ينقشع ظلام الفجر، ورأت أنّ الحجر قد أزيح عن باب القبر؛ فعادت تعدو إلى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبُّه، وقالت لهما: لقد حملوا الرَّبَّ من القبر، ولا نعرف أين وضعوه. فقام بطرس والتِّلميذ الآخر من فورهما وخرجا صوب القبر. كانا يعدوان معاً، لكنَّ التِّلميذ الآخر كان يعدو أسرع من بطرس، فوصل إلى القبر أوَّلاً. ولمّا انحنى لم يرَ سوى الأكفان؛ لكنَّه لم يدخل القبر. وعلى الأثر وصل سمعان بطرس فدخل القبر مباشرة ولكنَّه لم يرَ فيه سوى الأكفان. أمَّا غطاء رأسه فلم يكن مع الأكفان، إنَّما مطويّ وموضوع في مكان آخر. وعندئذ دخل التِّلميذ الآخر الذي كان قد وصل من قبل إلى القبر، فرأى وآمن؛ لأنَّهم لم يكونوا قد عرفوا بعد من الكتاب أنْ ينبغي له أنْ يقوم من الموت. وهكذا عاد التلميذان إلى الديار. أمَّا ماريا فقد بقيت واقفة عند القبر تنتحب، وبينما هي تبكي انحنت لترى القبر. فرأت هناك ملاكين في ثياب بيضاء، أحدهما يجلس عند رأس القبر والآخر عند القدمين حيث كان يسوع مسجّى. وقد قالا لها: يا امرأة! لماذا تبكين؟ فقالت: لقد نقلوا سيِّدي ولست أعلم أين وضعوه. وما إنْ قالت هذا حتّى التفتت إلى الخلف فرأت يسوع واقفاً، لكنَّها لم تعرفه. فقال لها: يا امرأة! لماذا تبكين؟ ولمّا كانت قد ظنَّته البستاني، قالت له: يا سيِّد! إذا كنت أنت قد أخرجته فقل لي أين وضعته، وأنا سآخذه. فقال لها يسوع: ماريا! فصاحت: رابُّوني! وقال لها: لا تلمسيني، لأنّي لم أصعد إلى أبي بعد؛ واذهبي إلى إخوتي وأخبريهم إنّني سأصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم.

وأخبرت المجدليّة التلاميذ بأنّها رأت الرَّبَّ، وأنَّه قال لها هذا.

وفي ذلك المساء عينه بينما تلاميذه مجتمعون داخل أبواب مغلقة خوفاً من اليهود، دخل المسيح إليهم ووقف في وسطهم وقال: «سلاماً لكم!» وبعد أنْ قال هذا لهم أراهم يديه وجنبه. وفرح التلاميذ إذ رأوا الرَّبَّ.

﴿فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: سلاَمٌ لَكُمْ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا.﴾

(يوحنا٢٠: ٢١)

﴿وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تلاَمِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: سلاَمٌ لَكُمْ. ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: هَاتِ

إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً. ✿أَجَابَ تُومَا: رَبِّي وَإِلَهِي. ✿قَالَ لَهُ يَسُوعُ: لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا»

(يوحنا ٢٠: ٢٦-٢٩)

«✿بَعْدَ هَذَا أَظْهَرَ أَيْضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلاَمِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ. ظَهَرَ هَكَذَا: ✿كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ وَابْنَا زَبْدِي وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ. ✿قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ. قَالُوا لَهُ: نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ. فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً. ✿وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلَكِنَّ التّلاَمِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ. ✿فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَاماً؟. أَجَابُوهُ: لاَ! ✿فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا. فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ. ✿فَقَالَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: هُوَ الرَّبُّ. فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ اتَّزَرَ بِثَوْبِهِ لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ. ✿وَأَمَّا التّلاَمِيذُ الآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الأَرْضِ إِلاَّ نَحْوَ مِئَتَيْ ذِرَاعٍ وَهُمْ يَجُرُّونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ. ✿فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الأَرْضِ نَظَرُوا جَمْراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً. ✿قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمُ الآنَ. ✿فَصَعِدَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً مِئَةً وَثلاَثاً وَخَمْسِينَ. وَمَعْ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ. ✿قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: هَلُمُّوا تَغَدَّوْا. وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ التّلاَمِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ. ✿ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذَلِكَ السَّمَكَ. ✿هَذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتلاَمِيذِهِ بَعْدَمَا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ»

(يوحنا ٢١: ١-١٤)

لقد سقنا هذه المقاطع كاملة لأنَّ مسألة قيامة المسيح مسألة مبدئيَّة. ولا شك أنَّ الأناجيل هي المصدر الأصل الأهم. ووردت في الأناجيل الأخرى مناسبات أخرى ظهر المسيح

فيها بعد قيامته (لوقا ٢٤ : ٣٤). كما تحدَّث بطرس في رسائله، وكذلك بولس، عن بعض ظهورات يسوع الأخرى بعد قيامته. لكنَّنا لن نوردها، لأنَّ القارئ يستطيع الاطلاع عليها دون عناء (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥ : ٣-٨).

تعاليم المسيح

لقد عرضنا من حيث جوهر الأمر الموضوعات الأساسيَّة لتعاليم المسيح وفق التَّسلسل الزمني لسيرة حياته. ولكنْ ثمَّة مغزى لتلخيص النتائج، وعرض اللحظات الأهم في هذه التعالم بإيجاز، فهي التعاليم التي غيَّرت وجه العالم على أيِّ حال. والحاجة إلى ذلك واضحة، لأنَّ تعاليم المسيح الحقيقيَّة تعرَّضت لتبدُّلات جوهريَّة جداً خلال الألفي عام المنصرمين، ففي هذا المقطع التَّاريخي جرى تأويل التعاليم وفق شتَّى الأهواء، وقد تحدَّث هؤلاء كلهم باسم المسيح. حقّاً إنَّ المسيح كان على حقٍّ إذ حذَّر أنَّه سوف يظهر بعده كثير من الرُّسل (الدَّجَّالين) الذِّئاب في جلود حملان، ولن يحرس هؤلاء قطعانهم، إنَّما سيهلكونها كما يفعل الذِّئب.

لنبدأ إذن بالسؤال الأهمِّ: من هو الإله؟ وقد يبدو للوهلة الأولى أنَّ الإله حسب المسيح، هو عينه كما ظهر في العهد القديم: العارف بكل شيء، والذي يرى كل شيء، والرحيم، والقادر، والعادل وما إلى ذلك. إنَّ الإله لا يُرى أبداً، إنَّما يمكن إدراكه عبر ما خلق فقط. ويدقق المسيح قائلاً:

﴿اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا﴾

(يوحنا ٤: ٢٤)

وفي واقع الحال إنَّ الإله حسب المسيح أكثر بشريَّة. فهو ليس أب المسيح وحده، إنَّما أب البشر كلهم. فعندما سأل الفريسيون المسيح عن أعظم الوصايا في شريعة موسى، أجاب:

﴿٣٦يَا مُعَلِّمُ أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ الْعُظْمَى فِي النَّامُوسِ؟ ٣٧فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كل قَلْبِكَ وَمِنْ كل نَفْسِكَ وَمِنْ كل فِكْرِكَ. ٣٨ هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. ٣٩وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. ٤٠بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كله وَالأَنْبِيَاءُ﴾

(متَّى ٢٢: ٣٦-٤٠)

وفي شرائع موسى تتجاور هاتان الوصيَّتان، لكنَّهما لا ترتبط واحدتهما بالأخرى ارتباطاً مباشراً. أمَّا المسيح فقد وحَّد بينهما، فبات المغزى: محبَّة الإله هي محبَّة الإنسان،

محبَّة القريب، ومحبَّة القريب هي محبَّة الإله، محبَّة الروح الذي يدين له الكون بوجوده. ونضيف إنَّ الإله حسب المسيح موجود في كل منَّا. وأنَّ الطَّريق إلى الإله، هي الطَّريق إلى ما هو أفضل من روح كل منَّا.

ولكنْ من هو القريب؟ وكانوا قد ألقوا هذا السؤال على المسيح نفسه، فأجاب عليه بمثال أليعازر الذي سلبه اللُّصوص وأوسعوه ضرباً ورموا به على قارعة الطَّريق. فمرَّ أبناء جنسه اليهود على مقربة ولم يقدِّم أيٌّ منهم العون له. بينما حمله السامري إلى النزل وقدَّم له المساعدة ودفع عنه دينارين لقاء إقامته في النزل وقال، إنَّه حاضر لدفع المزيد إذا تطلَّب الأمر ذلك؛ علماً أنَّ اليهود يحتقرون السامريين ويفضِّلون عدم التَّحدُّث إليهم. وهكذا تبيَّن أنَّ السامري هو الأقرب إلى اليهودي. وعليه فإنَّه ينبغي تأويل مغزى وصيَّة: «أحبب قريبك كما تحب نفسك» بأعرض مدى لها. فالقريب ليس من يقيم على مقربة أو من تربطك به قرابة، بل القريب هو مَنْ يقف معك وقت الشِّدَّة. إنَّ القريب هو أيٌّ كان، بصرف النظر عن الانتماء العرقي، أو الاجتماعي أو... ومدلول هذه الموضوعة الأساسيَّة في تعاليم المسيح، هو أنَّ تعاليمه موجَّهة لكل إنسان يعيش على سطح الأرض.

إذن، إذا أعلن أحدهم أنَّه يؤمن بالإله، أي يحبّ الإله، فيجب أنْ يُسأل بالضَّرورة عمَّا إذا كان يحب القريب مثلما يحب نفسه، مع كل ما يترتب على هذه المحبَّة من نتائج. فلنتمعَّن نحن في هذا. فالإيمان بالإله حسب المسيح، لا يعني تلاوة عدد معيَّن من الصلوات كل يوم، والتَّردُّد على المعبد، وتقديم الشُّموع، والالتزام بالصَّوم، وما إلى ذلك. وفعل هذا كله لا يعني الإيمان بالإله بعد. فمقياس الإيمان بالإله، هو محبَّة الآخرين. وبما أنَّ هذا الالتزام مفروض على كل إنسان، فإنَّ النتيجة تبدو واضحة: كلهم سوف يكون بخير، لأنَّ كلاًّ سوف يتعامل مع الآخر كما لو كان يتعامل مع نفسه. ومن الملائم أنْ نذكِّر هنا بوصيَّة المسيح الأخرى التي تنبثق مما أوردناه هنا، أي:

﴿وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ هَكَذَا.﴾

(لوقا ٦: ٣١)

وهكذا، إذا كان الإله والإنسان حسب العهد القديم، كل في طرف، وكان يتوجَّب على الإنسان أنْ يقدِّم القرابين للإله، ويستعطفه، ويسترضيه، ويخافه وما إلى ذلك؛ فإنَّ العهد الجديد، تعاليم المسيح، جعلت الإله في داخل كل إنسان، في داخل كل منَّا، في الصَّالح منَّا كما في الشرِّير. إنَّ الإله في روح الإنسان، وهو يطلب الرحمة لا التقدمات، إنَّه يطلب المحبَّة، المحبَّة تجاه القريب، محبَّة محدَّدة وليست مجرَّدة، محبَّة الإنسان للإنسان. وليس عبثاً أنْ جاء في الإنجيل:

﴿لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا﴾

(يوحنا ١ : ١٧)

وفي هذا تحديداً تقوم تعاليم المسيح بمغزاها البدئي الحقيقي، لا بمغزاها المحرَّف المشوَّه. لقد جاءت وصيَّة «أحبب قريبك كما تحب نفسك» في شرائع موسى في العهد القديم. لكنَّ المسيح منحها مغزى أكثر عمقاً بجمعه بين محبَّة القريب ومحبَّة الإله. وقد تجاوز في هذا شرائع موسى بكثير. فقد طالب بـ:

﴿لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً.﴾

(لوقا ٦ : ٢٧-٢٩)

ثمَّ يعلِّل المسيح مطلبه هذا فيقول:

﴿وَإِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يُحِبُّونَ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ. وَإِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ هَكَذَا. وَإِنْ أَقْرَضْتُمُ الَّذِينَ تَرْجُونَ أَنْ تَسْتَرِدُّوا مِنْهُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضاً يُقْرِضُونَ الْخُطَاةَ لِكَيْ يَسْتَرِدُّوا مِنْهُمُ الْمِثْلَ.﴾

(لوقا ٦ : ٣٢: ٣٤)

وحسب تعاليم المسيح أنَّه ينبغي أنْ نحبَّ أعداءنا. وليست هذه يوتوبيا. فقد أظهر المسيح نفسه هذا عندما صلبه أعداؤه الضَّواري. إذ صلَّى من أجلهم وطلب من أبيه وأبيهم الرَّبُّ الإله قائلاً:

﴿... يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ...﴾

(لوقا ٢٣ : ٣٤)

لقد عدَّ المسيح الإله أب البشر كلهم، وليس أبوه وحده. فكان يخاطب تلاميذه ومستمعيه الآخرين دائماً، طالباً إليهم أنْ يلتزموا في حياتهم بالوصايا الإلهيَّة، وعندئذ يصبحون أبناء الرَّبِّ الإله.

﴿وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ.﴾

(متَّى ٥ : ٤٤-٤٥)

لقد كان المسيح يدرك أنَّ تحقيق هذا المطلق صعب جداً على أيٍّ من البشر. فهو يدرك أنَّ الإنسان خاطئ، يحيد عن الحقِّ في تصرُّفاته، ولذلك لا يعيش سعيداً. ولكنَّ الطَّريق إلى تحقيق السَّعادة الشَّخصيَّة تمتدُّ عبر تطهير النَّفس، والتَّوبة، والعودة إلى طريق الحقِّ. وهذا العمل عمل شاقٌّ ومعقَّد إلى أقصى حدٍّ. إنَّها المهمَّة الرَّئيسة التي وضعها المسيح لنفسه ولتلاميذه، ولكل مَنْ يعتنق تعاليمه. وتقوم هذه المهمَّة في الدِّفاع عن كل مرتدٍّ، وضالٍّ، وساقط. وقال:

﴿...لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ﴾

(مرقس ٢ : ١٧)

والأمر المهمُّ هنا، هو أنْ يعترف المرء بخطاياه صادقاً ويندم ندماً حقيقيّاً ويتوب توبة صادقة، ويصفح للآخرين عمَّا اقترفوه من أخطاء بحقِّه. وحسب المسيح أنَّ مَنْ يغفر يُغفَر له. والغاية الأساسيَّة، هي تحقيق الكمال الروحي الدَّاخلي. لقد قال المسيح:

﴿فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ﴾

(متَّى ٥ : ٤٨)

ما هي مملكة الإله؟

﴿..لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ﴾

(لوقا ١٧ : ٢١)

وعندما يظهر أوَّل الصادقين في قبولهم تعاليم المسيح والعيش وفقها، تكون مملكة الإله قد قامت. فهي تقوم لأولئك الذين يحقِّقون الكمال الروحي، ويعيشون وفق تعاليم المسيح.

ولكنَّ هذه ليست واحدة من الشَّكليَّات. إنها ولادة جديدة، ولادة كما قال المسيح، ثانية من فوق، من الروح.

﴿✿فَقَالَ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ. ✿قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟ ✿أَجَابَ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ. ✿اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. ✿لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي

قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ. ❁اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كل مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ.﴾

(يوحنا ٣: ٣-٨)

يجب ألاَّ ننتظر أنْ تباغتنا مملكة الإله بحضورها في لحظة زمنيَّة محدَّدة. فبما أنَّها في داخل كل منَّا، فإنَّ لحظة حضورها تختلف من شخص لآخر.

وما يلفت الانتباه أنَّ التأويلات المسيحيَّة المعاصرة لفكرة مملكة الإله مختلفة كليًّا. فانتقلت المسألة من المجال الروحي إلى المجال التنظيمي - التراتبي، وينتظر المؤمنون المملكة السماويَّة بصفتها ظاهرة سوف تظهر في وقت محدَّد (لا يعرفه إلاَّ الإله وحده). وبهذا المعنى تغدو المملكة السَّماويَّة شيئاً ما لا يرتبط بنا، مع أنَّ سلوكنا هو الذي سيحدِّد ما إذا كنَّا سندخل إلى هناك أم لا. وفي واقع الحال إن هذا المفهوم هو حسب المسيح أكثر عمقاً بكثير لأنَّه يتطلَّب بذل قوى استثنائيَّة من كل منَّا، وتحقيقه في الوقت نفسه أكثر واقعيَّة. فدخول المرء المعني المملكة الإلهيَّة مرتبط هنا بسلوكه الشَّخصي. وهو مدعوٌّ هناك لا لمحاولة دخول هذه المملكة، إنَّما لإنشائها في داخل روحه. فحسب المسيح إذن، إنَّه منذ أنْ ظهرت تعاليم المسيح وبدأ التبشير بها، أخذت مملكة السماء تنشأ في أرواح البشر الذين اعتنقوا تلك التعاليم بصدق، ومع ظهور مثل هؤلاء، تبدأ الولادة من فوق، الولادة من الروح، الولادة من جديد. وتسير هذه العمليَّة المتواصلة سيراً مختلفاً: أحياناً بكثير من النجاح، وأحياناً أخرى بكثير من الصعوبات، لكنَّها لا تتوقف أبداً. ولم يشكَّ المسيح أبداً في أنَّ النَّاس كلهم سوف يحققون هذه الحالة الروحيَّة. فقال:

﴿وَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَمِنَ الْمَغَارِبِ وَمِنَ الشِّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَيَتَّكِئُونَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ.﴾

(لوقا ١٣: ٢٩)

لقد كان المسيح يعلم أنَّه

﴿❁وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. ❁اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا﴾

(يوحنا ٤: ٢٣-٢٤)

أمَّا حسب التعاليم المسيحية المعاصرة، فإن الطريق إلى مملكة السماء يمرُّ عبر يوم الحساب العظيم. وكان المسيح قد قال:

﴿وَهَذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً.﴾

(يوحنا ٣: ١٩)

ويستفاد مما ورد هنا، أنّه بما أنَّ الدينونة تسبق المملكة السماوية، فهي مستمرة إذن في روح كل منّا. ومن الواضح أنّه إذا كانت مملكة السَّماء في داخلنا فإنَّ جهنم في داخلنا أيضاً. ويتوافق هذا تماماً مع العلم المعاصر، لكنّنا لن نتحدَّث عن هذا إلاَّ بعد حين. إنَّ الدينونة الجارية في داخل كل منّا، هي عمليَّة موضوعية. وتعاليم المسيح ليست واحدة من التعاليم، إنما هي التعاليم الوحيدة التي تتوافق وبناء الكون (بما فيه الإنسان). ولذلك قال المسيح:

﴿أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.﴾

(يوحنا ٥: ٣٠)

فما هو مقياس هذا؟ إنّه جوهر التعاليم نفسها. احكموا بأنفسكم: تقضي التعاليم لا بمحبَّة القريب وحسب، إنّما بمحبَّة العدو اللدود، وصنع الخير للجميع، وتحقيق الكمال الذاتي، والعيش بوداعة، ومسامحة الآخرين على إساءاتهم، و... فهل يمكن أنْ تكون هناك تعاليم أكثر صحَّة، وصدقاً، وملاءمة لمساعدة كل إنسان على أنْ يقترب من طريق الحقيقة وبلوغ السعادة. فما الذي يمكن أنْ يكون أكثر استقامة من هذا؟

أما بصدد الوداعة ومسامحة الآخر، فإن موقف المسيح هو على الوجه الآتي. عندما انضمَّ إليه بطرس وسأله:

﴿حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: يَا رَبُّ كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ.﴾

(متّى ١٨: ٢١-٢٢)

﴿...اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ.﴾

(لوقا ٦: ٣٧)

وقال في مكان آخر:

﴿اِحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلاً: أَنَا تَائِبٌ فَاغْفِرْ لَهُ.﴾

(لوقا ١٧: ٣-٤)

لقد حذَّر يسوع من أنَّ الجشع يتعارض مع الكمال الروحي، مع مملكة السماء. ولم يكن عبثاً أن:

﴿فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً: إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ.﴾

(متّى ١٩: ٢٣-٢٤)

ودعا المسيح:

﴿اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإِنْسَانِ لأَنَّ هَذَا اللَّهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ﴾

(يوحنا ٦: ٢٧)

وعندما سأله الجمع: ما العمل؟:

﴿فَأَجَابَ: مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ وَمَنْ لَهُ طَعَامٌ فَلْيَفْعَلْ هَكَذَا.﴾

(لوقا ٣: ١١)

ثمَّ روى مثلاً عن الذي خزن خيرات ماديَّة لحياته الأبدية كلها، فقال له الإله: يا أحمق! سوف يأخذون منك روحك في هذه الليلة، فلمن تبقى هذا الذي خزنته؟ وأردف المسيح قائلاً:

﴿فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: يَا غَبِيُّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ فَهَذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ هَكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيّاً لِلَّهِ﴾

(لوقا ١٢: ٢٠-٢١)

وتضاف إلى هذا التزامات أخرى تنبثق عن الوصية الرئيسة الأولى. فقيل:

﴿وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا. لاَ تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلاَ يُقْضَى عَلَيْكُمْ. اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ.﴾

(لوقا ٦: ٣٧)

﴿وَكل مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلاَ تُطَالِبْهُ.﴾

(لوقا ٦: ٣٠)

وأخذ المسيح بحسابه أنَّ برنامجه هذا شائك وشديد التعقيد. إذ يجب أنْ تشنّ «حرب» من أجل كسب كل إنسان، وفي سبيل إنقاذ كل روح هالكة. والسلاح في هذه الحرب، هو عمل الخير، والتسامح، والصفح، والعون، والوداعة، وما إلى ذلك.

وفي الصراع من أجل الأرواح، تمنح كل روح خالصة فرحاً لا حدَّ له.

﴿أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارّاً لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ.﴾

(لوقا ١٥: ٧)

ويتحدَّث الإنجيليون عن هذا الصراع من أجل الأرواح مستخدمين مصطلحات معتادة. فيكتب لوقا على لسان المسيح:

﴿أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ؟ كلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَاماً﴾

(لوقا ١٢: ٥١)

وأورد متَّى النص نفسه تقريباً:

﴿✿لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً. ✿فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالاِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. ✿وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. ✿مَنْ أَحَبَّ أَباً أَوْ أُمّاً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ أَحَبَّ ابْناً أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي ✿وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي.﴾

(متَّى ١٠: ٣٤-٣٨)

لا شك أنَّه لا يجوز أنْ نأخذ هذين النصين بحرفيتهما. فالحديث يجري هنا عن الصراع الروحي، الذي لا يقبل أيَّ مساومة. وعن هذا:

﴿فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ.﴾

(لوقا ٩: ٦٢)

لقد شنَّ المسيح حرباً يومية على الشكليات الدينية، لأنَّ كبار رجال الدين اليهودي كانوا قد استبدلوا بدين الإله الحق ومحبة القريب اللذين تحدَّث العهد القديم عنهما في شريعة موسى، كثرة من شتَّى الشعائر والمحرَّمات الشكلية. ونحن كنَّا قد تحدَّثنا عن بعضها. فالاغتسال على سبيل المثال اقتضى تأدية أربعة عشر إجراء مختلفاً، يعقب واحدها الآخر بدقة صارمة. وعندما اتهموا المسيح بأنَّ تلاميذه يباشرون طعامهم من غير أنْ يغسلوا أيديهم وفق المتَّبع، أجابهم:

﴿✿لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هَذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. ✿حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟ ✿فَأَجَابَ: كل غَرْسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيُّ يُقْلَعُ. ✿اُتْرُكُوهُمْ. هُمْ عُمْيَانٌ

قَادَةُ عُمْيَانٍ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كلاَهُمَا فِي حُفْرَةٍ. ✿فَقَالَ بُطْرُسُ لَهُ: فَسِّرْ لَنَا هَذَا الْمَثَلَ. ✿فَقَالَ يَسُوعُ: هَلْ أَنْتُمْ أَيْضاً حَتَّى الآنَ غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ ✿أَلاَ تَفْهَمُونَ بَعْدُ أَنَّ كل مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يَمْضِي إِلَى الْجَوْفِ وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ ✿وَأَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ فَمِنَ الْقَلْبِ يَصْدُرُ وَذَاكَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ ✿لأَنْ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ زِنىً فِسْقٌ سِرْقَةٌ شَهَادَةُ زُورٍ تَجْدِيفٌ.﴾

(متَّى ١٥: ١١-١٩)

وعندما لام الفريسيون المسيح لأنَّ تلاميذه لا يصومون، ردَّ عليهم بقوله، إنَّهم هم لا يصومون إلاّ مراءاة:

﴿✿وَمَتَى صُمْتُمْ فَلاَ تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ فَإِنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. ✿وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْهُنْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ ✿لِكَيْ لاَ تَظْهَرَ لِلنَّاسِ صَائِماً بَلْ لأَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً.﴾

(متَّى ٦: ١٦-١٨)

ويحذِّر المسيح من الاسترسال كثيراً في الصلوات. فقال:

﴿✿وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. ✿وَحِينَمَا تُصَلُّونَ لاَ تُكَرِّرُوا الْكَلاَمَ بَاطِلاً كَالأُمَمِ فَإِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ بِكَثْرَةِ كَلاَمِهِمْ يُسْتَجَابُ لَهُمْ. ✿فَلاَ تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ. لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ.﴾

(متَّى ٦: ٦-٨)

والإحسان أيضاً يجب أنْ يعطى دون أن يكون الغرض منه تحقيق نوازع ذاتية. فقد قال المسيح:

﴿✿احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ✿فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِالْبُوقِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاؤُونَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي الأَزِقَّةِ لِكَيْ يُمَجَّدُوا مِنَ النَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! ✿وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ ✿لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً.﴾

(متَّى ٦: ١-٤)

وكثيراً ما يتحدَّثون في الوقت الراهن عن كنيسة المسيح. فما الذي فكَّر فيه المسيح وقاله عن تأسيس تراتبية صارمة بين أتباع تعاليمه؟ ونحن يمكننا أنْ نحكم على موقفه من أقواله التي قالها بهذا الصَّدد:

﴿فَلاَ يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيماً فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِماً وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلاً فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْداً كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ﴾

(متّى ٢٠: ٢٦-٢٨)

بمثل هذا خاطب المسيح تلاميذه الذين كان يمكنهم أن يغدوا مؤسِّسي الكنيسة. وفي سياق آخر قال لتلاميذه:

﴿وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ وَأَنْتُمْ جَمِيعاً إِخْوَةٌ. وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَباً عَلَى الأَرْضِ لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَلاَ تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ. وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِماً لَكُمْ. فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ.﴾

(متّى ٢٣: ٨-١٢)

إنَّ هذين النصين يقدمان لنا تصوراً واضحاً عن العلاقات السليمة بين الرعاة في المسيح.

ثمَّة لحظة واحدة يمكن أنْ ننسبها إلى الكنيسة التي ظهرت بعد المسيح. إنَّها سرُّ الأفخارستيا: القربان المقدَّس. وهناك وصف لهذا السرِّ في أربعة أماكن، لكنَّه وصف متماثل. فقد جاء في إنجيل متَّى:

﴿وَفِيمَا هُمْ يَأْكلونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: خُذُوا كلوا. هَذَا هُوَ جَسَدِي. وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: اشْرَبُوا مِنْهَا كلكُمْ لأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا.﴾

(متّى ٢٦: ٢٦-٢٨)

ولكنَّ أصل هذا السِّرِّ يرجع إلى عبادة الإله ميترا السابقة على المسيحيَّة بزمن طويل. فقبل ألف عام من زمن المسيح عاش زرادشت وبشَّر بتعاليمه الزرادشتية. وكان الإله الأعلى الوحيد في هذه التعاليم، هو الإله ميترا، إله النور. وقد اعتاد المؤمنون به أن يتناولوا الخبز والنبيذ، اللذين كانا يرمزان إلى جسد ميترا ودمه. وقد استخدم المسيح المصطلحات عينها. وهاكم بعض المقاطع من الأناجيل:

﴿فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فلاَ يَعْطَشُ أَبَداً.﴾

(يوحنا ٦: ٣٥)

وقال:

﴿فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَـأْكلوا جَـسَدَ ابْـنِ الإِنْـسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ.﴾

(يوحنا ٦: ٥٣)

أمَّا فكرة القيامة فإنَّ لها أهميَّة استثنائيَّة. وفي الأناجيل التي عرضت تعاليم المسيح تحدَّث المسيح نفسه عن هذا بدقَّة ووضوح:

﴿لأَنَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يَتَزَوَّجُونَ بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ.﴾

(متّى ٢٢: ٣٠)

ومن البدهي أنَّ المسيح لم يفصل تعاليمه عنه هو. ولذلك نقرأ في الأناجيل:

﴿أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى.﴾

(يوحنا ١٠: ٩)

﴿قَالَ لَهُ يَسُوعُ: أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.﴾

(يوحنا ١٤: ٦)

ومرَّة أخرى:

﴿ثُمَّ كلمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً: أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ.﴾

(يوحنا ٨: ١٢)

ولكنْ أن تتبع المسيح وتعيش وفق تعاليمه ليس بالأمر اليسير. ومن الأسهل بكثير استبدال لبّ هذه التعاليم، جوهرها بحكايات خرافية عن مختلف ضروب المعجزات، وبذخيرة محددة ومنظمة من الطقوس والشعائر. فهذا سهل جداً، بل مربح أيضاً؛ بيد أنَّه ليس ما هو مشترك بينه وبين تعاليم المسيح. فالمسيح كان يدرك أنَّ العيش وفق قوانين الحقيقة أمر في غاية الصعوبة. ولكنه لم يرَ الخلاص إلاَّ في هذا فقط، الخلاص الحقيقي لكل إنسان.

فقد قال:

﴿لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كله وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟﴾

(متّى ١٦: ٢٦)

ورأى أنَّ بلوغ الكمال الروحي والعيش بالتوافق مع التعاليم، يقضيان بضرورة أن يعيد الإنسان لنفسه التصوُّر الصحيح عن قيم الحياة، عن العالم المحيط. لقد قال المسيح:

﴿وَقَالَ: اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.﴾

(متّى ١٨: ٣)

ويرى الناس أنَّ الأهمَّ في الحياة، هو الثراء المادِّي، ويسقطون من دائرة الرؤية الأمر الأهمَّ.

﴿لَكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللَّهِ وَبِرَّهُ وَهَذِهِ كلها تُزَادُ لَكُمْ.﴾

(متّى ٦: ٣٣)

لقد كان المسيح يعرف أنَّ السكينة الحقيقية، السعادة الحقيقية لا يمكن أن تتحققا إلاَّ بالسير على هذه الطريق. فقال:

﴿تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. إِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ﴾

(متّى ١١: ٢٨-٣٠)

إنَّ اعتناق تعاليم المسيح جزئياً أمر مرفوض، فهي تعاليم الحق والحياة، ولا يمكن تجزيء هذا أو تلك: نعم أو لا!

ويجب ألاَّ نخدع أنفسنا بأن التردد إلى المعبد، وتأدية باقي الشكليات الظاهرية الأخرى، يمكن أنْ يعوِّض الالتزام الصحيح بما يستفاد من تعاليم المسيح. ولذلك أعلن المسيح بحزم:

﴿مَنْ لَيْسَ مَعِي فَهُوَ عَلَيَّ وَمَنْ لاَ يَجْمَعُ مَعِي فَهُوَ يُفَرِّقُ. لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كل خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ.﴾

(متّى ١٢: ٣٠-٣١)

إنَّ الحقيقة، جوهر العالم، الكامن في حقل الإعلام الكوني، في الروح، هو جوهر واحد، حقيقة واحدة لا يمكن الالتزام بجزء منها فقط. إنَّها غير قابلة للقسمة. وهذه الحقيقة موجودة في تعاليم المسيح: «أنا هو الطريق، والحق، والحياة».

الحوَّاريون والكنيسة

بعد أن بقي الحوَّاريون وحدهم من غير المسيح، واصلوا نشر تعاليمه. وكان المسيح قد انتقى حوَّارييه الاثني عشر بنفسه. وكلمة (حوَّاري) عينها تعني: الرسول، البشير، وهو اللقب الذي أعطاه المسيح لتلاميذه. وهؤلاء الرسل الاثني عشر هم: أندراوس، وبطرس، ويعقوب، ويوحنا، وفيليبوس، وبرثولماوس، وتوما (اللاوي)، ويعقوب (الأصغر)، ويهوذا، وسمعان (القانوي)، ويهوذا الأسخريوطي. وكان أندراوس وسمعان - بطرس شقيقين، وكذلك كان يعقوب الأكبر ويوحنا أخوين أيضاً. وقد ميَّز يسوع يوحنا بين تلاميذه وخصَّه بمحبَّة خاصَّة، إذ دعاه بيوحنا الحبيب. وقد كتب يوحنا هذا الإنجيل الرابع، والرؤيا، ورسالتين. وبدلاً من الأسخريوطي اختير بالقرعة متَّى رسولاً بدلاً منه، وبذا بات في المجموعة اثنان باسم متَّى.

وعلاوة على الرسل الاثني عشر، كان للمسيح سبعون تلميذاً، كانوا مبشرين. وقد أعدَّهم المسيح بنفسه لحمل عبء الرسالة الملقاة على عاتقهم. فلم يمنحهم وصاياه وتعليماته فقط، إنَّما علَّمهم كذلك المداواة وأشياء كثيرة أخرى تمكِّنهم من مساعدة الناس في البلدان التي يزورونها مبشرين. وكان هؤلاء التلاميذ الدؤوبون في الطريق دائماً. وكانت خطوط سيرهم تمتد غالباً في بلدان بعيدة. وهناك في تلك البلدان، كانوا يزرعون بذور المحبَّة، والعطاء، والتسامح، والوداعة، وكان المسيح دائم الاهتمام بالكمال الروحي لتلاميذه. ولم تنسهم الكنيسة المسيحيَّة أيضاً، فكرَّست لهم عيداً خاصَّاً بهم.

وقبيل صلبه بقليل كان المسيح يحذر تلاميذه مراراً أنهم سيكونون قريباً من غير راع. وقال لهم، إنَّ صعوبات كثيرة بانتظارهم بعده، لكنَّهم في الوقت نفسه سوف يفهمون مغزى تعاليمه فهماً أكثر عمقاً. وأكَّد لهم دائماً أنَّ الروح الإلهي سيساعدهم على ذلك.

وإذ نقرأ الإنجيل نرى أنَّ الرسل أناس سذَّج لا يتوفرون على أي مستوى علمي، وأنَّهم يتوفرون على قدر كبير من مختلف ضروب الضعف البشري. لقد كانوا يتقدمون ويتراجعون، ويسقطون وينهضون، لكن إيمانهم بصحَّة تعاليم المسيح بقي ثابتاً. مما منحهم القوة على حمل العبء الثقيل الذي أُلقي على عاتقهم. لقد تحققت كلمات المسيح:

﴿وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ.﴾

(متّى ١٠: ١٨)

ولكنْ تبيَّن أنَّ الرسل على مستوى الرسالة التي عهد بها إليهم.

وبعد عودتهم من الجليل حيث ظهر يسوع لهم، أقام الرسل في أورشليم، وعاشوا هنا جماعة متلاحمة.

لقد واصلوا التبشير بتعاليم المسيح.

﴿وَجَمِيعُ الَّذِينَ آمَنُوا كَانُوا مَعاً وَكَانَ عِنْدَهُمْ كل شَيْءٍ مُشْتَرَكاً. وَالأَمْلاَكُ وَالْمُقْتَنَيَاتُ كَانُوا يَبِيعُونَهَا وَيَقْسِمُونَهَا بَيْنَ الْجَمِيعِ كَمَا يَكُونُ لِكل وَاحِدٍ احْتِيَاجٌ. وَكَانُوا كل يَوْمٍ يُواظِبُونَ فِي الْهَيْكَل بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذْ هُمْ يَكْسِرُونَ الْخُبْزَ فِي الْبُيُوتِ كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ بِابْتِهَاجٍ وَبَسَاطَةِ قَلْبٍ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَلَهُمْ نِعْمَةٌ لَدَى جَمِيعِ الشَّعْبِ. وَكَانَ الرَّبُّ كل يَوْمٍ يَضُمُّ إِلَى الْكَنِيسَةِ الَّذِينَ يَخْلُصُونَ.﴾

(أعمال الرسل ٢: ٤٤-٤٧)

وتضيف أعمال الرسل في مكان آخر:

﴿وَكَانَ لِجُمْهُورِ الَّذِينَ آمَنُوا قَلْبٌ وَاحِدٌ وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّ شَيْئاً مِنْ أَمْوَالِهِ لَهُ بَلْ كَانَ عِنْدَهُمْ كل شَيْءٍ مُشْتَرَكاً. وَبِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ كَانَ الرُّسُلُ يُؤَدُّونَ الشَّهَادَةَ بِقِيَامَةِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ كَانَتْ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مُحْتَاجاً لأَنَّ كل الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ حُقُولٍ أَوْ بُيُوتٍ كَانُوا يَبِيعُونَهَا وَيَأْتُونَ بِأَثْمَانِ الْمَبِيعَاتِ وَيَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ فَكَانَ يُوزَّعُ عَلَى كل أَحَدٍ كَمَا يَكُونُ لَهُ احْتِيَاجٌ.﴾

(أعمال ٤: ٣٢-٣٥)

لقد كان سلوك الرعاة في مثل تلك المشاعات متوافقاً مع تعاليم المسيح. وكان بطرس الرسول يدعم هذه المبادئ. فكتب يقول:

﴿أَطْلُبُ إِلَى الشُّيُوخِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ، أَنَا الشَّيْخَ رَفِيقَهُمْ، وَالشَّاهِدَ لآلاَمِ الْمَسِيحِ، وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ، ارْعَوْا رَعِيَّةَ اللهِ الَّتِي بَيْنَكُمْ نُظَّاراً، لاَ عَنِ اضْطِرَارٍ بَلْ بِالاخْتِيَارِ، وَلاَ لِرِبْحٍ قَبِيحٍ بَلْ بِنَشَاطٍ، وَلاَ كَمَنْ يَسُودُ عَلَى

الأَنْصِبَةِ بَلْ صَائِرِينَ أَمْثِلَةً لِلرَّعِيَّةِ، ﴿وَمَتَى ظَهَرَ رَئِيسُ الرُّعَاةِ تَنَالُونَ إِكلِيلَ الْمَجْدِ الَّذِي لاَ يَبْلَى.﴾

(رسالة بطرس الأولى ٥: ١-٤)

بعد أن ترك تلاميذ المسيح الجليل خبت المسيحية هناك من فورها. وتحوَّل الجليل الذي وهب المسيح للعالم، إلى الديانة اليهودية التي كان عليها من قبل، ثمَّ تحوَّل في القرون التالية إلى مركز لها، إلى بلاد التلمود.

وفي أورشليم كان عدد أتباع تعاليم المسيح حوالي المائة والعشرين نفراً. وكان المعبد هو مكان مكوثهم الرئيس. وكانت الديمقراطية هي السائدة عملياً في حياة الطائفة، فغالباً ما كان الاختيار فيها يجري بالقرعة. لقد كانت تلك هي الكنيسة البدائية. ولم تنتقل السلطة في الكنيسة إلى الإكليروس وتموت الديمقراطية فيها إلاَّ بعد زمن طويل.

وحتى في زمن الرسولين بطرس وبولس كانت للكنيسة سلطة كبيرة. فقد كانت خارج قوانين الدولة. وأكَّد رينان في هذا السياق، إنَّ «صوت بطرس أخمد أنفاس كثير ممن انتهكوا قوانين الطائفة». فيروى أنَّه عندما أخفى الزوجان سفيرا وحنانيا جزءاً من المال الذي باعا به أرضهما، قتلا في الحال حين عرفت الطائفة بالأمر. لقد كان المسيحيون الأوائل من اليهود، وحسب الدوافع الدينية كان رجم الإنسان حتى الموت عندهم أمراً معتاداً. لقد تقاسم بطرس سلطاته مع يوحنا، لكن الكلمة الفصل كانت له دوماً في الشؤون كلها. وكان المسيح قد ظهر لأخيه يعقوب بعد قيامته. فآمن يعقوب بقيامة المسيح وانضمَّ إلى طائفة أورشليم.

ولم تتميَّز اجتماعات الطائفة بإقامة أي شعائر دينية، فقد كانوا يمضون وقتهم بالصلاة وقراءة الرسائل. وفي بادئ الأمر لم يكن ثمَّة كهنة بالمعنى المتعارف عليه. ولم يكن لراعي الطائفة أي سلطات كانت. ولم يكن مطلوباً من المؤمنين الجدد سوى تلقّي سرّ المعموديَّة فقط. وقد عمَّدوا كما كان يعمِّد يوحنا، ولكن عمادتهم كانت باسم يسوع المسيح. وأضافوا إلى سرِّ المعمودية منح نعمة الروح القدس: كان الرسل يضعون أيديهم على رأس المؤمن الجديد ويتلون الصلوات المعتمدة في الطقس. وهكذا كان يسوع يضع يديه أيضاً. فقد كانت هذه الحركة تبعث الصحوة الداخلية. وكانت هذه المعمودية هي المعمودية الروحية. وهكذا أضيفت إلى المعمودية التي كانت تؤدَّى باسم الأب والابن، معمودية أخرى، هي معمودية الروح القدس. ونذكِّر هنا أنَّ المسيح قال: «لقد عمَّدكم يوحنا بالماء، أمَّا أنتم فسوف تعمِّدون بالروح القدس».

ومع مرور الوقت التحق بالرسل مؤمنون جدد غيورون ونشطون. وكان برنابا واحداً من هؤلاء. اسمه الحقيقي هو يوسف هاليفي أو اللاوي. باع أرضه وأعطى ثمنها للرسل. لقد كان برنابا داعية موهوباً يمتلك نعمة النبوءة. وقد أدَّى دوراً شديد الأهمية في كثير من الأعمال التبشيرية. وثمَّة من عدَّه المبشر الثاني بعد بولس في القرن الميلادي الأوَّل. واشتهر كذلك داعية آخر هو مناسون الذي كان قبرصيَّ الأصل، مثل برنابا. وفعل هذا بأملاكه كما فعل برنابا، وتحوَّل إلى واحد من أنشط دعاة المسيحيَّة. وكان الاثنان من اليهود. وانخرط في نشاط الطائفة أيضاً مرقس ابن أخت برنابا (وربَّما كان مرقس هذا واحداً من الإنجيليين). وحذت ماريا والدة مرقس حذو ابنها وأعطت ما تملك إلى الرسل، وشاركت مشاركة نشطة في أعمال الطائفة. وقد تحوَّل بيتها إلى بيت بطرس الأبوي. وقد قام بطرس وبرنابا برحلات تبشيريَّة كثيرة رافقهما فيها مرقس. كما رافق هذا الأخير بولس أيضاً.

لقد انتشرت التعاليم الجديدة كالنَّار في الهشيم. وكرَّز بها أناس عمليون أنكروا ذاتهم. وميَّزوا منهم على وجه الخصوص، ستيفان، والزوجين أندورنيك ويوليا، والزوجين أكويلا وأريستسيلا. وعدَّ هؤلاء الأخيرون مثالاً العائلات الرسوليَّة المتفانية. وكان هؤلاء كلهم من اليهود أيضاً. بعضهم من فلسطين، وآخرون من اليهود الهلنستيين. ولم يكن هؤلاء الأخيرون يعرفون اللغة اليهوديَّة، فقرؤوا التوراة باللغة الإغريقيَّة. وعلاوة إلى هؤلاء كان في الطائفة أناس آخرون ليسوا من أصل إسرائيلي. وقد كان هؤلاء يقيمون في شتَّى أحياء أورشليم، ولكنَّهم كانوا من منشأ سوري، ومصري، وقوريني، ومن آسيا الصغرى. ولم تمضِ عدَّة سنوات حتى باتت اللغة الإغريقيَّة هي اللغة السائدة في الطائفة، على الرغم من أنَّ اللغة الآرامية التي كان المسيح يتحدَّث بها، كانت هي اللغة الأساس في الأطوار الأولى، ولا ريب في أنَّ ذلك التحوُّل من الآراميَّة إلى الإغريقيَّة كان خطة متقدِّمة في تاريخ انتشار المسيحيَّة. ففي تلك الحقب كانت اللغة الإغريقيَّة هي اللغة التي يتحدَّث بها سكان إقليم شرقي المتوسط. وكانت هي لغة اليهود المنتشرين في شتَّى أرجاء الإمبراطوريَّة الرومانيَّة كلها.

وسرعان ما أخذ «الهلنستيون» يسيطرون على الطائفة. لقد كان أكثر المسيحيين الأوائل فقراء. فاعتمل في الطائفة صدام على خلفيَّة انقسامها إلى يهود وغير يهود، كما كان للصدام صلة بإدارة شؤون الطائفة أيضاً. وكان الرسل هم الذين يتصرفون بموارد الطائفة. فاتَّهموهم بغبن الأرامل من غير اليهود. فنقل الرسل صلاحياتهم إلى سبعة أعضاء انتخبتهم الطائفة. وكان أكثر هؤلاء من الهلنستيين. فوضع الرسل أيديهم على رؤوسهم حسب طقس التكريس، ودعوهم بالإغريقيَّة «دياكونوس»، أي الشمامسة. وبذا تكون قد نشأت أقدم المؤسسات الكنسية، ثمَّ ما

لبث الدياكونوس أن ظهروا في الطوائف الأخرى أيضاً. ولكنَّ تلك الخطوة التي كانت بمثابة إجراء تنظيمي صرف، أفضت إلى تبدُّلات جوهرية في حياة المشاعة: إضافة إلى الالتزامات الدينية وضعت القيادة الجديدة لنفسها مهمَّة أخرى، هي الاهتمام بالفقراء. ويؤكِّدون على أن دياكونوس ذلك الزمن كانوا دعاة مسيحيين. وهكذا تحوَّلت الرئاسة في الطائفة من الرسل إلى الدياكونوس، وكان لذلك نتائجه الإيجابيَّة التي لم يتأخَّر ظهورها. فقد كان أولئك الأشخاص أناساً إنجيليين، واقتصاديين، وتواصلوا مع الفقراء والمرضى. ولم يغب شيء عن دائرة نظرهم. ولكنَّ الرسل حافظوا على مكانتهم ووقارهم في أورشليم. بيد أنَّ العمل الرئيس كان يؤدِّيه الدياكونوس، والمعركة الحاسمة في سبيل المسيحيَّة خاضها الدياكونوس. وما لبثت النساء أن انضممن إلى الدياكونوس. وحملن هنا تسمية أخوات. لقد كان الدياكونوس أناساً مكلوئين بالرحمة. وقد أظهروا رحمتهم تلك دون أي شعائر أو طقوس. فكانوا يتصرَّفون بداعي الروح وحسب. وتباروا في التخفيف من آلام الناس ومعاناتهم. كم كانت المسيحية الأولى جميلة! فتلك السنوات الثلاث كانت سنوات مقدَّسة ساد فيه الصدق، والنقاء، والفضيلة، ولذلك كانت السنوات الأكثر عطاء في تاريخ المسيحيَّة. وكان للنساء دور فائق الأهمية في ذلك العمل كله. فقد ساوت تعاليم المسيح بين المرأة والرجل مساواة تامَّة. وباتت المرأة حرَّة، ولم تعد ملكاً من باقي أملاك الزوج. وحسب المسيح أن «الإله محبَّة». وكانت الحرية الأخلاقيَّة للمرأة قد بدأت منذ اليوم الذي منحتها الكنيسة فيه معلماً ورائداً، هو يسوع المسيح. فبفضل حياة الرهبنة نجحت المرأة في أنْ تقطِّع قيود الزوج - الطاغية. كان الوجه الروحي بالنِّسبة إليها أكثر أهمِّيَّة من الأب والزوج. وهذا أمر شديد الأهمية بالنِّسبة لتاريخ المسيحية كله.

إنَّ ما قلناه هنا ينسحب على الكنيسة البدئيَّة؛ فقد كان التعاون المشترك والإيمان الواحد يوحِّد بين أعضائها. ولكنَّ مثل هذا المناخ لم يبقَ خلال الألفي عام التالية إلاَّ في الأديرة. ولم تمضِ ثلاث سنوات حتى بلغ عداد أفراد طائفة أورشليم عدة آلاف من المؤمنين. وكان هؤلاء ينتمون إلى قبرص، وأنطاكيا، وقورينا، وباقي إقليم شرقي المتوسط. وكان ثمَّة مستعمرات يهودية في تلك البلدان كلها.

ولكنَّ الأمور في طائفة أورشليم لم تكن على ما يرام. فالذين صلبوا المسيح، وضعوا الطائفة تحت المراقبة. فاعتقل بطرس ويوحنا وأفراد الأخوية الرسوليَّة الآخرين. بيد أنَّ النتيجة كانت عكسية، إذ لم يؤد السجن إلاَّ إلى زيادة صلابة الرسل قوَّة. وعندما كانوا يجلدونهم كانوا يعبِّرون عن فرحتهم لأنَّه تسنَّى لهم أن يخدموا المسيح. وقد جاء في «أعمال الرسل» نص دفاع عن المسيحية أعلنه العالم اليهودي الشهير في تلك الأزمنة غمليئيل: «إذا كان هذا العمل

عملاً بشرياً فسوف ينهار، أما إذا كان عملاً إلهياً فلن يكون بمقدوركم تدميره، لأنكم ستجدون أنفسكم خصوم الإله». ولكن اقتراح غمليئيل لم يؤخذ به.

بيد أنَّ آلام المسيحيين الحقيقية لم تبدأ إلاَّ مع الدياكونوس ستيفان. فقد كان هذا داعية موهوباً. أرسلوا إليه أشخاصاً كان يجب أنْ يشهدوا ضدَّه. ورداً على الاتهام، اتُّهم ستيفان أعضاء السيندريون بقتل المسيح: «أيها الجلادون، يا ذوي القلوب الدنسة والأرواح النجسة! أنتم ناهضتم الروح القدس دائماً، مثل آبائكم أنتم. فأيُّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟ لقد قتلوا الذين بشَّروا بمجيء الصدِّيق الذي خنتموه أنتم وقتلتموه!» ثم نظر إلى السماء وبحماس مفرط: «إنِّي أرى السموات انفتحت وابن البشر يقف عن يمين الآب!» فقادوه إلى خارج المدينة وقتلوه رجماً بالحجارة. وكان للشاب السلفي الغيور شاول دور نشط في هذا كله. وشاول هذا هو نفسه بولس الرسول فيما بعد.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أنَّ المسيحيين كانوا مضطهدين من قبل الرومان كما من اليهود. ومع أنَّ أحكام الإعدام بسبب الجرائم الدينية كان يجب أنْ تصدَّق من قبل الرومان، إلاَّ أنَّ اليهود غالباً ما كانوا يستغلون الظروف ويسلبون خصومهم حياتهم، مع أنَّ هؤلاء كانوا متفوِّقين عليهم أخلاقيّاً؛ لكنَّهم كانوا يمثلون خطراً جدِّيّاً على واردات رؤسائهم الدينيين.

لقد وقع إعدام ستيفان بين العامين ٣٦ و٣٨م. وبه يكون قد بدأ عصر شهداء المسيحية. فاضطرت طائفة أورشليم إلى أن تتشتت. وتفككت الكومونة النموذجيَّة. ولكن الرسل بقوا في أورشليم. أما أعضاء طائفة أورشليم، فقد انتشروا في اليهودية والسامرة. وبشَّروا بتعاليم المسيح في كل مكان. وبعد أن فقد الدياكونوس التزاماتهم الوظيفية تحوَّلوا إلى إنجيليين بارعين. لقد كانوا شباباً نشيطين. فالدياكونوس فيليبوس كرز في السامرة، وحقق هنا نجاحاً باهراً. فألَّف السامريون طائفة. وقد عمَّد فيليبوس أعضاءها، بيد أنَّه لم يكن مؤهَّلاً لمنح نعمة الروح القدس. ولهذا الغرض جاء بطرس ويوحنا إلى السامرة، فمنح نعمة الروح القدس كان مقتصراً على الرسل فقط.

وبعد أن استقرَّت شؤون الطائفة الكنسية هناك، عاد بطرس ويوحنا إلى أورشليم. أمَّا فيليبوس فقد توجَّه جنوباً إلى أرض الفلسطينيين. وبعد أن نجح في تأسيس طوائف مسيحية هناك، توجَّه إلى أشدود، ومنها إلى غزَّة. ثم اتجه فيليبوس شمالاً، وعبر الساحل كله حتى قيصريَّة، مؤسساً طوائف كنسية في كل مكان. وهنا في قيصرية أنشأ فيليبوس طائفة كنسية كبيرة. وكانت هذه المدينة تطمح إلى أن تغدو المدينة الرئيسة في اليهودية، إلاَّ أنَّها تحوَّلت على يدي فيليبوس إلى مرسى للمسيحيَّة.

كما كان يقوم بمثل هذه الأعمال دياكونوس آخرون، وسواهم من الذين اعتنقوا تعاليم المسيح. وثمَّة مكانة خاصة بين هؤلاء يشغلها بولس، الذي شارك في إعدام ستيفان، ومما لا شك فيه أن بولس شغل المكانة الثانية من حيث الأهمِّيَّة، في تاريخ المسيحية بعد المسيح نفسه. ويرى البروتستانت أن المسيحية لم تتحول إلى ديانة عالمية إلاَّ بفضل بولس. ولو أخذ أي منَّا كتاب العهد الجديد بين يديه لرأى فيه كثرة من رسائل بولس. ومن حسن الحظ أنَّ بولس ترك لنا أفكاره مكتوبة، الأمر الذي يعطينا إمكانية الحكم عليها مباشرة. أمَّا ما قاله المسيح فإننا لا نسمعه إلاَّ عبر ما كتبه عنه تلاميذه. وما يؤسف له أن يسوع لم يدوِّن أفكاره.

ولد بولس (أو شاول) في كيليكيا، في مدينة طرسوس في حوالي العام ١٠ و ١٢م. وهو من أصل يهودي خالص. وقد كان والده مواطناً رومانياً. وكانت عائلة بولس تنتمي إلى حزب الفريسيين، وحصل بولس على درجة عالية من التعليم والثقافة. فقد كان يقرأ الإغريقيَّة ويكتب بها ويتحدَّثها دون صعوبة. أما مهنته فهي صناعة السجاد والمنسوجات، والخيام.

وفي أورشليم انتسب بولس إلى مدرسة أكثر شخصيات تلك الحقبة ثقافة: غمليئيل. وما لبث أن غدا قائد حزب الفريسيين الشباب الغيورين الشديدي الحماس الذي أوغلوا في تمسُّكهم بماضيهم العرقي حتى أقصى حدود التطرُّف. وبولس لم يرَ المسيح بعينيه. وكان لبولس إذن رسمي بالتَّنكيل بالمسيحيين. فكان يلقي بهم إلى غياهب السجون، ويأمر بجلدهم. ولمتابعة عمله هذا توجَّه بولس إلى دمشق بصلاحيات خاصَّة. وهاكم مقطعاً من نصٍّ أعمال الرسل:

«أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّداً وَقَتْلاً عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ فَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى دِمَشْقَ إِلَى الْجَمَاعَاتِ حَتَّى إِذَا وَجَدَ أُنَاساً مِنَ الطَّرِيقِ رِجَالاً أَوْ نِسَاءً يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتاً قَائِلاً لَهُ: شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ فَسَأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ الرَّبُّ: أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ. فَسَأَلَ وَهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: يَا رَبُّ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَداً. فَنَهَضَ شَاوُلُ عَنِ الأَرْضِ وَكَانَ وَهُوَ مَفْتُوحُ الْعَيْنَيْنِ لاَ يُبْصِرُ أَحَداً. فَاقْتَادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى دِمَشْقَ. وَكَانَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ يُبْصِرُ فَلَمْ يَأْكُل وَلَمْ يَشْرَبْ.»

(أعمال ٩: ١-٩)

ومن تلك اللحظة بدأت حياة شاول - بولس الجديدة، الشخصية الأكثر عطاء في تاريخ المسيحية، ولا يقلُّ بولس أهمِّيَّة عن موسى وإبراهيم. وهو دون ريب واحد من العشرة الأوائل في تاريخ البشرية.

فما هي المهمَّة التي نهض بها بولس؟ وإلى أي درجة كانت صعوبتها؟ لقد كانت اليهوديَّة متجذِّرة وراسخة إلى درجة يستحيل معها عملياً تطوير أي رؤى جديدة في إطارها. فهي تستند إلى أساس راسخ لا يتزعزع: العهد القديم، الذي كانت معارضة أحكامه أو حتى مجرَّد الشك في أي من تفاصيله الهامشية تكلف المرء حياته. وغالباً ما كان هذا يحدث، إذ دفع كثيرون جداً حياتهم ثمناً لأقل من الشك. وكان لوسيلة القتل رجماً بالحجارة فعالية شديدة التأثير: لقد كانت تلقي رعباً مميتاً (بالمعنى المباشرة للكلمة) في قلوب بعضهم، وتجعل بعضهم الآخر مسعوراً. ولنتذكَّر أنه بعد قتل ستيفان رجماً تفككت طائفة المسيحيين في أورشليم مباشرة. ولم تنهض إلا بعد وقت. ولكنها لم تعد الآن كما كانت من قبل، فكل فرد من أفرادها بات يولي انتباهاً كبيراً لمحرَّمات اليهودية. وغنيٌّ عن البيان أنه لم يكن من الصعب عليهم أن يضعوا أقنعة اليهودية ويتخفُّوا خلفها؛ فأفراد الطائفة كلهم كانوا يدينون باليهودية أوَّلاً بأوَّل: العهد القديم، وشرائع موسى والأنبياء. ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يرفع يده في وجه هذه التعاليم الأخيرة. فلنتذكَّر أن المسيح نفسه، وهو مؤلِّف كتاب العهد الجديد، والمصلح الحازم قد أكَّد مراراً في المعابد وعلى الملأ: «لم آتِ لأخالف الناموس والأنبياء، إنَّما جئت لأُتممهما». إذن لقد أرسيت التعاليم الجديدة بثبات التعاليم القديمة. ولذلك كانت طائفة أورشليم المسيحية بالنسبة لليهودية طائفة لا ضرر منها. إنهم يساعدون الفقراء! حسن، فليفعلوا، إنَّ هذا لا يتعارض مع شريعة موسى. ولكن إذا ما تطاول أحدهم كما فعل ستيفان فلا رحمة في التعامل معه. وكان المسيح نفسه يدرك هذا جيِّداً. فعلى الرغم من أنه لم يتطاول على العهد القديم، وإنما كل ما أراده، هو إتمام شريعة موسى، إلاَّ أنَّ الدروب كلها أُغلقت في وجهه، وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، فإنَّ المسيح خلص إلى نتيجة واحدة: الطريق الوحيدة لإنقاذ تعاليمه هي الطريق التي تمرُّ عبر الجلجثة. لقد كان ينبغي فعل شيء غير عادي لكي تحظى التعاليم بصدى يمكّنها من اختراق درع اليهودية. يقيناً إنّ المسيح مشى إلى الصليب عن سابق إدراك ومعرفة، إذ وعى بمنتهى الدقة أنها إرادة الإله، إرادة الضرورة، لأنَّه لم يكن ثمَّة وسيلة أخرى لإنقاذ التعاليم.

إذن بعد المسيح تأسست طائفة أورشليم التي كانت بمثابة الكنيسة البدائية التي وقف الرسل على رأسها. ولكن هل معنى هذا أن تعاليم المسيح اخترقت درع اليهودية وانطلقت إلى الرحاب الحرَّة؟ بالتأكيد لا. فما أهمية طائفة تعداد أفرادها مائة وخمسين نفراً بالنسبة لمدينة أورشليم، واليهودية، والعالم كله! بدقَّة حسابية، لا شيء. فلم يكن بمقدور الرسل أو أتباع

التعاليم الآخرين التبشير بها علانية على الملأ، في ساحات المدن، ومعابدها. فهذا لم يفعله أحد سوى المسيح. أمَّا الآخرون فقد اقتصرت دعواتهم على أفراد في أحسن الأحوال، وبحذر شديد. وفي بعض الأحيان كان محاوروهم من الشخصيات المؤثِّرة، الذكية والثرية. وإذا ما انتمى مثل هؤلاء إلى الطائفة، عدَّ ذلك مكسباً معنوياً، وروحياً، ومادياً أيضاً. ومهما كانت الحال فإنَّ ذلك لم يكن أكثر من دعم بسيط ساعد الطائفة على ألاَّ تندثر نهائياً. كما حصل واندثر كثير من التعاليم التقدمية التي ظهرت قبل المسيح، لأنَّها عجزت عن اختراق درع اليهودية الذي خنقها في مهدها. لقد كان أتباع المسيح الأورشليميون يعدُّون يهوداً صالحين يؤدُّون الالتزامات نفسها التي كان يؤدِّيها اليهود الآخرون عملياً. ولم يكن ثمَّة شيء جديد عندهم سوى اعترافهم بأنَّ الميسيا الذي تنبَّأ بمجيئه أنبياء العهد القديم قد ظهر في شخص يسوع المسيح الذي صلبه اليهود. أمَّا فيما تبقى فهم يهود لا يحيدون عن شريعة موسى قيد شعرة، على الرغم من أنَّ المسيح أعلن غير مرَّة أنَّ موضوعاته شاخت وتجاوزها الزمن. وقال المسيح أيضاً إنَّه أُرسل إلى الشعب المختار الذي لم يقبله، ولذلك فإنَّ تعاليمه هي تعاليم للجميع، بمن في ذلك الوثنيين. ولكنَّ أفراد طائفة أورشليم، بمن فيهم الرسل، التزموا حتى بالفرائض الشكلية لشريعة موسى، خاصة شعيرة الختان. ومع أنَّ غير اليهود أخذوا يظهرون في طوائفهم المسيحية، إلاَّ أنهم أصرُّوا بعناد أعمى على أنَّه لا يجوز أنْ يُعمَّد سوى المختونين.

تلكم كانت صورة الوضع عندما ظهر بولس على المسرح. ولم يكن عليه أنْ يبشِّر بتعاليم المسيح فقط، وبين الوثنيين على وجه الخصوص، وإنَّما كان عليه أيضاً أن يتحرر من قيود حوَّاريي أورشليم الذين تمسَّكوا باليهوديَّة بقوَّة. ولكن بولس كان متفوِّقاً كثيراً على كل أتباع تعاليم المسيح وأحبارهم وقتئذٍ، من حيث المستوى الذهني، والتحصيل العلمي، وقوَّة الروح، والنشاط، والحزم، وقوَّة الإيمان. فمهمَّته تلقَّاها من المسيح مباشرة، وكرس حياته كلها لتأديتها دون أنْ يتراجع، أو يرتد عن التعاليم حتى في أصعب لحظات حياته. لقد أدرك بولس أنَّه لن يستطيع أن يخترق خطوط الدفاع الدائريَّة إلاَّ إذا استقلَّ. فرعاة أورشليم عاجزون تماماً عن مساعدته. ولذلك اعتمد على نفسه وعون الربِّ. فصرف ثلاث سنوات يكرز في مختلف البلدان الوثنية، ونجح خلالها في أن ينشئ طوائف مسيحية ويزوِّدها بتعليماته وإرشاداته. ولم يكتف بولس أن يشرح في رسائله تعاليم المسيح، بل طوَّرها. وعندما نقرأ تلك الرسائل فإننا نتذكر بتداعي الأفكار فلاسفة مثل هيجل، وكانت، وفيورباخ وسواهم من الفلاسفة الكبار. ولكن بولس كان الفيلسوف الأعمق والأشمل، ويحقق هذه التعاليم في الحياة تحت النيران المتواصلة التي كان يرميه بها خصم قوي غدَّار مسعور. وفي الوقت نفسه كان هذا الرجل يمارس عمله الحرفي: صناعة الخيام لكي يعيل نفسه. ونحن لا نعرف المرارة

الروحية التي كان يحسُّ بها عملاق الروح هذا، ولكنه عبر عنها مراراً. والحقيقة أنَّه قال مرَّة: «بقدر ما يكون الجسد ضعيفاً تكون الروح قويَّة». ومثاله هو نفسه يؤكِّد صحَّة هذا القول.

وما ينبغي قوله، إنَّ برنابا قدَّم عوناً كبيراً لبولس، لا سيما في المسائل التنظيميَّة، عندما كان ينبغي تبريد حدَّة أحبار طائفة أورشليم الذين ألحُّوا على ضرورة أن يُختن كل مَنْ يتلقَّى سرَّ المعمودية دون تأخير.

لقد كرز بولس بتعاليم المسيح في دمشق وسواها من الدول الأخرى طوال ثلاث سنوات. بعد ذلك رغب في أن يقابل بطرس. وكان بطرس يعيش صعوبات كثيرة مع طائفة أورشليم لأنه عمَّد في رحلته قائد المائة كورنيلوس الذي لم يكن مختوناً. ولكنَّ بطرس كان يرى (وإن لم يكن ثابتاً على موقفه دائماً)، ومعه فيليبوس، إنَّه ينبغي تعميد الوثنيين غير المختونين.

وعن زيارته هذه إلى أورشليم كتب بولس في رسالته إلى أهل غلاطيا يقول:

«✿وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الإِنْجِيلَ الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ. ✿لأَنِّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بِإِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. ✿فَإِنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قَبْلاً فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ، أَنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كَنِيسَةَ اللهِ بِإِفْرَاطٍ وَأُتْلِفُهَا. ✿وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى كَثِيرِينَ مِنْ أَتْرَابِي فِي جِنْسِي، إِذْ كُنْتُ أَوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْلِيدَاتِ آبَائِي. ✿وَلكِنْ لَمَّا سَرَّ اللهَ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ ✿أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لِأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، لِلْوَقْتِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْماً وَدَماً ✿وَلاَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ إِلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ قَبْلِي، بَلِ انْطَلَقْتُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ رَجَعْتُ أَيْضاً إِلَى دِمَشْقَ. ✿ثُمَّ بَعْدَ ثَلاَثِ سِنِينَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأَتَعَرَّفَ بِبُطْرُسَ، فَمَكَثْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً. ✿وَلَكِنَّنِي لَمْ أَرَ غَيْرَهُ مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ يَعْقُوبَ أَخَا الرَّبِّ. ✿وَالَّذِي أَكْتُبُ بِهِ إِلَيْكُمْ هُوَذَا قُدَّامَ اللهِ أَنِّي لَسْتُ أَكْذِبُ فِيهِ. ✿وَبَعْدَ ذلِكَ جِئْتُ إِلَى أَقَالِيمِ سُورِيَّةَ وَكِيلِيكِيَّةَ. ✿وَلَكِنَّنِي كُنْتُ غَيْرَ مَعْرُوفٍ بِالْوَجْهِ عِنْدَ كَنَائِسِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ. ✿غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَضْطَهِدُنَا قَبْلاً، يُبَشِّرُ الآنَ بِالإِيمَانِ الَّذِي كَانَ قَبْلاً يُتْلِفُهُ. ✿فَكَانُوا يُمَجِّدُونَ اللهَ فِيَّ.»

(غلاطيا ١: ١١-٢٤)

كما كتب في الرسالة عينها يقول:

﴿بَلْ بِالْعَكْسِ، إِذْ رَأَوْا أَنِّي اؤْتُمِنْتُ عَلَى إِنْجِيلِ الْغُرْلَةِ كَمَا بُطْرُسُ عَلَى إِنْجِيلِ الْخِتَانِ. فَإِنَّ الَّذِي عَمِلَ فِي بُطْرُسَ لِرِسَالَةِ الْخِتَانِ عَمِلَ فِيَّ أَيْضاً لِلأُمَمِ. فَإِذْ عَلِمَ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي يَعْقُوبُ وَصَفَا وَيُوحَنَّا، الْمُعْتَبَرُونَ أَنَّهُمْ أَعْمِدَةٌ، أَعْطَوْنِي وَبَرْنَابَا يَمِينَ الشَّرِكَةِ لِنَكُونَ نَحْنُ لِلأُمَمِ وَأَمَّا هُمْ فَلِلْخِتَانِ.﴾

(غلاطيا ٢: ٧-٩)

وتمخَّض نشاط بولس عن إنشاء كنيسة مسيحية في أنطاكيا. وكانت أنطاكيا هذه مدينة عدد سكانها نصف مليون نسمة، وهي عاصمة الشرق في تلك الأزمنة. وتقع أنطاكيا في شمالي سوريا. لقد كانت المدينة مغطاة بشبكة من الشوارع الطويلة المستقيمة، والتقاطعات التي تزينها الأعمدة والتماثيل. كما كانت المدينة تحتوي على مبانٍ عامَّة جميلة، كثرة من روائع الفن الإغريقي. فقد كان يقوم هنا معبد أبوللون والحوريات. وشكلت المدينة نقطة حدود بين اليونان وآسيا..

ولم يكن سكان أنطاكيا من الإغريق فقط، بل كان فيها أيضاً سوريون، وكثرة كثيرة من الأجانب الذين كان كلهم يتحدَّث اللغة السورية. وقد عاش هؤلاء كلهم في الضواحي والقرى المجاورة. ولم تكن الزيجات المختلطة بين مختلف الأعراق محرَّمة هنا، بل لم يكن للمسألة العرقية وجود أساساً. فحسب القانون كان كل غريب يستقرُّ للعيش في المدينة يصبح مواطناً فيها له الحقوق كلها. ولذلك عاش جميعهم بسلام هنا. وينبغي على القوميين المعاصرين المتزمِّتين أنْ يتذكَّروا تجربة أنطاكيا هذه التي بات عمرها الآن ألفي عام، لكي يدركوا مدى العار الذي يلحق بهم إذ يصفون أنفسهم بالمتحضرين، وهم يعملون بحماسة وحمية على الحفاظ على نقائهم العرقي. لقد كانت أنطاكيا مركزاً من مراكز العالم القديم، كانت تقطنها كثرة كثيرة من مختلف الأعراق، بما فيها مستعمرة يهودية كان لسكانها حسب القانون الحقوق الأخرى كلها التي كان يحظى بها السكان الآخرون.

بعد أنْ تشتتت طائفة أورشليم غداة إعدام ستيفان، نقل كثير من أفرادها نشاطه إلى اليهودية، والسامرة، والجليل، ودمشق، وفلسطين. أمَّا الطائفة المسيحية الأنطاكية فقد أسَّسها عدد من المؤمنين الذين جاؤوا من قورينا، وقبرص. ولكن هؤلاء توجهوا إلى اليهود. وكان اليهود في الأزمنة كلها والمدن كلها يميِّزون أنفسهم عن السكان الآخرين. ففي طقوسهم، ومظهرهم الخارجي تسمَّر اليهود في الزمن، كحجر الشيرميت الذي يبقى ملايين السنين على حاله. ولكن هنا في أنطاكيا حيث تخالط الكل وتداخل كل شيء مع الأشياء الأخرى، تأتّى لليهود أن يتركوا أرستقراطيتهم الدينية التي تباهوا بها في أورشليم. ولكن ما لبث المبشرون الذي جاؤوا من

قبرص وقورينا أن بدَّلوا تكتيكهم وأخذوا يعظون من يشاء، من يهود ووثنيين، والحقيقة أنَّ العلاقات بين اليهود وباقي سكان المدينة كانت متوترة وقتئذٍ. ولكن بعد الهزَّة الأرضية التي وقعت في ٢٣ آذار من العام ٣٧م. وتسببت بأذى كبير للمدينة، تراجعت حدَّة النزاع، وحشد كلهم قواه على الأسباب الخارقة للهزَّة. وفي ذلك الجوِّ كان لمواعظ المبشِّرين تأثير جبار، حققوا فيها نجاحات باهرة. فخلال وقت وجيز تأسَّست هنا طائفة مسيحية متعددة الأعراق. وتبعاً لبنيتها والحالة العامة التي كانت سائدة في المدينة كانت تلك الطائفة (الكنيسة) شديدة الحيوية، متجددة، دائمة التطوُّر. لقد كانت هذه الكنيسة تقع خارج حدود الدائرة اليهودية المحصَّنة التي أحاطت بطائفة أورشليم. ولذلك ظهر هنا في أنطاكيا المهد الثاني. ومن حيث الأهمية، المهد الأول للمسيحية. وبهذه الكنيسة بالذات ترتبط صيرورة بولس. فأنطاكيا بصفتها مهداً للمسيحية لا تقارن بها الإسكندريَّة، والقسطنطينيَّة، وروما، حتى تسمية «مسحيين» ظهرت هنا في أنطاكيا. ولم يكن ثمَّة في أيِّ طائفة مسيحية أخرى، بما في ذلك طائفة أورشليم، وحدة كاملة، وتماسك كاللذين كانا في طائفة أنطاكيا. فوحدة هذه الكنيسة كانت تامَّة ومتماسكة. وهكذا بعد عشر سنوات من صلب المسيح، نجحت المسيحية أن تخترق الحصار اليهودي، وتنشأ في الوسط الذي كان المسيح يحلم به. وكان ذلك الوسط عبارة عن اندماج ديني جمع بين أعراق شتَّى، وهو ما كان المسيح يرغب به، خلافاً لأنبياء العهد القديم.

ولكنَّ أحبار كنيسة أورشليم واصلوا عدم رضاهم عن ذلك التخالط، واستمرُّوا يعيشون وفق مثل اليهودية، وما انفكوا يناقشون مسألة الختان. وباستثناء بطرس وبرنابا، بقي هؤلاء مشغولين بأفكار جزئيَّة سطحية، ومسائل تافهة لا أهمية لها. فأرسلوا برنابا إلى أنطاكيا بصفة مفتش، وقد أعطى الرجل خلاصة إيجابية عن نشاط الكنيسة المحلية هنا. وبقي هو نفسه يقيم في أنطاكيا، حيث عمل هنا مع بولس عاماً كاملاً أنجزا فيه كثيراً.

ونتيجة لتلك الجهود كلها باتت كنيسة أنطاكيا فوق قمَّة لا تُطال. لقد كانت أنطاكيا واحداً من المراكز العالمية التي لا تتوقف فيها حركة الشعوب. وفي مثل تلك المراكز كانت تحسم أهم المسائل الدينية والاجتماعية في أزمنة الاستعمار الروماني.

إذن لم تمضِ سوى عشر سنوات على صلب المسيح حتى انفصلت كنيسة أنطاكيا انفصالاً تامَّاً عن اليهودية، وتمَّ التغلُّب على حالة التردد التي كانت تتحكَّم بسلوك تلاميذ المسيح الأوائل، بفضل بولس وبرنابا، لقد تراجعت كنيسة أورشليم إلى النسق الثاني، وبقيت تتخبط في شباك اليهودية.

ولم يقتصر نشاط رعاة كنيسة أنطاكيا على طائفتهم وحدها. فقد ظهرت خطة البعثات التبشيرية إلى آسيا الصغرى كلها للعمل في صفوف الوثنيين. وكانت تلك الخطة

تتطلّب نفقات، ولم تكن الكنيسة تفتقر إليها. فهي لم تنظّم عملها كما فعلت طائفة أورشليم. ففي هذه الأخيرة سادت الشيوعية، وكانت الواردات كلها تنفق على الفقراء والمحتاجين. أمّا في أنطاكيا فقد كانت الطائفة تتوفّر على واردات مهمّة لأنّ أفرادها كانوا أثرياء. لقد كانت طائفة المسيحيين (أو الناصريين كما كانوا يدعونهم) في أورشليم تشبه مجموعة من فاعلي الخير الحالمين. ولكن أنطاكيا تحكّمت الآن، ومع ذلك بقيت العلاقات بين الكنيستين طبيعية. فعندما انتشرت مجاعة في أورشليم في العام ٤٤م.، وباتت طائفتها المسيحية في خطر، هبَّ أخوتهم في أنطاكيا وأرسلوا لهم مساعدات ماديّة. لكنَّ كنيسة أنطاكيا باتت مستقلّة تماماً عن كنيسة أورشليم. فلم تعدْ ثمّة ضرورة لدعوة الرسل من أورشليم لكي يضعوا أيديهم على الرؤوس ويمنحوا نعمة الروح القدس؛ إذ بات هذا كله يؤدّى الآن في أنطاكيا تحت إشراف كنيستها. ولم يمضِ وقت طويل حتى سقطت كنيسة أورشليم. وقد علّق المتخصصون على ذلك بما يلي: «لقد كانت خصوصية المؤسسات التي قامت على مبدأ الشيوعية تتمثّل في أن طورها الأول يتميّز عادة ببريق جميل، لأنَّ الشيوعية تفترض دائماً حضور حماسة شديدة، لكن هذا كله لا يلبث أن يتبدد، لأنَّ الشيوعية نفسها مناقضة للطبيعة البشرية. فالنكران المطلق للذات يولّد شرّاً أكبر بكثير من ذلك الشّرِّ الذي يسعون لتفاديه عن طريق تدمير مؤسسة الملكية الخاصة». ومن الواضح دون لبس أن هذه الكلمات تستحق الاهتمام كله، بصرف النظر عن الظروف التي قيلت فيها.

قبيل سقوط الكنيسة المسيحية في أورشليم أمر الحاكم هيرودوس أنتيبا بقطع رأس الرسول يعقوب ابن زبدي أخ يوحنا، دون أيِّ محاكمة دينية، كما أُلقي ببطرس في السجن. والحقيقة أنّه نجا من هناك بمعجزة: ليلاً فتح باب زنزانته وأبواب السجن، ثمَّ تطوّرت الأحداث بعد ذلك على الوجه الآتي: سرعان ما مات هيرودوس أنتيبا، وعادت أورشليم إلى الإدارة الرومانية. فباتت الحال أفضل. فالرومان حدّوا من انفلات السلفية اليهودية إلى حدٍّ ما، ولجموا ضراوة السيندريون. لكن ما يبعث على الأسى أنَّ الرومان لم يكونوا حازمين في هذا الاتجاه بما يكفي.

أما يوحنا مرقس، ابن خالة برنابا، فقد كان معيناً نشيطاً للرسول بولس. ويفترضون أنّه هو الذي كتب الإنجيل الثالث. وفي أثناء ذلك كانت العلاقات بين كنيسة أنطاكيا وكنيسة أورشليم قد زادت توتراً وتعقيداً. وكان مرقس هو صلة الوصل بين الكنيستين. لكنَّ برنابا جاء به إلى أنطاكيا وصار هنا إلى معاون له ولبولس. فأُرسل في بعثة للتبشير بالتعاليم المسيحية. وقد شملت تلك البعثة أراضي شاسعة من الإمبراطورية الرومانية. وما يسّر لمرقس مهمّته: وحدة اللغة، وطرق المواصلات، وسلامة التنقّل. فوحدة الإمبراطورية كانت

العامل الحاسم في انتشار المسيحية، إذ كانت هذه تستولي بسرعة قياسية على كل مقاطعة من مقاطعاتها. لكن ذلك العمل استغرق عشرات السنين. وما أن انقضى القرن الميلادي الثالث حتى تبيَّن أنّه ثمَّة في الدولة الرومانية ديانة قادرة على بثِّ دم جديد، روح جديدة في جسد الدولة. ولذلك باتت الكنيسة المسيحية الديانة الرسمية في الإمبراطورية.

وكان سلَّم توالي انتشار المسيحية على الشَّكل الآتي: بعد اليهودية سوريا، ثمَّ قبرص، فآسيا الصغرى، ومقدونيا، واليونان، وإيطاليا. وهكذا خضع ساحل المتوسِّط كله تقريباً للمسيحية.

لكنَّ المسيحية لم تنتشر وحدها، فقد انتشرت اليهودية أيضاً. وقامت في الغرب مستعمرات يهودية كبيرة (في قورينا، وقبرص، وآسيا الصغرى، ومدن مقدونيا، واليونان، وإيطاليا). وكان تأثير الطوائف اليهودية قوياً في كل مكان. وقال المؤرِّخون إنَّ «اليهود المهزومون شرَّعوا للمنتصرين عليهم شرائعهم».

لقد كان الوضع السياسي الدولي في أواسط القرن الميلادي الأول شديد التعقيد. وكان ذلك الطور من أسوأ أطوار التاريخ القديم. فالمجتمع الروماني واليوناني في النزع الأخير. واهتزت ثوابت ديانات شعوب الإمبراطورية. وغرقت روما في الفساد والطغيان. وغني عن البيان أننا لن نستطيع أنْ ندرس في هذا المقام تفصيلات الوضع السياسي في الإمبراطوريَّة الرومانية آنئذٍ. لكننا ننوِّه إلى أن السلطات كانت تحرِّم إنشاء أي اتِّحادات أو منظمات. وكانت عقيدتها في ذلك، هي: الدولة والفرد، أو بمعنى أدقّ، الدولة والمواطن. ولكي لا يُنتقص دور الدولة، حُرِّم قيام أي اتحادات؛ ما عدا صناديق الدفن: من كان يساهم شهرياً بمبلغ زهيد في الصندوق الاجتماعي، كان يطمئن إلى أنَّه سوف يوضع على قبره إناء الرماد، ولوحة مرمريَّة صغيرة في المرقد. وسوف يكتب اسمه على اللوحة.

وهكذا كان ينبغي ألاَّ يكون هناك أي طوائف مسيحية رسمية علنية. ولكن هذه كان موجودة في واقع الأمر تحت يافطة صناديق الدفن هذه، ولذلك تحوَّلت قبور أول الشهداء المسيحيين إلى أقدم المقدسات المسيحية.

لقد ظهرت الكنائس المسيحية بسرعة قياسية في كل مكان. فالوضع السياسي والاجتماعي في البلاد هو الذي مهَّد لها الطريق، على الرغم من مقاومة اليهودية. وتوجهت تعاليم المسيح (وفي ذلك الوقت كانت الكنيسة لا تزال باقية عليها) إلى الناس كلهم، بصرف النظر عن الانتماء العرقي أو الاجتماعي. وإذا ما توخَّينا الدِّقَّة، فإنها توجَّهت أساساً إلى المحرومين، والمعدمين، والذين لا يملكون. فمن لم يكن له منزل أو أهل وجد في

الكنيسة ملجأ وأهلاً، بالمعنى المباشر والمجازي. فقد كان المسيحيون الأوائل يتذكّرون جيِّداً لبَّ تعاليم المسيح: محبَّة القريب والعناية به. ولكن في الوقت نفسه، اندغم المسيح والدين الجديد بالنسبة لأكثر مسيحيي ذلك الزمن، باليهود واليهودية، لقد كان «أبناء الإله» يظهرون كالفطر في كل مكان، وتعهدوا بأن يصنعوا المعجزات لكي يثبتوا أنهم «أبناء الإله» فعلاً. ونحن لن نتحدَّث عنهم بالتفصيل، لكننا نشير إلى أن آلافاً من الناس الذين أغووهم فقدوا حياتهم: لقد كانت السلطات الرومانية تقمع من غير رحمة مثل تلك العروض والمواكب واللقاءات المفرطة الحماسة. إن نزوع الإنسان نحو المعجزات، وميله الدائم إلى أنْ ينقذه أحد ما آخر، هو نزوع فطري لا يندثر، وهو أقرب إلى طبيعة الإنسان من العمل الدؤوب لإنقاذ نفسه، وتنظيم حياته بطريقة تجعل عيش القريب هانئاً كعيشه هو نفسه.

ونحن ينبغي علينا أن نؤدِّي مسيحيي طائفة أورشليم الأولى حقَّهم، لأنَّهم فعلوا ما علَّم به المسيح حقاً. بيد أنَّهم عجزوا عن الصمود. كما كان لمساعدة القريب مكانة بارزة في نشاط الكنائس المسيحية البدائية الأخرى أيضاً. ولكن سرعان ما تحوَّلت الكنائس إلى منظمات باتت تغلب عليها مصالح من نمط تلك التي تعرفها منظمات البشر الأخرى. فنشأت مسألة إدارة المنظمة، والعلاقات بين مختلف التنظيمات. وكما هو معتاد في مثل هذه الأحوال، فقد أخذت تنشأ اتحادات قامت على المبدأ الإقليمي. وكان يجب أن يرئس الاتحاد أحد ما. وبذا تكون قد ظهرت الأسقفيات التي جمعت تحت لوائها الخورنات. وقد رئس الأسقفية أُسقف. وسرعان ما أُرسي مبدأ توارث الكرسي الأسقفي: لم يكن الأساقفة ينتخبون كما كانت الحال عليه عندما كانت طائفة أورشليم الأولى تنتخب الدياكونوس، إنَّما كانوا يعيِّنون تعييناً. وقد كانت المرتبة الدينية الأعلى، أي الرسل، هي التي تعيِّن. ثمَّ بات كل أُسقف يعيِّن وريثاً له بنفسه. وهكذا تأسس النظام الوراثي في الكنيسة المسيحية. وكان هذا الوضع قد نشأ في القرن الميلادي الثالث. وعن هذا كتب إ. أ. كريفليوف يقول: «إذا كان الأسقف في بادئ الأمر، هو الشيخ الأول ورئيس مجلس الأساقفة الذي ينتخب بطريقة تتسم بكثير من الديمقراطية، فإنَّه تحوَّل بعد ذلك إلى وجيه متسلِّط عالي الشَّأن، لا ينتخب انتخاباً إنَّما يتلقى بركة سلفه بوضع يده على رأسه، ويعلو فوق المؤمنين كما فوق رجال الأكليروس الأدنى منه درجة. قراراته تنفَّذ ولا تناقش، ويدير شؤون أسقفيته كما يرى هو وحده. وفي هذا يقوم «نظام الأسقفية الوراثي»».

كما أنشأ الأساقفة ووجهاء الكنيسة الآخرون لأنفسهم ألقاباً متميِّزة: صاحب القداسة، وصاحب النيافة، وصاحب الغبطة، والحبر الأعظم و... وأخذ هؤلاء يرتدون أزياء باذخة جداً، ويقومون بزيارات «حبرية» فخمة.

لقد نسي هؤلاء قول المسيح عن أولئك الذين يرفعون أنفسهم ويتسلّطون على حساب الآخرين. كما صمُّوا آذانهم وحجبوا أعينهم عن الوصايا التي كان المسيح يزوِّد بها تلاميذه وهم ينطلقون إلى مختلف المدن والبلدان ليبشِّروا بالتعاليم الجديدة. وتجاهلوا أنَّ الرسل كانوا يتجوَّلون عبر البلاد سيراً على الأقدام، وعاشوا حياة الكفاف على ما يجود لهم به فاعلو الخير.

وفي أورشليم، وضع الرسل مجتمعين ما يشبه ميثاق المسيحية الروحي، ودعوه: رمز الإيمان. وقد احتوى على ما يؤمن به المسيحي الحقيقي. وهاكم نصه:

«أومن بالإله الأب الكلي القدرة؛ خالق السماء والأرض، وأومن بيسوع المسيح، ابنه الوحيد، ربّنا الذي حُبل به من الروح القدس، وولد من العذراء ماريا، وتألّم على عهد بيلاطس البنطي، وصلب، ومات، وقُبر؛ ونزل إلى الجحيم، وبُعث في اليوم الثالث من الأموات، وصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين الإله الأب الكلي القدرة. وسوف يأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات. وأومن بالروح القدس، وبالكنيسة المقدّسة الجامعة، وتواصل القدّيسين، وقيامة الجسد، والحياة الأبديّة».

لقد كان يعقوب الرسول أسقف كنيسة أورشليم، فكتب في العالم ٥٩م. رسالة رسولية جامعة موجهة إلى المسيحيين المشتتين، يذكّرهم فيها بأسس تعاليم المسيح: المحبَّة والتعاون. ولكنَّ هذين كان يجب أنْ يتحققا في أعمال محددة. فالإيمان من غير أعمال إيمان ميت. كان يعقوب الرسول قد وضع أول مراتب الخدمة الدينية (لإقامة سر القربان المقدَّس). ولا تزال هذه الخدمة تقام في معبد أورشليم حتى يومنا هذا في يوم عيد يعقوب. لقد وضع الفريسيون بالعنف حدّاً لحياة يعقوب، لأنّه جذب كثيرين جداً إلى المسيحية. وحدث ذلك في عيد الفصح. فقد أرغموا يعقوب على الوقوف فوق جناح الهيكل ليلقي موعظة في الشعب. لكنهم رموا به من هناك وشرعوا يضربونه. وأنهى تلك الفظاعة أحد الجوَّاخين الذي فلق رأس يعقوب بهراوة ثقيلة. لقد كان ذلك الرجل «واحداً من الحشد». ومثلما جرت العادة على مرِّ التاريخ، كانت الغوغاء تنكل دائماً بمن لهم قدرات ذهنية، وسمات أخلاقية وروحية متفوِّقة. فهي لا تحترم سوى السوط.

أمَّا بطرس وبولس فقد راحا ضحية أعمال القتل التي أدارها الإمبراطور الروماني نيرون ضدَّ المسيحيين في روما. وكانت ذريعته الظاهرية لإقامة تلك المجازر، هي الحريق الذي التهم روما في العام ٦٤م. وفي تلك الملاحقات استخدم الرومان ضدَّ المسيحيين أكثر وسائل القتل فظاعة: أدخلوا بعضهم في جلود الحيوانات ورموا بهم للكلاب الضارية، وأحرقوا بعضهم الآخر، وصلبوا بعضهم الثالث، وساقوا بعضهم الرابع إلى حلبة السيرك لتمزِّقه الأسود. وأمر

نيرون بإعدام الرسولين بطرس وبولس. فقادوهما إلى السجن. ومن هناك كتب بولس في رسالته إلى تيموثاوس يقول:

﴿فَإِنِّي أَنَا الآنَ أُسْكَبُ سَكِيباً، وَوَقْتُ انْحِلاَلِي قَدْ حَضَرَ. قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، وَأَخِيراً قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضاً.﴾

(رسالة تيموثاوس الثانية ٤ : ٦-٨)

وفي الأول أعدموا زوجة بطرس أمام عينيه. ثمَّ أعدموا بطرس نفسه صلباً، وهو أكثر ضروب القتل إذلالاً عند الرومان. أمَّا بولس فلم يكن القانون الروماني يجيز قتله بتلك الطريقة المهينة، لأنَّه كان مواطناً رومانياً؛ ولذلك أنعموا عليه بقطع رأسه بالسيف.

كما أُعدم أيضاً الإنجيليان لوقا ومرقس. وأُعدم كذلك الرسل الآخرون، ومنهم أندراوس أول من دعاه يسوع، وقد امتدَّ احتضاره على الصليب عدَّة أيام: لإطالة أمد آلامه لم يدقُّوا مسامير في يديه وقدميه، بل قيَّدوه إلى الصَّليب بالحبال. أمَّا يوحنا الإنجيلي فقد تعرَّض لشتَّى ضروب التعذيب، ثمَّ نفي إلى جزيرة باتموس الصحراوية. وهناك جاءته الرؤى التي وصفها في كتاب العهد الجديد (رؤيا يوحنا). كما وضع الإنجيل الرابع. لقد عاش يوحنا عمراً مديداً، ومات عجوزاً كهلاً في أوائل القرن الميلادي الثاني. ومات برنابا تحت التعذيب في جزيرة سلامين.

ولكن على الرغم من كل شيء واصلت المسيحية انتشارها. فتسرَّبت إلى البارثيين، والفرس، والمصريين، والنوميديين، والأسبان، والبريطانيين، والألمان. وفي أواخر القرن الميلادي الثاني، خاطب المسيحي ترتوليان الوثنيين قائلاً: «لم نظهر نحن إلاَّ في يوم أمس، وها نحن نملأ مدنكم، وجزركم، وقلاعكم، وقراكم، ولقاءاتكم، ومعسكراتكم، وقصوركم، وسيناتكم، واجتماعاتكم العلنية الحاشدة، وساحاتكم؛ ولم نترك لكم سوى معابدكم. وإذا ما تركتكم كثرتنا هذه ومضت إلى مكان قصي، فسوف يذهلكم خلوّ مكانكم وقفاره».

في زمن سيفيروس أُذن للمسيحيين باجتماعات علنية، وإقامة طقوس عبادتهم بحرِّيَّة. وهكذا ظهرت المعابد الأولى. لكنَّ المعابد الحقيقية البديعة لم تشيَّد في مدن الإمبراطورية إلاَّ في القرن ٣م. فحينئذٍ ظهر الفن المعماري الكنسي. كما كان المسيحيون قد أسَّسوا مدارسهم أيضاً. وعندما استؤنف الاضطهاد من جديد دخل المسيحيون الدياميس والسراديب. وقد دفن في تلك الأنفاق كثير من مسيحيي القرون الأولى.

ومع بدايات بناء المعابد المسيحية كان قد نشأ نظام متكامل لتأدية شعائر الخدمة الإلهية، ولا يزال قائماً بسماته العامة حتى يومنا هذا. وكان كل شيء يبدأ بما تركه المسيح لتلاميذه: كسر الخبز. لقد كان مسيحيو الطوائف الأولى يقيمون جماعات تملك كل شيء ملكية مشتركة. وعندما كانوا يجتمعون كانوا دائماً يكسرون الخبز يومياً إحياء لذكرى المسيح. ولكن مع تزايد أعداد المؤمنين تناقص عدد مرّات إقامة هذا السرّ، وصاروا يقيمونه في ولائمهم العامة فقط. كما كانت إقامة هذا السرّ تترافق بصلوات. وهكذا نشأ شيئاً فشيئاً نظام محدد لإقامة شعائر الخدمة الإلهية، مرتبة متميِّزة من مراتب الليتورجيا. وفي القرن الميلادي الثّاني كان هذا النظام يتألّف من قراءة الكتب المقدَّسة، وإنشاد المزامير وسوى ذلك من الترانيم الروحية، وإلقاء المواعظ، وتلاوة الصلوات، وتكريس النِّعم بكلمات المخلِّص، والابتهال إلى الروح القدس، ومنح البركات. وفي تلك الآونة كان الدياكونوس يحملون الهبات إلى المرضى ومن لم يكن بمقدورهم حضور القدَّاس الإلهي.

وبعد ذلك بات ينبغي على منْ يرغب في المناولة أنْ يؤدّي قبل ذلك طقس الاعتراف بخطاياه وإعلان ندمه وتوبته أمام الكاهن. وكان بولس الرسول هو من ابتكر هذا الطقس بهدف اختبار المؤمن ضميره.

وفي القرن ٣م. كانت قد تشكلت التراتبية الكنسية وتبلورت (الأسقفية، الأبرشيَّة، الخورنة).

لقد كان اضطهاد السلطات الرومانية للمسيحيين يتكرَّر دورياً. وكان الأمر برمَّته يرتبط بشخصية الإمبراطور نفسه. فملاحقات نيرون ومجازره ذهبت مع الماضي. وبنى المسيحيون معابدهم وأخذوا يؤدُّون طقوسهم بأمن وسلام. ولكن ما أن اعتلى دقلسيان عرش الإمبراطورية حتى بدأت الملاحقات من جديد، ولكن بقوَّة لا سابق لها. فقد قسم الإمبراطور الإمبراطورية إلى شطرين، وأعطى شطراً منها إلى إمبراطور آخر هو مكسيمليان، وعيَّن كل من الإمبراطورين معاوناً له بلقب قيصر. وكان قيصر دقلسيان هو غاليريوس، العدوَّ اللدود للمسيحيين، وقد نجح هذا في افتعال الملاحقات. ففي ٢٣ شباط من العام ٣٠٣م. وقع الإمبراطور أمراً باجتثاث المسيحية من جذورها خلال فترة زمنية محدودة. وتنفيذاً للأمر دمَّروا معابد المسيحيين ونهبوها، وأحرقوا الكتب المقدَّسة، ونكلوا بالمسيحيين بأبشع الأساليب. ووصلت إلينا مدوَّنات كثيرة تصف تلك الفظائع، دوَّنها شهود عيان، وعندما يقرؤها المرء يتضح له إلى أي درجة يمكن أن ترقى روح الإنسان. ومن الواضح بالتأكيد أننا لن نستطيع أن نسوق هنا لو جزءاً من تلك الشهادات. لكننا سوف نقول بعض الكلمات عن الشهيد العظيم

جيورجي الظافر. فقد كان هذا جندياً شجاعاً أحبَّه الملك حبّاً كبيراً. وفضح جيورجي بطلان عبادة الأوثان، وقاسم المسيحيين إيمانهم. فأمره الملك بالارتداد عن المسيح، لكنَّ الجندي كان صلباً إلى الحدِّ الذي مكَّنه من التمسُّك بالتعاليم. وبصلابته هذه جذب كثيرين إلى المسيحية. حتى زوجة الإمبراطور، الإمبراطورة ألكسندرا أعلنت على الملأ أنَّها مسيحية. فحكم عليها بالموت. لكنها توفِّت قبيل تنفيذ الحكم. وأعدم جيورجي أيضاً.

أمَّا في الشَّطر الغربي من الإمبراطوريَّة، فلم يكن هناك ملاحقات للمسيحيين، ففي أفريقيا وإيطاليا لم تبدأ الملاحقات إلاَّ على يدي ماكسينتيوس.

في عهد قسطنطين صارت المسيحية إلى ديانة رسمية للدولة. وقد ماثلت الكنيسة مآثر قسطنطين تجاهها بمآثر الرسل. ولذلك دعته: مثيل الرسل. وكتب المؤرِّخ يوسيفوس يقول: «إنَّه رأى أنَّه من الحماقة أن يتمسَّك المرء بآلهة لا وجود لها، ويبقى بعد هذه البراهين كلها عامهاً في الضَّلال. ولذلك اقتنع أنه ينبغي أن يبجِّل الإله الأب، وبدأ يبتهل إليه، ويتوسله لكي يظهر وينير عقله ليراه، ويمدَّ له يمينه في عمله الذي هو بصدده». وقد كان ذلك حينما قاد قسطنطين جيشه ليحرر إيطاليا من ماكسينتيوس. ثمَّ يتابع يوسيفوس روايته فيقول: «ومرَّة في وضح النهار، وبعد صلوات وتوسلات ملحَّة، جاءت الملك من لدن الإله آية من أكثر ما يكون الأمر غرابة: عندما أخذت الشمس تميل نحو الغرب - حسب رواية الملك نفسه -: رأيت بأُمِّ عيني علامة الصَّليب مرسومة بالنور على صفحة الشمس، وتحتها كتابة تقول: بهذا سوف تنتصر. وقد ملأته تلك الرؤية رعباً، وكذا الجيش كله، الذي تابعه متأمِّلاً مغزى المعجزة. فاحتار قسطنطين في أمره وحدَّث نفسه: ماذا تعني هذه الظاهرة؟ لكنَّ الليل هبط وهو مازال يفكِّر ويؤوِّل. عندئذ جاءه المسيح في الحلم...». وقد ربح قسطنطين المعركة، مع أنَّ قوَّاته كانت أقلَّ عدداً من قوات خصمه.

وبعد أن مات ماكسينتيوس غرقاً في نهر التيبر، بات قسطنطين الإمبراطور الوحيد على الشطر الغربي من الإمبراطورية. أمَّا في الشطر الشرقي، فقد كان العرش بين يدي ليسينيوس. لقد كان قسطنطين حاكماً حكيماً. إذ أصدر إرادة ملكة أعلن فيها حرية المعتقدات الدينية كاملة، فبات من حقِّ الوثنيين، والمسيحيين أن يقيموا شعائرهم بأمن وسلام من غير أن يتسبب أحدهما للآخر أو للدولة بأي أذى. كما أصدر إرادة أخرى أجاز فيها للمسيحيين بناء معابد جديدة؛ وأمر بأن تعاد لهم معابدهم القديمة التي انتزعت منهم في مرحلة الاضطهاد. لقد أدرك قسطنطين بوضوح أنَّ التعاليم المسيحية وحدها المؤهَّلة لتجديد الإمبراطورية في الميدان الأخلاقي. وثمَّة كثير من القرائن التي توحي بتأثير تعاليم المسيحية

على إدارة قسطنطين، وكان الملك قد درس هذه التعاليم دراسة وافية. فقد ألغى قسطنطين الإعدام صلباً، وألغى العروض الدموية في السيرك، وأخذ اليتامى والأطفال المرميين تحت رعايته، وأظهر رحمة نحو المعوقين والفقراء.

أما في الشطر الشرقي من الإمبراطورية فقد كان ليسينيوس يعيث فساداً في الأرض، ويدمِّر وجود المسيحية هناك. فقاد قسطنطين حملة ضدَّه وهزمه، ثمَّ أعدمه. وبذلك يكون قسطنطين قد غدا الإمبراطور الأوحد في الإمبراطورية الرومانية الموحَّدة. فبنى لنفسه عاصمة جديدة دعاها: القسطنطينية.

لقد نوَّهنا سابقاً إلى ظهور مختلف تأويلات الإيمان المسيحي. وكان طبيعياً أن يثير ذلك خلافات، ونزاعات، وعداوات داخل الكنيسة نفسها. فقد طالت التأويلات أعرض دائرة من المسائل، التي والحق يقال، لم تكن لها صلة بجوهر تعاليم المسيح. إذ اهتمَّ المؤوِّلون أكثر ما اهتمُّوا بالتفاصيل الشكلية، ومختلف ضروب السفسطة. واضطرت الكنيسة إلى هدر أفضل قواها لتجاوز تلك الانقسامات، أو كما اتفقوا على تسميتها: تلك الهرطقات. وتمحور الخلاف حول مسائل مثل: أيُّ الطبيعتين في المسيح هي الغالبة: طبيعة البشرية أم الإلهية؟ ما هو الثالوث المقدَّس؟ هل تجوز الصلاة للأيقونات، أم ينبغي العزوف عنها؟ و... ومن الواضح أنَّ أيَّاً من هذه المسائل لا يتَّصل مباشرة بتعاليم المسيح. فهذه الأخيرة واضحة ومتماثلة إلى درجة أنه لا مجال للاختلاف في تأويلها. وإذا كان قد قيل: «أحبب قريبك كما تحب نفسك»، وإذا كان قد تمَّ توضيح مغزى مفهوم «القريب»، فأيُّ اختلاف في تأويل هذا يمكن أن يظهر. وما ينسحب على هذه الموضوعة المسيحية الأساسية. ينسحب على الموضوعات الرئيسة الأخرى كلها. ولكن سيطرة أحبار الكنيسة التي لا تحدُّها حدود، ووجودهم خارج كل رقابة أو سيطرة، وتحوُّلهم إلى حكام غير فقراء، جعلهم يبحثون عن كل فرصة لزيادة صلاحيات سلطاتهم، ومصادر مواردهم على حساب أحبار الأسقفيات المجاورة الذين لا يختلفون عنهم في شيء. وللإطاحة بهؤلاء كان ينبغي إثبات ابتعادهم عن تعاليم المسيح، أو اتهامهم بسوء تأويلها. ولذلك كانت أغراض أكثر تلك الهرطقات أغراضاً زمنية. ونحن نقول هذا، لأنَّ أوَّل مجمع مسكوني مسيحي التأم فقط لكي يدحض إحدى تلك الهرطقات؛ بل كان الهدف الوحيد للمجامع المسكونية المسيحية الأخرى كلها هو معالجة مسائل الهرطقة.

في حزيران من العام ٣٢٥م. دعا الإمبراطور قسطنطين إلى عقد المجمع في مدينة نيقيا (آسيا الصغرى). والتأم المجتمعون في قاعة القصر الملكي. ويدعى هذا المجمع أيضاً بالمجمع الآريوسي، إذ كان مدعواً لوضع حدٍّ لهرطقة راعي الإسكندرية آريوس. وكان هذا قد أوَّل مسألة الثالوث

المقدَّس بطريقته الخاصة. فقد أكَّد آريوس على أنَّ يسوع المسيح ليس متماثلاً مع الإله الأب في الوجود، وإنَّ له زمن بدء. بمعنى آخر، رأى آريوس أنَّ الإله الأب خلق يسوع المسيح، وأنَّه كان ثمَّة زمن لم يكن ليسوع فيه وجود. ولكن لماذا أخذت وجهة النظر هذه ذلك الصدى كله، مع أنَّ آريوس لم يكن حتى أُسقفاً؟ يقوم الأمر هنا في أنَّ آريوس كان شخصية فذَّة موهوبة له القدرة على استمالة مستمعيه وشدِّ اهتمامهم. ولذلك شاعت هرطقته شيوعاً عريضاً جداً. لقد كان آريوس يطمح إلى منصب أُسقف الإسكندريَّة، وعندما لم يتحقق مطمحه تحوَّل إلى داعية نشط جداً. ووجه الإمبراطور قسطنطين نفسه رسالة إلى آريوس دعاه فيها إلى بذل كل جهد ممكن للحفاظ على وحدة الكنيسة. وعند ذلك الوقت كان كثير من الأساقفة قد أخذ جانب آريوس في النزاع. لكن رسالة الإمبراطور لم تزحزح آريوس عن موقفه. فطرحت المسألة على المجْمع لبحثها واتخاذ قرار بشأنها. وقد شارك في الاجتماع ٣١٨ أُسقفاً. ورافقهم الرعاة، والدياكونوس، وشخصيات روحية أخرى. وأخذ قسطنطين على عاتقه تغطية نفقات المجمع كلها.

لقد أدان المجمع هرطقة آريوس. ولم يقف معه سوى سبعة عشر أسقفاً. كما اتخذت قرارات في مسائل أخرى: تحديد تاريخ الاحتفال بالفصح المسيحي، على سبيل المثال. إذ تقرر أن يكون العيد في الأحد الأوَّل الذي يلي انتصاف قمر الربيع. وكان الفصح المسيحي يتوافق قبل ذلك مع تاريخ الفصح اليهودي. ونوقشت هنا أيضاً مسألة بتولية رجال الدين. فتقرر أنَّه لا ضرورة لذلك ويمكن لرجل الدين أن يتزوَّج.

وقبيل عودة الأساقفة إلى أسقفياتهم زوَّدهم الإمبراطور بتوجيهات لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا. وهاكم نصُّها:

«احذروا حدَّة مناظراتكم بين احزابكم. ولا يحسدنَّ أحد منكم الأساقفة الذين يظهرون حكمة مميُّزة، فوقار أيٍّ منكم وتميُّزه، هو وقار للكنيسة كلها. لقد سموتم وتفوَّقتم، فلا تنظروا باستعلاء وخيلاء نحو الأدنى منكم، فالإله وحده يعرف من هو المتفوِّق. إنَّ الكمال نادر الوجود، ويجب أنْ يكون لدى المرء رفق بالأضعف من أخوته؛ أحجبوا كل ما هو غير مهمٍّ بالتسامح، وخذوا الضعف البشري بحسابكم، وتذكَّروا أنَّه لا يمكنكم استمالة كل الناس بالمحاكمات العلمية والعقلية، فمحبُّو الحقيقة الصادقون قلَّة. يجب أنْ نكون كالأطباء، نوافق كل دواء مع المرض الذي نشخِّصه، وتعاليمنا مع اختلاف ميول الناس».

ولكنَّ النتيجة الأساسية التي خرج بها مجمع نيقيا، هي اعتماد الدوغما (العقيدة. م.) المسيحية (أضافوا إليها في المجامع التالية بعض الموضوعات). بيد أنَّ العقيدة التي أُقرَّت لم

تكن سوى تنويعة مدققة لرمز الإيمان الرسولي الذي أوردناه قبل قليل. أما هرطقة آريوس فقد أُسدل عليها الستار. وقد نجح أنصاره في أن يكتسبوا ثقة الإمبراطور قسطنطين فأمر بإعادته إلى الكنيسة. ولكنه عندما اقترب في صباح اليوم التالي مع حشد من أنصاره من الكنيسة سقط ميتاً في الطريق. وقد وقع هذا قبيل فصح العام ٣٣٧م.، وفي العام نفسه توفى قسطنطين تاركاً الإمبراطورية لأبنائه الثلاثة.

ولكنْ حدث أن سرعان ما سقط الابن الأكبر لقسطنطين قتيلاً في أحدى المعارك، فانقسمت الإمبراطورية الرومانية من جديد إلى شرقية وغربية. وكانت السيطرة في الشرق لأنصار آريوس. وبعد حين هلك إمبراطور الشَّطر الغربي، فعادت الإمبراطورية موحَّدة تحت سلطة إمبراطور الشرق كانستانسيوس. وهكذا تكون الآريوسية قد حققت نصراً تاماً. وقد سلك الإمبراطور سلوك الأباطرة الحقيقيين: دعا إلى اجتماع المجمع الثاني في ميلانو وفرض مسبقاً القرار الذي كان يجب على المجمع إصداره. ومن اعترض على القرار نفي. وقام القرار في الارتداد عن كنيسة أثناسيوس أسقف الإسكندريَّة وخصم آريوس. ولم يستطع أثناسيوس نفسه أنْ يواجه ضغط الإمبراطور، فوقَّع رسالة الارتداد عن قرارات مجمع نيقيا.

وعثر كبار أحبار الكنيسة على ما يشغلون أنفسهم به: الصراع ضد بعضهم بعضاً على السلطة. أما تعاليم المسيح فقلَّما كان يتذكَّرها أحد منهم، إذ انصبَّ اهتمامهم على ممتلكاتهم والصراع في سبيل السلطة.

وبعد موت كانستانسيوس تولى العرش ابن أخيه (أو أخته) يوليان، المعروف في الدراسات الكنسية بيوليان المرتدّ. وكان هذا قد عُمِّد في طفولته، لكن أحداً لم يهتم بأنْ يخلق فيه طيبة المسيحيين ضف إلى هذا أنَّه رأى بأُمِّ عينه لا أخلاقية دسائس رجال الكنيسة المسيحية. ولَّما صار إمبراطوراً ارتدَّ عن معموديته وأعلن الحرب على المسيحية واتخذ جانب الدفاع عن الوثنية. لكنَّ حكم يوليان لم يستمرَّ سوى عامين. ويروى أنَّه قال بينما هو يحتضر: «لقد انتصرت أيها الجليلي!». وقد قصد المسيح بذلك.

انقسام الكنائس

في العام ١٠٥٤م. وقع الانفصال النهائي في الكنيسة المسيحية إلى كاثوليكيَّة وأرثوذكسية. ولا تزال الحال على ما هي عليه حتى يومنا هذا. وكانت قد سبقت هذا الانفصال قرون من الصراع على السلطة، والملكيات الزراعية، والثروات، والتقدمات. فبعد أن باتت الكنيسة المسيحية واحدة من مؤسسات الدولة، تحوَّلت شيئاً فشيئاً إلى قوَّة سياسية واقتصادية جبَّارة. ودارت صراعات مديدة بين الأسقفيات كان محورها النفوذ، الحصول على مزيد من مجالات النفوذ، وكان طبيعياً أن يصل الأمر حدَّ تدخُّل السلطات الزمنية في الصراعات. كما كانت تقلّبات ذلك الصراع متنوِّعة. فقد كانت حدود الإمبراطورية الرومانية مترامية، وكان لكل إقليم مصالحه التي كان ينبغي على الكنيسة أن تأخذها بالحسبان.

لقد أفضت الحرب بين الأسقفيات، بل بين الأساقفة، إلى نشوء مركزين كنسيين: بيزنطة وروما. أما باقي الأسقفيات فقد كانت تابعة لهذا أو ذاك من هذين المركزين. وكانت الأسقفيات هي: أسقفية أورشليم، وأسقفية أنطاكيا، وأسقفية الإسكندرية و... لكنَّ الإمبراطورية الرومانية الغربية سقطت. ولم يعد ثمَّة إمبراطور إلى جانب بابا روما يخضع له وينسِّق الشؤون الدينية معه. وكان ذلك جيِّداً بقدر ما هو سيئ. فبعد أنْ تحرر البابا من سلطة السلطة الزمنية كان عليه أنْ يجد لغة مشتركة مع حكّام الأقاليم التي نشأت عن سقوط الإمبراطوريَّة الرومانية الغربية. والحقيقة أنَّ أحبار روما حققوا في هذا الميدان نجاحات باهرة، إذ سيطروا سيطرة شبه كاملة على السلطات الزمنية. وهذا ما وضع بين أيديهم مساحات مهولة من الأراضي، بل صار لأحبار روما جيشهم الخاص، فشنُّوا الحروب (الحروب الصليبية مثلاً)، وباتوا يحكمون بضراوة فاقت ضراوة الحكام الزمنيين. فقد عدُّوا أنَّ المقاتل الجيِّد هو راع جيد.

أمَّا بطاركة القسطنطينية فقد كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع أباطرة بيزنطة: لقد عاشت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ألف عام بعد سقوط الإمبراطورية الغربية. وقد أملت هذه الحالة إستراتيجيَة مغايرة تماماً: كان يمكن أن يقدِّم الإمبراطور مساعدته في إدارة

شؤون الكنيسة، لكنَّه كان يمكن أنْ يغدو عدوّاً لدوداً لها أيضاً. وقد عرف مختلف الأطوار هذا وذاك من موقفي الإمبراطور.

وغنيٌّ عن البيان القول، إنَّ الكنيستين مثَّلتا في ذلك العصر قوَّة سياسية جبارة. ولكن الصراع بينهما استمرَّ دائراً بذريعة أن كلاً منهما تصوغ عقائد الإيمان الصحيحة. فلم يتوقف الجدال حول طبيعة المسيح والروح القدس، والثالوث برمَّته طول قرون. ومن كان منهم الأقوى، كان يزيح خصمه، فينفيه أو يقتله بذريعة خطل تأويله للمسائل المطروحة.

فعلى امتداد أكثر من مائة عام (من العام ٧٢٥ إلى العام ٨٤٣م.) نوقشت مسألة ما إذا كان من المشروع استخدام الأيقونات أثناء إقامة الخدمة الإلهية أم لا. وكيف العمل مع المطلب الإلهي: «لا تصنع لنفسك وثناً»، وسوى ذلك من موضوعات التوراة التي تقول، إنَّه تنبغي الصلاة للإله لا للصور أو التماثيل؟ وكان المسلمون قد حسموا المسألة وحرَّموا استخدام مثل هذه الأشياء. أمَّا المسيحيون فقد هدروا زمناً طويلاً في صراع مرير حول هذه المسائل. ونحن يمكننا أن نفهم موقف المدافعين عن استخدام الأيقونات لأنَّ حضور هذه الأخيرة يجعل الصلاة أكثر تأثيراً، فالأيقونات تساعد المؤمنين على إقامة صلة مع الإله، مع المسيح، مع والدة الإله، ومع القديسين. لقد كان السجود أمام الأيقونات فعلاً سحريَّاً، وكانت تتحوَّل هي نفسها إلى تمائم، إلى طلاسم... ولكنَّ أطراف هذا الخلاف لجؤوا إلى استخدام القوَّة، إلى الحروب لحسم الخلاف. بيد أنَّ الأيقونات لم تكن في واقع الأمر سوى ذريعة لاختبار القوى. فالخصمان الرئيسان في النزاع هما بابا روما (نصير الأيقونات)، والإمبراطور البيزنطي ليون الثالث إيساور (خصم الأيقونات). وانخرطت في الصراع قوى أخرى أقل تأثيراً (ملك اللونغبارديين، على سبيل المثال). وفي العام ٧٥٤م. عقد الإمبراطور قسطنطين الخامس المجمع المسكوني الخامس الذي اتخذ قراراً بتحريم السجود للأيقونات. ولكنَّ المجمع المسكوني الذي عقد في العام ٧٨٧م. ألغى هذا القرار، وأقرَّ وجوب السجود أمام الأيقونات.

لقد كانت سلطة البابا تتنامى بسرعة ملفتة. ولم تكن هذه السلطة سلطة روحية، إنما سلطة زمنية حقيقية. فالكنيسة والأديرة كانت تسيطر على أكثر من نصف الأراضي الزراعية. وامتلكت موارد مادية مهولة، فطلبت استقلالها عن السلطة الزمنية. ولكي يكوِّن القارئ تصوُّراً عن قيام السلطة الزمنية للكنيسة، ها نحن نسوق بعض المقاطع من كتاب تاريخ الدين (حقائق فقط!):

لقد تواصلت التقلبات البابوية التي ترافقت بأعمال قتل. فأطاح بونيفاسيوس السابع ببينديكيت السادس وأمر بقتله خنقاً في سجنه. ثم أطاح بينديكت السابع

ببونيفاسيوس السابع هذا، وآلى العرش بعد ذلك إلى يوحنا الرابع عشر. ولكنّ أياً من بينديكت السابع أو يوحنا الرابع عشر لم يعمل على إضعاف قوّة بونيفاسيوس، الذين نجح بعد استراحة استمرّت عشر سنوات في أن يطيح بيوحنا الرابع عشر، ولم يتردد لحظة واحدة في قتله. وبعد بعض الوقت واجه بونيفاسيوس المصير عينه، وجرّت الحشود جثته في شوارع روما ثم رمتها في التيبر. وبات وضع البابا التالي غريغوري السادس معقّداً بسبب وجود خصمه البابوي يوحنا السادس عشر. لكنَّ هذا الأخير واجه مصيراً رهيباً: بناء على أمر الإمبراطور أوتون الثالث اقتلعت عينا يوحنا هذا، وبترت أذناه، وجدع أنفه، وقطع لسانه، ثم وضع على ظهر حمار بالمقلوب، وجابوا به شوارع روما».

لن نواصل وصف ما فعله المرشدون الروحيون، الذين عدُّوهم خلفاء المسيح في الأرض. فالاطلاع على أعمالهم يجعلك تحسُّ بالحزن والألم: هل ستبقى أفضل الأفكار التي كرِّست لخلاص الجنس البشري مطية لأكثر الناس خسَّة وضعة يستخدمونها لتحقيق سيطرتهم على الناس؟!

ومن المعروف أنَّ هذا «الفساد» لم يقتصر على البابوية وحدها، إنَّما طال فئة رجال الدين كلها من القاعدة إلى القمَّة. لقد باتت النقود هي المقياس الأساس عندهم. وبات لكل منصب تسعيرة. زد إلى هذا أنَّه أصبح بالإمكان شراء مغفرة الخطايا بالمال. ألا يرغب قارئي في أن يردد خلف المسيح قوله: «يا أبتي! اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون». لقد انتقد المسيح الفريسيين والكتبيين. لكنَّ تعاليمه آلت إلى الذئاب عينها، ولم ترَ هذه ضرورة لارتداء ثوب الحمل. لقد عبَّر البابوات عن رغبتهم في ألاَّ يكونوا بعد الآن ورثة بطرس الرسول. فأعلن البابا ينوكينيوس الثالث أن «رئيس كهنة روما هو حقاً ممثل، لكنه ليس ممثل إنسان، بل ممثل الإله الحق. لأننا على الرغم من كوننا ورثة رئيس الرسل، لكننا لسنا ممثليه، بل لسنا ممثلي أي رسول أو بشر كان، إنَّما نحن ممثلي يسوع المسيح نفسه». هكذا! إذن بكل صراحة ووضوح، وبغير زيادة أو نقصان! ومعنى هذا أنَّ كل شيء يجب أن يخضع للبابا، والسلطة الزمنية أوّلاً. وقد نجحت البابوية في تحقيق ذلك فعلاً. ففي أوائل القرن الرابع عشر كتب البابا بونيفاسيوس الثامن يقول: «إننا نعلن ونقول، ونقرر، ونصرِّح علناً بأن خضوع الناس كلهم لأسقف روما أمر ضروري من أجل منفعتهم». إنها من غير شك ذروة تسلُّط بابوات روما التي أعقبها انعطاف حادٌّ. فاستخدم الملك الفرنسي فيليب القوة استخداماً غير فاشل ضدَّ روما، فتصدعت سلطة البابا، لكن أمام الملوك فقط؛ أما بالنسبة للناس العاديين فقد زادت

ضراوتها، ونكلت بهم أبشع تنكيل عبر محاكم التفتيش. فما أن تحلَّ لجان التفتيش في المكان حتى تعلن في المعبد أنه ينبغي على المؤمنين أن يقدِّموا لها معلوماتهم عن الهرطقات الموجودة في خلال أيام ستة. وكان مفهوم الهرطقة بالنسبة لهؤلاء عريضاً جداً ولا حدود له. ولم يدع الواشون المفتشين ينتظرون طويلاً، فقد كان كل منهم يحمل ما عنده ضد الآخر وينقله سرَّاً إلى هؤلاء قبل أن يتسنَّى للآخر أن يسبقه. هكذا كانت كنيسة المسيح «تغرس» في نفوس الناس وصية المسيح الرئيسة: «أحبب قريبك كما تحب نفسك».

وها نحن نسوق رمز الإيمان المسيحي الذي استقرَّ على ما هو عليه الآن بعد مناقشات كثيرة، إذ أُقرَّ أجزاءً في المجمع المسكوني الأوَّل والثاني. وقد جاء هذا عبارة عن عرض موجز لحقائق الإيمان المسيحي كلها. ومن لا يقبل هذه الحقائق، لن يكون بمقدوره أن يكون مسيحياً حقيقياً. وجاءت صياغة رمز الإيمان هكذا:

«أومن بالإله واحد آب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى.

وأومن بربٍّ واحد يسوع المسيح، ابن الإله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور؛ نور من نور، إله حق من إله حقّ، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به خُلق كل شيء.

والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السموات، وتجسَّد من الروح القدس، ومن ماريا العذراء، وصار إنساناً. وصلب من أجلنا على عهد بيلاطس البنطي، وتألَّم، وقبر، وقام في اليوم الثالث، حسب ما جاء في الكتب.

وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب،

وسوف يأتي ثانية بمجد، ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه.

وأومن بالروح القدس الرّب الواهب الحياة، المنبثق من الآب، مسجود له وممجَّد، كما للآب والابن، الذي تكلم عبر الرسل.

وأومن بكنيسة واحدة مقدَّسة جامعة كونية ورسولية.

واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.

وأترجَّى قيامة الأموات، وحياة الدهر الآتي آمين».

ورمز الإيمان واحد لدى الكاثوليك والأرثوذكس، ما عدا فقرة واحدة، هي أنَّ الروح القدس ينبثق عند الكاثوليك من الابن أيضاً.

الفصل الثالث عشر

البروتستانتية

بعد الفساد الذي مارسه كبار رجال الدين المسيحي قروناً طويلة، نشأت في المجتمع شروط يسَّرت مهمة وضع حد لذلك الطغيان والتعسُّف. لقد بدأ إصلاح الكنيسة، وارتبطت حركة الإصلاح تلك باسم مارتن لوثر.

ففي العام ١٣٣٨م. اشتعلت انتفاضة مسلَّحة ضدَّ رجال الإقطاع والكنيسة. وقد قادها تايلور والكاهن جون بول. وكان الأب الروحي للانتفاضة هو الكاهن واللاهوتي البارز جون ويكلر. وكانت مطالب ويكلر واضحة. إذ رأى، وكان محقاً في ذلك، أنَّه لا حق للبابا في السلطة الزمنية، لأنَّ المسيح نفسه قال، إنَّ مملكته ليست من هذا العالم. وأكَّد ويكلر أنَّه يمكن للكنيسة أن تتلقّى التقدمات الطوعية والتبرعات، لكنه لا يحقُّ لها أبداً أن تفرض أتاوات إلزامية. ثمَّ اعتقد ويكلر إنّه يجب على أيٍّ امرء أنْ يعرف تعاليم المسيح من الكتاب المقدَّس، وليس من أفواه مؤوِّلي الكتاب من كبار رجال الدين. وما تجدر الإشارة إليه، هو أنَّ الكنيسة كانت قد احتكرت لنفسها مهمَّة قراءة التوراة، ولم تكن تتساهل مع أيٍّ مؤمن يقرؤها بمفرده. واقترح ويكلر تقديم التوراة للمؤمنين بلغتهم الأم. وعند ذلك الوقت كان تُرجم بعض كتب التوراة إلى اللغة الإنكليزية.

وسرعان ما شاعت أفكار ويكلر في أوروبا. ففي تشيكيا تلقاها ونشرها يان غوس، الذي شرع يؤكِّد أنَّ الكنيسة ليست رجال الدين فقط، وإنَّما هي المؤمنون على وجه العموم، وأن انفصال رجال الدين عن المؤمنين الآخرين يتعارض مع تعاليم المسيح. وطالب بمساواة رجال الدين والمؤمنين في سرِّ المناولة. أي إنَّ غوس طالب عمليّاً بإلغاء الوضع المميَّز الذي يحظى رجال الدين به، وكان هؤلاء قد صاروا إلى طبقة إقطاعية جبَّارة. ولم يقف إلى جانب غوس الفلاحون فقط، بل الوجهاء أيضاً. وبينما هو في المنفى ترجم غوس التوراة إلى اللغة التشيكية. وكان غوس قد طرد مرَّات من الكنيسة. وبعد ذلك دعي إلى انعقاد مجمع مسكوني كاثوليكي في كونستانس، وقد دعي غوس للمشاركة. ولمَّا كان

الإمبراطور قد تعهد له بالحفاظ على حياته، فقد توجَّه غوس إلى المجمع. وفور وصوله اعتقلوه، وأصدر المجمع قراراً بإعدامه حرقاً. فاشتعلت إثر إعدامه حركة ثورية تواصلت عشرات السنين. وطالب الغوسيون بمحاكمة رجال لدين من أصحاب السلطة الزمنية، وبابتعاد الكنيسة عن السلطة الزمنية، وحق المؤمنين بالدعاية للإنجيل وما إلى ذلك. لقد كانت هذه الأحداث كلها مقدِّمات لإصلاح مارتن لوثر. ونتيجة لهذه الأحداث تخلخلت مواقع الكنيسة الكاثوليكية، لكنَّها لم تهزم.

في العام ١٥١٢م. بدأ راهب الأخوية الأوغسطينية، والكاهن وبروفيسور اللاهوت مارتن لوثر صراعه ضدَّ الكنيسة الكاثوليكية، وكان هدفه هو تنقية تعاليم المسيح من الناميات المخيفة التي صنعها رجال الدين. فقام ضدَّ الخدمات الخارقة التي ادَّعت الكنيسة تأديتها، وطالب بوضع حدٍّ لمهزلة بيع صكوك الغفران. فاتهمته الكنيسة بالهرطقة. واستدعي إلى روما ليجيب على مسائلة البابا. لكنَّه نجح في التَّخلُّص من تلك السفرة بفضل مساندة الأمير الساكسوني فريدريك الثالث له. لقد بحثت قضية لوثر في أوغسبورغ، لكنه انتقل بفطنة واحتراس إلى فيتنبرغ حيث كان يحظى بشعبية ودعم كبيرين جداً.

لقد كان الوضع الاجتماعي - السياسي برمَّته على الشكل التالي: ساندت مطالب لوثر الجماهير الشعبية، والفئات الوسطى، والنبلاء، وكثير من الأمراء، وحتى الأمير الساكسوني. كما كان الإمبراطور كارل الخامس بدوره معارضاً لمعاقبة لوثر: حتى الإمبراطور ضاق ذرعاً بسلطة البابا ورجال الدين. وقد اشتهرت إجابة لوثر لمن كان يطلب منه أن يتراجع عن مطالبه: «إنِّي أتمسَّك بهذا، وخلافاً لذلك لا أستطيع». لقد كان لوثر ينشط دون كلل، لكنَّه تفادى أي احتكاك مباشر مع خصومه، وهذا ما جعله يحافظ على حياته (خلافاً لغوس)، وعلى استمرار الأمر الذي كرس حياته له. ووصفه خصومه هكذا: «إنَّه ليس بشراً، إنَّه الشيطان بعينه اتخذ صورة بشرية، ولكي يهلك الجنس البشري ارتدى جبَّة الراهب، وجمع في كومة عفنة واحدة، كل هرطقات الهراطقة التي أدينت وقبرت منذ أزمنة، وابتكر هو نفسه بعضاً منها...».

وكان لوثر قد دعا في الطور الأول لحركته، إلى المواجهة المسلَّحة ضدَّ البابا، والكرادلة، والأساقفة و... لكنَّه تخلَّى بعد ذلك عن العنف وقال: «لا أريد أن يذاد عن الإنجيل بالعنف وسفك الدماء. فالكلمة انتصرت على العالم، وبفضل الكلمة تمَّ الحفاظ على

الكنيسة، وبالكلمة سوف تبعث، ومثلما نجح المسيح الدجال في تحقيق مآربه بغير عنف، سوف يسقط أيضاً بغير عنف».

لقد أخذ رجال الدين يتراجعون أمام اللوثرية شيئاً فشيئاً. وأقرَّ الرايخستاغ بين العام ١٥٢١ والعام ١٥٣٠م. عدداً من القرارات. وفي القرار الأخير صيغت البروتستانتية لأوَّل مرَّة. ولكنَّ عقوداً من الصراع انصرمت قبل أنْ تحقق اللوثرية انتصارها الناجز. ولم تأخذ نجاحات الإصلاح مشروعيتها العلنية إلاَّ بموجب سلام ويستفال.

وبذلك يكون الإصلاح قد استغرق نحو القرن ونصف القرن، من العام ١٥١٢ حتى العام ١٦٤٨م. وقد شاركت في حركة الإصلاح تلك فئات المجتمع كلها، التي تطلَّعت إلى الخلاص من قيود سلطة رجال الدين الكاثوليك التي لم تكن تحدُّها حدود، كما لم يكن لها أي عامل مشترك مع تعاليم المسيح. فقد كان هؤلاء كلهم يتطفَّل على أفكار هذه التعاليم، فحوَّلوها إلى أداة لتحقيق المنافع، وإشاعة العنف المنفلت، واحتكار حقِّ تقرير كل شيء على هذه الأرض: لمن تنمح الحياة، ومن يجب أنْ يحرق، وبمن يجب أنْ يؤمن البشر، ولمن ينبغي أن تدفع الضرائب، وفي سبيل من يتوجب الموت في الحرب. ولكنَّ نتيجة الإصلاح جاءت لتقلُّص سلطات رجال الدين والبابا، ومع ذلك بقيت تلك السلطات قوية بما يكفي.

لقد جرى الإصلاح في شتَّى البلدان الأوروبية بطرق شتَّى وإيقاع متباين، كما اختلفت نتائجه بين بلد وآخر. فالحروب الغوسية التي كانت بشير حركة الإصلاح، بدأت في تشيكيا، وتحرَّك لوثر في ألمانيا، ثمَّ تطوَّرت الأحداث بعد ذلك في سويسرا، وإنكلترا، وفرنسا، والأراضي الواطئة (= هولندا).

ففي سويسرا كان يعمل الحقوقي واللاهوتي الفرنسي جان كالفين. وكان هذا قد ظهر في جنيف في العام ١٥٣٦م.، إذ كانت قد بدأت المعركة هناك ضدَّ الكاثوليكية. ولم تمض خمس سنوات حتى بات كالفين دكتاتوراً على المدينة حتى آخر حياته في العام ١٥٦٤م.. وبعد أن أعلن انفصاله عن الكاثوليكية، لم يرحم كالفين حتى حليفه في الطور الأوَّل من الصراع، إذ أعدمه حرقاً. لقد نظَّم كالفين الحياة في مدينته - دولته على نمط عيش الطائفة الدينية، ففرض عليها التقشُّف: حرَّم غناء الأغاني الزمنية، والرقص، والأكل حتى الشبع، والشرب حتى الارتواء، وارتداء البزَّات الزاهية الألوان. وفرض التردد على الكنيسة واعتناق أفكاره. وكان الموت حرقاً بانتظار كل متردد. وقام على رأس السلطتين الروحية والزمنية الراعي (كالفين)، ومجلس من الأساقفة.

ولم تقتصر الكالفينية على سويسرا وحدها. فقد ترسخت في إنكلترا أيضاً. والحقيقة أنَّ الكالفينية كانت تنويعة من تنويعات البروتستانتية. ولكن إنكلترا مضت إلى أبعد. فمنذ العام ١٥٣٤م. يقف ملك إنكلترا على رأس الكنيسة الأنكليكانية. ومن الوجهة التنظيمية حافظت الكنيسة في إنكلترا على النظام الأسقفي. ومن حيث الطابع المذهبي اقتربت الكنيسة الأنكليكانية من الكالفينية. وشاعت هنا النزعات الأكثر راديكالية تحت اسم: البوريتانية. وتحولت اسكتلندا إلى مركز للبوريتانية. لقد سار الصراع بين الكاثوليكية والكالفينية. وتعرَّض البوريتانيون لملاحقات ضارية، فهاجروا إلى البلدان الأخرى، خاصة أمريكا الشمالية. وهكذا كان البوريتانيون أوَّل المهاجرين من إنكلترا إلى إنكلترا الجديدة. بحثاً عن حرية العقيدة الدينية. ومع الزمن ترسخت مواقع البوريتانية في إنكلترا.

كما تلوَّنت البروتستانتية في فرنسا باللون الكالفيني أيضاً. وكانت الكالفينية قد تسرَّبت إلى هنا من سويسرا. وقد دعي أنصار الإصلاح في فرنسا بالهوجينوتيين. وقد اشتهرت من تلك الحقب ليلة دعيت ليلة برثولماوس التي وقعت في ٢٤ آب من العام ١٥٧٢م، وفيها أقام الكاثوليك مجزرة مروِّعة بالبروتستانت، وكان مركز الكاثوليك وقتذاك في جنوبي فرنسا. ولم يكن البروتستانت الذين كانوا يميلون باتجاه الشمال، أقلَّ وحشيَّة من الكالثوليك. وقد وصف بابا روما تلك المجزرة بأنها الصلاح الأسمى.

وثمَّة تيار آخر في البروتسانتية دعي: الأنابابتية. وقد اعتمد هذا التيار على فقراء المدن. ودعي هؤلاء بأفكار المسيحية الحقَّة، والعيش جماعة كما عاش المسيحيون الأوائل. وقيل عن إيديولوجيتهم: «بعضهم يحتفل بالقيامة، وآخرون لا يحتفلون بها... ودعوا الناس إلى مقارعة كل شرٍ بالصلوات، وحرَّموا على أنصارهم أن يحملوا أيَّ سلاح». ووقف الأنابابتيون ضدَّ اضطهاد الإنسان للإنسان. ورأوا أنَّ الإنسان يمكن أن يتواصل مع الإله بنفسه من غير وساطة أحد.

لقد رفضت البروتستانتية حقَّ الكنيسة في تأويل التوراة ومنحت هذا الحق لكل مؤمن. ولكنَّ الوصية الأولى: الإيمان بالإله الواحد، بقيت هي الأساس. هكذا رأى لوثر، وكذلك رأى كالفين.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ الإصلاح الديني لم ينه وجود الكاثوليكية، فاتخذت هذه إجراءات مضادة عرفت في التاريخ باسم الإصلاح المضاد. وفي نهاية المطاف عرفت بلدان أوروبا وجود الكاثوليكية والبروتستانتية معاً. وقد دافعت الكاثوليكية عن مواقعها بوساطة أخوية

اليسوعيين التي أنشأها البابا. وفي الصراع من أجل فرض سيطرتهما استخدم الكاثوليك والبروتستانت محاكم التفتيش استخداماً عريضاً جداً.

وفي القرن ١٨م. بلغت أخوية اليسوعيين أوج ازدهارها، فتغلغل اليسوعيون إلى مختلف بلدان العالم: إلى الهند، وجنوبي أمريكا، واليابان، والصين، والكونغو، ومدغشقر، والتيبت، وشمالي أمريكا، والباراغواي. وقد شكلوا في هذه الأخيرة دولة داخل الدولة، واستمرَّ حكمهم هنا ١٦٠ عاماً متواصلة. وفي أوروبا أيضاً كانت مواقع الأخوية قويَّة، فقد امتلكت هنا شبكة من المؤسسات التعليمية. ولكن في العام ١٧٧٣م. أصدر البابا كليمينت الرابع عشر إرادة خاصة أعلن فيها حلَّ الأخوية اليسوعية. ولم يفعل البابا ذلك إلاَّ بعد صراع طويل بينه وبين ملوك أوروبا الغربية وأمرائها، بل وفئات المجتمع كلها. ومن المعروف أنَّه لم يكن للأخوية سوى هدف واحد فقط، هو اجتثاث البروتسانتية. بيد أنَّه بات من الواضح أنَّ فعل ذلك هو ضرب من الجنون وتحقيقه أمر مستحيل.

ولمَّا ظهر نابليون بونابرت على المسرح الأوروبي، نشأت بينه وبين البابوية علاقات متباينة. ففي أوَّل الأمر عقد هذا تحالفاً مع البابا، لكنَّ الأمر ما لبث أن وصل حدَّ إعلان البابا حرمان نابليون من الكنيسة، وردَّاً على ذلك اعتقل نابليون البابا وسجنه؛ ولم يعد هذا إلى روما إلاَّ بعد سقوط نابليون. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى استسلمت دولة البابا أمام ضغط قوَّات الملك الإيطالي. وخرجت من الوجود نهائيَّاً. بيد أنَّ الكنيسة الكاثوليكية لم تفقد قوتها، إذ كانت تملك في إيطاليا نصف مليون هكتار من أخصب الأراضي الزراعية. وتحوَّل الفاتيكان شيئاً فشيئاً إلى تطوير نشاطاته بما يتلاءم والمستجدات: أسس المصارف، وصناديق الادخار وسوى ذلك من الاستثمارات والمؤسسات التي تدرُّ أرباحاً جيدة. وفي العام ١٨١٤م. أصدر البابا بيوس السابع إرادة بإعادة إحياء الأخوية اليسوعية.

وفي القرن ١٩م. انقسمت البروتستانتية إلى عدد كبير من التيارات. علاوة على اللوثرية، والكالفينية، والانكليكانية، ظهرت تيارات أخرى مثل طائفة الأدفينتيين، «جيش الخلاص»، «العلم المسيحي»، «شهود يهوه» و... كما تطوَّرت كذلك الطوائف البروتستانتية: البابتية، والمينونيتية، والميثودية، والكواكيرية و... وقد حظيت البابتية بانتشار خاص في الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك تيارات كثيرة في البابتية. وقد نشأ منذ العام ١٩٠٥م. الاتحاد العالمي للبابتيين.

وفي العام ١٨٣٣م. أعلن البابتي الأمريكي ميللر عن نشوء مذهب الأدفينتية. وكان مؤسس هذا المذهب ينتظر مع أنصاره الظهور الثاني للمسيح في العامين ١٨٤٣-١٨٤٤م. ويقدّس هؤلاء السبت بدلاً من الأحد. وهؤلاء تيار أدفينتي خاص يدعى أدفينتيي «اليوم السابع». وينتشر هؤلاء في شتّى البلدان. وثمّة هيئة تدعى المؤتمر العمومي لأدفينتيي اليوم السابع.

وفي العام ١٨٧٢م. تأسّس في الولايات المتحدة تيار أدفينتي دعي في بادئ الأمر: «أنصار التوراة»، ثمّ «معشر رسالة التوراة: برج الحرّاس». وبعد العام ١٩٣١م. بات هذا التيّار يدعى «شهود يهوه».

الكنيسة الروسية الأرثوذكسية

في حوالي العام ٩٨٨م. اعتنقت روسيا المسيحية في عهد أمير كييف، فلاديمير. ولكنَّ انتشار المسيحية في روسيا كان قد بدأ من قبل ذلك بزمن طويل، وتواصل مئات السنين الأخرى بعد اعتماد روسيا. وقد اعتنق الأمير فلاديمير الإيمان المسيحي على أيدي كهنة بيزنطة. أمَّا المؤسِّس الحقيقي للكنيسة الروسية، فهو الأمير ياروسلاف الحكيم خليفة الأمير فلاديمير. ولم يظهر المتروبوليت الأوَّل في روسيا إلاَّ في العام ١٣٠٧م. وكان هذا، هو الإغريقي ثيوفيميت الذي جاء من بيزنطة. فالمتروبوليا الكيفية كانت تابعة لبطريركية بيزنطة. وكان بطاركة هذه الأخيرة هم الذين يعيِّنون متروبوليت روسيا. ولكنَّ الأمراء الروس ما لبثوا أن أخذوا يعينون المتروبوليت بأنفسهم. فقد أسَّسوا في روسيا مؤسسات لتعليم رجال الدين. وأخذوا على عاتقهم مهمَّة تمويل الكرسي الأسقفي. وهكذا مع الوقت، أخذ رجال الدين الروس يتكاثرون في الكادر الكهنوتي للبلاد. كما تزايدت أعداد الأديرة في البلاد. وكانت هذه مصدراً للكوادر الدينيَّة والأساقفة، فثمَّة كثرة من أبناء فئات المجتمع العليا دخلت الأديرة. وكانت الحالة الاقتصادية للكنيسة في تحسُّن دائم. فقد كان عشر دخل سكان روسيا كلها يذهب إلى الكنيسة، إضافة إلى تقدمات الوجهاء، والإقطاعيين و... وكان موقف الكنيسة الأرثوذكسية الروسية حيال المسائل الأخلاقية وسواها من المسائل الأخرى مثله مثل مواقف الكنائس الأخرى، فالذين لهم صلة بالواردات والسلطة يتماثلون من حيث السلوك في كل زمان ومكان.

في العام ١٣٢٦م. أُنشئت في موسكو الكرسي المتروبوليتية. وانتقل مركز الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسية إلى موسكو. ولكن بقي تعيين الأمير للمتروبوليت يحتاج إلى مصادقة بيزنطة. فحاول الأمير ديمتري دونسكوي تغيير هذا النظام، لكنَّ بعض الأساقفة قاوم سعيه. بيد أنَّ السلطة المركزية أخذت تكسب مزيداً من القوَّة، ومع تزايد قوتها كان الأساقفة يخضعون شيئاً فشيئاً لسلطة متروبوليت موسكو.

وفي العام ١٤٣٩م. توصل مجمع فلورنسا إلى وحدة بين الكاثوليك والأرثوذكس. ووقع الاتفاق متروبوليت موسكو، اليوناني إيسيدوروس. لكنّه وضع فور وصوله إلى موسكو موضع الإقامة الجبرية في الدير. ومن تلك اللحظة تحررت الكنيسة الروسية من تبعية بطريركية القسطنطينية. وبات مجمع رجال الدين الروس هو الذي يعيِّن المتروبوليت. وسرعان ما سقطت الإمبراطورية البيزنطية برمَّتها.

لقد كان أساقفة الأرثوذكسيَّة يدعون «سلاطين، حكاماً، أرباباً». وهي تسميات تعكس كلها واقع الأشياء. فالأساقفة المذكورون كانوا دوماً إقطاعيين كباراً. فقد كانت الكراسي الأسقفية تؤدِّي وظائف قضائيَّة، وكان تحت تصرُّفها كادر بيروقراطي مهول: من جامعي العشر، والكتبة، وناظري الضياع وما إلى ذلك.

ومنذ العام ١٥٠٤م. أخذت الكنيسة الروسية تشن حرباً ضارية ضدَّ الهراطقة، ففي العام المذكور اتخذ مجمعها قراراً باجتثاث كل ضرب من ضروب الهرطقات. وتبع هذا القرار سيل من الإعدامات.

وسعى إيفان الرهيب إلى مركزة سلطة الدولة ومعها سلطة الكنيسة. فعقد مجمعاً (مجمع المائة فصل)، أصدر قراراته في مائة فصل شملت مختلف مسائل حياة الكنيسة والدولة.

لقد أكَّد المجمع على أنَّ «الخوارنة والقندلفتية في حالة سكر دائم في الكنيسة، ويقفون دون وجل يتبادلون الشتائم، الأمر الذي يهلك أرواح المؤمنين سدى، و...».

وحرَّم المجمع على المؤمنين العزف على الآلات الموسيقية، وحلق اللحى، واللعب بالشطرنج، وقراءة الكتب ذات المحتوى غير النقي، وتنظيم عروض ألعاب ومشاهدتها. وحرَّم عليهم أيضاً إقامة أي صلات مع الأجانب، الذين عدُّوهم هراطقة، وملحدين.

ولكنَّ البطريركية الموسكوفية لم تتأسَّس إلاَّ بعد إيفان الرهيب، فلم يتعجَّل هذا إنشاء منافس لسلطته، لقد تأسست هذه في عهد القيصر فيودور؛ وقد أسسها هو وزوجته القيصرة إيرينا وأخوها بوريس غودونوف. وتقررت المسألة برمَّتها دون مشاركة رجال الدين.

وفي العالم ١٦١٣م. انتخب المجمع المحلِّي ميخائيل رومانوف قيصراً على روسيا. وكان والده فيلاريت، بطريركاً. وقد أخذ فيلاريت يحكم بدلاً من ابنه، الأمر الذي شكل سابقة للبطاركة الذين جاؤوا بعده. ولكنَّ القيصر ألكسي ميخالوفيتش وضع حدَّاً لهذا، وأعاد الأمور إلى نصابها: لقد انتصرت السلطة الزمنية، بيد أنَّه تأتى للقيصر أن يخوض صراعاً ضدَّ البطريرك نيكون.

لقد كان نيكون هذا نموذجاً للشخصية الروحية العليا، التي نجحت في وقت قصير جداً أن تجمع ثروة مهولة لا تقدَّر ولا تعدُّ. فقد كان هذا الشخص الأكثر ثراءً في روسيا بعد القيصر مباشرة. ولذلك طال الصراع بين الرجلين، وفي نهاية المطاف قرر اجتماع مجمع الأساقفة أو ممثليهم حرمان نيكون من مرتبته البطريركية، ونفيه.

وفي عهد نيكون وقع انقسام في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. ففي بادئ عهده عندما كان القيصر يدعمه، بدأ نيكون تدقيق كتب الصلوات وتصحيحها. فقامت أمام الكنيسة مهمَّة صحيحة: توحيد الحياة الدينية في البلاد. وقد اقتضى ذلك وجود نصّ صلوات واحد متماثل، وشعائر واحدة، ومرتبة خدمة دينية واحدة.

وكان مجمع الفصول المائة قد أقرَّ في حينه رسم إشارة الصليب بإصبعين وليس بثلاثة. كما قرر أنْ ترسم الإشارة وفق حركة الشَّمس، وليس عكسها. وقرر كذلك ترديد الهللويا مرَّتين وليس ثلاث، ولكنَّ نيكون ألغى هذه القرارات واستبدل «بالمرتين» «ثلاث مرَّات»؛ إلاَّ أنَّ رجال الكنيسة رفضوا الالتزام بتعليمات نيكون. فأطلقوا عليهم اسم أتباع الطقوس القديمة. وأخذ نيكون يلاحقهم ويضطهدهم بسبب عصيانهم أوامره. بيد أنَّ التَّغيُّرات بحدٍّ ذاتها لم تكن تستحق تلك الملاحقات، وذلك التنكيل. فقد قال نيكون نفسه عن كتب الصلوات القديمة والجديدة: «هذه جيدة وتلك جيدة، ولا فرق؛ فاخدم بالتي تشاء منها». وكان قد قال هذا في حديث خاص مع إيفان نيرونوف؛ بيد أنَّه في واقع الحال لاحق أتباع الطقوس القديمة بالسيف والنار. فمن منهم أعلن توبته أُعيد إلى الخدمة، وسمح له بأنْ يقيم الخدمة الدينية حسب الشعائر القديمة. إذن، كانت المسألة الأساسية في ذلك الصراع كله، هي إظهار السلطة، والإعلان عن أن تحدِّي تعليمات الشخصيات الروحية السامية، هو من المحرَّمات.

لقد كان مدى الملاحقات كبيراً جداً. فالذين وقفوا في وجه التعليمات الجديدة كانوا كثراً، ولم يقتصر الأمر على رجال الدين المدينيين فقط، إنَّما قام ضدَّ هذه المستجدات أمراء أيضاً. ومن أشهر هؤلاء الأمير أفَّاكوم. لقد نفوا أنصار الشعائر القديمة إلى أديرة معيَّنة، وقطعوا ألسنة بعضهم وجلدوهم بالسياط، فقط لأنَّ هؤلاء المؤمنين أرادوا أن يرسموا إشارة الصليب بإصبعين لا بثلاثة. فسالت الدِّماء، وانتشرت الآلام في رحاب روسيا كلها. لماذا؟ لماذا كانوا يصطادون الناس على امتداد البلاد كلها، فيعذبونهم، ويضربونهم، ويقطعون رؤوس بعضهم، ويحرقون بعضهم الآخر؟ أمَّا الأمير أفاكوم نفسه فقد عزلوه من سلك الكهنوت مع أنصار الطقوس القديمة الآخرين، وأرسلوه إلى سجن بوستوزيرسك. وكان عليه أن يقضي ما

تبقى له من العمر هنا في حفرة رطبة، ينهشه فيه البرد والجوع. واقتلعوا ألسنة كثرة ممن حكم عليهم بالنفي. وقد تساءل أفاكوم يوماً: «بالنّار، بل بالسوط والمشانق يريدون أن يرسخوا الإيمان بالدين! فأيُّ الرسل كرز بهذا؟ أنا لا أعرف. فمسيحي لم يأمر رسلنا بأن يعلّموا هكذا». في العام ١٦٨٢م. أُحرق أفاكوم حيّاً في بوستوزيرسك. فتحوّل دير سولوفيه إلى حصن أنصار الطقوس القديمة. إذ رفض رجال الدين فيه الاسترشاد بكتب الصلوات القديمة. ولإخماد العصيان أرسلوا القوات العسكرية ضدَّ الدير، فحاصره ثماني سنوات.

وفي العام ١٦٧٥م.، انتشرت موجة إحراق أنصار الطقوس القديمة أنفسهم. وقد راح ضحية تلك الموجة أكثر من عشرين ألف شخص رموا بأنفسهم إلى النار طوعاً. واستمرّت تلك الموجة على امتداد القرن ١٨م. كله. ولم تتوقف أعمال الحرق الذاتي تلك إلاّ في عهد كاترين الثانية.

أما بطرس الأكبر فقد اتّخذ من رجال الدين موقفاً واقعياً بعيداً عن الخوف والانحناء. لكنَّه لم يسمح بأن يرفع أحد يده في مواجهة الدين. وقد اشتهرت عنه الواقعة التالية: عندما سخر ف. ن. تاتيشيف من بعض أسفار التوراة، استدعاه بطرس إليه وضربه ضربة بعصاته الشهيرة، وهو يقرأ له: «كيف تجرؤ على أن توهن مثل هذا الوتر الذي يؤلّف إنسجام اللحن كله؟... سوف أُعلّمك كيف تحترم المقدّس وألاّ تقطع حلقات السلسلة التي يحتويها البناء كلها... فلم أحاول أنا أن أدرّبك من الجهة التي تغدو فيها عدوّاً للمجتمع والكنيسة».

ثمَّ أحيا بطرس الأكبر الأمر الديري القاضي بإدارة أملاك الكنائس والأديرة كلها. وانتقلت إدارتها الآن إلى الدولة. وبعد ذلك ألغى بطرس الكرسي البطريركي وأدخل نظاماً جديداً لإدارة الكنيسة شبيهاً بإدارة الكنيسة البروتستانتية. فباتت الكنيسة تدار الآن من قبل لجنة روحية. وبذلك تكون البطريركيَّة قد أُلغيت وغدت الدولة تدير شؤون الكنيسة. وفيما بعد وضع بطرس على رأس الكنيسة «سينودوس حكومياً أقدس». وقد تألّف ذلك السينودوس (مجمع كنسي. م.) من عدد من كبار الأحبار. وكان هؤلاء تحت إدارة شخصية زمنيَّة حملت لقب: النائب العام. وقضى أمر بطرس الأكبر بأنْ «ينتخب إلى السينودوس ضابط صالح، يتمتع بالشجاعة ويكون قادراً على إدارة شؤون السينودوس ومعرفتها، وأن يكون له نائباً عامَّاً...». ثمَّ أمر بطرس بتحويل جزء من الأديرة إلى ملاجئ للجنود الكهول والمتقاعدين. وقد فعل القيصر ذلك كله لأن رجال الدين الأرثوذكس (والرهبان منهم في المقام الأول) قاوموا كل جديد أدخله.

كما وضعت كاترين الثانية بدورها رجال الدين تحت سيطرتها. ففي حديثها إليهم قالت القيصرة: «إنَّ مهمتكم هي إدارة الكنائس، وإقامة الأسرار المقدَّسة، والكرازة بكلمة الإله، والدفاع عن الدين وإقامة الصلوات، والالتزام بالعفَّة... فأنتم خلفاء الرسل الذين أمرهم الإله بحثِّ الناس على احتقار ثروات الدنيا، وهم أنفسهم كانوا فقراء جداً. فمملكتهم لم تكن من هذا العالم: أتفهمونني؟ لقد سمعت هذه الحقيقة من أفواهكم. فكيف يمكنكم أنتم، كيف تتجاسرون من غير أن تنتهكوا سمو مكانتكم، على امتلاك ثروات لا حصر لها، وأملاك لا حدود لها تجعلكم على مستوى الملوك؟... أنتم متنوِّرون، ومكرَّسون، ولا تستطيعون ألاَّ تروا أنَّ هذه الثروات كلها قد نُهبت من الدولة... وإذا ما كنتم تحترمون القانون، وكنتم من رعاياي المخلصين، فإنَّه ينبغي عليكم ألاَّ تتأخروا دقيقة واحدة عن إعادة كل ما استحوذتم عليه بطرق غير مشروعة، إلى الدولة».

إذن، لقد كان القيصر هو الذي يدير شؤون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية عمليَّاً؛ أي إنَّ هذه الكنيسة كانت كنيسة حكومية داخل الأراضي الروسية. ولذلك عدَّ الارتداد عنها جريمة جنائية. وكانت تتبع الكنيسة شبكة من المدارس المحليَّة والمعاهد الأسقفيَّة. كما كان اللاهوت الأرثوذوكسي يدرَّس في المعاهد التعليمية العليا. وكانت هناك أعداد كبيرة من القيادات الروحية في الجيش والأسطول. وأدارت الكنيسة الأرثوذوكسيَّة نشاطاً تبشيريَّاً مكثَّفاً لتحويل مسلمي الإمبراطورية الروسية، وبوذييها، وشامانييها، ويهودها إلى المسيحية الأرثوذكسية.

الفصل الخامس عشر

سرُّ الجبروت

لقد قام جبروت جنكيز خان في أنَّ ميثاقه (الياسي، أو «كتاب المحرَّمات») قضى بحرِّيَّة العقائد الدينية، واتخاذ موقف واحد متماثل تجاه الأديان كلها. ولم تكن تلك التعليمات مجرَّد رغبات، إنَّما مبادئ صارمة كان انتهاكها يكلف المرء حياته. وكان كل من خلفاء الخان العظيم يقسم قبيل تولّيه العرش يمين الولاء «لكتاب المحرَّمات» والالتزام به. وإذا ما خالف ذلك يُنزع العرش منه. وقد أكَّدت الأوامر الخانية بوجه خاص، على احترام ديانة الروس، وكان عقاب من ينتقصها شديداً.

وكتب المطران مكاريوس يقول في هذا الصَّدد: «وكان طبيعياً أن يأخذوا الأديان تحت حمايتهم في كل مكان تقوم عليه سيطرتهم، ويجيزوا لكل من رعاياهم والشعوب الخاضعة لسيطرتهم أن تحافظ على عقائدها الدينية، وتقيم طقوس عباداتها؛ فهم أنفسهم التزموا بالطقوس وكانوا يحضرون طقوس وشعائر مختلف المذاهب المسيحية، والمحمدية، والبوذية، وسواهم. ومن المعروف على سبيل المثال، عن غايوك، أوَّل أباطرة المنغول بعد إخضاعهم لوطننا (يقصد روسيا. م.)، أنَّه كان عنده كهنة مسيحيون يتلقون نفقات شهرية منه، وأنَّه أقام أمام خيمته مصلًّى مسيحياً ثابتاً، كانوا يقرعون ناقوسه بحرِّيَّة، ويؤدُّون فيه الخدمة الدينية وفق الطقوس الكنسيَّة الإغريقيَّة. والسلوك عينه اشتهر به أيضاً الإمبراطور، أو الخان العظيم، ما نغو (١٢٥١-١٢٥٩م.)، الذي أقام كنيسة عند مدخل قصره كان الكهنة المسيحيون يقيمون فيها طقوس عبادتهم دون أيِّ عائق. وهاكم ما يشهد به شاهد عيان مسيحي عن خليفة مانغو، الخان العظيم كوبلاي (١٢٦٠-١٢٩٢م.)، وكان الشاهد المعني يخدم عند الخان كوبلاي: لما كان الخان يعرف أنَّ الفصح واحد من أعيادنا الرئيسة، فقد أمر بأن يأتي إليه المسيحيون كلهم حاملين معهم الكتاب المقدَّس الذي يحتوي الأناجيل الأربعة. وبعد أنْ بخَّر الكتاب بالبخور، قبله بكل احترام، وأعطى الأمراء الحاضرين كلهم ليقبله كل بدوره أيضاً. وبقي هذا ديدنه في كل عيد من أعياد المسيحيين الكبيرة. كما أقام أيضاً أعياد الساراتسين، والجيديين، والوثنيين». ثمَّ تابع المطران مكاريوس روايته، فكتب

يقول: «ومع ذلك فثمَّة شيء واحد كان يتناقض مع ذلك التسامح الديني، وهو أنَّ الخانات كانوا يرغمون بعض الأمراء الروس الذين يزورونهم على تأدية طقوس العبادة المنغولية: عبور النار، والسجود لقرص الشمس. ولكنَّ الخانات لم يروا في هذا أيَّ شكل من أشكال الإكراه، أو الانتقاص من أيِّ دين كان؛ لأنَّه كما أنهم هم أنفسهم يلتزمون بديانة شعبهم، ويؤدُّون في الوقت عينه آيات الاحترام لمختلف الأديان الأخرى، ويحضرون في أحيان كثيرة إقامة القدَّاس المسيحي، بل يقبِّلون الإنجيل أيضاً، كذلك لم يكن بمقدورهم أن يجدوا أي ضير في أن يؤدِّي الأمراء الروس طقوس ديانتهم (أي ديانة المنغول. م.)، دون أن يكون لذلك معنى الارتداد عن دينهم المسيحي. ولكنَّ المفاهيم المسيحية ترى في السجود لآلهة الباطل كفراً بالإله الحق، وتؤكِّد على أنَّه ينبغي على المسيحي أن يموت في سبيل دينه، وألاَّ يؤدِّي طقوس ديانة وثنية...».

ولم يغيِّر الخانات التتر موقفهم من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية حتى بعد أن اعتنقوا الإسلام، كما لم يتغيَّر موقفهم تجاه أي ديانة أو معتقد آخر، فقد بقيت محرَّمات جنكيز خان موضع التزام صارم. وكان باتي الذي اعتنق الديانة الروسية عملياً، قد أجرى أول إحصاء سكاني في العامين ١٢٤٦-١٢٤٧م.. وكان الغرض من الإحصاء، هو تنظيم جباية الأتاوات. وماله دلالته أنَّ رجال الدين كانوا خارج عملية الإحصاء، لأنَّهم لم يخضعوا لتأدية الأتاوات. وقد أصدر الخانات التتر أوامر رسخت حقوق رجال الدين الروس. ففي الأمر الذي أصدره الخان مينغو-تيمير (١٢٦٦-١٢٨١م.) وسلَّم للمتروبوليت كيريل في العام ١٢٧٩م.، أكَّد الخان على مناعة دين الروس من أيِّ انتقاص أو إهانة، وحماية موجودات القدَّاس الإلهي الخارجية من كل تطاول. وأكَّد الأمر خاصَّة على أنَّه «إذا ما انتقص أحد من مقام دينهم أو شتمه، فلا كفَّارة لإثمه سوى الموت [......]، أو بما في قانون مدارسهم وكتابهم، أو بأي شيء آخر يصلُّون به للإله، لا يُعطب، ولا يفسد».

وكما نوَّهنا قبل قليل. فقد أعفي رجال الدين من الأتاوات، والرسوم، والجبايات. وكانت أملاك الكنيسة وقفاً حرِّم التطاول عليه. وأعفي خدم الكنيسة الذين كانوا تابعين للأساقفة والسلطة الكنسيَّة، أُعفوا من أعمال السخرة لدى الدولة، وقد شرعت تلك الإعفاءات كلها بأوامر من الخانات كلهم، بمن فيهم الخانات الذين اعتنقوا لدين الإسلامي.

ولم تقتصر حكمة التتر على هذا الموقف الحكيم من ديانات الشعوب الأخرى، ففي كاراكوروم كان يقيم في قصر الخانات العظام خدم ديانات الشعوب الخاضعة للتتر

كلها. وابتداءً من العام ١٢٦١م. بات للروس ممثليهم لدى الخانات. وقضى التقليد أن يكون أحد الأساقفة هو ذلك الممثل، وقد أنشأوا له مقرًّا في ساراي: عاصمة الخانات. زيادة إلى هذا سمح للأسقف الأرثوذكسي أن يكرز بتعاليم المسيحية في عاصمة التتر، وأن يعمِّد من يكسبه إلى دينه من رعايا الخان، علماً أنَّ الخانات أنفسهم كانوا وثنيين، وهكذا نجح الأسقف فيوغناس أن يكسب التتر إلى صفوف المسيحية في ساراي نفسها إبان زمن الخانات الوثنيين. وقد دعا الخان بيركه إلى ساراي، أُسقف روستوف كيريل آملاً أن يمكِّن هذا الأخير من شفاء ابنه المريض. وتعبيراً عن شكره أمر الخان بتقدمة سنوية لبيت والدة الإله المقدَّسة. ولكنَّ الأسقف كيريل نجح في أنْ يقدِّم أكثر مما انتظروا منه. فقد روى لهم ببلاغة فائقة عن الإيمان الأرثوذكسي، ويبدو أنَّ بلاغته وصلت حدًّا جعل ابن أخ الخان يعود معه سرًّا إلى روستوف حيث اعتمد. وفي عهد الأسقف أغناطيوس بنى بيتاً في روستوف وتزوَّج فتاة أرثوذكسية روسية. وبعد أن ترمَّل صار إلى راهب. فنسبته الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى طائفة القديسين ومنحته اسم بطرس. ولم تكن هذه القصَّة استثناء. فالخانات رأوا أنَّ التزاوج بين الشعوب أمر من طبيعة الأشياء. وفي واقع الأمر أنَّ التزاوج بين الروس والتتر لم يكن من الأمور النادرة الحدوث. فالأمراء والوجهاء الروس كانوا يتزوَّجون تتريات، وكانت هؤلاء تتحوَّلن إلى الدين المسيحي. ففي العام ١٢٥٧م. تزوَّج الأمير الإقطاعي بيلوزيرسكي، غليب فاسيلكوفيتش بقريبة الخان بيركه. كما تزوَّج الأمير فيودور روستيسلافيتش ياروسلافسكي زواجاً ثانياً بابنة الخان مينغو- تيمير. واعتمدت زوجة الأمير متخذة اسم آنَّا. ويؤكِّد المؤرِّخون أنَّ هذه المرأة تميَّزت بعفَّة فائقة، وتزوَّج الأمير الموسكوفي غيورغي دانيلوفيتش بأخت الخان الأوزبيكي. واعتنقت هذه الدين المسيحي أيضاً، ثمَّ اختارت لنفسها اسم أغافيا، بدلاً من اسمها: كونتشاكا.

وثمَّة فضول وعبرة في أنساب السلالات «الروسية» الرئيسة: ميشيرسكي، وأنيتشكوف، وغودونوف، وغلينسكي، وغريازني و... وها نحن نسوق شهادة مؤرِّخ: «من المشهورين الذين اعتنقوا الديانة المقدَّسة: بيكليميش ابن الأمير بهاميت الذي جاء في العام ١٢٩٨م. من المعسكر الكبير إلى ميشيرا، فامتلكها وصار إلى مؤسس سلالة الأمراء ميشيرسكي. وفي ميشيرا قبل بيكليميش سرَّ المعمودية ومعه عدد كبير من التتر، وبعد المعمودية تسمَّى بيكليميش باسم ميخائيل وبنى كنيسة بريوبروجينسكايا. وفي العام ١٣٠١م. جاء من المعسكر الكبير (مقرِّ الخان. م.) إلى الأمير يوحنا

دانيلوفيتش كاليتا، بيركا ابن الخان، وقبل سرَّ المعمودية على يد المتروبوليت المقدَّس بطرس، وتسمَّى بعدها باسم يوحنا؛ ثمَّ بات الجدُّ المؤسس لسلالة أنيتشكوف. وبعد أن اعتمد أريديتش ابن الخان بات السلف المؤسس لسلالة بيلوووتوف. وينتمي إلى البيلووتوفين، الأسقف مكاريوس مورزا تشيت، الذي جاء إلى موسكو في العام ١٣٣٠م.. وفي المعسكر الكبير توقَّف ليأخذ قسطاً من الراحة عند ملتقى نهر كوستروما مع نهر الفولغا. وبينما هو نائم رأى تشيت المريض والدة الإله في حلمه وهي تحمل طفل البشارة، ومعهما الرسول فيليبوس يصلِّي، والقديس إيباتيوس غانغرسكي. وفي تلك اللحظة نال تشيت نعمة الشفاء، ولمَّا وصل إلى موسكو قبل سرَّ المعمودية وتسمَّى باسم زكريا، ثمَّ بنى في المكان الذي ظهرت له الرؤيا فيه دير إيباتيوس الكوسترومي. وقد أسس تشيت - زكريا سلالة غودونوف. وإلى الأمير العظيم ديميتري دونسكوي، جاء ابن الخان سركيز، الذي صار إلى مؤسس سلالة ستاركوف «الروسية». وجاء حفيد الخان ماماي، الأمير أوليكسا، إلى الأمير الليتواني العظيم فيتوفت، واعتمد في كييف متخذاً اسم الكسندر، ثمَّ أسس سلالة الأمراء الغلينيين، وإلى هذه السلالة كانت تنتمي الأميرة يلينا العظيمة، والدة القيصر إيفان الرهيب». وإلى هنا نكتفي بهذا القدر من النَّصِّ، مع أننا نستطيع أن نسوق كثيراً مما هو مهم عن منشأ السلالات «الروسية الأصلية». مهمٌّ لأنَّ قوَّة الأمَّة، أو بمعنى أدق قوَّة العرق، تقوم في تخالط القوميات. فالروس أقوياء بكونهم ليسوا روساً صرف. من الأصح الحديث لا عن الروس، إنَّما عن الروسيان. أمَّا أفضل تعريف للعرق، وربما يكون التعريف الأكثر صحَّة ودقَّة، هو العرق الذي كان يتطوَّر مزدهراً ازدهاراً قويَّاً على أراضي الاتحاد السوفييتي: الشعب السوفييتي. فلم يكن ذلك مجرَّد صيغة اسمية شكليَّة، ولم يكن مجرَّد مصطلح؛ إنَّما جوهر لعرق جديد كان يتمتع بغنى روحي وأخلاقي كبيرين، مكَّناه من يهزم بنجاح العدو اللدود للشعوب والحضارة: العصبية القومية.

لنعد الآن إلى النير التتري - المنغولي. فثمة وقائع معروفة على نطاق واسع عن إعدام كثير من الأمراء الروس في المعسكر الكبير. وهذه حقائق يعرفها كل مهتمٍّ، ويتضح جوهر ما حصل من الأمثلة التالية:

في العام ١٢٤٦م. استدعي الأمير تشير نينغوفسكي ميخائيل فسيفولودوفيتش إلى المعسكر الكبير. وقبل أنْ ينطلق من دياره أقسم الأمير «أن يسفك دمه في سبيل المسيح».

فقبل أن يدخل أي كان إلى الخان، كان عليه أن يمرَّ بين نارين ويسجد للشمس والنار. وكان الأمراء الروس كلهم تقريباً يؤدّون هذه الفرائض دون اعتراضات تذكر، لا سيما أنَّ أحداً لم يرغمهم على الارتداد عن دينهم. لكنَّ الأب الروحي لميخائيل فسيفولودوفيتش كان قد زوده قبل انطلاقه بما عقَّد الأمر وزاده سوءاً. فقد قال له، إنَّ قلَّة من الأمراء الذين زاروا المعسكر الكبير حافظوا على وجدانهم المسيحي، وهكذا رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يؤدِّي الطقس المفروض على جميعهم وقال: «أنا مستعد لأن أنحني أمام الملك، فالإله هو الذي منحه مجد السلطة على ممالك الأرض؛ لكنني لن أنحني لما ينحنون له هنا». فحاولوا طويلاً إقناع الأمير، فأجابهم: «لن أستمع لكم، لن أُهلك روحي». فأعدم. وربما كانوا قبيل ذلك قد ذكَّروه بالوفد التتري الذي جاء إليه في كييف من غير سلاح، يعرض استسلام التتر المحاصرين، فأعدم أعضاءه.

وخسر حياته في المعسكر الكبير أيضاً، الأمير الريازاني رومان أولغوفيتش. فبينما كان هذا في المعسكر الكبير لم يكف عن الانتقاص من الخان وديانته. ونحن كنا قد نوَّهنا إلى أنَّ التتري كان يخسر حياته إذا ما انتقص من الديانة الأرثوذكسية؛ ولذلك كان طبيعياً أن يكون محرَّما الانتقاص من دين التتر أنفسهم.

وفي صراعهم على السلطة حاول الأمراء أن يحملوا النار بأيدي الآخرين: كان المتصارعون يعملون على استمالة التتر كل إلى جانبه، ولا يتوقفون لحظة عند الافتراء واحدهم على الآخر، ونتيجة لذلك أعدم التتر ثلاثة أمراء روس. فقد دار صراع على عرش الأمير الأعظم بين أبناء دانيال الموسكوفي والأمراء التفيرسكيين، وكان لكل من الطرفين حقٌّ شرعي بالعرش الموسكوفي. لكنَّ الأمير الموسكوفي غيورغي: يوري دانيلوفيتش، هو من جرَّ التتر إلى الانخراط في الصراع، وكان غيورغي هذا متزوِّجاً بابنة عمِّ الخان أوزبيك، فشنَّ مع التتر في العام ١٣١٧م. حملة على تفيرسك، لكنَّ الأمير ميخائيل ياروسلافيتش نجح في تدمير الحملة الغازية. ووقعت زوجة دانيلوفيتش (ابنة عمِّ الخان) أسيرة لدى الأمير التفيرسكي، ومعها القائد التتري كوفتشادي. فأطلق الأمير ميخائيل سراح أسيريه، لكنَّ ابنة عمِّ الخان مرضت وماتت. ولم يفوِّت الأمير الموسكوفي الفرصة السانحة، بل عمل على أن ينتقم من ابن قومه بسيوف التتر. وكانت الغاية الوحيدة هي العرش، السلطة. فما انفكَّ يفتري على الأمير ميخائيل حتى ألَّب التتر عليه وسيَّروا جيشاً ضده مما اضطره إلى الدفاع عن نفسه. وقد جاءت النتيجة مرضية بالنِّسبة للأمير الموسكوفي دانيلوفيتش: قبل أنْ يُعدم ميخائيل سيم مختلف ضروب التعذيب. ثمَّ أعدمه دانيلوفيتش والقائد التتري كوفتشادي. فقد اقتلع هذان قلب ميخائيل، ورموا بجسده عارياً في

الميدان. ولم يحرِّك المنظر شيئاً في ضمير دانيلوفيتش، لكنَّ التتري كوفتشادي التفت إليه وقال: «أخوك الأكبر بمثابة والدك، فما بالك تنظر إلى جسده المرمي عارياً؟ فاضطرَّ يوري إلى أنْ يغطِّي جثة ميخائيل، ويرسلها إلى روسيا. وعاد هو إلى موسكو ومعه أمر بالولاية.

ولكنَّ المجرم لا بدَّ أنْ يلقى جزاءه عاجلاً أم آجلاً. فعندما جاء الأمير ديميتري ميخالوفيتش تفيرسكي إلى المعسكر الكبير، نجح في أن يوصل الحقيقة إلى الخان. فأعدم القائد التتري كوفتشادي الذي حاكم الأمير ميخائيل وأعدمه؛ لكنَّ الأمير يوري لم يمس بسوء. لكنَّ أمراً خانياً صدر بتولي ديمتري ميخالوفيتش عرش الإمارة العظمى. فثأر لمقتل والده وقتل الأمير يوري دانيلوفيتش في المعسكر الكبير مباشرة. فعدَّ الخان تصرف ديميتري اعتداء على حرمته؛ وفي العلم ١٣٢٥م. أعدم ديميتري. هكذا كان الأمراء الروس يحققون أغراضهم الدنيئة بأيدي التتر، ولم تكن شؤون روسيا تنال كثيراً من اهتماماتهم ومساعيهم، فما بالك بالضمير والدين، ولحسن حظ روسيا أنَّ قلَّة من أمرائها فقط سارت على هذه الطريق.

لقد درسنا في هذا الفصل ديانتين: اليهودية والمسيحية، من الديانات الثَّلاث التي قامت على قاعدة العهدين القديم والجديد. وكنَّا قد أشرنا سابقاً إلى أنَّ اليهودية استندت إلى أسفار العهد القديم فقط. واستندت إلى التوراة ديانة أخرى، هي الإسلام. فقد ظهر الإسلام عندما كانت المسيحية قد باتت ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، وكان قد مضى على نشوئها ستة قرون، انقسمت خلالها إلى شتَّى الهرطقات المتصارعة في إطار الكنيسة المسيحية نفسها. وفي تلك الأثناء كان كثير من المؤمنين المخلصين يدعون إلى العودة إلى منابع المسيحية: التوراة. وأدان هؤلاء مبدأ تعظيم كبار رجال الدين الذي كان قد بات معمولاً به، كما أدانوا الارتداد عن أسس تعاليم المسيح.

وفي ذلك المناخ المشبع بالطموح إلى تنقية الحقيقة السامية من التراكمات الرديئة، ظهرت تعاليم جديدة، هي تعاليم الإسلام، التي لم يرَ النبي محمَّد فيها تعاليم جديدة. فقد رأى النبي أنَّ رسالته تقوم في إحياء الكتب المقدَّسة التي أُعطيت لإبراهيم، وموسى، ويسوع المسيح، ونقلها إلى العرب أوَّلاً.

الفصل السادس عشر

أصول الإسلام

لقد ظهر الإسلام في وسط شبه جزيرة العرب، وكانت مكّة هي مركزه الرئيس، وهنا ولد مؤسس الإسلام الرسول محمّد (ص)، وكان هذا الدين الجديد قد نشأ على مقربة مباشرة من ديانتين قويّتين تشكلتا منذ أزمنة بعيدة: اليهودية والمسيحيّة. فالمسافة بين مكّة وأورشليم ليست بعيدة جداً. فكيف تسنّى إذن للديانة الجديدة أنْ تظهر وتتحوَّل خلال زمن قياسي إلى ديانة عالمية، وعلى مقربة مباشرة منها، بل تحيط بها ديانة أخرى لها من الجبروت ما لها: المسيحية؟

ولكنَّ مثل هذا السؤال لا يظهر إلاَّ لدى غير المطلعين على القرآن. فالقرآن يروي مراراً وتكراراً عن إبراهيم، وموسى، وسواهما من أنبياء العهد القديم، كما يتحدَّث كذلك عن أشياء كثيرة مما ورد في أسفار التوراة: ملاءمة المسيحية مع الشروط التي كان يعيشها المؤمنون في البلدان الوثنية، ملاءمة الكتاب المقدَّس مع الظروف التي كان يعيشها العرب في شبه جزيرتهم. والحقيقة أنَّ الحديث يجب أنْ يجري لا عن شبه جزيرة العرب كلها، إنَّما عن إقليمها الأوسط، المركزي فقط، حيث كانت تنتشر هنا قبائل لا تؤلِّف دولة واحدة. فالمناخ العام الذي كان سائداً هناك، كان يجعل اعتناق تعاليم المسيح أمراً مستحيلاً. لأنَّ مبدأ المحبَّة، محبَّة البشر كلهم، ومغفرة الأخطاء والتسامح، لا يمكن أن يجدا هناك أي تربة. فتقليد وأد البنات، وربما أي وليد «عبء»، وعادة الثَّأر، وسيادة مبدأ العين بالعين والسنّ بالسنّ، هذا كله كان جزءاً متجذِّراً في سلوك سكان ذلك الإقليم.

ولم يكن هذا المبدأ سائداً في مكان خاو مقفر بعيد، إنَّما في مدينة مكّة التي كانت نقطة تقاطع طرق القوافل التجارية الكبرى التي كانت تسير من اليمن وأثيوبيا إلى بلاد ما بين النهرين وفلسطين. ولم تكن مكّة مركزاً تجارياً فقط، إنما كانت مركزاً دينياً كذلك. فإليها كانت تتوافد القبائل العربية لكي تسجد لآلهتها. وكان هؤلاء الآلهة يتجمَّعون في مكان واحد، هو عبارة عن معبد مربَّع الشكل يدعى الكعبة. ومن المعروف أنَّ حروباً متواصلة شنَّت للسيطرة على مكّة. وكان محمَّد (ص) واحداً ممن شنُّوا واحدة من مثل هذه الحروب. ولم

يكن الأمر بسيطاً، لأنَّ الذي بنى هذا المعبد هو إبراهيم نفسه، الذي منه خرجت قبيلة العرب الإسماعيليين، أي أحفاد إسماعيل من هاجر المصرية. فقد كان إسماعيل يعيش مع عائلته منفصلاً عن عائلة إبراهيم. وبعد أن انصرمت سنون كثيرة جاء إبراهيم ليطمئنَّ على أحوال ابنه. وهنا صلّى معه على صخرة، وجلسا معاً يتداولان في شؤون الكون. وكان ثمَّة قطعة من تلك الصخرة على مقربة من المعبد. وهنا قرب بئر زمزم الذي سقى الملاك إسماعيل من مائه، شيَّد المعبد. وقد حدث ذلك كله منذ أزمنة بعيدة، بعيدة، لكنه حدث بالتأكيد. ولذلك كانت القبائل العربية تزور المكان لو مرَّة واحدة في العام. عدَّاك عن هذا أن القبائل التي كانت تأتي إلى هنا لتأدية طقوسها الدينية، كانت تمارس في الوقت نفسه العمل التجاري. ولذلك فإنَّ المؤرِّخ يقول، إنَّ مكَّة كانت المركز الديني - التجاري لقبائل شبه جزيرة العرب.

وما يجب التنويه به أيضاً أنَّ شعوب شبه جزيرة العرب (في الجنوب، والشمال، والوسط)، كانت تعيش مستويات متباينة من التَّقدُّم. ففي الجنوب عاشت قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة، دول كانت على مستوى متقدِّم جداً من الرُّقي الحضاري. وترك لنا بناة تلك الثقافات معابد، وقصوراً، ومنشآت ثقافية أخرى بديعة. وبقي أيضاً ما بنوه من سدود، وجسور، وأعمدة حفروا عليها نصوصاً دوَّنت أهمّ أحداث تاريخهم. ولكن ما يؤسف له أنَّ المتخصِّصين لم ينجحوا حتى الآن في فك رموز تلك النصوص حتى النهاية، وكانت التوراة قد تحدَّثت عن واحدة من تلك الدول، هي دولة سبأ. ولكن تلك الدول كلها اندثرت قبل ظهور محمَّد (ص) بقرون كثيرة. وكان ثمَّة عاملان رئيسان خلف سقوطها. أوَّلاً، تحوُّل الطريق التجارية بين الهند وبلدان البحر المتوسط عن عبور اليمن، إذ بات يسير غرباً عبر البحر الأحمر، تاركاً العاصمة السبئية مأرب على يمينه أو يساره.

وهكذا فقدت دولة سبأ واحداً من أهمِّ مصادر ازدهارها ورخائها. ولكن الرزايا لا تحلُّ فرادى. فقد وقعت الكارثة الثانية، وهي هزَّة أرضية أطاحت بسدِّ مأرب الذي كان يخزن بين جدرانه مياه الجبال لكي توزَّع بعد ذلك على الأراضي الزراعية. وكانت الزراعة هي المصدر المهم الثاني لواردات الدولة. وها هو قد اختفى بدوره. ففقد السكان وسائل عيشهم، وتحرَّك كثير من القبائل شمالاً حيث كان يستوطن الإسماعيليون. وكانت واحدة من تلك القبائل قد بلغت مكَّة واستولت عليها، وباتت هي التي تشرف على شؤون المعبد.

ثمَّ قامت على أنقاض سبأ دولة جديدة، هي دولة الحميريين. ومع أنَّ هذه الدولة عاشت قروناً، إلاَّ أنها لم تحقق مستوى الازدهار الذي بلغته سابقتها. وقد مرَّت حقبة اعتنق فيها الأمراء وفريق من السكان الديانة اليهودية.

أمَّا قبائل شمالي شبه جزيرة العرب فقد تأثرت بالحضارات الإغريقية، والرومانية، والفارسية. ونجحت في تأسيس دولها. بيد أنها فشلت في الحفاظ على استقلالها بسبب مجاورتها لدول قويَّة كبيزنطة وإيران. فعلى الفرات الأدنى قامت دولة عربية وقعت في تبعية المملكة الساسانية. وقد توضعت هذه في شمال - شرقي شبه الجزيرة العربية. كما قامت في شمال غربيها دولة أخرى وقعت في تبعية والي سوريا الرومي.

فما الذي كان يجري في وسط شبه الجزيرة العربية زمن ظهور الإسلام؟ لقد كان نمط العيش السائد هناك نمطاً شبه وحشي، شبه بدوي. ولكن الموقع المتوسط لذلك الإقليم كانت له ميزته: لقد تقاطعت هنا طرق العرب الذين كانوا يعيشون في الأقاليم الأخرى.

وبرزت إلى جانب مكّة مدينة أخرى هنا، هي مدينة يثرب. وقد كانت هذه تختلف اختلافاً واضحاً عن مكّة. وإذا كانت مكّة قد مثّلت دوماً المركز الديني الرئيس لقبائل شبه جزيرة العرب، فإن يثرب كانت مكان تلاقي شبه الجزيرة مع الديانات الأخرى المنتشرة خارج حدودها. فقد كان يعيش في يثرب يهود (إلى جانب القبائل العربية). وكان هؤلاء بدورهم يعيشون قبائل كانت لها أسماؤها أيضاً: بنو قينقاع، وبنو نضير، وبنو قريظة. لقد عاش اليهود هنا في أحياء خاصة بهم. وغير بعيد عن يثرب كانت تقع مستوطنة يهودية أخرى، هي خيبر، وكان ثمَّة مستوطنة ثالثة، هي تيماء التي كانت تقع بعيداً نحو الشمال. ويجب ألاّ يثير وجود اليهود هنا أي دهشة، فالأماكن المذكورة لا تبعد عن أورشليم أكثر من ألف كم. كما يجب أنْ نتذكّر أيضاً، أنَّ اليهود والقبائل العربية الإسماعيلية يردُّون نسبهم إلى سلف واحد، هو إبراهيم. ضف إلى هذا أنَّ لغتيهما متشابهتان. وعدا عن القبائل الإسماعيلية العربية، كانت تعيش في شبه جزيرة العرب قبائل أخرى تنتمي إلى الأرومة نفسها، هي القبائل التي تؤكّد التوراة أنَّها القبائل التي خرجت من يقظان. ولغة هذه القبائل قريبة جداً من اللغة اليهودية. والحقيقة أن وجود اليهود في شبه جزيرة العرب لم يقتصر على وسطها، بل كان ثمَّة قبائل يهودية تعيش في جنوبيها أيضاً. وقد نجح اليهود في أن يحكموا هنا لبعض الوقت. ولكنَّ مكّة كانت خالية تماماً منهم.

وفي الزمن الذي ظهر الإسلام فيه كانت المسيحية قد انتشرت لدى كثير من الشعوب. وقد تسرَّبت أفكارها إلى شبه جزيرة العرب، بما في ذلك إلى يثرب. وكان ثمَّة تنافس دائم بين مكّة ويثرب، تحوَّل في بعض الأحيان إلى صدام مسلَّح. وفي هاتين المدينتين كانت حياة محمَّد (ص). وآيات القرآن نفسها تنقسم إلى مكيَّة ومدينية.

محمّد (ص)

لقد عاش محمد (ص) الأربعين عاماً الأولى من حياته بصفته محمّد (ص) الأمين وحسب، أي كأي مواطن عادي صالح. وينتمي محمد (ص) إلى واحدة من العشائر السائدة، مات والده قبل شهرين من ولادته، ولم تعش والدته سوى ست سنوات بعد أن ولدت ابنها. وهكذا تحوّل محمّد (ص) في السادسة من عمره إلى يتيم محروم من أيٍّ مورد من موارد العيش. بيد أنه على أيٍّ حال كان واحداً من قريش، القبيلة الثرية، وكذلك لم يكن معرَّضاً للموت جوعاً. ففي بادئ الأمر تولّى جدُّه عبد المطلب رعايته، ثمَّ بعد وفاة عبد المطلب، تولّى رعاية محمَّد (ص) عمُّه أبو طالب. وقد نشأ الفتى فطناً ومجتهداً، يفهم الحياة، ويعي العلم؛ فمنذ صباه أخذ يرافق القوافل التجارية إلى البلدان الأخرى. وعندما رافق قافلة عمِّه إلى سوريا، تنبَّأ له الراهب النسطوري بحيرى في بصرى بمستقبل عظيم. ولم يكتف الفتى محمَّد (ص) بأن يشارك مشاركة فعلية في الحياة اليومية السلمية. فقد اشتمَّ في وقت مبكر جداً رائحة الحرب. إذ عندما وقعت في العام ٥٨٤م. الحرب بين قبيلته وبني هوزان، ساعد محمَّد (ص) أعمامه (كان يجمع لهم السهام المتساقطة). وفي أيام السلم كان يرعى القطعان. وقد جعلت الحياة النشطة، والرحلات، والاهتمامات الجادَّة الفتى محمَّداً (ص) ينمو ويتطوّر عقلياً وأخلاقياً بسرعة واضحة. فكان دائماً يأخذ على عاتقه القيام بمهام جدِّيَّة، وكان في كل مرَّة ينجح في تأديتها.

أمَّا حياته الشخصية فقد عرفت منعطفاً مهمَّاً عندما بلغ الرابعة والعشرين، وكان قد نال عندئذٍ لقب الأمين. ولم يكن هذا اللقب يعني الأمانة فقط، بل كان يعني أيضاً الألمعية، والموهبة، والشرف. وقد اعترف بها جميعهم له. في ذلك العام جعلته قريبة بعيدة من أقاربه ناظراً على أموالها، وكانت هذه هي الأرملة (متزوجة مرَّتين) الثرية خديجة. وكان طبيعياً أن ينجح محمَّد (ص) في إدارة استثمارات خديجة، بما في ذلك قيادة قافلتها التجارية إلى سوريا. وفي العام التالي تزوَّجا. ويؤكِّد المؤرِّخون أنه على الرغم من أن خديجة كانت تكبر محمَّداً (ص) بخمسة عشر عاماً، إلاّ أنهما عاشا حياة سعيدة. فأنجبت خديجة من زوجها محمَّد (ص)

ثلاثة أبناء وأربع بنات. لكن الأبناء ماتوا في سن صغيرة. وفي الحادية والخمسين من عمرها أنجبت خديجة أصغر بناتها. وماتت خديجة في الرابعة والستين من العمر، وعندئذٍ كان محمَّد (ص) في التاسعة والأربعين. ويؤكّد المؤرِّخون أنَّ محمَّداً (ص) لم يتزوَّج أيَّ امرأة أخرى في حياة خديجة، كما أنه لم يعرف أيَّ امرأة قبلها.

وعليه يمكننا أن نستنتج أن محمداً (ص) كان رجلاً شغوفاً، لكنه في الآن عينه كان رجلاً متماسكاً مالكاً زمام نفسه. وهذا ما كان له دور كبير في نجاحه بتأدية ذلك العمل التاريخي العظيم الذي أنجزه.

الفصل الثامن عشر

رسول الله

لقد فكَّر محمَّد (ص) طويلاً بالمسائل الكونية التي لا تزال مطروحة علينا حتى يومنا هذا: من هو الإنسان، ولماذا خلق، وكيف ينبغي عليه أن يعيش؟ ومن هو الإله؟ والذي لا ريب فيه أن محمَّداً (ص) كان على معرفة دقيقة باليهودية والمسيحية.

ومن البدهي أن يكون محمَّد (ص) قد أدرك أن الآلهة القبلية لا يمكن أن تقارن بالإله الواحد الذي خلق كل ما في الكون، ولا يقف مع قبيلة واحدة بعينها. وكان محمَّد (ص) قد صرف وقتاً كثيراً يفكّر في هذا.

ففي كل عام كان محمَّد (ص) يقضي ٣٠-٤٠ يوماً منعزلاً في غار حرَّاء، وهاجسه واحد: يجب أن يكون للعرب إيمان بإله واحد، هو إله إبراهيم. وفي واحدة من فترات انعزاله تلك، وتحديداً في شهر رمضان من العام ٦١٠م، بينما كان محمَّد (ص) يغفو وقع له الآتي: رأى في نومه أن أحداً يقترب منه ويقول له: ﴿اقْرَأْ﴾، فأجاب: «ما أنا بقارئ»، عندئذٍ أمسك به الزائر وكاد يكتم أنفاسه، ثمَّ قال له ثانية: ﴿اقْرَأْ﴾ فأجابه ثانية: «ما أنا بقارئ»؛ ومرَّة أخرى أطبق الزائر على أنفاسه وقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾

(العلق: ١-٥)

وعندما قرأت هذا ابتعد الوحي عنِّي، فاستيقظت. وقد أحسست أنَّ تلك الكلمات قد كتبت على قلبي.

إنَّ ما حدث هزَّ كيان محمد (ص) بقوَّة، فأسرع عائداً إلى منزله وقصَّ ما جرى له على زوجته خديجة، التي اتخذت من الأمر موقفاً جدياً. فاستدعت قريبها ورقة وروت له ما حدث مع محمد (ص) فقال: «إذا صحَّ هذا يا خديجة، فإنه يعني أن الناموس العظيم الذي نزل

يوماً على موسى قد نزل عليه أيضاً، وإنه نبيُّ شعبنا». أمَّا محمَّد (ص) فلم يـر نفسه نبيًّاً بعد، إنما رسول الله الذي سوف يخاطب الله عبره العرب.

ولمَّا جاءه الوحي ثانية، كان محمد (ص) قد أمضى وقتاً في منزله، ثم عاد إلى مكان عزلته وهو في حالة من الكآبة الشديدة، والتوتر الروحي المضني. لقد كادت الكآبة أن تزهق روحه. ولكن ومن غير توقع أو انتظار أو سبب مفهوم أحسَّ محمد (ص) بسكينة روحية مذهلة، وثقة لا حدود لها. ولمَّا وصل إلى البيت كانت قد اعترته حمًّى شديدة. فطلب أن يدثِّروه، ثم ما لبث أن دخل ما يشبه الغيبوبة، وسمع وهو في حالته تلك، الكلمات التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۞﴾ .

(المدثر: ١-٧)

فهل كان بمقدور محمد (ص) أن يشك بعد ذلك لحظة في أنَّ الله اختاره رسولاً له إلى الشعب العربي؟

واختار محمَّد (ص) طريقه. لقد بات عليه الآن أن يؤدِّي الرسالة التي كلف بها من فوق: نشر فكرة للإله الواحد بين العرب، وباشر الرسول مهمته من فوره، إذ أخذ يعظ بالقرآن، الذي كانت مهمته الأساسية تقوم في نقله إلى الشعب العربي، وفي تلك الأثناء لم يكن للقرآن وجود على الأرض، فقد كان لا يزال في السماء عند الله الذي أرسل محتواه إلى محمد (ص) أجزاء. والقرآن عبارة عن وحي إلهي، وكان محمَّد (ص) قد تصوَّر القرآن كتاباً عربياً موجوداً عند الله.

ونحن إذ نتحدَّث عن القرآن ينبغي أن نشير إلى أن له الآن بنية خاصَّة جداً. فهو عبارة عن جمع من المواعظ المتفرِّقة، التي جمعت في كتاب واحد بطريقة تمَّ فيها تجاهل التسلسل الزمني لكل منها، وأُخذ بالحسبان حجم كل سورة بدءاً من السورة الأكبر وانتهاءً بالأصغر. ولذلك جاءت السور القصيرة في آخر النص القرآني، على الرغم من أنَّها كانت السور الأولى التي أوحي بها إلى محمَّد (ص). ومن الصعب أن تقول عن تلك السور، إنَّها مواعظ. إنَّها على الأرجح درر فلسفيَّة شعرية إيقاعية. مثلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۞﴾

(الفلق: ١-٥)

لقد شرع محمَّد (ص) يدعو إلى تعاليم القرآن، لكنه لم يلق مساندة من معاصريه. إنَّما على الضدِّ، إذ رفض جميعهم تقريباً عظاته، ورأوا فيها خطراً جدِّيّاً على معبوداتهم ودياناتهم وحياتهم. والحقيقة أنَّه كان ثمَّة استثناءات. فقد آمنت برسالته زوجته خديجة وساندته. كما وقف إلى جانبه أولاده واثنان ممن تبنَّاهم. لقد كان مبدأ تنسيق المواقف هو السائد في قريش. ولذلك كان ينبغي على محمَّد (ص) أن يحصل على موافقة أبناء قبيلته وفق تتال معيَّن. فقبل كل شيء كان عليه الحصول على موافقة بني هاشم الذين كان ينتمي إليهم مباشرة. وعندما جمعهم ليطلب منهم مساندتهم، صرخوا في وجهه قائلين: «قاتلتك الآلهة! أمن أجل هذا دعوتنا؟». ثمَّ انفضّوا وهم يهزؤون ويشتمون ويتضاحكون. حقاً لا نبيَّ في وطنه.

وهكذا رفضت العشيرة محمداً (ص). لكنَّ هذا لم يثبط من عزيمته. فأخذ يدعو الناس إلى تعاليمه علانية وفي الأماكن العامة. ومع أن مواعظه لم تعجبهم، إلاَّ أنَّ أحداً لم يتعرَّض له، خوفاً من سطوة عشيرته. فأبناء العشيرة لم يتخلُّوا عنه علناً، أي لم يخلعوه، ولذلك بقي تحت حمى العشيرة. وكان عمُّه أبو طالب يدافع عنه ويحميه بحميَّة وغيرة. ولكنّه لم يفعل ذلك لقناعته برسالة محمَّد (ص)، بل لأنَّه كان متعلِّقاً به ويحبه محبَّة شخصية.

ومضى الوقت من غير أن يستطيع محمَّد (ص) أن يحقق أيَّ نجاح يذكر. فعلى مدى عدَّة سنوات لم يتجاوز عدد أتباع التعاليم الجديدة الثلاثة والأربعين نفراً. وكان أكثر هؤلاء من العبيد والفقراء: لقد كان محمد (ص) يحمي هؤلاء دائماً ويدافع عنهم في كل مناسبة، ويدعو بسم الله إلى الرَّأفة بهم والعطف عليهم. ولكن أولئك المسلمين الأوائل ذاقوا الويل من سادتهم. وفي ذلك الطور الحرج ظهر لمحمد (ص) نصير بات يده اليمنى على مدى سنيّ نشاطه التالية كلها، إنَّه أبو بكر. ولمَّا كان أبو بكر من أغنياء قريش، فقد أنفق كثيراً من أمواله لشراء حرية كثير من أولئك التاعسين الذي اعتنقوا الإسلام. أمَّا أولئك الذين رفض سادتهم أنْ يعتقوهم، فقد أذن لهم محمد (ص) بالارتداد ظاهرياً عن الإسلام. كما ظهر لمحمد (ص) الآن مساندون آخرون، لا سيما عثمان بن عفَّان.

فما الذي دعا إليه محمد (ص) في السنوات الأولى لبعثته؟ لقد دعا أوَّلاً وقبل كل شيء إلى أنَّ الله واحد للنَّاس كلهم. وأنَّه خالق كل ما في الكون، وأنَّه يجب على كلهم أن يخضع لإرادته، كل من يعيش على سطح الأرض بصرف النظر عن الانتماء القومي. ونحن نوِّهنا إلى أنَّ محمداً (ص) كان على معرفة بكتابي العهد القديم والعهد الجديد، وقد آمن بالإله عينه الذي آمن به إبراهيم، وموسى، ويسوع المسيح، ودعا العرب إلى عبادته. فمحمَّد (ص) لم يعمل قط على ابتكار إله جديد للعرب (كما يرى كثيرون الآن)، إنَّما كرَّس جهده ليعرِّف العرب

بالإله الواحد عينه الذي آمن به اليهود والمسيحيون. ويبدو أنه كان على يقين من أنه سوف يوحد أتباع موسى والمسيح. وقد بدت له المهمة ممكنة، بل ملحّة. فلهؤلاء وأولئك إله واحد (إله إبراهيم)، وهؤلاء وأولئك يدعون إلى الرحمة والفضيلة. إلاّ أنَّ المسيحيين ذهبوا إلى أبعد وكتبوا على رايتهم: «أحبب عدوّك!». ومع ذلك أمل محمَّد (ص) أن تكون مهمته بإعادة الديانتين إلى جوهرهما الأصل، أي توحيدهما، مهمَّة قابلة للتحقيق، وهذا ما يؤكّده النص القرآني التالي:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۞ ﴾

(آل عمران: ٦٧-٦٨)

إذن لقد كان الحنفاء المسلمون موجودين في الأرض قبل ألفين وخمس مائة عام من ظهور محمَّد (ص). وليس هؤلاء ممن كان لهم إله خاص يؤمنون به، إنَّما هم مؤمنون حنفاء أرسل الله لهم إبراهيم، وموسى، والمسيح. يقول النَّصُّ القرآني:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۞ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۞ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ... ۞ ﴾

(البقرة ١٣٥-١٤٠)

وهكذا هناك إله واحد، وهو نفسه الذي أرسل التوراة والإنجيل، وأعلن القرآن لرسوله محمَّد (ص). وعن هذا يقول النَّصُّ القرآني:

﴿ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ . . . ۞ ﴾

(آل عمران: ٢-٤)

لقد رفض محمَّد (ص) رفضاً قاطعاً أن يكون قد جاء بدين إسلامي جديد:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى: ١٣)

إذن الإيمان واحد والدين واحد لأنَّهما صادران من عند إله واحد. ولذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ۞ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ ﴾

(النساء: ١٥٠-١٥٢)

إذن لا فرق بين الرسل والأنبياء سواء كانوا يهوداً أم مسيحيين. ولكن يتوجب على أولئك أن يكونوا صادقين في إيمانهم، وأن يلتزموا بتنفيذ وصايا دينهم وفرائضه. وعن هذا يقول النَّصُّ القرآني:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ﴾

(المائدة: ٦٨-٦٩)

وجاء حديث محمَّد (ص) عن المسيح وأمِّه العذراء مريم حديثاً عطراً وجميلاً. فثمَّة في القرآن كلمات مثل:

﴿ . . . وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(المائدة: ٤٦)

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ . . . ﴾

(المائدة: ٧٥)

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ٩١)

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾

(مريم: ٣٣)

وقد يثير ما أوردناه الحيرة، لأنَّ كلاً منّا يعرف أنَّ المسلمين يعبدون إلههم - الله فقط. فكيف نفسِّر هذا إذن؟ لقد تحقَّقت هنا التنويعة نفسها، تنويعة قصَّة التفاحة التي أثمرتها «شجرة معرفة الخير والشَّرِّ». فمن أين يمكن أنْ تأتي التفاحة إلى شجرة ليست سوى فكرة مجرَّدة، رمز، رسم شجرة متخيَّل وحسب؟ إنَّ الحالة عينها تظهر أمامنا في مسألة الله هذه.

لقد رأينا عند دراستنا لكتاب العهد القديم، أنَّ اليهود القدماء قد استخدموا للدلالة على الذات الإلهية كلمة إلوه أو إلوهيم. وليست الكلمة الثانية سوى صيغة الجمع من الكلمة الأولى. ويتجادل المتخصصون حول ما إذا كان استعمال كلمة إلوهيم دلالة على تعدد الآلهة، أم أنَّ الكلمة استخدمت بصيغة الجمع تعبيراً عن التبجيل والاحترام. ولكنَّ كلمة إلوهيم (إلوه) تعني في الأحوال كلها: إله وحسب، ولذلك ترجمت كلمة إلوهيم في النصوص التوراتية كلها (ما عدا النصوص المتخصصة) بمعنى إله أو رب. ومن الواضح لقارئي الكريم أنَّ إلوه والله بمعنى سواء. ولذلك ليس ثمَّة تناقض هنا أبداً. بل على العكس، إذ إنَّ هذا يؤكِّد على ما جاء في القرآن من أنَّ محمَّداً (ص) عدَّ إله العرب هو الإله الواحد الذي يؤمن المؤمنون كلهم به. ومن المهمِّ جداً أن يعي هذه الحقيقة المسلمون والمسيحيون اليوم خاصة.

حياة النبي ونضاله

لقد دعا محمد (ص) أبناء قبيلته وقبائل العرب الأخرى إلى ترك عبادة الأوثان والإيمان بالإله الواحد. والإله الذي دعا محمد (ص) إلى عبادته كان إلهاً رحيماً عادلاً وكريماً. ولذلك دعا محمَّد (ص) إلى الإحسان للفقير، ورحمة اليتامى، والبرِّ بالوالدين، خاصة عندما يبلغان سنَّ الشيخوخة:

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾

(الإسراء: ٢٣)

أمَّا الزنى فقد وصفه محمد (ص) في عظاته بأنَّه رذيلة وخسَّة. ووقف موقفاً صارماً ضدَّ عادة وأد البنات التي كانت شائعة جداً منذئذٍ لدى القبائل العربية، ويؤكِّد المؤرِّخون أنَّ هذه العادة لم تبقَ في أيام محمَّد (ص) إلاَّ عند بعض القبائل البدوية، ولكن يبدو أنها كانت لا تزال منتشرة إلى الحدِّ الذي جعل محمَّداً (ص) يشنُّ عليها تلك الحرب الضارية.

لقد قلنا فيما سبق، إنَّ أهل مكَّة كانوا يحصلون على موارد عيشهم الأساسية من عائدات تجارة العبور، وتقديم الخدمات للقوافل التجارية، ولذلك كانت الأمانة مطلوبة وضرورية في العمل التجاري. فقد دعا محمد (ص) مراراً وتكراراً إلى الالتزام بالحقِّ والعدل في الكيل والميزان. ويقول النَّصُّ القرآني:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ﴾

(المطففين: ١-٢)

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ . . ﴾

(هود: ٨٤)

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ . . . ﴾

(هود: ٨٥)

ولكنَّ تعاليم محمَّد (ص) قوبلت بعداء مرير. وقد قال النص القرآني عن ذلك:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة ١٧٠)

ويقول محمَّد (ص) في القرآن عن وأد البنات:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ . . . ۞ ﴾

(الأعراف: ٢٨-٢٩)

لقد طلب القريشيون من محمَّد (ص) معجزات تثبت لهم إنَّه رسول من الله، ولكنَّ محمَّداً (ص) الذي لم يرَ نفسه حتى نبيًّا (إنَّما رسول فقط)، لم يكن بمقدوره أن يصنع أي معجزات، بل لم يحاول أن يفعل ذلك أصلاً. ورأى أنَّ العالم الذي يحيط بالناس، هو بحد ذاته معجزة خلقه الله. فأي معجزات بعد؟ ضف إلى هذا أنَّ المعجزات لا تزيد أعداد المؤمنين. ويقول النص القرآني:

﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(آل عمران: ١٨٣)

﴿ . . . إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ . . . ۞ ﴾

(الأنعام: ١٠٩-١١١)

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

(الرعد: ٣١)

وماذا يريد خصوم محمَّد (ص) منه لكي يعترفوا به:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ۝ ﴾

(الإسراء ٩٠-٩٣)

لقد كان محمَّد (ص) على معرفة جيِّدة بمصير الأنبياء الذين جاؤوا قبله، وقدَّر درجة عدم الإيمان تقديراً صحيحاً:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾

(الأنبياء: ٤١)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾

(المؤمنون: ٤٤)

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ۞ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ ﴾

(سبأ: ٤٣-٤٥)

يتَّضح من هذا كله كم عانى محمد (ص) في إقناع قومه بتعاليم القرآن. والإيمان بالإله الواحد.

لقد كانت المسيحية التي ظهرت قبل محمد (ص) بستة قرون، قد رفضت مبدأ القومية. ويبدو أنَّ محمداً (ص) وأنصاره قد ساروا على الطريق عينها. فلم يكن بمقدورهم أنْ يقصروا إيمانهم على قومهم فقط. وقد تعرَّض أنصار محمد (ص) القلائل إلى شتَّى ضروب الاضطهاد والملاحقات في مكَّة. فأبحر فريق منهم إلى إثيوبيا (٨٣ رجلاً و١٨ امرأة). وقاد هؤلاء عثمان بن عفان صهر محمد (ص)، وكانت زوجته ابنة محمَّد (ص) بين النسوة. فطالبت قريش ملك الحبشة بتسليمهم، لكنَّ الملك رفض الطلب. عندئذٍ طلب القريشيون من أبي طالب أن يردَّ ابن أخيه إلى جادَّة الصَّواب. ولمَّا سأل أبو طالب محمداً (ص) الأمر أجابه: «لو وضعوا الشَّمس في يميني والقمر في يساري على أن أحيد عن هذا الأمر ما تركته حتى يقيّض الله له النصر أو أهلك دونه». فقال له أبو طالب: افعل ما تراه يا ابن أخي، وأنا لن أتخلَّى عنك ما حييت.

وهكذا وجد محمَّد (ص) نفسه والقلَّة التي كانت معه محاصراً تماماً من باقي سكَّان مكَّة. وفي العام ٦١٧م. اتَّفق القريشيون على ضرب طوق عزلة تامَّة على المسلمين، وقضى الاتفاق بمنعهم حتى من الاقتراب إلى الكعبة، وبعدم بيعهم أي شيء أو شراء أي شيء منهم. إذن الحصار تام، وخطير، فأيُّ دعوة لأي تعاليم بعيداً عن الكعبة، سوف تكون فاعليتها ضعيفة. فهنا قرب المعبد يجتمع المكيون والحجاج - التجار من القبائل والشعوب الأخرى. فمكَّة هي في نهاية الأمر مكَّة. لقد كانت تجري هنا احتفالات ومناسبات تشارك فيها حشود كثيرة من الناس. وهنا كان يقوم بيت أبي طالب، بل كانت الضاحية كلها تدعى وادي طالب.

ولكن محمَّداً (ص) لم يستسلم لهذا، وما كان محمداً (ص) لو استسلم. وإذا كان قد منع من نشر دعوته في مكّة، فلا بأس من نشرها في المدن المجاورة وضواحيها، غير أنَّ قريشاً وضعته تحت مراقبتها الصارمة، ولم تنفك تواجهه، ولكن لماذا لم يقتلوه؟ لا بسبب إنسانيتهم طبعاً. فقتل أي شخص كان بالنسبة لأولئك الذين يشدون فلذات أكبادهم أمراً في غاية البساطة. لكنَّ العائق هو مبدأ الثأر: من يقتل محمداً (ص) كان يجب أنْ يقتل، لأنَّ عشيرة محمَّد (ص) لم تخلعه (مع أنهم لم يقبلوا دعوته).

لقد وعظ محمَّد (ص) في منى، وعكاظ، وسواهما من الضواحي الحجازية، لكنه لم يحقق نجاحاً. فحاول أن يترك مكّة وينتقل إلى الطائف، كانت هذه مدينة قريبة من مكّة ومحصّنة جيداً. لقد كان المكيون يسخرون منه ومن دعوته، وقال له أحدهم يوماً: لو أنَّ الله يريدنا أنْ نتحوَّل إليه، لما اختارك أنت لهذا الأمر. ولم يقتصر الأمر على رفض القريشيين للدعوة، بل كادوا يوماً أن يقتلوا محمَّداً (ص) نفسه ومعه زيد.

بيد أنَّ الروح لم يخذل محمَّداً (ص). وبينما هو عائد ليلاً إلى مكّة تلقّى تأكيداً جديداً على متابعة رسالته في الدعوة إلى عبادة الإله الواحد. فبينما هو يصلّي عند النخلة، تراءى جمع كبير من الجنِّ، وقد سمع هؤلاء موعظته وسجدوا للإله الواحد. ومن الجدير ذكره أنَّ الجنَّ من الشخصيات الرئيسة في ديانات القبائل العربية. وليس الجنُّ طبقة واحدة: بعضهم لا صلة له بالبشر أو القبائل، وبعضهم الآخر كان أوثاناً للقبائل. وقد دعا العلماء هذا: إينوتيزم: لكل قبيلة جنّها، لكنَّ الجنَّ أنفسهم كانوا في تواصل دائم بعضهم مع بعض، بل كانوا متخالطين، ولا شك أنَّ مغزى رؤيا محمَّد (ص) واضح وجليٌّ: لقد سجد معبودات القبائل العربية للإله الواحد. إذن محمَّد (ص) يسير على الطريق الصحيحة، ودعوته سوف تنتصر. ولكن كيف؟ وما الذي يجب عمله بعد ذلك، إذ سدَّت السبل كلها، وحوصر في الزاوية كالنمر الجريح؟

لقد بحث محمَّد (ص) طويلاً عن إجابة، وظلَّ يبحث حتى عثر عليها في نهاية المطاف. فوجد أنَّ أمامه مخرجاً واحداً وحيداً: لقد رفضني أهلي، إذن فلأدعُ الغرباء، وكانت هذه الوسيلة قد أثبتت نجاعتها على مرِّ التاريخ الإنساني، فالمسيحية رفضها أهلها، وقبلها الآخرون، ونحن يجب أن نفعل الشّيء عينه. لقد وعى محمَّد (ص) الدرس جيِّداً. وكان أولئك الغرباء على مقربة، في مدينة يثرب المجاورة التي غدت بعد ذلك المدينة المنوَّرة، مدينة الرسول. ومن المعروف أنَّ يثرب كانت تحوي يهوداً، واليهودية تدعو بدورها إلى عبادة الإله الواحد. كما كانت هناك طوائف أخرى، بمن في ذلك المسيحيون، إضافة إلى القبائل العربية.

وبدأ محمَّد (ص) يحقق خطته رويداً رويداً. فكانت أولى صلاته بأهل يثرب مع قبيلة الخزرج التي كانت واحدة من قبيلتين رئيستين في المدينة. وكانت هذه القبيلة على صلة قريبة بفكرة الإله الواحد، لأنهم كانوا متحالفين مع يهود يثرب. وقد سمع الخزرج من اليهود مراراً وتكراراً، أنه يجب أن يظهر في الأرض نبي عظيم يحمل رسالة تدعو إلى الدين الحق القويم وتقضي على الوثنية. وأخذ محمَّد (ص) يدعو مجموعة من هؤلاء العرب عادوا من مكّة إلى يثرب عبر طريق العقبة الجبلي. وإذ سمعه هؤلاء قالوا: كأننا إزاء إله يا قوم! أليس هذا هو النبي نفسه الذي حدَّثنا اليهود عنه وقالوا إنَّ زمنه قريب جداً، وأنهم سوف يتبعونه عندما يظهر وينتقمون من كل أعدائهم العرب ويبيدونهم كما أُبيدت قديماً عاد وإرم الكافرتان؟ أليس من الأفضل بالنسبة لنا أنْ نبلِّغهم ونتبع النبي؟ وقالوا لمحمد (ص): إنَّ قومنا من أكثر الشعوب مشاكسة وفرقة، ولذلك كنا عزمنا على تركهم. ولكن ها هو الإله الحق قد يعيد وحدتنا عبرك أنت. ولذلك فإننا نعود إلى مدينتنا ونضع أمرك أمام قومنا، ونسمعهم هذا الذي سمعناه منك. وإذا وحدهم الإله الحق حولك، فلن يكون في الأرض رجل أقوى منك.

ثمَّ تركوه ومضوا. وبعد مضي عام كامل جاؤوا للقاء محمَّد (ص) في المكان المتفق عليه، على طريق العقبة الجبلي. وكان عددهم في هذه المرة أكثر: عشرة مؤمنين من الخزرج واثنان من الأوس. وقد أقسموا يمين الولاء لمحمد (ص) على إيمانهم بالإله الواحد، وامتناعهم عن السرقة، والزنى، ووأد بناتهم، والاتيان بالباطل، وطاعة الرسول في كل عمل حقٌ. فردَّ محمَّد (ص) قائلاً لهم: إذا ما التزمتم بهذا كله، فإنَّ الجنَّة لكم، أمَّا إذا ارتكبتم إثماً فإنَّ لله الأمر في أن يعاقبكم أو يغفر لكم.

وهكذا عاد المسلمون الجدد إلى يثرب، وأرسل محمَّد (ص) معهم مصعب بن عمير لكي يكون مرشداً لهم في دينهم الجديد ويعلِّمهم القرآن. ولم يقف مسلمو يثرب مكتوفي الأيدي. فقد جاؤوا إلى الحج التالي في العام ٦٢٢م. ومعهم ٧٥ مؤمناً بالله الواحد. والتقى هؤلاء مع محمَّد (ص) في المكان عينه على الطريق الجبلية، وعند ذلك الوقت كان محمَّد (ص) قد فقد سنده الرئيس، عمّه أبا طالب. كما فقد زوجته خديجة أيضاً. وقد رافق محمداً (ص) إلى لقائه مع مسلمي يثرب عمُّه الآخر، العباس. وكان له في ذلك اللقاء دور مميَّز. فحتى اللحظة كان محمَّد (ص) لا يزال تحت حماية عشيرته. وفي اللقاء الشهير أعلنه العباس حرَّاً من التزاماته تجاه العشيرة، بعد أن أقسم مسلمو يثرب على حمايته من أيِّ ضيم. وعرف ذلك القسم بالقسم العظيم أو قسم الرجال. وفور ظهورها نظمت طائفة

مسلمي يثرب صفوفها وشؤون حياتها: اختار محمَّد (ص) اثني عشر رجلاً منهم لإدارة شؤون الجماعة (٩ من الخزرج و٣ من الأوس). كما كان على هؤلاء إضافة لذلك أن يعلّموا بالقرآن.

وسرعان ما انتقل مسلمو مكّة إلى يثرب. ولكنّ محمداً (ص) بقي في مكّة ومعه أبو بكر وعلي. بيد أنّه عندما أدرك أنّ بقاءه في مكّة يشكل خطراً حقيقياً على حياته، أخذ يعدُّ العدّة لكي ينتقل بدوره إلى يثرب. فاشترى أبو بكر ناقتين وأرسلهما مع أدلاّء موثوق بهم إلى مكان متّفق عليه على الطريق الجبلية. وفي الليلة المحددة خرج محمَّد (ص) وأبو بكر من مكّة ليلاً عبر مسالك آمنة، وأمضيا ثلاثة أيام في كهف خارج المدينة. وبعد ذلك أخذا يتحركان نحو المكان الذي كان ينتظرهما فيه الأدلاّء مع الناقتين، وعلى الرغم من أنّ المسافة بين مكّة ويثرب لم تكن بعيدة نسبياً، إلاّ أنها استغرقت الآن ثمانية أيام كاملة، لأنّ محمداً (ص) وأبا بكر اضطرا إلى سلوك ممرات جانبية بعيدة عن الطريق الرئيسة التي تسلكها القوافل. وهكذا تمّ خروج محمَّد (ص) من مكّة إلى يثرب، وهو الحدث الذي عرف في التاريخ الإسلامي بهجرة الرسول. وفي يثرب استقبل محمَّد (ص) استقبالاً حافلاً شارك فيه المهاجرون والأنصار. ومنذ تلك اللحظة باتت يثرب تدعى مدينة النبي. فبنوا له فيها منزلين لزوجتيه. وبنوا إلى جانبهما بناء آخر خاصاً بتأدية فروض العبادة. وكان ذلك البناء هو أول مسجد في العالم. وبهذا يكون قد بدأ الطور الثاني، الطور المديني في حياة محمَّد (ص) بصفته نبيّاً. وقد بدأ محمَّد (ص) نشاطه الآن بوضع ميثاق لجماعة المسلمين، وكرّس النّبي في ميثاقه شرائع تختلف عن تلك المعمول بها عند القبائل الوثنية العربية بواقعها العشيري وانقسامها القبلي. وبذا يكون محمَّد (ص) قد أرسى الأسس الأولى للنظام الإسلامي الديني والاجتماعي والسياسي.

فما الذي قضى الميثاق به؟ أوّلاً وقبل كل شيء تأسيس شعب من المؤمنين الموحدين المتساوين في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن انتمائهم إلى قريش أو المهاجرين أو الأنصار. لقد ألغى الميثاق الانقسام القبلي. وبات الأمر الأهم فيه، هو أن يكون المرء مؤمناً مسلماً ملتزماً بوصايا الدين الجديد: لا تسرق، لا تزن، لا تئد بناتك، لا تعمل الشر ولا تساعد عليه. ويجب حسب الميثاق نسيان الحسابات والمطالب القبلية والعشيرية القديمة كلها. كما قضى الميثاق بترك مبدأ الثأر، وفرض على أفراد الجماعة المسلمة أن يدافع واحدهم عن الآخر بالسلاح ضد أي اعتداء من أي جهة كانت. أمّا المسائل الخلافية التي تنشأ فالقول الفصل فيها للنبي.

وما عدا المسلمين كان يعيش في يثرب عرب وثنيون، ويهود. وقّع جميعهم اتفاقاً تعهّدوا فيه بالدفاع عن المدينة، وكان يجب على العرب الوثنيين حسب الاتفاق ألاّ يساندوا أعداء محمَّد (ص) القريشيين وحلفاءهم. تعهد المسلمون بعدم حماية أيٍّ خارج على القانون أو إخفائه. لقد كان تحالف المسلمين واليهود وثيقاً أكثر. فقد تعهَّد فيه اليهود بمساندة قرارات محمَّد (ص)، وتقديم الدعم المادّي للإسلام. وخلال الأعوام العشرة التالية (من العام ٦٢٢ إلى العام ٦٣٢م.) مشى محمَّد (ص) في تأسيس الإسلام طريقاً استغرق تجاوزها من المسيحية ثلاثة قرون (من استيلاء تيطوس على أورشليم في العام ٧٠م.، حتى وفاة قسطنطين في العام ٣٣٧م.).

فكيف تسنَّى له ذلك؟ إنَّ الأسباب عديدة، ولكنها غير واضحة لنا كلها. بيد أنَّ الذي لا ريب فيه، هو أنَّ واحداً من الأسباب الرئيسة قد قام في كون الإسلام أكثر يسراً من المسيحية. فمن الكؤوس الثلاث: كأس الماء، وكأس النبيذ، وكأس الحليب، اختار محمَّد (ص) هذه الكأس الأخيرة. والحديث يجري هنا عن حلم اليقظة، في لحظة بهجة الروح، عندما حمل جبريل محمداً (ص) إلى أورشليم. وهناك قابل عند بيت الصلوات، الأنبياء إبراهيم، وموسى، ويسوع المسيح، وصلّى معهم. وحينما قدموا بعد الصلاة، لمحمد (ص) الكؤوس الثلاث: كأس الماء، وكأس النبيذ، وكأس الحليب، سمع محمَّد (ص) صوتاً يقول: إذا أخذ الماء فسيغرق مع طائفته، وإذا أخذ النبيذ فسوف يغرق مع طائفته في الضلال والغي، وإذا أخذ الحليب فسيمضي مع طائفته على طريق الحق.

نعم لقد اختار محمَّد (ص) كأس الحليب، ودينه أيسر من المسيحية، وربَّما كان هذا هو السبب الذي جعل من الإسلام ديانة عالمية.

ونحن سوف نلقي الضوء على تسلسل الأحداث خلال هذه السنوات العشر، ثمَّ نلتفت بعد ذلك لكي نتعرَّف على الموضوعات الأساسية للإسلام كما جاءت في القرآن.

لم يمض وقت طويل حتى نجح محمَّد (ص) في فصل طائفته المسلمة عن بني قومه، وعن اليهود أيضاً. فالعنصر العرقي كان هو الغالب لدى اليهود (لقد كان محمَّد (ص) عربياً على أي حال). وعلاوة على هذا لم يعترف هؤلاء بأنَّ محمداً (ص) هو النبي الذي ينتظرونه، وسرعان ما زادت الهوة عرضاً وعمقاً بين محمَّد (ص) ويهود يثرب. ولكن النهاية المأساوية للعلاقة بين الطرفين سوف تتأخَّر بعض الشيء. أمَّا الآن فقد اكتفى محمَّد (ص) بالتأكيد على أنَّ الله أرسل القرآن لليهود إثباتاً لكتابهم، ولكنهم لم يؤمنوا. وفي هذا الوقت بالذات بدَّل محمَّد (ص) اتجاه القبلة أثناء الصلاة، من أورشليم إلى مكّة. وقد علل ذلك التبديل بالآية:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ ﴾

(البقرة: ١٤٢-١٤٣)

ولكنَّ اهتمام محمَّد (ص) لم يقتصر على المسائل الدينية فقط، بل كان عليه أن يهتمَّ بحل المسائل السياسية، والعسكرية، ويضع شرائع لتنظيم الحياة المدنية أيضاً، وثمَّة رأي شائع شيوعاً عريضاً مفاده أنَّ الإسلام يفرض الجهاد على المسلمين ضدَّ كل من ليس مسلماً. والحقيقة أنَّ محمداً (ص) أدار حروباً مقدَّسة، بيد أنَّ هذا لا يعني إنه فرض الإسلام بحدِّ السيف. يقول النص القرآني:

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وجاء في نص آخر:

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

(ق: ٤٥)

وقد حذَّر محمَّد (ص) في نص قرآني آخر قائلاً:

﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝﴾

(البقرة: ١٩٠-١٩٣)

يقيناً أن الحرب المقدَّسة كانت بالنسبة لمحمد (ص) إجراءً دينياً سياسياً مؤقتاً فرضته الضرورة. ولا يجوز بحال من الأحوال أن تعدَّ مبدأ دينياً ثابتاً.

لقد أقام المكيون على عدائهم لمحمد (ص). وفي ١٣ كانون الثاني من العام ٦٢٤م. وقعت المعركة الأولى بين المسلمين بقيادة محمَّد (ص) من جهة، والمكيين من جهة أخرى. فقد كانت ثمَّة قافلة تجارية لقريش عائدة من سوريا بقيادة أبي سفيان، وكان برفقتها حماية من ٩٥٠ مقاتلاً معهم ٣٠٠ جمل ومائة جواد. أمَّا محمَّد (ص) فلم يكن معه سوى ٣١٤ مقاتلاً معهم ٧٠ جملاً وجوادان. ولكنَّ المسلمين كانوا أكثر صلابة وإيماناً وتماسكاً. وقد دار القتال بين الطرفين في واحة بدر، ولكنه لم يستمرَّ سوى سويعات قليلة، إذ حقق المسلمون فيه نصراً سريعاً واضحاً وغنموا غنيمة كبيرة. ووزِّعت الغنيمة على المقاتلين بالتساوي بعد أن أخذوا منها الخمس لبيت مال المسلمين ولم يحصل محمَّد (ص) إلاَّ على جمل واحد وسيف واحد اختارهما بنفسه.

بعد بدر قرر محمَّد (ص) أن يصفّي الحساب مع اليهود. وكانت الشرارة التي أشعلت القتال شجار وقع بين مسلم حاول الاعتداء على امرأة يهودية، ويهودي انبرى للدفاع عن ابنة قومه فقتل المسلم. فأعلن محمَّد (ص) الحرب على بني قينقاع كلهم، ووقف اليهود الآخرون، بنو النضير وبنو قريظة على الحياد. ولم يستطع اليهود أن يصمدوا للحصار الذي ضربه المسلمون حولهم، فاستسلموا. وكان عليهم بعد ذلك أن يتركوا شبه جزيرة العرب ويرحلوا إلى سوريا حيث أقاموا فيها. وبعد عام واحد كان مصير بني النضير مماثلاً لمصير بني قينقاع.

وبعد عام من معركة بدر كان المكيون قد أعدُّوا عدتهم للثأر من محمد (ص)، فجمع أبو سفيان قوات كبيرة وقادها في هجوم على يثرب. كانت قوات القريشيين تتألف من ٣٠٠٠ مقاتل مسلحين تسليحاً جيداً ومعهم ٣٠٠٠ جمل و٢٠٠ جواد. وفي ٢٤ كانون الثاني من العام ٦٢٥م. وصلت هذه القوات إلى مشارف مدينة يثرب. ولم يكن تحت قيادة محمَّد (ص) سوى ٧٠٠ مقاتل، و٣٠٠ من سكان المدينة غير المسلمين الذين كانوا حلفاء لمحمد (ص).

وقرر محمَّد (ص) ألاّ ينتظر حتى يحاصر القريشيون المدينة، فخرج للقائهم خارجها. ولكنَّ فرقه الثلاث مائة من غير المسلمين تركت محمداً (ص) ليلاً وعادت إلى المدينة، ودارت رحى الموقعة في ٢٦ كانون الثاني، وعلى الرغم من التفوق العددي الذي كان لصالح قريش، إلاّ أنَّ المسلمين حققوا النصر. ولكنَّ انشغال جماعة المسلمين باقتسام الغنيمة حوَّلت اتجاه المعركة. وحقق القريشيون انتصاراً واضحاً ودمَّروا المسلمين حتى الثغر؛ وقتل منهم في تلك الموقعة أكثر من ٧٠ مقاتلاً كان منهم حمزة عمُّ الرسول. وهكذا هزم المسلمون في أُحد. ولم يخسر المكيون أكثر من ٣٠ مقاتلاً. وفي حديثه مع جنوده بعد الهزيمة قال لهم محمَّد (ص): طالما أطعتموني كان النصر حليفكم، ولكنكم عندما خالفتم إرادة الله وأمر رسوله من أجل منفعة دنيوية، نلتم عقابكم وانتصر أعداؤكم عليكم. إلاّ أنَّ الله غفور رحيم، غفر لكم زلتكم ولم يهلككم.

بعد أحد قرر المكيون أن يصفُّوا الحساب مع محمَّد (ص) نهائياً. ولتحقيق هدفهم وحدوا كل القوى المعادية للإسلام في شبه جزيرة العرب. كانت تلك تتألف من القبائل الوثنية المقيمة في ضواحي مكة، إضافة إلى ثلاث قبائل كبيرة أخرى، كانت تستوطن وسط شبه الجزيرة العربية، ومستعمرة خيبر اليهودية التي انتقل إليها بنو النضير بعد أنْ طردهم محمَّد (ص) من المدينة. وكان أبو سفيان نفسه قائد ذلك التحالف.

ولم يكن لدى محمَّد (ص) ما يكفي من القوى لمواجهة تلك القوات كلها، فما بالك بإلحاق الهزيمة بها. فأشار عليه سلمان الفارسي أن يحفر خندقاً حول المدينة. وكان ذلك شكلاً جديداً من الدفاعات التي لم يعرف العرب عنها شيئاً من قبل، عداك عن أنَّه كان وسيلة مكروهة، لأنَّه كان لدى المحاصرين كثرة من الجمال القتالية العاجزة تماماً عن عبور الخندق. وقد دخلت تلك الحرب التاريخ تحت اسم غزوة الخندق، لقد استمرَّ حصار الحلف المكي للمدينة ثلاثة أسابيع، ولمَّا لم يتوقع الخصم أنَّ الحصار سوف يطول، لم يحمل معه ما يكفي من المؤن، واضطرَّ إلى رفع الحصار عن المدينة. وكانت قد بقيت في المدينة حتى ذلك الوقت قبيلة يهودية أخرى، وقد علم محمَّد (ص) أن يهودها كان يجرون محادثات مع الحلف المكي أثناء الحصار، فصفَّى حسابه معها، إذ حكم على رجالها الراشدين كلهم بالموت، وبيع نساؤهم وأطفالهم عبيداً.

وبقيت مسألة مكَّة من غير حل. ففيها كان المركز الديني الرئيس الذي منع محمَّد (ص) من الوصول إليه. وفيها أيضاً أعداؤه الذين لاحقوه طول سنوات دعوته، وفي ربيع العام ٦٢٨م. خرج محمَّد (ص) من المدينة على رأس قوة من ألف وخمس مائة مقاتل واتَّجه إلى مكَّة.

وكـان الوقت هـو شـهر محرَّم، حيث قضى التقليد بتحـريم أي عمليات قتالية، بينما كـان ينشط العمل التجاري. ومع ذلك تسلّح المكيون وخرجوا للقاء محمَّد (ص) خارج المدينة ومنعوه من دخولها بحدّ السيف. لكنَّ محمداً (ص) دخل معهم في محادثات وقدَّم شـروط اتفـاق هـي: يسمح له بزيارة الكعبة مقابل ضمان أمن قوافل مكة التجارية لزمن غير محدد. ورداً على هذا العرض، اقترح المكيون تأجيل دخوله مكّة إلى العام القادم. فقبل محمَّد (ص) الشرط. ووقع مع المكيين اتفاقاً مكتوباً هاكم بنوده:

١- أنْ تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنوات.

٢- يرد محمَّد (ص) من يأتيه من قريش مسلماً بغير إذن والده، ولا تلتزم قريش بردِّ من يأتيها من عند محمَّد (ص).

٣- من أراد أن يحالف قريشاً فله ذلك، ومن أراد أن يحالف محمداً (ص) من غير القريشيين فله ذلك.

٤- ان يرجع محمَّد (ص) ومن معه هذا العام من غير تأدية العمرة، فإذا كان العام القادم دخلوا مكّة بعد أن تخرج قريش منها، وليس معهم إلاّ سلاح المسافر.

وهكذا استقرّت العلاقات مع مكة، وفي أثناء ذلك قرر محمَّد (ص) أنه قد آن الأوان لوضع حد لوجود اليهود في شبه جزيرة العرب كلها. وفي نيسان من العام ٦٢٨م. قاد قواته على مراكز سكنى اليهود في خيبر، ووادي القرى، وفدك، وتيماء فاستسلم هؤلاء بعد حصار طويل. وسمح لهم بالنزوح من منازلهم، لكن شريطة أن يتركوا فيها كل شيء للمسلمين.

ووقع في أثناء ذلك حدث كان له تأثيره على صحة محمَّد (ص)، بل على حياته كلها. فقد تناول لحم خروف مسموم سممته له امرأة يهودية تدعى زينب كان المسلمون قد قتلوا أهلها كلهم. ويؤكّد المؤرِّخون أنَّ صحة محمَّد (ص) أخذت تزداد سوءاً منذ أن وقعت تلك الحادثة، وتزايدت حالات مرضه.

أمَّا مع المكيين، فقد سارت الأمور على ما يرام، وبدا أن شروط الاتفاق تنفّذ بدقّة، ففي موسم حج العام ٦٢٩م. زار محمَّد (ص) مكّة. فقد دخلها مع قواته وأدى فرائض الحج. واستقبله عمه العباس على الرحب والسعة في منزله، بل عرض عليه أن يزوِّجه كنته الأرملة. وفي أثناء تواجده في مكّة أقام محمَّد (ص) ومرافقوه علاقات وديّة مع أهلها. وحسب برنامج الاتفاق غادر محمَّد (ص) مكّة في الوقت المحدد.

وما لبثت أن دانت لمحمد (ص) قبائل وسط شبه الجزيرة الأخرى، فغدا بذلك أقوى حاكم في ذلك الإقليم. ولكنَّ مكّة أقامت على عدائها له.

وفي تلك الأثناء انتهك المكيون شروط الاتفاق. ورداً على ذلك قاد محمَّد (ص) جيشاً مؤلَّفاً من عشرة آلاف مقاتل وتوجه إلى مكّة. ولمّا كان لا يزال في الطريق انضمَّ إليه كثير من المكيين، ثمَّ جاءه أبو سفيان، خصمه اللدود، وأجرى معه محادثات انتهت إلى اعتناق هذا الأخير الإسلام. وهكذا لم يبقَ إلاَّ أن يدخل محمَّد (ص) المدينة المقدَّسة دخول الفاتحين. فوقع مع أهلها اتفاقاً جديداً اعترفوا بموجبه بخضوعهم لسلطة محمَّد (ص). ووضعت القوات المكيَّة كلها تحت تصرفه. وساوى الاتفاق بين أهل مكة وأهل يثرب، فالغنائم يجب أن تقتسم بالتساوي. وأُعلن مواطنو الدولة الجديدة سواسية أمام الله، والتزموا بالخضوع لشرائع الإسلام. وترافق إقرار الاتفاق بإجراء طقوسي: ركب محمَّد (ص) ناقته القصواء ودار بها حول الكعبة سبع مرَّات، وكان في كل مرَّة يلمس الحجر الأسود بعصاته.

وكان محمَّد (ص) قد قرَّر أن يجعل من يثرب مقرّاً دائماً له. وبينما كان يستعدُّ للرحيل من مكة إلى المدينة جاءه نبأ اقتراب تحالف بدوي جبّار قوامه ٢٠,٠٠٠ مقاتل يزحف على ديار المسلمين لمقاتلتهم. فقام من فوره وقاد قوات المسلمين لملاقاة الخصم. ويبدو أنَّ البدو كانوا واثقين ثقة أكيدة بالنصر، ولذلك حملوا معهم أرزاقاً لا حصر لها (أطفالهم، ونساءهم، وقطعانهم). ودار القتال بتحقيق نجاحات وهزائم متبادلة. إلاَّ أنَّ النصر جاء حليف المسلمين في آخر المطاف. وكانت غنيمتهم مهولة: ٢٤,٠٠٠ جمل، وأعداد لا تحصى من الغنم والماعز ومختلف ضروب الأرزاق الأخرى. ووقعت في الأسر ٦٠٠٠ امرأة وطفل. فأعطى محمَّد (ص) الجزء الرئيس من الغنيمة للمكيين، والتفت إلى قواته فخاطبهم قائلاً: أيعقل ألاَّ تكونوا راضين لأنَّ المكيين ساقوا الأغنام والجمال إلى ديارهم، وأنتم الأنصار تأخذون معكم رسول الله؟ أقسم بمن نفس محمَّد (ص) بين يديه أنِّي لو خيِّرت في مولدي لما اخترت أن أولد إلاَّ بين الأنصار. وإذا ما سار العالم كله في جهة والأنصار في الجهة الأخرى، لتركت العالم كله وجئت مع الأنصار» فأجابه هؤلاء صوتاً واحداً: نحن راضون بقسمتنا يا رسول الله!

والحقيقة إنَّ تصرُّف محمَّد (ص) كان تصرُّفاً حكيماً، فقد ربح قلوب المكيين بالغنيمة، بينما كانت قلوب الأنصار قد باتت له منذ وقت. ولم يكن تصرُّف محمَّد (ص) مع القبائل المهزومة أقلَّ حكمة، فقد أطلق الأسرى من النساء والأطفال دون مقابل، وما لبث سلوكه الأخلاقي هذا أن فعل فعله. فقد جاء قائد التحالف المعادي مالك بن عوف واعتنق الإسلام. وحذت حذوه القبائل الأخرى التي كانت تابعة له. وهكذا أخذ نفوذ محمَّد (ص) يمتد شيئاً فشيئاً. ولذلك لم يكن إعلانه عن حملة على بيزنطة أمراً مستغرباً. فقوات المسلمين

بلغت الآن ٣٠،٠٠٠ مقاتل. ومع ذلك فإنَّ الحملة لم تحدث من الوجهة العملية، ولم يكد محمَّد (ص) يصل حدود سوريا حتى توقف، ثمَّ امتنع عن مواصلة تحركاته القتالية، وعاد إلى المدينة، ويدل تطوُّر الأحداث بعد ذلك على أنَّ محمداً (ص) لم يوقف حملته على بيزنطة إلاَّ لأنَّ مرضاً ألمَّ به، وكان هو نفسه قد أحسَّ بذلك وأدركه بدقَّة.

وكانت رحلة محمَّد (ص) الأخيرة إلى مكَّة هي حجَّة الوداع. فأدَّى طقوس الحج، وألقى في الحجيج خطبة كانت خطبة الوداع، ذكَّر فيها بشرائع الإسلام وفرائضه، وحثَّ على العيش بسلام وأخوة ووحدة، وترك عادة الثَّأر، والرأفة بالعبيد. كما أوصى بزوجاته خيراً، ثم ختم خطبته بقوله الشهير: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي». وهكذا أوجز محمَّد (ص) خلاصة حياته التي تثير الدهشة والإعجاب. وبعد عدَّة أشهر، في ظهر الثامن من تموز من العام ٦٣٢م. توفي محمَّد (ص) عن ٦٣ عاماً من العمر.

الفصل العشرون

وصايا القرآن

يرتبط الدين، أي دين، بتصديه لحسم المسائل المطروحة على كل إنسان، وإحدى هذه المسائل، هي مكانة الإنسان في هذا العالم، في الكون. بمعنى آخر كيف يبدو نظام الكون، وما هو المكان الذي يشغله الإنسان فيه، وما هي ماهية المبدأ الذي يدين له الكون بوجوده، أي من هو الإله. وإذ يقرِّر الإنسان معضلة الإله، فإنه يقرر بذلك مسألة تحديد مكانته في الكون. وعندما يدرك الإنسان هذا، فإنه يغدو بإمكانه أن يسلك سلوكاً مستقيماً في علاقاته مع أبناء جنسه، ومع العالم المحيط به. ولذلك يمكننا القول، إن المسألة الثانية التي يتصدَّى لها الدين، هي مسألة العلاقات بين الناس، وإذا ما نجح الدين المعني في إيجاد السبل الصحيحة للتعامل مع هاتين المسألتين، فإنَّ الإنسان سوف يكون قادراً على بناء علاقات سليمة مع العالم المحيط به. ونحن نسعى إلى الكشف عن المشترك الذي يجمع بين الإجابات التي أعطتها الديانات الثّلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام على هذه الأسئلة.

وفيما يتعلق بمسألة الإله، قلنا إنَّ محمداً (ص) أعلن أن الإله الذي يدعو العرب إلى عبادته هو الإله الواحد الأحد، إله إبراهيم وموسى، والمسيح، وقد فهم محمَّد (ص) الإله ووصفه كما يصفه عالم الطبيعيات المعاصر الذي يعرف أنَّ الكون بني وفق مخطط، وفق خطة، يقول النص القرآني:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(البقرة ٢١-٢٢)

والله حسب القرآن، هو المبدأ الوحيد للكون، كل الكون الذي لم يأتِ شيء فيه مصادفة.

والله حسب القرآن هو المبدأ الوحيد للكون، المبدأ الذي يوحِّد الأشياء كلها، والذي خلق ما في الكون كله كجهاز موحَّد معقَّد مبرمج بدقَّة متناهية، جهاز لم يأتِ أي شيء فيه مصادفة. يقول النص القرآني:

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾

(يس: ٨١-٨٢)

يقينا أنَّ من يقرأ هذه الكلمات القرآنية لا يستطيع أن يتخيَّل الإله كهلاً عجوزاً لحيته بيضاء، ويستوي على سحابة. فكل شيء هنا في القرآن أكثر عمقاً. إذ تتكون لدى القارئ صورة عن المبدأ الواحد، عن ذلك القانون، عن تلك الحتمية التي يخضع لها الكون. إنَّ أيَّ نظام كان، فما بالك بنظام معقد كنظام الكون، لا يستطيع أن يعيش من غير هذا المبدأ الواحد، القانون الواحد. يقول القرآن:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ٢٢)

والحقيقة أن كل شيء في نظام الكون يعمل بتوافق دقيق مع الآخر، ويؤكِّد القرآن تأكيداً قاطعاً واضحاً لا لبس فيه، على أنَّ الله هو المقصود بهذا المبدأ الواحد:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾

(البقرة: ١٦٣-١٦٤)

لقد طلبوا من محمَّد (ص) أن يأتيهم بمعجزات ليؤمنوا بأنَّه مرسل من عند الله، وأنَّ هذا الإله موجود فعلاً، وكنا قد تعرَّفنا إلى ردِّه عليهم. يقيناً لم يكن لرجل مثل محمَّد (ص)

يعي العالم المحيط به وعياً كاملاً، أن يردَّ ردَّاً آخر. فكل ما يستطيعه الإنسان بنفسه، هو إدراك القوانين الفاعلة في الطبيعة. وهو عاجز تماماً عن فرض قوانينه على الطبيعة، إنَّه يستطيع فقط أن يدرك، أنْ يفهم، أن يخمِّن بصدد تلك القوانين التي تفعل باستقلال مطلق عنه. فمن هو صانع هذه القوانين؟ الطبيعة؟ العقل الكوني، الإله، لا أهمية لأي تسمية كانت هنا. فكل شيء خاضع لإرادة هذا المبدأ، الإله:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ﴾

(البقرة: ٢٨-٢٩)

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ١١٥)

إنَّ قدرات الإنسان ومواهبه المعرفية محدودة. فالله وحده يعرف كل شيء. فالمعلومات كلها سواء عن الحاضر أو الماضي أو المستقبل موجودة في كنف حقل الإعلام الكوني. ويقول النص القرآني عن هذا:

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

(البقرة: ٢٥٥)

إنَّنا نرى أنَّ من واجبنا أن نورد النص القرآن الذي يظهر بجلاء تام أنَّ إله محمَّد (ص) هو ذلك المبدأ الكوني الذي يقرُّه العلم المعاصر:

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾

(الأنعام: ٩٥-٩٩)

ونرجو القارئ الكريم أن يمعن النظر خاصة في قوله: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ». فإذا نقلنا هذا القول إلى لغة العلم المعاصر فأنَّنا نقول: إنَّ صورة كل منَّا، هولوغرامًا كل منَّا، الحقل الحيوي (أي «روح») لكل منَّا، صادرة عن حقل الإعلام الكوني. إنَّنا جميعاً أخرجنا من روح واحدة، من حقل واحد، وهذه حقيقة. وعليه هل ينبغي علينا أن نذكِّر بأنَّ أحداً منَّا لا يتفوَّق على الآخر من حيث العرق، أو القومية، أو الجنس، أو وفق أيِّ مبدأ آخر.

وتأسيساً على فهمه لله بصفته مبدأً كونياً طبيعياً، ومع تأكيده على تبجيله ليسوع المسيح، إلاَّ أنَّ محمداً (ص) لم يأخذ أبوَّة هذا الإله ليسوع بمعناها الحرفي. يقول النص القرآني:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ﴾

(الأنعام: ١٠٠-١٠١)

وعارض محمَّد (ص) بشدَّة، أن يوضع أي كان على قدم المساواة مع الله:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٠-٣١)

وفي حديثه عن المسيح مباشرة يؤكّد محمَّد (ص) في نص قرآني آخر على أنَّ يسوع المسيح لم يطلب أن يسجد له:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ
اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا
مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ
فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ ﴾

(المائدة: ١١٦-١١٧)

وتعدُّ مسألة وحدانية الله، هي المسألة الرئيسة بالنسبة لمحمَّد (ص). فالقرآن عاد إليها مرَّات كثيرة. وها نحن نسوق بعض النصوص الأخرى التي نرى أنَّ لها أهمية فائقة لفهم الفرق بين المسيحية والإسلام:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

(آل عمران: ٥٩)

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ
كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ ﴾

(آل عمران: ٧٩-٨٠)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ۝ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً ۝﴾

(النساء: ١٧١-١٧٢)

ولم يدع محمَّد (ص) إلى الإيمان بالإله الواحد من أجل الإيمان بحدِّ ذاته، فالإيمان بغير عمل إيمان ميت. وقد استرشد محمَّد (ص) بهذا المبدأ، مثلما فعل المسيح قبله وكذلك رسله. إذن لم تكن المهمة تقوم في الإيمان وحسب، إنَّما في إحداث تغيير جدِّي في نمط العيش برمَّته، وفي اتخاذ موقف آخر تجاه العالم المحيط، وتجاه الآخر، ففي هذا بالذات كان يقوم جوهر الإيمان. ولهذا بالذات يُعدُّ الإيمان والدين المرتكز الروحي للمجتمع.

فما هي طبيعة العلاقات التي يقضي بها القرآن؟ لقد عرضنا آنفاً لأهمِّ مبادئ السلوك الإسلامي بإيجاز. وسوف نبدأ دراستها الآن بالتفصيل. ومن الطبيعي أن تكون قواعد السلوك قواعد عامَّة تنسحب على كل إنسان وليس على المسلم فقط، إنَّها القواعد التي أقرَّتها الأديان كلها: لا تسرق، لا تزن، لا تكذب، أطع والديك، لا تفعل الشَّرَّ وافعل الخير، كن صادقاً ومستقيماً، ولا تكن متكبِّراً متغطرساً مبتذلاً، كن صلباً في وقفتك مع الحق، ساعد من يحتاج إلى المساعدة، كن متسامحاً مع أعدائك، وادع إلى السلام بين الناس، عن هذا كله يقول القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

(الممتحنة: ١٢)

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ١١٤)

﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(المائدة: ٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

(المائدة: ٨)

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾

(المؤمنون: ١-٩)

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾

(الإسراء: ٣٥-٣٦)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

(لقمان: ١٤)

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝ ﴾

(لقمان: ١٧-١٩)

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . . . ﴾

(الشورى: ٢٣)

لاحظ عند المسيحيين: أحبب قريبك كما تحب نفسك.

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(فصّلت: ٣٤-٣٥)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ ﴾

(الحجرات: ١١-١٤)

لقد أعلن محمَّد (ص) غير مرَّة موقفه المناهض للحرب، والنزاعات والشقاق.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٨)

وعن الإحسان يقول النصُّ القرآني:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۞ ﴾

(البقرة: ٢٧١-٢٧٢)

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾

(البقرة: ٢٦٣-٢٦٥)

قبل محمَّد (ص) لم يعرف العرب صلوات، ولمَّا ظهر أقام صلوات منتظمة منذ أن جاء يثرب، ويرى المؤرخون أنه إنَّما فعل ذلك متأثِّراً بما كان عند يهود المدينة. فقد أدرك محمَّد (ص) عندئذٍ أي سحر للكلمة. وفي الأول كانت الصلوات ثلاثاً، ثم زادت إلى خمس.

وتختلف الصلاة في الإسلام اختلافاً مبدئيّاً عن الصلاة المسيحية، فالمسيح ألحَّ على مغزى الكلمات المنطوقة. أمَّا المسلمون فقد كانت صلاتهم منذ البداية تذكِّر من حيث الصيغة، ومن حيث الطابع بالتوسل، والمناشدة. وقد قام بناء الصلاة في الآتي: ترديد الصلوات عدداً محدداً من المرات في صيغ دقيقة ووفق تعاقب صارم. وفي غضون ذلك يجب أن تتوافق الصيغ مع اختلاف أوضاع الجسم، وهذه الأوضاع بدورها محددة تحديداً صارماً. ويدعى عدد الصيغ مع حركات الجسم: ركعة. ويجب ألاَّ تقل الصلاة الكاملة عن ركعتين. ولكل ركعة بنية محددة، ويجب أن تتضمَّن الركعة قبل كل شيء إعلاناً عن عدد السجدات التي ينوي المؤمن تأديتها. ثمَّ بعد ذلك تدخل بنية الصلاة سورة الإخلاص بالضرورة. ويلي ذلك مقاطع من مختلف السور الأخرى. ويجب أن يردِّد المؤمن في أثناء ذلك دائماً قول: الله أكبر، ثمَّ يؤدِّي الحركة الجسدية ذات الصلة. وعندما تؤدَّى الصلاة في المسجد فإنَّ المصلِّين كلهم يؤدُّون الحركات الجسدية كلها في وقت واحد. وعادة ما يقود الصلاة إمام. وتسبق الصلاة بالضرورة شعيرة الوضوء التي لها طابع شعيري صرف يذكِّر بالفعل السحري.

وقد جاء في القرآن عن الصلاة:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾

(الأنفال: ٢-٤)

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(هود: ١١٤)

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(البقرة: ٢٣٨-٢٣٩)

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ ﴾

(الإسراء: ٧٨-٨١)

وحسب القرآن ينبغي على المسلمين أن يصوموا شهراً في السنة، هو شهر رمضان، وقبل ذلك كان محمَّد (ص) قد فرض في المدينة الصوم يوماً واحداً كل عشرة أيام. وقد قال القرآن بصدد الصيام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝﴾

(البقرة: ١٨٣-١٨٧)

وفرائض القرآن في الطعام هي:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٧٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞﴾

(المائدة ١-٣)

وعن الأضحية:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ۞﴾

(الحج: ٣٦-٣٧)

لقد عاش محمَّد (ص) وعمل في بيئة وجد نفسه فيها مرغماً على الاعتراف بالثأر، ومع ذلك دعا إلى ترك عادة الثأر هذه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ ﴾

(الشورى: ٣٩-٤٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٧٨)

لقد رأى محمَّد (ص) في القرآن شريعة العرب. وهذا ما حصل فعلاً بعد أن صارت السلطة في المدينة ثمَّ في مكَّة، وبعدها في الخلافة كلها، إلى محمَّد (ص) ثمَّ إلى خلفائه، فقد وضع محمَّد (ص) قانوناً مدنياً إذا صحَّ القول، ليحلَّ محلَّ القوانين القبلية. فالقرآن ألغى في ميدان التركات حق الأخ الأكبر على الأصغر، وأكَّد على أنَّ الأولاد من الذكور لهم النصيب عينه بصرف النظر عن السن، كما ترك القرآن نصيباً للمرأة أيضاً (نصف نصيب الذكر). ووفق هذه القوانين فقدت العشيرة حقَّها في تركة المتوفى من أبنائها إذا ما أوصى بها لأحدهم. وكان هذا القانون ذا طابع تقدُّمي واضح، فقد بات من حقِّ الشخصية الاجتماعية أن تتصرَّف بموجبه بما تملك.

وهاكم أهم النصوص القرآنية التي صيغت هذه الشرائع فيها:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ

عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ ﴾

(البقرة: ١٨٠-١٨٢)

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۞ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ ﴾

(النساء: ٧-٨)

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۞ ﴾

(النساء: ١١-١٢)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(النساء: ١٧٦)

وحرَّم القرآن الربا:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٥)

وفرض القرآن ارتداء الحجاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

(الأحزاب: ٥٩)

ويضبط القرآن العلاقات بين الأزواج والزوجات على الوجه الآتي:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾

(النساء: ٣٤)

كما شرّع القرآن مسألة الطلاق واقتسام الأملاك في مثل هذه الأحوال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ۝ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝ ﴾

(الطلاق: ١-٧)

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ
فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ
شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ۝ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا
تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ۝ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا
تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝
وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى
الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ
وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ
مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾

(البقرة ٢٢٦-٢٣٤)

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝ ﴾

(البقرة: ٢٤٠-٢٤١)

كما نظّم القرآن التعامل مع المواليد:

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة: ٢٣٣)

الفصل الحادي والعشرون

القرآن عن القرآن والرسول

إنَّ القرآن يثير دهشة واستغراب أيِّ قارئ غير معدٍّ لقراءته إعداداً جيِّداً. ولا ينسحب هذا الحكم على النصِّ القرآني فقط. فليس هناك في النصِّ بنية محددة، لا في القرآن ككل ولا حتى في كل سورة من سوره. فهكذا تكوَّن القرآن، الذي كان موجوداً دائماً عند الله (قبل أن يعطيه لمحمد (ص) بأمر لا يعرفه إلاَّ الله). والله لم يرسل منه إلى رسوله إلاَّ ما كان يراه ضرورياً للحظة المعنية.

وفي أوَّل وحي نزل على محمَّد (ص) قيل له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۞ ﴾

(العلق: ١-٥)

وقد جاء في القرآن عن القرآن نفسه:

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۞ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ۞ ﴾

(الشعراء: ١٩٢-١٩٦)

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ ﴾

(يونس: ٣٧-٣٨)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ ﴾

(هود: ١٣-١٤)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(هود: ٣٥)

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۞ ﴾

(إبراهيم: ٣٦-٣٧)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم: ٣٠)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ ﴾

(الزمر: ٢٧-٢٨)

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾

(فصلت: ٢-٤)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾

(فصلت: ٦)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ ﴾

(فصّلت: ٤١-٤٤)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾

(الزخرف: ٣-٤)

وجاء في القرآن أنَّ القرآن يعدُّ تأكيداً لما جاء به موسى:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾

(الأحقاف: ٢٩-٣٠)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الحشر: ٢١)

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ . . . ۞ ﴾

(آل عمران: ٣-٤)

ومن المعروف أنّه كان هناك من لم يعترف بمحمد (ص) رسولاً لله، إنّما رأى فيه شاعراً أو كاهناً، فردَّ القرآن على ذلك بنصوص مثل:

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۞ ﴾

(الحاقة: ٣٨-٤٣)

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ ﴾

(الطور: ٢٩-٣١)

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۞ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ ﴾

(يس: ٦٩-٧٠)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

(فاطر: ٢٥)

وكان محمَّد (ص) يعود بين وقت وآخر ليعطي تقويماً لشخصه وعمله:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۞ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ۞ ﴾

(القلم: ١-٦)

كما أعلن محمَّد (ص) غير مرَّة أنَّ من واجبه كرسول لله أن يبلِّغ الكتاب للناس:

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾

(العنكبوت: ١٨)

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

(الأحزاب: ٤٠)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ۞ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ۞ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ۞ ﴾

(الأحزاب: ٤٥-٤٨)

وعن نساء الرسول يقول القرآن:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ ﴾

(الأحزاب: ٣٢-٣٣)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝ ﴾

(الأحزاب: ٥٠-٥٢)

لقد أكّد محمّد (ص) مرات كثيرة على أنّه ليس شاعراً إنّما رسول من عند الله. ولكنّنا بتنا ندرك الآن إن واحدهما لا ينفي الآخر. ومن قرأ القرآن حتى مترجماً يتيقن أنّه إبداع شاعر متميز. وها نحن نسوق مقاطع منه تأييداً لهذا الرأي:

﴿ وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۞ ﴾

(الطور: ١-٨)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۞
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا
النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۞ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۞ وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ ۞ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۞ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۞ ﴾

(التكوير: ١-١٤)

﴿ وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ
لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۞ ﴾

(الضحى: ١-١١)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ الْإِنسَانُ
مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ
أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ۞ ﴾

(الزلزلة: ١-٨)

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَانصَبْ ۝ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝ ﴾

(الشرح: ١-٨)

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(العصر: ١-٣)

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن
شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(الفلق: ١-٥)

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝ ﴾

(النّاس: ١-٦)

الإسلام بعد محمَّد (ص)

لقد ترك محمَّد (ص) دولة إسلامية ثيوقراطية كبيرة امتدَّت على مدى شبه جزيرة العرب كله، وبينما محمَّد (ص) على قيد الحياة كانت بين يديه السلطتان الدينية والزمنية (الإمارة والإمامة). وبعد وفاته انتقلت السلطة إلى خلفائه، الذين أدُّوا مهمته نفسها. فتولاها أبو بكر من العام ٦٣٢م إلى العام ٦٣٤م. تلاه عمر من العام ٦٣٤ إلى العام ٦٤٤م. لقد كان الخلفاء الأربعة الأوائل من أصحاب محمَّد (ص) وأنصاره الأوائل. وحمل هؤلاء في التاريخ الإسلامي اسم: «الخلفاء الراشدين». وقد مات ثلاثة منهم قتلاً، وواحد فقط، هو أبو بكر مات ميتة طبيعية. وبعد هؤلاء انتقلت السلطة إلى سلالة بني أمية، وبقيت لها حتى العام ٧٥٠م.. لقد اتَّخذ بنو أميَّة من دمشق عاصمة لهم. ووضعت دولة الخلافة نفسها في مواجهة بيزنطة وفارس. فهزمتهما معاً. ثمَّ استولت الخلافة على مصر. وأخذت دولة الخلافة تمتدُّ غرباً على طول الساحل الجنوبي للبحر المتوسط. أمَّا في الشَّرق فلم تكتفِ الخلافة بإيران وحدها، إنَّما ضمَّت إليها إقليم ما وراء القفقاس أيضاً. ووصلت حدودها في شمالي أفريقيا إلى سواحل المحيط الأطلسي. وفي العام ٧١١م. عبرت قوات خلافة بني أمية مضيق جبل طارق، واستولى العرب على شبه جزيرة إيبيريا كلها. واستولت دولة الخلافة أيضاً على شطر كبير من آسيا الوسطى، وكل أفغانستان حتى حدود الهند. إذن لقد باتت حدود دولة الخلافة عظيمة، لكنَّ بيزنطة صمدت.

وإثر وفاة محمَّد (ص) أخذت تظهر دراسات لها طابع السيرة، واجتمعت هذه الدراسات كلها في مجلدات دعيت السيرة، أو السير. وعلاوة على هذه أخذت تنشأ شيئاً فشيئاً دراسات أخرى تناولت الأحاديث النبوية التي تنتمي إلى شتَّى أطوار حياة الرسول. فقد كان من المهمِّ لهم أن يعرفوا كيف تعامل محمَّد (ص) مع هذه المسألة أو تلك، وماذا قال عن هذه المسألة أو تلك. وكان ينبغي أن يشكل هذا كله إضافة إلى القرآن مرشد عمل. وكان إسناد الحديث يبدأ من الصحابة عبر خلفائهم وصولاً إلى المدوِّن نفسه. وأطلقوا على هذا النصِّ اسم: المسند. وقد جمعت الأحاديث الصحيحة كلها ودوِّنت في كتاب السُّنَّة. وهذا ما دأبت عليه الديانات

الأخرى كلها. ففي اليهودية، إضافة إلى أسفار العهد القديم، أنشأوا التلمود. وفي المسيحية أيضاً ما يماثل هذا، لكن ما وضعوه لم يأخذ شكل الكتاب القانوني المعترف به. ونحن نتحدَّث عن هذا الأمر لأنَّ السُّنَّة انتجت المذهب السُّنِّي الذي دخل منذ تلك الأزمنة في صراع مرير مع المذهب الشيعي، ولا يزال الصِّراع متواصلاً حتى يومنا هذا. فقد قاوم الشيعة السُّنَّة انطلاقاً من أن القرآن وحده مصدر الحقائق الإسلاميَّة. وللمذهبين موقفان مختلفان من مسائل سلطة الأئمة. فالإمام بالنسبة للشيعة إنسان معصوم، وله الحقُّ في أن يفتي وحده في أيِّ مسألة كانت. أمَّا السُّنَّة فيرون أنَّ الفتوى في المسائل الدينية يجب أن تكون لاجتماع أهل الرأي. كما يختلف موقف كل من السُّنَّة والشيعة في مسألة السلطة. فلم يعترف الشيعة إلاَّ بمحمد (ص) والقرآن، ورأوا أنَّ السلطة يجب أن تكون في سلالة الرسول فقط. وكان بنو أمية قد استولوا على السلطة عنوة في حرب دموية ضارية. وقد علَّل هؤلاء استيلاءهم على السلطة بتعاليم السُّنَّة التي كانت سندهم الديني، وحارب الشيعة السُّنَّة، أو بمعنى أدق حاربوا بني أميَّة. وقاد حربهم الإمام علي بن أبي طالب ابن عمِّ محمَّد (ص)، وتواصل الصراع بين السُّنَّة والشيعة على امتداد التاريخ الإسلامي كله، ولذلك يبدو من المهمِّ أن نتعرَّف إلى جذور ذلك الصراع داخل الدين الواحد: الإسلام. فكما في الديانات الأخرى، كذلك الإسلام عرف كثرة كثيرة من التيارات، والطوائف، والهرطقات، ولكنَّنا سوف نتجاهل أكثرها في كتابنا هذا، لانَّ غرضنا فيه يتلخص في إعطاء القارئ معلومات عن أصول الديانات، عن جذورها الأولى، ثم مقارنة الحقائق التي تتضمَّنها مع معطيات العلم المعاصر.

في أوائل القرن ٨ م. بلغت حدود دولة الإسلام أقصى امتداد لها: من نهر السند إلى شواطئ المحيط الأطلسي، ومن شواطئ بحر قزوين حتى ضفاف نهر النيل. ومن الواضح أنَّه كان من الصعوبة بمكان أن تدار تلك الدولة المترامية من مركز واحد في ظلِّ مستوى وسائل المواصلات الذي كان سائداً في تلك الأزمنة، ضف إلى هذا أنَّ الظروف في مختلف أجزاء دولة الخلافة تلك كانت شديدة التباين، وكان طبيعياً أن يظهر مختلف ضروب الهرطقات التي أخمدت من دون رحمة، تماماً كما كانت الحال عند المسيحيين.

وكما كان الدأب في كل زمان ومكان، فقد سار هنا أيضاً صراع متواصل على السلطة. وعزم خصوم الأمويين على انتزاعها منهم مهما كلف الأمر. ولمع في ذلك الوقت نجم اثنين من سلالة محمَّد (ص): أبو العباس وأبو جعفر. فالاثنان كانا ينتميان إلى العباس عمِّ الرسول. وقد نجح هذان في صراعهما ضدَّ بني أمية وقامت سلطة العباسيين، وأوَّل ما فعله هؤلاء، أنَّهم أبادوا خصومهم من أنصار بني أمية بعد أن دعوهم للمصالحة، لكنهم غدروا بهم.

لقد نقل العباسيون عاصمتهم من دمشق إلى بغداد، ومع وصول هؤلاء إلى السلطة يكون قد بدأ طور تداعي الإمبراطورية الإسلامية الجبَّارة. اهتمَّ العباسيون اهتماماً خاصّاً بالحفاظ على قوتهم العسكرية. فجنَّدوا أبناء الأمم الأخرى وبالغوا في ذلك. وابتداءً من القرن ١٠م.، في عهد الخليفة المقتدر، بات قائد الجيش أميراً على الأمراء، أي أن شؤون الحكم كلها غدت بين يديه. ولم يبقَ للخليفة سوى الشؤون الدينية، فقد صار هذا الرئيس الروحي للإسلام.

وبادر الخلفاء أنفسهم إلى تدمير دولة الخلافة الواحدة؛ إذ دفعتهم حاجتهم للنقود إلى منح الأمراء ولايات بكاملها إقطاعات لقاء مبالغ متفق عليها. وشيئاً فشيئاً أخذ يظهر السلاطين والملوك والأمراء الذين أداروا شؤون دولهم إدارة مستقلَّة عن مركز الخلافة، وعند أوائل القرن ١٠م.، كانت قد انفصلت عن خليفة بغداد: أسبانيا، وشمالي أفريقيا، والولايات الشرقية بدءاً من إيران حتى الهند.

وفي العام ٩٤٥م. سقطت الخلافة العباسية بصفتها دولة، ووقعت بغداد تحت سيطرة قبائل جنوبي بحر قزوين؛ فقد سيطر هؤلاء تماماً على السلطة الزمنية ولم يبق للخليفة سوى السلطة الروحية.

وفي القرن ١١م. تعرَّضت بغداد لغزو كاسح شنَّه عليها مسلمون سنَّة، فالسلطة في بغداد كانت واقعة وقتذاك تحت تأثير الشيعة، وهؤلاء كانوا من سلالة الرسول. وكان أولئك الغزاة هم القبائل التركمانية التي كانت تستوطن سهوب آسيا الوسطى. ولم يكن قد مرَّ زمن طويل بعد على اعتناقها الإسلام على المذهب السنِّي. وبعد أن استولى التركمان على السلطة في بغداد أقاموا فيها على رأس السلطة سلطاناً منهم.

ويمكن القول في هذا السياق: «لا شرّ بغير خير». فالغزاة السنَّة هؤلاء أعادوا إحياء الدولة الإسلامية الواحدة إثر فتوحاتهم في إقليم غربي آسيا.

وفي القرن ١٢م. عرف الإسلام طور الصعود الثاني، عندما خرج المنغول إلى مسرح التاريخ. فعلى امتداد عدَّة عقود شغل جنكيز خان إيران، وآسيا الوسطى، وأفغانستان، والقفقاس، وجنوبي روسيا، وما لبث المنغول أن استولوا على روسيا كلها، ووصلوا حتى بولونيا والمجر. وفي الشرق الأقصى استولى المنغول على الصين. ثم اندفعوا نحو وادي الرافدين، وسوريا، ومصر. وكان الغزو المنغولي قد بدأ في العام ١٢٠٩م.، وفي العام ١٢٥٨م. استولى هؤلاء على بغداد. وقد نجح مماليك مصر في إيقاف زحفهم نحو جنوب غرب. لقد كانت ديانات المنغول مختلفة: البوذية، والمسيحية، والعبادات الشامانية الوثنية. إلاَّ أنَّهم سرعان ما

تحوَّلوا شيئاً فشيئاً إلى الإسلام الذي كان قد بات منذ القرن ٨م. ديناً رسمياً للدولة المنغولية. وعلى امتداد أكثر من قرنين كانت سياسة آسيا كلها تحت إدارة المغول.

ثمَّ حلَّت الإمبراطورية العثمانية محلَّ الإمبراطورية المنغولية، وقد اعتمد العثمانيون بدورهم على الإسلام أيضاً. وفي العام ١٤٥٣م. نجح هؤلاء في الاستيلاء على القسطنطينية. وبدأت سلسلة جديدة من الحروب الشبيهة بحروب العرب في القرن ٨م.. ومنذ العام ١٥٠٢م. تأسَّست في إيران دولة إسلامية قوية. وفيما بعد، في العام ١٥٢٦ ظهرت دولة المغول العظام الإسلامية، التي عاشت حوالي القرنين، وأخذت تظهر في أندونيسيا بدل الدولة الواحدة غير الإسلامية، إمارات إسلامية مستقلَّة.

لقد استولت الإمبراطورية العثمانية على بيزنطة ومصر، وشبه جزيرة العرب، وواصلت زحفها غرباً على طول الساحل الجنوبي للبحر المتوسط. وباتت مفاتيح الكعبة بين يدي السلطان العثماني. فقد استولى على مكّة والمدينة، وهكذا غدا سلاطين بني عثمان منذ القرن ١٦م. الزعماء الروحيين للعالم الإسلامي. بيد أنَّ الشيعة لم يعترفوا بخلافة العثمانيين الأتراك. ولذلك عدتهم سلطات الإمبراطورية أعداء مثلهم مثل الكافرين.

وفي أوائل القرن ١٦م. قامت دولة المغول العظام في الهند. وكانت هذه قد نشأت إثر انتصار التحالف الإقطاعي الأفغاني - التركي على الإقطاعيين الهنود. وكانت تلك الحرب هي حرب الإسلام ضدَّ الهندوسيَّة. وكان أكبر من ألمع أباطرة الإمبراطورية المغولية هنا. وقد حكم من العام ١٥٥٦م. إلى العام ١٦٠٥م. وزاد أكبر من رقعة الإمبراطورية إذ ضمَّ إليها هندوستان وأفغانستان.

في العام ١٧٣٠م. ظهرت في الإسلام حركة تمثِّل أهميَّة متميِّزة، فقد دعت الحركة للعودة إلى الإسلام الأول. وهو ما يذكرنا بحركة الإصلاح الديني التي عرفتها المسيحية في القرن ١٦م.. وقد دعيت الحركة الإسلامية بالحركة الوهَّابيَّة. ودعا أنصارها إلى الالتزام بالقرآن وحسب. ولم يقرُّوا من السُّنَّة إلاَّ بما جاء في عصر الخلفاء الراشدين. واعتقد الوهابيون أنَّ عبادة الأولياء التي كانت شاعت في الإسلام، تقوِّض عبادة الإله الواحد، وتنتهك الموضوعات القرآنية، ولذلك رفض الوهابيون السجود لأيٍّ من الأولياء بمن فيهم محمَّد (ص). ورأوا أنَّه يجب ألاَّ يكون ثمَّة وسيط بين الله والمؤمن؛ وكان هذا يعني من جانب آخر أنَّه ليست هناك ضرورة لوجود رجال الدين. ودعا الوهابيون إلى العيش وفق الفرائض الأولى التي جاء القرآن بها: تحريم الخمرة، والتدخين، والابتعاد عن شتَّى ضروب العقائد الخرافية. ولو تذكَّرنا البروتستانتية المبكِّرة لرأينا أنَّها دعت بدورها للعودة إلى تعاليم المسيح البدئيَّة، وترك تلك التي جاء بها رجال الدين فيما بعد محرَّفة.

لقد تشكلت الحركة الوهابية كحركة عسكرية، فقد ولدت في أوساط القبائل العربية البدوية، وقد احتضنتها هذه الأخيرة، وقاد الحركة أحد شيوخ تلك القبائل: ابن مسعود. ووضعت الحركة لنفسها هدفاً، هو الاستيلاء على شبه جزيرة العرب كلها. وحقق الوهابيون في العام ١٧٩٧م. نصراً واضحاً على الجيش العثماني. وفي العام ١٨٠٢م. استولى الوهابيون على العراق، ثمَّ على سوريا، ولكنَّ محمَّد علي والي مصر وقتذاك، حقق عدد من الانتصارات عليهم بين العام ١٨١١-١٨١٨م. ونجح في إلحاق الهزيمة بهم وأسر زعيمهم، الذي أُرسل إلى القسطنطينية حيث أعدم فيها، بيد أنَّ دولة الوهابيين بقيت قائمة إذ تحوَّلت إلى إمارة قام على رأسها آل سعود.

وقد وصلت الأيديولوجيا الوهابية إلى الهند. وشكل أنصارها هنا «أخوية المجاهدين من أجل الدين». وما لبثت الأخوية أن شنَّت حرباً مسلَّحة ضدَّ السيخ. وحققت فيها نجاحات واضحة، إذ انتزع المسلمون مساحات واسعة من أراضي السيخ. وأسسوا عليها دولتهم الإسلامية، ولكنَّ سكان الدولة المغلوبين قاوموا النظام الجديد. وانتهى الأمر بمقتل رأس الدولة على يد السيخ في العام ١٩٣٨م. بيد أنَّ الحركة الوهابية نفسها لم تندثر. ووجهت حربتها الآن ضدَّ خصم جديد، هو الاستعمار الإنكليزي، وقد استخدم الإنكليز في تعاملهم مع الحركة العصا والجزرة. فشنُّوا حملات تأديبية ضدها، لكنَّهم من جانب آخر أغروا زعماء رجال الدين واشتروا بعضهم بالمال. وآلت الأمور في القرن التاسع عشر إلى العثور على لغة مشتركة بين الإسلام والإنكليز في الهند.

وعرف الإسلام على امتداد تاريخه كثرة من التيارات التي ألَّف المؤرِّخون فيها معجماً كاملاً. وما له دلالة مهمَّة في هذا السياق، هو تيار البهائية الذي أفرزه الإسلام. وقد اعتمد هذا التيار شعاراً رئيساً له، هو «الدين عامل توحيد. وإذا ما تحوَّل إلى سبب للتفرقة فإنَّه من الأفضل بكثير ألاَّ يكون له وجود أصلاً». وكان مؤسس هذا التيار بهاء الله قد عزم على تأسيس ديانة عالمية جديدة توحد الديانات القائمة في العالم كلها. وكانت الخطوة الأولى عنده لتحقيق ذلك تتمثَّل في توحيد الصلوات، والشعائر، والفرائض والمحرمات، ولكنَّ تحقيق ذلك كان ممكناً بطريقة واحدة فقط، هي إلغاء هذه العناصر كلها. وأخذ قادة هذه الحركة أنفسهم يسلكون هذا السلوك. فطرحوا شعار: «الناس كلهم أخوة وسواسية، ولهم الحقوق عينها»

وفي أواخر القرن التاسع عشر. ظهر في السودان تيار إسلامي آخر دعا إلى إحياء الإسلام الأول، هو الحركة المهدية، وقد تأتَّى للمهدية أن تحارب على أكثر من جبهة: ضدَّ

المسلمين المرتدين (الترك والمصريين). وضدَّ المستعمرين الإنكليز، وكما يحدث في التاريخ غالباً، فقد بدأت هذه الحركة بداية بسيطة: كان زعيم الحركة هو الدرويش السوداني محمَّد أحمد الذي اتّخذ من جزيرة أبا في نهر النيل مقراً له، ومن هناك أرسل دراويشه إلى مختلف أرجاء البلاد يندّدون بالفساد الأخلاقي وانتشار البذخ. ودعا هؤلاء في خطبهم وعظاتهم إلى إعادة توزيع الثروات توزيعاً عادلاً، ورمي النير التركي - المصري. وما لبثت البذور المزروعة أن نبتت وطرحت ثماراً وفيرة: طرد المستعمرون في آخر المطاف، وتأسست دولة السودان المستقلّة. ولم يكن المرتب الشهري لكبار رجال الدولة فيها يزيد عن مرتب الموظف العادي، أمَّا قيادة الجيش فقد تشكلت من أفراد الفئات الشعبية الدنيا. وفرضت على المجتمع قواعد حياة التقشف. ولكن ما أن مضى بعض الوقت حتى أخذ هذا النظام يتداعى، وانتشر الفساد؛ ثمَّ آلى هذا كله في آخر المطاف إلى سقوط الدولة السودانية نفسها، ولم تعش الحركة المهدية منذ نشوئها في العام ١٨٧١م. حتى سقوط الدولة التي أسستها سوى سبعة وعشرين عاماً.

ولكنَّ سقوط الدولة لم يؤد إلى سقوط فكرة العودة إلى الإسلام الأول، إلى العدالة، فقد تواصلت الدعوة إليها في الصحف والمجلاَّت، وعبر القنوات السياسية والدبلوماسية، ثمَّ خرجت من الإطار القومي إلى العالم الخارجي كله.

وقد جاءت النسخة الجديدة للفكرة في محتوى جديد دعا إلى توحيد مسلمي العالم كله في دولة إسلامية عالمية واحدة تندغم فيها السلطة الزمنية بالسلطة الروحية، والحقيقة أنَّ فكرة الوحدة الإسلامية العالمية كان لها أساس مادي، فتبنَّاها ودعا لها شيخ مصر محمَّد عبده، والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وكان هذا الأخير يمثِّل قوة حقيقية للدعوة. لقد قدَّم السلطان العثماني دعمه وحمايته لمفكِّر الإسلامية العالمية جمال الدين الأفغاني. وكانت الخطَّة تقضي بتوحيد إيران، وأفغانستان. والشطر الإسلامي من الهند، وآسيا الوسطى وعدد من بلدان شمالي أفريقيا في دولة واحدة. وكان السلطان التركي يأمل في أن يقف على رأس تلك الدولة العالمية. كما كان يجب أن تشكل تركيا نواتها. ولكن ما أثار دهشة المؤرخين واستغرابهم، هو موقف السياسيين والدبلوماسيين الإنكليز المؤيِّد لهذه الفكرة. إذ من المعروف أنَّ المبدأ الأساس الذي اعتمده الإنكليز هو «فرِّق تسد». وقد يمكن تفسير موقف الإنكليز هذا بكون تركيا كانت في تلك الحقبة تابعة لبريطانيا، ورأت بريطانيا أنَّها سوف تكون على رأس الهرم كله.

وفي القرن التاسع عشر شاعت فكرة العودة إلى الإسلام الأول في الهند أيضاً. وقد رأى زعيم الحركة هنا سعيد أحمد خان، أنَّ «الإسلام النقي لا يمكن أن يعيق حركة تقدُّم

البشرية، لأنَّ تحقيق فرائض هذا الدين مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع التنوير وتنمية الحضارة». لقد عدَّ سعيد أحمد خان أنَّ الطبيعة هي كينونة الله، وقوانينها ملزمة، وتعدُّ تجلياً لجوهر الله، ورأى سعيد أيضاً أنَّ الغاية الرئيسة للحركة، هي «تحرير المسلمين من ضيق أُفق علماء الدين، وتحقيق حرية الرأي».

وعلى قاعدة حركة سعيد أحمد خان ظهرت في البنجاب حركة كانت واحدة من تنويعات حركة سعيد. وقد تزعم الحركة هنا أحمد قاضياني؛ ولذلك دعيت الحركة بالحركة الأحمدية أو حركة القاضياني. وقاضياني هو أيضاً اسم منطقة ينتمي إليها غلام أحمد. وقد عدَّ غلام أحمد نفسه نبياً مثله مثل محمَّد (ص) والمسيح. ورأى أنَّه ليس ثمَّة تباين جوهري بين المسحية والإسلام، وإنَّ الديانتين يمكن أن تندغما في ديانة واحدة دون عائق. ومن البدهي أنَّه كان ينبغي أن تندغم الديانتان بالهندوسية أيضاً.

ولا بدَّ في خاتمة حديثنا عن الإسلام من بعض الكلمات عن الإسلام في روسيا. ففي النصف الثاني من القرن ١٦م. استولت روسيا على الدولة القازانية والدولة الاستراخانية، ثمَّ أُخضعت بعد ذلك الدولة النوغائية، وبشكيريا الغربية، وخانية سيبيريا. وفي القرن ١٨م. خاضت روسيا صراعاً للاستيلاء على شمالي أذربيجان، ونجحت في ضمِّه إليها في العام ١٨٢٨م. وكانت روسيا قد ضمَّت إليها القرم في العام ١٧٨٣م. ثمَّ ضمَّت بعد ذلك إلى روسيا خانيات وإمارات آسيا الوسطى. وهكذا باتت روسيا تتوفر على كثرة كثيرة من المسلمين.

وفي بادئ الأمر رأى قياصرة روسيا أنَّه ينبغي استئصال جذور الإسلام من حوض الفولغا وسيبيريا. ولكن الموقف العقلاني هو الذي فرض وجوده بعد ذلك، وأُقرّت سياسة التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية. وهذا ما يمكن أنْ تؤكِّده رسالة مفتي ارينبورغ م. سلطانوف إلى أئمة المساجد. فقد جاء في تلك الرسالة: «لقد وصلت إليَّ أخبار أنَّ إشاعات بين الناس، يتناقلها الملالي أيضاً، مؤداها زعم بأن المحمَّديين سوف يرغمون على اعتناق دين الروس.... ليس لدى الحكومة أي نية لإرغامنا على اعتناق المسيحية، بل على الضدِّ من هذا، إذ يسمح لنا أن نمارس عبادتنا الإسلامية بصورة علنية، وبحرية كاملة، وأن نبني مساجدنا كما نريد....». إذن لقد دعم النظام القيصري الإسلام. ففي العام ١٨٣٣م. وضع السيناتور ب. بوغدانوف وثيقة جاء فيها: «بناء على أمر عظمته الإمبراطوريَّة سيِّد روسيا كلها يأمر مسلمي روسيا بأنْ يلتزموا بفرائض دينهم كلها، ويتمسكوا تمسُّكاً صارماً بكل عقائده. وعقاب من يخالف تعاليم دينه الإسلامي: المخالفة الأولى عقابها الجلد بالقضيب، والثانية بالعصا، والثالثة بالكرباج». وحملت الوثيقة توقيع المفتي التتري سليمانوف.

كما عرف الإسلام الروسي بدوره طوائف وحركات، لكننَّا لن نتوقف عندها. نشير فقط إلى أنَّ الانقسام الرئيس توزَّع على المذهبين السنِّي والشيعي. وكتبت صحيفة: «في عالم الإسلام» تقول، إنَّ انقسام المسلمين إلى شيعة وسنّة، هو «جنون عصرنا»، لأنَّ «الشيعة مسلمون أيضاً مثلهم مثل السُّنَّة، بالتالي كلنا مسلمون أخوة».

ومن البدهي أننا لن نحلل كل التيارات التي عرفها الإسلام والمسيحية، لأنَّ مثل هذا الموضوع يتطلَّب وضع أكثر من كتاب. ونحن عازمون هنا على التأكيد على بعض النقاط التي نرى أنَّها النقاط المهمَّة، وأنَّها حقائق الإسلام التي شاعت في بلادنا روسيا في عصرنا هذا.

فثمَّة كتيب أصدرته سفارة المملكة العربية السعودية في موسكو في العام ١٩٩٢م.، وردت فيه المعطيات التالية:

إنَّ الإيمان عند المسلمين، هو الإيمان بالله الواحد، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وحتمية وجود الخير والشَّرِّ، أمَّا فيما يتعلَّق بالكتب المقدَّسة، فهي تؤكِّد بصدد الإيمان على أن «مغزى الإيمان بالكتب المقدَّسة يتلخص في إيمان كل مسلم بوجود كتب مقدَّسة لدى العليّ، أرسلها إلى رسله، وهذه الكتب هي كلام الله الذي يعدُّ حقيقة إلهية، وقد أرسل الله كتبه في صورة وحي إلهي. وهذه الكتب هي: توراة موسى، ومزامير داود، وإنجيل يسوع المسيح، وقرآن محمَّد (ص). إضافة إلى الصحف الأولى التي أرسلت قبل هذه الكتب الأربعة».

ومن المهمِّ جداً أن يقرَّ المسلمون بأنَّ هذا كله يعدُّ تراثاً روحياً للبشر، وليس لأمَّة بعينها وطائفة معينة.

وعن الرسل يقول الكتيِّب المذكور: «إنَّ الركن الرابع المهمّ من أركان الإيمان، هو الإيمان بالرسل. ويتلخَّص مغزى الإيمان بالرسل في يقين المسلم بوجودهم عند العليّ.

لقد أرسل الله الرسل ليعظوا الناس، وليبشروا الصالحين بالثَّواب، ويحذِّروا الكافرين من العقاب، ويبيِّنوا للناس صلاح شؤونهم الدنيوية والدينية. فالرسل هم دعاة الحقيقة بين الناس. إنَّهم أخيار الجنس البشري. وقد ذكر القرآن أسماء خمسة وعشرين منهم. وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وإيليا، وأليسع، ويونان، وزكريا، ويوحنا المعمدان، ويسوع المسيح، ومحمَّد (ص). وعلى المسلم أن يؤمن بوجود الرسل كلهم دون استثناء».

فما هي الصلوات - التوسلات التي يرفعها المسلمون الآن إلى الله؟

تشكل سورة الفاتحة جزءاً قائماً بذاته من القرآن، وبها يبدأ كل مسلم سلسلة صلواته اليومية، وقد فرضت على المسلم خمس صلوات كل يوم: صلاة الفجر، وصلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء. وعلاوة على هذا الفروض يمكن للمسلم أن يؤدِّي أيَّ صلوات أخرى يريد، ولا سيما صلاة التهجُّد التي تعدُّ تجلياً خاصاً للنقاء والطهر، ونص الفاتحة هو:

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾

(الفاتحة ١-٧)

ومن الدعاء للميت في الصلاة عليه:

﴿ اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأُنثانا، اللهم من أحييته منا فأحييه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان، اللهم لاتحرمنا أجره ولاتضلنا بعده. . . ، اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار، أنت الغفور الرحيم ﴾

من دعاء صلاة الاستخارة:

﴿ اللهم اني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، واسألك من فضلك العظيم، فانك تقدر ولا اقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم ان كان في هذا الأمر - وتسميه - خير لي في ديني ودنياي وفي عاجل أمري وآجله فاكتبه لي ويسره لي؛ وإن كان فيه شر لي في ديني ودنياي وفي عاجل امري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واكتب لي الخير حيث كان ثم ارضني به . . ﴾

من أذكار النوم، ينبغي على المسلم عندما يستلقي لينام أن يستلقي على جنبه الأيمن، ويضع يده تحت خدِّه ويقول:

﴿ باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ﴾ .

من الدعاء قبل الطعام:

﴿ اللهمَّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ﴾ ومن سقاه الله لبناً فليقل ﴿ اللهمَّ بارك لنا فيه وزدنا منه ﴾ .

الدعاء عند الفراغ من الطعام:

﴿ الحمد الذي أطعمني هذا، ورزقنيه، من غير حول ولا قوة ﴾ .

الذكر عند الخروج من المنزل:

﴿ بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ﴾ ﴿ اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضَل أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهَل أو يُجهل علي ﴾ .

الذكر عند دخول المنزل:

﴿ بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربّنا توكلنا، ثمّ ليسلّم على أهله ﴾ .

دعاء السفر:

﴿ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، اللهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمّ هوّن علينا سفرنا هذا، وطوِ عنا بعده، اللهمّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل ﴾ .

دعاء الريح:

﴿ اللهمّ إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرّها، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أُرسلت به ﴾ .

من دعاء الهمّ والحزن:

﴿ اللهمّ إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدين وغلبة الرجال ﴾ .

الفصل الثالث والعشرون

المغزى المكنون للديانات

لقد كان الدِّين موجوداً لدى الشعوب والأقوام والقبائل كلها في الأزمنة كلها. وقد حاولوا أن يعزوا نشوءه لأسباب شتَّى. فالملحدون خصوم الدين حاولوا تعليل تهافت إيمان الإنسان بالإله بزعم ضعفه وعجزه وما إلى ذلك. وأشاعوا شعار «ليس الأقوياء بحاجة إلى الإيمان».

ولكنْ ما ينبغي الانتباه إليه في هذا السياق هو ضرورة التمييز بين الإيمان بوجود الإله والإيمان بالدين، وبمعنى أدق الإيمان بالإله والموقف من أولئك الذين يقيمون الشعائر اليومية التي يفرضها الدين. ورأى هؤلاء أنَّه يكفي أن تُظهر أنَّ الآباء المقدَّسون ليسوا مقدَّسين حتى تختفي مسألة وجود الإله تماماً. والحقيقة أنَّ الآباء «المقدَّسون» ليسوا مقدَّسين. فالإنسان هو الإنسان دائماً وفي كل مكان: في جهاز الدولة، أم في سلك رجال الدين، أم.... فالاتقياء من البشر قلَّة نادرة، هذا إذا كان لهم وجود أصلاً. ولذلك ليس من المشروع اختصار الموقف من الإله في مسألة سلوك الإنسان كائنة ما كانت الوظيفة التي يقوم بها أو المنصب الذي يشغله، سواء كان بابا أو بطريركاً.

وعلاوة على إنتقادهم لسلوك رجال الدين، وجَّه الملحدون سهام هجومهم نحو الكتب المقدَّسة أيضاً، مغزاها، وتناقضاتها. ولكنَّ هذه الكتب دوَّنها بشر في نهاية الأمر. بل لم يقتصر الأمر على تدوينها، إنَّما نسخت وأُعيد نسخها مرَّات ومرَّات، ودقِّقت، وزيدت، وصححت. وقد أدَّى ذلك العمل كله بشر، والبشر قادرون على فعل أيِّ شيء. ولذلك يجب أن يكون الموقف من التراث الروحي المكتوب موقفاً نقدياً عميقاً وبعيداً عن أيِّ تحيُّز. فليس المطلوب أن تبحث في ذلك التراث عمَّا تريد أن تجده فيه، بل المطلوب هو قبول ما هو موجود فيه فعلاً.

نسوق مثالاً. من المعروف ما لمسألة الخطيئة الأصلية من أهمية مبدئية. إذ بما أنَّ أبانا آدم وأمَّنا حواء هما اللذان اقترفا ذلك الإثم، لذلك بات الجنس البشري كله مسؤولاً عن تلك الخطيئة: ظهرت الحروب، والاستبداد، وجرائم القتل، والخداع، والغدر وكل ما بات يتَّسم

به سلوك الإنسان مما يشبه هذا. ونحن نؤكِّد على أنَّ سلوك الإنسان «بات» هكذا وفق اختياره هو نفسه عندما وقف يوازن بين أن يبقى كما خلقه الإله (كاملاً، باراً، نقياً)، أو ينتهك ما حرَّمه عليه، ويتجاوز ناموسه، ويصير إلى ما صار إليه الآن.

فما هو جوهر التحريم الإلهي، فيما قام ناموسه الذي انتهكه الإنسان الأوَّل؟ يقول العهد القديم:

﴿✿وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقاً وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. ✿وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كل شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكل وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.﴾

(تكوين ٢: ٨-٩)

﴿✿وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكل أكلاً ✿وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكل مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكل مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ﴾

(تكوين ١٦:٢-١٧)

﴿وَكَانَا كلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ.﴾

(تكوين ٢: ٢٥)

﴿✿وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقّاً قَالَ اللهُ لاَ تَأْكلاَ مِنْ كل شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ ✿فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكل ✿وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا. ✿فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! ✿بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. ✿فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكل وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكلتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكل. ✿فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. ✿وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ✿فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: أَيْنَ أَنْتَ؟. ✿فَقَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ.﴾

(تكوين: ٣: ١-١٠)

وكما هو معروف فقد طرد الإله آدم وزوجته من الجنّة. لماذا؟ لأنّهما أكلا من ثمار شجرة الجنة. فما كانت تلك الثمار؟ تفاحات كالتي يرسمها الرسّامون في لوحاتهم ويرددها المبشرون والدعاة خلفهم؟ ولكنْ من أين أتى التفاح إلى شجرة حملت ذلك الاسم الغريب: «شجرة معرفة الخير والشر». ما هي هذه الشجرة وما هي الثمار التي كان يمكن أن تطرحها؟ وهل من المشروع الحديث هنا عن الثمر بالمعنى المادّي، الشيئّي المباشر؟ ألا نقول نحن الآن «ثمار المعرفة» أو «ثمار الجهل» أو ما شابه؟ وهنا أيضاً في القصّة التوراتية كانت مثل هذه الثمار هي المقصودة؟ ولم يكن ممكناً أن تنمو على شجرة معرفة الخير والشّرّ أي ثمار أخرى. فما الذي يستخلص من هذا؟ يستخلص أن مؤلّف تلك الكلمات أعمل فكره طويلاً في هذه المسألة: لماذا طرد الإنسان من الجنة، حيث كل شيء في غاية الروعة والسحر، ولماذا ظهرت أمام الإنسان معضلات لا نهاية لها، ولا تعرف الكائنات الأخرى شيئاً عنها. وقد قرر المفكّر أن تلك المعضلات ظهرت لدى الإنسان وحده، خلافاً للكائنات الأخرى كلها، لأنّ الإنسان خلافاً للكائنات الأخرى كلها بات يفرّق بين الخير والشر، بات يعرف ماذا يعني الخجل و.... بمعنى آخر، لقد غدا الإنسان مستهلكاً لثمار معرفة الخير والشر. إنّ الإنسان كائن ضعيف، ولذلك انساق وراء غواية الشيطان، وهكذا لم يكن ثمّة ثمار حقيقية لتأكل حواء منها وتعطي آدم ليأكل. فالذي كان فعلاً هو شيء أكثر عمقاً بمغزاه، إنّه تفكير المفكّر في أحوال الإنسان: لماذا خرج هذا وحده خارج نسق الكائنات الحيّة الأخرى كلها وأخذ يقترف كل هذه الشرور في الأرض. ومن الواضح أنّ مؤلف هذه القصة التوراتية لم يجرؤ على أن يقول، إنّ الإنسان خلق هكذا، فلو فعل ذلك لألقى بظلال قاتمة على الإله نفسه، ولذلك رأى أنّ المخرج الوحيد أمامه هو أن يلقي على الإنسان نفسه، على الإنسان الأول بكامل المسؤولية، وهذا أمر طبيعي. وعلى هذه الصورة وضع مؤلِّف التوراة الفكرة الفلسفية العميقة عن مكانة الإنسان في الكون والغاية من وجوده فيه، ووجد لها حلاً في هذه الصيغة المجازية، فاكتسبت عنده صيغة حكاية شعبية أبطالها آدم، وحواء، والحية مع التفاحة. وهذه اللوحة الشعبية المبتذلة التي لا يجمعها مشترك، أي مشترك مع المغزى الحقيقي للنص التوراتي، هي التي يرددونها وراء الرسامين والدعاة. ولا شك أن من يفكّر من الناس تفكيراً عقلانياً، لا يمكن أن يأخذ هذا التأويل الساذج على محمل الجدّ. فهو يمثّل عائقاً جدياً أمام إيجاد حلٍّ لمسألة تحديد مكانة الإنسان في هذا الكون، ويجعل من الدين الذي يروّج لمثل هذه الأفكار البلهاء ديناً مرفوضاً من قبل كل من يفكّر بعقله. فكم من الأذى تسبب للدين الحق، وللإيمان بالإله إيماناً حقيقياً، أولئك الذين يستبدلون بالمغزى العميق مختلف ضروب

المعجزات التي لا يمكن أنْ يقبل العقل السليم بها، لأنَّها تتعارض مع الجوهر الطبيعي للأشياء كلها.

وعلاوة على هذا شاع رأي يؤكِّد على أنَّه لا يمكن تأكيد وجود الإله إلاَّ بوقائع وظواهر وقرائن خارقة. أما ما استطعنا إدراكه وفهمه حتى اليوم فهو كله طبيعي ومعتاد. وما لا نستطيع استيعابه، لا نستطيع إدراكه ننسبه إلى ميدان الخوارق. ولكن ما لا ننجح في فهم كنهه اليوم، يمكن أن نفهمه غداً أو بعد غد. فهكذا على وجه التحديد سارت وتسير معرفتنا للعالم المحيط بنا. فما ظنَّ العلماء أنَّه آخر قمم العبقرية، عندما أعلن لابلاس في حينه أنَّ لوحة العالم التي أنشأها ليست بحاجة إلى فرضية كفرضية الإله، يرى العلماء فيها اليوم مجرَّد غرور ضئيل لإنسان قرر أن العالم يمكن بناؤه من مكعبات وكرات كما يفعل الأطفال في ألعابهم. ومما يؤسف له أن رؤية لابلاس التي قاسمه إياها علماء ذوو مكانة مرموقة، أثمرت كثيراً من الثمار السلبية، ولا تزال النتائج المدمِّرة لتلك النظرية، بالنسبة لتقدُّم الحضارة الأوروبية برمَّتها، غير مدركة بالكامل.

ففي واقع الحال، إنَّ العالم المحيط بنا ليس بسيطاً كما افترض العقلانيون، ولو كان كما ظنُّوه لما استمرَّ موجوداً. فلكي يستمرَّ الكون كنظام واحد موحَّد، يجب أن يحدث نوع من تبادل المعلومات بين مختلف أجزائه المكوِّنة، وبسرعة لا متناهية. لكنَّ هذا غير ممكن. فحسب قانون انشتين أنَّ أقصى سرعة، هي سرعة الضوء، وليس ثمَّة سرعة أكبر. أي لا توجد في الكون سرعة لا متناهية. فما العمل؟ لقد بيَّن العلم المعاصر أنَّ الكون مبني وفق مبدأ (الهولوغرافي) لا يحتاج فيه نظامه إلى تبادل المعلومات بسرعة متناهية. فلا داعي لتناقلها، لأنَّها موجودة أصلاً في كل مكان وزمان، وعن كل شيء بالحجم الكامل.

وقد اعتاد كل منَّا على أن يرى العالم مبنياً وفق مبدأ التصوير الفوتوغرافي. أي أن لدينا معلومات فقط عن الجزء الذي نراه من العالم. ونحن نستطيع أن نرى الجزء المعني إمَّا على طبيعته، وإما في صورته، أو على شاشة التلفزيون، أو حتى على شاشة السينما. ولكن لن يكون لدينا معلومات إلاَّ عمَّا رأيناه. وهذا ما يمكن توضيحه بالمثال الآتي. تخيَّل إنك تتفحَّص صورة كبيرة، فأنت بالتأكيد ترى كل ما هو مصوَّر فيها؛ ولكن إذا ما قطع نصف تلك الصورة، فإنَّك لن تستطيع عندئذ أن ترى على الجزء الباقي ما كان ظاهراً على الصورة كلها. ويمكن أن نقطع من الصورة نصفاً آخر، وآخر إلى أن لا يبقى منها سوى قطعة صغيرة. وعلى هذه القطعة الصغيرة من الصورة أنت ترى ما يظهر هناك فقط.

ولكن لو كان الذي بين يديك منذ البداية، هو هولوغرامًا الموضوع المعني وليس صورته، لرأيت عند تقطيعها، أي تقطيع الهولوغراما، أنَّ كل شيء يجري بصورة مغايرة تماماً: حتى لو لم يبق بين يديك سوى نصف الهولوغراما لرأيت صورة الموضوع كاملة، كأن الهولوغرامًا بقيت كاملة غير منقوصة. وأكثر من هذا، إذ حتى لو لم يبق من الهولوغرامًا سوى قطعة صغيرة، فإنك تستطيع أن تحصل منها على صورة كاملة عن الموضوع. وهنا يقوم الفرق بين الصورة الفوتوغرافية والهولوغرامًا.

ولكي نتبيّن مغزى الفرق بين الصورة الفوتوغرافية والصورة الهولوغرافية، دعونا نتخيّل الكون مصوّراً على صورة فوتوغرافية وعلى هولوغراما. فعندما تقطع جزءاً من الصورة فإنك بذلك تمحو المعلومات التي يحملها جزء الصورة المقتطع عن جزء الكون الذي كان ظاهراً عليه. أمّا إذا ما بقي بين يديك مقطع من الهولوغرامًا، فإنك تستطيع أن تستقي منه معلومات عن الكون كله، مهما كان الجزء المتبقي صغيراً. والاستنتاج هو: إن أيّ جزء كان من أجزاء الهولوغرامًا يحمل معلومات عن كل العالم المحيط بنا، عن الكون كله. فكل المعلومات عن الكون تندرج مثلاً في هذا القلم الذي اكتب به هذا النص. وفي هذا يكمن جوهر الصورة الهولوغرافية للعالم. ونحن يصعب علينا أن نقبل هذا، لأننا نتعامل في حياتنا اليومية مع مبدأ الصورة الفوتوغرافية، ما نراه هو الذي نراه وحسب. ولكن العلماء بيّنوا أن أجهزة الإدراك عند الإنسان مبنية على المبدأ الهولوغرافي.

ولكن ما هي خصوصية الصورة الهولوغرافية للعالم؟ إن كل ما في الكون مترابط بعضه مع بعض. فالكون كله نظام واحد، منظومة واحدة. وتقضي الصلات بين عناصر النظام الواحد بتبادل متواصل للمعلومات بينها. فلكل فعل ردّ فعل. وأي تبدّل يحدث في النظام يجب أن يكون لهذا الأخير ارتكاس مناسب تجاهه. ولكن إذا كان النظام كله، هو الكون كله فتبادل المعلومات بين عناصره المتنائية يستغرق وقتاً طويلاً. ولكن ليس ثمّة ضرورة لهذا إذا ما كان الكون مبنياً وفق المبدأ الهولوغرافي. ففي مثل هذه الحالة يحتوي كل عنصر من عناصر النظام (أي الكون كله) على معلومات عن الكون كله. أي ليس ثمّة ضرورة لنقل المعلومات، لأنها موجودة أساساً حيث يجب أن تكون. إننا نتحدّث عن عنصر الكون. وقد يكون هذا العنصر هو الإنسان، والكتكوت، أو خليّة الكائن الحيّ، أو الحجر. فكل من هذه العناصر ينطوي على معلومات عن الكون كله. وهذا بالذات ما يحقق وحدة الكون، وتوافق أفعال عناصر النظام كله، وترابطها.

وهذه المعلومات عن الكون كله، التي توجد في كل عنصر من عناصره مهما كان صغيراً، هي التي تسمّى حقل الإعلام الكوني. وهذا ليس شيئاً يتألّف من أجزاء مستقلّة، إنما هو وحدة كلية تتسم بمؤشرات متماثلة. ولذلك يدعى حقلاً.

وكيف تتحقق الصلة بين الكل والأجزاء بفضل حقل الإعلام الكوني؟ لنشرح المسألة على مثال الإنسان الذي يُعدّ بالتأكيد عنصرا من عناصر الكون. فالعقل الباطن عند الإنسان وحقل الإعلام الكوني هما بمثابة شريانيين متواصل واحدهما مع الآخر. وكل ما هو متوفّر لدى حقل الإعلام الكوني، موجود في الوعي الباطن لكل منّا. ومن المعروف أن وعينا الباطن متصل مع وعينا بقناة معلومات، هي عادة مغلقة لدى الناس الطبيعيين. مغلقة «بسدادة». ولكن إذا ما حدث لسبب ما وانزحت «السدادة» وبات إغلاق القناة غير محكم، وجرى الاتصال بين الوعي الباطن والوعي الحقيقي، فإن هذا الأخير يمكن أن يتلقى المعلومات من اللاوعي، أي من حقل الإعلام الكوني. عندئذٍ يغدو مثل هذا الإنسان مستبصراً، لأنه يتلقى المعلومات من حقل الإعلام الكوني مباشرة. ولكن أحداً من هؤلاء لا يستطيع أن يشرح كيف يحدث له هذا. فبعض الأنبياء كان يسمع أصواتاً، والبعض الآخر رأى لوحات شديدة التعقيد (حزقيال، ويوحنا)، والبعض الثالث كان يرى رموزاً. وبهذه الطريقة أو تلك كان كلهم يتلقى معلومات من حقل الإعلام الكوني مباشرة.

وبفضل البنية الهولوغرافية للكون تتوفر للإنسان إمكانية تلقّي المعلومات كلها. لكن هذا يحصل على مستوى الوعي الباطن. ولا تنتقل هذه المعلومات إلى مستوى الوعي سوى عند بعض الأفراد فقط، ونحن سوف ندعوهم بالخارجين على المقياس (لا تحكم «السدادة» عندهم إغلاق قناة المعلومات الواصلة بين الوعي الباطن والوعي). وإذا كان الإنسان خارجاً على المقياس (أي مصطفى) فإن قدرته على استقاء المعلومات من الوعي الباطن، أي من حقل الإعلام الكوني، تتحسن في ظل ظروف معينة هي أقرب إلى حالات فقدان الوعي أو نوبات الجنون. ويمهّد السبيل لظهور مثل هذه الحالات صوم طويل متواصل، أو معانات عميقة، أو تركيز الانتباه طويلاً على مسألة بعينها. وهذا ما كان يقع للأنبياء. وهذا ما حصل لشخصيات تاريخية معروفة مثل جان دارك التي سمعت أصواتاً وعجزت عن ألاّ تمتثل لها. والرسول بولس تلقى الحقيقة السامية من الحقل الإعلامي مباشرة إذ سمع صوت يسوع المسيح. ويعد مصطلح حقل الإعلام الكوني مصطلحاً جديداً نسبياً، مصطلحاً معاصراً. وهو يعكس الدور الحاسم للمعلومات وإمكانية تلقيها من مصدر كوني واحد. ولكن هذا المصطلح يعاني من المحدودية. وتقوم المسألة هنا في أن معلوماته ليست فقط عن الكون كله في الماضي

والحاضر والمستقبل، وإنما أيضاً في دراسة هذه المعلومات وتحليلها واتخاذ القرارات على أساس نتائجها. ولذلك نحن نرى أن مصطلح «العقل الكوني» المستخدم من قبل أكثر دقّة وملاءمة. بيد أن المسألة في نهاية الأمر ليست في التسميات، بل في المحتوى، في الجوهر. والجوهر، هو إن هذا الحقل موجود في كل مكان (يغطي المدى الكوني كله)، ويرى كل شيء ويعرف كل شيء (يحتوي على معلومات عن كل ما في الكون)، وقادر على كل شيء (فما يحدث في الكون كله إنما يحدث بأوامر منه، بإشارات إعلامية)، و... ونحن كنّا قد عالجنا هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا: «الإله، والروح، والخلود». ونوّهنا فيه إلى أن خاصيات حقل الإعلام الكوني تتطابق تطابقاً تامّاً مع خاصيات الإله (في التوراة كما في القرآن). ولذلك يمكن القول، إن العلم المعاصر يبدّل دائماً قياسه، تصوّره عن بناء العالم الذي نعيش فيه.

ولابدّ من التنويه هنا بسمة أخرى من سمات حقل الإعلام الكوني، العقل الكوني. وتقوم هذه السمة في أن الكون لم ينشأ نتيجة عملية ارتقاء بدأت بعد انفجار عظيم تحت تأثير قوانين فيزيائية (كونية فيزيائية)، بل وفق خطة موضوعة مسبقاً. وكان العلماء قد توصلوا إلى هذه النتيجة أثناء بحثهم مسألة ارتقاء الكون وظهور الحياة العاقلة وتطوّرها فيه. وقد ألقي الضوء على هذه المسألة في كتاب «حضارات خارج الأرض». وهكذا وقع خلق العالم، ولكن يجب عدم فهم مسألة خلقه هذه فهما بدائياً ساذجاً كفهم قصة الخطيئة الأصلية. فارتقاء الكون وكذلك ارتقاء الحياة فيه جرى وفق صيرورة تقدمية، هادفة، ولم يحصل بطريقة الاصطفاء العشوائي كما علّم داروين. ولو سار الإرتقاء في الكون وفق العشوائية الداروينية لما كان لدى الكون ما يكفي من الوقت لبلوغ مستوى التقدّم الذي حققه.

الخلاصة: ثمّة في الكون معلومات موضوعية عن كل شيء في الماضي، والحاضر، والمستقبل. وقد ترد هذه المعلومات بهذه الطريقة أو تلك، لأفراد مختارين، أفراد خارج المقياس البشري المعتاد، أفراد لم تغلق قناة المعلومات الواصلة بين وعيهم الباطني ووعيهم إغلاقاً محكماً. وهؤلاء هم المستبصرون، والأنبياء، والمتبئون. ويعدّ هؤلاء مستقبليّ هذه المعلومات (بما فيها معلومات عن المستقبل). وهم في غالب الأحيان ناقلون لما يرد إليهم (يتلقونه ويعيدون إذاعته). ولا شك في أن مثل هؤلاء لا يظهرون بين ظهرانينا مصادفة (ليس في الكون شيء يدعى مصادفة)، بل يظهرون لكي يكونوا قناة تنقل المعلومات إلينا من حقل الإعلام الكوني، من العقل الكوني، من الإله إلى البشر، إلى الجنس البشري وقد شاع رأي مفاده أن مثل هؤلاء الأنبياء الكبار، الناقلون الخارقون، لا يظهرون على الأرض

إلاّ كل ألف عام مرّة أو حتى كل مائة عام مرّة. وكان كثير من الأنبياء قد وصف نفسه بأنه النبي الأخير، الخاتمة، وكل من يأتي بعده سوف يكون دجالاً. وهذا ما أكّده على وجه الخصوص يسوع المسيح ومحمّد (ص). وهذا ما يلحّ عليه المسلمون خاصة، إذ يصفون محمداً (ص) بخاتم الأنبياء. أمّا واقع الأمر فهو أنه طالما يعيش الناس على الأرض، فإن الصلة سوف تبقى قائمة بينهم وبين حقل الإعلام الكوني، والعقل الكوني، والإله. ولا تتحقق هذه الصلة عبر كبار الأنبياء وصغار الأنبياء فقط، إنما يمكن أن تتحقق عبر أشخاص آخرين ليس لهم صفة الأنبياء. وثمة مادة كبيرة تتوفّر لنا في هذا الصدد. لكننا لن نورد هنا سوى بعض الحقائق لكي نبيّن ما قلنا ونمكّن القارئ من أن يتبيّن لبّ المسألة.

لقد قلنا قبل قليل إنّ الأفراد الذين يستطيعون استقاء المعلومات من حقل الإعلام الكوني (مثلهم مثل كل العباقرة على وجه العموم)، هم أفراد خارجون على المقياس المعتاد. وقد يكون هؤلاء هكذا منذ الولادة (عندما يكون أحد فصّيّ الدماغ متضخماً جداً بالنسبة للفصّ الآخر)، أو قد يحدث هذا لهم بسبب شدّة نفسية عانوا بسببها معاناة شديدة (ضربة تيار كهربائي، أو سقوط شديد القوة على الأرض، أو مرض، أو...). ومثل هذا كان قد وقع لكثير من الأنبياء؛ وهو أمر معروف. فمحمّد (ص) على سبيل المثال كان يتعرض لنوبات شديدة من فقدان الوعي، أو ما يشبه ذلك. كما كان بعض الأنبياء الآخرون عندما يدخلون في اتصال مع حقل الإعلام الكوني، يعيشون حالة من تبدّل الوعي يفقدون فيها سكونهم الروحي، ويفقدون معه قدرتهم على النطق بكلام مفهوم. ومن المعروف أنه لدى العلم تفسير واضح معلّل لمثل هذه الحالات.

وها نحن نورد مقطعاً من يوميات جورج فوكس الذي كان مؤسس ديانة الكواكيريين. وما يجدر التنويه به أن مؤسسي كل الديانات كان لهم بين الحين والآخر في أقلّ تقدير، اتصال مع حقل الإعلام الكوني. وليست المسألة هنا في القواعد، والفرائض، والحقائق التي باتت أساس الدين المعني. وإنما الأمر الرئيس في الروح، في القناة التي تواردت عبرها المعلومات، والطاقة إلى الناس بوساطة المؤسس، الناقل، الباسيونار، ويُعد هذا التيار الإعلامي الحيوي هو القوّة الدافعة التي يمنحها الدين المعني، وبه يرتبط مدى انتشار هذا الدين، وأمد وجوده، ومقدار قوّته. فهذا التيار يسيطر على الناس، ويجعل منهم مؤمنين على استعداد لأي تضحية كانت، بما في ذلك التضحية بحياتهم في سبيل دينهم. ولا نجد ضرورة لإيراد أيّ أمثلة في هذا الصدد.

ويؤكّد المقطع الذي سوف نورده من يومياً مؤسس ديانة الكواكيريين، على وجود مثل هذه الصلة مع الحقل الكوني، مع العقل الكوني، مع الإله:

«بينما كنت اتنزّه يوماً مع أصدقائي، التفت إلى قبّة بثلاثة أجراس، فهزّني المنظر حتى أعماق نفسي. فسألت أصدقائي: ما هذا المكان؟ فقالوا: إنّه ليتشفيلد. وعلى غير انتظار أمرني صوت الإله أن أتوجّه إلى هناك. فطلبت من أصدقائي أن يدخلوا البيت الذي كنّا ذاهبين إليه، دون أن أقول لهم عمّا عزمت عليه. وبعد أن دخلوا أخذت طريقي مباشرة عبر الأسيجة والأخاديد وتوقفت على بعد ميل واحد من ليتشفيلد. وهناك كان الرعاة يحرسون أغنامهم. عندئذ أمرني الإله أن أنزع حذائي. فترددت، لأن الوقت شتاء، لكن صوت الإله أشعلني كاللهب. فنزعت حذائي وتركته لدى الرعاة. فارتبك المساكين للمنظر الذي رأوه أمامهم. فمشيت ميلاً آخر، ولمّا بلغت المدينة، عاودني صوت الإله آمراً: ناد: الويل لليتشفيلد مدينة الدماء! فعبرت الشوارع كلها أنادي بأعلى صوتي: الويل لك يا ليتشفيلد، يا مدينة الدماء! وبما أنّ اليوم كان يوم سوق فقد ذهبت إلى الساحة وأخذت أجوب هناك، وأتوقف بين الفينة والأخرى من غير أن أكفّ عن المناداة: الويل لك يا ليتشفيلد يا مدينة الدماء! ولم يضع أحد عليّ يداً، وعندما كنت أسير في الشوارع منادياً تهيّأ لي أني أرى جداول من الدماء تجري فيها، وأن ساحة السوق تحوّلت إلى مستنقع من الدم. وبعد أن حققت إرادة الإله أحسست براحة كبرى، وتركت المدينة بسلام. ثم عدت إلى الرعاة وأخذت حذائي بعد أن نقدتهم بعض النقود. لكن وهج الإله كان على جسدي كله، ولم أعرف كيف انتعل حذائي إلاّ بعد أن أذن لي الإله بذلك.

عندئذ غسلت قدمي وانتعلت نعليّ. وبعد ذلك دخلت في حالة تفكير عميق أسائل نفسي: لماذا أرسلت لأفضح هذه المدينة وأدعوها بمدينة الدماء. لأنّه على الرغم من الدماء الغزيرة التي أريقت فيها في الحرب بين الملك والبرلمان بسبب الصراع على السلطة، إلاّ أنّ أيّ حدث مميّز لم يقع فيها يميّزها عن الأماكن الأخرى. ولكنني علمت فيما بعد أن آلاف المسيحيين اضطهدوا فيها ونكل بهم في عهد دقليسيان. ولهذا كان عليّ أن أدخل المدينة حافي القدمين: إنها دماؤهم التي سالت في شوارعها جداول شكلت مستنقعاً في الساحة. لقد كان عليّ أن أوقظ ذكرى الدم الذي أريق هنا منذ ألف عام مضى وروى الشوارع. هكذا سمعت أنا عويل ذلك الدم، وهكذا خضعت لصوت الإله».

لا شك أنه يمكن تأويل هذا الحدث على أنه نتيجة لاختلال حالة نفسية. ولكن ماذا يعني اختلال الحالة النفسية، وما الذي تعنيه الحالة النفسية السوية. حسب مبادئ الفيزياء أن الحالة النفسية السوية هي الحالة التي نصادفها غالباً. فلنتذكر التوزيع الطبيعي الذي أجراه هاوس. ففي مثل هكذا أحوال تبدو الحالة النفسية لأشخاص مثل فوكس، أو العباقرة على وجه العموم، حالة غير طبيعية، لأن أمثالهم قلّة. أمَّا أمثالنا نحن الطبيعيين فإننا الكثرة، وعلى هذا الأساس فقط نعدُّ طبيعيين. إذن أولئك الذين يغنون عالمنا الروحي (بالموسيقى، والأدب، والدين)، أي العباقرة، والأنبياء، والمستبصرون، أُناس غير طبيعيين، مع العلم أن المجتمع البشري من غيرهم يفقد بشريته بالمعنى المعاصر للكلمة، ويتحوَّل إلى جمع من البائسين روحياً والعامهين أخلاقياً.

ويقول مورو: «إنَّ العبقرية ليست سوى غصن من أغصان شجرة الجهاز العصبي». ويقول لومبروزو: «إنَّ العبقرية هي عرض من أعراض الانتكاس، وقريبة من أقرب أقرباء الجنون». وحسب نيسبيت أن «كل إنسان تثير حياته الاهتمام إلى حدٍّ تغدو معه حياة تستحق الدراسة، هو إنسان مريض نفسياً. وينبغي التنويه إلى أنه بقدر ما يكون المرء عبقرياً، بقدر ما يبتعد عن المعيار المعتاد».

ولكن أيُّهما الصواب، المعيار أم الخروج عنه؟ إن كل ما أُنشئ على الأرض بطريقة طبيعية هو الصواب. يقيناً أننا نحتاج إلى العبقريات (فهي قناة معلوماتنا إلى الأسمى الذي خلقنا)، والعبقريات تحتاج لنا، لأن رسالة العبقري تقوم في بث معلومات الحقل الكوني، العقل الكوني، الإله لنا نحن بالذات. ولولا وجودنا لما كانت هناك حاجة لهم أيضاً. ولذلك ليس مشروعاً بأي حال أن نقيسهم بمعاييرنا نحن، معايير الأصم الأعمى بالنسبة للمستبصر الحاد السمع. وقد قال العالم موديل عن دور العباقرة والأنبياء ما يلي: «أي حقٍّ لنا في أن نظنَّ بأنَّ الطبيعة ملزمة بإنجاز وظائفها كلها بمساعدة العقول الطبيعية فقط؟ إنَّ خروج العقل عن المعيار يمثِّل بالنسبة لها أداة أكثر فاعلية لتحقيق أغراضها. فالأمر المهم هو تأدية المهمّة فقط، وأن صفات العامل تؤهِّله لأن يؤدِّي المطلوب على أكمل وجه. ومن الوجهة الكونية لا فرق قط بين أن يرى أحدهم في هذا العامل المنفِّذ شخصاً منافقاً، أو مستهتراً متسيباً، أو بهلولاً شاذاً، أو مجنوناً...».

ويجب أن تكون غاية هذا العمل هي تحقيق سلوك مناسب، وعمل مثمر نقوم نحن به، وقد قال إدواردز في هذا الصدد: «عندما نحاكم أنفسنا في محكمة الضمير، فإننا نفرض على ذاتنا المطالب عينها التي نحن على يقين من أنها هي المطالب التي يطلبها القاضي الأعلى

منّا عندما نقف أمام وجهه في يوم الحساب... وليس للمؤمن من قرينة تدلُّ على بره وتقواه أفضل من عيشه وفق فضيلة المسيحية... ففيها دليل على درجة روحانية تجربتنا وألوهيتها».

وخلاصاتنا نحن واضحة: ثمَّة واقع موضوعي، معطى أول موضوعي، هو الحقل الإعلامي، العقل الكوني، الإله ؛ وبفضل هذا الواقع الموضوعي ظهر الكون (خُلق)، وبفضله يتطوَّر، ويشكل كل منَّا جزيئة غير مستقلة منه، ومعلومات الحقل الإعلامي موجودة في كل منا، في وعينا الباطن. ولكنَّ أفراداً فقط صنعوا بطريقة تمكنهم من استقاء المعلومات من هناك ونقلها لنا جميعاً. ومن يُعطى يطلب منه. ولذلك إذا ما اكتشف أحدكم أنه يمتلك إمكانات مميَّزة في ميدان ما، فليفكِّر ويتقصَّى حتى يحدد: لتنفيذ أيِّ مهمَّة أُعطيت تلك الإمكانات له. إن الخالق يتعامل مع كائن حي واحد يشكل كل منَّا خلية من خلاياه. ولكن الكائن الحي يعمل بانسجام وتوافق، ينبغي على كل خليَّة أن تؤدِّي وظائفها. ومن أجل ذلك منح كل منهما صفاته الخاصة، وعبرها تنطلق تيارات المعلومات، وهي ملزمة بأن ترتكس لهذه المعلومات ارتكاساً صحيحاً. فهذا وحده يمكن أن يشكل ضمانة لسير الحياة بصورة طبيعية في الكائن الحي كله، وضمانة لسعادة كل إنسان، أي كل خلية من خلايا الكائن الكوني الواحد.

وليس الأنبياء والمستبصرون وحدهم من يستقي المعلومات من حقل الإعلام الكوني، من العقل الكوني. فمثل هذه المعلومات ترد إلى كل منّا ولكن بشكل مغاير. فلندرس هذه المسألة بالتفصيل.

ليس الكون وحده مبنياً وفق المبدأ الهولوغرافي، بل الإنسان أيضاً بني وفق المبدأ عينه، فقد بيَّن العلماء أن لكل إنسان هولوغراماه الخاصة به، وبعبارة أدق صورته الأصل الخاصة به. وهي تنطوي على كل المعلومات الخاصة بالفرد المعني، فهنا تصميم الشخصية عينها ومصيرها كذلك، برنامج مستقبله وماضيه الذي سبق ظهوره إلى الدنيا. وهذا هو ما يدعوه المتخصصون «ذاكرة الأسلاف». فالصورة الأصل لكل إنسان تحتوي على معلومات كاملة عن أسلافه. وعلاوة على هذا يرى العلماء أن هذه المعلومات يمكن أن تؤثِّر على مصيره سلباً أو إيجاباً. والأمر كله يرتبط بماهية التركة التي تركها له الأسلاف: سلبية أم إيجابية. ومن هنا قالوا: «حتى الجيل التاسع». ولهذا بالذات يستطيع المرء أن يحسّ وجود أسلافه الذين لم يرهم ولم يسمع عنهم أي شيء قط. إنَّها ذاكرة الأسلاف، مكتوبة في صورتنا الأصل. في هولوغرامانا. وعليه ينبغي علينا نحن أيضاً أن نفكِّر في الإرث الذي نتركه لأحفادنا (إرثاً سلبياً أم إرثاً إيجابياً). فما كان شائناً في سلوكك، في حياتك، في أفعالك، سوف ينعكس

في أبنائك، وأحفادك من الأجيال المقبلة، ويبدو أن صورة الإنسان الأصل، هي نفسه بالضبط. وفي زمننا هذا يتحدثون كثيراً عن الحقل الحيوي للفرد. وما توفر للعلماء عن هذا الحقل حتى الآن، يظهر على الصورة الآتية.

فالحقل الحيوي للفرد ليس فقط هذه الخثرة من معلومات الشخصية المعنية، إنما هو أيضاً جسر يصل بين الإنسان والكون، وتبعاً للحالة التي يكون عليها هذا الحقل تتحقق صلة الإنسان المعني بالكون بصورة جيدة جداً، أو جيدة، أو حتى بصورة رديئة. إنَّ الحقل الحيوي للإنسان هو عبارة عن شرنقة تخرج خارج حدود جسده الفيزيائي، وبنية هذا الحقل شديدة التعقيد. فلم ينجح العلماء حتى الآن إلاَّ في تحديد بعض مراكزه، ويرتبط كل مركز منها بجهاز معيَّن من أجهزة جسم الإنسان. وتتوضع العقدة السفلى في أساس العمود الفقري. ويتوضع هنا أيضاً المبيضان أو الخصيتان. وتتوضع العقد التالية في منطقة السرَّة. وتقع هنا الغدد الكظرية. وفوق القلب تتوضع العقدة التي تليها، وهنا تقع أيضاً الغدة الصعترية. وثمَّة عقدة على البلعوم. وهنا تقع الغدة الدرقية. وتتوضع العقدة الأخيرة بين الحاجبين. وتقع هنا الغدة الصنوبرية.

وهذه العقد هي تيارات طاقة حيوية يراها الروحانيون بالعين المجرَّدة. وحسب وصفهم أن هذه العقد عبارة عن دوائر من الضوء الساطع، تدور بعكس اتجاه عقارب الساعة، ومع نمو الإنسان منذ لحظة تكوُّنه جنيناً حتى بلوغه سنَّ الرشد، تنمو هذه العقد أيضاً. يبلغ قطر واحدتها عند المولود الجديد حوالي السنتمتر الواحد. ويصل قطر واحدتها عند البالغين إلى خمسة عشر سنتمترا. وتتوضع هذه الأعاصير المتلألئة على سطح الجسم، وهي مرتبطة دوماً ودون أي استثناءات بالمكان عينه ارتباطاً صارماً.

إنَّ الحقل الحيوي عند الشخص السليم المعافى الذي يعيش حالة طبيعية، هو مستو، مسطَّح، له شكل البيضة الكبيرة. وحدوده تبعد عن الجسد ٤٠-١٠٠سم. أمَّا عند الأشخاص ذوي الإحساس الشديد المفرط، فإنَّ هذا الحقل يمتدُّ على مساحة أمتار، بل عشرات الأمتار، فمن المعروف أنَّ الحقل الحيوي لبوذا، آوراه، كان يغطي مدينة بكاملها. والذي لا ريب فيه أنَّ الأنبياء كلهم كانوا ذوي إحساس خارق.

ولكنَّ الحقل الحيوي للإنسان لا يأخذ دائماً الشكل المستوي المسطَّح البيضوي، فلأسباب معينة يمكن أن يناله هذا القدر من التشوه أو ذاك. وعندئذٍ قد يختفي الحقل تماماً في بعض الأماكن، وتتشكل في الأماكن الأخرى ذيول ممتدة جداً. ولا يستطيع الإنسان أن يعيش سليماً معافى مع مثل هذا الحقل الحيوي المشوَّه. فإذا ما أصاب التلف الحقل، فإنَّ عملية

تبادل المعلومات بين الإنسان والكون، بين صورته الأصل وحقل الإعلام الكوني، سوف تختلُّ. وغالباً ما ينوِّه المتخصصون إلى أن العقد الفلانية عند الشخص المعني مغلقة. وإذا ما حدث هذا فإن الجهاز ذو الصلة بالعقدة المعنية، سوف يتوقف بعد حين عن تأدية وظيفته بشكل طبيعي، أي يمرض. وقبل مداواة الجهاز المريض نفسه يجب إصلاح التشوُّه الذي أصاب الحقل الحيوي. وبناء على معطيات تشوُّه الحقل الحيوي، يحدد المتخصصون وجود الورم الخبيث في المكان المعني. وعادة ما يكون مثل هذا التشخيص دقيقاً دائماً.

ويتبدَّل الحقل الحيوي للإنسان تبعاً لحالته، ففي أثناء تأدية صلاة صادقة عميقة يزداد مدى الحقل الحيوي (عدة أضعاف في بعض الأحيان) للمصلِّي. والحقل الحيوي عند الملهم الذي يملك مستوى ذهنياً عالياً، أكبر منه عند غير المتطوِّر، المنكّس.

ويشبه الحقل الحيوي كثيراً من حيث الجوهر، الرسم البياني للهوائي، ومن المعروف أن الهوائي يرسل موجات كهربية مغناطيسية، كما يلتقط مثلها أيضاً، ويتطلَّب الأمر في الحالة الأولى وجود جهاز إرسال، وفي الحالة الثانية جهاز استقبال. وأفضل الهوائيات، هو الهوائي الذي يستقبل موجات البثِّ من أي اتجاه كان. وإذا كان الهوائي يتألف من ورقات مستقلَّة فإن الاستقبال والإرسال لا يجريان إلاَّ ضمن مدى هذه الورقات، وهذا نفسه يحدث عندما يكون الحقل الحيوي للإنسان متقطعاً، مشوَّهاً، إذ تختلُّ عملية تبادل المعلومات والطاقة بينه وبين الوسط الخارجي، والكون.

وقد يكون الإنسان نفسه مسبباً لتشويه حقله الحيوي فكل انفعال سلبي، أو نوايا شريرة، أو أعمال سيئة تبدِّل الحالة الروحية للإنسان، حقله الحيوي. يحدث خلل في ثبات المعلومات والطاقة، ويعتلُّ الكائن الحي. ولذلك فإن معايير بورفيريوس إيفانوف تلحُّ على ضرورة تمني الخير، والعافية والتوفيق لجميعهم ولكل شيء دون استثناء. ولكنَّ كثيرين لا يأخذون من تلك التعاليم إلاَّ ما يظنون أنَّه عقلاني، عازفين عن ما يعتقدون أنه «غريب، نزوة» وحسب. ولكن المسألة كلها في أن هذا بالذات هو الامر الأهم. فالأهمُّ هو أن تقف موقفاً وديّاً تجاه كلهم وكل شيء، وألاَّ تثير التنافر الذي سوف يرتد إليك.

ولا تنطوي الصورة الأصل (الحقل الحيوي) للإنسان على معلومات عن أسلافه فقط، إنما تحمل كذلك كل المعلومات عن الشخصية المعنية عينها (ماضيها، حاضرها، ومستقبلها). ففيها «مخطط بنائه» كله. وليس ثمَّة خلايا قادرة على حفظ هذه المعلومات زمناً طويلاً دون تغيير، دون أذى، الحقل وحده يستطيع ذلك. ومن الجدير أن ننوه في هذا السياق إلى أنَّ العلماء المعاصرين يرون، أنه يمكن من حيث المبدأ إعادة الجسد الفيزيائي إلى الحياة

بعد موته، باستخدام الصورة الأصل للإنسان المعني. وينسحب هذا على كل إنسان عاش على الأرض في أي زمن كان، وكان العالم أ. ك. مانييف قد توصل إلى الاستنتاج التالي:

«يستفاد مما عرضاه أنّ الغاية في تحقيق الخلود الشخصي، بل إنّ الاعتراف بأنّ في الكون الآن نظماً حيوية امتلكت الخلود، وأن أمل البشر بلقاء أخوتهم في العقل في الفضاء الكوني، والثقة بالقدرة المطلقة للمعرفة التي تهزم الموت على أن تعيد إلى الحياة على أساس البرامج المعلوماتية لنظم الحقول الحيوية، كل الذين غاصوا في العدم، ولكن بصورة جديدة أكثر كمالاً لا تقوم على أساس المادة الأحية؛ إنّ هذا كله يمثّل عناصر مهمّة لرؤية علمية حقيقية... لقد باتت هذه المسألة مطروحة الآن على جدول أعمال العلم المتقدّم. الحقيقة إن مثل هذه الغايات المثلى تبعث التفاؤل، ويمكن أن تشكل دافعاً مهماً للإلهام في مختلف ميادين النشاط العملي والنظري للبشرية التي أدركت واقعية مثل هذه الغايات».

ونشير مرّة أخرى إلى أن معلومات أعمال الإنسان وأفكاره كلها ترد إلى حقل الإعلام الكوني وتغدو بمتناول أيٍّ كان. ومن الواضح أننا لا نتوفّر على الإمكانيات اللازمة هنا لتقديم وصف للتجارب التي تؤكد أنّ المعلومات لا تصل إلى الإنسان فقط، وإنّما إلى كل من عالم الحيوان وعالم النبات. ولتوضيح هذا المعطى نورد الآن تجربتين فقط، في التجربة الأولى رمي واحد من القريدس الحي في ماء مغلي بوجود نبات على مقربة مباشرة. ولحظة هلاك القريدس ارتكس النبض الكهربائي لدى النبات (قيس التأثير الجلدي الجلفاني). وفي التجربة الثانية كسرت بيضة دجاج ملقّحة (أُتلفت الحياة)، وفي اللحظة عينها ظهر النبض نفسه على ورق البطاطا. ونحن كنّا تحدّثنا عن هذا كله بالتفصيل في كتابنا «الإله، الروح، الخلود». ونشير في السياق إلى أنّ جهاز كشف الكذب مبني وفق هذا المبدأ نفسه.

وهكذا يتضح أنه ثمّة حركة تبادل معلومات متواصلة بين الإنسان والحقل الكوني، وبما أنّ الإنسان يتوفر على قدر من حرية الإرادة، وحق الاختيار، لذلك فهو الذي يصنع مصيره، وليس مصيره هو فقط. فأفعاله ومقاصده لا تؤثّر على مجرى حياة الأجيال الآتية وحسب، وإنما تبدّل نوعية الوسط الإعلامي المحيط أيضاً. وإذ يفعل الإنسان الشرّ فإنه يضاعف الطاقة السلبية، ويلوّث الوسط المحيط، وهو ما يترك تأثيره على الأحياء الموجودة كلها (انظر في كتاب: «الأيكولوجيا المعروف والمجهول»).

ولذلك ينبغي على كل منّا أن يكفّ عن الاعتقاد بكونه كائنا له استقلاله الذاتي ويستطيع أن يفعل ما يحلو له. يجب ألا نفهم الحرية فهماً خاطئاً. فنحن كلنا أسنان مسنّن آلية كونية واحدة تخلو من أيّ مصادفات. وعليه فإن من الخطأ أن نرى في المجتمع جمعاً بسيطاً من الشخصيات المستقلّة. فالأمر هنا ليس عملية حسابية، فالمجتمع ليس نظاماً خطياً، و٢×٢ فيه لا يساوي ٤؛ لأنّ التصرفات أو الأفعال الفردية التي تبدو فيه من النظرة الأولى صغيرة لا قيمة لها، يمكن أن تحدث انفجاراً يودي بالمجتمع كله. فالحرية المطلقة لأي كان لا وجود لها. ولا يقوم التناسق إلاّ في فهم كل لدوره في هذه السلسلة الواحدة، وتأديته بأمانة وصدق. والحقيقة أنّ هذه هي الطريق الوحيدة لبلوغ السعادة والرخاء الاجتماعي.

ولكن، ما صلة هذا كله بالدين والإيمان بالإله؟ إنّها صلة وثيقة ومباشرة. فقد بيّنا أعلاه أن معلومات الحقل الإعلامي معلومات العقل الكوني موجودة في كل منّا. ومعنى هذا أنّ الإله موجود كذلك في كل منّا. إلاّ أنّ دروبنا إليه تختلف.

ويعد الأنبياء، الحاملين المباشرين لإرادته: بوذا، والمسيح، ومحمد (ص). أمّا نحن الناس العاديين فإننا نحس إلى هذه الدرجة أو تلك، بالمعلومات الواردة من وعينا الباطن إلى وعينا الأعلى. ويمكننا أن نضاعف من إحساسنا هذا بطرائق شتّى. وتعدُّ الصلاة واحدة من هذه الطرائق.

وعلى هذه الصورة فإنّ موضوعية وجود الإله تجد تفسيرها في المفهومين المعاصرين لحقل الإعلام الكوني، والصورة الأصل، الصورة الهولوغرافية؛ بيد أنه ينبغي ألاّ نتصور الإله ذلك العجوز الرحيم الغفور. إنه ماهية ما، الكون كله مكلوء بها. ولكن كيف فسّر العلماء هذا الأمر سابقاً قبل اكتشاف هذين المفهومين؟ هاكم رؤية أحد كبار علماء القرن العشرين في هذا الميدان، و. جيمس: «تعدُّ «أنا» الوعي الباطن الآن معطى حقيقياً معترفاً به في علم النفس؛ وأنا أعتقد أننا نستطيع أن نعثر في هذا المفهوم تحديداً على المصطلح الذي يلزمنا لتحقيق الصلة بين العلم والدين. ففي روحنا من الحياة والعمل إبان كل لحظة معنية، أكثر مما نعي وجوده بكثير». ويقول أيضاً: «وكائنا ما كان الشيء الذي في الجانب الآخر من العالم، والذي نتواصل معه عبر انفعالاتنا في التجربة الدينية، فإنه يعدُّ في هذا الجانب من العالم استمراراً لا شعورياً، لا واعياً لحياتنا الواعية. وعلى هذه الصورة فإننا إذا انطلقنا من المعطى الذي أقره علم النفس واقعاً، واتخذناه قاعدة، فإننا لا نقطع الخيط الذي يربطنا بالعلم، وهو الخيط الذي عادة ما يفلّته علم اللاهوت من يديه. وإلى جانب هذا يُعلّل تأكيد اللاهوت الذي يقول، إنّ الإنسان المتديّن هو إنسان ملهم تقوده قوّة خارجية، لأن واحدة من

سمات العيش في الوعي الباطن، الذي يجتاح العيش في الوعي الحقيقي، هي قدرة الأول على أن يبدو كأنه شيء ما موضوعي، ويوحى للإنسان بتصوُّر عن نفسه كأنه قوة خارجية. وتعدُّ هذه القوة في الحياة الدينية، هي القوة العليا. وبما أنَّ القوى المتدخِّلة هي من حيث الأساس جوهر سمات عليا لخبايا نفسنا، فإن الإحساس بالتواصل مع قوة الجانب الآخر من العالم تمتلك بمحتواها شيئاً ما متخيّلاً، لكنه موجود فعلاً». ثم يقول: «ويعود «الأنا» الأعلى للإنسان، ليتحد مع «الأنا» المطلق، لأنَّ «الأنا» الأعلى متوحد مع الإله دائماً، مندغم بالروح الكوني».

يتضح إذن أن الحديث يدور عن الصورة الأصل، الصورة الهولوغرافية، عن الحقل الإعلامي، يقول جيمس:

«إن «الأنا» الواعي عند الإنسان، هو استمرار مباشر «لأنا» حجمه أكثر عرضاً، ينتج في اللحظات الحرجة تجربة خاصة ويمنح محتوى إيجابياً للانفعال الديني، وأنا أظنُّ أن هذا الأخير كامل وحقيقي وموضوعي في كل حجمه الحقيقي».

إنَّ فكر الإنسان يولد خارج حدود جسده الفيزيائي. وليست الفكرة الإبداعية فكرة تعيها حركة الأفعال المنطقية، فهي «تحلّق في الهواء»، في حقل الإعلام الكوني، ونحن نلتقطها من هنا بالذات ولا يلتقطها إلاَّ من يمتلك جهاز استقبال جيداً وهوائياً جيداً. وهذه موهبة تولد مع الشخص، وهي ما نسميه موهبة. وقد اعتدنا أن نقول، إنَّ الإنسان «يولّد الأفكار». لكن في واقع الحال أن أحداً لا يولّد شيئاً قط. فالكل يستقي من مصدر واحد وحيد، هو حقل الإعلام الكوني. والموهبة هي بالضبط القدرة على استقاء الموسيقى، والعلوم و...، من هناك. فالموهوب حقاً لا يبتكر شيئاً، إنما يسجِّل ما يراه ويسمعه. ولذلك يقولون": «موسيقي من عند الإله»، و«رسام من عند الإله».

لقد عاش جيمس وعمل منذ حوالي المائة عام خلت. ولذلك لم يكن بمقدوره أن يعالج مصطلحات العلم المعاصر وحصيلته. فبدلاً من مصطلح حقل الإعلام الكوني، استخدام مصطلح «الروح الكوني» و... وقد أدخل إليه الصوفي الغيبي، والخارق. ومع ذلك فإن محاكماته صحيحة:

«من الواضح أن أكثر نزعاتنا الروحية تنبت في هذا الميدان بالذات؛ وإلاَّ لما سيطرت علينا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نفسِّر لأنفسنا أسباب ظهورها. ولذلك ينبغي أن نعترف بأننا ننتمي إلى هذا الميدان بدرجة أكبر بكثير وبالتصاق أقوى بكثير، من

انتمائنا إلى العالم المرئي والتصاقنا به، لأننا نعيش في ذلك العالم أكثر وصلتنا به حميمة أكثر، ففيه تولد وتعيش نزعاتنا الروحية ومثلنا العليا. ولكن هذا العالم غير المرئي ليس عالماً مثالياً فقط، بل له تأثير ونفوذ عل العالم المرئي. ويعدُّ التواصل مع العالم غير المرئي عملية واقعية لها نتائجها التي تنعكس على الشخصية الإنسانية الأعلى، وهو ما يتجلّى في تجديد هذه الأخيرة تجديداً أساسياً، وينعكس انبعاث الإنسان هذا عبر سلوكه اليومي، على شكل تبعات تظهر فاعليتها على أحداث العالم الطبيعي.

ولكن ما يحدث من تغيُّرات في الميدان الواقعي، يجب أن يكون واقعياً أيضاً، ولذلك فإني أرى أنه ليس ثمة ما يكفي من الأسس الفلسفية التي تجيز لنا مشروعية نفي إمكانية الوجود الحقيقي للعالم غير المرئي، أو للعالم الصوفي، العالم الغيبي.

أما التسمية البدهية للحقيقة الأسمى بالنسبة لنا نحن المسيحيين في أقل تقدير، فهي كلمة «إله»، ولذلك فإنني سوف أدعو هذا الميدان الأسمى بين ميادين الوجود: إلهاً، ونحن نستطيع أن نتواصل مع الإله، وبوضعنا لكينونتنا تحت نفوذه، نؤدِّي أعمق غايات وجودنا. ويتخذ العالم في أجزائه التي تشكل شخصيتنا صورة الخير والشر تبعاً لالتزامنا بفرائض الإله أو رفضنا لها، وأنا أظن أنكم توافقونني رأيي هذا، لأن ما أقوم به هنا لا يتعدَّى نقل العقائد الفطرية العامة بالنسبة للجنس البشري، إلى لغة مبسطة: الإله موجود لأنه تصدر عنه أفعال واقعية حقيقية.

... إنَّ المؤمنين على يقين بأنَّ خلاصنا حقيقة، بصرف النظر عن آلام جهنم وغوايات الحياة الدنيا. ووجود الإله هو ضمان وجود نظام انسجام أعلى باق على مرِّ الدهور. فالعالم سوف يهلك كما يؤكِّد العلم: سوف يحترق أو يتجمَّد؛ ولكنَّه إذا كان جزءاً لا يتجزَّأ من الانسجام الأعلى، فإن مقصد هذا العالم لن يفنى، وسوف يعطي ثماره، ربَّما، في العالم الآخر: حيث الإله تكون المأساة عابرة، مؤقتة، وجزئية، أما هلاك العالم، فناؤه فلا يمكن أن يكون هو النهاية الحقيقية للوجود كله.

فالعالم المدرك على ضوء الدين، ليس بأيِّ حال من الأحوال، هو نفسه العالم المادي مع بعض التبدلات الشكلية؛ لأنه علاوة على مثل هذا التغير، فإنه يتسم بماهية طبيعية مغايرة تماماً لماهية العالم المادي. فالشبه بينه وبين العالم غير الديني بسيط إلى حدٍّ أنه يمكن أن تحدث فيه أحداث مغايرة تماماً، بالتالي يمكن أن يطلب من الإنسان أن يسلك فيه سلوكاً مختلفاً اختلافاً كلياً».

وكيف يمكن للإنسان، للشخص الفرد أن يقترب من الروح الكوني، من الحقل الإعلامي، و«يحتك» به أكثر لكي تتوافق أفعاله مع الانسجام العام؟ إنَّ هذا يتحقق في الصلوات، التي تعدُّ فعل مكاشفة مع الذات، فعل وعي ذاتي، ولكن ينبغي أن نفهم الصلاة فهماً أعرض، بصفتها مستوى من مستويات التجربة النفسية. وعن هذا كتب أحد العلماء يقول:

«يمكن للإنسان أن يتعلم كيف يتجاوز هذه الحدود المحيطة به (الفكرة الأعلى) ويصل إلى درجات القوى والمعارف المنشودة... إن وجود الإله يدرك في التجربة. فالانتقال إلى الدرجة الأعلى من الحالة الروحية، هو فعل من أفعال الوعي، لكنه فعل محدد ومجزأ. وهو ليس مجرّد انفعال مبهم يحدث في ظلمات شبه الإدراك. وهو ليس حالة من الوجد، وليس حالة من الهيجان. وهو ليس انفعالاً يتجاوز مستوى الوعي، بالمغزى الفيدي للكلمة. ولا يستدعيه الإيحاء الذاتي بالتنويم المغنطيسي. إنه تبدُّل هادئ، عادي، عقلاني عميق وطبيعي في شكل الوعي الإنساني، إنه تحوُّل من الظاهرات المدركة بالوعي الشعوري، إلى الظاهرات التي تدرك بالاستبصار: من التفكير بالذات إلى ميادين أفكار أكثر سمواً... فالأبسط، الأدنى على سبيل المثال، يمكن إرغامه على الاستكانة في لحظات دون عناء يذكر: بعصبية، وإثارة، وقلق واضطراب، وحذر دائم. ولكن هذا لا يتحقق بالكلمات. بل بتمرين قوتّك الذاتية وسلطتك. فالإحساس بروح السكينة يمكن أن تحسّه بالوضوح الذي تحسُّ به بالقيظ في يوم حار. ويمكنك أن تستخدم قوتك بالثقة عينها التي تستخدم بها المرآة المقعرة لتكثيف أشعة الشمس لكي تضرم النار».

لقد أعطت تجارب الاتحاد مع الإله ثمارها الحقيقية في «المداواة الروحية» التي شاعت شيوعاً عريضا في أمريكا إبان القرن التاسع عشر، وكانت نتائجها العملية صاعقة: عاد البصر للعميان، وعاد العرجان يمشون مشية طبيعية، وعادت العافية التامة إلى مرضى كانوا قد وصلوا حدَّ اليأس من إمكانية شفائهم، وتمكّن من لم يعتقد يوماً أنه يستطيع أن يمتلك فرصة اكتساب العافية الروحية، تمكّن من اكتسابها الآن، وكانت الأناجيل الأربعة هي القاعدة التي قامت عليها المداواة الروحية. وهاكم ما قاله أحد أولئك الذين برؤوا من مرضهم بطريقة المداواة هذه:

«إن العلّة الأولى لكل مرض، لكل وهن، لكل كآبة تنحصر في إحساس إنساني صرف بالانعزال عن القوة العليا التي ندعوها الإله. فالروح التي يمكنها أن تشعر

بثقة يقينية، وتردد مع يسوع المسيح بفرح: أبي وأنا واحد، لا تحتاج بعد هذا لمداوٍ أو مداواة، ففي هذا وحده تكمن الحقيقة كلها. إن توحُّد الروح الراسخ مع الكمال الإلهي، هو الشرط الوحيد الممكن لاكتساب كمال العافية، فالمرض عاجز عن الوصول إلى من اعتمد بقوّة على هذه الصخرة، إلى من يحسُّ روح الإله فيه في كل ساعة، في كل لحظة. كيف يمكن للكآبة أن تمتلك عليَّ إدراكي إذا كنت أحسُّ أني متحد مع الكلي القدرة؟ كيف يمكن للعلل أن تبدد هذا النور الأزلي... وإذا كان الإله معنا، فمن هو خصمنا إذن؟».

من الواضح إذن أن جوهر الأمر يقوم في أن «الإله ليس مدركاً بالنسبة إلينا إذا كنا لا نعايشه في ذاتنا فعلاً، أي إذا لم نكن م متوجهين دوماً إلى أعماق الوعي الداخلي لأنانا الحقيقي، أو للإله في داخلنا، لكي ننال الصحوة من الداخل». وينعكس لبُّ التعاليم في الكلمات الآتية:

«إنَّ روح الحياة والقوة اللانهائيتين، المتغلغل في كل شيء، والمتجلّي في كل شيء، هو الأساس الأعظم للعالم. وأنا أدعو العقل القائم في أساس العالم، وروح الحياة والقوة اللانهائيّتين، أدعوهما: الإله. والأمر بالنسبة لي سواء أن تختاروا أي اسم يروق لكم: واهب النور، العناية الإلهية، الكائن الأعلى، أو الكلي القدرة، اختاروا ما يحلو لكم من أسماء. وطالما نحن على وفاق مع أساس العالم هذا، سيبقى الإله في أعيننا مالئاً الكون، وسوف يكون وجود كل شيء فيه وعبره. إنه حياة حياتنا، ونحن مشاركون في الوجود الإلهي. ومع أننا نتميَّز عنه بكوننا كائنات فردية، أفراداً، بينما هو عقل لا متناهٍ، إلاَّ أنَّ الحياة الإلهية والحياة البشرية مندغمتان في الجوهر، ويقتصر التمايز بينهما على الدرجة فقط.

ويتمثَّل الحدث المركزي الأعظم في الحياة البشرية، باللحظة التي ندرك فيها إدراكاً تاماً اندغام حياتنا بالحياة اللانهائية، ونفتح قلبنا للينبوع الإلهي، وبقدر ما نرقى إلى مستوى التجلي الواعي لاتحادنا مع الحياة اللا متناهية، ونفتح قلبنا للتأثير الإلهي، بقدر ما نجسِّد في ذاتنا صفات الحياة اللا متناهية وقوّتها، ونغدو الأدلاَّء الذين يؤدّي عمله عبرهم العقل اللا متناهي والإرادة اللا متناهية. وبقدر ما يحقق الفرد وحدته مع الروح اللا متناهي، بقدر ما تحل العافية في جسده محلَّ المرض، والانسجام محلَّ التنافر، والطاقة المتجددة محل الحزن والأسى. وإذ نعي أُلوهية طبيعتنا، وصلتنا الوثيقة بالعلة الأولى

للكون، فإننا بذلك نثبّت ناقل الحركة إلى المحرك المركزي للكون، ولا يبقى المرء في الجحيم إلاّ قدر ما يريد هو نفسه البقاء فيها؛ ويمكن أن يحلّق عالياً في السماء كما يريد؛ وفي اللحظة التي نحسم أمرنا فيها على الصعود، تتحد قوى الكون العليا كلها لتمدّ لنا يد العون».

إنَّ المبدأ العام «للمداواة الروحية» مبدأ مفهوم، إذ يتمثّل في ضبط الإنسان ضبطاً تاماً على حقل الإعلام الكوني بهدف تبادل المعلومات بين الصورة الهولوغرافية للمرء وحقل الإعلام بفاعلية، بمعنى آخر يجب أن يكون هناك إيمان راسخ لا يشوبه أي شك، في وجود هذا الحقل، أي الإله. ولذلك عندما كان المسيح يمارس المداواة الروحية، كان يردد دائماً: «ليكن لك مثل إيمانك». وهذا ما كان يفعله رسله أيضاً.

ومن المبادئ العملية للمداواة الروحية، الثقة اليقينية بأن القوَّة العليا سوف تهتمُّ بك اهتماماً أفضل من ذلك الذي سوف تلقاه من اطبائك ومعدَّاتهم الطبية الحديثة. بيد أنَّ ذلك لن يحدث إلاّ إذا اعتمدت اعتماداً تامَّاً غير منقوص على هذه القوة ووافقت على أن تتبعها. ولكي يتحقق هذا في الواقع العملي عليك قبل كل شيء أن تحسِّن من جودة جهاز الاستقبال الذي تملك (أن تصنع الكارما)، ومن الشكل البياني لاتجاه حقلك الحيوي، ومن صورتك الهولوغرافية، وهذا يعني أنه يجب عليك أن تتخلص أولاً من الصخب والموانع، وفي السياق الذي نحن بصدده، فإنَّ هذه الأخيرة هي تداعيات أعمالك السلبية، وتصرفاتك وأفكارك الرديئة. ولذلك تبدأ المداواة الروحية من ضرورة العمل على نسيان كل ما هو رديء، والكف عن الشكوى والتأفف لأي سبب كان وأحياناً من غير سبب. فهذا كله يخلق خلفية سلبية، وتشويشاً في الحقل الإعلامي يعيقك، كما يعيق المحيطين بك أيضاً. إذن ليس هذا مطلوباً منك وحدك، إنما من كل من تتواصل معهم كذلك. إنَّ كل فكرة هي فكرة واقعية، وثمَّة لها تداعيات هي الصيغ الفكرية،. كما أنَّ الشخصيات كلها، والأبطال كلهم، النبلاء منهم والمتوحشون، هم أشخاص حقيقيون موجودون بيننا سواء أردنا أم لم نرد، فيدخلون عالمنا من شاشات العرض أو العروض المسرحية. أمَّا أولئك المسوخ، والغيلان، والمنحرفون، والمتعسفون المغتصبون، والسفَّاحون فإن وجودهم في حياتنا يتزايد أكثر فأكثر، وإذا أردتم أن تتمتعوا بعافية روحية وفيزيائية، فينبغي ألاّ يكون لهم وجود (أكثر من ثلثي سكان الأرض؟!!!. م.). فما يثير المعاناة والخوف يجب ألاّ يكون له وجود. وليس صحيحاً أنَّ الآلام مفيدة ووجودها حتمي، فالآلام التي يستدعيها الحسد، والجشع، والبغض، والتي تودي إلى الهلاك، والتعسُّف والقتل، تعدُّ خطأ تاريخياً في حياتنا. لقد أثقلنا على حقل الإعلام الكوني

بنفايات حياتنا وأهوالها، بفلسفتنا البائسة وشعاراتها عن الصراع، حتى بتنا معزولين عنه عزلة شبه تامة، وبدلاً من أن نسعى بأنفسنا إلى هذه الصلة مع الحقل الإعلامي، فإننا نضع أنفسنا تحت تصرُّف المشعوذين، والدَّجَّالين الذين يشوِّهون حقلنا الحيوي على هواهم ويشفِّرون وعينا لقاء أجر يتلقونه. وليس هذا سوى ثمرة جهلنا بأهمِّ مسائل وجودنا، بمسائل العلّة البدئية للكون، أي العلّة البدئية لحياتنا.

فهناك آلية وحيدة تدفع الكون. ونحن لسنا أكثر من مسنَّنة صغيرة في هذه الآلية، فما الذي يجب فعله لكي تدور هذه المسننة بانتظام، من غير تسارع أو تباطؤ؟ لا شك أنَّها يجب عليها أن تعرف كيف قضي لها أن تدور، وأن تقلّل من مبادراتها إلى أقصى حدٍّ ممكن، والاّ تحاول انتزاع نفسها من هذه الآلية أو تحاول تحسينها. ينبغي التحرُّك والعمل ضمن هذه الآلية، ومن أجل أن يسير هذا كله سيره الطبيعي ينبغي الاعتراف أولاً بوجود هذه الآلية، وبأننا نحن نشكل جزءاً لا يتجزَّأ منها، وأن نعي كيف يجب علينا أن نتصرَّف كي لا نحدث أيَّ خلل في عملها، لأنَّ حدوث مثل هذا لخلل سوف يجعلنا والمحيطين بنا تعساء، وسوف يدمّر المحيط من حولنا.

إذن، إن القاعدة الأولى للمداواة الروحية، للحياة المستقيمة تقوم في التحرر من كل ما هو سلبي، بما في ذلك الخوف. يقول وود: «الإنسان مطبوع على الخوف قبل أن يولد؛ ويتربَّى في الخوف؛ وحياته كلها خاضعة للخوف من المرض والموت، وعلى هذا المنوال فإنَّ روحه مستعبدة، محدودة، ومقهورة، وغالباً ما يكون جسده انعكاساً لروحه. تذكّروا أيضاً ملايين أرواح أسلافنا التي كانت مكلوءة بهذا الإحساس عينه، وعاشت تحت وطأة هذا الكابوس، ومع ذلك، أليس من الغريب أن تكون العافية موجودة حتى الآن؟ إن الحب الإلهي وطاقة الحياة الإلهية اللذين يتجليان في روحنا من غير أن ندري، وحدهما القادران على مواجهة هذا المحيط من الأسى».

وقال المسيح يوماً: إذا أراد الإنسان الخلاص فإن عليه أن يموت أولاً ويولد من جديد بالروح، أي أن عليه أن يولد من جديد ولادة ثانية. ويستفاد من الإنجيل أن الذين كانوا يستمعون إلى يسوع لم يفهموا كيف يمكن أن يحصل هذا. وما يؤسف له أن المسيح لم يترك لنا أي شيء مكتوب عن طريقة المعالجة الروحية التي كان يمارسها. فلم يبقَ لنا منها سوى بعض المبادئ التي نقل إلينا عنها الإنجيليون، وعندما عادت العافية إلى كثرة كثيرة من المرضى الميؤوس من أمراضهم في عصرنا هذا، أقتنعنا بأن المسيح كان يشفي فعلاً أولئك الذين كان إيمانهم راسخاً لا يتزحزح. ومن المعروف أن أعمال المداواة التي قام بها المسيح

ورسله، ليست بمتناول الكنيسة، وعن هذا كتب أحد العلماء يقول: «إن الأفكار التي تدعو إليها الكنيسة المسيحية اليوم، ليس لها أيُّ أهمية في معالجة الأمراض الباطنية، مع أنها أدت في القرون السابقة دوراً عظيماً في هذا الميدان».

وولادة الإنسان من جديد ليست مجرَّد كلام أو قول من الأقوال المأثورة. وإذا استخدمنا لغة الفيزياء، فإنَّ هذا يعني أن مأخذ النظام ومخرجه ينبغي أن ينفكّا ويلتحما بمكانين جديدين مناسبين: يجب أن تتعزل روح الإنسان مع الحقل الكوني، مع الروح الكوني، مع الإله. وهذا هو معنى الموت والولادة من جديد. ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه ينبغي على الإنسان لكي يحقق هذا أن يؤدِّي فروض الكنيسة تأدية شكلية. فكل إنسان يحقق ولادته الجديدة بطريقته الشخصية. وهاكم أمثلة عمَّن حقق ولادته الجديدة، ونجح في أن يدخل حقل الإعلام الكوني، ويوحِّد روحه مع الروح الكوني، مع الإله.

فقد كتبت إحداهن التي عاشت هذه التجربة كلها، كتبت عنها تقول: «لقد مرَّ بي حين رأيت الحياة فيه مضنية إلى حدٍّ لا يطاق. كنت أعيش دوماً تحت وطأة الإحساس بالكآبة، وتعرَّضت مرَّات عدَّة لحالات من الانهيار العصبي رافقها قلق مُضنٍ منع علي النوم طويلاً، فألفيت نفسي قرب مدخل حالة الجنون؛ زد إلى هذا أني كنت أعاني من علل أخرى متعددة، لا سيما اختلال وظائف الجهاز الهضمي. وبناء على رأي الأطباء نقلت من منزلنا؛ وأخذت أتناول الأدوية، فتركت أعمالي كلها، وأوليت عناية فائقة لنظام التغذية، وترددت على أطباء المنطقة كلهم، لكنني لم أسترد عافيتي إلاَّ بعد أن تملَّكتني فكرة جديدة.

وأنا أعتقد أن الانطباع الأقوى قد جاءني من إدراك ضرورة أن يبقى الإنسان على تواصل مستمرٍّ، أو على تماس روحي مع جوهر الحياة الحاضر في كل شيء، وهو الجوهر الذي منحناه نحن الاسم: إله. إنَّ هذا الجوهر، هذه الماهية غير مدركة بالنسبة إلينا إلاَّ إذا انفعلنا بها، عايشناها معايشة حقيقية في داخلنا، أي إلاَّ إذا لجأنا دوماً إلى أعماق وعي أنانا الحقيقي، الإله في داخلنا، لكي ننال الصحوة من الداخل؛ ألا نلجأ إلى الشمس طلباً للنور والدفء لكي نغذِّي قوانا. وعندما يؤدِّي المرء هذا بإيمان مدركاً أنه بلجوئه إلى ذاته، إلى عالمه الداخلي، إنما يعيش بذلك مع الإله أو مع جوهره الإلهي، عندئذ يدرك وهم ما كان لاجئاً إليه من قبل، وإن ذلك لم يضاعف سوى قواه الخارجية.

لقد أدركت ضآلة أهمية هذه الحالات الروحية الخارجية بالنسبة للعافية الفيزيائية، لأنَّ هذه الأخيرة لا تأتي من تلقاء نفسها كنتيجة غير منتظرة؛ فاكتسابها عبر فعل روحي خاص أو بامتلاك الرغبة لاكتسابها، أمر مستحيل؛ إنها لا تعطى إلاَّ بالطريق التي وصفتها

قبل قليل. وما نجعله عادة كنه حياتنا، لبّ حياتنا: القيم الشكلية التي نتهافت على امتلاكها، والتي غالباً ما نحيا ونموت من أجلها ولكنها لم تمنحنا السكينة أو السعادة يوماً؛ هذه كلها سوف تأتينا كنتيجة طبيعية للحياة السامية التي نحياها على خلفية الروح. ومثل هذه الحياة، هي البحث الحقيقي عن المملكة الإلهية، هي الرغبة الحقيقية في أن يسود الإله في قلبنا؛ ولذلك إن كل ما بقي سوف يعطى لنا، وقد يعطى من غير أن نتوقّع؛ ضف إلى هذا إن مثل هذه الحياة سوف تكون شاهداً على وجود توازن كامل في قلب وجودنا.

وحينما أقول إننا اعتدنا على أن نجعل جوهر حياتنا ما لا ينبغي علينا أن نوليه أي اهتمام، فإنني أقصد بذلك كل ما يرون فيه قيمة كبيرة، ويعطونه أهمية خطيرة: النجاح في العمل، ومجد الكاتب، والرسام، والطبيب، والمحامي، الشهرة التي تكتسب بأعمال البرِّ، فهذا كله ينبغي أن يكون نتيجة، وليس غاية. ويمكنني أن أضيف إلى هذا كله تلك المتع التي يعدُّونها متعاً بريئة، بل جيدة، وهي المتع التي يسعون إليها لأنّ الأكثرية تقرّها، وأنا أقصد هنا إلى الأعراف الدنيوية، ونمط العيش الدنيوي ومعاييره، لأنَّ الإسراف الرديء الذي يغلب عليها يلقى الاستحسان من قبل الدهماء».

وهاكم شهادة أخرى.

«منذ ولادتي وحتى سنِّ الأربعين وأنا مريضة. وعلى أمل أن يمنحني تغيير المكان والمناخ بعض الراحة انتقلت للإقامة في فيرمونت، ولكن قواي ما فتئت تتلاشى يوماً بعد يوم، وها أنذا في أحد الأيام من أواخر شهر تشرين الأول، عند منتصف النهار آخذ قيلولتي المعتادة، وفجأة اسمع الكلمات الآتية: «أنت ستبرئين من مرضك وتحققين عملاً لم تجرئي على أن تحلمي به». فتركت هذه الكلمات انطباعاً قوياً جداً في روحي، وقلت لنفسي في اللحظة عينها، إن الإله هو الذي نطق بهذه الكلمات في داخلي، فآمنت بها على الضدِّ من نفسي، على الضدِّ من ضعفي وآلامي التي تواصلت حتى أعياد الميلاد عندما عدت إلى بوسطن. وبعد يومين من وصولي اقترحت عليَّ إحدى صديقاتي أن ترافقني لزيارة أحد المعالجين الروحانيين، وقال لي هذا: لا يوجد شيء سوى الروح؛ ونحن تجليات للروح الواحد؛ وما الجسد سوى وهم عابر؛ وهو تماماً كما يتصوَّره المرء منَّا. ولكنني لم أستطع أن أوافق على ما قاله المعالج، بيد أنني أوَّلت ما قاله حيث تهيأ لي أنه له صلة بي: لا شيء إلا الإله؛ وأنا صنعته وتابعة له تبعية كليَّة: لقد منحت العقل لكي استخدمه؛ وإذا ما وجهته نحو بنية جسدي لكي تعمل بصورة طبيعية، فإنني سوف أتحرر من تلك القيود التي أدخلني فيها جهلي، وجبني وتجربتي الماضية. وفي ذلك اليوم أكلت شيئاً مما أعدّته العائلة، وأكّدت لنفسي بصلابة: إن القوة التي صنعت

معدتي يجب عليها أن تجعلها تتمثل ما أكلته، وعلى امتداد السهرة كلها احتفظت بحالتي الروحية هذه، ثم نمت وصحوت قائلة لنفسي: أنا روح مندغمة بفكرة الإله عني. لقد كانت تلك هي الليلة الأولى في حياتي كلها التي نمت فيها الليل كله من غير أن أصحو مرة واحدة (كانت نوبات القلق تهاجمني في نحو الساعة الثانية صباحاً عادة). في اليوم التالي كان يغمرني إحساس بأني تحوّلت، تغيَّرت تماماً، كما لو أنني هاربة من ظلمات السجن؛ وظهر لدي يقين بأنني اكتشفت السرَّ الذي سوف يعيد لي عافيتي. ولم يمضِ أكثر من عشرة أيام حتى بتُّ أتناول مما كان يقدَّم للآخرين نفسه؛ وبعد أسبوعين أخذت أتلقى إيحاءات مباشرة بحقائق تحوَّلت إلى معالم على طريقي، وكانت هذه تتوارد مرَّة كل أسبوعين تقريباً. وها أنا أذكر بعضها:

١- أنا روح؛ إذن كل شيء خير.

٢- أنا روح؛ إذن أنا مغبوطة.

٣- رؤيا داخلية ظهر لي فيها حيوان بأربعة أطراف يحمل وجهي عينه، وأورام على كل أجزاء جسدي التي كنت أحسُّ بالألم فيها. طلب مني الحيوان أن أعترف بأنه أنا. فجمعت قواي وركّزت على فكرة واحدة: أنا سليمة معافاة، ورفضت حتى أن أنظر مجرَّد نظرة إلى صورة حالتي الماضية هذه.

٤- مرَّة أخرى رؤيا الوحش، ولكن عن بُعد، وكان صوته ضعيفاً جداً. ورفضت مرَّة أخرى أن أُقرَّ بكونه أنا.

٥- تكررت الرؤيا للمرة الثالثة، ولكنني لم أر في هذه المرة سوى عيني وفيهما نظرة توسل. فكررت رفضي القاطع. وولد فيَّ يقين، يقين داخلي عميق بأنني الآن معافاة، وهكذا كنت في الماضي وأنا لم أكن يوماً إلاَّ سليمة معافاة، لأني روح، تجلٍّ لفكرة الإله الكاملة، وغدا هذا اليقين حداً صارماً بين ما كنت عليه فعلاً، وبين ما تمثّلته لنفسي. وعن طريق ترسيخ هذه الحقيقة دائماً في نفسي بلغت المستوى الذي لم أفقد فيه بعد ذلك أبداً رؤيتي لا ناي الحقيقية. ثمَّ شيئاً فشيئاً (على مدى عامين من الجهد المضني) بلغت الحالة التي بات فيها جسدي كله يتمتع بالعافية.

وعلى مدى ١٩ عاماً انصرمت منذ ذلك الوقت، لم يتأت لي مرَّة أن استدعي هذه الحقيقة، مع أنني لم أنس لحظة واحدة أن أعيش وأسلك بما يتفق معها. وعلى الرغم من سقطاتي كلها، إلاَّ أنني تعلّمت أن أفكّر بصدق، وببراءة طفل».

يستنتج من هذين المثالين أن القاعدة الأساس للسلوك في الحياة تقوم في أن تفتح قلبك لنفوذ القوى الإلهية، وتلتحق بالحقل الإعلامي، بالعقل الكوني، بالروح الكوني. ويمكن أن

يتحقق هذا بفعل الخير، والابتعاد عن فعل الشرّ، فثمَّة شعار عند المعالجين الروحانيين يقول: «التشاؤم يضعف المرء، والتفاؤل يمنحه القوة».

«إنَّ الأفكار هي أشياء حقيقية. وإذا ما حشدت أفكارك على العافية، والشباب، والقوة، والنجاح، فإنك تنال هذا كله حتى دون أن تلحظ كيف حصل ذلك. فلا أحد يخيب أمله في التأثير المثمر لنظام الأفكار إذا أُدير بتفاؤل ودأب. إنَّ لكل إنسان فرصة يجد فيها الطريق إلى الحالة الإلهية. أما نظام الأفكار الأناني القائم على الخوف والسوداوية، فإنه يقود إل الهلاك». وقد انعكست هذه الموضوعة عن الخير وعدم الإقرار بالشرِّ في صيغة أخرى: «الإله مقيم على الخير دائماً، ومعنى ذلك أنه لا وجود للشرِّ بالنسبة إليك أيضاً. وعليك أن تهبَّ لإدراك وجودك الحقيقي».

ولكي يخضع الإنسان وروحه خضوعاً تاماً للروح الكوني، للإله، عليه أن يمتنع عن إبداء أي مقاومة تعيق ذلك. فهذا يخالف الأخلاق المعتادة التي ينبغي علينا أن نُظهر فيها الحدَّ الأقصى لإرادتنا في تنظيم حياتنا وفق بعض المعايير. ويفرض علينا هذا في واقع الأمر ألاَّ نكون إيجابيين، بل سلبيين، لكي نستسلم تماماً دون أي مقاومة أمام القوى العليا. ومعنى ذلك أنه يجب ألاَّ نقوِّي إرادتنا بل نضعفها. «انس الإحساس بالمسؤولية، واعزف عن السلطة على ذاتك، واترك للقوى العليا مسألة الاهتمام بمصيرك، وكن لا مبالياً تماماً حيال ما يمكن أن يقودك هذا إليه، وسوف تنال عندئذٍ السكينة الروحية الكاملة، وخيرات الحياة التي اعتقدت بصدق أنك أرغمت على أن تعزف عنها إلى الأبد. إنه الخلاص عبر اليأس، إنه الموت من أجل الميلاد الحقيقي، إنه الانتقال إلى العدم. ولكي تصل إلى هذا يجب أن تعيش أزمة روحية، ينبغي أن يتغيَّر شيء ما في روحك تغيراً جذرياً، ينبغي أن يُكسر عناد هذا الشيء ويخبو حتى يندثر».

اسأل، أين هو العلم الذي يجب أن يعتني بصحَّتنا. إن لدينا تصوراً غير صحيح أبداً عن دور العلم ومكانته في حياتنا. لقد بالغنا كثيراً في تعظيم شأن العلم المعاصر لأنه شطر الذرة، وأطلق الأقمار الصناعية، وتغلغل إلى الجينات الوراثية، بيد أننا بدأنا نجني ثمار هذه «الفضائل»، وسوف يبيِّن لنا المستقبل بصورة أوضح أيَّ مصائب جلب لنا العلم.

إنَّ العلم الحقيقي ينحدر من هناك، من حقل الإعلام الكوني. فالأفكار والفرضيات «تحلِّق في الهواء»، ولا يمكن استخراجها على أساس قوانين المنطق. ولكي يمكن أن تكون الفرضية صحيحة، يجب أن تكون فرضية جنونية بما فيه الكفاية، أي يجب ألاَّ تدرج بأيِّ صورة من الصور في تصورات كانت موجودة من قبل. ولذلك، لا تفصلوا بين العلم الحقيقي

والإيمان بجدار صمّ. فالأساس لدى هذا وذاك مصدره واحد: حقل الإعلام الكوني، العقل الكوني، الروح الكوني. وليس الطلاق الواقع اليوم بين العلم واللاهوت، سوى نتيجة لقصر نظر اللاهوتيين والعلماء. «إنَّ ادعاءات ممثلي العلم اليوم كادعاءات الطائفيين المتعصبين، هي في أقل تقدير إدعاءات مرتجلة، متعجلة. فالعالم أغنى بما لا يقاس مما يمكن أن تتحمَّله أي طائفة كانت، حتى لو كانت هذه طائفة علماء. وفي آخر الأمر ما الذي يمكن أن تمثّله براهيننا العلمية كلها من غير تجربة تتطابق إلى هذا الحدّ أو ذلك، مع نظام من المفاهيم المجرَّدة التي أنشأناها نحو والعقل؟ ولكن وفاء للحقيقة نتساءل: لماذا يجب أن نقرَّ بأنَّ نظام المفاهيم هذا وحده يمكن أن يكون صحيحاً؟ إنَّ حصيلة تجربتنا كلها تقود إلى استنتاج معاكس تماماً: تبعاً لتباين الرؤى المشتركة يمكن أن تتباين المواقف من العالم؛ وفي واقع الحال نحن نقف على تنوُّع كبير في هذا الميدان. ففي كل لحظة معنية يختار المرء الموقف الأكثر ملاءمة له تجاه العالم، متناسياً المواقف الأخرى الممكنة أو منحياً إياها. إنَّ العلم يقدِّم لنا التلغراف، والإضاءة الكهربائية، والتشخيص الطبي لأمراضنا، وينجح أحياناً في استباق بعضها ومعالجته، أما الدين فإنَّه يقدِّم لبعضها عبر المداواة الروحية، السكينة الروحية، والتوازن الأخلاقي، والسعادة، ويستبق بعض أنواع الأمراض أيضاً، وهو قد يكون بالنسبة لطائفة كاملة من الناس أفضل من العلم. ومن هذا يتضح أنَّ العلم وكذلك الدين يمكن أن يكونا على حد سواء بمثابة مفتاح كنز الكون بين يدي ذلك الذي يستطيع أن يقبل هذا وذاك في حياته. ومن الواضح كذلك أن أياً منهما لا يجمُّ وحدة كنوز العالم كلها، وإنَّ إمكانية اندغامها في كل واحد أمر وارد. أليس العالم في نهاية الأمر، هو تركيب معقَّد لمجالات الواقع المختلفة التي يتداخل بعضها مع بعض؟».

الخلاصة. لكي يستطيع الإنسان أن يعيش حياة طبيعية روحية وفيزيائيَّة، ينبغي عليه أن يقيم صلة جيِّدة مع حقل الإعلام الكوني، مع العقل الكوني، مع الروح الكوني، مع الإله. فمن هناك فقط يتلقى المعلومات الضرورية لتنظيم حياته، وضبط تصرُّفاته كلها.

الفصل الرابع والعشرون

مكنون العقل الكوني والدين

يبدو لنا للوهلة الأولى أنَّ العلم والدين لا يلتقيان في أي نقطة: العلم يدرس العالم الواقعي، وتأخذ قوانينه شكل الصيغ، بينما يقوم العلم على ما هو فوق الطبيعي، الخارق، والمبهم، وعلى المعجزات. وما يثير الأسى أن مثل هذه الرؤية سائدة بين العلماء، كما في أوساط اللاهوتيين ورجال الكنيسة. بيد أنّ هذا خطأ من حيث المبدأ. فليس ثمّة ما هو طبيعي وما هو فوق الطبيعي والخارق. هناك عالم واحد، ونحن لم نفهمه، وربّما لن نستطيع أن نفهمه فهماً كاملاً في أيِّ يوم من الأيام. فالطبيعي بالنسبة إلينا الآن هو ما يمكن لمسه، ورؤيته، وسماعه بالعين المجرَّدة والأذن أو بالأجهزة التي ابتكرنا. فالجهاز يجعل «الشيء المبهم» شيئاً يمكن تحسسه بأجهزة الإحساس. فمنذ مائة عام مثلاً لم يكن أيٌّ من العلماء ليوافق معك إذا ما قلت له إنَّ شخصاً ما في نيوزيلندا سوف يتحدث بصوت خافت مع آخر يقيم في ديكسن، وأن هذا سيسمعه ويجيب على أسئلته، أليست هذه هي الشعوذة بعينها؟! ولكنها باتت الآن واقعاً معتاداً لا يثير استغراب أحد. إذن أين الحد بين الشعوذة وما هو طبيعي؟ وهل هذا الحد ثابت لا يتغيَّر، بل هل هو موجود فعلاً؟ إذ تقرأ هذا الكتاب تدرك أنه لا وجود لهذا الحدِّ. فقد عالج المسيح مرضى لم ينجح أحد غيره في معالجتهم. فهل كانت تلك شعوذة؟ كلا. فمنذ زمن غير بعيد فعل المعالجون الروحانيون، ولا يزالون، الشيء نفسه، وفق طريقته عينها. ولذلك ليس مشروعاً تقسيم العالم إلى قسمين: طبيعي، وخارق فوق الطبيعي. والحدُّ الفاصل بينهما يذكرنا بخط الأفق الذي كلما اقتربت منه يسرع بالابتعاد. وهذا يعني أنَّ العالم واحد موحَّد، ويجب أن يكون هذا هو منطلق العلماء واللاهوتيين. وليس العالم وحدة واحدة بالمغزى الفلسفي المعرفي فقط، بل هو وحدة واحدة من حيث بنيانه، من حيث تركيبه. ويعد حقل الإعلام الكوني الحامل الأساس لهذا البنيان وجزأه الأساس. وكل المعلومات التي يحتوي عليها هذا الحقل (معلومات عن العالم كله في الماضي والحاضر والمستقبل)، موجودة في وعينا الباطن أيضاً. وهي ترد من هناك بطرق مختلفة. فعند الأنبياء، والمستبصرين، والمتخاطرين ترد هذه المعلومات من وقت لآخر من الوعي الباطن إلى الوعي الحقيقي بدرجات

ملحوظة. ولكنَّ الأمر كله يتعلّق بالشخص المعني، بعالمه الروحي، بضميره، بكارماه. وكلما اقترب المرء من درجة الكمال الروحي أكثر، كلما مهَّد سبيل توارد هذه المعلومات إليه.

لقد كان الأنبياء يتلقون المعلومات من حقل الإعلام الكوني مباشرة. ولذلك فإنَّ نبوءة أي نبيٍّ حقيقي لا يمكن أن تمحو نبوءات الأنبياء الذين سبقوه، إذا كانوا أنبياء حقيقيين. وإذ يتلقى النبي المعلومات ينقلها إلى الناس، ويضيف إليها المعلومات الضرورية لحل المسائل السياسية ومسائل الدولة التي تحكم الشعب في اللحظة المعنية. وظهور هذه المعلومات الإضافية أمر حتمي إذا كان النبي المعني مرغماً على تقرير المسائل اليومية لمجتمعه. فموسى على سبيل المثال، لم يكن بمقدوره أن يقف عند حدود المعلومات المطلقة التي كان يستقيها من الحقل الكوني، من الإله، أي تلك المعلومات التي تؤكّد أنَّ الإله واحد، وأنَّه يجب الإيمان به وحده. لقد كان على موسى أن ينشئ شعباً من حشود كانت حتى وقت قريب تتخبط في مستنقع العبودية، وينشئ دولة. ومن الواضح أنَّه كان عليه أن يصوغ الشرائع المدنية والجنائية للدولة المزمع تأسيسها. ومن البدهي أنه كان يتوجه في كل حالة مستجدَّة إلى القوَّة العليا، إلى الإله. لكنَّ القواعد التي أنشأها والقوانين التي وضعها جاءت متوافقة مع الشروط المعطاة. وهذا هو ما فعله النبي محمَّد (ص) أيضاً. فعلاوة على المعلومات المطلقة (أنَّ الله واحد أوحد في الكون كله، وأنَّه يجب الإيمان به وحده) صاغ محمد (ص) الشرائع المدنية والجنائية التي نظَّمت حياة شعبه بما يتوافق وشروط حياة هذا الشعب. وينبغي أن نعطي هذين النبيين ما يستحقان من التبجيل والاحترام، فقد احتفظا في أثناء ذلك بصحوة العقل، وسكينة الروح. لقد أدخل موسى شرعة تقديس السبت آخذاً بالحسبان مصلحة الشريحة العاملة من المجتمع: العبيد والتابعين تبعية عبودية. فرفع القانون الضيم عن هؤلاء لو يوماً واحداً في الأسبوع: لم يكن بمقدور أيٍّ كان أن يرغمهم على تأدية أيِّ عمل في هذا اليوم. كما قرَّرت الشريعة مسألة تنظيم المجتمع، فالسبت كان يوماً «سياسياً» إذا صحَّ التعبير: فيه كانت تؤدَّى شعائر الخدمة الإلهية، وسوى ذلك من النشاطات الشخصية الأخرى ذات الصلة بالحياة الروحية للمجتمع.

وتوالت الحقب، وتبدَّلت الظروف، ونسخت هذه الشرائع وأعيد نسخها مرَّات ومرَّات، وأُعيد تأويلها من جديد وفق الظروف المستجدَّة. ومن الواضح لكل من يفكّر أن تغيُّر الظروف مع مرور الزمن يستدعي سوق هذه الشرائع في مجرى المستجدات. وليس ثمَّة أي إثم في هذا. وعلى الرغم من أنَّ تعاليم المسيح نشأت على قاعدة شرائع موسى، إلاَّ أنها احتوت على تأويل جديد للوصايا العشر التي تشكل هيكل شريعة موسى.

وكذلك فعل محمَّد (ص) أيضاً، إذ أضاف إلى الحقائق الأساسية في تعاليمه، حقائق أخرى كانت ضرورية للبناء الروحي - السياسي للمجتمع. وأقام بهذه الأخير علاقات جديدة بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض، وبينهم وبين السلطات، و...

ولكن يبقى الجزء الرئيس هو نفسه في اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وليس ثمَّة تباين هنا أو تناقض. فهل هناك فرق بين أن يسمّي المسلمون إلهم باسم اللّه، أو يدعو اليهود الإله عينه باسم يهوه. فالأمر سيَّان لأنَّ الإله واحد أوحد للناس كلهم، وللكون كله. فقد جاء في النصِّ القرآني أنَّه لو كان للكون إلهان لانهار وفني. ومن البدهي أن يكون للنظام الواحد الذي يؤلِّف كلاً واحداً مثلما هي حال الكون، قوانين واحدة، ومبدأ واحد، علَّة أولى واحدة وحيدة. أمَّا فيما يتعلق بفرائض الحياة اليومية، فإنَّها يجب أن تكون متباينة باختلاف الشعوب، لأنَّ هذه الأخيرة تعيش شروطاً متباينة، وينسحب هذا على الختان، والصوم، والطعام (لحم الخنزير على وجه الخصوص)، والخمرة، وعدد الزوجات وما إلى ذلك. ويعي كل من يفكِّر أنَّ الإله لم يوص الإنسان تحديداً ما إذا كان عليه أن يشرب الخمر أم لا. وإنما أوصاه بأن يحب قريبه مثلما يحب نفسه. وترك للإنسان أن يقرر بنفسه ما الذي يمهِّد له السبيل لتنفيذه هذه الوصية، وما الذي يعيقه عن ذلك. أي ليست التصرفات بحدٍّ ذاتها هي المهمَّة، إنما نتائجها، تداعياتها. ولذلك فإنَّ الدوغمائية على وجه العموم، يمكن أن تسبب الأذى وحسب. تذكَّروا موقف المسيح من العقائد، من الدوغما، فقد قال: لقد خُلق السبت من أجل الإنسان، وليس الإنسان من أجل السبت. وقال أيضاً ليس الشَّرُّ في أن تأكل بيدين غير مغسولتين، لأنَّ الشَّرَّ ليس فيما يدخل إلى الإنسان، إنَّما الشَّرُّ فيما يخرج منه: المقاصد الشريرة، والنوايا السيِّئة، والحسد، والبخل، ومعاداة الناس وما إلى ذلك. فكم من الدماء سال عبر تاريخ الأديان من أجل العقائد الجامدة (الدوغمات). وكان ذلك كله إجحافاً بالمغزى الحقيقي الأول لتعاليم موسى، والمسيح، ومحمَّد (ص). وكان موسى ومحمد (ص) قد تركا لشعبيهما شرائع العيش المشترك، الشرائع المدنية والجنائية كما أسلفنا، أما المسيح فلم يترك شرائع جنائية. قد قامت رسالته أصلاً في تقرير معضلات الجنس البشري وإيجاد حلول لها بعيداً عن الإرغام، والعنف: عن طريق تحقيق الكمال الذاتي لكل إنسان. وحسب المسيح أنَّ الإله موجود في كل منَّا (وهذا ما أكَّده العلم المعاصر)، ومحبة الإله، والإيمان به، معناهما محبَّة للقريب، بل محبَّة الأعداء أيضاً، لأنَّ الإله خلق كلهم دون استثناء. وكان المسيح يعرف أنَّ ما تعاني البشرية منه يمكن أن يُحلَّ بوسيلة واحدة: المحبَّة. لقد كان يجب نسيان البغض، والنفور، والحقد، والكف عن فعل الشَّرِّ (حتى بالأفكار)، حتى تتغير الحياة من تلقائها. ولم

تكن تلك مجرَّد أحلام. فقد بيَّنت المعالجة الروحية صحة ذلك. ويكفي أن يلتزم الإنسان بهذه الوصية حتَّى يغدو سلمياً معافى روحياً وفيزيائيَّاً. ونحن لم نورد سوى مثالين عن وسيلة المعالجة الروحية، علماً أنَّه ثمَّة كثرة لا تحصى منها. لقد أبرأ المسيح مرضى كان ميؤوساً من شفائهم بطريقة عامَّة واحدة: «ليكن لك حسب إيمانك». وإذا كانت هذه الطريقة ذات فاعلية بالنسبة للناس العاديين، فما بالك وقد استخدمها شخص روحاني كالمسيح، الذي كان «لحين فقط» على صلة بحقل الإعلام الكوني، مع الإله، ولذلك كان له الحق كله أن يقول: «أنا وأبي واحد». ونحن ينبغي ألاَّ نرى في هذا أيَّ ابتذال أو إبهام. فليست هناك ضرورة لبناء هرم تراتبي يقف الإله في أعلى قمته، فالإله في كل مكان، يرى كل شيء، ويعرف كل شيء، وقادر على كل شيء، والأشياء كلها مكلوءة به، الكائنات الحيَّة والجمادات. ولذلك فإنَّ ما يجب أن نتخيله ليس هرماً إنما محيط متصل ببحار، وأنهار، وجداول. وهو يتصل حتى بالبحيرات، وكل مصادر الرطوبة على وجه العموم عبر عملية التبخُّر والتَّكثيف، أي المطر. فما الفارق بالنسبة إليك من أين تشرب: من البحيرة، من النهر أو من الينبوع. فالأمر المهم الوحيد، هو وجود ماء الحياة، ولذلك يجب ألاَّ نعاكس مختلف المصادر بالحقيقة عينها. ينبغي عدم معاكستها بأيِّ سمات خارجية شكلية. كما ينبغي عدم الإيمان بأيِّ عقائد. لا تصدِّقوا العقائد (الدوغمات). فإذا ما قرأت تاريخ الطوائف وشتَّى الهرطقات، فإنَّك تدرك مدى بعد هؤلاء الناس عن الحقيقة. زد إلى هذا أنهم يقودون الآخرين إلى طريق الضلال، إلى طوائفهم (إلى طوائفهم هم، وهو الأمر الأهم بالنسبة إليهم). فهم يختلفون مثلاً حول كيفية صيام المسلمين في الدائرة القطبية حيث ينقسم العام إلى أشهر لا تغيب الشمس فيها وأخرى لا تظهر الشمس فيها. إلى هذا الحدّ من العمه تقود الدوغما، وإلى هذا الحدِّ نفسه يقود الابتعاد عن المغزى، عن الحقيقة. وثمَّة تباين بين عدد من الطوائف الإسلامية عامله الوحيد، هو مَنْ من الأئمة سوف يظهر للمؤمنين في مجيئه الثاني: الإمام الخامس، أم الإمام السادس، أم الإمام الثاني عشر. أليس هذا دليلاً على عقم الخلاف بين المؤمنين. إنَّ التمسُّك بالدوغما أمر محزن مضحك. فمن المضحك أن ترى حليقي الرؤوس من أتباع كريشنا الروس، يسيرون في شوارع موسكو بثياب لا تتلاءم أبداً مع الفصل من العام. ولو نظر هؤلاء بإمعان إلى أصول الكريشنائيَّة، إلى لبِّها، لعثروا على شيء واحد في كل مكان منها: محبَّة القريب، والرحمة، والتعاون؛ ولأدركوا أنَّه ليس من الضروري بالنسبة إليهم أن يرتدوا زيَّاً مميَّزاً. ولا يبقى سوى الأمر الأهم: فعل الخير. عندما تقرأ المجلدات الضخمة التي سطَّرت عن الطوائف المسيحية فإنَّك تستغرب كيف يمكن لأناس مؤسسي طوائف، يطالبون بدور المعلِّمين

المرسلين من قبل الإله نفسه، أن يكونوا على هذه الدرجة من قصر النظر حتى يعجزوا عن رؤية الأمر الأهمّ: يجب ألاّ تمتاز، ألاّ تضع حاجزاً يفصل بينك وبين الآخرين، وألاّ تطالب بحقٍّ خاص بك باحتكار الحقيقة، أي ألاّ تطالب بوضع نفسك فوق الآخرين.

لقد كنّا عرضنا بإيجاز تاريخ المذاهب المسيحية والإسلامية. ويمكنكم أن ترصدوا بسهولة ويسر كيف كانت التراتبيات الدينية تنفصل خلال زمن قصير عن المصدر الأول الذي بفضله ظهرت. لقد باتت الكنيسة مؤسسة ليست أفضل من المؤسسات الأخرى التي تملك السلطة، ولها مصالحها المادية، وتراتبيتها الخدماتية. ويستفاد من الأناجيل أنّ المسيح لم يفرض بناء أيّ بنية تراتبية سلطوية لنشر تعاليمه. وكان قد عبر بوضوح ودقّة عن رأيه تجاه تقدُّم بعضهم على حساب الآخرين: على من يعلو عليكم أن يصبح خادمكم. ولكن ينبغي علينا أن نتعامل مع هذا كله بحكمة، انطلاقاً من معطيات عصرنا، ومن واقع طبيعة الإنسان نفسه. ونحن لا نستطيع أن نؤيِّد مشروع التوحيد الشكلي للمعتقدات كلها. فهذه خطّة غير واقعية ولا لزوم لها. لأنّ أيّ خطة لإعادة التنظيم، إذا كان تحقيقها ممكناً، فهي مرتبطة دون شك بكثير من الخسائر. وسوف تصرف اهتمام المؤمنين عن موضوعات أي ديانة كانت: عن العيش في العالم مع الآخرين، وعن محبّة القريب. لقد بيَّنت التجربة التاريخية أنّ الناس تميل نحو التركيز على ما له أهمِّية ثانوية، ولا ترى ما هو مهم وأساس، ولذلك يجب أن تستبدل بخطّة توحيد المعتقدات كلها توحيداً شكلياً، خطّة أخرى، هي نشر المعارف العلمية والمعاصرة في أوساط المؤمنين وغير المؤمنين (فليس ثمّة في العلم طوائف، في العلم الحقيقي في أقلّ تقدير)، وإعطاء جميعهم رؤية صحيحة، ولن يكون لمثل هذه الرؤية أي معنى من غير الإيمان بوجود الإله الواحد لجميعهم، والإيمان بالعلّة الأولى للكون وكل ما فيه، مصدر الشرائع كلها التي كشف عنها الإنسان (كشف عنها ولم يصنعها).

ولكن يجب ألاّ نعمل على تعميم تواصل الإنسان مع الإله. لأنّ صلة كل إنسان بالإله قائمة فعلاً، بصرف النظر عمّا يرى الإنسان نفسه: مؤمناً أم ملحداً. بيد أنّه ينبغي على الإنسان أن يفعل ما بوسعه لترسيخ هذه الصلة وتقويتها. وإذا ما أعلن المرء بسبب جهله وضعف معرفته أنه لا يؤمن لا بالشيطان ولا بالإله، فإنه يعيق بذلك تحقيق هذه الصلة، وينشئ حول نفسه شاشة سلبية تجعل من الصعب على حقل الإعلام الكوني أن يصل إلى مثل هذا الشخص. وتذكروا أنّ كل ما يقوله الواحد منّا، أو يفكِّر به يعدُّ قوّة حقيقية لها القدرة على أن تجعله سعيداً أو تاعساً. فالسعادة لا تحطُّ رحالها إلاّ في حالة واحدة: إذا ما سار المرء في ركاب حقل الإعلام الكوني، وانسجمت أعماله وأفكاره وتصرفاته، وتوافقت مع العقل

الكوني مع الروح الكوني، مع الإله. ولا يمكن بلوغ هذا التوافق إلاّ بطريق واحدة: عمل الخير وطرد الشرّ من حياتك العملية. ومع حركتك إلى الأمام على هذه الطريق، سوف يتزايد أكثر فأكثر توجيه المعلومات الواردة من الحقل الإعلامي لحياتك. كما تمهّد الصلاة سبيل قيام صلة راسخة بينك وبين حقل الإعلام الكوني، ولكنْ الصلاة الصادقة، أي الأفكار التي تتوجَّه بها إلى القوى العليا. ونحن كنا أشرنا إلى أنَّ الفكر والصورة الأصل التي يصنعها هما قوَّة جبَّارة. ولذلك فإنَّ صلواتك الصادقة التي تخلق فيها أنت عالمك الروحي وأنت تسير نحو الحقيقة عبر التوبة، تنقّي روحك، تطهّر عالمك الروحي، وتقوّي صلتك مع الإله. إنَّ كل ما نقول به هنا ينسحب على جميعهم دون استثناء، بصرف النظر عن العقائد والمعتقدات. ويمكنك أن تؤدي صلاتك في أيِّ مكان كان يمكنك أن تفكّر فيه بصدق وأمانة دون أن تسمح للشّكّ أن يساورك. عليك أن تكون على يقين بأّن الإله يسمعك، وأنك سوف تعطى بحسب إيمانك. إنك تستطيع أن تصلّي في حجرتك، كما جاء في الإنجيل، أو في المعابد القديمة أو الحديثة. فليس ثمَّة فرائض في هذا الميدان، فعلى الإنسان نفسه أن يحسَّ أين وفي أيِّ شروط يكون تواصله مع الإله أفضل، وأين تمنحه الصلاة الراحة أكثر. ومن الواضح أيضاً أنَّه لا فرق بين أن تتوجه بصلوات إلى الإله أم إلى أُمِّ الإله، أم إلى يسوع المسيح، أم إلى الله. وليس مهمَّاً أأديت صلاتك أمام أيقونة أم من غير أيقونة. يقول بورفيريوس إيفانوف، إنَّه من المهمِّ أن تتوسل العافية حتى لو توجَّهت بصلاتك إليه هو. أليس هذا تجديفاً؟ أبداً. فالحقل الإعلامي (= الإله) موجود في كل مكان وفي كل إنسان، وليس مهمَّاً أبداً من أين تستقي ماء الحياة، ولكن من المهم أن تقيم صلتك لتتمكّن من أن تستقي من الينبوع. ومن المهمِّ طبعاً ألاّ يكون الينبوع كاذباً، ملوَّثاً بكره الآخر.

أمَّا فيما يخصُّ الأيقونات وسواها من الأشياء الأخرى التي نوجِّه لها أفكارنا الصالحة النبيلة، فإنَّها تشحن رويداً رويداً وأكثر فأكثر بالطاقة الإيجابية (المعلومات). ولذلك فإنَّهم يتحدَّثون عن مكان مشحون بالصلوات، أو أيقونات مشحونة بالصلوات، وهذه حقيقة أكَّدها العلم المعاصر. فقد قاس العلماء الحقل الحيوي لمثل هذه الأيقونات المشحونة، وننوِّه في السياق إلى أنَّه إذا كان الرسام قد رسم لوحته بإلهام حقيقي، فإنها تبدي بدورها حقلاً حيوياً يؤثِّر على من ينظر إليها، وتترك مثل هذه اللوحات عادة انطباعاً مختلفاً. وقد تحاكي اللوحة المزوَّرة اللوحة الأصل من حيث المظهر الخارجي، لكنَّها تفتقر إلى الروح، فلم يُثبت فيها ذلك الحقل الحيوي الذي منحه الرسام للوحة الأصل، إذا كان رساماً «من عند الإله».

وهكذا ليس الانعزال في الحجرة شرطاً ملزماً للصلاة. فقد تكون الصلاة في المعبد أمام الأيقونات المشحونة أكثر تأثيراً، لا سيما وان المعابد المبنية بناء سليماً تعدُّ مخزناً للطاقة الحيوية، كما لصلوات المصلين معك تأثيره أيضاً، إذا كانت صلوات صادقة. ومن المهمِّ جداً أن يكون اختيار الموسيقى دقيقا بدوره، وكذلك التراتيل، و... بيد أنَّ الإيمان من غير أعمال، هو إيمان ميت. وينبغي ألاَّ تتحوَّل الصلاة إلى استجداء مطالب صغيرة محددة، لأنَّ الآب كما قال المسيح، يعرف حاجاتكم قبل أن تطلبوها. فدور الصلاة، هو تمهيد سبيل التواصل مع العقل الكوني، مع الإله، وإعداد طريق ولادتك من جديد، تطهير روحك. ولكن يجب أن تقوم خلف هذا كله أعمال صالحة، مقاصد طيبة، فمن يخطئ في فكره، يخطئ فعلاً.

إذن لن تستطيع أي كنيسة، أو أي أب مقدَّس أن يحلَّ لك صعوباتك. كما لن تُقضى هذه بتأدية الطقوس والشعائر التي فرضتها الكنيسة. فصعوباتك تذللها أنت بنفسك، لأنَّ الإله فيك. وعليك أن تجد الطريق إليه.

إنَّك أنت وحدك فقط القادر على أن تستبدل بأعمالك الشريرة أعمالاً صالحة، وبأفكارك الشريرة أفكاراً صالحة. وأن يعينك في هذا العمل الصعب أيُّ شخص كان، بمن في ذلك الأب المقدَّس. ولكن لا تطلب من هذا الأخير أكثر مما تطلب من أي إنسان عادي آخر، فهو بدوره يمكن أن يكون إنساناً شريراً كما يمكن أن يكون إنساناً صالحاً، وقد يكون حكيماً أو سلفياً ضيِّق الأفق.

ولكن ما العمل مع طقس الاعتراف في مثل هذه الحال؟ كيف يمكنك أن تطهِّر روحك من الخطايا والذنوب التي تعذِّبك؟ إنَّ الاعتراف من حيث جوهره، مكاشفة بينك وبين الإله، وهو اتصال روحي بين روحك وبين الإله. والاعتراف ضروري جداً. فهو إذا كان صادقاً مثله مثل الصلاة، يبدِّلك أنت نفسك، يبدِّل عالمك الروحي، يبدِّل روحك. والاعتراف هو حالة ندم، حالة توبة عميقة، هو عهد تأخذه على نفسك قبل كل شيء، بألاَّ تأتي مستقبلاً بأيِّ عمل إلاَّ العمل الصالح، وألاَّ تعود إلى الأعمال التي ندمت عليها. وتُحلُّ من آثامك أثناء تأديتك الاعتراف، ولا تظنَّن أنَّ الكاهن هو الذي يحلّك منها، إنَّما القوى العليا هي التي تفعل ذلك. ولكنَّها تُحلُّ بمعنى أنَّك أثناء الاعتراف تولد من جديد، وتغدو غير مؤهَّل لاقتراف الذنوب التي ندمت عليها. فالاعتراف ليس مجرَّد صفقة يعفى المرء بموجبها من الآثام التي يقرُّ بها. إنَّه أمر يجري على مستوى الروح واتصالها بحقل الإعلام الكوني، بالإله. وهل ثمَّة ضرورة لوجود طرف ثالث هنا؟ نعم. وقد أساء البروتستانت كثيراً إذ ألغوا طقس الاعتراف. فقد فهموا مسألة الحلِّ من الخطايا أثناء تأدية طقس الاعتراف، فهماً خاطئاً، ووضعوها على مستوى

واحد مع غفران الآثام لقاء نقود (بيع صكوك الغفران). لقد انتزع البروتستانت بذلك، الطفل مع الماء من جرن المعمودية. وهذا أمر مؤسف! فالاعتراف هو من حيث الجوهر، جلسة سيكولوجية باطنية، إلاّ أنها أكثر عمقاً من حيث توجُّهها نحو الصلاح، ونحو الصلاح فقط.

تذكّر دوماً أن الدين هو شأن خاص في المقام الأول، خاص بمعنى أنَّ أيّاً كان سواك لا يمكن أن يعدَّ لك مكاناً في الجنَّة. فمملكة الإله في داخل كل منّا، وهي قائمة الآن، كما قال المسيح. إنَّ هذا الانسجام مع العقل الكوني، مع الإله، لا يمكن لأحد أن يصنعه لك غيرك أنت، مع أنَّ كثيرين يمكن أن يمدُّوا يد العون لك في هذا المسعى. ونحن نأمل أن يكون هذا الكتاب عوناً لك أيضاً. وعلى أيِّ حال هذه هي رغبتنا نحن في أقل تقدير.

وقد قال أحد العلماء عن الدين ذي الطابع الشخصي: «في الدين ذي الطابع الشخصي يجب أن يتمثَّل المركز الذي يجب أن يُحشد الانتباه عليه، في الانفعالات الداخلية للإنسان: ضميره، وحدته، عجزه، وقصوره. ومع أنَّ ميل الإله للإنسان، سواء كان مفقوداً أو مكتسباً، يؤدِّي دوراً مهمّاً في تجلّي تلك الحالة الدينية التي نتحدَّث عنها، وعلى الرغم من أنه يمكن للميول اللاهوتية أن يكون لها فيها أهمية ليست بالقليلة، إلاّ أنَّ الأفعال التي توقظ مثل هذا الضرب من التديُّن، ليس لها طابع طقوس، بل طابع شخصي صرف: المرء نفسه يحدد واجبه بنفسه، أمّا التنظيم الكنسي بكهنته، وطقوسه وسوى ذلك من مختلف الوسطاء بين الشخص والمعبود، فإنَّ لهم المكان الثانوي في هذه العملية كلها، ويقوم تواصل مباشر بين قلب وقلب، بين روح وروح، بين الإنسان والخالق».

ينبغي على الإنسان أن يسلّم مصيره كله لإرادة الأعلى، للخالق، كما جاء في هذه الصلاة:

«يا رب أنت تعرف أين الخير، فليكن كل شيء وفق مشيئتك. أعطِ ما تشاء، وقدر ما تشاء، وحينما تشاء. اصنع معي ما تراه حكمتك الأصلح، وما يخدم عظمة مجدك. ضعني حيث تفضّل، في المكان الذي تكرّمه، وقدني في طرقاتي كلها حسب ارادتك.. فهل يمكن أن يقع مكروه عندما تكون معي؟ انا افضّل أن أكون فقيراً معدماً من أجلك، وألاّ أكون ثرياً من أجل غيرك، فلأكن معك متشرّداً في الأرض لا منزل لي، ولا اريد أن أمتلك السماء بعيداً عنك. فحيث أنت هناك المملكة السماوية، وحيث لا وجود لك هناك الموت والجحيم الناري».

خاتمة

يمكننا طبعاً أن نضع خاتمة في عدَّة صفحات. ولكننا مع ذلك لن نستطيع أن نعبِّر عمَّا تعبِّر عنه الأمثولة الآتية.

تقول الأمثولة: عاش في الأرض إنسان بأفراحه وأحزانه، بإخلاصه وغدره، بمحبَّته وكرهه. وعرف هذا في حياته كل شيء: الخير والشرَّ، والفرح والألم، والغبطة والضنَّى. وعندما انتهت طريقه في الحياة الدنيا، أخذه الرَّبُّ إليه. وأثناء استقباله له، منحه إمكانية أن يرى طريق حياته التي قطعها كالآثار الباقية على الرمال. وهناك على الرمال رأى الإنسان آثار اثنين: آثاره هو وآثار الرَّبِّ الإله. لكنَّه لاحظ أن بعض الأماكن، وهي اللحظات التي كانت أقسى لحظات حياته وأكثرها مراراً، لا تحمل سوى آثار واحد فقط. ولمَّا لم يدرك الإنسان لماذا تركه الرب في أصعب أوقات حياته، سأله عن ذلك؛ فأجابه الرب: «في أصعب لحظات حياتك كنت أحملك بين يدي».

تذكَّروا هذا جيِّداً ولا تمنعوا الرَّبَّ الإله من أن يحملكم بين يديه.

الفهرس

مقدمة ٥

الباب الأول ٧

الديانات القديمة

الفصل الأول ٩

مكنونات حكمة مصر

الفصل الثاني ٢١

سرُّ آلهة وادي الرّافدين

الفصل الثالث ٣٩

آلهة الإغريق القدماء

الفصل الرابع ٥١

مجْمع آلهة الرُّومان

الفصل الخامس ٦١

السُّلطة السِّرِّيَّة للدرويديين

الفصل السادس ٧٣

هكذا تكلم زرادشت

الفصل السابع ٨٧

سرُّ الإله ميترا

الفصل الثامن ٩١

انتصار مملكة النُّور

الفصل التاسع ٩٧

آلهة السلاف قبل المسيحيَّة

الفصل العاشر ١٠٣

أسرار آلهة الهندوسيَّة

الفصل الحادي عشر ١١٥

كتاب الهندوسيَّة المقدَّس وخلق العالم

الفصل الثاني عشر ١٢٥

الجنَّة وجهنَّم في الهندوسيَّة

الفصل الثالث عشر ١٢٩

ديانة السِّيخ

الباب الثاني ١٣٧

البوذيَّة

الفصل الأول ١٣٩

الهند قبل بوذا

الفصل الثاني ١٤٩

ينابيع البوذيَّة

الفصل الثالث ١٥٥

حياة بوذا

الفصل الرابع ١٧٥

تعاليم بوذا

الفصل الخامس ١٨٩

بوذا والأخلاق

الفصل السادس ٢٠٥

كثرة من «البوذا»

الفصل السابع ٢١٣

التلاميذ والطائفة

الباب الثالث ٢٣٩

الكريشنائيَّة

الباب الرابع ٢٥١
تعاليم جديدة (الأخلاق الحيَّة)
الفصل الأول ٢٥٣
تعاليم جديدة عن الإله
الفصل الثاني ٢٦١
نزوح الأرواح حسب التعاليم الجديدة
الفصل الثالث ٢٦٩
قانون الكارما
الباب الخامس ٢٧٩
الكونفوشيوسيَّة
الفصل الأول ٢٨١
الصِّين قبل كونفوشيوس
الفصل الثاني ٢٨٩
الكونفوشيوسية
الباب السادس ٣٠١
الدَّاوسيَّة
الباب السابع ٣٣١
التوراة والقرآن
الفصل الأول ٣٣٩
إبراهيم (أبرام)
الفصل الثاني ٣٤٧
موسى
الفصل الثالث ٣٥٩
داود و سليمان
الفصل الرابع ٣٦٥
يهوذا و إسرائيل
الفصل الخامس ٣٧٣
بانتظار المخلِّص

الفصل السادس ٣٧٧
حياة يسوع
الفصل السابع ٣٨٩
المسيح المعلِّم
الفصل الثامن ٤١١
المواجهة
الفصل التاسع ٤٢١
الأسبوع الأخير(أسبوع الآلام)
الفصل العاشر ٤٣٩
تعاليم المسيح
الفصل الحادي عشر ٤٥١
الحوَّاريون والكنيسة
الفصل الثاني عشر ٤٧٣
انقسام الكنائس
الفصل الثالث عشر ٤٧٧
البروتستانتية
الفصل الرابع عشر ٤٨٣
الكنيسة الروسية الأرثوذكسية
الفصل الخامس عشر ٤٨٩
سرُّ الجبروت
الفصل السادس عشر ٤٩٥
أصول الإسلام
الفصل السابع عشر ٤٩٩
محمَّد (ص)
الفصل الثامن عشر ٥٠١
رسول الله
الفصل التاسع عشر ٥٠٧
حياة النبي ونضاله
الفصل العشرون ٥٢١
وصايا القرآن

الفصل الحادي والعشرون ٥٤١
القرآن عن القرآن والرسول
الفصل الثاني والعشرون ٥٤٩
الإسلام بعد محمَّد (ص)
الفصل الثالث والعشرون ٥٥٩
المغزى المكنون للديانات
الفصل الرابع والعشرون ٥٨٥
مكنون العقل الكوني والدين
خاتمة ٥٩٣

من منشورات دار علاء الدين

- هرم ستونهينج الافتراضي
أ. فزينوفيف أ. أ. زينوفيف

- رموز ومعجزات
أرنست دوبلهوفر

- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
إ. س. سفينسيسكايا

- سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط
مجموعة من المؤلفين

- أساطير في أصل النار
جيمس فريزر

- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صناديقي

- الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
د. ماجد عبد الله الشمس

- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
س. بريوشينكين

- بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون

- الحضارات القديمة ١-٢
ف. دياكوف - س. كوفاليف

- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
فراس السواح

- الوجه الآخر للمسيح
فراس السواح

- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
فراس السواح

- دين الإنسان
فراس السواح

- لغز عشتار
فراس السواح

- موسوعة تاريخ الأديان ١-٥
فراس السواح

- الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
فضل عبد الله الجثام

- سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة
م. ف. البديل

- معجم الأساطير
ماكس شابيرو، رودا هندريكس

- الميثولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
محمد الخطيب

- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
محمد الخطيب

- الفكر الإغريقي
محمد الخطيب

- المجتمع العربي القديم
محمد الخطيب

- حضارة أوروبا في العصور الوسطى
محمد الخطيب

- ديانة مصر الفرعونية
محمد الخطيب

- هل هبط آدم في القفقاس
محمد عمر بغداي

- الديانة الزرادشتية مزديسنا
نوري إسماعيل

- الديانة الفرعونية
واليس بدج





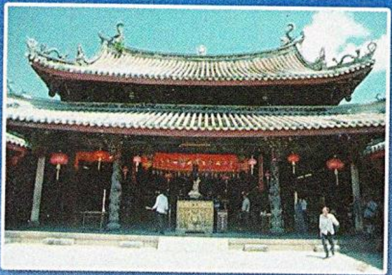
تقول أمثولة:

«عاش في الأرض إنسان بأفراحه وأتراحه، وعرف الخير والشر، والفرح والألم، وعندما انتهت طريقه في الحياة الدنيا، أخذه الرب إليه ومنحه إمكانية أن يرى حياته كلها كالآثار على الرمال، وهناك رأى آثار اثنين: آثاره، وآثار الرب الإله، ولكنه لاحظ أن في بعض الأماكن وهي اللحظات الصعبة في حياته لا تحمل سوى آثار واحد فقط، فسأل الربَّ لماذا تخلى عنه في أصعب أوقات حياته، أجابه الرب: في أصعب لحظات حياتك كنتُ أحملك بين يديّ».





يعد هذا الكتاب موسوعة شاملة تتناول أسرار الديانات التي عرفها الإنسان مستعرضاً تاريخها وجوهرها وتطورها وطقوسها بمنهجية علميَّة دقيقة وبأسلوب فني رشيق.





يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy